
Bibliotheca Alexandrina
0184098

لام العرب

٩٧

الشريف الإدريسي

أشهر جغرافيي العرب والإسلام

بقلم: محمد عبد الغني حسن

الهيئة
المصرية العامة
للتأليف والنشر

أعلام العرب
٩٧

الشريف الإدريسي

أشهر جغرافي العرب والإسلام

بقلم : محمد عبد الغني حسن



الهيئة العامة للتأليف والنشر

١٩٧١

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة لا بد منها

هل نال الادريسى الجغرافى العربى الشهير — حقه فى المكتبة العربية بالدراستين اللتين كتبهما عنه الدكتور حسين مؤنس ، والأستاذ عبد الله كنون ؟

وهل ظفر الادريسى ببعض الحق الذى وجب له فى أعناقنا — نحن العرب — بهذه الأشارات العابرة السريعة فى مقال هنا أو بحث هناك . بدلا من بذل الجهود فى تحقيق كتابه العظيم فى الجغرافية ، وخرائطه الدقيقة فى وصف الأرض ، ومصنفاته الأخرى فى النبات والصيدلة والأدوية ؟

الواقع أننا أغفلنا الادريسى منذ وفاته فى القرن السادس الهجرى ، واسقطه مؤلفو التراجم من حسابهم ، الا فئة قليلة دانت بالوفاء له ، من أمثال العماد الأصبهانى صاحب « خريدة القصر » ، والصفدى صاحب « الوافى بالوفيات » وابن خلدون

فى مقدمته وحاجى خليفة صاحب « كشـــف الظنون » . وحتى هؤلاء الأوفياء لم يوفوا الادريسى حقـــه بالترجمة الـــكاملة والسيرة الشاملة والحياة المفصلة ... ولكنهم ذكروا من أخباره النزرة مالا ينهض برسم صورة دقيقة لهـــذا الرجل الذى كانت الدقة مزيته فى شأنه كله ، حتى وهو ضيف على بلاط الملك روجر الثانى بمدينة بلرم ـــ أو بلارمة كما يسميها الرحالة ابن جبير ـــ فى صقلية ، يتلقى المعارف من أفواه الرسل الثقات الذين أوفدهم روجر الى بقاع مختلفة من الأرض يجمعون المـــادة العلمية ، والبيانات الجغرافية لكتاب « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » الذى ألفه الادريسى العالم العربى المسلم ، برسم الملك روجر الثانى ملك صقلية المسيحى بعد انتزاعها من يد العرب ، فكان خير مثال للتعاون المثمر .

والواقع أن استدعاء روجر الثانى للادريسى ليؤلف له كتابا وثيقا فى الجغرافية ، وليصنع له خريطة صحيحة مضبوطة للأرض هو أكبر شهادة على ما كان للعرب من فـــوق فكرى فى ذلك الزمان .

واذا كانت أوربا قد أفادت من جغرافية الادريسى ، وجعلت كتابه « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » دليلها لعدة قرون ، ومعلمها حتى فيما يتصل بجغرافيتها هى وبأقاليمها ومدنها ... واذا كانت أوربا ـــ ممثلة فى علمائها ورجال الاستشراق فيها ـــ تحاول أن ترد دين الادريسى الذى وجب له فى أعناقها ، فمن حق

الادريسى علينا ـــ ونحن أهله وقبيله ـــ ومن واجبنا نحوه ، أن نجلو من جوانبه المضيئة التى حجبها الزمان ما نحن أولى من غيرنا بفعله ، وأجدر بالنهوض به ...

وفى هذا السبيل ، ومن أجل هذه الغاية كان هذا الكتاب الذى التقت فيه ـــ مرة أخرى بعد كتابى عن جرجى زيدان ـــ رغبتى ورغبة « الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر » ، فكان لقاء على الوفاء والانصاف ، والتقاء على هدف أرجو أن يكون فيه للقارىء خير كثير ، وأن يكون فيه للشريف الادريسى بعض التكريم والتقدير . وبالله التوفيق .

القاهرة سنة ١٩٧١ محمد عبد الغنى حسن

موجز حياة

● على الرغم من الاهتمام الـكبير الذى أبداه الباحثون نحو الشريف الادريسى ، وعلى الرغم مما طبع وترجم من كتابه «نزهة المشتاق ، فى اختراق الآفاق» ، وعلى الرغم من الدراسات الكثيرة لنواح متعددة من كتابه الكبير ، ومشاركاته فى الجغرافية وعمل الخرائط — فان حياته وتفصيلاتها ومعلوماتنا عنه لاتزال قليلة جدا ، وغير متكافئة مع القيمة العلمية لهذا الرجل . وقد يكون اغفال المؤرخين العرب والمسلمين له — لأسباب تجدها فى موضـع آخر من هذا الكتاب — سـببا فى ضآلة البيانات والمعلومات التى وصلت الينا عن حياته .

وأول ما تتجه اليه هنـا هو اسـمه . وقد أورده المؤرخ الصفدى فى كتاب « الواف بالوفيات » هكذا : محمد بن محمد ابن عبد الله بن ادريس بن يحيى بن على بن حمود بن ميمون بن

أحمد بن على بن عبيد الله بن عمر بن ادريس بن الحسن ، بن الحسن بن على بن أبى طالب . فهو اذن حسنى علوى . ومن هنا جاء تلقيبه «بالشريف» ، كما جاء تلقيبه «بالادريسي» نسبة الى جده الأعلى ادريس (١) . وتصادفنا فى مقدمة ابن خلدون نسبته « بالحمودى » ، وهى نسبة لم نجدها عنـد غير ابن خلدون ، وهى نسبة الى جده (حمود) الذى تنسب اليه دولة بنى حمود بالأندلس الذين حكموا مالقة سنة ٤٠٧ هـ ، وحكموا الجزيرة سنة ٤٣١ هـ ، وهم ملوك الطوائف الأدارسة فى العهد الأول . وقد لقب الادريسى أيضا «بالشريف الصقلى» نسبة الى صقلية التى أقام فيها منذ أن استدعاه الملك روجر الثانى اليه . وكان قد توهم مرة أن الادريسى « نوبى » ، واستمرت تسميته باسم النوبى زمنا غير قصير . وقد جاء الخطأ فى هـذه التسمية من العالمين المارونيين : حنا الحصرونى وجبرييل الصهيونى اللذين ترجما كتابه الى اللاتينية سنة ١٦١٩ تحت عنـوان (جغرافية النوبى) ، لأنه وهو يتحدث عن النيل فى « نزهة المشتاق » قرأ المترجمان لفظة « أرضنا » بدلا من « أرضها » أى أرض النوبة، فتوهم الرجلان أن الرجل نوبى الأصل ، ووضعا اسم «النوبى» على عنوان كتابه . أما تسمية الشريف الادريسى «بابن الثيرى» — كما جاء فى خريدة العمادالأصبهانى — فقد أوردها«زيبولد»

(١) هو ادريس الاول بن عبد الله بن الحسن الذى أسس دولة الادارسة بالمغرب ومات مسموما سنة ١٧٧ هـ بتحريض من الخليفة هارون الرشيد .

فى ترجمة للادريسى فى دائرة المعارف الاسلامية وقال انه لا يعلم عنها شيئا ، ولكن الدكتور حسين مؤنس صحح أخيرا هذا الخطأ الذى يرجع الى اضطراب فى أوراق مخطوطة الخريدة فدخلت ترجمة ابن الثيرى فى ترجمة الادريسى (١) . أما تسمية الادريسى « بالقرطبى » فقد يكون صحيحا لأن الرجل قد دخل قرطبة وأقام بها أو عرفها معرفة وثيقة ، وتحدث عنها فى كتابه المشهور .

* ولد الأدريسى بمدينة « سبتة » المغربية سنة ٤٩٣ هـ ١١٠٠ م ، ولا يعلم شىء عن أحواله فى تلك المدينة ولا عن نشأته فيها ، ولا عن الشيوخ الذين تلقى عنهم . ولكن المعروف أنه رحل الى قرطبة وتلقى العلم فيها حيث كانت من أكبر مراكز الثقافة العربية الاسلامية . وقد أتاح له مقامه بقرطبة أن يجعل منها نقطة انطلاق لجولات كثيرة فى الأندلس، كما أتاحت له اقامته فى « سبتة » أن يجعل منها رحلاته الى بلاد المغرب التى يصفها وصف الخبير . على أن حديثه عن لشبونة وسواحل فرنسا وانجلترة الجنوبية يحمل على الاعتقاد بأنه زار تلك الجهات ، ففى وصفه لحصن المعدن قبالة لشبونة يقول : (وقد رأيناه عيانا . (٢) ورحلات الادريسى الى غير المغرب والأندلس وصقلية

(١) صحيفة معهد الدراسات الاسلامية فى مدريد المجلدان ٩ ، ١٠ ص٢٨٢

(٢) الحلل السندسية : الامير شكيب ارسلان جـ ١ ص ٩٢ ، وفيه نص القسم الخاص بالاندلس من كتاب نزهة المشتاق للادريسى .

تحتاج الى كثير من التحقيق . فقد قيل انه زار آسيا الصغرى ، كما قيل انه زار فرنسا وانجلترة . أما رحلته الى آسيا الصغرى فقد أشار اليها كراتشكوفسكى وذكر أنها كانت سنة ٥١٠ هـ — سنة ١١١٦ م حين لم يتجاوز السادسة عشرة من عمره . وهى كلها استنتاجات لم تؤيد بعد بالأدلة القاطعة . أما أوصافه لبلاد آسيا وافريقية غير ما ذكرناه فلم تكن نتيجة أسفار قام بها ولكن نتيجة قراءاته للكتب التى ذكر بعضها فى مقدمته لكتاب « نزهة المشتاق » .

* وفى حدود سنة ٥٣٣ هـ — سنة ١١٣٨ م [1] دخل الادريسى صقلية بدعوة من الملك روجر الثانى . وفى فصل من كتابنا هذا ذكر لظروف هذه الدعوة وكيفيتها . وفى خلال اقامته قريبا من بلاط هذا الملك الذى كان يشجع العلم والعلماء ، صنع الكرة الأرضية الفضية ، والخرائط والمصورات ، وألف كتابه « نزهة المشتاق » الذى كان بتكليف من روجر حتى ليسمى هذا بالكتاب الروجارى ، أو كتاب روجار ، نسبة الى الملك روجر الذى كتب له وألف برسمه .

وفى فصل خاص من كتابنا هذا حديث عن كتاب « نزهة

(١) ذكر الدكتور جمال زكريا قاسم ان الادريسى اقام فى صقلية فى الفترة من سنة ١١٠٠ م — ١١٦٦ م ، وهذا وهم كبير لان هذين التاريخين هما ميلاد الادريسى ووفاته . اما دخوله صقلية فكان فى سنة ١١٣٨ أى بعد ثمانية وثلاثين عاما من مولده .

المشتاق » وطريقة تأليف مادته ، وطبعاته العربية منذ أقدم طبعاته فى القرن السادس عشر الميلادى ، وترجماته الى عدد من اللغات الأجنبية ، وتقدير العلماء له وآرائهم المنصفة فيه . وقد انتهى الأدريسى من تأليف كتابه هذا فى سنة ٥٤٨ هـ ـــ سنة ١١٥٤ م. ومعنى هذا أنه أنجزه فى خمسة عشر عاما ، وهى فترة غير كثيرة على كتاب جمعت مادته الوافرة عن الأقطار والأصقاع بوساطة رسل أرسلهم روجر والأدريسى لتحصيل المعلومات ، وجمع البيانات ، حتى تكون الأوصاف عن معاينة لا عن نقل عن الكتب . ويشير الادريسى نفسه فى مقدمة «نزهة المشتاق» الى تاريخ الانتهاء منه .

* وقد بقى الأدريسى مقربا من الملك روجر الثانى منذ اتصاله به سنة ١١٣٨ م الى وفاة الملك سنة ١١٥٤ م نتيجة لمرض عضال كان ميئوسا من شفائه منه ، فلما أعقبه خليفته وولده « غليالم » الأول خشى الأدريسى أن تتأثر مكانته فى البلاط ، وصاحبته فترة من القلق . ويبدو أن هذا القلق قد تبدد حينما صنف الأدريسى للملك غليالم الأول كتابا عنوانه « روض الانس ، ونزهة النفس » ، وهو كتاب فى الجغرافية كما سنذكره فى فصل خاص من كتابنا هذا . ولا ندرى لماذا اختص الادريسى هذا الخليفة لروجر الثانى بكتاب آخر فى الجغرافية غير كتابه الكبير نزهة المشتاق الذى ألفه برسم والده وبتكليف منه ؟ قد

يكون هذا من باب التقرب الى الحاكم الجديد ، ولكن يظهر انه لم يطل مقامه فى صقلية بعد وفاة راعيه روجر الثانى . وان كانت معلوماتنا فى هذا الصدد غير متيقنة ولا متبينة . وعلى كل حال فالراجح أنه غادر صقلية الى سبتة (١) مسقط رأسه بعد بضع سنوات من وفاة روجر الثانى ، وظل فى سبتة فى ظروف لا نعلم عنها شيئا الى أن توفى سنة سنة ٥٦٠ هـ ـــ سنة ١١٦٥م، لا سنة ١١٦٠ م كما جاء خطأ فى كتاب « تاريخ الأدب الجغرافى العربى » للمستشرق الروسى أغناطيوس كراتشوفسكى . وقد حققنا ميلاد الادريسى ووفاته ـ مكانا وتاريخا ـ فى فصل خاص من كتابنا هذا .

● وعلى الرغم من المكانة التى كان يتمتع بها الادريسى فى مجال العلوم الجغرافية ورسم الخرائط والرحلات ، فقد كان للرجل نواح أخرى تؤكد تعدد ألوان ثقافاته وميوله . فقد كان له اهتمام بالصيدلة والنباتات والطب ، وان كان لم يبلغ فيهما ما بلغه فى الميدان الجغرافى . وقد تحدثنا فى فصل آخر من كتابنا هذا عن مؤلفات الادريسى الأخرى فى غير ذلك الميدان الذى اشتهر به .

وليس غريبا أن يجمع الادريسى الى ذلك ذوقا فى الأدب ،

---

(١) هناك رأى بأن الادريسى لم يبرح صقلية الى سبتة ، وأنه توفى فى صقلية . انظر الفصل الذى عنوانه « تحقيق الميلاد والوفاة » من كتابنا هذا .

وظرفا فى الحديث ، وأصالة طبع فى الشـــعر . وقد روى له صلاح الدين الصفدى المؤرخ الأديب المشهور والمتـوفى سـنة ٧٦٤ هـ . بعض نماذج من شعره . وعلق عليهـا بقوله فى نهاية روايته لها : (هذا شعر جيد) . وهذه الشهادة من أديب شاعر متذوق نقادة كالصفدى ، لها قيمتها فى تقدير الادريسى فى ناحية الأدب والشعر الذى كنا نود لو تسعفنا الحظوظ بالاطلاع على قدر كبير منه لو كان له فى الوجود وجود ..

● وللادريسى غير كتابه المشهور « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » مؤلفات أخرى شارك بها فى ميدان علم الجغرافية أيضا، والنبات ، والصيدلة ، والذى نعرفه منهـا : « روض الأنس ، ونزهة النفس » الذى يعرف باسم الممالك والمسالك ، وكتـاب « روض الفرج ، ونزهة المهج » وهو تلخيص لكتاب روض الأنس السابق ذكره ، وقيل انه مختصر لكتابه « نزهة المشـتاق » ، وكتاب « الجامع لصفات أشتات النبات » ومنه نسـخة مصورة فى معهـد المخطوطات بالجامعة العربية عن مخطوطة فى مكتبـة الفاتح باستنبول . وللادريسى كتاب آخر فى « الأدوية المفـردة » ذكره صاحب « عيون الأنباء فى طبقات الأطباء » ويظهر أنه مفقود. وقد خصصنا هذه المؤلفات بفصلين من كتابنا هذا .

صقلية فى عهد الإدريسى

ان قصة دخول العرب والاسلام فى صقلية هى قصـــة من أروع قصص البطولة والتصميم والادارة الحازمة . ولن نتعرض هنا لتفاصيل فتح الجزيرة ، ولكنا نوجز القول فى تملك العـــرب لصقلية وتمام استيلائهم عليها سنة ٢٦٥ هـ ـــ سنة ٨٧٨ م ، وخضوع الجزيرة كلها لهم ٢٦٤ عاما ، الى أن استولى عليها النورمان سنة ١٠٩٠ م ـــ ٤٨٣ هـ بعد عمليات كثيرة ضد العرب. وكانت قلة عدد الجنود النورمانيين وضعف أسطولهم أهم العوامل التى أطالت فترة الفتح النورمانى . ولا حاجة بنا هنا الى التحدث عن حكم العرب لصقلية قرابة قرنين ونصف قرن من الزمان ، ويكفى الرجوع الى ما قاله المستشرقون والأوربيون أنفسهم عن عدالة هذا الحكم وازدهار الجزيرة تحت لوائه . ومن هـؤلاء الشـــهود العدول جوستاف لوبون ، ولويجى رينـــالدى ، ودبيل ، وسيديو ، وآمارى ، وتوفنر .

ولقد دخلت صقلية باستيلاء النورمان عليها سنة ١٠٩٠ م فى ظل عهد جديد ، كان الحكام فيه من النورمان ، وأخذت مقاليد الأمور تنتقل من يد العـــرب المغلوبين الى يد الفاتحين الغـــالبين . وحكم صقلية فى العهد النورمانى أربعة من الملوك ، هم روجر الأول منتزع الجـــزيرة من يد العرب ، وابنـــه روجر الثانى ،

وغليالم الأول وغليالم الثانى الذى انتهى حكمه سنة ٥٨٦ هـ .

ولقد قضت الأقدار أن يدخل الشريف الادريسى صقلية سنة ٥٣٣ هـ — سنة ١١٣٨ م ، أى بعد ما يقرب من أربعين سنة من انتزاعها من يد العرب وسقوطها فى يد النورمان . وقد كان ملكها فى الوقت الذى دخلها فيه الأدريسى الملك روجر الثانى ابن الملك روجر الأول . ولنا مع هذا الملك حديث نرى أن نجمله فى فصل خاص نظرا لعلاقته بالادريسى من ناحية ولعلاقته بتأليف كتاب « نزهة المشتاق » من ناحية أخرى .

ولقد اتخذ الحكام النورمانديون موقفا يتسم بالتسامح الدينى مع رعاياهم المسلمين الذين نزعت الأقدار السلطان من أيديهم ، فتركوا للمسلمين حرية أداء شعائرهم الدينية ، ولم يتعرضوا لهم بسبب تمسكهم بدينهم . ويروى بعض المؤرخين أنهم كانوا لا يأذنون للمسلم أن يرتد عن دينه الاسلام ويدخل فى دين الحاكم المسيحى الجديد .

وعلى الرغم مما بدا من الفاتحين النورمانديين من ملاينة العرب والمسلمين ومحاسنتهم فقد انقسم أهل الجزيرة العرب ازاء هذه الحالة الطارئة عليهم وهذه الهزيمة المقدرة لهم الى قسمين : فآثر جماعة كبيرة منهم أن يرحلوا عن هذه الأرض الاسلامية التى وقعت فى قبضة غير المسلمين ، وأن يغادروها الى أرض اسلامية قريبة منهم لا تكلفهم مؤونة فى السفر ولا مشقة فى الرحلة ، فاختاروا بر العدوة من الشاطىء الأفريقى ورحلوا اليه على

السفن الكثيرة التى كانت لهم ، والتى كانت تزدحم بها شواطىء صـقلية . وأخلد الكثيرون من بقية أهل الجزيرة المسلمين إلى البقاء فيها حتى يقضى الله أمره ، ورضـوا أن لايبرحوا الأرض التى كانت لهم ولآبائهم حوالى ٢٥٠ عاما ، وتوسموا فى حكم النورمان المسالمين رعاية لهم ، وحفاظا عليهم ، وأمنة فى جوارهم وتحت لوائهم ..

وبلغ من محاسنة ملوك النورمان الفاتحين صقلية لأهلها من العرب أنهم فوق اضفائهم الحرية الدينيـة على المسلمين تركوا لهم حرية التمتع بثرواتهم ومتاجرهم ومصانعهم . فلم يصادروهم فى شىء منها ، بل شجعوهم على استثمارها وزيادة التحسين فيها حتى لا يكون هناك فارق بين العهد الاسلامى العربى والعهـد النورمانى . وبلغ من محاسنة ملوك صـقلية من النورمان أنهم تعلموا العـربية كتابة وقراءة ، وتذوقوها ، وكانوا يطـربون لسماع شعرها وأدبها . ولم يقضوا على العربية كمـا كان يظن من الغالبين ، ولكنهم تركوا لها مكان الصدارة فى الاسـتعمال والدواوين ، حتى لقـد كانت براءات ملوكهم تكتب بالعربية واللاتينية واليونانية . وكانت العربية واحـدة من اللغات التى تسك بها نقودهم ، وعليها شارتا الاسلام والنصرانية . وأعجب من هذا أن عبارة « لا اله الا الله محمد رسول الله » كانت توضع على النقـود المضروبة فى العهـد النورماندى ، وبقى الأمراء

الذى خلفوا النورمانيين يضربون نقودهم بالعربية زمنا غير قليل ، وكانت علامة الملك غليام بالعربية : « الحمد لله حق حمده » ، كما يقول الرحالة ابن جبير .

ولم يكن العرب والمسلمون فى عصر الفتح النورمانى منبوذين أو مبعدين عن جناب الحكام وكنفهم ، بل كانوا فى موطن القرابة ، وموضع الكرامة والرعاية ، فظل كثير من حكام المسلمين وقوادهم فى مناصبهم كما كان عليه العهد فى أيام الحكم العربى . وظلت موارد التجارة فى يد العرب ، كما كان كبار رجال الأعمال فى الجزيرة منهم .

والواقع أن معاملة الفاتحين النورمان لأهل المدن من صقلية كانت غير معاملتهم للفلاحين الذين يكدحون فى الأرض . فقد حدث فى « قطانية » أن روجر حين تغلب عليها استرق أهلها المسلمين وجعلها اقطاعا لرجل من رجال الدين المسيحى . ومن هنا جاءت الفروق الصارخة بين حرية أهل المدن من المسلمين ، وعبودية الفلاحين منهم . ولكن بعض مظاهر الحياة الاسلامية ظلت على عهدها القديم فى خلال الحكم النورمانى ، وبقى للمسلمين فى الجزيرة الشيخ والحاكم والقاضى ، والقائد ، وكان المسلمون — وخاصة فى الجمع والأعياد — يخرجون الى المصلى ومعهم صاحب أحكامهم .

واذا كانت الحرية مختلفة التطبيق بين أهل المدن وأهل الفلاحة من المسلمين الخاضعين لحكم النورمان ، فأن هناك فى روايات مختلفة لمؤرخ واحد أو رحالة واحد مسلم كابن جبير ما قد يشعر بأن هناك تباينا أو تناقضا فيما يقوله هذا الرحالة فى رحلته الى صقلية بعد غزو النورمان لها بقرابة تسعين عاما . فقد ذكر ابن جبير بأنه شاهد فى بعض مواطن الجزيرة قوما يخافتون فى أداء العبادة (١) ولا يستطيعون الجهر بأنهم مسلمون، على حين أنه ذكر فى موضع آخر من رحلته أن المسلمين فى « بلرم » يعمرون أكثر مساجدهم ، ويقيمون الصلاة بأذان مسموع (٢) . فلا معنى اذن للمخافتة بالعبادة . والحق أنه لم يكن هناك تناقض فى كلام ابن جبير ، فالمسلمون القريبون من مكان الملك وحمايته يتمتعون بالحرية التامة ، وكذلك المسلمون حين يكثر عددهم فى مكان أو مدينة . أما حين تبعد حماية الملك ، وحين يصبح المسلمون قلة قليلة فى بعض الأماكن مثل « مسينة » فهم أقلية يلجأون الى الحذر والخوف مما يثير عليهم سخط الأكثرية من المسيحيين .

ولقد كانت الحضارة العربية الاسلامية غالبة على جزيرة صقلية فى ظل الحكم النورمانى ، وفى ظل هذه الحضارة ألفى

---

(١) رحلة ابن جبير ، ص ٣١ ، ٣١٦ — تحقيق حسين نصار .
(٢) رحلة ابن جبير ص ٣٢٠ ، وص ٣٢٢ .

روجر الأول ومن جاءوا بعده أنفسهم مغمورين بطابع عربي غالب لم يستطيعوا الفكاك منه . والواقع أنهم بهروا بهذه الحضارة فأحبوا أن يتفيأوا ظلالها ، وأن يعيشوا فى كنف نفوذها وسلطانها الروحى ، على حين كانت عصا السلطان فى أيديهم . وغالى ملوك صقلية من النورمان فى التشبث بحضارة العرب فى صقلية والتعلق بها ، وخاصة الملك روجر الثانى الذى جعل بلاطه شبيها ببلاط الأمراء المسلمين . فاستكثر ــ كما يقول ابن الأثير المؤرخ ــ(١) من الجنائب والحجاب والسلاحية والجاندارية وغيرها ، وخالف عادة الفرنج فانهم لايعرفون شيئا منها . وبرزت فى عهد الحكم النورمانى الجديد وفى ظل الادارة الجديدة أنواع من الدواوين التى هى امتداد للديوان العربى الاسلامى ، فكان هناك ديوان المظالم الذى اتخذه الملك عن نظام الدواوين الاسلامية . وكان أصحاب المظالم يرفعون شكاواهم اليه فيجدون النصفة ولو من ابن الملك نفسه . وكان هذا الديوان مظهر من مظاهر العدالة وتطبيقاتها السليمة فى بلد انسلخ من الحكم العربي ليقع فى قبضة حكم مسيحى جديد . وكان هناك ديوان الطراز الذى اشتهر بصنع أردية جميلة من الحرير ، وكانت تزخرف منتجاته بزخارف عربية اسلامية . وكان الملك روجر سعيدا بأن يضع

---

(١) الكامل : ابن الاثير جـ ٨ ص ١٥٩ .

على كتفيه عباءة من صنع هـذا الديوان . أما ديوان التحقيق المعمور. فكان يهتم بالأرض الزراعية وتوابعها من الأرقاء .

ولم يكن من الغريب أن يسود التسامح أرجاء صقلية كلها لأن ملوكها من النورمان كانوا يحبون الهدوء والتسامح ، وان كانت قد قامت فى العهد النورمانى بعض حوادث الشغب التى راح ضحيتها عدد من المسلمين . ولكنها حوادث لم يكن بد منها فى بلد له ظروفه الخاصة .

أما الحركة الثقافية فى صقلية خلال الحكم النورمانى فقـد بدأت بداية تبشر بالخير . ولقد شهد الشريف الأدريسى نفسـه كيف كان الملك روجر الثـانى ذا معرفة بالعلوم الرياضـية والعملية ، وأنه كان له فى مخترعات العلم مشاركات وابتداعات غريبة . وشجع الملك العالم حركة العلم فى الجزيرة فأخذ يستحضر اليها الكتب العربية واليونانية مهما كانت أثمانها . ووجد العلماء فى كنف الملك حماية ورعاية وتشـجيعا . وكان هو لا يسمع بعالم — عربى أو غير عربى — الا استقدمه الى جنابه وأفاد من علمه . وكثر الأطباء والمنجمون فى عهده فأجزل لهم العطايا وشجعهم على أبحاثهم . ومن هؤلاء العلماء العرب كان «الشريف الادريسى » الذى استقدمه الملك روجر الثانى وأدناه منه حتى كان من اسهامه فى علم الجغرافية وعمل الخرائط ما سنوضحه فى فصل مقبل .

الملك روجر الصقلي

كان أول ملوك النورمان الذين انتزعوا صقلية من يد العرب فى القرن الخامس الهجرى الملك رجار ، أو روجر الأول ، ثم جاء بعده ابنه روجر الثانى الذى استقدم الشريف الادريسى الى بلاطه ، ويعنينا الحديث عن هذا الملك المسيحى الذى حاسن العرب الذين أصبحوا رعاياه المسلمين ولاطفهم الى أبعد الحدود. وتجمع المصادر العربية وغير العربية على الثناء على هذا الرجل. ويحدثنا الشريف الأدريسى نفسه عن الملك روجر فى كتابه « نزهة المشتاق » قائلا : (ولما صار أمرها — أى صقلية — أليه ، واستقر بها سرير ملكه ، نشر سيرة العدل فى أهلها ، وأقرهم على أديانهم وشرائعهم ، وأمنهم فى أنفسهم وأموالهم وأهليهم وذراريهم) . ولم يسلم روجر الثانى من نقد نظامه الأقطاعى الذى أحدث انقلابا فى حياة أهل الجزيرة من العرب والمسلمين . ويؤكد لنا هذا ما قاله المؤرخ ابن الأثير عنه فى كتابه

الكامل : (وأسكنهـا الروم والفرنج مع المسلمين ، ولم يترك لأحد من أهلها حماما ولا دكانا ولا طاحونا ولا فرنا) [1] وقد يكون هذا حدث في الريف لا في المدن التي ضمنت فيهـا حرية المسلمين .

وقد ترك لنا الأديب المؤرخ صلاح الدين الصفدى فى كتابه العظيم « الوافى بالوفيات » صورة جميلة للملك روجر الثـانى الصقلى لا بأس من ايرادها هنا حيث يقول فى ترجمته : (رجار ملك الفرنج صاحب صقلية هلك بالخوانيق سنة ثمان وأربعين وخمسمائة . ويقال فيه : أجار ، بهمزة بدل الراء وجيم مشددة ، وبعد الألف راء . كان فيه محبة لأهل العلوم الفلسفية . وهـو الذى استقدم اليه الشريف الأدريسى صاحب كتـاب « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » من العدوة ليصنع له شيئا فى شكل صورة العالم . فلما وصل اليه أكرم نزله ، وبالغ فى تعظيمـه ، فطلب منه شيئا من المعادن ليصنع منه ما يريد . فحمـل اليه من الفضة الحجر وزن أربعمائة ألف درهم ، فصنع منهـا دوائر كهيئة الأفلاك ، وركب بعضا على بعض ، ثم شـكلها له على الوضع المخصوص ، فأعجب بها رجار ، ودخـل فى ذلك ثلث الفضة وأرجح بقليل ، وفضـل له ما يقارب الثلثين ، فتركه له أجازة ، وأضاف لذلك مائة ألف درهم ، ومركبا موسقا كان قد

(1) الكامل لابن الاثير جـ ٨ ص ١٥٦ فى حوادث سنة ٤٨٤ هـ .

جاء اليه من برشـلونة بأنواع الأجـلاب الرومية التى تجلب للملوك ، وسأله المقام عنده قائلا : ومتى كنت فى بلاد المسلمين لاتأمن ملوكهم على نفسك ، ومتى كنت عنـدى أمنت على نفسك ، فأجابه الىذلك ، ورتب له كفاية لاتكون الا للملوك ، وكان يجيء اليه راكب بغلة فاذا صار عنـده يتنحى له عن مجلسه فيأبي ، فيجلسان معا ..) وقد أعجب كراتشكوفسكى بهذا النص المنقول عن « الوافى بالوفيـات » للصفدى ، فنقله فى كتـابه « تاريخ الأدب الجغرافى العربى » ، كما نقل المرحوم محمد كرد على شطرا منه فى كتابه « الاسـلام والحضارة العربية » حـ ١ ص ٢٦٨ ، ثم عاد فنقله كاملا فى كتـابه « كنوز الأجداد » ص ٣٨٤ وهو يترجم للمؤرخ صلاح الدين الصفدى ترجمة وافية .

وقد بلغ من محاسنة الملك روجر الثانى للمسلمين من رعاياه أنه اتهم من قبل قومه بأنه اعتنق الاسـلام ودان به ، فقد كان غريبا من ملك مسيحى متغلب أبوه على العرب فى صـقلية أن يتخذ هذا الموقف المسالم المـلاين من رعيته العربية المسـلمة ، وأن لا يجعل لرؤساء الدين من قومه النصارى سبيلا الى التحكم فى المسلمين والتسلط عليهم . ومن هنا جاءت التهمة بأنه تحول الى الاسلام . وقد ردد تهمة اعتناق روجر الثـانى الاسلام أكثر من مؤرخ أجنبى ، حتى أن المؤرخ « كروثر جوردون » وهـو يحرر المادة الخاصة بصقلية فى دائرة المعارف الاسـلامية أشار الى تسـامح روجر مع رعاياه المسـلمين قائلا : (.. بل نعموا

ـ يعنى المسلمين ـ أيضا بحماية روجر حماية كاملة . ذلك أن روجر لم يكن متحزبا فى مسيحيته ،ثم انه شجع هؤلاء المسلمين على أن ينموا مواهبهم ، ان لم يكن قد شجعهم على أن ينشروا دينهم . بل لقد اتهم هو نفسه بأنه مسلم . ذلك بأن روجر كان رجلا غير مثقف ، واذ رأى بعينيه اللتين لم تظلهما غشاوة التعصب عبقرية العرب العظيمة أبى أن يقتل روح هذه العظمة، فمنح المسلمين الحرية التامة فى ممارسة شعائر دينهم ، بل حرم على المسيحيين أن يبشروا بدينهم بين العرب . كما خفف من وطأة النظام الاقطاعى النورمندى على المسلمين ، وأخذ بنظام الأدارة الاسلامى) . والحمد لله الذى جعل روجر الثانى رجلا غير مثقف ، كما يقول واحد من قومه ! والا لأصلى المسلمين والعرب نارا حامية بثقافته المتعصبة . وقد يكون عدم الثقافة نعمة فى مثل هذه الحالة ! والا فماذا كانت تكون حال الرعايا المسلمين من أهل صقلية لو رزقوا بحاكم غير مسلم ومثقف ومتعصب ؟

والحق أن العرب فى صقلية قد نعموا فى عهد روجر الثانى بحكم عادل متسامح . فلم يشعروا فى أكثر أحوالهم بخوف ولا قلق ، بل كانوا هم والنصارى على قدم المساواة فى المعاملة. ويؤكد المؤرخون أن روجر الثانى أبقى على الموظفين والعمال المسلمين وأبقاهم فى مناصبهم وفى مواقع أعمالهم التى كانوا يمارسونها قبل الفتح النورمندى ، فظلوا يعملون وينتجون فى

أمان تحت امرته . ويقال ان معظم تجار بلرم (١) فى أثنـاء الحكم النورمندى كانوا من المسلمين .

وتهمنا هنا شهادة مؤرخ مسلم كبير هو ابن الأثير المتوفى سنة ٦٣٠ هـ وصاحب كتاب « الكامل » ، فقد كان غير بعيد العهد من الأحداث التى مرت بالعرب والمسلمين فى صقلية ، فحين تحدث عن رجار الأول الذى انتزع صقلية من يد العرب أشار الى أنه لم يتـرك لأحـد من أهلها المسـلمين حمـاما ولا دكانا ولا طاحونا ، ولكنه حين تحدث عن ولده وخليفته روجر الثانى قال عنه : (وجعل له ديوان المظالم ترفع اليه شكوى المظلومين فينصفهم ولو من ولده ، وأكرم المسلمين وقربهم ، ومنع عنهم الفرنج فأحبوه) (٢) .والحق أنه لولا هـــذه الرعاية والحماية للعرب والمسلمين من روجر الثانى ، ولولا أنه بسط عليهم ظل أمنه لأصبحت حياتهم فى الجزيرة بعد ضياعها من أيديهم جحيما لايطاق . وقريب من شـــهادة ابن الأثير فى كتابه « الكامل » شهادة مؤرخ مسلم آخر هو ابن كثير الدمشقى المتـوفى سـنة ٧٧٤ هـ فى كتابه « البداية والنهاية » فهو يقول فى حوادث سنة ٤٨٤ هـ : (وفيها ملكت الفرنج مدينة صقلية من بلاد المغـرب ومات ملكهم فقام ولده ـــ يعنى روجر الثانى ـــ مقامه فسار

(١) هى بالافرنجية Palermo وهى عاصـمة صقلية اليوم واكبر مدنها وموانيها .

(٢) الكامل : ابن الاثير جـ ٨ ص ١٥٦ .

فى الناس سيرة ملوك المسلمين حتى كأنه منهم ..) (١) وعبارة حتى كأنه منهم ، توحى لنا بمااتهم به روجر الثانى من اعتناقه الاسلام .

والاشارة من المؤرخ كروثر جوردون الى أن الملك روجر الثانى كان رجلا غير مثقف هى اشارة غريبة الى رجل كان موقفه من العلم والعلماء موضع اعجاب المؤرخين جميعا . فكيف يتأتى لهذا الرجل غير المثقف ــ فى نظر جوردون ــ أن يحشد فى بلاطه العلماء من كل لون ، وأن يمدهم بكل ما يسهل لهم أسباب البحث ؟ وأن ينفق عليهم الأموال ولا يضن عليهم بنوع من المعونة لانجاز بحوثهم ؟ وموقفه مع الأدريسى ورواية الأدريسى عنه وعن بلاطه تؤكد لنا هذه العقلية الواعية الحريصة على نشر الثقافة . فقد كان روجر حريصا على مجالسة العلماء والمحادثة معهم فيما يعنيه من أمور العلم والمعرفة . وليس هذا شأن الرجل غير المثقف . فأن الثقافة سلوك قبل أن تكون دراسة منتظمة فى مدرسة . وقد يكون روجر الثانى حرم من التثقيف المدرسى المنظم ، ولكنه كان مثقفا بعقليته وذهنيته ومساعيه لنشر المعرفة . ويكفيه شهادة الصفدى له بأنه كان محبا لأهل العلوم الفلسفية . والفلسفة علم لايحبه العوام غير المثقفين من الملوك والحكام . ويبدو أن روجر الثانى كان من النوع الذى

---

(١) البداية والنهاية : ابن كثير . جـ ١٢ ص ١٣٨ .

يثقف نفسه بنفسه . على أن تشجيعه للعلم والعلماء لم يقف عند حد العلوم الفلسفية وحدها ، فقد كان يشجع الطب والأطباء ولعل الأدريسى قد صنف كتاب (الأدوية المفردة) برسمه [1] ، كما كان له اهتمامات بالفلك وهوى بالغ له (فوجد فى الأدريسى خير معين له على أشباع رغبته من ذلك العلم) كما يقول بالنثيا فى كتابه « تاريخ الفكر الأندلسى » .

ويؤكد لنا المستشرق ميلر أن بلاط الملك روجر الثانى كان ملتقى الحضارتين وموئلا للحرية العلمية فى القرن الثانى عشر الميلادى ، كما يذكره الدكتور نقولا زيادة فى كتابه « رواد الشرق العربى » .

والحق أن الملك روجر الثانى قد لقى من مؤرخى العرب والمسلمين تقديرا عظيما ، وكانت الصورة التى صوره بها الشريف الأدريسى نفسه فى كتابه « نزهة المشتاق » والصورة التى صوره بها فى ايجاز المؤرخان ابن الأثير وابن كثير ، واللوحة البيانية التى صوره بها الأديب المؤرخ صلاح الدين الصفدى هى المنابع التى استقى منها الباحثون بعد ذلك ماكتبوه عن روجر الثانى ، فنرى المرحوم الشيخ عبد المتعال الصعيدى يصف هذا الملك بأنه كان معجبا بحضارة المسلمين مولعا بثقافتهم،

---

(١) وان كان يقال في رواية أخرى انه ألفه برسم ولده غليالم الأول .

محبا لعاداتهم ، حتى انه كان يلبس ملابسهم ، وكان رداؤه يطرز بحروف عربية .. ووجد الأدريسى من رعاية هذا الملك المسيحى ماساعده على نشاطه .

ونرى المرحوم محمد كرد على يصفه بأنه جعل فى بلاطه الأطباء والمنجمين وأرباب القرائح من المسلمين . واحتفظ بأصول العرب فى الجباية ، وكان يحسن العربية ويحبها . ونرى المرحوم عباس محمود العقاد يصوره بأنه رجل يريد أن يستكمل معارف عصره الجغرافية فلم يجد من يعتمد عليه فى ذلك غير الشريف الأدريسى .

وقد يقال أن رغبة روجر الثانى فى أن تعمل له خريطة باسمه وبرسمه هى رغبة تنعكس فيها رغبات الحكام الشرقيين حين يريدون تخليد أسمائهم بامثال هذه الأعمال . وقد يقال ان روجر الثانى الفرنجى النورماندى قد حاول هنا أن يتشبه بملوك الشرق فى بلاطاتهم ، ولكن ما من شك أنها كانت رغبة رفيعة عالية يغلفها فكر رفيع . والا فانه قد تشبه بملوك العرب والمسلمين فى قصورهم وأبهتهم وأرديتهم وترفهم ، ولكنه مع ذلك تشبه بعقلاء الملوك فى ميلهم الى العلم ، وأخذهم بناصر المعرفة . وهو تشبه يرفع من مقدار تقديرنا لهذا الرجل الذى كسب العلم من ورائه أربح نصيب .

كيف عرف روجر الإدريسي وكيف كان يحترمه ؟

تصادفنا فى تاريخ الشريف الأدريسى مسألة غامضة تحتاج الى جلاء ، ولاتزال تثير كثيرا من الأسئلة حولها ، وهى : كيف عرف الملك روجر الثانى الشريف الأدريسى ، وكيف وصل الى سمعه نبأ ذلك الجغرافى العربى ؟ ومن الذى أخبره به وحدثه عنه فاهتم الملك به واستدعاه اليه واستقدمه الى بلاطه وكلفه انجاز الخريطة المشهورة وكتابه الجغرافى المشهور ؟

ان الذين ترجموا للشريف الأدريسى ذكروا أن الملك روجر الثانى النورمانى ملك صقلية قد استدعى الأدريسى من مقامه فى العدوة بالمغرب لكى يؤلف له كتابا فى الجغرافية . ويصف المستشرق الروسى أغناطيوس كراتشكوفسكى كيف رحل الأدريسى فى ٥٣٣ هـ — سنة ١١٣٨ م الى جزيرة صقلية وعبر اليها البحر فى ظروف يشوبها الغموض . ومما جعل هذه الرحلة

غامضة مكتنفة بالظلام الذى يحتاج الى تنوير أن أحدا ــ حتى ولا الأدريسى نفسه ــ لم يقل لنا كيف غادر الأدريسى العدوة الغربية ميمما وجهه شطر صقلية التى كانت فى يد النورمان وتحت سلطان ملكهـا روجر الثانى ، وهو ثانى الفاتحين لهـا من النورمنديين ؟ لقد كان معقولا أن يغادر صقلية أهلها من العرب والمسلمين التماسا للخروج من سلطان حاكم نصرانى قد يسىء معاملتهم ، وقد يتعصب عليهم ، وفرارا من حكم غير مسلم لاتؤمن غوائله وقد يتغير فيه الأمر من حاكم الى حاكم تبعا لرأيه الخاص فى معاملة رعاياه من المسلمين . وهـذا هو الذى حدث فعلا ــ كما أسلفنا القول ــ فأن كثيرا من العرب والمسلمين غادروا جزيرة صقلية فى خلال الفتح النورماندى قاصدين الى بر العدوة من الشـاطىء الأفريقى على السفن الكثيرة التى كانت لهم . وكانت مغادرتهم فى أول الفتح كثيرة ومتتاليـة هـربا من حكم جديد غريب لا يعلمون مدى عواقبه ، ولكنها أخذت بعد ذلك تقل شيئا فشيئا .

ومهما كان الأمر فان من غير المعقول أن يفـد عربى مسلم الى جزيرة أصبحت محكومة بملوك غير مسلمين . ولهـذا نحار فى تعليل السر الذى حدا بالشريف الأدريسى الي الاتجاه الى صقلية وظروفها هى ما نعلمه .

وهنا يطفر هذا السؤال : كيف سمع الملك روجر الثـانى

وهو فوق عرشه بصقلية ان هناك في بر العدوة الأفريقى عــالما عربيا من آهل البيت اسمه الشريف الأدريسى ؟ وكيف عرف هذا الملك ــ مهما كان ملما بأخبار الدنيا فى عصره ــ أن هذا العالم العربى له اهتمام بالجغرافية ، وأنه ماهر فى هذا العلم وقادر على التأليف فيه بطريقة تعجب الملك ويرضى عنها ؟ وهل كان للأدريسى قبل استقدام روجر الثانى له مكان بارز فى علم الجغرافية معأنه لم يكن قد سبق له قبل ذلك التأليف فى هذا العلم ؟ وقد يكون استدعاء روجر الثانى للشريف الأدريسى لو كان لهذا الأخــير مشاركة فى التصنيف الجغرافى تجعل الملك النورماندى على علم به . ولكنه لم يؤثر عنه اشــــتهار قبل سفره الى صــقلية بعلم الجغرافية . ولم يذكر لنــــا الشريف الأدريسى فى المقدمة التى وصلت ألينا من كتابه « نزهة المشتاق » ما يشير الى كيفية قيام الصلة بينه وبين روجر الثانى ، ولا كيف اســـــتدعاه الملك الى بلاطه ، ولا كيف عرض عليه تأليف كتاب فى الجغرافية . وكــل ماذكره الشريف الأدريسى عن الملك روجر الثانى قوله عنــه فى المقدمة : (فمن بعض معارفه السنية ، ونزعاته الشريفة العلوية، أنه لما اتسعت أعمال مملكته ، وتزايدت همم أهل دولته ، وأطاعته البلاد الرومية ، ودخل أهلها تحت طاعته وسلطانه ، أحب أن يعرف كيفيــات بلاده حقيقة ، ويقتلها يقينــا وخبرة ، ويعلم حــدودها ومسالكها بر وبحرا ، وفى أى أقليم هى ، وما يخصها من البحار

والخلجان الكائنة بها ، مع معرفة غيرها من البلاد والأقطار ..)

وواضح أن هذا الكلام لا يحل لنا مشكلة التساؤل عن كيفيـة تعرف الأدريسى الى روجر الثانى ، ولا كيفية استدعاء الملك له . لابد أن يكون فى هذا اللقاء ــ أو وراء هذا التلاقى ــ شخص ثالث هو الذى قام بدور الوسيط بين الرجلين ، وهـو الذى ملأ أذن الملك الصقلى بأخبار عن هذا العالم العربى الذى قد يكون عونا لروجر على ما هو فى سبيل القيـام به من اظهار أثر جغرافى خالد يقرن باسمه ، ويقدم برسمه .

ونحن نعلم أن جزيرة صقلية كانت ملجأ لبنى حمود الأدارسة حين انتهت دولتهم فى الأندلس ، وأن بعض أمراء الأدارسة من بنى حمود قد اتخذها له وزرا بعد خروجه من أوطانه . والشريف الأدريسى هو واحد من أبناء هـذه الأسرة العلوية ، وقد كان جده ادريس الثانى أحد ملوك بنى حمود . فلا يستبعد أن يكون هذا الرجل هو الوسيط الذى ربط مابين روجرالثانى والشريف الأدريسى . وهنا يطفر سؤال آخر ؟ هـل كان الأدريسى حين استقدمه روجر الثانى فى « سبتة » بالعـدوة الأفريقية . ثم خرج منها مجيبا دعوة الداعى ؟ أم كان مارا بصقلية فى أحد أسـفاره ورحلاته ، فرفع هذا الوسيط نبأه الى الملك روجر الثانى فاستدعاه هذا الى بلاطه ؟ وسواء أكانت الدعوة أم الاستدعاء من صقلية

الى الشريف فى وطنه العربى المغربى أم وهو على أرض صقلية، فأن الدعوة قد تمت فعلا والتقى الرجلان .

ويسوقنا هذا الى مسألة خطيرة أثارها المستشرق البولندى لفيتسكى Lewicki وهى أن اهتمام روجر الثانى بالشريف الأدريسى لم يكن بسبب علمه بالجغرافية ، وأنما بسبب شخصه كعضو من بيت الأدارسة المندثر فى الأندلس يمكن أن تقوم فى نفسه مطالبة بالعرش . فاستغل روجر هذه الشخصية التى قد تنفعه يوما ما فى تحقيق أهدافه فى غزو الأندلس ليتكىء عليـه ، ويستند اليه ، ويتخذه ذريعة للغزو الذى كان يحلم به لاشـباع غرضه فى التوسع غربى « البحر الأبيض المتوسط » (١) ، بعد أن دان له جزء لا بأس به من شرقى البحر . ولا نعـلم أحـدا غير ليفيتسكى قد أثار هذه القضية الغريبة . ولعلنا تتساءل : لماذا لم يمض روجر الثانى فى تحقيق هدفه الذى زعمه هذا المستشرق البولندى ؟ وما الذى صرفه عن اسـتغلال الناحية السياسية فى الشريف الأدريسى واللعب بهذه الورقة التى كان يظنها رابحة ، الى استغلال الناحية العلمية عنـد الأدريسى . ولا تذكر الدوائر المعاصرة لروجر الثانى شيئا عن هذا الافتراض المزعوم . ويعلل ليفتيسكى وجهة نظره فى هذا الافتراض بأن مكانة الأدريسى لم تكن قد تقررت بعد كعالم جغرافى حتى يستدعيه الملك النرمندى

(١) اسمه الصحيح : البحر المتوسط ، وكان يسمى قديما بحر الروم .

للمشاركة فى اقامة صرح لعلم الجغرافية تحت رعايته ، بل انه لم يكن قد اشتهر يومئذ كرحالة وجواب أقطار . ومهما كان من أمر هذا الاستدعاء الذى لم تعرف الى الآن بواعثه الحقيقية ولا كيفيته، فأن الشريف الأدريسى كان ـــ كما يقرر الدكتور محمد محمود الصياد ـــ مثالا للتعاون العلمى (١) .

ويفترض الدكتور حسين مؤنس أن يكون هـــذا الوسيط الذى قام بالتعارف بين روجر الثانى والأدريسى هو أبو عبد الله محمد بن أبى القاسم بن حمود أحد أبناء الأدارسة النازلين فى صقلية ، فوقف على ما عند الأدريسى من العلم بالجغرافية والطب (فقدمه الى رجار الثانى ، أو تحدث اليه فى شأنه ، فأعجب به رجار ، ووجد فيه طلبته ، فسأله أن يقيم عنده ويعمل معه ..)(٢)

ولقد كان الأدريسى موضع الاحترام والرعاية والتقدير عند الملك روجر الثانى وفى بلاطه . وقد أراد الملك أن يطمئنه على مقامه فى صقلية فى أمن الملك وحمايته ، فقال له : « أنت من بيت الخلافة ، ومتى كنت بين المسلمين عمل ملوكهم على قتلك ، ومتى كنت عندى أمنت على نفسك» . ويروى لنـــا الصفدى فى كتابه « الوافى بالوفيات » كيف رحب روجر الثـــانى بالأدريسى حين

---

(١) كتاب « أثر العرب والاسلام فى النهضة الاوربية » ـ بقلم جماعة من علماء العرب ـ القاهرة سنة ١٩٧٠ ـ الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر .
(٢) مجلة معهد الدراسات الاسلامية فى مدريد ـ المجلدان ٩ ، ١٠ ص ٢٨١ .

وفد الى بلاطه : (فلما وصل اليــه أكرم نزله ، وبالغ فى تعظيمه) والمبالغة فى التعظيم هنا هى عادة فطر عليها الملك روجــر الثانى فى لقائه مع العلماء والمفكرين ، وان كنا نظن أن نصيب الادريسى منها كان غير قليل . ولا يكتفى روجر الثانى بالتــوقير والتعظيم الأدبى ، بل يشفع ذلك بالرعاية المادية ، والمساعدة المالية السخية. فحين رضى الأدريسى بالمقام قرب روجر الثــانى لتحقيق فكرته (رتب له كفاية لا تكون الا للملوك) . ولعل الملك لاحظ فى هذا قدر الأدريسى العلمى من ناحية ، وقدره الأدبى بكونه من بيت الأدارسة المشهورين فى حــكم الشــمال الافريقى والأندلس من ناحية أخرى . فان حفيد الملوك من بنى حمود بالأندلس لابد أن يلقى من المساندة المادية والأدبية ما هو جدير بمثله . ولم يكتف روجر الثانى بهذا بل زاد فى التكريم خطوات ، فكان الأدريسى ــ كما يقــول الصفدى فى الوافى ــ (يجىء اليــه راكب بغلة، فاذا صار عنده يتنحى له عن مجلسه ، فيأبى ، فيجلســان معا) . وقد نقل المرحوم محمد كرد على الفعل « فيأتى » بالتاء ، وهو تحريف من النسخ ، وصوابه « فيأبى » ـــ أى فيرفض التنحى عن مجلسه ، وهو أدب من الأدريسى ورثه عن آبائه الأكرمين .

ولم تفت هــذه الرعاية التى بذلها روجر الثــانى للادريسى واحدا من المؤرخين والباحثين . وهى رعاية بلغ من قيمتها أنهــا دلت الباحثين عليها . وقد أشار اليها الأستاذ العالم الهندى المعاصر

نفيسى أحمد فى كتابه عن « جهود المسلمين فى الجغرافيا » . كما أشار اليها المرحوم أحمد زكى باشا فى مقال له بمجلة المقتطف شهر مارس سنة ١٩١٢ عن جغرافية الشريف الأدريسى ذكر فيه أنه « قد بلغ ريشار — أى روجار أو روجر — من اكرامه له أنه كلما دخل عليه هرع لاستقباله عند الباب ثم أجلسه الى جانبه على سرير الملك ، حتى اذا ما أتم المحاضرات معه وأفاده بما أراد ثم هم بالخروج شيعه الملك بنفسه الى عتبة القصر » . وقد نقل صاحب « معجم المطبوعات العربية والمعربة » هذا النص عن مقال أحمد زكى باشا بالمقتطف . ولا ندرى المصدر الذى اعتمد عليه المرحوم أحمد زكى فى وصف هذه الرعاية والحفاوة والتشييع ، وقد يكون تصرف فى نص صلاح الدين الصفدى الى هذا النص الذى لم نعثر عليه فى مرجع يعول عليه من المراجع القديمة .

ويشير جرجى زيدان فى أيجاز الى تقدير روجر الثانى للأدريسى فيقول فى « تاريخ آداب اللغة العربية » : (ونزل — يعنى الأدريسى — على روجر الثانى صاحب صقلية فأجله وقربه لسعة علمه ..)

بقى أن نصحح هنا وهما وقع فيه أحد أساتذة التاريخ فى جامعة عين شمس ، فقد ذكر فى بحث جيد له عنوانه (دور العرب فى كشف أفريقيا) نشر بمجلة « عالم الفكر » التى تصدر عن

حكومة الكويت ــ العدد الرابع ، مارس سنة ١٩٧١ ــ أن الأدريسى (جغـراف عربى أقام فى صـقلية فى الفترة من سـنة ١١٠٠ م ــ ١١٦٦ م فى بلاط الملك روجر الثانى أحـد ملوك النورمان) والواقع أن الأدريسى أقام فى صقلية منذ أن وفد عليها بدعوة من روجر الثانى سنة ١١٣٨ م المقابلة لسنة ٥٣٣ هـ . أى بعد أن بلغ الثمانية والثلاثين من عمره . أما التاريخان اللذان ذكرهما الدكتور جمال زكريا قاسم صاحب البحث المشار اليـه فهما عام مولد الأدريسى سنة ١١٠٠ م وعام وفاته سنة ١١٦٦ م فكأن الكاتب هنـا ذكر عامِى الميـلاد والوفاة ، وليسا هما بدء دخول الرجل صقلية وخروجه منها ، بل هما بدء حياته كلها ونهاية عمره في سنة ١١٦٦ م . والذى نصححه هنـا هو فتـرة اقامة الأدريسى فى صقلية ، فهى من سنة ١١٣٨ الى حـين وفاته ، لامن سنة ١١٠٠ م كما جاء فى بحث الدكتور جمال زكريا .. أما تحقيق مولد الأدريسى ووفاته فموعدنا بهما الفصل القادم .

تحقيق الميلاد والوفاة

يذكر لنا كراتشكوفسكى فى خلال الفصل الجيد الذى كتبه عن الأدريسى فى كتابه « تاريخ الأدب الجغرافى العربى » أن الشريف الأدريسى ولد بمدينة سبتة فى عام ٤٩٣ هـ المقابل لسنة ١١٠٠ م « فيما يبدو » . وقد نقل هذا التاريخ عن المستشرق الألمانى (١) زيبولد المتوفى سنة ١٩٢١ م ، والذى حرر مادة « الأدريسى » فى دائرة المعارف الاسلامية . وقد نقل المستشرق الأسبانى « بالنثيا » هذا التاريخ الهجرى لمولد الأدريسى فى كتابه « تاريخ الفكر الأندلسى » الذى صدرت ترجمته بقلم الدكتور حسين مؤنس سنة ١٩٥٥ . وجرى المؤلفون والمحققون ورجال الأعلام ومعاجم المؤلفين وفهارس المخطوطات على اتخاذ هذا التاريخ موعدا لميلاد الشريف الأدريسى ، لا يكاد يختلف منهم

(١) Seybold وهو مستشرق ألمانى توفى سنة ١٩٢١ ، وله اهتمامات كثيرة بالادريسى .

واحد . حتى العلماء الأجانب انفسهم ارتضوا هذا التاريخ واتفقوا عليه ، ومن لم يضعه منهم بالتاريخ الهجرى وضع ما يقابله من التاريخ الميلادى وهو سنة ١٠٩٩ — ١١٠٠ م . كما فعل المستشرق الايطالى « الدو ميبلى » (١) فى كتابه المشهور : (العلم عند العرب وأثره فى تطور العلم العالمى) .

وقد قبل المغفور له الأمير شكيب أرسلان هذا التاريخ دون مناقشة أو اعتراض وهو المعروف بكثرة تحقيقه وتدقيقه فى مثل هذه الأمور . ولو أن هذا التاريخ كان محل شك لرأينا الأمير شكيبا يتصدى لتصحيح ما فيه من خطأ ، أو ازالة ما به من ريب .

ولا ندرى المصدر العربى الذى نقل عنه المستشرق زيبولد هذا التاريخ فأننا لا نعلم مؤرخا عربيا قديما تعرض لذكر التاريخ الذى ولد فيه الأدريسى ، حتى صلاح الدين الصفدى الأديب المؤرخ المشهور والمتوفى سنة ٧٦٤ هـ وصاحب معجم « الوافى بالوفيات » المشهور فى كتب التراجم ، لم يذكر لنا تاريخ مولد الأدريسى فى الفصل الذى دونه فى ترجمته . وكذلك أغفله حاجى

---

(١) Aldo Mieli أحد وكلاء الجمعية الدولية لتاريخ العلوم وقد ترجم كتابه الى العربية سنة ١٩٦٢ بقلم الدكتورين محمد يوسف موسى ، وعبد الحليم النجار .

خليفة صاحب « كشف الظنون » وان كان اهتمامه فى أغلب الحالات بذكر الوفيات .

واذا كان تاريخ ميلاد الشريف الأدريسى موضع اتفاق بين الذين ترجموا له أو أشاروا اليه فى القديم والحديث فأن مكان ميلاده ــ وهو مدينة سبتة ــ ليس موضعا لخلاف بين المؤرخين والمترجمين . وما قال أحد ممن ترجموا له بأنه ولد فى غير « سبتة » . وهو اجماع يؤكد لنا الاجماع على تاريخ مولده . الا أنه لفت نظرنا أن كتاب « المنجد فى الأدب والعلوم » ــ وهو قسم المعارف العامة من معجم المنجد ــ وهو يعرف بالشريف الأدريسى ، ذكر لنا أن الرجل ولد بمدينة « سبتة بالأندلس » ، وهو وهم من المؤلف ، فان مدينة سبتة ليست من بلاد الأندلس ولا هى من أرضها فى أوربة ، ولكنها من بلاد المغرب وعلى الشاطىء الافريقى المقابل للشاطىء الأوربى . واذا كانت «سبتة» قد انتزعت من يد مراكش والمغرب وضمت الى أسبانيا منذ قرون فأن ذلك لا يغير من موقعها الأفريقى شيئا . وفى كتابنا هذا فصل قائم بذاته عن مدينة سبتة التى انجبت للعالم الاسلامى ، بل للعالم كله ، هذا العلم الجغرافى الشامخ الذى يعد بلا ريب من أعلام الجغرافيين المسلمين .

على أن الذى يلفت نظر الباحث فى سيرة الشريف الأدريسى هو ذلك الخلاف الشديد بين مؤرخيه ومترجميه على تاريخ

وفاته . ونلحظ هذا الخلاف واضحا سواء أكان التاريخ لوفاته بالتقويم الهجرى أم الميلادى . وهو خلاف يؤكد لنا موت الرجل فى غربة بعيدا عن الأهل والأوطان . وسنعرض بعد قليل لمكان وفاته وهو أيضا ليس موضع اتفاق بين المؤرخين والباحثين .

ويبدو لنا أن بعض المتحدثين عن الشريف الادريسى وخاصة من العرب المحدثين قد آثروا أن يتخلصوا من الخلاف فى تاريخ الوفاة باغفال الاشارة مطلقا الى عام وفاته ، ولعلهم ارتضوا بهذا أن يكونوا على جانب أمين بدلا من التعرض لتواريخ وسنوات مختلفة هى فى ذاتها محل خلاف بين المؤرخين .. وممن أغفل ذكر تاريخ وفاة الشريف الأدريسى : الدكتور فؤاد صروف فى كتابه « الرواد » الذى صدر عن مجلة المقتطف المحتجبة ، والدكتور زكى محمد حسن فى كتابه « الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى » وهو كتاب جيد على ايجازه ، والمرحوم الشيخ عبد المتعال الصعيدى فى كتابه « المجددون فى الاسلام » مع أنه كان حريصا كل الحرص على أن يذكر تاريخ ميلاده بالعامين الهجرى والميلادى ، والمرحوم الأستاذ أحمد أمين فى كتابه « ظهر الاسلام » والأستاذ عبد الله بن العباس الجرارى من علماء الرباط فى كتابه « تقدم العرب فى العلوم والصناعات » والمرحوم عباس محمود العقاد فى كتابه المشهور « أثر العرب فى الحضارة

الأوربية » والدكتور نقولا زيادة فى كتابه « رواد الشرق العربى فى العصور الوسطى ، والمستشرق بارتولد (١) فى كتابه « رواد الحضارة الاسلامية » الذى ترجمه الى العربية المرحوم حمزة طاهر .

على أن بعض الباحثين ذكر تاريخ وفاة الأدريسى بالتاريخ الميلادى لا غير ، ومنهم عرب لا عذر لهم فى ذلك كالمرحوم الأستاذ قدرى حافظ طوقان الذى جعل تاريخ وفاة الأدريسى سنة ١١٦٦ م فى كتابه المشهور « العلوم عند العرب » ص ١٨٦، وكالأديب الباحث جلال مظهر فى كتابه « مآثر العرب على الحضارة الأوربية » ، وقد جعل تاريخ وفاة الشريف الأدريسى سنة ١١٨٠ م (٢) . أما بعض الأجانب الذين اقتصروا على تاريخ وفاة الادريسى بالتقويم الميلادى فمنهم «الدو ميلى» المستشرق الايطالى الذى جعل وفاته سنة ١١٦٦ م .

ومن الطريف أن نعرض فى هذا الفصل للروايات والأقوال المختلفة فى تاريخ وفاة الشريف الأدريسى . ففى تاريخ آداب اللغة العربية لجرجى زيدان حـ ٣ نرى أن تاريخ وفاة الأدريسى سنة ٥٤٨ هـ ، وهو تاريخ غريب ، ولا ندرى من آين أخذه زيدان وعن أى كتاب نقله . ومن عجب أن الدكتور شوقى

---

(١) Bartold ـ وقد توفى سنة ١٩٣٠ .

(٢) وقد جاء هذا أيضا ـ اعنى ١١٨٠ م ـ فى كتاب « المستشرقون » للاستاذ نجيب العقيقى .

ضيف لم يناقش هذا التاريخ أو يصححه فى الطبعة الأخيرة لكتاب جرجى زيدان التى حققها وأضاف اليها تعليقات كثيرة مفيدة سنة ١٩٥٨ م ، مع أنه فى كتاب له عنـوانه « الرحـلات » صـدر عن دار المعارف سنة ١٩٥٦ قد جعل تاريخ وفاة الأدريسى سنة ٥٦٢هـ

والحق أن السنة التى ذكرها جرجى زيدان لوفاة الأدريسى ـــ وهى سنة ٥٤٨ هـ ـــ هى تاريخ وفاة الملك روجر الثـانى الصقلى الذى ألف له الأدريسى كتابه « نزهة المشتاق » . ويؤكد هذه الحقيقة أكثر المصادر التاريخية المهتمة بتاريخ هـذا الملك النورمانى الصقلى ، وخاصة كتاب «شذرات الذهب » لابن العماد الحنبلى ، فقد جاء فيه فى أحداث سـنة ٥٤٨ هـ قوله : (وفيها ـــ أى وتوفى فيها ـــ رجار الفرنجى صاحب صقلية ، هلك فى ذى القعدة بالخوانيق وامتدت أيامه ..) .

وجاء فى كتاب « المسلمون فى صقلية » أن وفاة الادريسى فى سنة ٥٦٨ هـ ، وقد نقل صاحب « الأعلام » هذه الرواية ، ولكنه ارتضى الرواية الراجحة التى تقول انه توفى سنة ٥٦٠ هـ المقابلة لسنة ١١٦٥ م ، ولا ندرى عمن أخذا هـذا التاريخ . أما المؤرخ الألمانى يوسف أشباخ صاحب كتاب « تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين » فقد بعد بتاريخ وفاة الأدريسى الى سنة ١١٧٥ م وتوافقها سنة ٥٧٠ من الهجرة ، ولم يذكر لنا بالطبـع معتمـده فى هـذا التـاريخ . أما المستشرق الروسى

كراتشكوفسكي فقــد ذكر أن وفاة الشريف الادريسي ســنة ٦٥٠ هـ المقابلة لسنة ١١٦٠ م . وهــو من أوهام الطبع وأخطاء المطبعة كما يبدو ، فان صحة ٦٥٠ هـ هي ٥٦٠ هـ ، وصحة السنة الميلادية المقابلة هي ١١٦٥ م لا سنة ١١٦٠ م كما يتضح للمحقق المقابل بين التواريخ .

وقد جاء في بقية المصــادر العربيــة المعتمدة أن تاريخ وفاة الشريف الأدريسي هو سنة ٥٦٠ هـ ، ويكاد يكون هــذا هو أصح التواريخ وأقربها الى الصواب . وقد ارتضى هذا التاريخ الأمير شكيب أرسلان في « الحلل السندسية » وخــير الدين الزركلي صاحب « الأعلام » وعمر رضا كحالة صاحب « معجم المؤلفين » ، والمرحوم فؤاد سيد مصنف الجزء الرابع من «فهرس المخطوطات المصورة » الصــادر عن معهــد المخطوطات التابع للجامعة العربية سنة ١٩٦٤ صفحة ١٨٦ .

أما الذين ذكروا تاريخ وفاة الأدريسي بالتقويم الميــلادي فقد وقع بينهم خلاف كذلك ، مثل ماوقع في التاريخ الهجري . فيذكر الأديب جلال مظهر في كتابه « مآثر العرب على الحضارة الأوربية » أن وفاته سنة ١١٨٠ م المقابلة لسنة ٥٧٦ هـ ، وهو تاريخ يبعد ستة عشر عاما عن التاريخ المتعالم المعروف ، ويذكر كرامرز المستشرق الهولندي أن وفاته سنة ١١٥٦ م كمــا في مقدمة الدكتور مقبول أحمد الهنــدي لكتاب « وصف الهنــد

وما يجاورها من البلاد » للأدريسي ، وتقابل هذه السنة سنة ٥٥١ هجرية . ويذكر موىف القسم الموسوعى من معجم « المنجد » أن وفاة الشريف الأدريسى سـنة ١١٥٣ م ، وهى تقـابل سنة ٥٤٨ هـ . وقد تأكد لنا قبل سطور أن هـذه السنة هى تاريخ وفاة الملك روجر الثانى الصقلى لا تاريخ وفاة الأدريسى . وقد وقع مؤلف « المنجد » فى الوهم الذى وقع فيه جرجى زيدان من قبل .

ولعل أقرب التواريخ الميلادية الى وفاة الادريسى هو ما ذكره المستشرق زيبولد فى مادة الادريسى «بدائرة المعارف الاسلامية» حيث جعله سـنة ١١٦٦ م ، وهو قريب من الصـــواب اذ أن سنة ٥٦٠ هـ تقابل سنة ١١٦٥ ميلادية . وكذلك ماجاء فى معجم لإروس الفرنسى حيث جعل وفاة الأدريسى سنة ١١٦٤ م ، وهى تقابل عند المستشرق زامباور (١) سنة ٥٦٠ هـ كما جاء فى ذيل كتابه المشهور : « معجم الانساب والاسرات الحاكمة فى التاريخ الاسلامى » المطبوع سنة ١٩٥١ .

ولعل أعجب الأقوال فى تاريخ وفاة الأدريسى ماذكره الحسن ابن الوزان المعروف باسم ليون الافريقى العلامة الجغرافى المغربى من رجال القرن السادس عشر الميلادى ، فقد ذكر أن الأدريسى

---

(١) هو المستشرق النمسوى Zambaur ، المتوفى سنة ١٩٤٩ ، وقد ترجم كتابه الى العربية بقلم الدكتور زكى محمد حسن ولفيف من زملائه

توفى فى صقلية سـنة ٥١٦ هـ ، وهو تاريخ غير معقـول ، لأن المعروف أن الادريسى دخـل صقليه سنه ٥٣٣ هـ المقابلة لسنة ١١٣٨ م فكيف تكون وفاته قبل هذا التاريخ ؟ ومن هنا بادر المستشرق الفرنسى دى سـلان المتوفى سنة ١٨٧٨ الى تصحيح هذا الوهم الى سنة ٥٦٠ هـ .

ويسوقنا كلام ليون الأفريقى عن وفاة الأدريسى فى صقلية الى خلاف آخر حول المكان الذى لقى فيه الأدريسى ربه ، فيقول المستشرق كراتشـكوفسكى أنه توفى بمدينة سـبتة بالمغرب ، ويرجح الدكتور حسين مؤنس فى بحث له جيد عن الادريسى أنه مات فى صقلية بعد مبارحة بالرم بقليل ، وينفى أى دليل على أنه عاد الى المغرب أو ذهب الى أى بلد اسـلامى آخر بعد ذلك (صفحة ٢٨٥ من مجلة « معهد الدراسات الاسلامية فى مدريد » المجلدان التاسع والعاشر) .

وسواء مات الأدريسى فى جزيرة صقلية ،أم فى سبتة ، أم فى أى أرض أخرى غيرهما فقد توسد باطن الأرض التى ذرعهـا طولا وعرضا كاشـفا النقاب عن أسرارها ومعالمهـا وكنوزها وطبيعتها .. وهنا تستوى كل تربة ، وتتسـاوى كل حفرة ، وما أصـدق الشـاعر أحمد شـوقى حين قال فى رثاء المرحوم عبد الخالق ثروت الذى مات غريبا فى فرنسة ونقل جثمانه الى مصر :

يموت فى الغاب أو فى غيره الأسد   كل البلاد وساد حين تتسد

لمحات من سبتة
المدينة التي ولد فيها الإدريسي

شهدت مدينة سبتة بالمغرب مولد الشريف الأدريسي سـنة ٤٩٣ هـ على أصح الأقوال التي تدور حول مولد هـذا الرجل ومكان ولادته . وقد سجل لنا ياقوت الحموى فى معجمه ضبط هذه المدينة ، وأنها بفتح السين ، وقد تكسر . والسبت لغة هو القطع . وسبتة بتاءين آخرهما تاء التأنيث على وزن « فعلة » . وهناك فى فلسطين بلدة اسمها «سبت» ، وهى بين طبرية والرملة عند عقبة طبرية . وقد يتوهم بعضهم أن « سبتة » فى الأندلس ، ولكن الصواب أنها من بلاد المغرب . ويقول صفى الدين بن عبد الحق البندارى فى التعريف بها : (سـبتة بلفظ الفعلة المرة الواحدة من السبت ، وهو القطع ، بالفتح ، وقيل بالكسر ، بلدة مشهورة من قواعد بلاد المغرب ، مرساها أجود مرسى على البحر ، وهو على بر يقابل جزيرة الأندلس ، على طرف الزقاق . مدينـة

حصينة تشبه المهدية التي بافريقية ، لأنها ضاربة فى البحر ، داخلة كدخول كف على زند (١) ..) وتصفها كتب الجغرافية والموسوعات بأنها بلدة بحرية من أعمال مراكش ، على مضيق جبل طارق ، وعلى مسيرة عشرة أميال جنوبى جبل طارق ، أو أربعين ميلا شمال غربى تطوان (٢) . والبلدة محصنة ، بل انها أهم المراكز الأسبانية الحصينة .

وأشارة ياقوت وابن عبد الحق الى أن السبت لغة هو القطع تحمل معنى السبب فى تسمية المدينة بهذا الاسم .وهذا جائز لو ان اسم البلدة كان عربى الأصل فيكون اشتقاقه من السبت بمعنى القطع ، باعتبار أنها مقطوعة من الجانب الشرقى ، لأن البحر يكتنفها من ثلاث جهات . ونرى ابن عذارى المراكشى صاحب « البيان المغرب » يعزو هذا الاسم الى « سبت » وهو ولد من أحفاد سام بن نوح . ولكن الأدريسى نفسه يفصل فى هذه القضية بما ترتاح اليه النفس من سبب معقول فهو ينسبه الى اللفظ اللاتينى (سابيتوم) . على أن أرجح الأقوال ما قيل من أنها سميت بهذا الاسم الذى أطلقه الرومان على الهضبات التى شيدت عليها البلدة . ومن هنا نعرف أن سبتة مدينة قديمة ، وأنها شهدت

---

(١) مراصد الاطلاع ، على أسماء الامكنة والبقاع ، ج ٢ ص ٦٨٨ .

(٢) تطوان : مدينة بشمالى المغرب وتشتهر بالصناعة . وقد احتلتها اسبانيا سنة ١٩١٥ ، وكانت عاصمة المنطقة الخليفية قبل استقلال البلاد سنة ١٩٥٦ .

قرونا من العصر المسيحى ، كما شهدت فترة غير قصيرة من عهد ما قبل المسيح . وكان يحكم سبتة أيام الفتح العربى للأندلس الكونت يوليان الذى أفلح فى الاستقلال بالأمر فيها . ويوليان هذا هو الذى تذكر المصادر القديمة أنه أمد القائد المسلم طارق ابن زياد بكل الوسائل والمعدات التى مكنت العرب من عبـور البحر الى أسبانيا والاستيلاء عليها وادخالها فى حوزة المسلمين. ولم تنقض بضع سنوات على فتح العرب للأندلس حتى دخلت سبتة المغربية فىنطاق حكمهم ، فاستولوا عليها واستقروا بها .

وقد تعرضت سبتة خلال تاريخها الطويل لعدد من الحوادث والتيارات والغارات حتى من قبائل البربر أنفسهم . ففى منتصف القرن الثانى الهجرى نكبت سبتة بغزو بربر طنجة لها واجبارهم العرب على الخروج منها . وقد خربت البلدة فى هذه الغزوة تخريبا تاما ، حتى ليروى البكرى الجغرافى المؤرخ الأندلسى أنها ظلت خرابا تعمرها الوحوش مدة . ولم تهدأ سبتة منذ ذلك العهد، فقد ظلت موضعا للنزاع بين مغاربة الأندلس وولاة المغرب ، وكان الأمويون أصحاب قرطبة بالأندلس حريصين على الاحتفاظ بها فى أيديهم — على الرغم من وقوعها فى أرض المغرب — لأنها بموقعها الجغرافى الفريد كانت المنفذ الى أفريقية ، ومن هنا سـورها عبد الرحمن الناصر بسور منيع من الحجارة .

وتعاقب المرابطون والموحدون على حكم سبتة فى حوادث

كثيرة لا محل هنا لذكرها . الا أنها بعد عدد من الاضطرابات والفتن وقعت فى يد الحفصيين من بنى مرين . ولكنها لم تبق طويلا فى يد المرينيين اذ اتجهت أنظار البرتغاليين للاستيلاء عليها . فأرسل ملكهم يواءو الأول حملة عليها ٨١٨ هـ سنة ١٤١٥م انتهت باستيلاء البرتغال عليها على الرغم من المقاومة الباسلة التى بذلها قائدها العربى . وحين ضم فيليب الثانى الأسبانى بلاد البرتغال الى أملاكه انتقلت سبتة بهذا الضم الى حوزة الأسبان .. واحتفظ هؤلاء الأسبان بها وحملوا البرتغاليين على الاعتراف بها لهم بمقتضى معاهدة لشبونة سنة ١٦٦٨ م .

وبالرغم من محاولات المسلمين لاسترداد سبتة وانتزاعها من يد الأسبان فان هذه المحاولات الباسلة لم تفلح . واحتلها الانجليز من سنة ١٨١٠ الى سنة ١٨١٤ حتى يتخلصوا من الحكم الأسبانى الذى كان فيه نقص لسيادتهم فى منطقة جبل طارق ، ولكن أسبانيا استردت سبتة من جديد ، وعادت فى حوزتهم . وازدادت استماتة المسلمين فى استعادة سبتة وردها الى ممتلكاتهم ، واستمرت أعمال العداء بين المراكشيين والأسبان . وأكدت معاهدتا وادى راس وتطوان فى النصف الثانى من القرن الماضى اطلاق يد الأسبان فى سبتة الى اليوم .

ويصادفنا فى كتاب « الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى » لأبى العباس الناصرى السلاوى المتوفى سنة ١٨٩٧ م نص طريف

فى كيفية استيلاء البرتغاليين على ســبتة فى القرن الخامس عشر الميلادى يقول فيه : (وذكر صاحب نشر المثانى فى كيفية استيلاء البرتغال على « سبتة » قصة تشبه قصة قصيرة مع الزباء ، قال : « رأيت بخط من يظن به التثبت والصدق أن النصــارى جاءوا بصناديق مقفلة يوهمون أن بهــا ســلعا وأنزلوها بالمرسى كعادة المعاهدين وذلك صبيحة يوم الجمعة من بعض شهور سنة ثمانى عشرة وثمانمائة ـــ ١٤١٥ م ـــ وكانت تلك الصــناديق مملوءة رجالا عددهم أربعة آلاف من الشباب المقاتلة ، فخرجوا على حين غفلة من المسلمين ، واستولوا على البلد ، وجاء أهله الى سلطان فاس مستصرخين له ، وعليهم المسوح والشعر والوبر والنعــال السود رجالا ونساء وولدانا ، فأنزلهم بملاح المسلمين ، ثم ردهم الى « الفحص » قرب بلادهم لعجزه عن نصرتهم ، حتى تفرقوا فى البلاد ، والأمر لله وحده .. وسمعت من بعضهم أن الذى جــرأ النصــارى على ارتكاب تلك المكيدة هو أنهم كانوا قد قاطعوا أمير سبتة على أن يفوض اليهم التصرف فى المرسى ، والاستبداد بغلتها ، ويبذلوا له خراجا معلوما فى كل سنة . فكان حكم المرسى حينئذ لهم دون المسلمين . ولو كان المسلمين هم الذين يلون حكم المرسى ما تركوهم ينزلون ذلك العدد من الصناديق مقفلة لا يعلمون ما فيها . والله أعلم بحقيقة الأمر) (١) ..

---

(١) الاستقصا : للسلاوى ، جـ ٤ ص ٩٣ .

ولعل من المناسب هنا ـــ تكريما لهذه البلدة المنجبة من قديم الزمان ـــ أن نذكر هنا فى هذا الفصـــل أسماء طائفة من الرجال الذين أنجبتهم هذه المدينة فحملوا فى أسمائهم شرف الأنتســاب اليها ، ونذكر هؤلاء الذين أنجبتهم وولدوا تحت سمائها وفوق أرضها ولكن أسماءهم لم تحمل النسبة اليها ، ثم نضيف اليهم أسماء طائفة أخرى من العلماء وفدوا عليها ، أو أقاموا بهــا ، أو أقرأوا القراءات فى معاهدها ومساجدها ، أو تولوا القضاء فيها ، أو عاشوا فيها الى أن دفنوا فى ثراها وطوتهم قبورها .

فمن أهل سبتة الذين ولدوا فيها وحملت أسماؤهم النســبة اليها ، أو لم يولدوا فيها ولكنهم وفدوا عليها وأقاموا بها زمنــا فانتسبوا اليها كذلك : أحمد بن محمــد بن اســماعيل القيسى المعروف بالسبتى ، وأصله من أشبيلية بالأندلس ، ولـــكنه رحل الى سبتة سنة ٣٧٠ هـ ، وسافر الى المشرق ثم عاد ثانية الى سبتة فانتسب اليها وتوفى بها سنة ٤٢٩ هـ . ومنهم محمد بن أحمــد ابن هشام اللخمى السبتى الأديب اللغــوى النحوى ، وله من الكتب «لحن العامة» و «شرح مقصورة ابن دريد» و «تقــويم اللســـان (١) ، وتعليم البيـــان » . وقد ترجم له ابن الأبار فى « التكملة » ، والامام السيوطى فى « بغية الوعاة » وتوفى سنة

(١) فى البغية اسم هذا الكتاب « المدخل الى تقويم اللسان ، وتعليم البيان » جـ ١ ص ٤٨ .

٥٧٠ هـ . ومنهم شمس الدين أبو عبد الله محمد السبتي ، وله « الغرر البهيــة ، فى شرح الرســالة الســبتية » ، وقد ترجم له البغدادي فى « ايضاح المكنون » ، وتوفى سنة ٦٩٨ هـ . ومنهم الحسين القوصي السبتي المفسر الفقيه . وقد ولد بقوص من صعيد مصر ، وتوفى بأسوان سنة ٦٨٢ هـ ، ولا ندرى العلة فى تلقيبه بالسبتى ، ولعل أصوله من سبتة (١) ، أو لعله نزل بسبتة فنسب اليها ، وهو صاحب « المختصر فى تفسير القرآن » للثعلبى ، وقد جمع الى النسبة السبتية التلقيب بالمعين . ومنهم محمد بن ابراهيم ابن غصن السبتى من العالمين بالقراءات، وقد جاور بمكة والمدينة، وتوفى بالقدس . وهو مشـــهور بكتابه « مختصر الكـــافى فى القراءات » . وقد ترجم له المقرى فى « نفح الطيب » وابن الجزرى فى « طبقات القراء » ، وتوفى سنة ٧٢٣ هـ . ومنهم محمد بن على ابن هانى السبتى من رجال القرن الثامن الهجرى ، وقد اشتهر بالأدب والشعر والتاريخ والفرائض، ومن كتبه : «الغرة الطالعة، فى شعراء المائة السابعة » ، و « شرح تسهيل الفوائد » للامام ابن مالك فى النحو ، وقد ترجم له ابن حجر فى «الدرر الكامنة»، والسيوطى فى « بغية الوعاة » وتوفى سنة ٧٣٣ هـ . ومنهم يوسف ابن موسى السبتى الفقيه المالكى الحافظ، وأصله من مدينة سبتة، وتلقى العلم فيها ، وأقرأ بجامع باب السلسلة بمدينة فاس المغربية.

---

(١) ذكر الادفوى فى « الطالع السعيد » انه سبتى المحتد ، قوصى المولد

وله من المؤلفـات « شرح رسالة ابن أبى زيد » فى فروع الفقه المالكى ، وهو شرحان : كبير ، وصغير . وتوفى فى ختـام المائة السابعة ســنة ٧٠٠ هـ . وقد ترجم له من المحـدثين خير الدين الزركلى فى « الأعلام » ، وعمر رضا كحالة فى « معجم المؤلفين ». ومنهم محمد بن أحمد الحسنى السبتى اللغوى النحوى الشاعر ، وله من المؤلفات « شرح مقصورة ابن حازم » ، وديوان شــعر عنوانه « جهد المقل » و « شرح القصيدة الخزرجية » فى العروض والقوافى ، وتوفى بغرناطة الأندلسية سنة ٧٦٠ هـ وهو من مواليد ســبتة المغربية . ومنهم محمــد بن على بن معلى القيسى السبتى الفقيه من رجال القرن السابع الهجرى ، ولا يعلم تاريخ وفاته ، ومن كتبه : « المناسك » ، وقد ذكره التنبكتى فى كتابه « نيــل الابتهاج » (١) . ومنهم محمد بن عبد الحق الأنصارى السبتى من رجال القرن التاسع الهجرى ، وله مشاركات فى الأدب والشعر وقد ترجم له السخاوى فى « الضوء اللامع » ، وله من المؤلفات « شرح البردة » للأمام البوصيرى ، وتوفى سنة ٨٣٨ هـ . ومنهم ابراهيم الغافقىالسبتى من رجال المائة الثامنة ، ترجم له ابن حجر فى «الدرر الكامنة» وابن العماد الحنبلى فى «شذراتالذهب» ، واليافعى فى « مرآة الجنان » ، وكان فقيها نحويا عالما بالفرائض. ومن عجيب الأمر أنه ولد بأشـــبيلية الأندلسية ، وتوفى بمدينــة

---

(١) نيل الابتهاج ، بتطريز الديباج ، ص ٢٣٠ .

سبتة المغربية ، فحمل فى اسمه النسبتين : الاشبيلى ، والسبتى ، وتوفى سنة ٧١٦ هـ .

وهناك طائفة من العلماء أصلهم من سبتة ، ولكنهم لم يحملوا النسبة اليها فى أسمائهم ، بل حملوا نسبة أخرى ، كالنسبة الى قبائلهم العربية الكبرى ، أو النسبة الى مدينة أو اقليم آخر اشتهروا به ، فتنوسيت « سبتة » مدينتهم الأصلية مع أنهم من مواليدها . ومن هؤلاء السبتيين بالمولد لا بالنسبة : ابراهيم ابن جعفر اللواتى المعروف بابن الفاسى ، وقد اشتهر بالعلم والزهد والتقشف . وهو من أهل سبتة وتوفى سنة ٥١٣ هـ . ومنهم اسماعيل بن حمزة بن زكريا الأزدى ، وقد غلب عليه الاشتغال بأصول الديانات . وهو من مواليد سبتة ، ولم يذكر ابن بشكوال فى « الصلة » تاريخ وفاته . ومنهم عبد الله بن حمو ، وقد كتب القاضى أبو الفضل بن عياض بخطه الى ابن بشكوال أنه من أهل سبتة ، وتوفى سنة ٤٧٣ هـ . ومنهم عبد الله بن على — أو ابن يعلى — المعافرى ، وهو من أهل سبتة ، وكان حجة فى الفقه والنحو والبلاغة مقدما فيها ، وتوفى سنة ٤٨٦ هـ ، وهو خال القاضى أبى الفضل بن عياض . ومنهم قاسم بن محمد بن هشام الرعينى ، وذكر القاضى ابن عياض أن أصله من سبتة ، وتوفى سنة ٤٤٨ هـ . ومنهم محمد بن على بن عبد الله الأموى المعروف بابن الشيخ ، وهو من أهل سبتة وكان شيخ الحديث فيها فى

وقته ، وقد جمع الى العلم الخير والصلاح ، وتوفى فى حدود سنة ٤٠٠ هجرية على ما ذكره صاحب « الصلة » . ومنهم عياض ابن موسى بن عياض اليحصبى من أهل سبتة على ما ذكره ابن بشكوال ، وتعلم بقرطبة ــ وهو فى هذا يشبه الشريف الأدريسى ــ وتولى القضاء بسبتة ، وتوفى بمراكش مغربا عن وطنه سنة ٥٤٤ هـ . ومنهم يوسف بن حمود بن خلف الصدفى ، من أهل سبتة وولى القضاء فيها ، وقد جمع الى الفقه الأدب والشعر وتوفى سنة ٤٢٨ هـ .

وهناك طائفة من العلماء رحلوا الى سبتة من المشرق أو المغرب أو الأندلس ، وأقاموا بها ، وتولوا فيها القضاء أو التدريس والاقراء ، ولكنهم لم يحملوا فى أسمائهم الانتساب اليها ، ومع هذا ظلت سبتة تحتفظ بذكرى وفودهم عليها ، واقامتهم فيها ، وتدريسهم بها . ومن هؤلاء : أحمد بن محمد بن عبد الرحمن الأنصارى الشارقى ، فقد دخل سبتة بعد جولات فى العراق وفارس والأهواز ومصر والأندلس . وقد اشتهر بمواعظه التى تذيب القلوب ، وكثيرا ما كان يبكى فى خلال وعظه فيسيل دموع سامعيه وتوفى بشرقى الأندلس فى نحو سنة ٥٠٠ هـ . ومنهم حجاج بن قاسم بن هشام الرعينى ، أصله من أهل المرية بالأندلس، ثم رحل الى الشرق ، وصار الى سبتة فسكنها ، وتوفى سنة ٤٨٠ هـ . ومنهم عبد الله بن آدريس المقرىء ، وهو سرقسطى

الأصل ، ثم وفد على سبتة ، فسكن بها وتصدر فى جامعها للاقراء وتوفى سنة ٥١٥ هـ . ومنهم الشاعر الضرير على بن عبد الغنى الفهرى الحصرى القيروانى صاحب قصيدة : « ياليل الصب متى غده » المشهورة التى حظيت بمعارضات كثيرة لها فى القديم والحديث . وممن عارضها من المحدثين أحمد شوقى ، ومحمود بيرم التونسى ، وبشارة الخورى ، ورشيد أيوب ، ومسعود سماحة ، والأمير نسيب أرسلان ، وفوزى المعلوف ، وخير الدين الزركلى ، وولى الدين يكن ، وجميل صدقى الزهاوى ، وأبو القاسم الشابى ، واسماعيل صبرى « باشا » وغيرهم . وقد دخل الحصرى القيروانى الأندلس ، ونزل سبتة بالمغرب ، وأقرأ بها القراءات فلقى اقبالا كثيرا ، وتهافتا على حضور دروسه . وفى سبتة زادت شهرته ، وطبقت الآفاق سيرته ، وراسل ملوك الطوائف بالأندلس ، ومدحهم ، كما اتصل بعلماء الأندلس وأدبائها ، و توفى بطنجة سنة ٤٨٨ هـ .

ولقد شاء الله أن يكون الشريف الأدريسى من مواليد سبتة وأهلها الذين لم يحملوا فى اسمهم النسبة إليها . ولم يكن فى هذا وحده ، ولا بدعا من العلماء الذين ذكرنا بعضهم قبل ذلك على أنهم من أهل سبتة الذين لم ينتسبوا اليها . واذا كان بعض أولئك العلماء السبتيين بالمولد قد حمل فى اسمه نسبة الى بطن قديم من بطون العرب ، أو الى مدينة أخرى غير مدينة المولد ، أو الى

اقليم آخر ،فأن الشريف الأدريسي قد حمل نسبة أجداده وآبائه الأدارسة ، فيقال له : الأدريسي ، نسبة الى جده الأعلى أدريس ، مؤسس دولة الأدارسة بالمغرب فى القرن الثانى الهجرى . ويقال له : الحمودى ، نسبة الى آبائه بنى حمود الأدارسة الذين أسسوا ملكا بالأندلس فى عهــد ملوك الطوائف . وقد سماه بعضهم : الشريف الصقلى ، نسبة الى جزيرة صقلية التى وفد عليها وأقام بها قريبا من الملك روجر الثانى النورمندى وبدعوة منه ، لأنجاز عمله الجغرافى العظيم . ولكنا لا نعلم مؤرخا أو باحثا نسبه الى بلد مولده : سبتة ، ولم نر فيما بين أيدينا من مصادر من لقبــه بالشريف السبتى . وهكذا حرمت مدينة سبتة ـــ بالانتساب ـــ اسم هــذا الرجل الــكبير ، وان كانت لم تحرم شرف انجــابه واتحاف الدنيا بعمله العلمى الجليل ..

مع بعض معاصري الشريف الإدريسي

نستطيع أن نتمثل صورة لعصر الشريف الأدريسى من خلال بعض معاصريه فى القرن السادس الهجرى . ولن نذهب الى الشرق العربى لنتبين تلك الملامح ، بل نستطيع أن نتلمسها فى الرجال الذين كانوا يعيشون فى صقلية والأندلس والمغرب فى ذلك العصر. واذا كانت قد حدثت بعض أحداث كبرى فى رقعة المملكة العربية الاسلامية كلها ما بين مشرق ومغرب خلال ذلك العصر ، فان الذى يهمنا هنا فى هذا الفصل هو الرجال الذين شملهم عصر الأدريسى فى المحيط العربى الاسلامى القريب منه ، وهو محيط صقلية والأندلس وبلاد المغرب . ولن يفوتنا أن نشير هنا الى أن القرن السادس الهجرى — وهو القرن الذى أدرك الأدريسى منه ستة عقود من الزمان — كان يزدحم فى الشرق برجال برزوا فى الأدب والشعر واللغة والتاريخ والعلوم الاسلامية والعلوم الدخيلة

من أمثال ابن منير الطرابلسي الشاعر ، والطغرائي صاحبة اللامية المشهورة ، ودلال الكتب ، وابن التعاويذى ، ونجم الدين الهرثى ، وأبى اسحاق الغزى ، والارجانى ، والابيوردى ، والقاضى الفاضل ، والحريرى صاحب المقامات ،والجواليقى اللغوى صاحب «المعرب» ، وابن الشجرى صاحب «الأمالى» ، وابن الدهان ، وكمال الدين الانبارى صاحب «نزهة الألباء» ، والميدانى صاحب « مجمع الأمثال » ، والأمام الزمخشرى صاحب « الكشاف » فى تفسير القرآن « وأساس البلاغة » فى اللغة : ونشوان بن سعيد الحميرى اليمنى صاحب « شمس العلوم » والعماد الأصفهانى صاحب « الخريدة » ، وأسامة بن منقذ الأمير العربى الرحالة المؤرخ صاحب « الاعتبار » ، والسمعانى صاحب « الأنساب » ، وابن القلانسى المؤرخ ، وابن عساكر الدمشقى الحافظ المؤرخ صاحب «تاريخ دمشق» ، وعمارة اليمنى الشاعر المؤرخ صاحب « تاريخ اليمن » ، و « النكت العصرية فى أخبار الوزارة المصرية » ، وابن الجوزى المؤرخ صاحب « المنتظم » ، والشهرستانى صاحب « الملل والنحل » وغيرهم من أعلام الفكر والثقافة فى القرن السادس .

كان القرن السادس الهجرى يموج بهؤلاء الرجال وكثيرين غيرهم فى المشرق ومصر على الرغم من ازدحام الحوادث الجسام على العرب والمسلمين كسقوط صقلية فى يد النورمان ، والحروب

الصليبية والأخطار المحدقة بالمسلمين فى الأندلس ، وسقوط بعض العواصم العربية الكبرى فى الأندلس .

أما المغرب والأندلس فلم يكن أقل حفولا بالعلماء والرجال البارزين ، ومنهم الشعراء والأدباء ورجال اللغة ، وعلماء الجغرافيا والرحالون ، ورجال السياسة والقيادة ، والفلاسفة .

وكانت جزيرة صقلية ذاتها — على الرغم من سقوطها فى يد النورمان — لا تزال تجود ببعض الرجال الذين كانوا امتدادا لأسلافهم العظماء على تلك الأرض الطيبة ومنهم ابن القطاع السعدى الذى ولد فى صقلية ، وتعلم فيها ، ولما دخلها النورمان فاتحين عز عليه أن يبقى فيها بعد ما حل بها ، فرحل الى مصر ، واتخذ منها وطنا ثانيا له وعاش فيها الى أن أدركته منيته سنة ٥١٥ هـ ، وله من الكتب كتاب « أبنية الأفعال » ، « والعروض البارع » ، وكتاب « الشافى فى القوافى » . ومن رجال صقلية فى القرن السادس الذى عاش فيه الادريسى ، الأديب المؤرخ ابن ظفر الصقلى المتوفى سنة ٥٦٥ هـ ، وقد كان قريبا بالمقام من الشريف الأدريسى ، وان كنا لا نعلم شيئا عن الصلة بينهما ، فقد كانا متعاصرين ، ولكن انشغال الأدريسى بالمهمة الجغرافية التى كلفه اياها الملك روجر الثانى ربما حجزه عن الاختلاط باخوانه العرب من أهل الجزيرة وسكانها . وله كتاب مشهور عنوانه

« سلوان المطاع » فى الأدب والتاريخ ألفه لبعض القواد العرب فى صقلية سنة ٥٥٤ هـ أى قبل وفاة الأدريسى ببضعة أعوام .

وقد عاش الشاعر الصقلى أبو محمد عبد الجبار بن حمد يس سبعة وعشرين عاما من القرن السادس ، حيث توفى سنة ٥٢٧ هـ ، وكانت وفاته قبل دخول الأدريسى صقلية عام ٥٣٣ هـ بست سنوات ، ولا ندرى ان كان الرجلان تلاقيا قبل ذلك فى مكان آخر خارج صقلية . والمعروف أنه شهد صقلية تسقط فى يد النورمان بلدا اثر بلد ، وهو فى هذا غير الشريف الأدريسى الذى دخل صقلية فى عهد الملك روجر الثانى بعد أن توطدت فيها أقدام الفاتحين ..

وهناك الشاعر المصرى السكندرى نصر الله بن قلاقس الذى نشأ بالاسكندرية بعد ولادته فيها سنة ٥٣٢ هـ . وكان مولعا بالأسفار وركوب البحار ، فقصد بالزيارة جزيرة صقلية سنة ٥٦٣ هـ — أى بعد وفاة الأدريسى بثلاث سنوات . ومن هنا لم يقدر للرجلين أن يتلاقيا . ولكنه التقى بقائد سياسى عربى فى الجزيرة اسمه « أبو القاسم بن الحجر » ، وكان زعيم المسلمين وقائد العرب فى صقلية فصنف له كتابا باسمه عنوانه « الزهر الباسم، فى أوصاف أبى القاسم» واختص ابن قلاقس بمدائحه هذا القائد الزعيم المحنك الذى كان ينافسه فى الزعامة مسلم آخر . وتدل الصفات التى خلعها ابن قلاقس على ممدوحه هذا فى

صقلية أنه كان رجلا من رجال القلم يدبر الأقاليم — أى الأقسام العسكرية — ولعله كان من رجال ديوان الطراز وديوان الأنشاء بعد أن أبقاهما النورمان على حالهما كسابق العهد بهما فى العصر الاسلامى .

ومن مدائح ابن قلاقس لأبى القاسم بن الحجر الزعيم العربى فى صقلية قوله :

وبيمنــــاك طير يمن وســـعد
أصـفر الظهر أســـود المنقار

قلم دبر الأقـــاليم فالـــكتب
به من كتـــــائب الأقـــدار

ياطراز الديوان والملك أصبحت
طـــراز الديوان والأشـــعار

ومن شـــعراء الأندلس المعاصرين للشريف الأدريسى أبو بكر محمد بن قزمان المتوفى سنة ٥٥٥ هـ ، أى قبل وفاة الأدريسى بخمس سنوات . وكان ابن قزمان اماما للشـــعر العامى المعروف بالزجل فى عصره

أما الشاعر الأندلسى ابن خفاجة فقد أدرك الثلث الأول من القرن السادس، حيث توفى سنة ٥٣٣ هـ، وكانت اقامته فى شرق

الأندلس حيث كانت صقلية قريبة الى شرقى البلاد ، أما الشاعر الأندلسى الآخر ابن عبدون فقد أدرك عشرين عاما من القرن السادس حيث توفى سنة ٥٢٠ هـ ، وهو صاحب القصيدة الرائية التى رثى بها ملوك بنى الأفطس ، ومطلعها :

الدهر يفجع بعد العين بالأثر

فما البكاء على الأشباح والصور ؟

وكان القرن السادس يحفل بحفنة من الرحالة والجغرافيين العرب منهم أبو عبد الله المازنى الغرناطى المتوفى سنة ٥٦٥ هـ — أى بعد وفاة الأدريسى بخمسة أعوام ، وهو من مواليد غرناطة ، وقد رحل الى الشرق فزار مصر ، وبغداد وحلب وخراسان ، وكان آخر مطافه بدمشق حيث مات فيها . وهو صاحب كتب فى الرحلات وعجائب المخلوقات . وله كنيتان اشتهر بهما : أبو حامد ، وأبو عبد الله ، وكانت هاتان الكنيتان ، بما صحبهما من طول اسمه ، سببا للخلط فى التعريف به عند بعض الباحثين . وقد ترجم له كراتشكوفسكى ، وجرجى زيدان ، والدكتور حسين مؤنس تراجم متفاوتة بين الايجاز والتوسط .

أما محمد بن أبى بكر الزهرى فقد عاش فى النصف الأول من القرن السادس الهجرى ، وقد بلغ من جهالة أمره أنه أطلق

عليه اسم « مؤلف المرية (١) المجهول » ويرجع ذلك الى اللبس والغموض الذى يدور حـول مخطوطات مصـنفه . وقد اهتم الزهرى فى كتابه بأوصاف الأندلس والمغرب وجزيرة صـقلية ، وكان للأندلس من كتابه أوفى نصيب . وفى ذلك العصر أيضـا عاش الفقيه أبو بكر محمد بن العربى المتوفى سنة ٥٤٣ هـ، واذا كانت قد غلبت عليه ناحيتا الفقه والقضاء فان كتاب رحلته المفقود يصور لنا ناحية من اهتمامات علماء ذلك العصر بأدب الجغرافية الوصفية والرحلات. وكثيرا ما نرى ابن خلدون، والمقرى صاحب « نفح الطيب » ينقلان عنه . ويبدو أن الرجل كان مولعا فى كتاب رحلته بالحديث عن صنوف العجائب والغرائب ، ولعله وجد فيها مجالا لارضاء أذواق القراء الذين يؤثرون أخبار العجائب .

ولن يفوتنا هنـا أن نذكر اسم ابن جبير الكنانى الرحالة المشهور فى القرن السادس ، وقد مات فى أواخر ذلك القرن ، أى بعد الادريسى ببضعة وعشرين عاما . وفى رحلته من الأوصاف مايدل على الدقة والتنبه والملاحظة القوية . وله فى وصف صقلية وبلدانها أوصاف بالغة الدقة ، ويبدو من خلال حديثه عنها — فى خلال رحلته اليها — اساه البالغ على ما صار اليه أمر المسـلمين والعرب فى تلك البلاد ، ولاينى فى أكثر من موضـع من رحلته يدعو الله أن يرد هذه الأرض الى أصحابها المسلمين ..

---

(١) المرية Almeria بلد مشـهور بالاندلس ، وهى مرفأ على البحر المتوسط . وكانت قديما من مدن مملكة غرناطة .

ولما كان التاريخ صنوا للجغرافيا ومكملالها ، فأننا لن يفوتنا في هذا المقام أن نذكر أسماء بعض مؤرخين من الأندلس في القرن السادس ، ومنهم الفتح بن خاقان الأشبيلي المتوفى سنة ٥٣٥ هـ وصاحب كتابي « قلائد العقيان » و « مطمح الأنفس » ، وابن بسام الشنتمري صاحب كتاب «الذخيرة» المتوفى سنة ٥٤٢ هـ ، وأبو القاسم السهيلي صاحب كتاب « الروض الأنف » في شرح السيرة النبوية لابن هشام ، وابن بشكوال المؤرخ المتوفى سنة ٥٧٨ هـ وصاحب كتاب « الصلة » الذي جعله ذيلا على كتاب « تاريخ علماء الأندلس » لابن الفرضي ..

كتاب نزهة المشتاق

ان كتاب « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » هو الكتاب الذى عقد للأدريسى هذه الشهرة التى يتمتع بها بين الغربيين والشرقيين على السواء . وعلى الرغم مما كان للكرة الأرضية من الفضة التى صنعها ، وما كان لخريطته ومصوراته من شهرة عالية وقيمة علمية كبيرة ، فأن « نزهة المشتاق » ظل محتفظا بمكانته ، ولا يزال الى الآن نبعا ينهل منه كل غارف . ويحكى لنا كثير من الباحثين السبب فى تأليف هذا الكتاب . ويلخص لنا « بالنثيا » السبب بقوله : (ولما كان رجار قد رغب فى أن يكون لديه كتاب فى صفة الأرض ، مؤلف عن مشاهدة مباشرة لا مستخرج من الكتب ، فقد تصدى الأدريسى لوضع ذلك الكتاب، وانتخب نفرا من أذكياء الرجال ، وبثهم فى شتى النواحى يصاحبهم الرسامون ، وجعل يتلقى ما يعودون به ويسجله أولا

بأول ، وفرغ من كتابه سنة ٥٤٨ هـ ـــ ١١٥٤ م ، ثم أضاف اليه أجزاء أخرى فيما بعد ، وسماه «نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق». ويعرف كذلك بالكتاب الرجارى ..) ويبدو من هــذا النص انه مأخوذ من المقدمة التى كتبها الأدريسى نفسه لكتابه . وفيهـــا يصرح الادريسى بأنه لما اتسعت أعمال مملكة الملك روجر وأطاعته البــلاد الرومية .. أحب أن يعرف كيفيات بلاده حقيقة ، ويقتلها يقينا وخبرة ، ويعلم حدودها ومسالكها برا وبحرا وفى أى اقليم هى وما يخصها من البحار والخلجان الكائنة بها ، مع معرفة غيرها من البلاد والأقطار فى الأقاليم السبعة .

وأقدم طبعة عربيــة لهــذا الكتاب فى سنة ١٥٩٢ م بمطبعة الميديتشى بمدينة رومة تحت عنوان طويل هو « نزهة المشتاق ، فى ذكر الأمصار والأقطار والبلدان والجزر والمدائن والآفاق » . وهذه الطبعة نادرة الوجود ، ولعلها أقدم طبعات الكتاب بالعربية. وتضم مكتبة باريس نسخة خطية كاملة من هذا الكتاب .

ولنزهة المشتاق أكثر من مخطوطة واحدة موزعة فى أنحــاء متفرقة من العــــالم ، وبين بعض المخطوطات فروق بالنقص أو الزيادة أو الاضطراب ممــا يفضى الى الحكم بأن الأدريسى قد ترك مسودات عديدة للكتاب . وكان للمستشرقين فضــل اظهار هذا الكتاب وطبعه وتحقيقه ، فطبع دوزى القسم المختص بالمغرب والسودان ومصر والأندلس فى مدينة ليون سنة ١٨٦٤ ، ويذكر

جرجي زيدان — وعنه نقل المرحوم قدري حافظ طوقان — أن روزن (١) ملر طبع القسم الخاص بالشام وفلسطين سنة ١٨٢٨ فى مدينة ليبسك ، ولا ندرى شيئا عن هذه الطبعة أكثر من هذا . وطبع آمارى (٢) الايطالى القسم المختص بايطاليا سنة ١٨٨٥ فى مدينة روما ، مع الشروح والتعاليق . وطبع كوندى (٣) الاسبانى الأصل العربى مع ترجمة أسبانية ، وهو القسم الخاص بالأندلس وكان ذلك فى مدريد سنة ١٧٩٩ م . ونشر ساقدرا (٤) الاسبانى القسم الخاص بالأندلس ومصر والمغرب والسودان — وهو الذى نشره دوزى من قبل — ولكنه أعاده مصححا ومعدلا ، وكان ذلك فى مدريد سنة ١٨٨١ .

وقد اهتم بعض الرجال بترجمة نزهة المشتاق الى غير العربية. فقام العالمان المارونيان جبرائيل الصهيونى ، وحنا الحصرونى — وهما من أهل لبنان — بترجمة قسم من الكتاب الى اللغة اللاتينية ، وطبعت الترجمة فى باريس سنة ١٦١٩ م . وقد ورد اسم العالمين المارونيين محرفا فى بعض المصادر العربية بناء على خطأ فى الترجمة والتعريب ، فذكره المرحومان الدكتور محمد يوسف موسى والدكتور عبد الحليم النجار باسم : جبريل

(١) Rosen Muller مستشرق ألمانى توفى سنة ١٨٣٥ .
(٢) M. Amari مستشرق ايطالى توفى سنة ١٨٨٩ .
(٣) Conde مستشرق اسبانى توفى سنة ١٨٢٠ .
(٤) Savedra مستشرق اسبانى عاش فى نهاية القرن الماضى

سيونيتا ، وجون هسرونيتا !! وهو من مضحكات الترجمة والنقل ، فأن هذا المسخ هو اسمهما بالأفرنجية ، أما اسمهما بالعربية فكما ذكرناه . ومن العجيب أن الدكتور حسين مؤنس وقع فى هذا الخلط ، ولكنه حرف هسرونيتا الى : هزرونيتا !!. ولو أنه حقق بعض الشيء لاستبان له الوجه الصحيح فى اسم الرجلين . أما الدكتور فؤاد صروف مؤلف كتاب (الرواد) فقد ذكر الاسمين صحيحين هكذا : جبرائيل الصهيونى الأهدنى المتوفى سنة ١٦٤٨ ، والخورى يوحنا الحصرونى من جبل لبنان .

وقد ذكرنا فى فصل آخر شيئا عن ترجمة « نزهة المشتاق » الى الفرنسية على يد العالم الفرنسى آميديه جوبير (١) : وذكرنا بعض ما قيل فيها من الأخطاء والبعد عن الفهم ، وكونها معيبة غير أمينة . وقد تعرض لنقدها وبيان عيوبها نفر من المستشرقين ، وأشار زيبولد ، وألدوميلي . وكراتشكوفسكى . والأمير شكيب أرسلان وغيرهم الى أخطائها .

وقد بان لنا من مطالعاتنا الكثيرة حول الأدريسى أن نزهة المشتاق فى بعض أقسامها قد ترجمت الى اللاتينية ، والأسبانية ، والألمانية ، والروسية ، والفنلندية ، والفرنسية ، والايطالية ، والنمساوية . ولا ندرى ان كان براندل المستشرق السويدى قد

---

(١) هو المستشرق الفرنسى A. Joubert المتوفى سنة ١٨٤٧ وعلى الرغم من اهتماماته الكثيرة بالشرق وتاريخه الا انه كان متسرعا فى أعماله

ترجم قسما من النزهة الى اللسان السويدى أم لم يفعل ، بل اقتصر على بحثه الخاص بسورية وفلسطين من خلال وصف الأدريسي .

وعلى الرغم من الاسم الطويل لعنوان كتاب الأدريسى ، فأننا نرى الأيجاز يدخل اليه عند بعض المراجع ، ففى كتاب « الواف بالوفيات » للصفدى يذكر باسم (كتاب رجار) ! وهو من باب الغرائب فى الأسماء ، فقد نسب الى غير مؤلفه ، بل نسب الى الملك الذى أوصى به . ويذكره مؤرخنا ابن خلدون فى المقدمة باسم (كتاب رجار) أيضا ، وكأنه أخذ ذلك الاسم من الصفدى الذى كان سابقا له فى الوجود . ويذكره ابن خلدون غير مرة بهذا الاسم . ويسميه بالنثيا المستشرق الاسبانى باسم الكتاب الرجارى ، وهو هنا ينقل عن بعض المؤرخين . ويذكر كراتشكوفسكى الاسمين معا : كتاب رجار . والكتاب الرجارى . أما ما جاء فى بعض الكتب من أن اسمه « الكتاب الرجاوى » (١) بواو قبل الياء الأخيرة فهو من أخطاء الطباعة كما لا يخفى .

وعلى الرغم مما خدم به كتاب « نزهة المشتاق » فأنه لا يزال يحتاج الى عناية أكبر ، والى تحقيق أكثر ، والى معاودة النظر فى كثير مما نشر من نصوصه العربية التى تحتاج الى ضبط

---

(١) سمى بالكتاب الرجاوى فى كتاب « الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى » للدكتور زكى محمد حسن ، وهو خطأ مطبعى .

وتحقيق ومقابلة بين النسخ الخطية من الكتاب ومعارضة بينها . ويرى زيبولد ضرورة اعادة نشر كتاب الأدريسى الذى يعد أعظم مصنفات العصور الوسطى فى الجغرافيا، مع ترجمته وشرحه وعمل خرائط هامة له ، ويعتمد فى ذلك على المخطوطات المعروفة لنا من هذا الكتاب فى مكتبات باريس وأكسفورد وأستانبول . وبهذه المناسبة نذكر أن لنزهة المشتاق مخطوطتين فى باريس ، واثنتين فى أكسفورد ، وواحدة فى أستانبول . ويرى المستشرق الروسى كراتشكوفسكى أن طبع الكتاب كله كاملا لا يتيسر لاتساع مجال بحوثه ودراسته . ويؤكد لنا اقتناع العلماء بصعوبة العمل فى كتاب « نزهة المشتاق » كوحدة قائمة بذاتها ، وذلك لتعدد البلاد التى يصفها ، وتنوع المادة العلمية التى يأتى بها . وردد كراتشكوفسكى الرأى القائل بالاقتصار على دراسات محددة لكل قطر من الأقطار المختلفة . وذلك هو الاتجاه الذى يجرى عليه العمل الآن .

وقد يكون من الملائم هنا أن نذكر بأيجاز رأى العلماء الأجانب والعرب فى هذا الكتاب الذى يقول عنه « بالنثيا » المستشرق الأسبانى : (أن الكتاب حافل بالمعلومات الصحيحة فى الغالب ، ومادته وافرة عن البلاد الأوربية التى تسكنها شعوب نصرانية) . ويقول عنه الباحث الهندى نفيس أحمد : (والكتاب بالتأكيد هو أكبر نموذج بارز لانصهار المعلومات الجغرافية

القديمة مع المعلومات المتجددة) . وتقول دائرة المعارف الفرنسية : (ان كتاب الأدريسى فى الجغرافية هو أعظم وثيقة علمية جغرافية فى القرون الوسطى ..) ويقول عنه المرحوم الدكتور أحمد أمين فى كتابه « ظهر الاسلام » : (وألف الأدريسى فى الجغرافيا كتابه المشهور « نزهة المشتاق فى ذكر الأمصار والأقطار والبلدان والجزر والمدائن والآفاق » وشحنه بالخرائط اللازمة التى تزيد عن الأربعين خريطة ، وكان أعظم كتاب فى الجغرافيا فى زمنه ، ولذلك ترجم الى اللغة اللاتينية وطبع ..) . ويقول عنه المرحوم الأستاذ عبد المتعال الصعيدى : (وهو أصح كتاب وضعه المسلمون فى علم الجغرافيا . وقد اشتمل على ماذكره المتقدمون فى هذا العلم ، وجمع اليه ما استفاده صاحبه من تلك الرحلات الطويلة . وكانت له فيها نظرات انتقادية تدل على سعة أفقه ، وتمكنه من الحقائق الأساسية لعلم الجغرافيا مثل كروية الأرض وغيرها) . ويقول عنه الدكتور زكى محمد حسن : (وطبيعى أيضا أن يمتاز كتاب الأدريسى بغزارة مادته فى جغرافية المغرب وصقلية مما يشهد له بأنه ساح فى تلك الآفاق . أما فيما يخص الشرق فقد نقل كثيرا عمن سبقه من المؤرخين ، ومع ذلك كله فأن ماكتبه عن مصر والشام وفرنسا وايطاليا وألمانيا والأراضى المطلة على البحر الادرياتيك يشهد بأنه أفاد كثيرا من سياحاته الخاصة أو سياحات غيره من الرواد ..) ونختم هذه

الآراء المنصفة برأى المستشرق الفرنسى دى سلان (1) الذى أبداه فى خلال بحث له نشر بالمجلة الأسيوية الفرنسية عدد أبريل سنة ١٨٤١ م يقول فيه : (ان كتاب الادريسى لا يمكن أن يوازن به أى كتاب جغرافى سابق له ، وان ثمة بعض أجزاء من المعمورة لايزال هذا الكتاب دليل المؤرخ والجغرافى فى الأمور المتصلة بها).

ويجد القارىء فى غير هذا الفصل دفاعنا عن كتاب « نزهة المشتاق » بصدد ما اتهمه به بعض المستشرقين — وخاصة بالنثيا الأسبانى — من أنه يشتمل على بعض الخرافات .

---

(١) هو البارون الارلندى الاصل الفرنسى الجنسية De Slane المتوفى سنة ١٨٧٨ .

مؤلفات أخرى

ذكر الباحثون والمشتغلون بدراسة الأدريسى ، كتبا أخرى له غير « نزهة المشـــتاق فى اختراق الآفاق » . ففى دائرة المعارف الاسلامية ينبهنا المستشرق زيبولد فى خلال المادة التى كتبها عن الأدريسى الى أن هناك كتابا للأدريسى صنفه للملك غاليوم الأول الذى خلف الملك روجر الثانى على حكم صقلية ، واسم هــذا الكتاب « روض الأنس ونزهة النفس » . ويصف زيبولد هـذا الكتاب بأنه ضخم، كما يذكر أن لهذا الكتاب اسما آخر هو كتاب « الممالك والمسالك » . ولم يبق من هذا المصنف الا مختصر فى مكتبة حكيم أوغلو على باشا بمدينة استنبول تحت رقم ٦٨٨ . ويزيد زيبولد فيقول أن أول من أشار الى هذا الكتاب المستشرق هورفتز عند ما كان ينقب فى مكتبـــات استنبول باحثــا عن مخطوطات فى التاريخ .

ويذكر الدكتور احسان عباس فى كتابه « العرب فى صقلية »

اسم هذا الكتاب من كتب الادريسى ، ويقرر فى الهامش أنه نقل هذا عن «خريدة القصر» للعماد الأصبهانى . ولكنا لم نطلع على مخطوط الخريدة الذى يشتمل على هــذا النص . وأشــار الى « روض الأنس ونزهة النفس » أيضا الدكتور شوقى ضيف فى كتابه « الرحلات » ، ثم ذكره باسمه الآخر : المسالك والممالك ، كما فعل زيبولد فى مادة الادريسى بدائرة المعارف الاســلامية . وأشار المستشرق الايطالى ألدو ميبلى فى كتابه «العلم عند العرب» الى كتاب « روض الأنس ، ونزهة النفس » هذا ، وذكر أنه لم يبق منه الا مختصر صــغير هو كتاب « روض الفرج ، ونزهة المهج » جمعه مصنف مجهول سنة ١١٩٢ م .

ونرى المستشرق الأســــبانى بالنثيا يذكر فى كتابه « تاريخ الفكر الاندلسى » أن الادريسى ألف كذلك « كتاب الممالك » الذى اعتمد عليه أبو الفدا . ولا نعلم نحن أن للشريف الادريسى كتابا فى الجغرافية باسم الممالك كما يذكر بالنثيا ، ولعله يقصد كتاب « المسالك والممالك » الذى هو عند زيبولد اسم آخر أو عنوان آخر لكتاب « روض الأنس ونزهة النفس » . ويشــير الدكتور فؤاد صروف فى كتابه « الرواد » ص ٤٦ الى كتــــاب « روض الأنس ونزهة النفس » ويصفه بأنه أعم من كتاب «نزهة المشتاق » ، واستعان به أبو الفدا ، وسماه كتاب « الممالك » . ويذكر صروف أن هذا الكتاب لا وجود له الآن ، وان كان يقال

ان منه نسخة فى مكتبة باريس الملكية .. وعجيب أمر كتاب الممالك هذا ، فالمستشرق زيبولد يسميه . الممالك والمسالك ، وشوقى ضيف يسميه : المسالك والممالك ، بتقديم أحد اللفظين على الآخر ، والمستشرق بالنثيا يسميه كتاب : الممالك ، وفؤاد صروف يسميه كتاب الممالك .

ويجيء كراتشكوفسكى فيذكر كتاب « روض الأنس ونزهة النفس » هذا ، ويقرر انه فيما عدا العنوان لا نكاد نعرف عن هذا المصنف الا شذرات قليلة حفظها لنا فى القرن الرابع عشر أبو الفداء الذى أطلق على الكتاب عادة اسم « كتاب المسالك والممالك » . والحق أن كراتشكوفسكى قد نقل هذا الكلام عن رينو (١) الفرنسى فى كتابه المشهور عن أبى الفداء . ويكرر كراتشكوفسكى ماذكره ميلى من أن « روض الفرج ونزهة المهج » . هو قطعة من كتاب روض الأنس ، أو الممالك والمسالك، كما وصفه بأنه يحتوى على أطلس كامل من ثلاث وسبعين خارطة، وقد عرف هذا المصنف فى الدوائر العلمية باسم الأدريسى الصغير، وذلك للتفريق بينه وبين كتابه الرئيسى المعروف باسم « نزهة المشتاق » .

ويذكر المرحوم قدرى حافظ طوقان أن للأدريسى كتاب

---

(١) هو المستشرق الفرنسى Reinaud المتوفى سنة ١٨٦٧ ومشاركاته فى الجغرافية العربية لا تنكر .

« روض الفرج ، ونزهة المهج » ، وهو مختصر لكتاب نزهة المشتاق .. هكذا قال المرحوم طوقان ، والمعروف — كما قال الدوميلى — أن « روض الفرج ونزهة المهج » هو مختصر لكتاب : « روض الأنس ، ونزهة النفس » .

ونجد عند الدكتور حسين مؤنس كلاما يلتقى مع ماذكره كراتشكوفسكي فيقول : (كتاب «روض الأنس ونزهة النفس»، أو كتاب « المسالك والممالك » . ولم نعثر عليه ، ولكن لدينا مختصرا له فى مكتبة حكيم أوغلو فى استامبول برقم ٦٨٨ . ولهذا المختصر عنوانان : أحدهما فى أوله وهو : « أنس المهج وروض الفرج» ، والثانى فى آخره ، وهو : «روض الفرج ونزهة المهج» ويسمى هذا المختصر بالأدريسى الصغير ، تمييزا له عن نزهة المشتاق الذى يسمى الأدريسى الكبير) (١) . كما يلتقى هذا الكلام مع ما سبق أن سجلناه هنا من كلام المستشرق زيبولد فى دائرة المعارف الاسلامية .

وقد دخل الشريف الادريسى ميدان علم النبات ، فألف فيه كتابا عنوانه « الجامع لصفات أشتات النبات » . وقد ضمنه ذكر أنواع المفردات من الأشجار والثمار والحشائش والأزهار والحيوانات والمعادن ، مع تفسير معجم أسمائها بالسريانية

---

(١) مجلة معهد الدراسات الاسلامية فى مدريد ، المجلدان ٩ ، ١٠ ص ٢١٩

واليونانية والفارسية واللاطينية والبربرية . وقـد جاء فى أوله : (الحمد لله الذى أحاط بكل شىء علما ، وأحصى كل شىء عددا . وبعد . فان أناســا من أهل زماننـــا يدعون ما لا علم لهم به ، وينتسبون الى معرفة الحشائش والأشجار والمعادن والحيوانات التى هى هيـولى الطب وعمدته ، ويزعمـون معرفة ما ترجمـة الفاضل دياسقوريدوس فى كتابه ، وشرح مبهمه الى ما دونه من ســائر الـكتب المؤلفة فى هــذا الفن .. ولما رأيت انهم خلطوا وغلطوا ، صرفت نفسى ، وأوقفت همى ، فألفت عند ذلك هــذا الكتاب ، ورتبت جميع أسمائه على نص حروف أبجد هوز ..) .

ويوجد من هــذا الكتاب نســـخة فى دار الكتب المصرية ـــ ١٥٢٤ ـــ مصورة عن مكتبة الفاتح بأستنبول رقم ٣٦١٠ ، كما أن منه نسخة مصورة بمعهد المخطوطات العربية .

وقد أشار « الدوميلى » الى أن للادريسى كتاب الصيدلة المبدوء بمقدمة عامة تتسم بطابع البحث فى النباتات ، وكشف عنه أخيرا فى مخطوط بمكتبة فى استنبول . وقد ترجم مايرهوف بعض مقتبسات منه ، وقدم فكرة عامة عن الكتاب كله فى دراسة لعلم النبات العام والصيدلة عند الأدريسى . كما أشار الى هذا الكتاب أيضا المستشرق كراتشكوفسكى ، وذكر رأى مايرهوف فيه ، وأنه لايخلو من بعض الأهميـة ، ولو أنه لا يمكن وضـعه فى مرتبة واحدة مع المصنفات الممتازة فى هذا الباب كرسالة البيرونى.

ومن الطريف أنه لا يرتبط فى شيء باسم ثيوفراست الذى يرجع اليــه العرب عادة فى هــذا الفن ، أو بكتاب النبات المنســوب لأرسطو . ويلى مقدمة الكتاب وصف لثلاثمائة وستين نباتا لايخلو من بعض القيمة من وجهة علم النبات Botany . وأشار الدكتور أحسان عباس الى كتاب « الجامع لأشتات النبات » ، ولم يقطع بأن الادريسى ألفه فى صقلية . وقد أشار ابن أبى أصيبعة فى كتابه « عيون الأنباء ، فى طبقات الأطباء » الى كتاب للأدريسى فى « الأدوية المفردة » ، ولم يذكر له غــيره من كتب الجغرافية والنبات ، لأنه اهتم بالكتب التى تدخل فى مجال الطب والأطباء . وقد أشار بالنثيا الى كتاب «الأدوية المفردة» أيضا ، ولعله نقل ذلك عن « عيون الأنبــاء » . ولا ندرى كيف فات المستشرق كراتشكوفسكى أن يشير الى كتاب الأدوية المفردة للادريسى مع حرصه على ذكر كل شيء يتعلق بهذا العربى العظيم ؟

خريطة الإدريسي ومصوراته الجغرافية

ان الخريطة التي حفرت على اسطوانه من الفضة والتي صنعها الأدريسي بمعاونة روجر الثاني وتشجيعه هي غير الكرة من الفضة التي عفى عليها الزمان ولم يبق عليها ، بل أبقى على اسمها وبعض أوصافها . ويظهر أن الأدريسي وضع لكل قسم من أقاليم العالم السبعة خريطة خاصة ، بالأضافة الى الخريطة العامة التي استخرج منها « كونراد ميلر » طبعة كاملة نشرت في استوتجارت ما بين عامي ١٩٢٦ ، ١٩٣١ .

ويحدثنا المستشرق الايطالي «الدومييلي» عن المرحلة الثالثة لصنع الخرائط الجغرافية العربية ، وهي المرحلة التي يمثلها الجغرافي العربي الشريف الأدريسي . وتبدو في هذه الخريطةالعناية بالجغرافية الرياضية ، كما أن الرسم فيها تتسع دائرته فلا يقتصر

على أقليم من الأرض أو على مجموع الأقطار الاسلامية ، بل يشمل كل العالم المعروف فى زمانه .

وحين نشيد هنا بذكر الأدريسى فى عمل هذه الخريطة المشهورة ، فلن ينسينا ذلك الاشادة بذكر روجر الثانى الذى شارك فى اعداد الخريطة الكبيرة للأدريسى ، والذى ساعد — بما له من سلطان الملك ووفرة المادة — على جمع المعلومات وتجميع المعارف الجغرافية التى استغلها الأدريسى واستخدمها فى صنع الخريطة .

وقد نالت خرائط الشريف الادريسى عناية كبيرة من دراسات المستشرقين ورجال البحث العلمى الجغرافى . وهى بالطبع فى مكان التقدير على الرغم مما وجه اليها من ملاحظات ونقدات . ولم يكن الأدريسى أول من صنع الخرائط الجغرافية من العرب والمسلمين. فقد سبقته فى ذلك جهود حين بدأ العرب برسم الخرائط فى صدر الدولة العباسية عقب ترجمة كتب الفلك والجغرافية الى اللغة العربية . وكان قياس العرض والطول هو الأساس الذى أقيم عليه أول رسم للخرائط العربية ، ولعل صاحب المبادرة الأولى فى هذا الميدان هو محمد بن موسى الخوارزمى من أكبر علماء الرياضيات فى عصر المأمون ، فأنه عين مواقع المدن والبحار بالدرجات الجغرافية المؤسسة على علم الفلك كما فعل بطليموس. وفى خطوة تالية لصنع الخرائط عند العرب أهملت درجات العرض

والطول .. وكانوا يجدون صعوبة فى تحـديد الأماكن بالأقيسة فاكتفوا بتعيين مواقع البلاد بالنظر الى الجهـات الأربع الأصلية بغض النظر عن تقدير الأبعاد بينها . ولم يكن الشـمال فى أعلى الخرائط ، والجنوب فى أسفلها ، والشرق فى يمينها ، والغرب على يسارها كما نجده فى الخرائط اليوم ، بل قد نجد الشمال فى أعلى زاوية اليمين ، ويقابله الغرب فى أعلى زاوية اليسار ، كمـا فى خريطة بين النهرين المنقولة عن الأصطخرى .

وفى خرائط الأدريسى نجد تطور عمـل الخرائط العربية فى ثالث مراحله . وبدت دقة رسم الشواطىء والأنهـار ، وتحديد درجات الطول والعرض ، ومطابقة الواقع الطبيعى . وعلى الرغم من مراعاة الادريسى لطريقة بطليموس فى رسم الخرائط فانه قد زاد عليه فى الدقة وارتفاع المستوى فى الأداء ، ويؤكد لنا هذه الحقيقة المستشرق الايطالى : ألدو ميلى (١) .

وقد انضم كراتشكوفسكى الى الدومييلى فى حسبان مرحلة الادريسى هى الأوج الذى بلغه فن رسم الخرائط الجغرافية عند العرب . وعلى الرغم من بعض المآخذ التى أخذت على خرائط الادريسى فان أطلسه يعد أهم أثر لعلم رسم الخرائط العربية . بل لعله أهم أثر لعلم الخرائط الجغرافية فى العصـور الوسطى

(١) العلم عند العرب ، ص ٣٦٤ .

بأجمعها . واذا كانت هذه الشهادة الأخيرة هي مافاه به المستشرق النمسوى « مجيك » من علماء القرن العشرين ، وقد نقلها عنه المستشرق الروسى كراتشكوفسكى ، فان هناك شهادة أخرى للمستشرق الفرنسى « ريسلر » الذى يقول فى كتابه « الحضارة العربية» : (.. ومصورات الادريسى التى تعترف بكروية الأرض كانت تتويجا لعلم المصورات الجغرافية فى العصر الوسيط ، بوفرتها ، وصحتها ، واتساعها) .

ولا يفتأ المستشرق الايطالى «الدومييلى» يشيد بعمل العرب والادريسى خاصة فى تطوير علم صناعة الخرائط وتحسين ماوصل ألينا من بطليموس فى هذا الصدد . ما أكثر انصاف هذا المستشرق العميق البحث وهو يقول : (وبواسطة الدليل الجغرافى لبطليموس نفسه ، عرف العرب أيضا وضع الخرائط وضعا علميا مبنيا على تعيين الطول والعرض فى العناصر الجغرافية المختلفة ، حيث وصلوا بذلك — على يد الادريسى — الى تحقيق خطوة جديرة بالاعجاب حقا فى هذا الفن الذى هو فرع عظيم الأهمية من الجغرافية العلمية) (١) .

ويشير باحث هندى معاصر هو الأستاذ نفيس أحمد الى جهود الشريف الأدريسى فى ميدان تقدم صناعة الخرائط الجغرافية :

---

(١) العلم عند العرب : الدو ميبلى ص ٤٦ .

ويصفه بأنه من غير شك من صناع الخرائط المشهورين (١) كما يشير فى موضع سابق من كتابه الى صنعه للقرص الذى يمثل نموذجا للعالم المعروف فى عصره ، مما أبرز مكانته بين صناع الخرائط المسلمين . ولا ينسى هذا الباحث المسلم أن يشير الى السبعين خريطة التى أعدها الأدريسى للمناطق الداخلية فى تقسيمه للأقاليم .

ويركز المرحوم قدرى حافظ طوقان حديثه عن الخريطة الجغرافية التى رسمها الادريسى ، ويجمع عناصر وصفها مما قرأه عنها فى كتاب الأستاذ عبد الله كنون المغربى عن الشريف الأدريسى، وما ورد خاصا بها فى كتاب « تراث الاسلام » ، ودائرة المعارف الاسلامية ، وما نشر من مقالات فى مجلات المقتطف ، والرسالة ، ويخرج بعد الوصف الدقيق للخريطة وتقسيم العالم فيها بأن علماء الجغرافيا والباحثين فى أوربا وأميركا قد قدروا عبقرية الادريسى فى رسم خريطته ، فقد حاول بتقسيمه الأرض الى الأقاليم السبعة اثبات درجات العرض وتحديدها ، وأنه أفلح فى هذه المحاولة الى حد بعيد (٢) .

وقد يكون أضبط فى التعبير عن الناحية الفنية من خريطة الادريسى أن ننقل هنا بعض ما وصفه بها المرحوم قدرى حافظ

(١) جهود المسلمين فى الجغرافيا ص ١٤٣ .

(٢) العلوم عند العرب لقدرى حافظ طوقان . ص ١٨٨ .

طوقان قائلا : (لقد قسم الادريسى كلا من الأقاليم السبعة الى عشرة أقسام متساوية من جهة الغرب الى جهة الشرق . وهـذا التقسيم وان لم يدل على درجات الطول فانه يسـهل القيـام بالمهمة ، ويعين على رسم الخريطة .

وقد وضع لكل قسم من هذه الأقسام السبعين خريطة خاصة، زيادة على الخريطة الجامعة . وهذه الخرائط السبعين ــ كذا ــ محفوظة فى مختلف النسخ الموجودة من كتاب نزهة المشتاق، ومنها استخرج ميلر خريطة الأدريسى ونشرها بالحروف اللاتينية) (١).

وظلت خريطة الادريسى قرونا غير قليلة مرجعا لعلماء أوربا فى علم الجغرافية . ويؤكد هذا ما قاله جوتيه : (انه لم يكن لأوربا مصور جغرافى للعالم الا ما رسمه الادريسى ، وهو خلاصة علوم العرب فى هذا الفن ، ولم يقـع الادريسى فى الأغلاط التى وقع فيها بطليموس فى هذا الباب) .

والحق أنه لم تكن أوربا وحدها هى المسـتفيدة من خريطة الادريسى الكبرى وخرائطه الأخرى السبعين ، فقد ظلت رائدا لصناع الخرائط العرب بعد ذلك . ولاشك أن ازدهار عمـل الخرائط والمصورات الجغرافية فى تونس وشمال أفريقية بعـد القرن الخامس عشر الميلادى يرجع الى متابعة القوم هناك لصنعة

---

(١) العلوم عند العرب : قدرى حافظ طوقان . ص ١٨٨ .

الأدريسى وعمله الكارتوجرافى . ويشـــير كراتشكوفسكى الى أجيال ثمانية أو تسعة من أسرة الشرفى الصفاقسى بتونس شاركت فى صنع خرائط جغرافية تأثر فيها أفرادها بطريقة الأدريسى فى عمل الخرائط .

وفى القرن التاسع عشر يظهر مؤرخ مغربى اسمه أبو القاسم ابن أحمد الزيانى ـــ توفى سنة ١٨٣٣ م ـــ فيقوم على الرغم من كبر سنه برسم خريطة الأدريسى بدائية كل البداءة ، ولكنه يحذو فيها حذو الشريف فيقسم العالم الى سبعة أقاليم . وعلى الرغم من سذاجة هذه الخارطة فانها تمثل الاتجاه الى تقليد الادريسى فى صنع الخرائط بعد أن مضت عليه القرون .

أما خريطة الأدريسى التى يصور بها منابع النيل فيشير اليها غير واحد من الباحثين الأجانب والمسلمين . ويصفها المرحوم عباس محمود العقاد قائلا : (ولا يعرف أن أحدا سبق الأدريسى الى بيان الحقيقة عن منابع النيل العليا ، كما حفظت فى الخرائط التى بقيت فى بعض المتاحف الأوربية ، ومنها خريطة محفوظة بمتحف سان مرتين الفرنسى ترسم النيـــل آتيا من بحيرات الى جنوب خط الاستواء ، بعد أن تخبط الجغرافيون فى وصف منابعه ، وتعليل فيضانه منذ أيام هيرودوت الملقب بأبى التاريخ) (١) .

---

(١) أثر العرب فى الحضارة الاوربية لعباس محمود العقاد . ص ٤٦ .

ويخطو الاستاذ عباس محمود العقاد فى تقدير الخرائط الجغرافية العربية وخرائط الادريسى خطوة أخرى أبعد من هذا فيقرر انه من هذه الخرائط المرسومة والآراء النظرية تلقى كريستوف كولمبس صورته عن الكرة الأرضية ، وتخيل أن الأرض كثمرة الكمثرى المستطيلة ، ترتفع قمتها فى الهند ، وترتفع لها قمة أخرى مقابلة لها فى مكان آخر يشبه اقليم الهند بمناخه وثمراته ومحصول أرضه ومائه .. وهو فضل يحسب للعرب فى كشف العالم (١) الجديد ..

ولا يفوتنا هنا أن نختم هذا الفصل باتجاه همم العرب اليوم الى احياء خريطة الأدريسى وردها الى أصلها العربى الصحيح . وكان للمجمع العلمى العراقى ببغداد فضل المبادرة فى هذا الميدان، فقام بعض أعضائه ، وهما الأستاذ محمد بهجت الأثرى ، والدكتور جواد على بعبء هذا العمل المجيد ، بعد الرجوع فى التحقيق والتصحيح الى خمس نسخ مصورة من كتاب « نزهة المشتاق »، وطائفة من كتب الجغرافية العربية القديمة . وكانت استدراكات المحققين على « ميلر » وبيان اختلاف النسخ أهم ما فى هذا الأنجاز الجديد من آثار . وتبلغ مساحة هذه الخريطة فى ثوبها الجديد مترين مربعين بطول مترين فى عرض متر واحد . وكان

---

(٣) المصدر نفسه ص ٤٧ .

صدور هذه الخريطة المحققة للشريف الادريسى عن المجمع العلمى العراقى فى سنة ١٩٥١ .

وليت الاهتمام بخريطة الأدريسى يؤجج الاهتمـام بكتاب « نزهة المشتاق » ، فيخرج على الوجه الذى نود أن يخرج عليه بعد أن يئسنا من الحصول على نسخة واحدة محققة منه ، يطمئن اليها الباحث ، ويفيد منها الدارس .

كرة أرضية من الفضة

لقد تحدث الشريف الأدريسى نفسه فى مقدمة كتابه « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » عن الكرة الأرضية من الفضة التى أمر الملك روجر الثانى بصنعها ، والتى أشرف الأدريسى نفسه على عملها بوساطة الفعلة الماهرين . وندع الادريسى نفسه يتحدث عن هذه الكرة الأرضية بقوله : (فأمر عند ذلك أن يفرغ له من الفضة الخالصة دائرة مفصلة عظيمة الجرم ، ضخمة الجسم فى وزن أربعمائة رطل بالرومى ، فى كل رطل منها مائة درهم واثنا عشر درهما . فلما كملت أمر الفعلة أن ينقشوا فيها صور الأقاليم السبعة ببلادها وأقطارها ، وسيفها وريفها ، وخلجانها وبحارها . ومجارى مياهها ، ومواقع أنهارها ، وعامرها وغامرها ، وما بين كل بلد منها وبين غيرها من الطرقات المطروقة ، والأميال المحدودة ، والمسافات المشهورة ، والمراسى المعروفة ، على نص

ما يخرج اليهم ممثلا فى لوح الترسيم ، ولا يغادروا منه شيئا ، ويأتوا به على هيئته وشكله كما يرسم فيه) .

وكانت هذه الكرة الأرضية ولا تزال موضوع الحديث عند الباحثين الذين يتحدثون عن الأدريسى فى معارض مختلفــة . وتناولها الكتاب والمؤرخون من زوايا مختلفة من وجهات نظرهم، ثم زاد بعضهم فأضفى عليها من الزيادة والخيال ما يسمح به المجال . ولعل جرجى زيدان هو أول من لفت الأنظار من الباحثين العرب المحدثين الى هذه الكرة الفضية ، فنقل بعض أوصافها السابقة عن كتاب « نزهة المشتاق » للشريف الأدريسى . ولم يفت المرحوم أحمد زكى باشا أن يشير الى هذه الكرة فى بحثه الذى نشره بالمقتطف سنة ١٩١٢ عن جغرافية الشريف الادريسى. ويصادفنا فى كتاب « معجم المطبوعات العربية والمعربة » ليوسف أليان سركيس وصف وجيز لهذه الكرة نقله عن كتاب « تاريخ سورية » للمطران يوسف الدبس . ولمـا أصـدر الأمير شكيب أرسلان كتابه « الحلل السندسية فى الأخبار والآثار الأندلسية » ونقل فيه وصف الأدريسى لبلاد الأندلس ، لم يفته أن يشير فى ايجاز الى الكرة الأرضية من الفضة التى صنعها الأدريسى للملك روجر الثانى الصقلى (١) . وحين ترجم المرحوم محمد كرد على للصلاح الصفدى فى كتابه « كنوز الأجداد » لم يفته أن ينقل

---

(١) الحلل السندسية جـ ١ ص ١١٩ .

النص الذى كتبه الصفدى عن الملك روجار الثانى حين استقدم الأدريسى من عدوة المغرب (ليصنع له شيئا فى شكل صــورة العالم ، فلما وصل اليه أكرم نزله ،وبالغ فى تعظيمه . فطلب منه شيئا من المعادن ليصنع منه ما يريد ، فحمل اليه من الفضة الحجر وزن أربعمــائة ألف درهم ، فصنع منهــا دوائر كهيئة الأفلاك ، وركب بعضا على بعض ، ثم شكلها له على الوضع المخصوص ، فأعجب بها رجار ، ودخل فى ذلك ثلث الفضة وأرجح بقليــل ، وفضل له ما يقارب الثلثين ، فتركه له اجازة) .

ويشير المرحوم الدكتور زكى محمدحسن الى هذه الكرة (١) قائلا : (ووقع اختياره ـــ يعنى روجر الثانى ـــ على الشريف الأدريسى ليصنف له كتابا فى وصف الكرة الأرضية الفضية التى صنعت له ، مرسوما عليها جميع الأقاليم المعروفة حينئذ) . وحين تحدث الأستاذ فؤاد صروف فى كتابه « الرواد » عن الأدريسى أشار الى هذه الكرة قائلا : (وعمل له ـــ يعنى لروجر الثانى ـــ ذات حلق وكرة مسطحة من الفضة ، زنتها ثمانى مائة مارك رسم عليها جميع أقاليم وأقطار المعمورة المعروفة فى عهــده (٢) . أما المرحوم عباس محمود العقاد فلم يفته أن يتحدث عن هذه الكرة

(١) الرحالة المسلمون فى العصور الوســطى : للدكتور زكى محمــد حسن ص ٦٤ .

(٢) الرواد فؤاد صروف ص ٤٦ . طبعة ثانية .

الفضية قائلا :) وصنع له الملك كرة فضية تمثـل كرة الأرض زنتها أربعمائة رطل رومى ليتخذها مثالاً لما يثبته من معالم الكرة الأرضية (١) وكذلك فعل المرحوم قدرى حافظ طوقان فىالفصل الذى عقده عنالجغرافيا عند العرب فى كتابه «العلوم عندالعرب» فقد أشار الى هـذا الانجـاز قائلا : وعمل لروجر خارطة على كرة مسطحة من الفضة ورسم عليها الاقاليم والاقطار التى كانت معروفة فى زمانه (٢)) وظهر كتاب حديث للأستاذ المغربى عبدالله ابن العباس الجرارى عنوانه «تقدم العرب فى العلوم والصناعات وأستاذيتهم لأوربا » أشار فى خاتمته الى الادريسى قائلا عنه انه صنع للملك روجر الثانى (كرة من الفضة رسم عليها أنحـاء الأرض المعروفة لعهده) (٣) .

أما المؤرخ العربى اللبنانى الدكتور فيليب حتى ، فقد أوجز الاشارة الى هـذه الكرة الفضية فى كتابه المشـهور « تاريخ العرب » قائلا : (وعلاوة علىهذا الكتاب ـــ يعنى نزهة المشتاق ـــ فأن الأدريسى صـنع لولى نعمته النورمندى كرة سـماوية وخريطة للعالم فى شكل قرص ، وكلاهما من الفضة) (٤) .

---

(١) أثر العرب فى الحضارة الاوربية ، لعباس محمود العقاد ص ٤٦ .

(٢) صفحة ٦٨

(٣) صفحة ٢٤٤ من كتاب « تقدم العرب » .

(٤) تاريخ العرب ، لحتى ص ٧٢٢ .

ويظهر أن نشوة المبالغة لم تفت بعض باحثينا الناشئين ، ففى كتاب «مآثر العرب على الحضارة الأوربية» لم يكتف المؤلف بأن يجعل كرة الأدريسى من الفضة كما أجمع المؤرخون القدامى والمحدثون ، فجعلها كرة جغرافية من ذهب (١) ، وكأنه استرخص الفضة على قدر الملك روجر الثانى ، وعلى قدر الشريف الأدريسى نفسه ، فحولها الى كرة من الذهب . وفى القسم الموسوعى من معجم « المنجد » ان الادريسى رسم للملك روجر الثانى ما عاينه من البلدان على كرة من فضة ..

ونلاحظ من عرض هذه الأقوال فى صفة الكرة من الفضة التى أنجزها الأدريسى للملك روجر الثانى أن هناك بعض الأسئلة التى يمكن اثارتها حول هذه القضية . فالنص الذى كتبه الادريسى نفسه فى مقدمة كتابه « نزهة المشتاق » لا يحدد لنا على سبيل اليقين من الذى صنع هذه الكرة من الفضة . ويؤخذ منه أن الفعلة هم الذين نقشوا عليها صور الأقاليم . وليس الفعلة هنا مجرد صناع عاديين ممن صبوا جسم الكرة من الفضة ، ولكنهم على ما يبدو متخصصون فى رسم الخرائط والمصورات . وبالطبع كانوا يعملون تحت توجيه الادريسى واشرافه ومعرفته بالجغرافية . ويبدو أن الشريف الادريسى أراد أن ينكر ذاته فى مقدمته لنزهة المشتاق ، حتى ينسب الفضل كله للملك روجر الثانى كما

---

(١) مآثر العرب على الحضارة الاوربية ، للاديب جلال مظهر ص ١٥٨

يبدو فى استهلال المقدمة . ولعل النص الذى كتبه المؤرخ الدقيق صلاح الدين الصفدى ونقله الأستاذ محمد كرد على هو أصرح فى الدلالة على أن الادريسى نفسه هو الذى شكل هذه الكرة على الوضع المخصص .

ويبدو من كلام الدكتور زكى محمد حسن أن الكرة الفضية صنعت للشريف الأدريسى مرسوما عليها الأقاليم المعروفة فى عهده، وأن دور الأدريسى لم يكن الا تأليف الكتاب الذى يصف هذه الكرة . وكأنه — رحمه الله — نفى أى مشاركة أو توجيه من الأدريسى فى عمل هذه الكرة . ويستدل من كلام فؤاد صروف محرر المقتطف القديم أن « هذه الكرة من الفضة مسطحة » ، ولن تكون كرة مسطحة الا اذا كانت على شكل قرص أو رحى ، وهذا المفهوم لمعنى التسطيح فى الكرة هو الذى جعل الدكتور « فيليب حتى » يجعل الكرة السماوية وخريطة العالم على شكل قرص .

وبمناسبة الكرة السماوية نلاحظ أن الدكتور «فيليب حتى» يكاد يكون الوحيد الذى أشار الى كرة سماوية لا أرضية فهل صنع الأدريسى كرة للسماء غير الكرة التى صنعها للأرض ووصفها فى مقدمة كتابه ؟ وهل جاء هذا الوهم من وصف صلاح الدين الصفدى فى كتابه « الوافى بالوفيات » لهذه الكرة بأن الأدريسى (صنع منها دوائر كهيئة الأفلاك) ؟ والا لماذا انفرد

الدكتور « حتى » من بين الباحثين والمؤرخين جميعا بأن هناك كرة سماوية بجانب خريطة للعالم على شكل قرص ؟

ولا أكاد أذكر أننى وقعت على باحث غير عربى جعل كرة الأدريسى سماوية ، الا ما ذكره المستشرق الكبير كراتشكوفسكى من (أن العمل فى كتاب الادريسى قد مر بثلاثة أطوار ، وخلف وراءه ثلاثة آثار : أحدها أنموذج فريد فى نوعه للكرة السماوية ، وهو عبارة عن قرص من الفضة مرسوم عليه صورة العالم (١) .

وقد سكت المستشرق الروسى « بارتولد » سكوتا تاما عن وصف كرة الأدريسى الأرضية أو السماوية ، فجعلها (كرة كبيرة مجسمة من فضة) (٢) ولا ندرى الحكمة فى هذا السكوت ، أهو مقصود للتخلص ، أم هو اكتفاء بشىء مفهوم ؟ وقد تحولت الكرة من الفضة عند المستشرق الايطالى « الدوميلى » الى (رسم لسطح الأرض كان منقوشا فى لوح من الفضة) (٣) . ولعل هذا اللوح الفضى عند ميلى هو القرص من الفضة عند الدكتور حتى ، وهو الكرة المسطحة من الفضة عند الأستاذ فؤاد صروف .

---

(١) تاريخ الادب الجغرافى العربى ــ تأليف كراتشكوفسكى ص ٢٨٣ .

(٢) تاريخ الحضارة الاسلامية لبارتولد ص ٥٧ .

(٣) العلم عند العرب : تأليف الدو ميلى ص ٣٨٧ .

ومهما كان من أمر فأن الكرة الفضية التى عملها الأدريسى — أو عملت تحت اشرافه وتخطيطه وتوجيهه — لم تستطع أن تقاوم الزمان ، فقد ذكر كراتشكوفسكى نقلا عن « ميلر » أن الثوار حطموها ونهبوا أجزاءها عند اقتحامهم لقصر روجر الثانى فى عهد خلفه سنة ١١٦٠ م .

ولو ان هذه الكرة الثمينة بقيت وسلمت من الحدثان لوفرت علينا عناء الاختلاف فى وصفها ، ولأراحتنا من الاضطراب فى صفتها على نحو ما ذكرناه .

ولا مجال هنا أكثر ملاءمة من الأشارة الى أن المؤرخ الحضارى جون درابر قد أشار فى كتابه « تطور أوربا الفكرى » الى أن عرب أسبانيا كانوا يعلمون مادة الجغرافية فى مدارسهم العامة على كرات أرضية جغرافية . ولعل كرة الأدريسى كانت وحى هذه الطريقة فى مدارس الأندلس . ومنذ ذلك الحين أخذت الكرات الأرضية والسماوية تنتشر ويعم تداولها فى أقطار الأرض العربية ، وصار الناس يتهادونها كما تتهادى الكتب والألطاف .

ولم يسكت الشعر عن تسجيل هذه الظاهرة ، وفى الشعر سجل لأحوال وعادات اجتماعية كثيرة قد نخطئها فى غيره ، فقد

أهدى شاعر الى الشاعر المصرى جمال الدين بن مطروح المتوفى سنة ٦٤٦ هـ كرة أرضية واسطرلابا لمحيط السماء ، وكتب اليه :

كرة الأرض مع محيط السـماء
لـك أهديت ياكريم الاخـاء
واذا ما قبلتهـا فلك المنـة
عنـدى يا أكرم الكـرماء !

بين الأصالة والنقل

حينما كتب المستشرق الروسى مينورسكى (١) مادة «الروس» فى دائرة المعارف الاسلامية لم يفته فى خلال ذلك الفصل أن يشير الى الأدريسى اشارة طيبة ، فقد عده (الكاتب الوحيد الذى يمدنا بمعلومات أصيلة عن الروس بعد القرن العاشر ، فهو يتناولهم فى كلامه عن الأقليم السادس القسم الخامس « نهر الروس ، والمدن التى على نهر الدنيبر » وعن الأقليم السابع القسم الرابع والقسم الخامس « منابع الدنيستر ، الروسيا ، وقومانيا أى أرض القومان) . ووصف معلومات الادريسى هنا بأنها « أصيلة » يحمل شهادة جيدة ممن يملكون الشهادة من أهل الروس . وبالطبع كانت المعلومات التى دونها الادريسى فى كتابه « نزهة المشتاق ، فى اختراق الآفاق » هى تلك المواد العلمية التى جمعها

---

(١) هو العالم المحقق لتاريخ فارس : Minorsky المتوفى سنة ١٨٧٧ وقد خلفه آربرى فى الاستاذية بجامعة لندن .

له بالمشاهدة والمعاينة أولئك الرسل الذين أوفدهم الملك روجر الثانى الى أصقاع مختلفة من الأرض لجمع معلومات ومشاهدات وملاحظات يدونها الجغرافى العربى فى كتابه .

ولا شـك أن الرواد والرسل الذين بعثهم روجر الثانى الى الأقاليم المختلفة وخاصة فى أوربة . وأقصى أطرافها مثل اسكندناوة ـــ كانوا يجمعون البيانات وأوصاف البلاد وتحقيق معالمها بعد أن تغربل معلوماتهم ويقابل بعضها ببعض . وكانت عملية الغربلة هذه يقوم بها الأدريسى نفسه كآخر خطوة للجمع . وبهذا امتاز الادريسى على من سبقه من الرحالة والجغرافيين المسـلمين بأنه أضاف الى المعارف المعروفة فى وقته معارف جديدة لم يأت بهـا سابقوه من الجغرافيين . ولاشك أن الدقة والأصالة التى تمتاز بها معلومات الأدريسى عن بعض بلاد أوربا ومظاهرها الطبيعية ترجع الى معـاينة الرواد المبعوثين من ناحيـة ، والى بصره هو بعملية النخل والغربلة من ناحية أخرى .

ولقد أفادت معارف الأدريسى الجغرافية عن أوربا وأطرافها أكثر العلماء العرب الذين جاءوا بعده ، فقد أخذوا منها ونقلوا عنها . وبهذا عدَ هو رائدهم فى الميدان .

وما كتبه الادريسى عن سواحل لشبونة وفرنسـا وانجلترة يجعل بعض مترجمى سـيرته يميلون الى الاعتقاد بأنه رحل الى تلك الأماكن ، وان كان ذلك على غير سبيل القطع واليقين .

ولقد نتج عن اجتماع المعلومات القديمة والمعلومات الحديثة المنقولة على ألسن الرسل الموفدين نوع من اختلاط المادة عند الادريسى ، مما جعل المستشرق مينورسكى يقرر فى موطن آخر ان الادريسى يخلط المعلومات المأثورة عن السلف ، بالمعلومات التى كانت متداولة فى عصره ، بوضع بعضه االى جانب بعض ؛ فهو يذكر « كوبابه » مثلا ، مع كاو « كبيف » .

ومسألة النقل عند الادريسى لا تقدح مطلقا فى مكانته ، فان العلم ميراث يسلمه السابقون الى الآتين بعدهم . ولا يعاب باحث أو عالم بأنه نقل مادام هو نفسه يصرح بنقله ، ولكن العيب أن ينقل الرجل عن غيره ويخفى نقوله . وقد كان الأدريسى واضحا وصادقا فى نقله . فأنه فى مقدمة كتابه « نزهة المشتاق » ذكر المصادر التى نقل عنها ما بين عرب وغير عرب . وهى كتاب « العجائب » للمسعودى (١) ، وكتاب أبى نصر سعيد الجيهانى. وكتاب ابن خرداذبة ، وكتاب أحمد بن عمر العذرى ، وكتاب أبى القاسم محمد بن حوقل من علماء الجغرافية فى القرن الرابع الهجرى ، وكتاب جاناخ بن خاقان ، وكتاب موسى بن قاسم ، وكتاب أحمد بن يعقوب المعروف باليعقوبى ، وكتاب اسحاق ابن الحسن المنجم ، وكتاب قدامة البصرى ، وكتاب بطليموس

---

(١) هكذا ذكر الادريسى كتاب العجائب على أنه للمسعودى ، ولا يعلم أين هذا الكتاب الآن ، ولم يذكره المسعودى نفسه فى ثبت مؤلفاته .

الأقلودى، وكتاب أرسيوس الانطاكى. وهذه المصادر الاثنا عشر هى المراجع التى ذكرها الأدريسى على سبيل المثال لا الحصر فى مقدمة كتابه . ومن هنا لا محل للومه بأنه أغفل ذكر بعض المصادر التى رجع اليها واعتمد عليها . على أن المصادر التى ألفت قبله غير قليلة العدد ، ولاشك أنه استعان بهـا ، ولكنه ذكر ماذكره منها على سبيل المثال فقط ، ويؤكد هذا قوله فى المقدمة أنه يمثل ببعض مصادره ولا يحصرها كلها . ومن المصادر التى أفاد منها الادريسى ولم يذكرها : كتاب «البلدان» لابن الفقيه ، «ورحلة سليمان التاجر » التى نقلها وعلق عليها أبو زيد السيرافى ، وكتاب « رسم الربع المعمور » المعروف بصورة الأرض لمحمد بن موسى الخوارزمى ، وكتاب « الأعلاق النفيسة » لابن رستة الذى كتبه سنة ٢٩٠ هـ وهو فى اصبهان .

أما سليمان التاجر الذى نستنتج أنالادريسى أخذ عنه، فهو تاجر من أهل ســـيراف على الخليج الفارسى ، وترجع حكاياته ورحلاته البحرية الى سنة ٢٣٧ هـ ، وقد أضاف اليها رحالة عربى آخر هو « ابن وهب » بعض المشـاهد ، ثم دون الرحلتين بعد ذلك فى بداية القرن العاشر الميلادى أبو زيد السيرافى من أهل البصرة ، وأعطاهما شكلهما المعروف عندنا الآن ، مع أنه لم يكن رحالة ، ولكنه كان مغرما بحكايات الأسفار وغرائب الرحلات .

وحكاية نقـــل الأدريسى عن مؤلفين قبله كانت ولا تزال معلومة عند المؤرخين القدامى والمحدثين ، لأن الرجل نفســه لم يخفها . وقد أشار مؤرخنا ابن خلدون ، فى الفصل الذى عقده فى المقدمة على الكلام على الجغرافيا ، الى بعض المصــادر التى جمع منها الادريسى معارفه الجغرافية ، وذكر منها ســتة لا غير بدلا من الاثنى عشر مصدرا . والستة المصادر التى ذكرها ابن خلدون هى : كتاب المســعودى ، وابن خراداذبة ، والحــوقلى ـــ يعنى ابن حــوقل ـــ والعــذرى ، وابن اســحاق المنجم ، وبطليموس .

ومن طرائف التصحيف فى هذه المناسبة أن الأستاذ الدكتور «على عبدالواحد وافى» ذكر فى طبعته المحققة لمقدمة ابن خلدون اسـم العذرى على أنه « القدرى » بالقاف والدال المهملة غير المنقوطة . وهو من التصحيفات التى لم نجد بدا من الأشارة اليها هنا ، ونحن فى معرض التحقيق لمصادر الأدريسى الجغرافية .

وقد أشار المستشرق الاسبانى فى القرن التاسع عشر «بونس بويج » ، بصفة خاصة الى « العذرى » وكتابه الذى أفاد منه الادريسى ، ولا ندرى السر فى افراد العذرى بهذا ، فان الادريسى ذكره فيمن ذكره من مصادره . وعلى كل فالعذرى هذا هو أحمد ابن عمر المتوفى سنة ٤٧٨ هـ . وهو تلميذ لابن حزم الاندلسى ، وأستاذ ـــ فى الوقت نفسه ـــ لابن عبد البر القرطبى . وكتابه فى الجغرافية عنوانه « نظام المرجان فى المسالك والممالك » ، وهو

مفقـود اليوم ، ولكن الأدريسى اطلع عليه فى وقتـه وجعله من مصادره . ويجب أن لا يضللنا النسب فى اسم العذرى فيوقعنا فى لبس مع نسـبة أخرى هى « الدلائى » . والواقع أن العـذرى والدلائى هما نسبتان لرجل واحد هو أحمد بن عمر العـذرى هذا . وقد أفرده المستشرق الاسبانى بالنثيا باسم « الدلائى » ، مما يوهم أنه غير العذرى ، والحق أنه هو . ومن عجائب الوهم الذى يجوز على العلماء الباحثين أن صـديقنا القديم الدكتور حسين مؤنس قد جعل نسبته هكذا : (الدلالى) ، وهو خطـأ صـوابه : (الدلائى) بالهمزة فالياء ، نسـبة الى قرية دلاية من أعمال الأندلس .

ومن الباحثين الذين أشـاروا الى نقل الأدريسى عن غـيره المرحوم الشيخ عبد المتعال الصـعيدى فى كتابه « المجددون فى الاسلام» ، والأستاذ فؤاد صروف فى كتابه «الرواد»، والدكتور نقولا زيادة فى كتابه «رواد الشرق العربى فى العصور الوسطى»، والدكتور زكى محمد حسـن فى كتابه « الرحالة المسـلمون فى العصـور الوسـطى » ، والدكتـور شـوقى ضيف فى كتابه «الرحلات» ، والدكتور حسين فوزى فى كتابه « حديث السندباد القديم » .

وحين يروى الأدريسى عن أفواه الرواة وأصحاب الحكايات ورجال الرحلات فأنه يذكر ذلك ، كما نجـده فى القسم الخاص

بالهند من كتابه ، فأنه يقول : (ومما يحكى التجار المسافرون الى الهند عن ولادة الفيلة أن الأناث منها تلد أولادها فى المياه الراكدة) (١) ، أو يقول فى موطن آخر : (ومما يحكى فى الكتب الصحيحة الأخبار ..) (٢) ووصف الكتب هنا بصحة الأخبار هو توطئة لطمأنينة القارىء على أن الخبر الذى يرويه الأدريسى صحيح فى تقديره ..

ومما نقله الأدريسى عن سليمان التاجر ورحلته وصف النافورة البحرية الخطيرة التى تكون مصحوبة غالبا بظواهر اعصارية كالرعد والبرق والبرد . وبالطبع لم يقدر للأدريسى أن يركب المحيط الهندى ليرى تلك الظاهرة البحرية فيه ، ولكن سليمان التاجر ركبه من قبل ووصفها وصفا دقيقا نلحظه فى عبارات الأدريسى التى أخذها منه . كما نقل عن رحلة سليمان التاجر حكاية احراق الهنود جثث موتاهم حيث قال : (واذا مات الملك صنعت له عجلة على قدر عريضة ، ارتفاعها عن الأرض مقدار شبرين أو نحوها . وتوضع على العجلة قبة مكللة ، ويوضع الملك بحلية كفنه على تلك العجلة ، ويطاف به على المدينة كلها ، يجره عبيده ، ورأسه مكشوف لمن يراه ، وشعره ينجر على تراب الأرض ، وينادى عليه مناد بلسان الهندية بكلام تفسيره بالعربية :

(١) وصف الهند : طبعة الهند ص ٧٨ .

(٢) المصدر السابق ص ٨٤ .

« أيها الناس ! هذا ملككم فلان بن فلان ، عاش فى ملكه فارحا قادرا كذا كذاسنة . وها هو قد مات ، وفتح يده بما معه ، لا يملك من ملكه شيئا ، ولا يدفع عن جسمه أذى . ففكروا فيما أنتم اليه صائرون ، واليه راجعون » . كل هذا باللغة الهندية . فاذا فرغ من الطواف به ، خرج الى مكان النار التىمن عادتهم أن يحرقوا بها موتى ملوكهم ، فيلقونه فى النار حتى يحترق ..) (١) . ومما نقله الأدريسى عن المسعودى المؤرخ حكاية شجرة الوقواق ولكنه رفض تصديقها لعدم مطابقتها للعقل .

بقى أن نتناول فى ختام هذا الفصل أصحاب المصادر الذين نقل عنهم الأدريسى وذكر أسماءهم فى مقدمة كتابه « نزهة المشتاق » . وأولهم المسعودى المؤرخ والجغرافى صاحب كتاب « مروج الذهب » فى التاريخ ، وهو يعد من المؤرخين العرب أكثر مما يعد من الجغرافيين ، وان كانت رحلاته الدقيقة ذات قيمة كبيرة من الناحية الجغرافية ، وهو من ذرية الصحابى الجليل عبد الله بن مسعود ، ومن هنا جاءته نسبة المسعودى . وقد توفى سنة ٣٤٦ هـ . ويشير الأدريسى الى أنه صاحب كتاب «العجائب» ولا نعرف له كتابا بهذا الاسم ، ولعله ضاع فيما ضاع من كتبه النفيسة . ويظهر أن الأدريسى اطلع فى عصره على نسخة من هذا الكتاب فأفاد منه ونقل عنه .

---

(١) المصدر السابق ص ٦٢ .

أما أبو نصر سعيد الجيهانى ، فاسمه أبو عبد الله محمد ابن نصر الجيهانى وكان وزيرا لأمير من أمراء السامانيين هو الأمير نصر الثانى . ويذكر بعض المؤرخين السابقين أن الجيهانى (ألف كتابا فى صفة العالم وأخباره وما فيه من العجائب والمدن والأمصار والبحار والأنهار والأمم ومساكنهم ، وغير ذلك من الأخبار العجيبة والقصص الطريفة) • وكتاب الجيهانى مفقود الى اليوم وان كان موجودا فى عصر الأدريسى . ويرجح بعض الباحثين المعاصرين أن كتاب الجيهانى تم تأليفه قبل سنة ٣٠١ هـ ولكنها استنتاجات يعوزها الدليل الملموس • ولا يعلم بالضبط تاريخ وفاة الجيهانى وانكان جرجاس يزعم أنه توفى سنة ٩٥٦ م .

أما ابن خرداذبة ، فهو عبيد الله بن عبد الله، وهو من أصل فارسى ، وقد تلقى كثيرا من العلوم والفنون ، حتى لقد أرسله والده الى اسحاق الموصلى ليأخذ عليه الغناء والموسيقى . ومؤلفاته مفقودة حتى الكتاب الذى ذكره الأدريسى من مصادره ولعله كتاب « المسالك والممالك » الذى طبع ما عثر عليه منه فى ليدن بعناية واشراف المستشرق دى جويه . وليست وفاة ابن خرداذبة معلومة على سبيل اليقين والتحديد ، وانكان صاحب « كشف الظنون » يذكر أنها كانت حوالى سنة ٣٠٠ هـ ، ولكن جرجى زيدان يذكر أنه توفى فى أواسط القرن الثالث للهجرة .

والعذرى الذى ذكره الأدريسى على أنه من مصادره هو أحمد ابن عمر العذرى الذى كان تلميذا لابن عبد البر القرطبى. وكتابه « نظام المرجان فى المسالك والممالك » مفقود اليوم وان كان رجع اليه المؤرخون والجغرافيون القدامى التالون له من أمثال القزوينى والأدريسى وياقوت الحموى . والعــذرى هو من أهل الأندلس الذين رحلوا الى الشرق وجابوا كثيرا من الأقطار، ومن هنا تمتاز معارفه الجغرافية بالدقة والمعاينة ، وتوفى العذرى سنة ٤٧٨ هـ وقد سبق القول أن له نسبة أخرى هى الدلائى ، فلا محل لجعل الدلائى شخصا آخر غير العذرى .

أما ابن حوقل فهو أبو القاسم محمد بن حوقل ـــ وأحيانا يقال له الحوقلى ـــ وكان معاصرا للأصطخرى وأصغر منه سنا . وقد بدأ رحلاته الى العالم المعروف فى وقته بالتجارة ، ولكن يقال انها كانت لأغراض سياسية . وهو من أهل المشرق الوافدين الى شمالى أفريقية والأندلس . ومن هنا كانت أوصافه لنابلى وصقلية. ويحمــل كتابه اسم « المسالك والممالك » ، أو كتاب صـــورة الأرض . وكتــابه حافل بمعلومات غزيرة طريفــة عن الحيـــاة الاجتمــاعية فى الأندلس فى عصره . ومن هنا اشــتهر كتابه عند المغاربة والأندلسيين أكثر مما اشــتهر عند المشارقة . وقد طبع هذا الكتاب فى لندن سنة ١٨٠٠ م مع ترجمته الى الانجليزية ، كما اهتم المستشرقون بنشر وترجمة القسم الخاص من كتــابه

بأفريقية وبالرم فى جزيرة صـقلية . وتوفى ابن حوقـل فى القرن الرابع وفى تاريخ غير معلوم .

ولعل اسم جاناخ — أو جناخ — بن خاقان الكيماكى من الأسـماء الغريبة المجهولة عند الباحثين ، على الرغم من رجوع الأدريسى وغيره اليه . ومعلوماتنا عنه لاتكاد تذكر ، حتى عند الباحثين الأجانب المشهورين بالبحث والتنقيب . ويحمل اسـمه معنى النسبة الى قبيلة « كيماك » التركية بآسـيا الوسطى . ولا ندرى اسم كتابه الذى أشـار اليه الأدريسى على أنه من مصادره .

ويظهر أن حظ موسى بن قاسم القردى — وهو أحد مصادر الأدريسى — لا يزيد على حظ جاناخ من المعـرفة به . وليت الأدريسى قد هدانا الى أسـماء تلك المصنفات مقرونة بأسماء أصحابها ..

أما اليعقوبى الذى ذكره الأدريسى من مصادر نقله ، فهو أبو العباس أحمد بن يعقوب بن جعفر بن واضح . وهو معروف لدينا بكتابه المشهور فى التاريخ ، كما أن كتابه فى الجغرافية الذى نقل عنه الأدريسى والذى عنوانه (كتاب البلدان) معروف كذلك عن مخطوطته الوحيدة بميونخ ، وعن مخطوطة أخرى كشفت من عهد غير بعيد . ويبدو أن كتابه قد انتهى من تأليفه سنة ٢٧٨ هـ

أى قبل وفاته سنة ٢٨٤ هـ بستة أعوام ، اذا أغفلنا القول القائل بأنه توفى سنة ٢٩٢ هـ .

ولا يقل اسحاق بن المنجم ، جهلا به وعدم معرفة له ، عن جاناخ الكيماكى ، وموسى بن قاسم القردى ، ولا نعلم من أين جاءته هذه النسبة الغريبة ، كما لا نعلم عنه شيئا الا ما ذكره الأدريسى من أن له كتابا فى الجغرافية رجع اليه وأخذ منه .

ونختم بقدامة البصرى كما ذكره الادريسى ، وهو قدامة ابن جعفر ، صاحب كتاب « الخراج » المشهور ، ولم يكن قدامة جغرافيا حتى يفيد منه الشريف الأدريسى ، ولكن كتابه فى الخراج يفيد فى معرفة البريد والسكك والطرق الى نواحى المشرق والمغرب ، والمسافات بين البلاد . ويعتبره بعض الباحثين الأجانب تتمة هامة لكتاب ابن خرداذبة ، اذ كثيرا ما يساعد فى تحقيق نقاط عديدة فيه ، لأنه يعتمد فى أغلب الأحوال على الوثائق الرسمية . وتوفى قدامة سنة ٣١٠ هـ .

المعاينة والمشاهدة

اذا كان الشريف الأدريسى قد لجأ الى النقل فيما لم تصل اليه استطاعته وخبرته ، فانه قد آثر التجربة والخبرة الشخصية ، واعتمد على المعاينة فيما هو قريب من متناوله . ولو أن الأدريسى أتيح له مثلا أن يجوب فى الهند والصين وشرقى أفريقية ، وأن يجتاز تلك البحار البعيدة الممتدة الى هناك ، لما أحجم عن وصفها وصف الخبير المعاين ، ولما احتاج الى أن ينقل فى «نزهة المشتاق» بعض أوصاف غيره ممن سبقوه الى تلك البقاع والأصقاع .

وحين نصب الأدريسى نفسه فى صقلية للقيام بالعمل الذى كلفه اياه الملك روجر الثانى من كتابة « نزهة المشتاق » ، وعمل الخريطة والكرة المشهورة ، فانه لم يحجم لحظة عن الاستفهام والسؤال من أهل المعاينة والخبرة والمشاهدين الذين أتيح لهم من الرحلة مالم يتح له . فقد كان الرجل كثير التسآل والاستخبار من الرحالة والحجاج ، وكان لا يتوانى عن السؤال العلمى متى

ماوجد فى ذلك خدمة للمعرفة التى كان يبحث عنها ، والحقيقة التى ينشدها .

وقد لاحظنا فى معرض وصفه للأندلس والمغرب وصقلية أنه يذكر عبارة تدل على معاينته لما رآه ووقعت عليه عينه ، فيقول مثلا : « وقد رأيناه عيانا » ، أو : « وقد رأيته بعينى » ، أو غير ذلك من العبارات التى تدل على المعاينة لا على السماع أو النقل. وقد يجزىء مثال واحـد ، أو نموذج واحد من ذلك عن بضعة نماذج لحظناها فى خلال قراءاتنا له . ففى وصـفه لحصن المعدن قرب مدينة لشبونة يقول : (وعلى ضفة النهر من جنوبه ، قبالة مدينة لشبونة ، حصن المعدن . وسـمى بذلك لأنه عند هيجان البحر يقذف هناك بالذهب والتبر ، فاذا كان زمن الشتاء قصد الى هذا الحصن أهل تلك البلاد ، فيخدمون المعدن الذى به الى انقضاء الشتاء . وهو من عجائب الأرض ، وقد رأيناه عيانا) [1].

ولم يغب عن بال بعض الذين ترجموا للشريف الأدريسى أو تحدثوا عنه فى معـارض الأيجاز أن يشـيروا الى ناحية المعاينة والمشاهدة عند الرجل . وقد يكون الأدريسى فى ذاته ممن يحبون التجربة والعيان ويؤثرونهما على ما عداهما من وسائل ايصـال المعرفة ، ولكن الموقف الذى وقفه منـه الملك روجر الثانى قد

---

(1) وفى وصـف الادريسى للرصـيف الذى يلى بلاد الاندلس ويظهر فى اوقات صفاء البحر يقول : (وقد رأيناه عيانا) .

حمله على اتخاذ المعاينة طريقا الى اكتساب المعارف والمعلومات . فان روجر نفسه كان حريصا على كسب المعرفة بالتجارب ، ويظهر انه أوصى الادريسى بهذا ، فان مقدمته لكتاب « نزهة المشتاق » قد تحمل ملامح من هذا الاهتمام . على أن سلوك روجر الثانى نفســه مع العارفين بالمعارف الجغرافية قد حملهم على أن يلجأوا الى الخبرة والتجربة والمعاينة بأنفسهم . فانه ــ على ما يرويه الأدريسى ــ أحضر لديه العارفين بالبــلاد والأقطار ، وباحثهم . فلم يجد عندهم علما أكثر مما تحويه الكتب . (فلما رآهم على مثل هذه الحال بعث الى سائر بلاده ، فأحضر العارفين بهـــا ، المتجولين فيها ، فسألهم عنها بواسطه جمعا وأفرادا ، فما اتفق فيه قولهم وصح فى جمعه نقلهم ، أثبته وأبقاه ، وما اختلفوا فيه الغاه وأزجاه ..)

ومن هنا نجد باحثا كالمرحوم عبد المتعال الصعيدى يقرر أن روجر الثانى طلب من الشريف الأدريسى (أن يحقق أخبار البلاد بالمعاينة لا بما ينقل من الكتب ،فوقع الاختيار على أناس ألبــاء فطناء أذكياء ، ساروا الى أقاليم الشرق والغرب جنوبا وشمالا ، وأخــذوا معهم مصورين يصــورون كل مايشــاهدونه . وكان الأدريسى يدون كل ما يصل اليه منهم حتى تكامل له كتابه .).

على أن توصــية روجر الثانى للأدريسى بأن يحقق أخبــار البلاد بالمعاينة قد جاءت صراحة فى الترجمة التى كتبها المؤرخ

الأديب الصفدى لروجر الثانى فى كتابه « الوافى بالوفيات » . وندع الصفدى يقول بعبارته : (فرتب له كفاية لا تكون إلا للملوك ، وطلب اليه أن يحقق أخبار البلاد بالمعاينة لا بما ينقل من الكتب ، فوقع اختيارهما على اناس الباء فطناء أذكياء ، وجهزهم روجر الى أقاليم الشرق والغرب جنوبا وشمالا ، وسفر معهم قوما مصورين ، ليصوروا ما يشاهدونه « عيانا ») .

ومن هذا النص الصريح أكد الباحثون كل ما يقال عن عنصر المعاينة والمشاهدة عند الأدريسى . وبهـذا اجتمعت لديه المعاينة من طريقين : طريق مشاهداته هو ومعايناته الشخصية كما سلف القول : وطريق الأخبار التى اجتمعت لديه من الرسل والمصورين الذين كلفهم روجر السفر والمشاهدة وجمع المادة اللازمة .

ومن هنا أيضـا نجد مؤلف كتاب « الرحلات » يقرر (أن الأدريسى يتبع الطريقة العربية ، طريقة العرض الجغرافى القائم على المشاهدة). ولكن فى هذا الكلام على ــ جملته ــ نظر! فلم تكن طريقة كثير من المؤلفين العرب قائمة على المشاهدة ، بل استسهل بعضهم النقل عن بعض ، وأصـبح مانراه فى كتاب سابق مكررا بنصه وعباراته تقريبا فى مؤلفات لاحقة .

ويشير الدكتور « فيليب حتى » فى كتابه « تاريخ العرب » الى قيمة ما فى كتاب « نزهة المشـتاق فى اختراق الآفاق » من

قيمة المعلومات الحية التى جمعها الأدريسى من الرسل والمبعوثين والمصورين الذين أوفدهم الملك روجر الثانى لتجميعها . ويقرر الدكتور « حتى » أن أهمية « نزهة المشـتاق » لا تقتصر على تلخيص المواضيع الرئيسية فى الكتب السابقة بهـذا المضمار ، كمؤلفات بطليموس والمسعودى فحسب ، بل تعود أهميتها أيضا الى أنهـا مبنية فى الأسـاس على تقارير مبتكرة اتصلت به عن طريق رواة كان قد أنفذهم الى بلدان متفرقة لكى يأتوه بالمعلومات. ويظهر أن أعجاب مؤرخنـا العربى الدكتور حتى بالأدريسى قد جعله يشيد به فى طريقة بحث المواد التى اتصلت به ونقدها وتحرى الحقيقة فيها ، فقد أظهر فى ذلك — كما يقول الدكتور حتى — رجاحة عقل ، ورحابة صدر ، وكشف عن فهم لبعض القضـايا الهامة ، كأدراكه لكروية الأرض . ولكن الدكتور حتى — فى غمرة التحمس لهـذا الجغرافى العربى العظيم — قد تغـاضىعن احجام الأدريسى عن نقد مصادره ومنقولاته ومناقشـتها مناقشة متحررة ، فقـد كان ينقـل — بلا تحقيق ولا تعليق — بعض الخرافات الأوسع انتشارا فى عصره .

ولكن موقف الأدريسى من الخرافات السائدة حتى عصره لم يكن دائما موقف التسليم والقبول بلا مخالفة أو مناقشة . ففى بعض الأحيان يرفض صاحبنا التسليم بأمور تدخل فى نطاق غير

المعقول . ولا نزال نذكر له موقفه من « شجرة الوقواق » التى تردد بين من سبقوه أنها (شجرة ببلاد الهنـــد تحمل ثمرة تشبه رءوس الآدميين) . فقد ذكر فى « نزهة المشتاق » أن المسعودى نسب الى شجرة بجزائر الوقواق أمورا لاتدخل فى نطاق العقل الى حد أن الأدريسى رآها غير جديرة بالذكر . وعلى حين يرفض الأدريسى قصة هذه الشجرة نرى جغرافيا أندلسيا آخر هو محمد ابن أبى بكر الزهرى الذى عاش بغرناطة حوالى سنة ٥٣٢ هـ ، والذى يدعوه بعض الباحثين « مؤلف « المرية » المجهول » يروى لنا قصة الشجرة المسحورة بجزائر واق الواق التى تثمر أشجارها كل سنة نساء بدلا من الفاكهة . والحق أن القول باعتماد الشريف الأدريسى فى تدوين المادة الجغرافية على المشاهدات الخاصة هو قول لا ينبغى أن يطلق بلا احتراس ، فأن التقارير التى جمعهـا الرسل المندوبون الذين أوفدهم روجر الثانى لارتياد الأقاليم ، لم تغط كل بلاد العالم المعروف فى ذلك العهد ، بل غطت الأرض المحيطة بجزيرة صقلية أو القريبة منها . أما الهند وأطراف آسيا وأفريقية مثلا فقد اعتمد فيها الأدريسى على النقل ، لأن المعاينة والمشاهدة كانت بالنسبة اليه فى ذلك الميدان أمرا بعيد الاحتمال، أو تكليفا بما لا يطاق .

على أن ذلك لا ينقص شيئا من قدر هـذا العالم الجغرافى العربى الذى بذل كل ماوسعه من الجهد ، حتى يحقق ما يصبو اليه هو والملك روجر الثانى من تطبيق مبدأ المعاينة فى ميدان الجغرافية العربية التى رفع لها شأنا أى شأن فى مجـال التقدم العلمى عند العرب .

منهج الإدريسي في وصف البلاد

يمتاز وصف الأدريسي للبلاد التى زارها اوالمدن التى اجتازها، بطابع معين يميزه التفطن الشديد لكل ما تقع عليه العين من انسان وجماد وحيوان ونبات . فهو دائما — وخاصة حين يصف مشاهداته الخاصة — منفتح العين والذهن على كل مايراه ، ولا يكاد يغيب عنه مشهد أو موقع أو ظاهرة طبيعية أو صناعية مما يمر عليه . وتتجلى هذه المميزات فى البلاد والمدن التى رآها وجال فى أنحائها . على أنه وهو ينقل صفة البلدان التى لم يزرها فأنه يختار من المشاهد ما يكون ذا أثر وقيمة فى نفس القارىء ، أو يثير فيه نوعا معينا من الفضول والاستطلاع .

ولاشك أن الأدريسى قد زار الأندلس زيارات فاحصة دارسة ، وزار المغرب وطاف بكثير من أرجائه ، كما جال فى جزيرة صقلية التى أقام فيها زمانا . ومن هنا كانت أوصافه لهذه الأقطار تتميز بالدقة والملاحظة .

ويبدو اهتمام الأدريسى بسكان البلاد التى زارها ووصف أشـــكالهم وأخلاقهم وعاداتهم وطبائعهم . ففى حديثه عن مدينة البصرة المغربيـــة فى القسم الخاص بالأندلس من كتابه « نزهة المشتاق » يتحدث عن سورها وقراها وعماراتها وغلاتها وهوائها المعتدل ، ولـكنـــه لا يفوته أن يتحدث عن أهلها فيصـــفهم بأنهم (أعفاء ، ولهم جمال وحسن أدب) . وهو هنا يجمع بين محاسن الخلق ومحاسن الخلق . وفى حديثه عن مدينة « أنزلان » بالمغرب ينتهى به الحديث عن سكانها الأوائل من « غمارة » الذين (طهر الله منهم الأرض، وأفنى جمعهم، وخرب ديارهم، لكثرة ذنوبهم، وضعف اسلامهم ، وكثرة جرأتهم ، واصرارهم على الزنا المباح ، والموارية الدائمة ، وقتل النفس التى حرم الله بغير الحق ، وذلك من جزاء الظالمين) .

وينتقل بنا الأدريسى الى مدينة شلب الأندلسية التى تبعد عن « شـــنت مارية » ثمانية وعشرين ميـــلا ، فيخص أهلها ببعض الصفات المميزة لهم ، فهم (عرب من اليمن وغيرها ، وهم يتكلمون بالكلام العربى الصريح ، ويقولون الشعر ، وهم فصحاء نبلاء ، خاصتهم وعامتهم . وأهل بوادى هذا البلد فى غاية من الكرم ، لايجاريهم فيه أحد ..) . وهكذا يبرز لنا الأدريسى فى أهل مدينة بالأندلس ناحية فصاحتهم وانطلاق ألسنتهم ، ونظمهم الشعر ، وتكلمهم باللسان العربى الصريح . وحين يحدثنا عن « رابطة

كشطالى » القريبة من قلعة شيفر يصف القوم الذين يمسكونها بأنهم قوم أخيار . وهو هنا متفطن الى مظاهر الخير والشر بين السكان . أما النظرة من الأدريسى الى النساء فلا تقل دقة عن النظرة الى الرجال ، فحين مروره على مدينة « جنجالة » الأندلسية التى تبعد عن «مرسية» خمسين ميلا يلفته جمال نسائها وحصافتهن فلا يتوانى عن تسجيل ذلك (١) .

وقد يكون لكثير من المدن التى يصفهـا الأدريسى تاريخ سياسى أو عسكرى فلا يفوت هذا الرجل أن يشير اليه فى خلال وصفه . فحين حديثه عن « المدينة الخضراء » بالأندلس سجل بعض لقطات من تاريخها السياسى ، فقال : (والجزيرة الخضراء أول مدينة افتتحت من الأندلس فى صدر الاسلام . وذلك فى سنة تسعين من الهجرة ، وافتتحها موسى بن نصير من قبل المروانيين ، ومعه طارق بن عبد الله بن ونموا الزناتى ، ومعه قبائل البربر . فكانت هذه المدينة أول مدينة افتتحت فى ذلك الوقت) .

ولا تخطىء عين الادريسى وصف المعالم والمشاهد وأماكن العبادة سواء أكانت مساجد . أم كنائس . فهو يصف المسجد الجامع بقرطبة . فيطيل فيه بعض الاطالة على قدر حظه من الفخامة

---

(١) من أوصاف الادريسى الدقيقة للناس صفته لاهل قرطبة ، وقد أثنى عليهم ثناء مستطابا وذكر كثيرا من محامدهم ومناقبهم . أنظر « الحلل السندسية » .

والضخامة ويقول فيه : (وفيها المسـجد الجامع الذى ليس بمساجد المسلمين مثله بنية وتنميقا ، وطولا وعرضا . وطول هذا الجامع مائة باع مرسلة ، وعرضه ثمانون باعا ، ونصفه مسقف ، ونصفه صحن للهواء ، وعدد قسى [1] مسقفه ١٩ قوسا . وفيه من السوارى ، أعنى سوارى مسقفه بين أعمدته وسوارى قبلته صغارا وكبارا ، مع سوارى القبة الكبرى وما فيها ، ألف سارية . وفيه ١١٣ ثريا للوقيد ، أكبرها واحدة منها تحمل ألف مصباح، وأقلهـا تحمل ١٢ مصباحا .. ولهذا المسجد الجامع قبلة يعجـز الواصفين وصفها وفيها اتقان يبهر العقول تنميقها ، وكل ذلك من الفسيفساء المذهب والملون) ويمضى الأدريسى هكذا فى وصف المحراب والمنبر والساباط وصومعة الأذان ، والمصـحف الكبير الذى يرفعه رجلان لثقله ، وفيه أربع أوراق من مصحف عثمان ابن عفان الذى خطه بيمينه وفيه نقطة من دمه .

ولا تقل دقته وحيوية وصفه للمسجد عن دقته وحيوية وصفه « لكنيسـة الغراب » بالأندلس ، فهى من عهـد الروم الى أيام الأدريسى لم تتغير عن حالها ، ولها أموال يتصدق بها عليها . وهى عامرة بالقسيسين والرهبان . وعلى رأسها عشرة أغربة لا يعرف

---

(١) القسى : جمع قوس ، وهو المعروف فى الابنية ، ويجمع على أقواس أيضا .

أحد فقدها وعهد زوالها . ويتحدث قسيسو الكنيسة عن هذه الأغربة بغرائب لا يكاد يصدقها العقل .

وقد وصف الأدريسى القناطر ومنها القنطرة العجيبة غربى مدينة لاردة بالأندلس ، كما وصف المرآة الغريبة التى أقامتها الملكة لاردة بنت هرسوس فى برج عال من القصر يدور على حرفه فتدور معه المرآة . كما وصف الحمامات التى كانت فى بعض المدن ، كحمامات مدينة لشبونة الحارة فى الشتاء والصيف .

وتأخذ الأسواق العامة والخاصة مكان الاهتمام عند الادريسى ، ففى حديثه عن مدينة سبتة بالمغرب يشير الى شجر المرجان فيها الذى لا يعدله صنف من صنوف المرجان المستخرج بجميع أقطار البحار ، ثم يفضى به الحديث الى سوق المرجان فيقول : (وبمدينة سبتة سوق لتفصيله وحكه ، وصنعه خرزا ، وثقبه وتنظيمه ، ومنها يتجهز به الى سائر البلاد . وأكثر ما يحمل الى غانة وجميع بلاد السودان ، لأنه فى تلك البلاد يستعمل كثيرا) . وحين يمر معرجا من طنجة الى بلدة « أزيلا » ، فأنه يتحدث عن الأسواق القريبة فى أرضها . وكذلك تلفت نظره كثرة الأسواق فى مدينة « أشبيلية » بالأندلس فيقول عنها : (ومدينة أشبيلية مدينة كبيرة عامرة ، ذات أسوار حصينة ، وأسواق

كثيرة ، وبيع وشراء) . ويخرج من مدينة أشبيلية الى مدينة « لبلة » فيتحدث عن الأسواق والتجارة فيها .

وبمناسبة التجارة نلاحظ اهتمام الأدريسى فى « نزهة المشتاق » بأنواع التجارات ، والسلع والغلات التى يتجر بها فى كل بلد . ففى أشبيلية تتركز جل تجارة أهلها فى الزيت ، ويتجهز به منها الى أقصى المشارق والمغارب برا وبحرا ، وكذلك الشأن فى مدينة « يبورة » الأندلسية التى ترى التجارات فيها داخلة وخارجة .

وللغلات والمعادن نصيب كبير من اهتمام الأدريسى حين يصف البلاد والمدن . فمدينة « البصرة » بالمغرب بها غلات كثيرة ، وأكثر غلاتها القطن والقمح ، وسائر الحبوب . ومدينة « شنت مارية » الأندلسية كثيرة الأعناب والتين ، ومدينة « قورية » بالأندلس فيها (أصناف من الفواكه كثيرة ، وأكثرها الكروم وشجر التين) . ومدينة « طرطوشة » ينمو بجبالها خشب الصنوبر الذى لا يوجد له نظير فى الطول والغلظ ، ومنه تتخذ سوارى السفن وقراياها (١) . (وهذا الخشب الصنوبر الذى بجبال هذه المدينة أحمر صافى البشرة ، دسم لا يتغير سريعا ولا يفعل فيه السوس ما يفعله فى غيره ، وهو خشب معروف منسوب) .

---

(١) القرايا : جمع قرية على وزن : هدية ، وهى عود الشراع الذى يجعل فى عرضه من أعلاه .

أما المعادن فقد اهتم الأدريسى بذكرها فى أماكن وجودها ، ففى قرية « بطرنة » الأندلسـية معدن التوتية التى فاقت جميع معادن التوتية طيبا . وبقرب حصن فريش بالاندلس (مقطع للرخام الرفيع الجليل الخطير المنسـوب اليه . والرخام الفريشى أجـل الرخام بياضا ، وأحسنه ديباجا ، وأشـده صلابة) . وفى أول القسم الخاص بأقليم الهند من كتاب « نزهة المشتاق » يتحدث الأدريسى عن الحديد فى مدينتين هناك بأرض سـفالة (وليس بأيدى أهل هاتين المدينتين شىء يتصرفون به ويتعيشون منه الا الحديد ، وذلك أن بلاد سفالة يوجد فى جبالها معادن الحديد الكثيرة . ولا يوجد شىء من الحديد أمضى من الحديد الهندى، وهذا شىء مشهور لاتنكر فضيلته (١) .

وكما يهتم الأدريسى بالتجارة والغلات فأنه يهتم فى كل بلد بالحديث عن أهم الصناعات فيه . ففى مدينة سبتة بالمغرب تقوم صناعة المراكب وانشاء السـفن . وفى مدينة « حصن قلليره » الأندلسية تقوم صناعة السفن (لأنها دار انشاء السفن ، ومنهـا تخرج السفن الى أقصى المشرق ، ومنها يخرج الأسطول للغزو) . وفى مدينة « شاطبة » بالأندلس (يعمل من الكاغد ما لا يوجد له نظير بمعمور الأرض ، ويعم المشارق والمغارب) ، وفى مدينة « حصن بكيران » بالأندلس (تصنع ثياب بيض تبـاع بالأثمان

---

(٢) وصف الهند للادريسى : طبع الهند ص ١ ، ٢ .

الغالية ، ويعمر الثوب منها سنين كثيرة ، وهى من أبدع الثياب متانة ورقة ، حتى لا يفرق بينها وبين الكاغد فى الرقة والبياض).
وفى مدينة « جنجالة » الأندلسية يصنع من وطاء الصوف ما لا يمكن صنعه فى غيرها لمناسبة الماء والهواء هناك لصناعته .
وفى مدينة « المرية » بالأندلس تعمل الثياب ، والحلل ، والديباج، والسقلاطون (١) ، والأصبهانى ، والجرجانى ، والستور المكللة والثياب المعنية ، والخمر « جمع خمار » ، والعتابى ، والمعاجر ، وصنوف أنواع الحرير .

ويبدى الادريسى اهتماما خاصا بمصايد الأسماك، واللؤلؤ، والمرجان . وفى فصل من كتابنا هذا حديث عن وصف الادريسى لصيد اللؤلؤ من مغاصات جزيرة أوال فى البحرين . وقد وصف صيد السمك وخاصة التنين الكبير الذى يخرج من البحر قرب مدينة سبتة (وصيدهم له يكون زرقا بالرماح ، وهذه الرماح لها فى أسنتها أجنحة بارزة تنشب فى الحوت ، ولا تخرج . وفى أطراف عصيها شرائط القنب الطوال . ولهم فى ذلك دربة وحكمة سبقوا فيها جميع الصيادين ..) . أما صيد المرجان من شجره أو شعبه المرجانية فى مياه سبتة المغربية فقد تعرض له الادريسى، وان كان لم يحدثنا عن طريقة صيده كما حدثنا عن طريقة صيد اللؤلؤ من البحرين حديثا شائقا ممتعا ..

---

(١) نوع من النسيج الفاخر .

وحين يتحدث الأدريسى عن الأنهار التى يصفها فأنه يصف مجاريها واتجاهاتها ومنابعها وماءها وضفافها وما عليها من زراعات وأشجار . ففى حديثه عن مدينة وادى الحجارة بالأندلس يتحدث عن النهر الصغير الذى يجرى بجهة غربيها ، وهـذا النهر يجرى الى جهة الجنوب ، فيقع فى نهر تاجه الأكبر فيمده بالماء . ونهر تاجه المذكور يخرج من ناحية الجبـال المتصلة بالقلعة والفنت ؛ فينزل مارا مع الغرب الى مدينة « طليطلة » ثم الى « طلبيرة » ؛ ثم الى « المخاضة » ، ثم الى « القنطرة » ثم الى «قنيطرة محمود»؛ ثم الى مدينة « شنترين » ، ثم الى « لشبونة (١) » فيصب هناك فى البحر .. وفى حديثه عن نهر « ابرة » بالأندلس يقول انه نهر كبير يأتى بعضه من بلاد الروم، وبعضه من جهة جبال قلعة أيوب وبعضه من نواحى « قلهرة » ، فتجتمع مواد هـذه الأنهار كلها فوق مدينة « تطيلة » (٢) ، ثم تنصب الى مدينة « سرقسطة » ، الى أن تنتهى الى «حصن حبرة » ، الى موقع الزيتون ، ثم الى « طرطوشة » فيجتاز بغربيها الى البحر .

ويلاحظ الأدريسى عملية نقل الأخشاب فى مياه الأنهار بكتلها دون شحنها فى مراكب ، فيصورها فى دقة ، كما فعل فى حديثه عن مدينة «قلصة» الأندلسية حيث يقول : (وقلصة حصن منيع

---

(١) لشبونة : عاصمة البرتغال اليوم ، وهى من أكبر موانى أوربة .

(٢) مدينة بشمالى أسبانيا اليوم على نهر الابرو ، وبها معامل للسكر .

يتصل به أجبل كثيرة بها شجر الصنوبر الكثير ، ويقطع بهـا الخشب ويلقى فى الماء ، ويحمل الى دانية والى بلنسية فى البحر، وذلك أنها تسير فى النهر من قلصة الى جزيرة شقر ، ومن جزيرة شقر الى حصن قالبيرة ، وتفرغ هناك على البحر ، فتملأ منهـا المراكب .. ولا تزال عادة ارسال الخشـب فى النهر الى جزيرة شقر الى قلبيرة ـــ قالبيرة ـــ الى يومنا هذا) .

ولما كانت أسوار المدن جزءا هاما لأمن البلاد وسـلامتها ، فقد اهتم الأدريسى بوصف الأسوار على كل بلد يصفه أو يمر به، كحديثه عن سور مدينة « يبورة » بالأندلس ، وحديثه عن أسوار مدينة « ترجالة » الأندلسية التى تتصـف بالمناعة ، وحديثه عن سور مدينة « سرقسطة » الأندلسية ، وهو سور متين حصـين مبنى من الحجارة . فاذا لم يكن للبلد سور ولا حصن أشار الى ذلك ، كما فعل عند حديثه على مدينة « شنترين » الأندلسية التى لا سور لها .

ويؤكد الأدريسى أوصافه لما رآه بقوله : «رأيت ذلك عيانا»، أو غيره من العبارات الدالة على المعاينة كما سبق القول .

ويلجأ صـاحبنا الى الأطوال المعروفة فى قياس المسـافات والأبعاد ، كالأميال والمراحل ، وقد يجمع بين الميل والمرحلة فى مجـال واحد كقوله فى الحديث عن بطليوس : (ومن مدينـة

بطليوس الى مدينة قرطبة على الجادة ست مراحل ، ومن بطليوس الى مدينة ماردة على نهر يانة شرقا ثلاثون ميلا) . وقد يقيس المسافة أحيانا بالأيام ـــ ويعنى بذلك مسير الأيام ـــ كما فعل فى قياسه لجبل الثلج فى « شنيل » الأندلسية ، فقد ذكر (ان طوله يومان وعلوه فى غاية الارتفاع ..) .

وحين يريد أن يؤكد وصف البلد أو المدينة فى عهده يشير الى ذلك بقوله : (ومدينة قرطبة فى حين تأليفنا هـــذا الكتاب طحنتهـــا رحى الفتنة) أو بمثـــل قوله : (وهى الآن ـــ يعنى فى زمانه ـــ خراب فى حال الذهاب) ، أو بمثل قوله عن مدينة أزيلا المغربية : (وهى مدينة صغيرة جدا ، وما بقى منها الآن الا نزر يسير) أو بمثل قوله عن مدينة طليطلة : (ومدينـــة طليطلة ـــ فى وقتنا هذا ـــ يسكنها سلطان الروم القشتاليين) .

وقدكان الأدريسى متفطنـــا الى تجمعات اليهود فى أرض الأندلس ، فقد كانوا يعيشون متجمعين فى مدن خاصـــة بهم أو أحياء خاصة بهم من المدن . وفى حديثه عن مدينة «طركونة» (١) الأندلسية يقول : (ومدينة طركونة على البحر وهى مدينة اليهود). وفى حديثه عن مدينة « آليسانة » (٢) بالأندلس يذكر أنها مدينة

---

(١) من مدن أسبانيا اليوم واسمها TARRACONE

(٢) اليســـانة : بلد باسبانيا اسمه اليوم LUCENA ويبلغ عدد سكانه ٢١ الف نسمة كما جاء فى « الحلل السندسية » للأمير شكيب ارسلان .

اليهود ، ولها ربض — أى ناحية — يسكنه المسلمون وبعض اليهود .. واليهود يسكنون بجوف المدينة ، ولايداخلهم فيها مسلم ألبتة .. ولليهود بها تحذر وتحصن ..

وهكذا يكشف لنا هذا الرحالة الجغرافى اللماح عن أخلاق اليهود وخبثهم ومكرهم وتكتلهم وعزلتهم منذ قرون ..

بين الواقع والأساطير

يلفت نظرنا فى الفصل الذى كتبه المستشرق « بالنثيا » عن الشريف الأدريسى فى كتابه« تاريخ الفكر الأندلسى » أنه حين يتحــدث عن مادة الأدريسى الوافرة عن البــلاد الأوربية التى تقطنها شعوب نصرانية يقول أنه يطوى كتابه « نزهة المشــتاق » على بعض أطراف من الخرافات التى كانت أوســع ما تكون انتشارا فى عصره .

والحق أن هذا الاتهام على ما فيه من اطلاق يحتاج الى كثير من النظر والمراجعة والتعديل .

واذا كان الأدريسى قد أطال مثــلا فى الحــديث عن يأجوج ومأجوج ، فانه معذور فى هذا فقد كان ناقلا عن بعض من سبقوا، وقد ذكر هو فى مقدمة « نزهة المشتاق » أسماء الذين نقل عنهم . وهذه المصــادر العربية فى التاريخ والجغرافية التى نقل عنهــا

الأدريسى كانت مشحونة بالحديث عن يأجوج ومأجوج ، وهو حديث فيه كثير من الخرافة والأساطير . وقد دارت حول أمتى يأجوج ومأجوج حكايات وقصص هى أميل الى القصص الأسطورى منها الى الحقائق التاريخية . وتكفى نظرة الى ما كتبه المؤرخ ابن كثير فى ذلك فانها تدل على مبلغ ما تعرض له هذا الجيل من الأقاويل . وقد التمس كراتشكوفسكى العذر للأدريسى حين لاحظ اهتمامه بالكلام عن يأجوج ومأجوج ، وذكر أنهما شغلا مكانة كبيرة فى كل من الجغرافية العربية والجغرافية الأوربية فى العصور الوسطى . والحق أن اشتراك الجغرافية الأوربية فى الاشتغال بأساطير يأجوج ومأجوج هو دليل على المشاركة العالمية فى الانشغال ببعض الأساطير . فلم يكن العرب وحدهم ، ولم يكن الأدريسى وحده بدعا فى هذا .

ويتهم الأدريسى مرة أخرى بأنه حين وصف مدينة قريبة منه مثل مدينة رومة عاصمة ايطاليا فانه « يفعل ذلك فى أسلوب يذكر بحكايات ألف ليلة وليلة » . ويقصد المتهم هنا أن الادريسى يغالى فى الوصف الذى يبعد به عن الواقع الى حكايات الخيال والأساطير . والحق أن وصف الأدريسى لرومة كما يحمل بعض الخيال فانه يحمل كثيرا من الواقع ، ويكفى أن نسجل هنا بعض عبارات ذلك الوصف حيث يقول : (رومة هى على جانبى نهر الصفر — أى التيبر — وهى مدينة مشهورة ، ومقر خليفة

النصارى المسمى بالبابا ، وهى على جنوبى خور البنادقة . وبلاد رومة غربى قلفرية . ودور سورها أربعة وعشرون ميلا ، وهو مبنى بالآجر ، ولها واد يشق وسط المدينة ، وعليه قناطر يجاز عليها من الجهة الشرقية الى الغربية . وامتداد كنيسة رومة ستمائة ذراع فى مثله ، وهى مسقفة بالرصاص ، ومفروشة بالرخام ، وفيها أعمدة كثيرة عظيمة . وعلى يمين الداخل من آخر أبوابها حوض رخام عظيم للمعمودية ، وفيه ماء حار أبدا . وفى صدر الكنيسة كرسى من ذهب يجلس عليه البابا ، وتحته باب مصفح بالفضة ، يدخل منه الى أربعة أبواب ، واحد بعد آخر ، يفضى الى سرداب فيه مدفون بطرس حوارى عيسى . ولهذه المدينة كنيســة أخرى مدفون فيها بولس ، وبحذاء قبر بطرس حوض رخام منقوش عظيم ، فيه فرش الكنيسة وستورها التى تزين بها فى أعيادهم) .

واذا كانت قصة الأخوة المغررين التى ذكرها الأدريسى فى خلال حديثه عن مدينة لشبونة تحمل بعض العناصر التى يراها بعض الباحثين أسطورية ، فانه لا محل للمقارنة بينها وبين قصة القديس براندان لمحاولة الكشف عن مصدر واحد مشترك بين القصتين . وقد عاش هذا الراهب البحار الرحالة فى القرن الخامس المسيحى . ويقول الأب أنستاس مارى الكرملى ان أول من انتبه للرحلة غربا راهب اسمه براندان المولود ســنة ٤٨٣ م وهو من أصل شريف يرتقى الى ملك ايرلنده .. ففى عام ٥٤٥ م ـــ أى

قبل ظهور الأسلام ومبعث نبيه عليه السلام — تهيأ لتحقيق ما يختلج فى صدره من الأمانى مع أربعة عشر راهبا من مقتحمى الأهوال ، فابتنوا مركبا كبيرا ليستكشفوا ما هناك ... وفى سنة ٥٥٢ م نزل براندان ورفاقه على ساحل أمريكا ...

وينكر الأستاذ عباس محمود العقاد أن يكون كولمبوس مدينا بالفضل فى معرفة العالم الجديد لمراجع من القرن الخامس للمسيح

وحين تعرض الأدريسى فى القسم الخاص من «نزهة المشتاق» لوصف بلاد الهند ، فانه ذكر جزيرة « هركند » وذكر أن (بها الجبل الذى أهبط عليه آدم ، وهو جبل سامى الذروة ، عالى القمة ، ذاهب فى الجو ، يراه البحريون فى مراكبهم على مسيرة أيام (١) ...) وللمفسرين والمؤرخين وعلماء المسلمين فى اسم المكان الذى اهبط عليه آدم كلام كثير . ولا بأس ان نحيل القارىء هنا ألى كتاب « الكامل » لابن الأثير ، فليس هنا مجال تفصيل . ولكن الأدريسى أوجز الخبر فى سطر واحد ، هو من منقولاته الكثيرة . ولم يكن الادريسى فى مجال التحقيق لمكان هبوط آدم. لأنه لا مجال للتحقيق أو القطع فيه برأى . فاكتفى بهذه الأشارة العابرة .

على أن الأدريسى حين يتلقى أو ينقل أو يسمع خبرا لا يقبله

---

(١) وصف الهند — ص ٧

العقل فانه — غالبا — لا يتردد فى رفضه أو اظهار الشك فيه . ففى حديثه عن أغربة (كنيسة الغراب) بالأندلس يذكر أن (قسيسى تلك الكنيسة يخبرون عن تلك الأغربة بغرائب يتهم المخبر بها ..) وليس أبلغ ولا أوجز من هذا التعبير فى التشكيك ورفض الخبر ...

وقد يقف الأدريسى أمام بعض الأمور التى شاهدها أو سمعها بالأندلس مثلا موقف القبول اذا لم يبد للعقل استحالتها . ففى حديثه عن مدينة سرقسطة الأندلسية ذكر أن (من خواصها أنها لا تدخلها حية البتة ،وان جلبت اليها وأدخلت المدينة ماتت وحيا — أى سريعا — بلا تأخير ...) ولم يعلق الأدريسى على هذا برفض أو قبول . على أنه ليس فى الطبيعة ما يناقضه أو يناهضه .

وقد وقف الادريسى فى مدينة « المنكب » (١) بالأندلس أمام بناء مربع قائم كالصنم ، أسفله واسع ، وأعلاه ضيق (وبه حفيران من جانبيه متصلان من أسفله الى أعلاه ، وبأزائه من الناحية الواحدة فى الأرض حوض كبير يأتى اليه الماء من نهر ميل، على ظهر قناطر كثيرة معقودة من الحجر الصلد ، ، فيصب ماؤه فى ذلك الحوض . ويذكر أهل المعرفة من أهل المنكب أن ذلك الماء كان يصعد الى أعلى المنار ، وينزل من الناحية الأخرى ، فيجرى

---

(١) مدينة المنكب بالأندلس يسميها الاسبانيون اليوم almunecar وهو تحريف واضح .

هناك الى رحى صغيرة كانت ، وبقى موضعه الآن على جبل مطل على البحر ، ولا يعلم احد ما المراد من ذلك ..) فالادريسى هنا ينقل ما يقوله أهل المنكب عن هذا البناء العجيب ولكنه لا يدرى العلة فى بنائه وفى صعود الماء اليه وانصبابه من أعلاه ، ويتحاشى الرجل أن يشير الى خرافة أو أسطورة مما كان يتناقله المحدثون عن هذا البناء العجيب .

وحين يتحدث الأدريسى عن حيوان الكركدن فى بلاد الهند — أو فى جزيرة سرنديب بصفة خاصة — فانه يتعرض لوصف قرون تلك الدابة العظيمة ، فيقول رواية عن غيره : (وفيما يذكر أنه توجد فى بعض هذه القرون فى جوفها — اذا هى شقت — صورة انسان أو صورة طائر أو غيره من الصور كاملة الشكل بيضا . وهذا القرن الذى توجد فيه هذه الصورة يصنع منه مناطق تساوى من القيمة كثيرا ، وتكون الصورة التى توجد فيه من أوله الى آخره ..) (١) . وقد يتخيل لأول وهلة أن وجود صورة انسان أو طائر أو غيره فى شق من قرن الكركدن هو ترديد من الأدريسى لأسطورة لا تمت بصلة الى الواقع ... والواقع أن « التجازيع » التى توجد داخل الشق قد تحمل صورا غريبة قريبة الشبه من الوجوه البشرية والحيوانية ، كالذى نجده من بعض الصخور حين نشقها ، أو كالذى تفعله الطبيعة — عن غير قصد —

---

(١) وصف الهند . ص ١٣

من تشـــكيل حجارة الاستالاكتيت والاســـتالجمايت فى المغارات المشهورة بأشكال انسانية ونباتية وحيوانية عجيبة ، كالذى نجده فى مغارة قاديشا بلبنان ، وفى مغارة مدينة باث بانجلترة .

على أن الأدريسى حين يرى الأسطورة أو الخرافة صـــارخة ومنافية للعقل والطبع فانه لا يتردد فى تكذيبها واظهار استحالتها، كالذى فعله حين نقل ما قاله الجاحظ فى « الحيوان » عن دابة الكركدن من أنها (تقيم فى جوف أمها سبع سنين ، وأنها تخرج رأسها وعنقها من فرج أمها فترعى الحشيش ، ثم تعيد رأسها الى جوف أمها ، فاذا ابتدأ تكون قوتها امتنعت من الخروج للرعى على حسب عادتها ، فتنقر فى جوف أمها ، حتى تبقر جوفها وتخرج منه وتموت الأم ...) فقد علق الأدريسى على هذا الكلام بقوله : (وهذا محال من قوله غير مسموع ، لأن الأمر لو كان كما وصفه لفنى هذا النوع ، حتى لا يوجد الا ذكره ..) (١) .

ويذكرنا هذا بالتعليق الذى علق به المسعودى المؤرخ على كلام الجاحظ فى موضوع الكركدن ذاته ، ولا بأس هنـــا من ايراده . قال المســـعودى المتوفى ســـنة ٣٤٦ هـ والسابق على الأدريسى بأكثر من قرنين من الزمان : (فبعثنى هذا الوصف ـــ يعنى خروج رءوس أولاد الـــكركدن من بطون أمهاتهـــا للرعى وعودتها الى داخل البطن ـــ على مسألة ـــ أى سؤال ـــ من

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٢ ، ١٣

سلك الديار من أهل سيراف ، وعمان ، ومن رأيت بأرض الهند من التجار . وكل يتعجب من قوله — يعنى من قول الجاحظ الذى سبق ذكره — اذا أخبرته بما عندى من هذا وسألته عنه . ويخبروننى أن حمله وفصاله كالبقر والجواميس . ولست أدرى كيف وقعت هذه الحكاية للجاحظ ؟ أمن كتاب نقلها ، أم مخبر أخبره بها ؟؟)

وحادثة أخرى تدل على مبلغ تشكك الأدريسى فى قبول الأخبار التى تحمل طابع الخرافات والأساطير ، فانه شك فى الذى رواه المسعودى عن شجرة بجزائر الوقواق تحمل كل عام رءوس نساء بدلا من حمل الثمار العادية والفاكهة . ورأى فيها أنها غير جديرة بالذكر ، على حين أن « الزهرى » الأندلسى قد روى هذه الحكاية بتفصيل وبسرد يوهم أنها تدخل فى باب الواقع من الحياة ...

وصّاف المدن

جرت عادة الرحالين العرب أن يصفوا المدن الصغيرة والكبيرة التي يمرون عليها . وهذه الأوصاف تختلف تبعا لعين الواصف ودقة ملاحظته ، وتبعا لاهتماماته بأنواع معينة من الوصف ، كما أنها تختلف تبعا للزاوية التي ينظر اليها منها .

ولقد وصف الشريف الأدريسي مدن البـلاد التي زارها ؛ وخاصة الأندلس والمغرب ، ووصف مدن صقلية كذلك بحكم اقامته فيها شطرا كبيرا من عمره . أما بقية البلا د التي لم يزرها فقد رجع في صفتها الى الذين كتبوا قبله من الرحالة والجغرافيين. وفي مقدمته لكتاب « نزهة المشتاق » يعد لنا طائفة من الكتب التي رجع اليها فيوصف الأقاليم وما فيها من مدن ، كما سبقت الأشارة الى ذلك في فصل سابق .

ولم يكد الأدريسي يدع مدينة من مدن الأندلس الا وصفها

وصف الخبير ، فاذا مر بمدينة سجل أهم ما تتميز به من معالم طبيعية ، ووصف النهر الذى تقع عليه ، أو البحر القريب منهـا ، وذكر أسوارها وأبوابها وحصونها ، ومعادنها وغلاتها الزراعية ، ومعابدها وأسـواقها ، وتجارتها . ثم يأخـذ فى نعت ما تتميز به غلاتها ، ولا يفوته أن يصف أهلها ويتحدث عن عاداتهم . ونراه يطيل فى الوصف أو يوجز تبعـا لأهمية المدينة وتعدد جوانب الوصف فيها .

وقد يشير الى ناحية من تاريخها وما مر بها من أحداث كبار. ففى وصفه لمدينة طليطلة بالأندلس يقول انها كانت فى أيام الروم مدينة الملك ومدارا لولاتهـا . وفى وصـــفه لمدينة « الجزيرة الخضراء » الأندلسية يقول انها (مدينة متحضرة لها سور حجارة مفرغ بالجيار ، ولها ثلاثة أبواب ، ودار صـناعة داخل المدينة ، ويشقها نهر يسمى نهر العسل ، وهو حلو عذب ، ومنه شرب أهل المدينة ، ولهم على هذا النهر بساتين وجنات بكلتى ضفتيه معا . وبالجزيرة الخضراء انشـــاء واقلاع وحط ، وبينها وبين مدينة سبتة مجاز البحر ، وعرضه هناك ثمانية عشر ميلا) . فانظر كيف تحدث عن المدينة حديثا موجزا جامعا لأشهر معالمها وخصائصها ومميزات نهرها . وانظر كيف تحدث عن مجاز البحر بينها وبين مدينة سبتة التى تقع مقابلها على الشـاطىء الأفريقى بالمغرب ، وانظر كيف ذكر عرض هذا المجاز أو الممر البحرى بالأميال .

وحين يتحدث الادريسى عن مدينة « أشـبيلية » بالأندلس يذكر أنها (مدينة كبيرة عامرة ذات أسوار حصينة . وأسـواق كثيرة ، وبيع وشراء . وأهلهـا مياسير ، وجل تجارتهـا بالزيت يتجر به من أقصى المشارق والمغارب ، برا وبحرا ، وهذا الزيت عندهم يجتم من « الشرف » وهذا الشرف هو مسـافة أربعين ميلا ، وهـذه الأربعون ميلا كلها تمشى فى ظل شـجر الزيتون والتين) .

وفى وصف مدينة « شنت مارية » بالأندلس يقول الأدريسى : (ومدينة شنت مارية على معظم البحر الأعظم ، وسورها يصعد ماء البحر فيه اذا كان المد . وهى مدينة متوسطة القدر ، حسنة الترتيب ، لها مسـجد جامع ومنبر وجماعة . وبها المراكب واردة وصادرة ، وهى كثيرة الأعناب والتين) .

فاذا انتقلنا مع الأدريسى الى مدينة « ماردة » رأيناه يصفها قائلا : (ومدينة ماردة كانت دار مملكة لماردة بنت هرمسـوس الملك . وبها من البناء آثار ظاهرة ، تنطق عن ملك وقدرة ، وتعرب عن نخوة وعزة ، وتفصح عن غبطة . فمن هذه البناءات أن فى غرب المدينة قنطرة كبيرة ذات قسى ، عالية الذروة ، كثيرة العـدد ، عريضة المجاز . وقد بنى على ظهر القسى أقباء تتصل من داخل

(1) اسمها الآن بالاسبانية : MERIDA وهى فى جنوبى شرقى أسبانيا على الخط الحديدى بين مدريد وبطليوس

المدينة الى آخر القنطرة ، ولا يرى الماشى بها . وفى داخل هذا الداموس قناة ماء تصل المدينة . ومشى الناس والدواب على تلك الدواميس . وهى متقنة البناء ، وثيقة التأليف ، حسنة الصنعة . والمدينة عليها سور حجارة منجورة من أحسن صنعة وأوثق بناء . ولها فى قصبتها قصور خربة .. وفى الجنوب من سور هذه المدينة قصر آخر صغير ، وفى برج منه كان مكان مرآة ، كانت الملكة « ماردة » تنظر الى وجهها فيها ، ومحيط دوره عشرون شبرا ، وكان يدور على حرفه ، وكان دورانه قائما . ومكانه الآن باق . ويقال انما صنعته « ماردة » لتحاكى به مرآة ذى القرنين التى صنعها فى منار الاسكندرية ..) .

وهكذا نجد أوصافا دقيقة ممتعة لكل مدن الأندلس التى زارها الادريسى ، ووصفها عن معاينة ، مثل مدينة قلمرية ، وشنترين ، وطليطلة ، وسرقطة ، وبلنسية ، ومرسية ، والمرية وغيرها .

وكان لبلاد المغرب نصيب من الوصف عند الشريف الأدريسى فى كتابه « نزهة المشتاق » . وكان لمدينة « سبتة » — وهى مسقط رأسه — نصيب لا بأس به من الوصف ، ولا بأس من ايراد بعض صفته لها حين يقول : (فأما مدينة سبتة فهى تقابل الجزيرة الخضراء ، وهى سبعة أجبال صغار متصلة بعضها ببعض معمورة. طولها من المغرب الى المشرق نحو ميل . ويتصل بها من جهة

الغرب ، وعلى ميلين منها ، جبل موسى . وهذا الجبل منسوب لموسى بن نصير . وهو الذى كان على يديه افتتاح الأندلس فى صدر الاسلام . وتجاوره جنات وبساتين وأشجار وفواكه كثيرة، وقصب سكر ، وأترج يتجهز به الى ما جاور سبتة من البلاد ، لكثرة الفواكه بها . ويسمى هذا المكان الذى جمع هذا كله : بليونش . وبهذا الموضع مياه جارية ، وعيون مطردة ، وخصب زائد . ويلى المدينة من جهة المشرق جبل عال يسمى : جبل المنية، وأعلاه بسيط ، وعلى أعلاه سور بناه محمد بن أبى عامر عندما جاز اليها من الأندلس ، وأراد أن ينقل المدينة الى أعلى هذا الجبل ، فمات عند فراغه من بنيان أسوارها . وعجز أهل سبتة عن الانتقال الى هذه المدينة المسماة بالمنية ، فمكثوا فى مدينتهم ، وبقيت « المنية » خالية ، وأسوارها قائمة ، وقد نبت حطب الشعراء فيها . وفى وسط المدينة بأعلى الجبل عين ماء لطيفة لكنها لا تجف البتة .. وبمدينة سبتة مصايد للحوت ، ولا يعدلها بلد فى أصابة الحوت وجلبه ، ويصاد بها من السمك نحو من مائة نوع. ويصاد بها السمك المسمى بالتنين الكبير ، وصيدهم له يكون زرقا بالرماح ..) .

وقد وصف الأدريسى من بلاد المغرب ومدنه : قصر المصمودة، وطنجة ، وقصر عبد الكريم ، وأزيلا ، والبصرة المغربية — وهى

غير البصرة العراقيـة بالطبـع ـ وفاس ، وأغمـات ، ومليلة . وندرومة ، وهنين ، ووهران وغيرها .

ولم يفت الأدريسى أن يصف مدن صقلية فى عهد مقامه بها . ووصـفه لمدينة بلرم الصـقلية يجمع بين الدقة والطرافة ، وفيه يقول : (ان بها ـ يعنى مدينة بلرم ـ أحسن المبانى التى سارت الركبان بنشر محاسنها ، فى بنائهـا ودقائق صناعاتها ، وبدائع مخترعاتها . وهى على قسمين : قصر ، وربض ، فالقصر هو القصر القديم المشهور فخره فى كل بلد واقليم . وهو فى ذاته على ثلاثة أسمطة : فالسماط الأول يشتمل على قصـور منيفة ، ومنازل شامخة شريفة ، وكثـير من المسـاجد والفنادق والحمـامات ، وحوانيت التجار الكبار . والسماطان الباقيان فيهما أيضا قصور سامية ، ومبان فاخرة عالية ..) .

ولما كان الأدريسى قد زار عددا غـير قليل من بـلاد أوربة وخاصة ايطاليا فأننا نورد هنا قطعة من وصفه لمدينة « رومة » حيث يقول : (رومة هى على جانبى نهر الصفر ـ يعنى التيبر ـ وهى مدينة مشهورة ، ومقر خليفة النصارى المسمى بالبابا ، وهى على جنـوبى خور البنـادقة . وبلاد رومة غربى قلفرية . ودور سورها أربعة وعشرون ميلا ، وهو مبنى بالآجر ، ولها واد يشق وسط المدينة ، وعليه قناطر يجاز عليهـا من الجهة الشرقية الى الغربية . وامتداد كنيسـة رومة سـتمائة ذراع فى مثله ، وهى

مسقفة بالرصاص ، ومفروشة بالرخام ، وفيها أعمدة كثيرة عظيمة. وعلى يمين الداخل من آخر أبوابها حوض رخام عظيم للمعمودية ، وفيه ماء جار أبدا . وفى صدر الكنيسة كرسى من ذهب يجلس عليه البابا . وتحته باب مصفح بالفضة يدخل منـه الى أربعـة أبواب واحـد بعد آخر ، يفضى الى سرداب فيه مدفون بطرس حوارى عيسى) (١) .

واهتمام الادريسى بأمكنة العبادة فى المدن التى يصفها ملحوظ معروف . ولا ننسى وصفه لكنيسة الغراب بالأندلس . وتجـد أشارة له فى موطن آخر من كتابنا هـذا حين تحدثنا عن منهج الشريف الأدريسى فى وصف البلاد .

ولقد وصف الادريسى مدنا من آسيا الصغرى فى خلال رحلته هناك ، ومن ذلك وصفه لمدينة يزمير أو أزمير التركية . كما نجد له أوصافا لمدن صيدا ، وبيروت وبيت لحم فى فلسطين . وان كان لم يتأكدلنا زيارته لتلك البلاد ، وهو هنا ناقل عن أوصاف غيره .

وكذلك لم يتأكد لنا زيارة الأدريسى للهنـد ، وان كان قد ضمن كتابه « نزهة المشتاق » أوصافا لبلاد الهند ومدنها ، وبالطبع هو هنا ناقل أيضا ، شأنه فى ذلك شأن بقية البلاد والأقطار التى لم تطأها قدماه . ونلاحظ فى القسم الخاص بالهنـد من كتابه

(١) أوردنا بعض ما قاله الأدريسى فى وصف رومة فى الفصل الذى عنوانه « بين الواقع والاساطير » ولا تكرار هنا بل جئناه للمناسبة .

« نزهة المشتاق ، فى اختراق الآفاق » أنه وصـــف مدنا هندية كثيرة وجزرا غير قليلة تجاورها ، فوصـــف سرنديب ، وجزيرة الرامى ، والديبل ، والنيرون ، والمنصورة ، ومهران ، وقالرى . والرور ، وشروســـان ، وفيربوز ، والملتـــان ، ومامهل ، وكنباية وغيرها .

وقليل من المدن التى وصفهـــا الأدريسى فى كتابه قد اندثر وضاعت معالمه ، وبقى الكثير منهـــا الى اليوم بعد أن تجددت معالمه ، وتغـــيرت ملامحه بالهدم والبناء ، والاضافة والتوسع ، والتخطيط الجديد . ومن هنا كانت القيمة التاريخية لأوصاف تلك المدن ، لترينا الصورة الحقيقية لها فى العصر الذى وصفها فيـــه الشريف الأدريسى .

وصّاف البحار

من المؤكد أن الشريف الأدريسى قد ركب لجة البحر المتوسط — البحر الأبيض المتوسط — غير مرة ، وأنه ركب لجة المحيط فى جولة حول الشاطىء الغربى للأندلس . ولا نعرف أنه عبر البحر الأحمر أو المحيط الهندى ، لأن أوصافه لآسيا والهند كانت نقلا عن رحلات الجوابين العرب الذين سبقوه . ومع هذا فأننا نجد من الأدريسى اهتماما بالغا بصفة البحار وما يكتنفها من مظاهر طبيعية ، وما يسكنها من عجائب البحر ، ومن يعيش فى الجزر من أقوام غريبى العادات والطباع .

ويظهر أن هذه الناحية من وصف البحار وظواهرها قد فتنته الى حد بعيد ، فهو حريص على ابرازها فى كتابه « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » فى الموضع الذى يلائم ايرادها فيه .

وقد يصادف راكب البحر نوع من الدوامات المائية الشديدة

التى تدور فيها الأمواج بشـدة عاصـفة فتبتلع المراكب العالية كالجبال وتلتهمها فى لحظات ، وهى دوامات شديدة الخطر على الملاحة والملاحين . وتسـمى الدرادير ، ومفردها دردور . ونجد الأدريسى يصف الدردور بقوله : (والدردور موضع يدور فيه الماء كالرحى دورانا دائما من غير فترة ولا سكون ، فاذا سقط اليه مركب أو غيره لم يزل يدور حتى يتلف ..) .

وقد تنبه الأدريسى عن طريق من سبقه من الرحالين العرب الى الأجوان التى تقع حول جزيرة سرنديب جنوبى بلاد الهند ، فوصفها قائلا : (ويحاذى هذه الجزيرة من أرض الهند أغباب ، وهى أجوان تقع فيها أنهار ، وتسمى أغباب سرنديب ، وتدخلها المراكب السيارة ، وتمر فيها الشهر والشهرين) .

ويبدو أن الادريسى نقل معارفه عن هذه الأغباب والأخوار عن أبى الريحان البيرونى المتوفى سنة ٤٣٠ هـ . وعن أبى زيد حسن السيرافى الذى التقى مع المسـعودى المؤرخ فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى وأعطاه بعض الأخبار عن البحار الهندية . وقد يكون من الملائم أن نسجل هنـا ما قاله البيرونى وأبو زيد السيرافى عن هذه الأغباب، فنبدأ بالبيرونى حيث يقول: (الغب ، وهو كالزاوية والعطفة ، يدخل من البحر الى البـر ، ويكون للسفن منه مخاوف ، وخاصـة من جهة المد والجزر . والخور هو شـبه الغب ، ولكنه ليس من جهة دخول البحر ،

وأنما هو من مجيء الميـــاه الجارية ، واتصاله بالبحر ساكنا . ومخاوف السفن من جهة العذوبة التى لا تستقل بالأثقال استقلال الملوحة بها) . أما السـيرافى فيقول : (ويحاذى هــذه الجزيرة ــ يعنى سرنديب ــ أغباب واسعة . ومعنى الغب الوادى العظيم اذا أفرط فى طوله وعرضــه ، وكان مصــبه الى البحر . يسـير المجتازون فى هذا الغب المعروف بغب سرنديب بين شهرين وأكثر).

وبمناسبة أغباب سرنديب ، قديكون من الملائم أن نسجل هنا ما دونه الأدريسى فى « نزهة المشتاق » عن هذه الجزيرة وملكها وسكانها وغلاتها ، فيقول : (ومن الجزائر المشهورة فى هــذا البحر المســمى هركند ، جزيرة سرنديب ، وهى جزيرة كبـيرة مشهورة الذكر ، وهى ثمانون فرسخا فى ثمانين فرسخ ــ كذا ــ وملك هذه الجزيرة يسكن من هذه المدن « أغنا » ، وهى مدينة القصر ، وبها دار ملكه . وهو ملك عادل كثير السياسة ، يقظان الحراســة ، ناظر فى أمور رعيتــه ، حافظ لهم ، وذاب عنهم .. وليس يملك أحد من ملوك الهند ما يملكه صاحب سرنديب من الدر النفيس ، والياقوت الجليل ، وأنواع الأحجار ، لأن أكثر ذلك موجود فى جبال جزيرته ، وفى أودبتها وبحرها . واليهــا تقصد مراكب أهل الصين وسائر بلاد الملوك المجاورين له [1] .

---

(١) وصــف الهند وما يجاورها من البلاد . للادريسى تحقيق الدكتور مقبول أحمد ــ الهند سنة ١٩٥٤ .

وقد ترك لنا الأدريسى فى « نزهة المشتاق » ، وفى القسم الخاص بالأندلس وصفا جيدا دقيقا للمحيط الأطلسى وأمواجه ورياحه ودوابه وجزره فقال : (.. وهذا الرأس هو فى أقصى المغرب فى نهاية انتهاء المعمور من الأرض ، محصور فى البحر المظلم ، ولا يعلم أحد ما خلف هذا البحر المظلم ، ولا وقف بشر منه على خبر صحيح ، لصعوبة عبوره ، وظلام أنواره ، وتعاظم أمواجه ، وكثرة أهواله ، وتسلط دوابه ، وهيجان رياحه . وبه جزائر كثيرة ، ومنها معمورة ومغمورة ، وليس أحد من الربانين يركبه عرضا ولا ملججا (1) ، وانما يمر منه بطول الساحل ولا يفارقه . وأمواج هذا البحر تندفع منفلقة كالجبال لا ينكسر ماؤها ، والا فلو تكسر موجه لما قدر أحد على سلوكه) .

وقد نقل الأدريسى عن المسعودى صاحب « العجائب » وصفا لجبل المغناطيس الذى يجذب اليه المراكب فقال : (ومن منبسة الى مدينة البايس فى البر ستة أيام وفى البحر مجرى ونصف ... ومدينة البايس هى آخر عمالة الزنج ويتصل بها أرض سفالة الذهب . فمنها على الساحل الى مدينة تسمى « تبهنة » ثمانية أيام فى البر ومجرى ونصف فى البحر ، وذلك لأن ما بين هاتين المدينتين جونا كبيرا .. وبين هاتين المدينتين فى البحر جبل عال عريض يقال له عجرد ، والماء قد حفر جوانبه من كل ناحية ؛

(1) أى داخلا فى لجة الماء .

فيصوت الموج به صوتا هائلا . وهذا الجبل المذكور يجتذب إلى نفسه من المراكب مالاصقه ، فالمسافرون يتنحون عنه ، ويفرون منه) .

ولم يفت الأدريسى أن ينقل فى كتابه وصفا للبال أو الحوت من دواب البحار ، فقال : (ومن هذا البحر يخرج العنبر الكثير الطيب الرائحة . وقد توجد منها العنبرة من قنطار وأكثر وأقل . وهو شيء تقذفه عيون فى قعر البحر مثل ما تقذف عيون هيت ــ بالعراق ــ بالنفط ، فاذا اشتد هيجان الريح رمى به الى الساحل . وقد زعم البعض أنه روث دابة ولكنه ليس كذلك . ويوجد ببحر الصين والهند دواب كبيرة طولها مائة ذراع ، وعرضها أربعة وعشرون ذراعا ، ينبت بظهرها الصخر والذبل ، وقد تتكسر عليه المراكب . ويحكى البحريون أنهم يهاجمون هذه الدواب بالسهام ، ويحملونها على تغيير طريقها ، ويمسكون الصغار منها ، ويحمون على لحمها فى القدور ، فيذوب شحما)

ويعود الأدريسى مرة أخرى الى وصف «البال» أو «الحوت» فى المحيط الأطلسى فيقول : (وبرغم ما يكتنف هذا البحر من أهوال ، ومع كثافة أمواجه ، فان به السمك الكثير يصيدونه فى أمكنة معلومة . وبه دواب بحرية تبلغ من عظم الجرم ما يجعل أهالى تلك الجزر يستعملون عظامها وفقارها بدل الخشب فى

أبنيتهم ، ويصطفون منهـا مطارق وسـهاما ورماحا وخنـاجر ، ومقاعد ، وسلالم ، وبالجملة كل ما يصنع من الخشب) .

وقد نقل أيضا وصـفا « للبابة » وهى دابة بحرية عظيمة ، ووصـفه للبابة قريب من صفته للبال أو الحوت ، ولعله هو أو قريب منه . فيقول فى صفتها : (والبابة دابة كبيرة تكون فى بحر الهنـد والصين ، منهـا ما يكون طوله نحوا من مائة ذراع فى عرض عشرين ذراعا ، ينبت على سنام ظهرها حجارة صـدفية ، وربما تعرضت للمراكب فكسرتها . وحكى أيضـا الربانون أنهم يرشقونها بالسـهام فتتنحى عن طريقهم ، وذكروا أيضـا انهم يتصيدون بأصغر منها ، فيطبخونها فى القدور ، فيـذوب جميع لحمها ، ويعود شحما مذابا) . ويلاحظ القارىء الكريم أن وصف البابة هنا يكاد يكون فى كثير من عباراته وألفاظه وصـف البال أو الحوت الذى ذكرناه قبل هذا بسطور .

وقد وصف الأدريسى غرائب أهل الجزر فى بعض البحـار والمحيطات ، ومنها هؤلاء القوم السود العراة فى جزيرة جالوس بالمحيط الهندى ، فانهم يأكلون الناس (وذلك انه اذا سـقط فى أيديهم انسان من غير بلادهم علقوه منكسا ، وقطعوه وأكلوه قطعا . وذكر بعض رؤساء المراكب أن أهل هذه الجزيرة أخذوا

رجلا من أصـــحابه ، فنظر اليهم ، حتى علقوه وقطعـوه قطعا وأكلوه ..) (١) .

وكانت كثرة المراجع والمصادر لدى الأدريسى عونا له على أن يتخير منها مادة مادة طيبة للموضوع الذى يتحدث عنه متصـلا بالبحار . وما أكثر وأدق حديثه عن اللؤلؤ وصيده فى البحرين قائلا : (وأهم جزر البحرين جزيرة أوال .. وفى هـذه الجزيرة يسكن غاصة اللؤلؤ فى المدينة التى يصل اليها التجار من جميع أنحاء الأرض ومعهم المال الوفير ، ويترقبون شهورا طوالا موسم الغوص . ويستأجر التجار الغاصة مقابل جعل معلوم يتفاوت مع جودة الصيد واعتقاد التجار بمهارة الغاصة . ويكون الغوص فى أغشت (٢) وشتنبر وقبل هذا اذا كانت المياه صافية . ويصطحب كل تاجر الغواص الذى اكتراه . وتخرج المراكب جماعة من الميناء فيما ينيف على مائتى دونج ، وهى فلك أكبر من الفلك العادى يقسم التجار سطحها الى خمس أو ست بلنجات منفصلة ، ومع كل غواص رفيق مساعد اسمه « المصفى » له نصيب فى الكراء . ويخرج مع الغاصة أدلاء حذاق يعرفون المواضع ، لأن للأصداف مواضع تغشاها ، تذهب اليها وتخرج منها حسب الوقت وتعرفها ؛

(١) وصف الهند للادريسى - طبعة الهند ص ١٨ .

(٢) يريد شهرى اغسطس وسبتمبر .

فاذا خرج الغاصة(1) من جزيرة أوال قادهم الدليل، حتى اذا وصلوا الى المواضع المعلومة خلع الدليل ملابسه وغاص ونظر . فاذا وجد المكان مناسبا خرج وأمر بطى الشراع ورمى الأناجر ، وكذلك تفعل بقية الدوانج . ويبدأ الغواصون فى العمل) .

ويمضى الأدريسى فى وصف عملية الصيد منذ أن يستر الغواص سوءته ، ويسد خياشيمه ، ويحمل سكينه وكيسه والحجر الثقيل المعلق بخيط رفيع متين ، الى أن يخرج من قعر البحر حاملا صيده الثمين فيلبس ملابسه وينام ، وهنا يأخذ « المصفى » فى فتح المحار بحضور التاجر الذى يجمع ما يخرج من اللؤلؤ ويسجله فى زمام (2) .. ويأكل الجميع قبيل المغرب ، وينامون طول الليل استعدادا لعمل شاق مقبل فى يوم جديد .

الحق أننا نعيش مع الأدريسى فى « نزهة المشتاق » ساعات غير قليلة فى قراءة أوصافه الممتعة الغريبة للبحار وغرائبها ، مما يؤكد لنا اهتمامات هذا الرجل — حتى ولو كان ناقلا — بهذا العالم الغنى العجيب ..

---

(1) الغاصة جمع غائص ، وهو الغواص الذى يغوص فى الماء .

(2) الزمام هو دفتر أو سجل خاص يدون فيه الانسان ما يريد تدوينه وهو تعبير اصطلاحى .

الإدريسي ورحلة المغرّرين

حين تحدث الأدريسى فى كتابه « نزهة المشـــتاق فى اختراق الآفاق » عن مدينة لشـــبونة أشار الى جماعة من فتيـــان العرب اسمهم « المغررون » خرجوا فى مغامرة بحرية كشفية الى المحيط ليعرفوا ماوراءه ، ولهم فى لشـــبونة حتى العصر الذى عاش فيه الأدريسى درب ينسب اليهم يعرف بدرب المغررين . و لابأس أن نسجل هنا هذه القصة بقلم الأدريسى نفسه لما فيها من طرافة من جهة ، ولكيلا يخل التصرف بمعانيها الصحيحة من جهة أخرى .

يقول الادريسى فى النزهة : (ومن مدينة لشـــبونة كان خروج المغررين فى ركوب بحر الظلمات ، ليعرفوا ما فيه والى أين انتهاؤه كما تقدم ذكرهم ، ولهم بمدينة لشبونة بموضع من قرب الحمة درب منسوب اليهم يعرف بدرب المغررين الى آخر الأبد . وذلك أنه اجتمع ثمانية رجال ، كلهم أبناء عم ، فأنشـــأوا مركبا حمالا وأدخلوا فيه من الماء والزاد ما يكفيهم لأشهر . ثم دخلوا البحر فى

أول طاروس الريح الشرقية، فجروا بها نحوا من١١ يوما، فوصلوا الى بحر غليظ الموج ، كدر الروائح كثير التروش ، قليل الضوء ، فأيقنوا بالتلف ، فردوا قلاعهم فى اليد الأخرى ، وجروا فى البحر فى ناحية الجنوب ١٢ يوما ، فخرجوا الى جزيرة الغنم ، وفيها من الغنم مالا يأخذه عد ولا تحصيل ، وهى سارحة لا راعى لها ، ولا ناظر اليها . فقصدوا الجزيرة فنزلوا بها ، فوجدوا عين ماء جارية وعليها شجرة تين برى ، فأخذوا من تلك الغنم فذبحوها ، فوجدوا لحومها مرة لا يقدر أحد على أكلها فأخذوا من جلودها ، وساروا مع الجنوب ١٢ يوما الى أن لاحت لهم جزيرة ، فنظروا فيها الى عمارة وحرث ، فقصدوا اليها ليروا ما فيها ، فما كان غير بعيد حتى أحيط بهم فى زوارق هناك ، فأخذوا وحملوا فى مركبهم الى مدينة على ضفة البحر ، فأنزلوا بهـا فى دار ، فرأوا رجالا شقرا زعرا شعور رءوسهم ، شعورهم سبطة ، وهم طوال القدود، ولنسائهم جمال عجيب ، فاعتقلوا منها فى بيت ثلاثة أيام ، ثم دخل عليهم فى اليوم الرابع رجل يتكلم باللسان العربى ، فسألهم عن حالهم وفيما جاءوا ، وأين بلدهم ، فأخبروه بكل خبرهم ، فوعدهم خيرا ، وأعلمهم أنه ترجمان الملك . فلما كان فى اليوم الثانى من ذلك اليوم أحضروا بين يدى الملك ، فسألهم عما سألهم الترجمان عنه ، فأخبروه بما أخبروه به للترجمان بالأمس : من أنهم اقتحموا البحر ليروا ما به من الأخبار والعجائب ، ويقفوا على نهايته . فلما

علم الملك ذلك ضحك ، وقال للترجمان : خبر القوم أن أبى أمر قوما من عبيده بركوب هذا البحر ، وأنهم جروا فى عرضه شهرا، الى أن انقطع عنهم الضـوء ، وانصرفوا من غير حاجة ولا فائدة تجدى . ثم أمر الملك الترجمان أن يعدهم خـيرا ، وأن يحسن ظنهم بالملك ، ففعل . ثم صرفوا الى موضع حبسهم ، الى أن بدأ جرى الريح الغربية ، فعمر بهم زورق ، وعصبت أعينهم ، وجرى بهم فى البحر برهة من الدهر . قال القوم : قدرنا انه جرى بنـا ثلاثة أيام بلياليها ، حتى جىء بنا الى البر ، فأخرجنا وكتفنا الى خلف ، وتركنا بالساحل الى أن تضاحى النهار ، وطلعت الشمس، ونحن فى ضنك وسوء حال ، من شدة الأكتاف ، حتى سـمعنا ضوضاء وأصوات ناس فصحنا بأجمعنا ، فأقبـل القوم الينا ، فوجدونا بتلك الحـال السيئة ، فحلونا من وثاقنـا ، وسألونا فأخبرناهم بخبرنا ، وكانوا برابر ، فقال لنا أحدهم : أتعلمون كم بينكم وبين بلدكم ؟ فقلنا : لا ، فقـال : أن بينكم وبين بلدكم مسيرة شهرين . فقال زعيم القوم : وأأسفى ! فسمى المكان الى اليوم « أسفى » وهو المرسى الذى فى أقصى المغرب ..) .

وقد أورد المغفور له الأمير شـكيب أرسـلان هـذهالقصة فى كتابه « الحلل السندسية » وعلق عليها قائلا : (قصة الأخوة المغرورين هذه قصة شهيرة صارت الآن معلومة عند أهل هـذا العصر ، بعد أن بقيت مدة طويلة مدفونة فى كتاب الأدريسى ،

هذا الذى لم تتداوله الأيدى، وانما كان يطلع عليه بعض المستشرقين من علماء الأفرنج ، وبعض المطلعين من العرب على خزائن الكتب ، وقليـلا ماهم ، وبقى الأمر كذلك الى سـنة ١٨٩٢ م وكنت فى باريز ، وكان عمرى ٢٢ سنة ، فقرأت فى جريدة النشرة الاسبوعية التى كان ينشرها الأستاذ العلامة ابراهيم الحورانى باسم جمعية الأميركيين فى بيروت، مقالة مترجمة ، عن مجلة أميركية . لا أتذكر الآن اسمها ، يقول فيها بمناسبة كشف قارة أميركة : انه شائع من جملة الأخبار كون العرب وصلوا الى أميركة قبـل كولمبوس ، وذلك بركوبهم البحر قاصدين الغرب من جهة الأندلس. ويقول : ليس عندنا نحن معلومات عن هذا الشأن تستند الى وثائق خطية، وانما هو كلام متواتر بين الناس. فكنا نود لو عرفنا ما عندالعرب من هذا الموضوع . وأردف الأستاذ الحورانى ذلك بنداء الى علماء العرب أن أفتونا بما عندكم عن هذه المسألة) ومضى الأمير شكيب أرسلان فى تعليقه ، وحكى قصة عثوره على النص العربى فى كتاب « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » للأدريسى وتصفحه له لأول مرة ، ونسخه ما ورد عن قصة الأخوة المغررين بتمامه ، ونشره مقالا عن ذلك فى جريدة ثمرات الفنـون ببيروت . فكان ــ رحمه الله ــ بذلك أول من نبه الأذهان من العرب المحدثين الى ورود قصة الاخوة المغررين فى « نزهة الآفاق » . واستنتج الأمير شكيب أن كريستوف كولمبوس لم يكن يجهل قصة المغررين

هذه ، فاستنتج أن وجود بر ، أو أرض كبيرة خلف بحر الظلمات ـــ أو المحيط الأطلنطى ـــ أمر لابد منه . ولهذا أقدم على رحلته التى كانت كشفا رائعا موفقا للعالم الجديد . وختم الأمير شكيب تعليقه على قصة الأخوة المغررين (بأن غاية ما يستفاد من العبرة فيها أن العرب حاولوا اختراق بحر المحيط ، والوصول الى البر الذى يقال له اليوم أميركا ..) .

ومنذ ذلك الاتجاه الذى أبداه الأمير شكيب فى هذه القضية والمفكرون العرب المحدثون والمعاصرون يؤيدون « شكيبا » فى وجهة نظره ، ويسـيرون فى الخط الذى سار فيه ، ويقولون ان كشف كولمبوس لأمريكا كان على هـدى من معلومات العرب السابقة ومغامرات بعضهم . وقد مال بعض الباحثين الأجانب الى احتضان هذا الرأى ، فالعالم الفرنسى جوتيه (١) يقرر أن تحقيق الدوران حول افريقية بوساطة فاسكودى جاما ، وكشف أمريكا على يد كولمبوس كان متعذرا بدون ارتقاء علم الجغرافيـة عند العرب، وان هذين الكشفين العظيمين تما بعقول العرب ومواردهم وأشخاصهم تحت امرة النصارى . ونرى الأب أنسـتاس مارى الكرملى يكتب بحثا ضافيا فى مجلة المقتطف سنة ١٩٤٥ عنوانه : (عرف العرب أميركة قبل أن يعرفها أبناء الغرب) ، فيستند الى رحلة الأخوة المغررين ويجعلها أساسا للمقال كله . ويميل الدكتور

(١) الاسلام والحضارة العربية : لمحمد كردعلى ص ٢١٢ .

زكى محمد حسن الى الاعتقاد بأن قصة هؤلاء الأخوة لم تكن مجهولة فى العصور الوسطى ، ولعل كولمبوس كان يعرفها ويعرف قصصا أخرى من أخبار من حاولوا ركوب المحيط الأطلسى وكشف غوامضه (١) . أما عباس محمود العقاد فيرى انه من الخرائط المرسومة والآراء النظرية التى نقلت عن العرب تلقى خريستوف كولمبوس صورته عن الكرة الأرضية (٢) . وهذا التلقى وهذه الصورة هى التى دفعت كولمبوس الى المخاطرة بهذه الرحلة الرائعة . ولكن العقاد يقف من قصة الأخوة المغررين موقفا آخر ، فقد خالف الأب أنستاس مارى الكرملى فى هذا الرأى ، كما خالفه فى أن الأب أنستاس أراد أن ينسب الفضل الأول فى معرفة كولمبوس بالعالم الجديد الى راهب من القرن السادس الميلادى اسمه برندان . ويشك عباس محمود العقاد فى القصتين معا : قصة الراهب برندان ، وقصة الاخوة المغررين ، ويعدها هى وما جرى مجراها أقاصيص ملفقة تحيط بها الشكوك (٣) .

وعلى حين يشك عباس محمود العقاد فى قصة الاخوة المغررين فان الأستاذ أحمد أمين يذهب مذهب الأمير شكيب أرسلان ، والأب أنستاس مارى الكرملى ، ويؤكد أن كولمبوس وقف على

---

(١) الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى : لزكى محمد حسن ص ٥٠
(٢) أثر العرب فى الحضارة الاوربية ص ٤٧ .
(٣) المصدر نفسه ص ٥٣ .

رحلة هؤلاء الاخوة واستفاد مما ورد عنهم ، ويستنتج فى النهاية أن العرب (كانوا أسبق فى اكتشاف أميركا ، لولا سوء الظروف التى منعت من نجاحهم (١) .

ويبدو أن الأستاذ محمد بهجت الأثرى يميل الى تصديق هذه القصة وقد أشار اليها فى محاضرة ألقاها بالمجمع العلمى العراقى ، ونشرت فى عدد من أعداد مجلة المجمع . واذا كان لنا أن نستأنس برأى باحث عربى مختص بعلم الجغرافية فى هذه القضية فأن الدكتور محمد محمود الصياد يرى أن هذه الحكاية من باب القصص الذى لا يقوم لدينا الدليل القاطع على صحته (٢) وحسبنا أن ننقل هنا ما كتبه حول هذا الموضوع حيث قال : (ولا نريد أن نغالى فنقول ما قال به البعض بأن العرب قد اكتشفوا أمريكا بالفعل قبل أن يكتشفها كولومبوس بعدة قرون ، فقصة المغررين الذين تحدث عنهم المسعودى فى مروج الذهب، فذكر انهم خاطروا وركبوا بحر الظلمات «ومن نجا منهم ومن تلف وما شاهدوا منه وما رأوا » ثم وصف الأدريسى رحلتهم فى كتابه « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » هى كلها من باب القصص الذى لا يقوم لدينا الدليل القاطع على صحته . ولعل

---

(١) ظهر الاسلام ج ٢ ص ٢٩٤ .

(٢) اثر العرب والاسلام فى النهضة الاوربية ص ٣٢٣ ، ٣٢٤ .

بعض العرب قد فكر فعلا فى ارتياد بحر الظلمات ، فلم يصلوا الى غاية) .

وقد هدانا الدكتور محمد محمود الصياد الى مصدر عربى آخر أقدم من الأدريسى حول جماعة من العرب فى الأندلس ركبوا بحر الظلمات — أو المحيط الأطلسى ، فغرروا وخاطروا بأنفسهم متجهين الى الغرب . وهذا المصدر الأقدم من الأدريسى هو المسعودى المؤرخ صاحب « مروج الذهب » والمتوفى سنة ٣٤٦ هـ . ومن الغريب أن الأمير شكيب أرسلان تشبث بنص الادريسى عن الاخوة المغررين الذى اهتدى اليه وهو فى باريس سنة ١٨٩٢ ، ولم بتشبث بحكاية المسعودى عن المغررين ، مع أن كتاب المسعودى كان أكثر تداولا من كتاب نزهة المشتاق . ويظهر أن الأمير شكيب فرح أشد الفرح حينما هدته مصادفة سعيدة فى المكتبة العامة بباريس الى نسخة من كتاب « نزهة المشتاق » ، فوقع فيه بعد لحظات على النص الذى يريد ..

وقد سار الباحث المغربى عبد الله بن العباس الجرارى فى هذا الدرب المؤيد لقضية معرفة العرب لأمريكا قبل كولمبوس ، وأيد ذلك فى الفصل الذى كتبه بعنوان : « اكتشاف بعض أجزاء الأرض المعروف بالعالم الجديد » . وقد عزز وجهة نظره هذه بما كتبه الدكتور جيفريس الأستاذ بجامعة « ويتواتر ستراند » الأمريكية من أن العرب هم الذين اكتشفوا أمريكا قبل كريستوف

كولومب بنحو من ثلاثة قرون أو أربعة . ويرى هـذا الباحث الأمريكى أن المزروعات الأفريقيـة دخلت الى أمريـكا على يد العرب ..

ولم يفت باحثا مؤرخا مثل الدكتور «فيليب حتى»، أن يشير الى قصة الأخوة المغررين التى أوردها الأدريسى ، ولكنه لم يجعل منها وحيا لكولومبوس هداه الى كشف العالم الجديد ،بل جعلها (من الأخبار التى تنعكس عن الحركة البحرية الناشطة فى المحيط الأطلسى « بحر الظلمات » (١) .

وقد جمع المستشرق كراتشكوفسكى بين الخبر الذى رواه المسعودى عن فتيان قرطبة وأحداثهم الذين ركبوا المحيط الأطلسى فى مغامرة بحرية عادوا منها سالمين بغنائم واسعة ، وبين قصـة المغررين التى أوردها الادريسى فى نزهة المشتاق ، واستنتج من الأخيرة أن نقاطا عديدة منها تدخل فى محيط الأدب الشـعبى : الفولكلور العالمى للقرون الوسطى (٢) .

وممن ذكر قصة الأخوة المغررين المرحوم أحمد زكى باشا فى مقـال له بمجلة المقتطف ، والمرحوم جرجى زيدان ، والدكتور شوقى ضيف فى كتابه « الرحلات » . وقد يكون تناولها باحثون آخرون معاصرون لم نقف عليهم .

---

(١) تاريخ العرب العام . فيليب حتى ص ٦٣٠ .

(٢) تاريخ الادب الجغرافى العربى ص ١٢٧ .

بقى أن نعرف سر تسـمية هؤلاء الأخـوة بالمغررين ، أو المغرورين . والمغرر هو الذى يغرر بنفسه ويركبهـا المخاطر والأهوال . ولعلها تسمية جاءت من النص القديم عند المسعودى. أما المغرورون فمعناها الذين اغتروا بأنفسهم وركبوا مالا يستطاع ركوبه ، واللفظان من جذر واحد . ويميل أكثر الكتاب اليـوم الى اسـتعمال لفظة « المغررين » ، وان كان القسم المطبوع فى أوربا من « نزهة المشتاق » يسميهم المغرورين .

ولا معنى لأن تضبط كلمة « المغررين » بشـدة وفتحة على الراء الأولى ، كما جاء عنـد كراتشكوفسكى ، والأجـود أن تضبط الراء الأولى بشدة وكسرة ـــ على وزن مدرس ـــ لأن الفعل غرر الرجل بنفسه أى أركبها الخطر . ونص المسـعودى نفسه يؤكد لنا هذا الضبط حيث يقول : أخبار من غرر وخاطر بنفسه . ويميل المستشرق المشهور « آدم ميتز » الى تسـميتهم بالمغربين أى المتجهين غربا، ولا أدرى من أين أخذ هذه التسمية(١)، ولا فى أى مصدر وجدها .

(١) انظر الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع : لآدم ميتز ، جـ ٢ ص ٣٦٧

أوربا والأندلس وإفريقية
عند الإدريسي

لم يتردد أحـد من الباحثين الذين تحدثوا عن الأدريسى فى الحديث عن القيمة العلمية للمعلومات التى قدمها فى كتابه «نزهة المشتاق» عن أوربة والأندلس . واذا كانت معلوماته عن الأندلس ومدنهـا وأصقاعهـا تتسم بالدقة التى ترجع الى مشـاهداته الشخصية ، وما كان يتمتع به من ملاحظة دقيقة ، فأن المعلومات التى دونهـا عن أكثر بلدان أوربة ـــ وهى المعلومات التى قام بجمعها الرواد والرسـل الذين أوفدهم الملك روجر الثـانى ـــ تمتـاز بالدقة فى أكثرها ، وتتمتع بدرجة عالية من الثقـة التى أصبحت حديث أكثر المستشرقين ومجـال تقديرهم . ويرد المستشرق الايطالى ألدوميلى هذه الدقة الى اقامة الأدريسى فى بلد مسيحى كصقلية ، والى نشاطه فى صقلية . ويقول ميلى فى هذا الصدد : (وبالنظر الى أقامته فى بلد مسيحى ، ونشاطه فى

صقلية ، كانت بياناته عن البلدان المسيحية أعظم دقة وأوسع مدى من كل الجغرافيين الآخرين من العــرب) . والحق أن الظروف التى قضت على الأدريسى أن يعيش فى صــقلية قريبا من الملك روجر المشجع للعلماء قد هيأت له أنه يوسع مجــال معارفه عن أوربا بهذه البعثات التى كان يذهب فيهــــا الرسل والمبعوثون فيجمعون البيانات والمعلومات ، ويقدمونها الى الادريسى الذى كان بدوره يدقق فى اختيارها على ضــوء الاتفاق بين الروايات أو الاختلاف بينها .

ويؤكد لنا كراتشكوفسكى فى مستهل دراسته الجيدة الواعية عن الأدريسى أنه ليس هناك مؤلف حفظ لنا معطيات وافرة ذات قيمة كبرى عن بــلاد الغرب كما فعــــل الأدريسى . ويتعرض كراتشكوفسكى مرة أخرى لوصف الادريسى لأوربا الغربية : بما فيها من فرنسا وألمانيا وسكوتلاندة وايرلندة وسواحل بحر الشمال ، فيصفه بأنه وصف ينم عن المقدرة والمهارة التى اقتضتها الظروف العلمية لذلك العهــد . ويقرر المستشرق النمســـــوى توماشك أن وصف الأدريسى لبلاد البلطيق أكثر دقة من وصفه لألمانيا وبولندة وروسيا ، كما يصرح بأن رومانيا وشــبه جزيرة البلقان قد ظفرتا بتفصيل كثير ومعلومات غزيرة ، ويرد ذلك الى الحمـــــلات الصليبية التى كانت قد بدأت منــذ عام ١٠٦٤ م ، فوســعت ميدان التعرف الى هــــذه البلاد ، كما يرده الى نمو

العلاقات التجارية بين الغرب الفرنجى الرومانى ، والشرق الأغريقى الصقلبى .

ويظهر أن الذى فعله الأدريسى فى وصف شبه جزيرة البلقان لا يقل عما فعله فى بقية البلاد الأوربية التى تحدث عنها ، بل يعد هذا الوصف نموذجا للمنهج الذى اتبعه . فهو يتحدث عن الأحوال التجارية ، والعلاقات التجارية بين هذه البلاد ، كما يتحدث عن وسائل المواصلات التى تعد طرقا رئيسية هامة للتجارة .

ولم يفت المستشرق الاسبانى بالنثيا أن يشير فى كتابه القيم الى القيمة العلمية للمعلومات الصحيحة ، والمادة الوافرة التى قدمها الأدريسى فى نزهة المشتاق عن البلاد الأوربية التى تسكنها شعوب تعتنق الديانة المسيحية .

ولاشك أن الموقع الفريد الذى تتمتع به جزيرة صقلية فى البحر المتوسط — الذى يسمى خطأ البحر الأبيض المتوسط — كان من أهم العوامل التى ساعدت الأدريسى على تحصيل معلوماته الدقيقة عن أوربا وعن البلاد التى وصفها فيها . وقد أبرز هذه الحقيقة الأستاذ الباحث الهندى نفيس أحمد حيث قال : (وحينما كان الأدريسى يعالج اللمسات الأخيرة فى اتمام مؤلفه ، كان قد حظى بميزات كبرى بتيحها وضع صقلية فى مركز البحر المتوسط تقريبا ، ووقوعها عند ملتقى السفن والملاحين القادمين من المياه الشمالية ، ومن المحيط الأطلنطى ومن البحر المتوسط) .

فوضع جزيرة صقلية فى البحر المتوسط من ناحية ، ووضعها السياسى الجديد من حيث كونها تابعة لأسرة نورماندية فاتحة من ناحية أخرى ، واهتمامات الملك روجر الثانى من ناحية ثالثة ، وذكاء الأدريسى نفسه وشدة تنبهه للتدقيق فى المعلومات التى يحملها اليه الرسل والرواد من ناحية رابعة ، كل ذلك قد أدى الى الدقة فى وصف الأدريسى لأقاليم أوربا ، تلك الدقة التى كانت ولاتزال موضع اعجاب وتقدير من عدد غير قليل من الباحثين والمستشرقين .

ولم يفت المستشرق الروسى « مينورسكى » الذى ولد فى روسيا سنة ١٨٧٧ م وعاش فى انجلترة ، والذى حرر مادة (روس) . فى دائرة المعارف الاسلامية .. لم يفته أن يشير الى جهد الأدريسى فى أصالة المعلومات التى زودنا بها فى كتابه نزهة المشتاق . ويقول مينورسكى فى هذا الصدد : (والادريسى هو الكاتب الوحيد الذى يمدنا بمعلومات أصيلة عن الروس بعد القرن العاشر — الميلادى — فهو يتناولهم فى كلامه عن الأقليم السادس ، القسم الخامس « نهر الروس ، المدن التى على نهر الدنيبر » ، وعن الأقليم السابع ، القسم الرابع والقسم الخامس « منابع الدنيستر ، الروسيا ، وقومانيا أى أرض القومان ») .

وحين نبهنا الباحثون الأجانب المنصفون الى القيمة العالية لمعلومات الأدريسى عن أوربا رأينا الكتاب العرب يتابعون هؤلاء

الغربيين فى تقديرهم . فالدكتور زكى محمد حسن يقول فى هذا الشأن : (.. والواقع انه ـــ أى الادريسى ـــ بهـذه البيانات امتـــاز على سائر الجغرافيين المسلمين ، فأن من سبقه منهم لم يستطع الكتابة على أوربا فى شىء من الدقة ، ولم يظفر بمشاهدات أولئك الرواد الذين أوفدهم الملك حتى الى أقصى الأطراف مثل اسكندناوة . أما الذين خلفوه فقد عمد معظمهم الى نقل ماكتبه هو فى هذا الصدد ..) (١) .

ويشـير الدكتور شـوقى ضيف الى هذه الحقيقة قائلا : (ولا يقف الأدريسى بكتابه عند وصف العالم الاســلامى ، بل يضم اليه وصفا دقيقا للعالم المسيحى فى أوربة . مفيدا من الرحالة الذين وضعهم روجر تحت امرته ، وقد أوفدهم الى بلدان أوربة المختلفة ، ونقلوا اليه كثيرا من المعلومات عن فرنســا وايطاليا وألمانيا وأواسط أوربة وشرقها ، (٢) . ويسمى الادريسى انجلترة باسم « انكرطرة » ، وهو طبعا من تحريفات الترجمة والتعريب ، كما يسمى الأنجليز باسم « الأنكلسية » ، وهو تحريف آخر . وحين يتحدث عن البحر الذى يكتنف انجلترة من جنوبها ـــ وهو جزء من المحيط ـــ يقول : (وأهم الملاحين فى هـذا البحر هم

---

(١) الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى : د . زكى محمد حسن ص ٦٥ .

(٢) الرحلات : لشوقى ضيف ص ٢٠ .

المعروفون باسم الأنكلسية ، أى سكان انكرطرة ، وهى جزيرة عظيمة بها مدن كبيرة ..) .

أما الأستاذ محمد بهجت الأثرى فيتناول هذه القضية بقوله: (ويعد الأدريسى أهم من عرف أوربة الغربية والشمالية من الجغرافيين الاسلاميين) .

ولا يقل وصف الأدريسى للأندلس دقة وضبطا عن وصفه للبلاد الأوربية الأخرى . واذا كانت أوربا بعيدة عن متناوله الا عن طريق المبعوثين والرسل الذين أوفدهم بأذن روجر الثانى ، فأن أسبانيا كانت فى طاقته ، وقد زارها حينما كان يتلقى العلم بقرطبة ، ولما كان فيه طبع الرحالة الأصيل فقد انتهز الفرصة وزار أكثر بلادها ومدنها ، وتحدث عنها حديث البصير الخبير . وكثيرا ما تحدث عن هذه المعاينة بقوله : وقد رأيناه عيانا ، أو شبيهه من العبارات الدالة على الرؤية العينية . وفى فصل خاص بالمعاينة والمشاهدة عند الأدريسى ، وفصل آخر عن منهج الأدريسى فى وصف البلاد من كتابنا هذا تتضح لنا دقة الأدريسى فى وصف الأندلس على وجه الخصوص .

ومن حسن الحظ أن مؤرخا دقيقا كالدكتور حسين مؤنس قد تفطن الى هذه المعرفة الدقيقة عند الادريسى فى وصف الأندلس فقال من دراسته عنه : (وصف الادريسى للاندلس فى معظم

نواحيه يدل على أنه يعرف ما يتكلم عنه ، فبينا نراه فى وصف مصر — مثلا — يعتمد فى الغالب على ابن خرداذبة وابن حوقل دون أن يراجع ما ينقله أو يحققه ، نجده فى الأندلس ينقل عن هذين وغيرهما ممن ذكرنا ، ولكنه يراجع ويدقق ويقيس ، بحيث لا نكاد نستدرك عليه خطأ يستحق الذكر فى أوضاع المدن والأعلام الجغرافية أو خصائصها . وعرضه لهذه الجغرافية اشبه برحلة ينتقل فيها الانسان من موضع الى موضع ، ومن ناحية الى ناحية ..) .

واذا ما تنقلنا من الأندلس وأوربة الى أفريقية . رأينا الادريسى يحظى بين الباحثين بوصف معلوماته هنا بالدقة التى عرف بها هناك . وعلى الرغم من أنه كان ينقل عن بطليموس فى هذا الميدان فأنه لم يكن مجرد ناقل مقلد ، وانما كان ينقل عن معرفة ووعى . وقد أشار المستشرق النمسوى مجيك mzik الى هـذا بقوله : (فبعض مؤرخى الجغرافيا يرى أن الادريسى فى وصفه لافريقية لم يترسم خطا بطليموس دون وعى ، فوصفه لمجرى النيل الغربى أى نهر النيجر قد وكدت صحته الاكتشافات الجغرافية فى القرن التاسع عشر ، وهو على معرفة جيدة بالتجارة مع داخل أفريقية ، وقد أورد أسماء المراكز التى ازدهرت فيها الحضارة الاسلامية فى ذلك الوقت مثل غانا ، وسلا ، وتكرور) .

وبلغ من دقة الأدريسى فى وصفه لأفريقية والنيل أن مؤرخنا

ابن خلدون أخذ منه أكثر أوصافه وزاد عليها . وما أقرب ما قاله الأدريسى فى هذا الصدد مما قاله ابن خلدون حيث يقول : (وأما الجزء الأول من هذا الأقليم ففيه مصب النيل الآتى من مبدئه عند جبل القمر كما ذكرناه . ويسمى نيل السودان . ويذهب الى البحر المحيط فيصب فيه عند جزيرة أوليك . وعلى هذا النيل مدينة سلا، وتكرور ، وغانة. وكلها لهذا العهد فى مملكة مالى من أمم السودان ، والى بلادهم تسافر تجار المغرب الأقصى . وبالقرب منها من شماليها بلاد لمتونة ، وسائر طوائف الملثمين ، ومفاوز يجولون فيها . وفى جنوبى هذا النيل قوم من السودان يقال لهم « لملم » وهم كفار ، ويكتوون فى وجوههم وأصداغهم ، وأهل غانة والتكرور يغيرون عليهم ويسبونهم ويبيعونهم للتجار فيجلبونهم الى المغرب ، وكلهم عامة رقيقهم) .

والى معلومات الأدريسى الدقيقة عن النيجر ، وأفريقية ، ومنابع النيل يشير « كامبل » فى كتابه « الجغرافيا فى العصور الوسطى » فهو يقول : (وقد أمدنا الأدريسى بعد ذلك فى منتصف القرن الثانى عشر الميلادى بمعلومات عن النيجر فى الجزء الواقع أعلى تمبكتو ، وعن أقليم منابع النيل ومناطق كبيرة من السودان فى دقة لا ينازع فيها ، وذلك فى ثنايا جغرافيته (نزهة المشتاق ، فى اختراق الآفاق) ، وان جدة معلومات الادريسى عن افريقية وقيمتها الحقيقية لتثيران اعجاب الجغرافيين المحدثين) .

وقد سجل الباحث الهندى « نفيس أحمد » هذا النص فى كتابه القيم الذى عنوانه (جهود المسلمين فى الجغرافيا). كما أن المرحوم عباس محمود العقاد لم تفته الأشارة الى الأدريسى ، وسبقه فى ميدان الحديث عن منابع النيل حديثا صحيحا ، فقال فى هـذا الشأن : (ولا يعرف أن أحدا سبق الأدريسى الى بيان الحقيقة عن منابع النيل العليا كما حفظت فى الخرائط التى بقيت فى بعض المتاحف الأوربية ، ومنها خريطة محفوظة بمتحف سان مرتين الفرنسى ، ترسم النيل آتيا من بحيرات الى جنوب خط الاستواء، بعد أن تخبط الجغرافيون فى وصف منابعه وتعليل فيضانه منذ أيام هيرودوت الملقب بأبى التاريخ) (١) .

أما شرق أفريقية فقد وصفه الأدريسى وصفا دقيقا ولو لم يرحل اليه ، ولكنه كان هنا ناقلا دقيقا ، ويشير الدكتور جمال زكريا قاسم الى هذا بقوله من بحث عنوانه (دور العرب فى كشف أفريقيا) نشر بمجلة عالم الفكر التى تصدر بالكويت ، العدد الرابع سنة ١٩٧١ : (ومما يستلفت النظر أن الأدريسى لم يرحل الى شرق أفريقيا كما فعل المسعودى ، ولكنه استمع كثيرا ، وقرأ أكثر ، فأتى بدقائق مفصلة عن هذا الأقليم خاصة) . وكذلك غرب أفريقية ــ ولاسيما غانة ــ فقد وصف الأدريسى ما كان عليه

---

(١) أثر العرب فى الحضارة الاوربية : عباس محمود العقاد . ص ٤٦ .

ملوك غانة من الثراء والعــــلاقات التجارية بينهم وبين المغــرب الأقصى (١) .

ومن الباحثين الغربيين الذين أنصـــفوا الأدريسى فى مجال بياناته الدقيقة عن أفريقية الكاتب « بازل دافيدسون » فى كتابه « أفريقية تحت أضواء جديدة » الذى نشرت ترجمته العربيــة بيروت سنة ١٩٦١ .

(١) مجلة عالم الفكر الكويتية عدد مارس سنة ١٩٧١ وقد نقل الكاتب هذا عن الدكتور عبد الرحمن زكى فى دراسته : (المراجع العربية للتاريخ الاسلامى فى غرب افريقيا) .

جوانب متعددة من إدريسى

مما يلفت النظر عند الشريف الأدريسى أنه كان رجلا متعدد جوانب المعرفة ، موزع ألوان الثقافة ، فلم يقتصر على فرع من المعرفة دون فرع، ولم يحبس نفسه فى دائرة علم الجغرافية والفلك لا يتعداها الى غيرها ، ولكنه خاض ميادين متنوعة بالأضافة الى علم الجغرافية والخرائط الذى برع فيه ، واشتهر به حتى صار من أعاظم الجغرافيين العرب .

ولقد اهتم الباحثون والمؤرخون بالأدريسى جغرافيا ومصور خرائط، وتحدثت عنه فى هذا الكتاب كل المؤلفات التى تتناول تقدم العرب فى الجغرافية والعلم . ومن هنا جاءت سيرته فى كتب العلوم عند العرب أكثر مما جاءت فى كتب التاريخ الأدبى . ومن هنـــا أيضا كان اهتمام جرجى زيدان به فى كتابه « تاريخ آداب اللغة العربية » لأنه يؤرخ فى كتابه للعلوم الدخيلة كالطب والفلســفة

والطبيعيات وعلم الحيوان والنبات والفنون الجميلة والجغرافيه وما اليها بالاضافة الى التأريخ للشعر والأدب والعلوم الاسلامية وعلوم اللغة . ولقد كانت ترجمة جرجى زيدان للشريف الأدريسى فى خلال الفصل الذى عقده فى كتابه عن الجغرافية والرحلات عند العرب فى العصر العباسى الرابع ، وكان من الذين ترجم لهم زيدان فى هذا الفصل : أبو عبيد البكرى ، والمازنى الغرناطى ، وابن جبير الرحالة ، والسائح الهروى ، وابن عبد العزيز ، وياقوت الحموى، وعبد اللطيف البغدادى . ومن هنا أيضا نجد اشارات لا بأس بها الى الشريف الأدريسى فى كتب « الرحلات » لشوقى ضيف ، و « الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى » لزكى محمد حسن ، و « العلم عند العرب » لألدوميلى الايطالى ، و « العلوم عند العرب » لقدرى حافظ طوقان ، و « الرواد » لفؤاد صروف ، و « رواد الشرق العربى فى العصور الوسطى » لنقولا زيادة ، و « تقدم العرب فى العلوم والصناعات » لعبد الله الجرارى ، و « جهود المسلمين فى الجغرافية » لنفيس أحمد الهندى ، و « العرب والملاحة فى المحيط الهندى » لجورج فضلو حوارنى ، و « تاريخ الأدب الجغرافى العربى » لأغناطيوس كراتشكوفسكى.

ويبدو أن شهرة الأدريسى فى علم الجغرافية والخرائط قد طغت على مكانته فى نواح أخرى من الطب ، وعلم النبات ، والصيدلة، والشعر. مما جعل المستشرق الروسى كراتشكوفسكى

يحكم على الرجل بأنه (كان الى حد ما مؤلفا جامعا — أى موسوعيا — بل وعرفت له بعض الأشعار منذ وقت طويل) .

وقد يكون من الطريف هنا أن نذكر بعض الأشعار التى رواها صلاح الدين الصفدى للشريف الادريسى وهو يترجم لسيرته فى باب المحمدين من الجزء الأول من كتابه . وهى أشعار تدل على ميل الادريسى الى الحكمة ، والى وصف آلام الغربة، والشكوى من ضياعه فى خضم الاغتراب مع فقدان الأنصاف والتقدير ، فمن شعره فى الغربة قوله :

ليت شعرى ! أين قبرى	ضاع فى الغربة عمرى
لم أدع للعين ما تشتاق	فى بر ، وبحر
وخبرت الناس والأر	ض لدى خير وشر
لم أجد جارا ولادا	را كما فى طى صدرى
فكأنى لم أسر الا	بميت أو بقفر ...

وله أبيات أخرى فى الاغتراب يقول فيها :

ان عيبا على المشارق أن أر	جع عنها الى ذيول المغارب
وعجيب يضيع فيها غريب	بعد ما جاء فكره بالغرايب
ويقاسى الظما خلال أناس	قسموا بينهم هدايا السحايب

ومن حكمه قوله :

دعنى أجل ما بدت لى   سـفينة أو مطيـه
لا بـد يقطع سـيرى   أمنيـة ، أو منيه

وقوله :

ومن قبـل أن أمشى على قدم المنى
سعى قدمى فى المدح سعيا على الرأس

ومن شعره الوصفى قوله فى صفة ليل :

وليـل كصـدر أخـى غمـة
قطعنـاه حتى بلغنـا النجـاح

وبدر السـماء بدا فى النجـوم
كما لاح فى الناس بدر السماح ..

ولم يملك الأديب المؤرخ الذواقة صـلاح الدين الصفدى صاحب «الوافى» نفسه من أن يعلق على هذه الأبيات التى رواها بقوله : (قلت : شعر جيد) . وقد كان كراتشكوفسكى يشـير الى تلك الأشعار ـــ دون رواية لها ـــ وهو يقول فى حديثه عن الأدريسى : (بل وعرفت له بعض الأشعار) .

ويعرف اهتمام الادريسى بعلم النبات ومشاركته فيه من تأليفه لكتاب « الجامع لصفات أشتات النبات » . ومنه نسخة مصورة فى معهد المخطوطات التابع للجامعة العربية ، وقد ضمنه ـــ كما فى تعريف الفهرس ـــ ذكر أنواع المفردات من الأشجار والثمار والحشائش والازهار والحيوانات والمعـادن ، وتفسـير معجم أسمائها بالسريانية واليونانية والفارسـية واللاطينية والبربرية . وقد أشار فى مقدمته الى أنه قد رتب جميع أسماء النبـات التى ذكرها على حروف أبجد هوز ... وليس عندنا ما يدل على زمان تأليف هذا الكتاب ومكانه . فقد يكون ألفه فى صقلية ، وقد يكون ألفه بعد مغادرته لها عائدا الى وطنه « سبتة » . ويؤكد كراتشكوفسكى أن الأدريسى مدين بمعارفه فى الصيدلة والنبات والمعرفة بأسمائها الأجنبية الى اقامته فى صقلية حيث كان التراث اليونانى البيـزنطى لايزال على قيـد الحيـاة . ولـم يكن كراتشـكوفسكى مبتـكرا لهـذا الاستنباط ، ولكنه نقله عن « الدوميلى » المستشرق الايطالى الذى يسـتنتج أن الادريسى (يبرهن على دراية عميقة بالاصطلاحات البيزنطية « الاغريقية » التى يميزها تماما عن الاصطلاحات الاغريقية القديمة «اليونانية». وبديهى أن هـذه الدقائق ذات علاقة بأقامة الأدريسى الطويلة فى

صقلية ، حيث كانت الاغريقية لا تزال لغة الكلام الدارج عند قسم من السكان) (١) .

وينسب المستشرق « الدوميلي » الى الادريسى كتابا فى الصيدلة ، ويقول عنه انه مبدوء بمقدمة عامة تتسم بطابع البحث فى النبـاتات ، وقد كشـف عنـه أخيرا فى مخطوط بمكتبـة فى استنبول . ولكنه لم يشتمل الا على النصف الأول من الكتاب ، ويذكر ميلى ان العالم مكس مايرهوف قد ترجم بعض مقتبسات منه ، وقدم فكرة عامة عن الكتاب كله فى دراسـة لعـلم النبات العـام والصيدلة عنـد الادريسى ، والحق اننـا لا ندرى علاقة هذا الكتاب بكتاب « الجامع لصفات أشـتات النبات » ، فقـد يكونان شيئا واحدا . ولعل من باحثينا الأفاضل من يكشف لنا سر هذه المسألة .

ولا يعد الادريسى متخصصـا فى الطب وان كان فيه مقلدا خطوات من سبقوه . ويشير كراتشكوفسكى الى هـذه الناحية عند الشريف الادريسى . ومن الطريف ان ابن أبى أصيبعة صاحب كتـاب « عيون الأنباء فى طبقات الأطبـاء » قد ذكر الشريف الأدريسى فى كتابه على أنه من الأطبـاء الذين شملهم كتابه ، وأسماه « الشريف محمد بن محمد الحسنى » ، فلم يذكره باسم « الشريف الأدريسى » المشـهور به ، وذكر له كتابا عنوانه

---

(١) العلم عند العرب : لالدو ميلى ، ص ٣٩٠ من الترجمة العربية .

« الأدوية المفردة » (١) ، ووصف الرجل بأنه كان فاضـلا عالما بقوى الأدوية المفردة ومنافعها ومنابتها وأعيانها . ولم يذكر له من الكتب غير هـذا الكتاب ، ولم يشر مطلقـا الى مكانه في علم الجغرافية ولا الى كتابه « نزهة المشتاق » . ولعله اختار له من مصنفاته كتابا يتصل بالطب الذى هو موضـوع كتاب « عيون الأنبـاء » ، فلاءم بين المؤلفات وبين موضـوع كتابه فى طبقات الأطباء ، كما هو شأنه فى أغلب التراجم التى دونها للأطباء ، فلم يختر من مؤلفاتهم غالبا الا ما يتصـل بالطب . ويظهر ان كتاب « الأدوية المفردة » من المخطوطات التى أضـاعها الزمان حتى اليوم . ولعل نسخة خطية منه ترقد فى خزانة مغلقة أو تحت قبو مظلم ولكن الحجـاب لم يرفع عنهـا بعد . وقد ذكر المستشرق « بالنثيا » كتاب (٢) « الأدوية المفردة » للشريف الادريسى ، وقال عنه ان ابن سعيد ذكره ، وأفاد منه ابن البيطار صـاحب « المفردات » .

(١) عيون الانباء لابن ابى اصيبعة جـ ٢ ص ٥٢ .
(٢) تاريخ الفكر الاندلسي ص ٣١٣ .

الإدريسي بين التجاهل والإنصاف

على الرغم من المكانة العلمية العظيمة فى الجغرافية التى يتمتع بها الشريف الأدريسى بين الأوربيين ، وعلى الرغم من الشهرة التى حظى بها فى أوساط المستشرقين والباحثين الأجانب ، فأنه لم يأخذ بين مؤرخى العرب وباحثيهم مكانه الذى يستحقه ، ولم يتمتع بينهم بالشهرة التى يستأهلها . فان كثيرا من المصادر العربية التى جاءت بعد القرن السادس الهجرى — أى القرن الذى عاش ومات فيه — لم تشر اليه ولم تتحدث عنه ، ولم تترجم له ، وكأن الرجل لم يملأ عين الزمان بتلك المنجزات الجغرافية العظيمة التى أتمها . وتتج من هذا الاهمال أن معلوماتنا عن الادريسى قليلة جدا واننا نتعب أنفسنا كثيرا حين نحاول البحث عن ترجمة له فى المصادر القديمة .

ومن أعجب مالاحظناه على اغفال اسم الادريسى ان مؤرخا جليلا كالمقريزى صاحب « الخطط » المشهورة وغيرها من المؤلفات

الجليلة لم يذكر اسمه وهو يشير الى كتابه « نزهة المشتاق » فى الفصل الذى عنوانه « ذكر مخرج النيل وانبعاثه » ، فلم يذكر اسم الادريسى مطلقا ، بل قال : (وقال فى كتابه نزهة المشتاق الى اختراق الآفاق) ، ولا يعود الضمير فى : قال على مذكور قبل هذا ولكنه حذف اسم مؤلف النزهة ، اما تعمدا للاغفال من جهة ، أو اتكالا على أن اسم صاحب النزهة معروف مشهور من جهة أخرى . ولا نسيء الظن بالمقريزى الى حد اتهامه باهمال اسم الادريسى وتعمد اسقاطه . ولكنها على كل حال ظاهرة تلفت النظر.

ولم ينفرد المقريزى وحده بأسقاط اسم الشريف الأدريسى فى معرض الحديث عن كتابه نزهة المشتاق ، فأننا نجد مؤرخا جليلا آخر هو الأمام السيوطى صاحب « حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة » وغيره من المصنفات العديدة النافعة يسقط اسم الشريف الأدريسى فى خلال الفصل الذى عنوانه « أثر متصل الاسناد فى أمر النيل » ، فيقول : (وذكر صاحب كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق) ، ويضن السيوطى هنا بذكر اسم الادريسى أو لقبه كماضن من قبل المقريزى عليه بالذكر ..

ولكننا من ناحية أخرى نجد مؤرخنا الكبير ابن خلدون — فى خلال الكلام عن « تفصيل الكلام على هذه الجغرافيا » — يذكر كتاب نزهة المشتاق ثم يصفه بأنه الكتاب (الذى ألفه العلوى

الأدريسى الحمودى (١) لملك صقلية من الأفرنج ، وهو رجار بن رجار عند ماكان نازلا عليه بصقلية ، بعد خروج صقلية من امارة مالقة ، وكان تأليفه للكتاب فى منتصف المائة السادسة) . وابن خلدون منصف للرجل بعض الاصناف ، فلم يضن عليه بذكر اسمه ، ولا بحديث قصير عنه يعرف القارىء به ..

ويشير مؤرخنا ابن خلدون الى الشريف الأدريسى مرة أخرى وهو يتحدث عن البحار والأنهار فيقول : (وقد ذكر ذلك كله بطليموس فى كتابه ، والشريف فى كتابه رجار) . ثم يذكره مرة ثالثة فى معرض حديثه عن « الأقليم الأول » فيقول : (وقال صاحب كتاب رجار) وان كان لم يذكر الاسم اكتفاء بأنه ذكره قبل ذلك ، وأصبح كتاب رجار معروفا بأنه كتاب «نزهة المشتاق» للأدريسى .

ولم يدع المستشرق كراتشكوفسكى ظاهرة اهتمام ابن خلدون بالأدريسى وكتابه « نزهة المشتاق » دون أن يشير اليها ، فذكر أن المصدرين الأساسيين لابن خلدون فى كلامه عن الجغرافية هما بطليموس والأدريسى ، وقد صرح ابن خلدون بذلك فى خلال ذلك الفصل .

---

(١) ذكر الدكتور على عبد الواحد وافى فى تحقيقه لمقدمة ابن خلدون لفظ الحمودى هكذا : المحمودى بزيادة ميم قبل الحاء ، وصوابه الحمودى نسبة الى بنى حمود الادارسة الذين منهم الشريف الادريسى .

والحق أن الأدريسى لقى بعض الانصاف والتقدير والاهتمام عند مؤرخ أديب شاعر من رجال القرن الثامن الهجرى هو صلاح الدين الصفدى الذى أفرد الأدريسى بترجمة لا بأس بها فى كتابه « الوافى بالوفيات » حـ ١ ص ١٦٤ جمع فيها أمثلة من شعره. كما أنه تحدث عنه مرة أخرى وعن كتابه نزهة المشتاق وعن الكرة الأرضية التى صنعها، فى خلال ترجمته لروجار الثانى ملك صقلية فى حرف الراء.

وأعجب ما صادفنا فى اغفال الأدريسى هو ما وجدناه فى كتاب ابن أبى أصيبعة فى طبقات الأطباء فقد ذكره على انه من الأطباء لا من المشتغلين بعلم الجغرافية وذكر له كتابا فى الأدوية (١) المفردة، ولم يذكره باسمه المشهور المعروف لدينا حتى نهتدى اليه بأيسر نظر، بل ذكره باسم (الشريف محمد بن محمد الحسنى)، وذكر انه يلقب بلقب « العالى بالله ».

وقد لفتت هذه الظاهرة من اغفال الادريسى واهماله أنظار كثرة من الباحثين. وهذا كراتشكوفسكى يصرح فى دهشة أن مؤلفات الشريف الأدريسى ظلت مغمورة الذكر فى القرون التالية (٢).

وعلى الرغم من ظاهرة اغفال الأدريسى وتجاهله عند المؤلفين

(١) عيون الانباء، فى طبقات الاطباء ج ٢ ص ٥٢.
(٢) تاريخ الادب الجغرافى العربى جـ ١ ص ٢٩١.

العرب القدماء فقد أفاد منه ورجع اليه وأخذ عنه بعض المصنفين. ولكنا لاندرى سببا لأغفال ياقوت الحموى له مع اشتراكهما فى ميدان جغرافى واحد . فياقوت مؤلف « معجم البلدان » وهو معجم جغرافى جليل ، وكان اسم الأدريسى وآثاره فى علم الجغرافية مظنة الورود فيه ، ولكن ياقوتا تركه وكأنه لا يعلم عنه شيئا على الأطلاق .

وقد أثار هذا الاهمال العجيب للادريسى محاولات لمعرفة سبب هذا الموقف الغريب . حتى لقد بلغ الأمر بالمستشرق كاترمير الفرنسى أن يصرح بأن المسلمين لم يكونوا راضين عن اتصال الأدريسى بملك نصرانى مثل روجر الثانى ، ودخوله فى خدمته . وقد نشر هذا الرأى فى بحث قيم لكاترمير (١) فى مجلة العلماء مجلد سنة ١٨٤٣ م ، ونقله الدكتور حسين مؤنس فى دراسته عن الشريف .

ويذكر المستشرق كراتشكوفسكى سببا آخر لأغفال أمر الأدريسى عند الباحثين العرب ، فيقرر أنه ربما كان السبب فى هذا الاهمال والتجاهل ، الموقف السلبى الذى وقفه ممثلو المدرسة الرياضية من منهج الأدريسى . على أن كراتشكوفسكى لم يفته الأشارة الى السبب الأول الذى ذكره كاترمير ، وهو أن

(١) هو المستشرق الفرنسى Quatre Mere المتوفى سنة ١٨٥٢ وهو تلميذ « دى ساسي » ، وقد أصبح امام الاستشراق بعده .

الأدريسى كان يعمــل ببلاط ملك مسـيحى ، بل رفع اليه مؤلفا يمتدحه فى افتتاحيته . وقد يكون فى هذا الموقف حمل للدوائر السنية على أن تعد الرجل مارقا (١) . وكذلك الدكتور زكى محمد حسن لم يفته أن يشير الى ظاهرة تجاهل الأدريسى عند المؤلفين العــرب ، وردد ما قاله بعض المســتشرقين من أنهم فعلوا ذلك لاسرافه فى مدح رجار ، ولانصافه المسيحيين فى صقلية الى أبعد حد ، فى وقت كان المسيحيون فيه يشنون على المسلمين الحروب الصليبية الشعواء ، أو يعملون على طردهم من الأندلس . ولكن الدكتور زكى محمد حسن لا يقبل هذا التعليل ويرفضه قائلا انه لا يقوم على أساس متين ، (لأن شكوانا فى شأن ضياع سـيرة الادريسى تصلح أيضا لسيرة كثير من سائر الجغرافيين المسلمين الذين لم يتصلوا بالمسيحيين ولم يسرفوا فى مدحهم) (٢) .

ومن المؤلفين العرب الذين نقلوا من الأدريسى أو أشاروا اليه ولو اشارات سريعة ، أو استعملوا مصنفاته فى تآليفهم ابن سعيد المغربى المتوفى سنة ٦٧٣ هـ ، وأبو الفداء المؤرخ الجغرافى المتوفى سنة ٧٣٢ هـ ، والأكفانى المصرى المتوفى سنة ٧٤٩ هـ ، وابن الوردى ، المتوفى سنة ٨٦١ هـ ، وابن دقمــاق المؤرخ المتوفى ســنة ٨٠٩ هـ ، وليون (٣) الأفريقى المتوفى ســنة ١٥٥٢ م ،

(١) تاريخ الادب الجغرافى العربى جـ ١ ص ٢٩٢ .

(٢) الرحالة المسلمون : لزكى محمد حسن ص ٦٧ .

(٣) هو العربى الحسن بن محمد الوزان الذى اضطر لاعتناق المسيحية واسترعى نظر البابا ليون العاشر ، وسمى ليون الافريقى .

والحميرى صاحب « الروض المعطار » المتوفى سنة ٩٠٠ هـ ، وابن اياس المؤرخ المتوفى سنة ٩٣٠ هـ ، ومحمود بن مقديش الصفاقسى التونسى المتوفى سنة ١٢٣٣ هـ — سنة ١٨١٨ م .

١ وبعض هؤلاء المؤلفين قد تعرض بالنقد الخفيف أو الشديد للأدريسى ، فالطبيب المصرى الأكفانى يقول فى كتابه « ارشاد القاصد الى أسنى المقاصد » ما يأتى : (وكتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق فيه مخالفة لقسمة الأقاليم ، فان مؤلفه — يعنى الأدريسى — وان كان عارفا بالمسالك والممالك ، لجوبه الآفاق ، فانه عرى من علم هيئة الأفلاك) .

أما ابن عبد المنعم الحميرى صاحب « الروض المعطار » ، فقد نقد الادريسى نقدا شديدا ، كما نقد « معجم البلدان » لياقوت الحموى . ولكنه على الرغم من نقده للأدريسى فأنه ينقل عنه كثيرا ويأخذ منه . والحميرى لا يذكر فى نقله اسم الادريسى ولا اسم كتابه نزهة المشتاق ، ولكن المقابلة بين نصوص كتاب « الروض المعطار » وكتاب نزهة المشتاق تؤكد لنا تشابه العبارات مما يؤكد لنا عملية النقل الواضحة . وقد تتبعت كتاب « صفة جزيرة الأندلس » وهو المنتخبات من الروض المعطار للحميرى بتحقيق المستشرق بروفنسال فوجدت آثار الأخذ والنقل عن الأدريسى واضحة فى صفحات ٢ — ١٦ — ١٩ — ١٧٦ — ١٣٠ — ١٣١ — ١٣٢ .

ويؤكد لنـا المستشرق فولرز (١) ان ابن دقمـاق نقل عن الادريسى كما نقل عن الكندى وابن حوقل والقضـاعى ، وابن زولاق .

ويبدو أن المؤرخ ابن أياس — بما اشتهر عنه من النقل عمن سبقه — قد نقل كثيرا من نصوص الأدريسى . ويشير الى هذا المستشرق الايطالى آمارى ، ويستظهر أن ابن أياس ربما كان قد رجع الى مسودة من كتاب الادريسى غير معروفة لنا . أما المؤرخ ابن الوردى المتوفى سنة ٨٦١ هـ فقد أفاد من الأدريسى فى خلال كلامه على صقلية وفلسطين . وابن الوردى هذا هو الملقب بسراج الدين ، وهو غير قريبه وسابقه عمر بن الوردى الملقب بزين الدين والمعروف بالشعر والأدب ، وصاحب اللامية المشهورة التى مطلعها:

اعتزل ذكر الأغانى والغزل وقل الفصل ، وجانب من هزل

وقد توفى ابن الوردى الشاعر هذا فى سنة ٧٤٩ هـ . ومن عجب أن تشـابه اسـمه مع اسم ابن الوردى صاحب « خريدة العجائب ، وفريدة الغرائب » قد أوقع كثيرا من المؤرخين العرب والأجانب فى الخلط بين الرجلين .

---

(١) هو K. Vollers المستشرق النمسوى المتوفى سنة ١٩٠٩ وقد اهتم بابن دقماق وكتابه .

ولعل من قبيل استكمال المصــادر العربية التى تحدثت عن الأدريسى أو ترجمت له فى القديم أن لا يفوتنا هنا ذكر العمــاد الأصفهانى صــاحب الجريدة المعروفة باســم (جريدة القصر ، وجريدة أهل العصر) ، والمتوفى سنة ٥٩٧ هـ ، فقد ترجم للأدريسى ترجمة وجيزة وقال عنه : (محمد بن محمد يعرف بابن الشــيرى القرطبى . معظم ما يذكره ابن بشرون فى المختار من الأندلسيين رواية عنه ، ويذكر أنه لقيه فى مدينة صقلية . وقد صنف لمتملكها رجار الأفرنجى فى مسالك الأرض وممالكها كتابا كبيرا اســمه نزهة المشتاق) (١) . ولقب الثيرى هنا غريب . وقد جاء تحقيقه فى الفصل الذى كتبناه عن موجز سيرة الشريف .

وغير قليــل عدد المؤلفين العرب القدماء الذين أغفلوا اســم الأدريسى وتجاهلوا الأشارة اليه . وليس هنا مجال سرد أسمائهم. ولكن الطريف أن المستشرق الفرنسى دى سلان قد أورد أسماءهم فى معرض حديثه عن الترجمة الفرنسية التى صنعها « جوبير » الفرنسى لكتاب « نزهة المشتاق » . وقد أشار دى سلان الى أن هؤلاء المؤلفين قصدوا اغفال ذكر أى شىء عن الشريف الأدريسى، مع أن الدلائل والقرائن تشير الى امكان معرفتهم به !

---

(١) ومن الانصاف أيضا أن نقول ان حاجى خليفة صاحب كشف الظنون قد ذكر نزهة المشتاق فى كتابه وترجم لصاحبه الادريسى ترجمة وجيزة ، وان كان لم يذكر لنا تريخ وفاته كعادته مع المؤلفين .

اهتمامات الغربيين بالشريف الإدريسى

فى الوقت الذى أغفل فيه العرب عالما كبيرا من علمائهم فى الجغرافية وعمل الخرائط وأدب الرحلات ، نرى الأوربيين قد شغلوا بهذا الرجل شغلا عظيما ، فنشروا آثاره ، وترجموها الى لغاتهم ، وأعادوا نشر خرائطه ومصوراته الجغرافية بتحقيق جديد، ودرسوا جوانبه المتعددة ، ووازنوا بينه وبين من سبقه من الجغرافيين وخاصة بطليموس ، وتحدثوا عن القيمة العلمية لأقاليم أوربا كفنلندة والبلطيق وألمانيا والبلقان والأندلس ، وأوصافه لأقاليم آسيا وأفريقية . ومنهم من تجاوز الحديث عنه وعن جهوده فى علم الجغرافية الى مشاركته فى الصيدلة وعلم النبات ، كما فعل المستشرق الألمانى مايرهوف .

ونلاحظ من تتبعنا الشديد لما كتب عن الأدريسى ، وما كشف

من جوانبه أن المستشرقين الألمان كانوا أكثر الأوربيين عددا فى الاهتمام بهــذا الرجل . وهى ظاهرة تلفت النظر ، وتؤكد مدى اهتمام الألمان بهذه الناحيةمن الجغرافية عند العرب . وقد نشر المستشرق الألمانى زيبولد المتــوفى سنة ١٩٢١ بحثا ضــافيا عن الأدريسى فى مجلة الاستشراق المشهورة Z.D.M.G. ســنة ١٩٠٩ ، كما حرر الفصل الخاص به فى دائرة المعارف الاسلامية. ويبــدو من كتاباته أنه اطلع على كل ماكتب عن الأدريسى حتى عصره .

أما المستشرق الألمانى جيلد مايستر (١) المتوفى سنة ١٨٩٠ م فقد نشر جزءا من كتاب نزهة المشتاق، وهو الجزء الخاص بالشام وفلسطين . واتجه المستشرق الباحث كونراد ميلر المتوفى سنة ١٩٣٣ الى خريطة الأدريسى فحــاول أن يعرف مدى تأثيره على بعض مصورى الخرائط الأوربيين وخاصة مارينو سانودو ، التى نشرها فيسكونتى سنة ١٣٢٠ م . وقد أشار المستشرق الدومييلى الى الجهد الذى بذله كونراد ميلر فى امدادنا بطبعة كاملة لخرائط الأدريسى نشرت فى شتوتجارت ما بين عامى ١٩٢٦ ، ١٩٣١ ، كما أنه قدم لنا فوق ذلك نصــا طريفا للشرح يشــتمل على عرض

---

(١) هو Gildemeister المتوفى سنة ١٨٩٠ ، له اهتمامات كثيرة بمروج الذهب للمسعودى واحسن التقاسيم للمقدسى ، ونزهة المشــتاق للشريف الادريسى .

فوتوغراف لوثائق لاتزال موجودة ، كما يشتمل على بعض تغييرات تناسب القارىء الأوربى (١) . ويذكر جرجى زيدان فى تاريخ آداب اللغة العربية اسم «روزن ميلر» ويشير الى أنه طبع وصف الشام وفلسطين فى مدينة ليبسك سنة ١٨٢٨ . وقد حاولت أن أهتدى الى روزن ميلر هذا والى اسهامه فى نشر ما يخص الشام وفلسطين من نزهة المشتاق فلم أوفق ، ولم تدلنى المصادر الكثيرة الأوربية والعربية على هذه المشاركة ولا على اسم روزن ميلر . ويشير كراتشكوفسكى الى أن « هارتمان » (٢) قد وضع اللبنة الأولى للاقتصار على دراسات محددة خاصة بكل قطر من الأقطار التى تحدث عنها الأدريسى ، وذلك حين نشر بحثه الخاص بأفريقية عند الأدريسى . وهذا النوع من التخصص هو الذى اتجه اليه ناشرو نزهة المشتاق فيما بعد . حين أخذ كل منهم بلدا معينا من البلدان التى ذكرها الأدريسى ونشر دراسة عنه مرفقة غالبا بالنص العربى. ومن المفيد أن نذكر هنا أن هارتمان هذا هو : ج — م — هارتمان المتوفى سنة ١٨٢٧ م ومن رجال الاستشراق الألمانى فى القرن التاسع عشر ، وهو غير « ريتشارد هارتمان » الألمانى أيضا ولم يكن له صلة بالأدريسى ولا آثاره .

وقد أشار المؤرخ الألمانى « جوزيف آشباخ » الى مشاركة

---

(١) العلم عند العرب . ص ٣٦٤

(٢) J.M. Hartmann المستشرق الالمانى المتوفى سنة ١٨٢٧ .

هارتمان القديم فى نشر قطع من كتاب الأدريسى ، ولكنه لم يقل لنا عن أى الأقطار كانت هذه القطع (١) . وقد اشترك المستشرق الألمانى (٢) « هنرباخ » المولود سنة ١٩١١ فى حركة التخصص فى الدراسات عن الأدريسى وأوصافه للأقطار الخاصة ، فنشر دراسة خاصة بوصف الأدريسى لألمانيا فى كتابه نزهة المشتاق . ويشير كراتشكوفسكى الى هذه الدراسة المفيدة ذات الهدف المتواضع. أما المستشرق ماكس مايرهوف (٣) المتوفى سنة ١٩٤٥ فقد اهتم بالأدريسى من حيث هو عالم بالصيدلة والنبات ، لا من حيث مكانته فى علم الجغرافيا ، فنشر دراسة رصينة عنوانها « الصيدلة والنباتات عند الأدريسى » نشرها بمجلة الرياضيات والطبيعيات التى تصدر فى ليبزج سنة ١٩٣٠ . وقد قرر مايرهوف أن كتاب الأدريسى فى الأدوية لا يخلو من بعض الأهمية ، ولو أنه لايمكن وضعه فى مرتبة واحدة مع المصنفات العربية الممتازة فى هذا الميدان . أما العالم الألمانى جونتر فقد اهتم بالأدريسى فصنع عنه بحثا يتناول مكانته فى الجغرافية العربية ، كما يتناول بالدراسة علماء الموارنة اللبنانيين الذين أخرجوا كتبه أو كان لهم فضل

---

(١) تاريخ الاندلس فى عصر المرابطين والموحدين : يوسف اشباخ جـ ٢ ص ٢٦٠ .

(٢) هو Hoenerbach الذى اشتغل بالتدريس فى جامعات ألمانيا جامعة كاليفورنيا . وكان له اهتمامات بالزجل الاندلسى .

(٣) هو M. Meyerhof المتوفى سنة ١٩٤٥ ، وكان طبيبا عالميا فى العيون ، وتعد كتاباته فى الطب العربى مرجعا هاما .

السبق فى ترجمتها الى غير العربية ، وقد أشار الى هذا البحث المستشرق الايطالى ميلى ، كما أشار اليه الأستاذ نجيب العقيقى فى كتابه الجليل « المستشرقون » .

واذا انتقلنا من الألمانيين الذين اهتموا بالأدريسى الى رجال الاستشراق الآسبانى فأننا نجد منهم حفنة كريمة ، منهم كوندة ، وسافدرا ، وبلاسكويث ، وبالنثيا . أما كوندة المتوفى سنة ١٨٢٠ فقد نشر جزءا من نزهة المشتاق ، وهو الجزء الخاص بوصف الأدريسى للأندلس . وقد نشر الأصل العربى مع ترجمته له الى الأسبانية سنة ١٧٩٩ ، وجمع الى النص تعليقات وملاحظات مفيدة . أما سافدرا المتوفى سنة ١٩١٢ فقد نشر من نزهة المشتاق الجزء الخاص بأسبانيا ، مع بعض التصحيحات والتعديلات لما فات دوزى ، ودى جويه أن يذكراه فى طبعتهما . وقد نشر سافدرا النص العربى مع ترجمة له بالأسبانية فى مدريد سنة ١٨٨١ . ولم يشر جرجى زيدان الى عمل سافدرا ، ولكن أشار اليه يوسف أليان سركيس فى معجمه ، والأستاذ نجيب العقيقى فى كتابه « المستشرقون » .

أما أنطونيو بلاسكويز (١) فقد ترجم الى الأسبانية القسم

---

(١) هو المستشرق الاسبانى A. Blazquez وله دراسات اسبانية مغربية ونجد اسمه فى بعض المؤلفات العربية المعاصرة هكذا : بلا ثكث .

الخاص بالأندلس فى نزهة المشتاق ونشره بمدريد سنة ١٩٠١ ، وقد أشار ألدو ميلى ، ونجيب العقيقى الى هذه الترجمة . وهناك مستشرق اسبانى هو آنخل جونثالث [1] بالنثيا المتوفى سنة ١٩٤٩ ، واذا كان هذا الرجل لم يفرد دراسة خاصة بالأدريسى ، ولم يسهم فى نشر جزء من كتابه نزهة المشتاق ، فأنه قد تناوله بترجمة جيدة وتاريخ لحياته فى كتابه المشهور « تاريخ الفكر الأندلسى » الذى ترجمه الدكتور حسين مؤنس ، ولاشك أن هذه السيرة هى مشاركة كريمة من بالنثيا فى تقدير الأدريسى.

ويصادفنا فى ميدان الاستشراق الروسى ثلاثة من الرجال اهتموا بالأدريسى من نواحى مختلفة ، ونظروا اليه من زوايا متباينة ، فنرى فيكتور بيليايف [2] المولود سنة ١٩٠٤ ، ينشر بحثا فى سنة ١٩٥٧ عن آثار الأدريسى الجغرافية ، كما نرى مدنيكوف [3] المتوفى سنة ١٩١٨ يشترك فى نشر وترجمة القسم

---

(١) هو Angel G. Palencia أكبر رجال الاستشراق الاسبانيين المعاصرين . واهتماماته كثيرة بالادب الاسبانى العربى يرجع اليها فى كتاب (المستشرقون) جـ ٢ ص ٥٩٨ للاستاذ نجيب العقيقى .

(٢) هو Victor Beliayev المستشرق الروسى المعاصر ، وهو تلميذ كراتشكوفسكى واشتغل بالتعليم حينا ، وبادارة قسم المخطوطات العربية بجامعة لينينجراد ، ويعد اليوم شيخ المتخصصين فى المخطوطات العربية فى الاتحاد السوفييتى .

(٣) هو المستشرق N. Myadnikove وهو مهتم بفلسطين وبيت المقدس .

الخاص بفلسطين والشام من كتاب الأدريسى ، وقد جاء بحثه هذا فى خلال كتابه الجليل : « فلسطين منذ الفتح العربى حتى الحروب الصليبية » واستند فيه الى المصادر العربية ، ومنها بالطبع كتاب نزهة المشتاق . أما قمة المستشرقين الروس فى الاهتمام بالأدريسى فهو العلامة أغناطيوس كراتشكوفسكى (١) المتوفى سنة ١٩٥١ . وقد أخرج لنا أعظم كتاب عن الدراسات الجغرافية عند العرب ، وعنوانه « تاريخ الأدب الجغرافى العربى » فى مجلدين ضخمين . وقد تناول الأدريسى فى الجزء الأول من كتابه فى ست عشرة صفحة من القطع الكبير ، ووفى الكلام عنه بما لا موضع معه لزيادة ، فكان من أوفى ماكتب عن الأدريسى عند المستشرقين .

ولم يحجم رجال الاستشراق الفنلندى عن ميدان المشاركة فى الاهتمام بالادريسى وجغرافيته ، فنرى أ . م . تالجرين المتوفى سنة ١٩٤٥ ينشر بماونة زميله الفنلندى تالجرين توليو (٢) وصف فنلاندة وبلدان البلطيق الشرقية كما جاء عند الأدريسى فى نزهة المشتاق . وقد نشرا المتن العربى الخاص بهذا الأقليم وترجمته

---

(١) هو العالم المشهور I. Kratchkovski وهو مؤرخ حجة للادب والتاريخ والجغرافيا عند العرب ، وأجمع العلماء والمستشرقون فى الارض كلها على الاعجاب به والثناء عليه .

(٢) هو المستشرق الفنلندى Tallgren-Tulio وهو غير زميله وسميه A.M. Tallgren المتوفى سنة ١٩٤٥ على حين توفى تالجرين توليو سنة ١٩٤١ . وقد خسرهما الاستشراق الفنلندى المعاصر .

والخرائط المتعلقة به والدراسة الضرورية له فى أكثر من ١٥٠ صفحة من مجلة الدراسات الشرقية سنة ١٩٣٠ . أما الزميل تالجرين توليو فقد استقل وحده بدراسة جيدة عن « الجديد من الأدريسى » — أو الأدريسى من جديد — متنا وترجمة ودراسة فى ٢٤٢ صفحة من مجلة الدراسات الشرقية سنة ١٩٣٦ ، أى بعد ستة أعوام من البحث الأول المشترك بينه وبين زميله أ . م . تالجرين . وقد توفى هذا الباحث سنة ١٩٤١ ، أى قبل زميله السابق بأربع سنوات .

ولم يتخلف الاستشراق الفرنسى عن الأسهام فى الاهتمام بالأدريسى ، وفى هذا الميدان نسجل اسم المستشرق جوبير المتوفى سنة ١٨٤٧ ، وقد كان من علماء الحملة الفرنسية على مصر ، وتعد مشاركته فى تقدير الأدريسى بترجمة كتابه نزهة المشتاق ترجمة كاملة لمتن الكتاب كله .وقد ظلت هذه الترجمة تحظى بتقدير العلماء الى أن كشف النقد لها أنها لا تفى بمطالب العلم ، وأنها غير أمينة على الأصل . وأول من نبه الأذهان الى أخطاء النقل والترجمة فيها المستشرقان دوزى ودى جويه . ومن يومها رسخ الاعتقاد عند عدد من العلماء بأنها ترجمة فرنسية ليس من المستطاع الاعتماد عليها فى أية دراسة جدية . ويؤكد زيبولد فى مادة الأدريسى بدائرة المعارف الاسلامية أنها ترجمة كثيرة الخطأ ، كما يقرر ذلك صاحب معجم المطبوعات العربية والمعربة ، والأمير شكيب

أرســلان ، والدكتور حسين فوزى ، والمسـتشرق الايطالى ألدوميلى . وقد أورد الأمير شكيب بعض نمـاذج من عيوب الترجمة تركها لمن يريد سـعة الاطلاع فى كتـاب « الحلل السندسية » . أما المستشرقان جبرييل فيران ، وزميله ديمومبين فقد سبق لهما أن أعلنا عن ترجمة فرنسية لنزهة المشتاق ، ولكن وفاة أولهما قد قدرت لهذا المشروع ألا يظهر .

وتبدو مشاركة الاستشراق الايطالى فى الاهتمام بالأدريسى فيما ظهر من أول طبعـة عربية لكتاب نزهة المشـتاق فى مطبعة ألمديتشى المشهورة بروما سنة ١٥٩٢ م . وهى تعد واحـدة من أقدم الطبعات الأوربية التى ظهرت لهذا الكتاب بالحروف العربية. وهـذه المشاركة الأولى من ايطاليا فى احيـاء أكبر أثر جغرافى للأدريسى قد أعقبتها مشاركات أخرى ، منها ما صنعه المستشرق الايطالى فورلانى (١) المولود سنة ١٨٨٥ من نشره لجزء من كتاب روجر للأدريسى ، وهو الكتاب المعروف « بنزهة المشتاق » . أما المستشرق (٢) سكيا باريلى المتوفى سنة ١٩١٩ فقد اشترك مع مواطنه آمارى فى نشر بعض الأجزاء من كتاب نزهة المشتاق متنا وترجمة وتعليقا ، وقد نشر ذلك العمل فى رومة منذ سنة ١٨٧٨ الى سنة ١٨٨٣ م . واشترك ديفور مع آمارى فى نشر خريطة لجزيرة

(١) هـو G. Furlani وهو عضو فى مجامع علمية كثيرة

(٢) هـو C. Schiaparelli تلميذ آمارى وخليفته على كرسى العربيـة فى فلورنسـا .

صقلية استنادا الى الأدريسى والى جغرافيى العرب ، ونشرت بباريس سنة ١٨٩٥ . ولابد أن نشير هنا الى أن القسم الذى نشره وترجمه آمارى وسكيا باريلى من كتاب الأدريسى هو القسم الخاص بايطاليا . وهو مثال من التخصص فى نشر نزهة المشتاق بلدا بلدا ، بدلا من نشره كاملا . وتبدو مشاركة المستشرق الايطالى « ألدومييلى » فى الاهتمام بالأدريسى فيما كتبه عنه فى كتابه الشهير « العلم عند العرب » ، وهو الكتاب الذى ترجمه المرحومان الدكتوران محمد يوسف موسى ، وعبد الحليم النجار ، وقد أثار مييلى جوانب من البحث عن الأدريسى ومشاركته فى علم الجغرافيا عند العرب تذكرنا بما صنعه المستشرق الأسبانى بالنثيا فى هذا السبيل . ولم تقل هولندة وعلماء الاستشراق فيها اهتماما بالأدريسى وآثاره عن بقية علماء البلاد الأوربية الأخرى ، وتحضرنا فى هذا المجال جهود العالمين دوزى ، ودى جويه المتوفيين سنتى ١٨٨٣ م ، ١٩٠٩ على الولاء ، فقد نشرا بالاشتراك الجزء الخاص بأفريقية والأندلس من كتاب نزهة المشتاق للأدريسى معتمدين على مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس ، وقد جمع الكتاب بين النص العربى والترجمة الفرنسية مع التعاليق والشروح والفهارس وطبع فى ليدن سنة ١٨٦٦ .

ودخل مجال الاهتمام بالأدريسى مستشرقان نمسويان أحدهما توماشك المتوفى سنة ١٩٠١ . وقد درس القسم الخاص من كتاب

الأدريسى ببلاد البلقان ، وحلله تحليلا استنبط منه حالة التجارة وطرقها فى ذلك العصر . ويصف كراتشكوفسكى دراسة توماشك هذه لشبه جزيرة البلقان عند الأدريسى (١) بأنها تحليل ممتاز .

أما المستشرق النمساوى الآخر فهو موجيك (٢) Mzik وهو تشيكى الأصل ، ولا نعرف عن حياته أكثر من أنه عين بمجمع اللغة العربية بدمشق سنة ١٩٥٦ ، وقد نشر مكتبة المؤرخين والجغرافيين العرب من مخطوطات المكتبة الوطنية بفينا ، متنا وترجمة ، سنة ١٩٢٦ — سنة ١٩٣٠ ، وذكر صاحب كتاب « المستشرقون » طائفة لا بأس بها من آثاره . وله فى مجلة الآداب الشرقية بحث عن الأدريسى وبطليموس نشر سنة ١٩١٢ . وقد حاول أن يرد فى بحثه المسائل التى أخذها الأدريسى عن بطليموس . بل قال ان الأدريسى فى معلوماته عن وسط أفريقيا يعتمد اعتمادا كليا على بطليموس ، بحيث يصبح من العسير اعتباره مصدرا أصليا مستقلا فيما يختص بهذه المناطق .

وأسهم الاستشراق السويدى فى ميدان الاهتمام بالأدريسى

---

(١) تاريخ الادب الجغرافى العربى ص ٢٨٧ .

(١) هو : W. Tomaschek المستشرق الجغرافى النمسوى المتوفى سنة ١٩٠١ .

(٢) هو : H. Von. Mzik وقد نشر مكتبة المؤرخين والجغرافيين العرب

بمستشرق واحد لا غير هو براندل الذى نشر بحثا عنوانه «سورية وفلسطين من خـــلال وصف الأدريسى لهما » ، وقد أشـــار كراتشكوفسكى الى هذه المشاركة اشـارة عابرة ، كما ذكرها الأستاذ نجيب العقيقى صاحب كتاب « المستشرقون » فى هامش الكتاب لا فى صلبه .

من المجدِّدين فى الإسلام

ان من يتصفح كتاب « المجددون فى الاسـلام » للمرحوم الشيخ عبد المتعال الصـعيدى لا يتوقع أن يرى اسـم الشريف الأدريسى بين أعلام الأمة الاسلامية الذين يترجم لهم المؤلف فى هذا الكتاب . فالكتاب يوحى بأن الأعلام المشتمل عليهم هم رجال الدين والفقه والشريعة والعلوم الاسـلامية الذين أدخلوا على الدين فى مختلف العصور تجديدات تتلاءم مع تطورات الزمان. وخلعوا عليه ثيـابا جديدة بدل الجمود على ثوب قديم لا يلائم العصر الجديد . ولكن القارىء لهذا الكتاب الطريف المفيد يرى فيه أسماء اسلامية بعيدة عن مجالات الدراسة الشرعية ، والمباحث الدينية ، والموضوعات الفقهية ، والاصلاحات التى ينادى بهـا رجال الدين فى كل زمن ليخلصوا الاسلام من الشـوائب التى علقت به ،أو دخلت عليه . نعم ! يحار القارىء حين يرى فى كتاب « المجددون فى الاسلام » أسـماء الخليفة الواثق بالله العباسى ،

والمهتدى العباسى ، والرازى الفيلسوف ، والفارابى المعلم الثانى والشيخ الرئيس ابن سينا ، وأبى العلاء المعرى ، وابن رشد الفيلسوف الأندلسى ، والشريف الأدريسى ، والسلطان سليمان القانونى ، والشاه عباس الصفوى ، ونادر شاه ملك ايران فى القرن الثانى عشر الهجرى ، ومحمد على مؤسس الأسرة العلوية فى مصر ، ومدحت باشا ، ومصطفى كمال أتاتورك ، وعبد العزيز آل سعود .

ولقائل أن يقول ، ولسائل أن يسأل ما شأن الشاه عباس الصفوى ، ومحمد على ، واتاتورك ، والخليفة الواثق العباسى ، والشريف الأدريسى وبقية رجال السياسة والعلم الطبيعى والادارة بالتجديد فى الاسلام .

ولو قرأنا مقدمة الأستاذ عبد المتعال الصعيدى لكتابه لوجدنا فيها الجواب عن هذا السؤال حاضرا . فأن هـذا العالم المتحرر الواسع الأفق يرى أن الدين ليس العبادة فقط ، ولا شىء فيه من عمل الدنيا ، ولا شىء فيه مما ينهض بالمسلمين فى دنياهم من علم أو صناعة أو زراعة أو تجارة ، وما اليهـا مما يحفظ على المسلمين دنياهم ولا يجعلهم فى الدنيا أقل نجاحا من غيرهم ، حتى لا يطمع فيهم طامع ، ولا يستبيح حماهم عدو ، فيملك عليهم أمرهم ، ويضيع عليهم دينهم ودنياهم معا .

ويرى الأستاذ الصعيدى أنه لو فهم الدين هذا الفهم الدينى وحده لم يكن هناك فى الاسلام شىء من التجديد ، لأن العبادات لا تتغير ولا تتجدد بتجدد الأزمان ، فالصلاة هى الصلاة لا تغيير فيها ، وكذلك بقية العبادات لا تخضع لتغيير ولا تجديد . ويرى الأستاذ الصعيدى أن الاسلام دين جامع لصلاح الدنيا والآخرة، فلا يقتصر الأمر فيه على ما يصلح الآخرة وحدها ، بل يدخل فيه ما يصلح الدنيا أيضا . والاسلام ليس دين عبادة فقط ، ولا دين طقوس دينية وحدها ، وأنما هو نهضة دينية ومدنية معا ، أريد بها النهوض بالعرب الذين جاء النبى العربى منهم أولا ، لينهضوا بالبشرية كلها ثانيا .

وعلى هذا الأساس بنى المؤلف الواعى بحثه فى تاريخ المجددين فى الاســلام ، وأقامه وفهمه على أنه تاريخ نهوض المسلمين فى أمور دنياهم ، قبل أن يكون تاريخ نهوضهم فى أمور أخراهم . وعلى هذا الأساس اختار الأستاذ الصعيدى المجددين فى الاسلام منذ القرن الأول الى وقتنا هذا .

ولم يكن الأستاذ الصعيدى ابن بجدة هذا الرأى الناضج فى التجديد الاسلامى ولا أول من كتب فيه من وجهة النظر هذه ، بل سبقه اليه المرحوم السيد محمد رشيد رضا حين كتب مقدمة كتابه الضخم فى « تاريخ الأستاذ الأمام الشيخ محمد عبده » ، فقال : أنما كان المجددون يبعثون بحسب الحاجة الى التجديد لما

أبلى الناس من لباس الدين ، وهدموا من بنيان العدل بين الناس، فكان الأمام عمر بن عبد العزيز مجددا فى القرن الثانى لما أبلى قومه بنو امية وأخلقوا ، وما مزقوا بالشقاق وفرقوا . وكان الأمام أحمد بن حنبل مجددا فى القرن الثالث ، لما أخلق (١) بعض بنى العباس من لباس السنة ، ورشاد سلف الأمة ، باتباع ماتشابه من الكتاب ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وتحكيم الآراء النظرية فى صفات الله وما ورد فى عالم الغيب ، بالقياس على ما يتعارض فى عالم الشهادة .. ثم أخذ السيد محمد رشيد رضا يعد طائفة من المجددين بالمفهوم الدينى ، الى أن خلص الى الحديث عن مجددين آخرين للجهاد الحربى بالدفاع عن الاسلام أو تجديد ملكه وفتح البلاد وأقامة أركان العمران فيه . وهؤلاء المجددون بهذا المفهوم كثيرون فى الشرق والغرب والوسط ، ورجاله معروفون ، كبعض خلفاء العباسيين ، والأمويين . ومنهم من جمع بين أنواع من التجديد كالسلطان صلاح الدين الأيوبى مجلى الصليبيين عن البلاد المقدسة وغيرها ، ومزيل الدولة الفاطمية الباطنية مصر ، وكمحمد على المجدد فى الادارة والعمران بمصر ، والأمير عبد القادر الجزائرى بطل الجهاد فى الجزائر ضد المستعمر الفرنسى ، وكمصطفى رشيد وفؤاد باشا وغالى باشا من مجددى السياسة فى تركية .

---

(١) لما أخلق ، أى بسبب ما أبلاه بعض العباسيين من مراسم السنة .

ومن هنا دخل الشريف الأدريسى فى المجددين فى الاسلام على أن له فى علم الجغـرافية أصـالة وابتكارات جعلته من أعظم الجغرافيين العرب .

ويبدى الأستاذ عبد المتعال الصـعيدى عجبه من أن حاجى خليفة صاحب كتاب «كشف الظنون» لم يذكر شيئا من تجديدات الأدريسى فى علم الجغرافية مما شهد له به علماء أوربا (وممـا شهدوا له به أيضا من أنه كان أول من سمى باسم الماليز أحـد الشعوب الساكنة فى جزيرة جاوة . وقد ذكر ما بين هذه الجزيرة وجزيرة مدغشقر من العلاقات ووحدة الجنس ، فدل بهذا على أن مصوره الجغرافى وصل الى تبسيط عظيم فى المحيط الهندى لم يصل اليه الجغرافيون قبله ..) [1] .

ولهذا لا ندهش اذا وجدنا فى كتاب « المجددون فى الاسلام » ترجمة جليلة للشريف الأدريسى لم نصادف مثلها فى المصـنفات الحديثة التى كان ينتظر منها أن تتحدث عن هذا الجغرافى العربى الكبير بأسهاب وتقدير ..

---

(١) المجددون فى الاسلام : لعبد المتعال الصعيدى ص ٢٣١ .

الإدريسي في كفة الميزان

على الرغم من المكانة العلمية الكبيرة والتقدير العظيم الذى ظفر به الشريف الأدريسى بين علماء المشرق والمغرب فى القديم والحديث ، فان هناك بعض النقدات التى وجهت اليه ، والمآخذ العلمية التي أخذت عليه . والحق أننا ماكنا ننتظر أن ينعقد الأجماع على تقدير الشريف الأدريسى ، دون أن يوجه اليه مأخذ أو نقد . فأننا لا يجوز أن نغفل العصر الذى عاش فيه الرجل ، والظروف التى ألمت به ، والحالة العلمية التى كانت سائدة فى أوربا فى ذلك الحين .

وحسب الشريف الأدريسى فضلا أن كفة حسناته فى ميدان العلوم الجغرافية رجحت كفة المآخذ عليه بكثير . وحسب العالم شرفا وتقديرا أن تعد معايبه ، وتحصى مآخذه ، فان تلك المآخذ دليل على أن الرجل لم يأل جهدا ، ولم يدخر وسعا فى سبيل العمل الذى نهض به .

والحق أن التقدير العظيم الذى ناله الشريف الأدريسى — وخاصة من الأوربيين — يجب أن يشفع بحق لبعض المآخذ التى أخذها عليه بعض ناقديه . كما أن تلك المآخذ — مهما يكن من أمرها — لا يجوز أن تبرقع وجه المحاسن التى قام بها الادريسى فى ميدان الجغرافية ، ولا أن تبخس قيمتها الحقيقية التى اعترف له بها المنصفون والعدول .

وكثيرة هى الآراء الحسنة التى أبداها جمهرة من الباحثين الأجانب فى تقدير العمل الجغرافى العظيم الذى قام به الشريف الأدريسى ، وأسهم به فى حقل الجغرافية العالمية اسهاما لا ينكره الا جحود أو جهول .

ويكفى أن نشير هنا الى بعض تلك التقديرات العادلة التى أملاها فهم سليم لقيمة العمل الذى قام به الشريف فى كتابه الخالد (نزهة المشتاق ، فى اختراق الآفاق) وفى مصوراته وخرائطه التى أضافت جديدا الى العلم فى عصر الشريف . ومازلنا نذكر شهادة المستشرق الكبير « آمارى » الذى يقول عن كتاب نزهة المشتاق انه (أفضل رسالة فى الجغرافيا وصلتنا عن العصور الوسطى) . وقد ردد هذه الشهادة فى تقدير كبير المستشرق المشهور نللينو ، كما اعتمد عليها (رايت) فى تقديراته .

ومالنا نذهب بعيدا وهذا هو «البارون دى سلان» المستشرق

الأيرلندى الأصل الفرنسى الجنسية وتلميذ المستشرق المشهور « دى ساسى » ، والمتوفى سنة ١٨٧٨ م ، يقول عن كتاب « نزهة المشتاق » للشريف الأدريسى انه كتاب (لا يمكن أن يوازن به أى كتاب جغرافى سابق له . وهناك بعض أجزاء من المعمورة لا يزال هذا الكتاب دليل المؤرخ الجغرافى فى الأمور المتعلقة بها ...) . ولشهادة البارون دى سلان قيمة كبيرة ، لأن هذا الرجل له اهتمامات بالجغرافية والبلدانيات والمسالك عند العرب ، بالأضافة الى اهتماماته الكثيرة فى الشعر والأدب والتاريخ . ويكفى أنه شارك فى نشر كتاب أبى الفداء ، كما نشر كتاب عبدالله القرطبى فى كشف المسالك والممالك ، ونشر نبذة من رحلة ابن جبير الكنانى الأندلسى . وقد قلب هذا الباحث الدءوب بين يديه كثيرا من المخطوطات والمصنفات العربية وعرف قيمتها ، ووازن بعضها ببعض فى الموضوع الواحد . ومن هنا كان لرأيه قيمته ، فهو ممن لا يبدون الآراء اعتباطا ، أو يصدرون الأحكام جزافا ، ولكنه يحكم عن معرفة وحسن تقدير ..

أما المستشرق الألمانى زيبولد ـــ أو سيبولد كما وردت فى بعض المؤلفات العربية ـــ فقد أشرنا الى اسهامه فى تحرير الفصل الخاص بالشريف الأدريسى فى «دائرة المعارف الأسلامية» . وللرجل رأى حسن فى الأدريسى وكتابه « نزهة المشتاق » ، حيث يقول : « ان الدراسات العربية فى حاجة ماسة الى نشر كتاب الأدريسى ،

الذى يعد أعظم مصنفات العصور الوسطى فى الجغرافيا ، مع ترجمته وشرحه وعمل خرائط هامة له يعتمد فى ذلك على المخطوطات المعروفة لنا الآن فى مكتبات باريس ، وأكسفورد وأستانبول ...)

ولن نعدم تقديرا جميلا للشريف الأدريسى وكتابه « نزهة المشتاق » عند المستشرق الهولندى كرامرس الذى خلف « فنسنك » على كرسى الأدب العربى فى جامعة ليدن بهولندة ، والذى توفى سنة ١٩٥١ م ، فقد رأى هذا الباحث بحق (أنه ليس هناك مؤلف حفظ لنا معطيات وافرة ذات قيمة كبرى عن بلاد الغرب — أى أوربة والأندلس والمغرب — كما فعل الأدريسى . وقد مر وقت كان هو فيه الممثل الوحيد للأدب الجغرافى العربى).

ولو أخذنا نتتبع آراء العلماء والباحثين ورجال الاستشراق فى الشريف الأدريسى وقيمته وقيمة كتابه (نزهة المشتاق) لطال أمامنا أمد القول واتسع ، ولكننا نكتفى بما سقناه قبل هذا ، كما نحيل على فصل لاحق من كتابنا هذا عنوانه (الأدريسى فى تقدير الغربيين والعزب) يخرج منه القارىء الكريم بحفنة من التقديرات والآراء الصريحة فى القيمة الجغرافية الكبرى للشريف الأدريسى وآثاره فى علم الجغرافيا .

ولن يصرفنا هذا التقدير الكريم لهذا العالم العربى عن أن نعرض بعض ما قيل فيه من آراء تمس قيمة عمله العظيم . وقد

يكون ناقدوه على حق فيما قالوه ، ولكنه على كل حـال نقـد لا ينقص من قدر الشريف قيد أنملة ، ولا يؤثر فى القيمة العلمية له ولمشاركاته فى الجغرافية .

واذا كنا نسجل فى هذا الفصل ــ ونحن نقوم الرجل فى كفة الميزان ــ بعض ما وجه اليه من نقد ، فليس ذلك منا تشـهيرا بالرجل ، ولا اذاعة لما أخذ عليه ، ولكن ليقف القارىء على ما قيل فى الشريف الأدريسى سواء أكان له أم عليه ، فان نشر المحاسن وحدها قد يؤول على أنه تواطؤ على اخفاء المساوىء ، وهى صفة لا تليق بالعلم والبحث . ومادام النقد بعيدا عن الهوى والتعصب والجنف فى الحكم فان الحقيقة تكسب من ورائه خيرا كثيرا .

ولم يسلم الشريف الأدريسى حتى من نقد بعض علماء الأسلام القدامى والمحدثين . فهذا هو الطبيب المصرى محمد بن ابراهيم ابن ساعد الأنصارى المعروف بابن الأكفانى ، وصـاحب كتاب « ارشاد القاصد ، الى أسنى المقاصد » و « نخب الذخائر ، فى أحوال الجواهر » وصاحب كتاب «روض الألبا ، فى أخبار الأطبا» الذى اختصر به كتاب « عيون الأنباء » لابن أبى أصيبعة ، والمتوفى سنة ٧٤٩ هـ ــ كما فى « الدرر الكامنة » ، «والبدر الطالع» ، و « الأعلام » لخير الدين الزركلى ــ يقول فى كتابه « ارشاد القاصد » وفى القسم الخاص بالحديث عن الجغرافية : (وكتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، فيه مخالفة لقسمة الأقاليم ، فان

مؤلفه — يعنى الشريف الأدريسى — وان كان عارفا بالمسالك والممالك لجوبه الآفاق ، فانه عرى من علم هيئة الأفلاك) . وقد نقل المستشرق أغناطيوس كراتشكوفسكى فى هذا الصدد ماترتب على هذا النقد من قول بعض الباحثين الأوربيين : (من هذا يتضح لنا ان محاولة الأدريسى للتقريب بين الجغرافيا الوصفية والفلكية قد عرفت فى الشرق بوصفها محاولة فاشلة تماما كما عرفها العلم الحديث ...)

ومالقى الشريف الأدريسى نقدا أشد ولا تقديرا أبخس ، من شخص شرقى مسلم مثلما لقى من الأمير (يوسف كمال) الذى كان له بعض المعاناة فى الخرائط والمصورات العربية كما كان له بعض الاهتمام بها . فقد نفى نفيا باتا وجود أى تأثير مزعوم لنص البكرى ولخارطات الشريف الأدريسى على أوربا فى العصر الوسيط بل ذهب فى النفى خطوات أبعد من هذا فاعتبر اى زعم من هذا القبيل ضربا من الهذيان العلمى. وقد أخذ كراتشكوفسكى هذه الفكرة الظالمة فزاد فيها ، زاعما أنه اذا كان هنا تأثير على أوربا فأنه دون ريب لم يكن للشريف الأدريسى نفسه ، بل للوسط الصقلى الذى أمضى فيه الأدريسى زهرة عمره . ويحق لنا أن نرد عن الشريف بعض ما تجنى به عليه ، فما قيمة هذا الوسط الصقلى لو لم تظهر فيه آثار الشريف الأدريسى وجهوده العلمية واضحة للعيان ؟

واذا كان الأمير يوسف كمال قد ظلم الأدريسى بأن نفى عنه كل تأثير على أوربا فى تقدم الجغرافية فى العصر الوسيط ، فأن هناك مستشرقا فرنسيا من رجال القرن التاسع عشر قد ظلم الأدريسى ظلما كبيرا بأن حكم عليه حكما قاسيا حين قال : (والأدريسى — فى بعض النقاط — قد ساعد بالأحرى على تقهقر العلم بدلا من تقدمه ..) وهو حكم جائر من عالم مستشرق مثل « ج.ت. رينو » الذى تتلمذ على « دى ساسى » واقتفى أثره ، وتوفى سنة ١٨٦٧ م . ولا ندرى كيف يقال ان الأدريسى ساعد على تقهقر العلم بدلا من تقدمه ، مع هذه الشهادات العالية التى أدلى بها كثير من المستشرقين ؟ وعلى الرغم مما فى كلام « رينو » من جور على قيمة الشريف الأدريسى ، فأن الرجل نفسه قد عاد ليلطف من حدة حملته قائلا : (غير أن مصنفه — ويعنى به كتاب نزهة المشتاق — يمثل صرحا هائلا فى ميدان الجغرافيا ..) . ويخيل آلينا أنه ليس هناك تناقض بين أول كلام « رينو » وآخره ، فأن هناك بعض المآخذ على كتاب الشريف الأدريسى وطريقته فى تحديد المسافات والأبعاد ، ولكنها مآخذ لا تؤثر قليلا ولا كثيرا فى قيمة ذلك الصرح الهائل الذى شبه به (رينو) كتاب نزهة المشتاق .

وقد حاول المستشرق النمسوى « توماشك » أن يزن

الشريف الأدريسى بميزان صحيح ، وأن لا يجور عليه فى الحكم أو يبخسه بعض حقه . فهو حين يقرر أنه من غير المستطاع الاعتماد على الشريف الأدريسى فيما يتعلق بتحديد المسافات والأبعاد بوجه خاص ، وحين يقرر أن معطيات الشريف الأدريسى عن الجغرافية الطبيعية للبلقان طفيفة ، فأنه فى الوقت نفسه يؤكد أن فكرة الأدريسى التى كونها فى كتابه عن أهم المراكز والطرق التجارية برومانيا ، وذلك باستماعه الى روايات التجار من العرب واليهود والأغريق والفرنجة ، تمثل محاولة مبكرة لم يستطع أن يقوم بها أحد فى بيزنطة فى ذلك العهد ، بالرغم من مجاورة بلادهم لتلك الأصقاع . ويؤكد « توماشك » أنها محاولة من الشريف الأدريسى لن تفقد قيمتها على مر الزمن . ولم ينكر توماشك أن الشريف الأدريسى أعطانا معلومات جغرافية ضئيلة عن طبيعة بلاد البلقان ، ولكنه قدم لنا معلومات غزيرة فى مجال التاريخ .

وكذلك فعل المستشرق « بارتولد » عضو مجمع العلوم الروسى والرئيس الدائم للجنة المستشرقين فيه والمتوفى سنة ١٩٣٠ ، فقد رأى فى كتاب « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » محاولة للتنظيم والترتيب ، ولكن على حساب الدقة والتثبت ..

وقد يختلف التقدير للشريف الأدريسى فى موضوع معين عند اثنين من الباحثين . فقد ذكر المستشرق النمسوى موجيك

(أن الأدريسى أنمـــا يعتمد اعتمادا كليـا على بطليموس فى معلوماته عن داخل أفريقية ، بحيث يضحى من العســير اعتباره مصدرا مســـتقلا فيما يختص بتلك المناطق) ، على حين أن الباحث الجغــرافى المعاصر « كمبـــل » يقول فى كتابه (علم الجغرافية فى العصر الوسيط) المطبوع بلندن سنة ١٩٣٨ : (ان الأدريسى فى وصفه لأفريقية لم يترسم خطى بطليموس دون وعى، فوصــفه لمجرى النيــل الغربى — أى نهر النيجر قــد وكــدت صحته الاكتشافات الجغرافية فى القرن التاسع عشر . وهو على معرفة جيدة بالتجارة مع داخل أفريقية ، وقد أورد أسماء المراكز التى ازدهرت فيها الحضارة الاسلامية فى ذلك الوقت ، مثــل غانة ، وسلا ، وتكرور) .

وقد التمس المستشرق الأسبانى « بالنثيا » الأعذار للشريف الأدريسى فيما وقع فى كتابه « نزهة المشـــتاق » من أخطاء ، فالتمس منا أنه لا ينبغى أن يغيب عن بالنا أن الشريف الأدريسى كتب كتابه هذا فى النصف الأول من القرن الثانى عشر الميلادى، وأن موت الملك روجار الصقلى وما أعقبه من القلاقل فى دولة النورمان بصقلية حالت بين الأدريسى وبين أن يدخل على كتابه التعديلات الأخيرة الواجبة ، وأكد « بالنثيا » أن الكتاب حافل بالمعلومات الصحيحة فى الغالب ، ومادته وافرة عن البلاد الأوربية التى تسكنها شعوب نصرانية .

ومع ذلك فقد عاب « بالنثيا » على كتاب (نزهة المشتاق) للشريف الأدريسى أنه يضم بعض أطراف من الخرافات التى كانت أوسع ما تكون انتشارا فى عصره . وقد تناولنا الحديث عن هذه القضية فى الفصل الذى عنوانه « بين الواقع والأساطير » .

الإدريسي في تقدير الغربيين والعرب

قد يكون من المناسب هنا أن نسجل بعض الآراء التى أبداها لفيف من المستشرقين والباحثين والعلماء العرب والأجانب فى معرض تقدير الأدريسى وتقدير آثاره فى تقدم العلوم الجغرافية ومدى اسهامه فى ذلك السبيل .

* يقول العلامة كارا دى فو صاحب كتاب « مفكرو الاسلام » وغيره من الكتب العظيمة التى يعرفها المشتغلون بالفلسفة الاسلامية : (ان الأدريسى استعمل ملاحظاته الشخصية ، زيادة على الانتفاع بملاحظات معاصريه وأعمال المؤلفين قبله . ولاشك أن ماكتبه ووصف به البلاد الغربية كان أحسن ما كتب عنها ، لأنه أعطانا فى هذا الصدد أبحاثا من الطبقة الأولى) .

* وقال البارون دى سـلان المستشرق الفرنسى من بحث نشره فى عدد أبريل سنة ١٨٤١ من المجلة الآسيوية الفرنسية : (ان كتاب الأدريسى لا يمكن أن يوازن به أى كتـاب جغرافى سابق له ، وان ثمة بعض أجزاء من المعمورة لايزال هذا الكتاب دليل المؤرخ والجغرافى فى الأمور المتصلة بها) .

* وقال جوستاف لوبون المفكر الفرنسى المشهور ، وصاحب « حضارات الهند » ، و « حضارة العرب » وغيرهما من الكتب العظيمة : (وأشهر جغرافيى العرب هو الأدريسى . ومن كتب الأدريسى التى ترجمت الى اللاتينية ، تعلمت أوربة علم الجغرافية فى القرون الوسطى) .

* وقال العلامة سـيديو صاحب كتاب « تاريخ العرب العام » : (ويعد الأدريسى أول نقطـة اتصـال بين الجغـرافية اللاتينية ، وجغرافية المدارس الاسلامية ..) .

* وقال جوتيه البحاثة الفرنسى : (ان الشريف الأدريسى الجغرافى كان أسـتاذ الجغرافيا الذى علم أوربا هـذا العلم لا بطليموس ، ودام معلما لها مدة ثلاثة قرون . ولم يكن لأوربا مصور للعالم الا مارسمه الأدريسى ، وهو خلاصة علوم العـرب فى هذ االفن . ولم يقع الأدريسى فى الأغلاط التى وقع فيهـا بطليموس فى هذا الباب) .

* وقال المستشرق الايطالى الدو ميبلى : (.. وهذا العالم الجغرافى الذى ربما كان أعظم جغرافيى العالم الاسلامى ، كان على وجه الخصوص ذا ملكة ممتازة فى رسم الخرائط) .

* وقال العالم الباحث جون رايت : (ولاشـك أن كتاب الأدريسى أتى ببعض العناصر لتنمية فن الملاحة فى صقلية ، ومنها ــ بواسطة الملاحة فى جنوة ــ الى قطلونية والبرتغال) .

* وقال كامبل : (ان أحدى السمات العظيمة فى كتـاب الأدريسى هى أننا لانرى المؤلف موافقـا لآراء بطليمـوس على طول الخط دون تحفظ ، وانما كان يستهدى الأدريسى بمعارفه الشخصية ، وتجاربه المتنوعة كرحالة كثير الأسفار) .

* ويقول فيه المسـتشرق الأسبانى بالنثيا : (ان الكتاب حافل بالمعلومات الصحيحة فى الغالب ، ومادته وافرة عن البلاد الأوربية التى تسكنها شعوب نصرانية) .

* وقال فيه العالم رينو وقد جمع فيه بين اظهار المحاسن والمساوىء : (والأدريسى فى بعض النقاط قد ساعد بالأحـرى على تقهقر العلم بدلا من تقدمه ، غير أن مصنفه على وجه العموم يمثل صرحا هائلا فى ميدان الجغرافيا يشبه فى هذا الصـدد مؤلف استرابون) .

* ويقـول فيه كراتشكوفسكى المسـتشرق الروسى :

(.. ورغما عن كل هــذه التحفظات فأن مؤلفات الأدريسى فى الجغرافيــا تمثل بكل تأكيد ظاهرة ممتـــازة فى محيط الأدب الجغرافى العربى خاصة ، وفى النشاط العلمى لجميع العصـــور الوسطى عامة ..) .

وفوق هـــذا كان الأدريسى موضــع اهتمام ودراسة من المسلمين غير العرب ، فاهتم به حافظ أبرو الأيرانى ، كما اهتم الأتراك به وبأعادة نشر كتابه متنا وترجمة وتعليقا ، كما اهتم حاجى خليفة صاحب كشف الظنون وذكر كتابه « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » وعرف بالأدريسى تعريفا وجيزا ، وأشار الى اختصار بعضهم لهذا الكتاب . أما حيدر بامات صــاحب كتاب « مجالى الاسلام » ، والذى عرف فى التأليف الفرنسى باســم « جورج ريفوار » وهو مسلم صحيح الاسلام ، فقد أشار الى الأدريسى وعرف به فى ايجاز ، وأوجز الحكم عليه قائلا : (وكان ــ الأدريسى ــ أول من جعــل ارتباطا بين جغرافية اللاتين ، وجغرافية المدارس الاسلامية) ، وهو هنــا ناقل لرأى العلامة سيديو الذى سبق ذكره . ويرى الباحث الهندى نفيس أحمد أن كتاب الأدريسى ــ بالتأكيد ــ هو أكبر نموذج بارز لانصهار المعلومات الجغرافية القديمة مع المعلومات المتجددة .

هـــذه هي نماذج من آراء بعض الأوربيين والمسلمين غير العرب فى الأدريسى وكتابه وجهـوده فى علم الجغرافيـا . أما العرب القدامى والمحدثون فلا داعى لذكر أسمائهم وآرائهم هنا فى هذا الفصل ، لأنها مدونة على مدى كتابنا كله فى أكثر من موضع ، وهى تؤكد تيقظ العرب اليوم لأنصاف هـــذا العالم الجغرافى العظيم .

المراجع والمصادر

مرتبة وفق حروف الهجاء

١ ــ **أثر العرب فى الحضارة الأوربية :**

عباس محمود العقاد ، دار المعارف . مصر ١٩٤٦ .

٢ ــ **أثر العرب والاسلام فى النهضة الأوربية :**

جماعة من الأساتذة المختصين ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ؛ القاهرة ١٩٧٠ .

٣ ــ **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى :**

أبو العباس الناصرى السلاوى ، الدار البيضاء المغرب ١٩٥٦ .

٤ ــ **الاسلام والحضارة العربية :**

محمد كرد على ، القاهرة ١٩٣٤ .

٥ ــ **الأعلام :**

خير الدين الزركلى ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٥٨ .

٦ ــ **أعلام من الاسكندرية :**

نقولا يوسف ، الاسكندرية ١٩٦٩ .

٧ ــ **البداية والنهاية :**

ابن كثير الدمشقى ، مطبعة السعادة القاهرة ١٣٩٢ .

٨ ــ **البيان المغرب ، فى حل المغرب :**

ابن عذارى المراكشى ، مكتبة صادر ، بيروت ١٩٥٠ .

٩ ـ **تاريخ الأدب الجغرافي العربي :**
أغناطيوس كراتشوفسكي ، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٦٣ ٠

١٠ ـ **تاريخ آداب اللغة العربية :**
جرجي زيدان ، الطبعة الأخير ، القاهرة سنة ١٩٥٩ ٠

١١ ـ **تاريخ الأندلس في عصر المرابطين والموحدين :**
يوسف أشـــــباخ ، ترجمه محمد عبد الله عنـــــان القاهرة سنة ١٩٤٠ ٠

١٢ ـ **تاريخ الحضارة الاسلامية :**
بارتولد ، ترجمة حمزة طاهر ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٥٢

١٣ ـ **تاريخ العرب العام :**
سيديو ، ترجمة عادل زعيتر ، القاهرة ١٩٤٨ ٠

١٤ ـ **تاريخ العرب ، مطول :**
الدكتور فيليب متى ، بيروت ١٩٤٩ ٠

١٥ ـ **تاريخ الفكر الأندلسي :**
بالنثيا ، ترجمة الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٥٥ ٠

١٦ ـ **تقدم العرب في العلوم والصناعات :**
عبد الله الجراري ، القاهرة ١٩٦١ ٠

١٧ ـ **جهود المسلمـين في الجغرافيا :**
نفيس أحمد ، ترجمة فتحي عثمان ، القاهرة ٠

١٨ ـ **حديث السندباد القديم :**
الدكتور حسين فوزي ، القاهرة ١٩٤٣ ٠

١٩ ـ **حسن المحاضرة :**
السيوطى ، تحقيق محمد أبو الفضـل ابراهيم ، القاهرة ١٩٦٧ .

٢٠ ـ **حضارة العرب :**
غوستاف لوبون ، ترجمة عادل زعيتر ، القاهرة سنة ١٩٤٨ ط ثانية .

٢١ ـ **الحضارة العربية :**
جاك ريسلر ، الدار المصرية للتأليف والنشر سنة ١٩٦٦ .

٢٢ ـ **الحلل السندسية :**
الأمير شكيب أرسلان ، القاهرة ١٩٣٦ .

٢٣ ـ **خطط المقريزى :**
مطبعة النيل ، القاهرة ١٣٢٤ هـ .

٢٤ ـ **دائرة المعارف الاسلامية :**
الترجمة العربية ، القاهرة ١٩٣٣ .

٢٥ ـ **الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى :**
الدكتور زكى محمد حسن ، القاهرة ١٩٤٥ .

٢٦ ـ **الرحلات :**
الدكتور شوقى ضيف ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٥٦ .

٢٧ ـ **رحلة ابن جبير :**
تحقيق الدكتور حسين نصار ، دار مصر للطباعة ، القاهرة .

٢٨ ـ **الرواد :**
فؤاد صروف ، دار المقتطف ، القاهرة بدون تاريخ .

٢٩ ـ رواد الشرق العربى فى العصور الوسطى :
الدكتور نقولا زيادة ، القاهرة ١٩٤٣ .
٣٠ ـ الروض المعطار :
الحميرى ، منتخبات اختارها بروفنسال . القاهرة سنة١٩٣٧
٣١ ـ ظهر الاسلام :
الدكتور أحمد أمين ج ٣ ، القاهرة .
٣٢ ـ العرب فى صقلية :
الدكتور احسان عباس ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٥٩ .
٣٣ ـ العرب والملاحة فى المحيط الهندى :
ج فضلو حورانى ، مكتبة الانجلو المصرية سنة ١٩٥٨ .
٣٤ ـ العلم عند العرب :
الدو ميلى ، دار القلم ، القاهرة سنة ١٩٦٢ .
٣٥ ـ العلوم عند العرب :
قدرى حافظ طوقان ، مكتبة مصر بالفجامة ، القاهرة سنة ١٩٥٦ .
٣٦ ـ عيون الأنباء ، فى طبقات الأطباء :
ابن أبى أصيبعة ، المطبعه الوهبية ، القاهرة سنة ١٨٨٢ .
٣٧ ـ فهرس المخطوطات المصورة ج ٤ :
فؤاد سيد ، معهد المخطوطا ، القاهرة ١٩٦٤ .
٣٨ ـ الكامل :
ابن الأثير ، المطبعة المنيرية ، القاهرة ١٣٥٧ هـ .
٣٩ ـ كشف الظنون :
حاجى خليفة ، مطبعة العالم ، استنبول سنة ١٣١١ هـ .

٤٠ ـ **كنوز الأجداد :**
محمد كرد علي • مطبعة الترقي ، دمشق سنة ١٩٥٠ •

٤١ ـ **مآثر العرب على الحضارة الأوربية :**
جلال مظهر ، القاهرة ١٩٦٠ •

٤٢ ـ **مجالي الاسلام :**
حيدر بامات ، ترجمه عادل زعيتر ، القاهرة ١٩٥٦ •

٤٣ ـ **مجاني الأدب :**
الأب لويس شيخو اليسوعي ، بيروت •

٤٤ ـ **المجددون في الاسلام :**
عبد المتعال الصعيدي ، القاهرة ، مكتبة الآداب ، بدون تاريخ •

٤٥ ـ **المستشرقون :**
نجيب العقيقي ، دار المعارف ، مصر ١٩٦٤ •

٤٦ ـ **معجم المطبوعات العربية والمعربة :**
يوسف أليان سركيس ، القاهرة سنة ١٩٢٨ •

٤٧ ـ **معجم المؤلفين :**
عمر رضا كحالة ، مطبعة الترقي ، دمشق ١٩٦١ •

٤٨ ـ **مقدمة ابن خلدون :**
تحقيق الدكتور علي عبد الواحد وافي ، القاهرة ١٩٥٧ •

٤٩ ـ **الموسوعة العربية الميسرة :**
الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٦٥ •

٥٠ ـ **النبوغ المغربي ، في الأدب العربي :**
عبد الله كنون ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت •

٥١ ـ نفح الطيب :
المقرى ، المطبعة الآزهرية المصريه ، القاهرة ١٣٠٢ هـ ٠

٥٢ ـ الوافى بالوفيات :
صلاح الدين الصفدى ج أ ، اشراف ديدرنغ ، استنبول ٠

٥٣ ـ وصف الهند ومايجاورها من البلاد :
الادريسى ، تحقيق الدكتور مقبول احمد ، الهند ١٩٥٤ ٠

المجلات

مجلة معهد المخطوطات التابع للجامعة العربية ـ

مجلة المجمع العلمى العراقى

مجلة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد

مجلة عالم الفكر الكويتية عدد مارس سنة ١٩٧١

فهرس

الموضوع	الصفحة
المعاينة والمشاهدة	١١٧
منهج الأدريسى فى وصف البــــلاد	١٢٥
بين الواقع والأســــاطير	١٣٧
وصاف المدن	١٤٥
وصاف البحار	١٥٣
الأدريسى ورحلة المغررين	١٦١
أوربــا والأندلس وأفريقية عند الأدريسى	١٧١
جوانب متعــددة من الأدريسى	١٨١
آلأدريسى بين التجاهل والأنصــاف	١٨٩
اهتمــــامات الغربيين بالشريف الأدريسى	١٩٩
من المجددين فى الاسلام	٢١١
الأدريسى فى كفة الميزان	٢١٧
الأدريسى فى تقدير الغربيين والعرب	٢٢٧

رقم الايداع بدار الكتب ٥٢٦٩/١٩٧١

وزارة الثقافة

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر

المركز الرئيسى ١١١٧ شارع كورنيش النيل – القاهرة – ج.ع.م.
تليفون : ٧١٠٠٥٥/ ٧١٠٠٥٨ تلغرافياً : يانشرو

الادارة العامة للتوزيع : ١٧ شارع قصر النيل – القاهرة – ج.ع.م.
تليفون : ٤٥٥٨٩/ ٤٧٤٣٦

مكتبات القومية للتوزيع فى ج . ع . م .

القـــاهرة

٣٦ شارع شريف	ت : ٤٠٠١٢	١٩ شارع ٢٦ يوليو	ت : ٥٥٠٣٢
٥ ميدان عرابى	ت : ٤٦٣٨٣	٢٢ شارع الجمهورية	ت : ٩١٤٢٢٣
١٣ شارع المبتديان	ت : ٢١١٨٧	الباب الأخضر بالحسين	ت : ٩١٣٤٤٧

الاسكندرية : ٤٩ شارع سعد زغلول	٢٢٩٢٥	الجيزة : ١ ميدان الجيزة	ت: ٨٩٨٣١١
دمنهور : شارع عبد السلام الشاذلى	٢٦٠٥	المنيـا : شارع أبن خصيب	ت:٤٤٥٤
طنطا : ميدان الساعة	٢٥٩٤	اسيوط : شارع الجمهورية	ت:٢٠٣٢
المحلة الكبرى : ميدان المحطة	٤٢٧٧	اسوان : السوق السياحى	ت: ٢٩٣٠
المنصورة : أول شارع الثورة	٣٨٦٤		

مراكز التوزيع خارج ج . ع . م

لبنان : الشركة القومية للتوزيع – بيروت – شارع سوريا بناية أبناء صمدى وصالحة
العراق : الشركة القومية للتوزيع – بغـداد – ميدان التحرير – عمـارة فاطمة

توكيلات وعملاء دائمين خارج ج . ع . م

الكويت : وكالة المطبوعات ٢٧ شارع فهد السالم بالكويت
الاردن : مكتبة المحتسب – عمان
ليبيـا : محمود عارف الشويهدى – طرابلس
اندونيسيا : عبد الله محمد العيدروس – جاكرتا
تونس : الشركة التونسية للتوزيع ٥ شارع قرطاج – تونس
الجزائر : ٩٢ شارع ديدوش مراد بالجزائر العاصمة
المغرب : المركز الثقافى العربى للنشر والتوزيع ٤٢ – ٤٤ الشارع الملكى – الاحباس – الدار البيضاء
هولندا : مكتبة بريل – ليدن

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر
فى خدمة القارئ العربى

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر

أعلام العرب

٩٨

إبراهيم بن أدهم

شيخ الصوفية

بقلم: الدكتور عبد الحليم محمود

الهيئة
المصرية العامة
للتأليف والنشر

أعلام العرب
(٩٨)

إبراهيم بن أدهم

شيخ الصوفية

بقلم :
الدكتور عبد الحليم محمود

الهيئة المصرية العامة للكتاب
دار التأليف والنشر
١٩٧٢

مقدمة

التصوف والحياة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه ومن اتبع هديه الى يوم الدين . وبعد :

ان من الحقائق التى لا مرية فيها : أن الانسان لا يتأتى له أن يلج باب الله ، أو يسير فى الطريق اليه ، الا بالعبودية الخاصة لله وحده لا شريك له . فاذا ما تمخضت العبودية لله سبحانه ، وأصبح الانسان من عباد الله المخلصين ، وحقق بذلك: « اياك نعبد ، واياك نستعين » . فان الله سبحانه لا يجعل للشيطان عليه من سبيل :

«ان عبادى ليس لك عليهم سلطان ، وكفى بربك وكيلا(١)»

---

(١) الاسراء : ٦٥

ويعترف ابليس بأنه عاجز عن أن يضل من حقق العبودية الصادقة للهسبحانه فيقول :

« فبعزتك لأغوينهم أجمعين ، الا عبادك منهم المخلصين (١)» ويقول :

« رب بمـــا أغويتنى لأزينن لهم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين ، الا عبادك منهم المخلصين (٢) »

واذا ما حقق الانسان العبودية لله ، فان الله يتولاه بالامداد بالمعرفة ، انه سبحانه يقول عن موسى وفتاه :

« فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا ، وعلمنــاه من لدنا علما (٣) »

انه حقق العبودية ، فكان ثمرة ذلك أن يغمره الله بالرحمة ، وأن يفيض عليه العلم ..

وليست المعرفة وحدها هى ثمرة التحقق بالعبودية ، بل ان للتحقق بالعبودية ثمارا كثيرة سامية ؟

فأيوب عليه السلام ، يقول الله عنه :

---

(١) ص آية : ٨٢ ، ٨٣
(٢) الحجر : ٣٩ ، ٤٠
(٣) الكهف آية : ٦٥

« واذكر عبدنا أيوب اذ نادى ربه ، أنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب .. اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب .. ووهبنا له أهله ، ومثلهم معهم ، رحمة منا وذكرى لأولى الألباب . وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث انا وجدناه صابرا ، نعم العبد انه أواب (١) » .

ولقد حقق سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم العبودية كاملة تامة ، لقد حققها فى ذروتها ، فكانت صلاته ، وكان نسكه، وكانت حياته بأكملها ، وكان موته ، لله رب العالمين .. لا شريك له :

« قل ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين (٢) ».

لقد حققها موفورة تامة ، فآتاه الله عز الدنيا والآخرة .

ومتابعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، واقتداء به ، سار الصوفية على الدرب ، يقول صاحب « عوارف المعارف » .

الصوفى : هو الذى يكون دائم التصفية ، لا يزال يصفى الأوقات عن شوب الأكدار ، بتصفية القلب عن شوائب النفس..

ويعينه على هذه التصفية دوام افتقاره الى مولاه .. فبدوام

---

(١) ص آية : ٤١ ـ ٤٤
(٢) سورة الأنعام آية ١٦٢ ، ١٦٣

الافتقار ينقى من الـكدر .. وكلمـا تحركت النفس ، وظهرت بصفة من صفاتها أدركها ببصيرته النافذة ، وفر منها الى ربه ..

فبدوام تصفيته جمعيته ، وبحركة نفسـه تفرقته وكدره ، فهو قائم بربه على قلبه ، وقائم بقلبه على نفسه ، قال الله تعالى :

« كونوا قوامين لله ، شهداء بالقسط (١) » .

وهذه القوامية لله على النفس ، هى التحقق بالتصوف (٢)»

ويقول فى موضع آخر :

« والصوفى يضـع الأشـياء مواضـعها ، ويدبر الأوقات والأحوال كلهـا بالعلم ، يقيم الخلق مقامهم ، ويقيم أمر الحق مقامه ، ويستر ما ينبغى أن يستر ، ويظهر ما ينبغى أن يظهر ، ويأتى بالأمور فى مواضعها ، بحضور عقل ، وصحة توحيد ، وكمال معرفة ، ورعاية صدق واخلاص (٣) » .

لقد أخذ الصوفية أنفسهم بالتأسي بالرسول صلى الله عليه وسلم ، فيما دق من الأمور ، وما وضح منها .. وفى اليسير من أعمالهم ، والعظيم منها .. ومن أمثله ذلك .

---

(١) سورة المائدة آية : ٨

(٢) عوارف المعارف جـ ١ ص ٢٠٨ بتحقيقنا

(٣) عوارف المعارف جـ ١ ص ٢٣٢ بتحقيقنا .

في الجهاد :

ولا يتأتى أن نذكر تاريخا مفصلا لجهاد الصوفية الحربى ، ولكننا نكتفى هنا ببعض الأمثلة :

كان شقيق البلخى ، وهو من قمم الصوفية الشامخة ، يسارع الى خوض المعارك .. لا يبالى على أى جنب كان فى الله مصرعه .

انظر اليه : خائضا المعارك ، محاربا العدو ، مسلحا بايمانه ، وثقته فى الله ، وعدته الحربية .. شاهرا سيفه ، فارسا بكل ما تتطلبه كلمة الفروسية من معنى ، هادئا ، مطمئنا ، كامل الثقة فى الله .

ولقد وصلت ثقته بالله ، الى حد أنه — وهو لا يرى الا سيوفا مصلتة ، ورقابا تقطع ، ورءوسا تسقط ، يقول لمن بجواره فى هذا الجو :

كيف ترى نفسك ؟ أترى نفسك فى سعادة تشبه سعادتك فى الليلة التى زفت فيها امرأتك اليك ؟

فأجابه الذى بجواره : لا والله .

فقال شقيق : لكنى والله .. أرى نفسى فى هذا اليوم ، مثلها فى الليلة التى زفت فيها امرأتى الى .

لقد كان سعيدا بجهاده .. ومات شهيدا فى معركة الشرف والبطولة فى ساحة الحرب والجهاد .

وشخص آخر — هو من قمم الصوفية أيضا — انه حاتم الأصم :

كان يدخل المعارك ، ويخوضها فى غير خوف ولا فزع .. وما كانت نفسه تطير اشعاعا من الأبطال .. وما كان يقول لها : لن تراعى ..

لقد كان كيانه كله فى ثقة مطلقة بالله .. وهذه الثقة تتمثل أجمل ما يكون التمثل ، حينما أخذوه أسيرا ، وطرحوه أرضا ، وجثم العدو على صدره ليذبحه .

انه يصف شعوره وهو فى هذه الحالة فيقول :

« لم يشتغل به قلبى ، بل كنت أنظر ماذا يحكم الله تعالى فى .. فبينما هو يطلب السكين التى يذبح بها ، أصابه سهم فقتله .. وقمت سليما معافى ، قام سليما معافى ، ليعاود المعركة من جديد .

واذا قفزنا فى ساحة الزمن قفزة واسعة ، فوصلنا الى معركة المنصورة ، فاننا نجد كبار المؤمنين ، وصفوة الصوفية فى قلب المعركة .

لقد تركوا بيوتهم وأسرهم ، وهبوا مندفعين الى المنصورة ،

ليساهموا فى النصر ، والاستشهاد فى سبيل الله ، ولتكون الجنة تحت ظلال سيوفهم .

ولقد كان — وهذا له أهميته الخاصة — أبو الحسن الشاذلى — وهو من صفوة الصفوة الصوفية — قد تجاوز الستين ، وكان قد كف بصره ، ومع ذلك فانه ترك بيته ، وذهب الى المنصورة ، مساهما فى المعركة بقدر استطاعته .

لقد كانت المعركة شغله بالنهار ، وشغله بالليل .. لقد كانت تشغله مستيقظا ، فيمر بسمته الوقور ، وبهيبته المستمدة من تقواه ، وبالنور يشرق من وجهه ، بين الجنود مشجعا ، حاثا ، مبشرا بالنصر وبالجنة ، فاذا ما جنه الليل ، أخذ يبتهل الى الله سبحانه وتعالى ، متضرعا ، خاشعا ، راجيا التوفيق والنصر للأمة الاسلامية .

وفى ليلة من الليالى ، رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم — فى رؤيا طويلة — وأصبح رضى الله عنه يبشر بالنصر ..

ولم تكن هذه هى الموقعة الأولى التى ساهم فيها أبو الحسن الشاذلى — رضى الله عنه — ولم تكن الأخيرة .

واذا ما قفزنا مرة أخرى — فى ساحة الزمن — قفزة واسعة ، فاننا نلتقى بالصوفى الشهير : عبد القادر الجزائرى .

كان من كبار الصوفية ، ومن كبار القادة فى الحرب ، ولقد

حارب الاستعمار فى الجزائر ، وفعل بايمانه القوى ، وصوفيته العميقة الأعاجيب ، فى الشجاعة والاقدام .

ولقد بدأ الحرب بأفراد قلائل ، سرى ايمانه واقدامه فيهم، فتمثلت فيهم الشجاعة فى أسمى مظاهرها ، وأخذ عددهم يزداد شيئا فشيئا على مر الأيام .

أما أسلحتهم : فقد كانت ما يأخذونه من أسلحة العدو .

ولقد وجه الأمير عبد القادر النداء تلو النداء للأمة الاسلامية ، من أجل العون المالى ، والانسانى ، ومن أجل العون فى العتاد ، فكانت المساعدات التى قدمت اليه مخجلة يندى لها الجبين .

ولم تشعر الأمة الاسلامية ، بأنها أمة واحدة ، وكأنها لم تسمع ولم تقرأ قول الله سبحانه وتعالى :

« ان هذه أمتكم أمة واحدة ، وأنا ربكم فاعبدون (١) » .

وقوله تعالى :

« وان هذه أمتكم أمة واحدة ، وأنا ربكم فاتقون (٢) » .

ان الأمة الاسلامية لم تتجاوب معه تجاوب الاخوة ، وكأنها لا تشعر بقوله تعالى :

---

(١) سورة الأنبياء آية : ٩٢

(٢) سورة المؤمنون آية : ٥٢

« انما المؤمنون اخوة (١) » .

ولا تحس بالاحساس الاسلامى .

« المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يسلمه ، ولا يخذله (٢) »

« المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا (٣) » .

«ترى المؤمنين فى توادهم ، وتراحمهم ، كالجسد الواحد ، اذا اشتكى عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى (٤)»

ولم يثن كل ذلك الأمير عبد القادر ، عن متـابعة الحرب والكفاح ضد المستعمر .. وحينما أسر ـــ كرمه الأعداء أنفسهم، لشجاعته وشهامته ومروءته ـ ولما حالت الظروف القاهرة بينه وبين الجهاد والتضحية الحربية ـــ وذلك بعد الأسر ـــ مكث فى دمشق يدرس التصوف ، متخذا ـــ الفتوحات المـكية ـــ كتابه المفضل فى الشرح والتفسير .

ولقد طبع هذه الفتوحات ، وفى أثناء اقامته بدمشـق ألف كتاب المواقف ، وهو كتاب فى التصوف عريق ، بين فيه وجهـة النظر الصوفية فى مختلف الموضوعات .

---

(١) سورة الحجرات آية : ١٠
(٢) مسلم
(٣) الامام البخارى
(٤) رواه البخارى

فى التزام الشريعة :

أما فيما يتعلق بالتزام الشريعة ، فاننا نبتدىء بذكر كلمة « للامام الكامل ، الفقيه الأصولى ، المفسر ، الاسفرايينى » صاحب كتاب : « التبصير فى الدين » — وهو من أئمة أهل السنة ، المعنيين أشد عناية بالرد على كل من يخالف مذهب أهل السنة . انه يذكر ما يمتاز به أهل السنة ، عن غيرهم من الخوارج ، والروافض والقدرية فيذكر أن سادس ما امتاز به أهل السنة هو :

« علم التصوف والاشارات ، وما لهم فيها من الدقائق والحقائق ، لم يكن قط لأحد من « أهل البدعة » فيه حظ ، بل كانوا محرومين مما فيه : من الراحة والحلاوة ، والسكينة والطمأنينة .

وقد ذكر : « أبو عبد الرحمن السلمى » من مشايخهم قريبا من ألف ، وجمع اشاراتهم وأحاديثهم .. ولم يوجد فى جملتهم قط من ينسب الى شىء من بدع « القدرية ، والروافض ، والخوارج » .

وكيف يتصور فيهم من هؤلاء ، وكلامهم يدور على التسليم والتفويض ، والتبرى من النفس ، والتوحيد بالخلق والمشيئة .

وأهل البدع ينسبون الفعل ، والمشيئة ، والخلق والتقدير،

الى أنفسهم ، وذلك بمعزل عما عليه أهل الحقائق من التسليم والتوحيد » .

بعد هـذا نبدأ فى النظر الى طريق التصـوف ، وصـلته بالشريعة :

يقول الامام الغزالى :

« ان الطريق الى ذلك انما هو : تقديم المجاهدة ، ومحـو الصفات المذمومة ، وقطع العلائق كلها ، والاقبال بكنه الهمـة على الله تعالى .

ومهما حصـل ذلك ، كان الله هو المتـولى لقلب عبـده ، والمتكفل له بتنويره بأنوار العلم .

واذا تولى الله أمر القلب ، فاضت عليـه الرحمة ، وأشرق النور فى القلب ، وانشرح الصدر ، وانكشف له سر الملكوت ، وانقشع عن وجه القلب حجاب الغرة بلطف الرحمـة ، وتلألأت فيه حقائق الأمور الالهية ، فليس على العبد الا الاسـتعداد ، بالتصفية المجردة ، واحضار الهمـة ، مع الارادة الصـادقة ، والتعطش التام ، والترصد بدوام الانتظار لما يفتحه الله تعـالى من الرحمة » .

وعن هذا الطريق ، يقول ابن خلدون :

« وقد كان الصحابة رضى الله عنهم على مثل هذه المجاهدة ،

وكان حظهم من هذه الكرامات أوفر الحظوظ ، لكنهم لم يقع لهم بهـا عناية .

وفى فضائل أبى بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى ، رضى الله عنهم كثير منها ، وتبعهم فى ذلك أهل الطريقة ، ممن اشـتملت رسالة القشيرى على ذكرهم ، ومن تبع طريقتهم من بعدهم » .

هذا فيما يتعلق بالطريق :

أما فيما يتعلق بالموضوع ، والشـعور ، والأحوال .. فان الصوفية ـــ على وجه العموم ـــ نبهوا فى صور حاسـمة الى وجوب التزام الشريعة ، يقول أبو الحسن الشـاذلى رضى الله عنه :

« من دعا الى الله تعالى ، بغير ما دعا به رسول الله صـلى الله عليه وسلم فهو بدعى » .

ويقول :

« اذا لم يواظب الفقير على حضور الصـلوات الخمس فى الجماعة ، فلا تعبأ به » .

ومن أجمل كلماته فى هذا ، قوله :

« ما ثم كرامة أعظم من كرامة الايمان ومتابعة السـنة .. فمن أعطيهما ، وجعل يشتاق الى غيرهما ، فهو عبد مفتر كذاب ،

أو ذو خطأ فى العلم والعمل بالصواب . كمن أكرم بشهود الملك على نعت الرضا ، فجعل يشتاق الى سياسة الدواب ، وخلع الرضا » .

وكل الصوفية ينهجون هذا النهج .. ومن هؤلاء مثلا : أبو يزيد البسطامى الذى يقول فى قوة حاسمة ، وفى منطق صادق :

« لو نظرتم الى رجل أعطى من الكرامات ، حتى يرتقى فى الهواء ، فلا تغتروا به ، حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهى ، وحفظ الحدود ، وأداء الشريعة » .

ولقد تحدث الامام الجنيد أكثر من مرة ، فيما يتعلق بالصلة بين التصوف والشريعة .. ومما قاله فى ذلك :

« الطرق كلها مسدودة على الخلق ، الا على من اقتفى أثر الرسول صلى الله عليه وسلم ، واتبع سنته ، ولزم طريقته » .

وقال أيضا :

« من لم يحفظ القرآن ، ولم يكتب الحديث ، لايقتدى به فى هذا الأمر ، لأن علمنا هذا مقيد بأصول الكتاب والسنة » .

ولقد كان الامام الغزالى ، فى سلوكه ، وفى قوله .. فى

حياته الخاصة والعامة ، يلتزم الشريعة ، ويقول : ان المحققين قالوا :

« لو رأيت انسانا يطير فى الهواء ، ويمشى على الماء ، وهو يتعاطى أمرا يخالف الشرع ، فاعلم أنه شيطان » .

والواقع : أن المثل الأعلى للصوفية على بكرة أبيهم ، انما هو رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهم يحاولون باستمرار أن ينهجوا نهجه ، وأن يسيروا على منواله — فهو امامهم الأسمى فى كل ما يأتون ، وما يدعون وهم يتابعونه مهتدين فى ذلك بقول الله سبحانه وتعالى :

« لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة ، لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ، وذكر الله كثيرا » .

وبعد : فقد تبينا مما سبق أن الطريق الى الله هو التحقيق بالعبودية ، وقد سار الصوفية — ومنهم ابن أدهم — فى هذا الطريق ، فأثمر لهم ثمارا سامية كثيرة .

منها : الجهاد .

ومنها : التزام الشريعة .

وماذا بعد ذلك ؟

أما عن الصـوفية والعلم :

فان الصوفية يمثلون العلم الاسـلامى فى قمته وفى جميع فروعه : فى الفقه ، وفى التفسير ، وفى الحديث ، وفى الأخلاق ..

واذا أردنا أن نتحـدث عن القمة العلمية الشـامخة التى لا تضـارع فيما اجتمع لديهـا من علوم مدروسة مرواة محكمة فيها الاتقان ، والاستنتاج المتبصر ، والتبصر المتابع ، والاتباع الواعى ، أعنى شـخصية الشيخ الأكبـر محيى الدين ، فان الحديث عنها يستغرق مجلدات .

وان مقارنات مؤرخى الفكر بين الشـيخ الأكبر وغيره من الغربيين والشرقيين تصعد به الى القمـة .

والشيخ الأكبر يذكر دائما بحجـة الاسـلام الغزالى الذى جمع فى احيائه ، أربعين كتابا كل منها له استقلاله وله ذاتيته ، وألف منها ــ فى احكام محكم ــ كتابه احياء علوم الدين .

ولقـد انهار تحت قلمه فى سـهولة ويسر عبـاقرة الفكر الفلسفى فتهـافتوا وانهـاروا ، وأتى عليهم كتـابه النفيس : « تهافت الفلاسفة » .

وأخمد حجة الاسـلام بدعة الفلسـفة وعبث الفلسفة فى الشرق الاسلامى . وللامام الغزالى أكثر من ثمانين كتابا ورسالة فى الأصول والفقه والتوحيد والفلسفة والتصوف .

ولا تزال كتبه تقرأ وتتــداول وعليها دائما طابع النضرة : طابع الخـــلود .

والصورة الجميلة فى الصوفية ــ فى الأغلب الأعم ــ هى صورة الجنيد :

لقد كان الكتبة (اللغويون والأدباء) يحضرون مجلســه لألفاظه والفقهاء لتقريره .

والفلاسفة لدقة نظره ومعانيه .

والمتكلمون لتحقيقه .

والصوفية لارشاداته وحقائقه .

يقول صاحب الرسالة القشيرية عنه :

وكان فقيها على مذهب « أبى ثور » وكان يفتى فى حلقته بحضرته وهو ابن عشرين سنة .

ويروى صاحب الرسالة القشيرية عن أبى الحسين على بن ابراهيم الحداد يقول :

حضرت مجلس القاضى أبى العباس بن شريح ، فتـــكلم فى الفروع والأصول بكلام حسن عجبت منه ، فلمـــا رأى اعجابى قال :

أتدرى من أين هذا ؟

قلت : يقول به القاضى .

فقال : هذا ببركة مجالسة أبى القاسم الجنيد .

واذا ذكر الجنيد ذكر أستاذه : الحارث المحاسبى ، وقد كان الحارث مثقفا فى الدين والعربية ، كأحسن ما يكون المثقف لقد كان فقيها ، وكان محدثا ، وكان متكلما ، وكان عالما فى الأخلاق ، وكان صوفيا .

ولقد دخل فى قوة فى كل المشاكل التى وجدت فى عصره باحثا مرشدا مجادلا هاديا الى الحق ، والحق فى نظره هو ما كان عليه الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه .

وألف المحاسبى الكثير من الكتب فى شتى مجالات العلوم .

وليأخذ الانسان أى صوفى من هؤلاء الذين ذكرهم السلمى فى طبقاته ، أو الذين ذكرهم القشيرى فى رسالته ، أو الذين تحدث عنهم صاحب الحلية : فسيجد أنهم قوم اتخذوا من العلم عبادة ، وعكفوا على دراسته تقربا الى الله سبحانه وتعالى .

وما كان علم الكتب هو غايتهم الأخيرة ، وانما — مع علم الكتب — كان طموحهم الى العلم الوهبى :

العلم الذى يمنحه الله لبعض عباده ، العلم الذى سافر

موسى عليه السلام سفرة شاقة مجهدة ليلتقى فى نهايتها مع عبد من عباد الله تعالى علمه الله من لدنه علما .

يقول سبحانه عن موسى وفتاه :

« فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما »

وهو علم يمنحه الله لمن حقق له العبودية .

ولأن هذا العلم ــ وهو مطمحهم الأخير ــ لا يتأتى الا باخلاص العبودية لله ، ولأن اخلاص العبودية لله لايتأتى الا بأن يكون الاستغراق فى العمل : صلاة وذكرا وصياما .. من الأسس الجوهرية فى حياة الانسان : فانهم اتجهوا فى صورة موفقة الى العمل .

لقد أخذوا الكتاب بقوة ، وكانوا أتقياء : فأفاض الله عليهم من الهاماته ، واتسم مادونوه بطابع الروحانية ، واتسم بالنضرة، وكان طابعه أنه يزكو على مر الزمن . ويظهر ذلك أبلغ ما يظهر فيما ورد من آثار عن ابراهيم بن أدهم . والصورة الحية المثالية لثمار الهاماتهم هى كتاب احياء علوم الدين لحجة الاسلام وكتاب الحكم لابن عطاء الله .

ولقد كان لكتبهم الأثر الكبير الواضح فى الهداية على مر العصور .

وقد يتساءل قوم : وماذا عن العمل والضرب فى الأرض واكتساب الرزق ؟

وابتـدىء فى هـذا الموضـوع بذكر بعض ألقـاب الصـوفية :

القصار ، الوراق ، الخراز ، الخواص ، البزاز ، الحلاج ، الزجاجى ، الحصرى ، الصيرفى ، المقرىء ، الفراء .

وهذه ألقاب مأخوذة من مهن كانت لهم .

ولقد كان الصوفية كغـيرهم ، منهم الفقـير ومنهم الغنى ، ومنهم العازف عن الثراء العريض ، ومنهم أصحاب الثـروات الضخمة، التى يؤدون فيها حق الله ، وينفقون منها فى سبيله، انهم يؤتون حق المال يوم حصاده : وفى أموالهم حق معلوم للسـائل والمحروم .

وهذا مثلا أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه ، وهو من صفوة الصفوة الصوفية ، كانت له مزارع .

ونقول « مزارع » بالجمع لنتابع فى هذا التعبير حـديث المؤرخين عنه وكان له حصـاد ، ودراس .. وكانت له ثيران .. وكان يتاجر ..

ومن دعائه المشـــهور :

« اللهم وسع على رزقى فى دنياى ، ولا تحجبنى بهـا عن أخـراى » .

ومن دعائه بشأن الدنيا :

« اللهم اجعلها فى أيدينا ، ولا تجعلها فى قلوبنا »

والفـرق بين الصـوفية وغـيرهم فى هـذا هو أن الدنيا لا تستعبدهم ، وانما تستعبد غيرهم ..

انهم لا يلقون بقيادهم الا لله سبحانه وتعالى ، فلا يلقـون بقيادهم الى مال ، أو جاه ، أو منصب ، أو رياسة ، أو غير ذلك مما يذل له أهل الدنيا ، وأهل الأهواء ، الذين يتخذون دنياهم، وأهواءهم آلهة يعبدونها من دون الله .

انهم أغنياء أو فقراء قد تحققوا بقوله تعـالى :

« لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم »

وابن عطاء الله السكندرى يقص فى كتابه الجميل : «لطائف المنن» قصة ثرى صوفى تحقق بالآية القرآنية الكريمة فلم يمنعه ثراؤه الضخم العريض أن يكون صوفيا .

يقول ابن عطاء الله :

« قال بعض المشايخ كان رجل بالمغــرب من الزاهدين فى الدنيا ومن أهل الجد والاجتهاد ، وكان عيشه مما يصيده من البحر ، وكان الذى يصيده يتصدق ببعضه ويتقوت ببعضــه ، فأراد بعض أصحاب هــذا الشيخ أن يســافر الى بلد من بلاد المغرب ، فقال له هذا الشيخ :

اذا دخلت الى بلد كذا فاذهب الى أخى فلان ، فاقرئه منى الســلام ، وتطلب الدعاء منــه لى فانه ولى من أوليــاء الله تعــالى .

قال : فســافرت حتى قدمت تلك البلدة فسألت عن ذلك الرجل فدللت على دار لاتصــلح الا للملوك فتعجبت من ذلك وطلبته فقيل لى : هو عند السلطان ، فازداد تعجبى ، فبعــد ساعة واذا هو آتى فى أفخر ملبس ومركب ، وكأنما هــو ملك فى موكبه .

قال : فازداد تعجبى أكثر من الأول .

قال : فهممت بالرجوع وعــدم الاجتمــاع به ، ثم قلت : لا يمكننى مخالفة الشيخ .

فاستأذنت فأذن لى ، فلما دخلت رأيت ما هالنى من العبيد

والخـدم والشـارة الحسـنة ، فقلت له : أخوك فلان يسلم عليـك .

قال : جئت من عنده ؟

قلت : نعم . قال : اذا رجعت اليـه قل له :

الى كم اشتغالك بالدنيا ؟ والى كم اقبالك عليها ؟ والى متى لاتنقطع رغبتك فيها ؟

فقلت : هذا والله أعجب من الأول ، فلما رجعت الى الشيخ، قال :

اجتمعت بأخى فلان ؟

قلت : نعم .

قال : فما الذى قال لك ؟

قلت : لا شيء .

قال : لابد أن تقول لى ؟

فأعدت عليه ما قال ، فبكى طويلا وقال : صدق أخى فلان، هو غسل الله قلبه من الدنيا وجعلها فى يده وعلى ظاهره ، وأنا أخذها من يدى وعندى اليها بقايا التطلع » . ا هـ

وفى نهاية هذه الكلمة نورد صورة لشخصية صوفية متكاملة

وان كانت مشهورة نوردها عن الطبقـات الكبرى للشـعرانى فى اختصـار .

يقول الامام الشعرانى ـ عن هذه الشخصية الصوفية ـ رضى الله عنه :

« ومنهم شيخنا وقدوتنا الى الله تعالى : الامام الصـالح الورع الزاهـد : شـمس الدين الديروطى ، ثم الدميـاطى ، الواعظ ..

كان فى الجامع الأزهر أيام السلطان قانصوه الغورى ، وكان رضى الله عنه ، مهابا عند الملوك والأمراء ومن دونهم ، زاهدا ورعا مجاهدا صائما قائما ، آمرا بالمعروف ، ناهيا عن المنكر .. وقد حضرت مجلس وعظه فى الجامع الأزهـر مرات ، فرأيتـه مجلسا تفيض فيه العيون ، وكان اذا تكلم أنصتوا بأجمعهم .. وكان يحضرها أكابر الدولة ، وأمراء الألوف ، فكان كل واحد يقوم من مجلسه ، متخشعا ، صغيرا ، ذليلا .. رضى الله عنه ..

وكان اذا مر فى شوارع مصر ، يتزاحم الناس على رؤيته، وكان من لم يحصل ثوبه ، رمى بردائه من بعيد على ثيابه ، ثم يأخذ رداءه فيمسح به على وجهه رضى الله عنه .

حط مرة على السلطان الغورى فى ترك الجهاد ، فأرسل السلطان خلفه ، فلما وصل الى مجلسه ، قال للسلطان : السلام

عليكم ورحمة الله وبركاته .. فلم يرد عليه .. فقال : ان لم ترد السلام فسقت وعزلت .. فقال : وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته .. ثم قال :

« علام تحط علينا بين الناس فى ترك الجهاد ، وليس لنا مراكب نجاهد فيها ؟ . فقال : عندك المال الذى تعمر به .. فطال بينهما الكلام : فقال الشيخ للسلطان :

« قد نسيت نعم الله عليك ، وقابلتها بالعصيان .. أما تذكر حين كنت نصرانيا ثم أسروك وباعوك من يد الى يد .. ثم من الله عليك بالحرية والاسلام .. ورقاك الى أن صرت سلطانا على الخلق .. وعن قريب يأتيك المرض الذى لاينجع فيه طب، ثم تموت وتكفن ، ويحفرون لك قبرا مظلما ، ثم يدس أنفك هذا فى التراب ، ثم تبعث عريانا عطشانا جوعانا .. ثم توقف بين يدى الحكم العدل ، الذى لايظلم مثقال ذرة .. ثم ينادى المنادون : من كان له حق أو مظلمة على الغورى فليحضر ، فيحضر خلائق لايعلم عدتها الا الله تعالى .. فتغير وجه السلطان من كلامه ، فقال كاتب السر وجماعة السلطان : « الفاتحة : يا سيدى الشيخ خوفا على السلطان ، أن يختل عقله ، فلما ولى الشيخ وأفاق السلطان ، قال :

« ائتونى بالشيخ : فعرض عليه عشرة آلاف دينار ، يستعين بها على بناء البرج الذى فى دمياط .. فردها عليه .. وقال : أنا

رجل ذو مال لا أحتاج الى مساعدة أحد .. ولكن ان كنت أنت محتاجا أقرضتك وصبرت عليك .. فما رؤى أعز من الشيخ فى ذلك المجلس ولا أذل من السلطان فيه .. هكذا كان العلماء العاملون ، وقد صرف على عمارة البرج بدمياط نحو أربعين ألف دينار ، ولم يساعده فيها أحد .. انما كان يعقد الأشربة ، ويتاجر فى الخيار شنبر ونحوه — رضى الله عنه — ولم يأخذ قط معلوم وظيفة من وظائف الفقهاء .. وكان ينفر طلبته من أكل أوقاف الناس وقبول صدقاتهم ، ويخبرهم أنها تسود وجه قلوبهم — رضى الله عنه — ..

وله مصنفات : منها شرح منهاج النووى فى الفقه ، وشرح الستين مسألة ، وكتاب القاموس فى الفقه ، وشرح قطعة من الارشاد لابن المقرى رضى الله عنه ..

وكان متواضعا مع من قرأ عليهم القرآن وهو صغير ، ولم يصده ما وصل اليه من العلوم والمعارف والشهرة عن ذلك ..

ولقد رأيته مرة راكبا فنزل وقبل يد أعمى ، تقوده ابنته فقلت له : من هذا ؟ .. فقال :

هذا أقرأنى وأنا صغير جزئين من القرآن — رضى الله عنه — فما أقدر قط أن أمر عليه وأنا راكب ..

توفى رضى الله عنه فى ربيع الأول سنة احدى وعشرين

وتسعمائة وله من العمر نيف وخمسون سنة رضى الله عنه ودفن بزاويته بدمياط ، ودفن عنده الأخ العزيز العـارف بالله تعـالى سيدى أبو العباس الحريثى رضى الله عنه .

وبعد : فلعلنا قد أزلنا بهذه المقدمة ـ التى كان من الممكن أن تستفيض فتصير كتابا ـ بعض الشبه التى تحوم حـول الصوفية بسبب الجهل بهم ، وجهدنا للتعريف بالامام ابراهيم بن أدهم رحمه الله ورضى عنه .

والله الهادى الى الصواب .

« ومن يعتصم بالله فقد هدى الى صراط مستقيم »

د . عبد الحليم محمود

الفصل الأول

حياته

حياته

لقد هيأ الله سبحانه لابراهيم بن أدهم خادما صوفيا هـو ابراهيم بن بشار .. وكان ابراهيم بن بشار هذا نابها ذكيـا طلعة ، فكان يحب باستمرار أن يستفيد من ابن أدهم الكثير من الفوائد ، وكان يسأله العديد من الأسئلة .. واننا لنـدين لابن بشار بالكثير من المعلومات عن ابراهيم بن أدهم ..

وتخير ابراهيم بن بشار لحظة مناسبة ليسأل ابراهيم بن أدهم عن حياته ، وهو يحدث عن ذلك فيقول :

قلت : يا أبا اسحاق ، كيف كان أوائل أمرك حتى صرت الى ما صرت اليه ؟ وما كان ابراهيم بن أدهم يحب أن يتحـدث عن نفسه .. انه كان صوفيا أصيلا ، والصـوفى الأصيل يحب دائما أن يكون بعيدا عن « أنا » .. والصوفى الأصيل يبتعـد بقدر استطاعته عن الحديث الشخصى عن نفسـه .. ان ذلك

يجره الى البشرية المادية الحسية ، الى النفس ، الى الشخصية الفردية .. وذلك خروج من الجو الالهى : جو الاطلاق .. أو بتعبير أدق ، جو الفناء فى الله .. حيث تنمحى ارادته فى ارادة الله ، وحيث يسترسل مع الله على ما يحب ، وحيث العبودية الخالصة التى لا وجود لها — أو ينبغى أن تعتبر أن لا وجود لها — مع الرب جل وعلا .. أرأيت محبا مصادقا له شخصية مع محبوبه ؟ ..

أرأيت عابدا مخلصا له ارادة مع ارادة معبوده ؟..

أرأيت عبدا صادق العبودية له ظهور بجوار سيده ؟ ..

لقد وصل الأمر بالامام الشبلى — رضوان الله عليه — أنه سئل : لم سميت الصوفية بهذا الاسم ؟.. فقال : لبقية بقيت فيهم من نفوسهم ، ولولا ذلك لما تعلقت بهم الأسماء ..

ان الامام الشبلى حينما سئل هذا السؤال ، لم يأخذ فى مناقشة الاشتقاق ، أو الحديث عن النسبة .. ولم يذهب فى السؤال المذاهب المعتادة من أن أصل الكلمة كذا أو كذا ، أو أنها تنسب الى كذا أو كذا .. وانما تحدث بالصورة العميقة التى تليق بمكانته .. وكأنه يقول للسائل : انها مهازل صبيانية، أن يقف الانسان عند الاسم ، مناقشا فى نسبته أو أصله ، وانما الجدير بالعناية هو التوجيه الرشيد .. وأول خطوة فى هذا

التوجيه الرشيد هي تنبيه السالكين الى الله ، أن التخلص من أهواء النفس وشهواتها ، ونزعاتها ونزعاتها ، من صميم التصوف والتخلص من النفس فناء فى الله .. والتخلص من النفس تخلص من التاريخ الشخصى ، أو تخلص من « أنا » ..

ولكل هذه المعانى ، نفر ابراهيم بن أدهم من سؤال ابراهيم ابن بشار ، وقال له :

غير ذا أولى بك ..

ولكن ابراهيم بن بشار ، وهو لم يكن قد وصل بعـد الى آفاق ابراهيم بن أدهم الصوفية السامية ، عاد فقال له :

يا أبا اسحاق ، ان رأيت ..

فقال له :

ويحك ، اشتغل بالله ..

فقال ابراهيم بن بشار :

كل ما قلته حق ، رحمك الله .. ولكن أخبرنى ، لعل الله ينفعنا به يوما ..

وحينما ذكر ابراهيم بن بشار النفع ، مشيرا الى :

« لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب » ..

تغير الموقف ، وأصبح الأمر ليس أمر حـديث شخصى .. وانما هى قصة للهداية ، وللعبرة ، والعظة ..

وحينما يقصها ابراهيم بن أدهم ، فانه لا يقصها على أنهـا تاريخه الشخصى ، وانما على أنها عبرة وعظة ..

وبدأ ابراهيم بن أدهم يقول :

« كان أبى من أهل بلخ ، وكان من ملوك خراسان ، وكان من المياسير .. وحبب اليـنـا الصـيد فخرجت راكبا فرسى ، وكلبى معى .. فبينما أنا كذلك ثار أرنب أو ثعلب ، فحـركت فرسى .. فسمعت نداء من ورائى :

ليس لذا خلقت ، ولا بذا أمرت ..

فوقفت أنظر يمنة ويسرة ، فلم أر أحـدا .. فقلت : لعن الله ابليس .. ثم حركت فرسى ، فأسمع نداء أجهر من ذلك :

يا ابراهيم : ليس لذا خلقت ، ولا بذا أمرت ..

فوقفت أنظر يمنة ويسرة ، فلا أرى أحدا .. فقلت :

لعن الله ابليس ، ثم حركت فرسى ، فأسمع نداء من قربوس سرجى : يا ابراهيم ! ما لذا خلقت ، ولا بذا أمرت ..

فوقفت فقلت : أنبهت ، أنبهت .. جـاءنى نـذير من رب العالمين ، والله لا عصيت الله بعد يومى ذا ما عصمنى ربى . .

فرجعت الى أهلى ، فخليت عن فرسى ، ثم جئت الى راع لأبى، فأخذت منه جبة وكساء ، وألقيت ثيابى اليه ، ثم أقبلت الى العراق .. أرض ترفعنى ، وأرض تضعنى ، حتى وصلت الى العراق ، فعملت بها أياما فلم يصف لى منها شيء من الحـلال فسألت بعض المشايخ عن الحلال ، فقالوا لى :

اذا أردت الحلال فعليك ببلاد الشام ..

فصرت الى بلاد الشام، فصرت الى مدينة يقال لها المنصورة ــ هى المصـيصة ــ فعملت بها أياما ، فلم يصف لى شيء من الحلال .. فسألت بعض المشايخ ، فقالوا لى :

ان أردت الحلال الصـافى فعليك بطرسـوس ، فان فيها المباحات والعمل الكثير ..

فتوجهت الى طرسوس ، فعملت بها أياما ، أنظر البساتين، وأحصد الحصاد .. فبينا أنا قاعد على باب البحر .. اذ جاءنى رجل ، فألح على أن أنظر بستانه ، فكنت فى بساتين كثيرة ــ فاذا أنا بصاحب البستان قد أقبل ومعـه أصـحابه ، فقعد فى مجلسه ، ثم صـاح :

ياناظـور ..

فقلت : هو ذا أنا ..

قال : اذهب فأتنا بأكبر رمان تقدر عليه وأطيبه .. فذهبت

فأتيته بأكبر رمان .. فأخذ رمانة فكسرها ، فوجدها حامضة.. فقـــال :

ياناطور : أنت فى بستاننا منذ كذا وكذا ، تأكل فاكهتنا ، وتأكل رماننا ، لاتعرف الحلو من الحامض ؟.. قال ابراهيم :

قلت : والله ، ما أكلت من فاكهتكم شيئا ، وما أعرف الحلو من الحامض .

فأشار الى أصحابه ، فقال :

أما تسمعون كلام هذا ؟ ثم قال :

أتراك لو أنك ابراهيم بن أدهم ما زاد على هذا ..

فانصرف ، .. فلما كان من الغد ذكر صفتى فى المســجد، فعرفنى بعض الناس ، فجاء ومعه عنق من الناس .. فلما رأيته قد أقبل مع أصحابه اختفيت خلف الشجر ، والناس داخلون.. فاختلطت معهم وهم داخلون ، وأنا هارب ..

فهذا كان أوائل أمرى ، وخروجى من طرسوس الى بلاد الرمال ..

وروى يونس بن سليمان البلخى ، عن ابراهيم بن أدهم، وزاد فى هذه القصة :

اذا هو على فرسه يركضه ، اذ سمع صوتا من فوقه :

يا ابراهيم ! ما هذا العبث :

« أفحسبتم انما خلقناكم عبثا ، وأنكم الينا لا ترجعون »

اتق الله ، وعليك بالزاد ليوم الفاقة .. فنزل عن دابته ، ورفض الدنيا ، وأخذ فى عمل الآخرة ..

وبعض هذه القصة يروى بالصورة التالية :

عن داود بن الجراح قال :

« كان ابراهيم بن أدهم ينظر كرما فى كورة غزة ، فجاءه صاحب الكرم ومعه أصحابه ، فقال : ايتنا بعنب نأكله ، فأتاه بعنب يقال له الخافونى .. فاذا هو حامض .. فقال له صاحب الكرم :

من هذا تأكل ؟.. قال : ما آكل من هذا ولا من غيره ..

قال : لم ؟ .. قال : لأنك لم تجد لى شيئا من العنب .

قال : فأتنى برمان .. فأتاه برمان ، فاذا هو حامض .. فقال:

من هذا تأكل ؟.. قال : لا آكل من هذا ولا من غيره ، ولكن رأيته أحمر حسنا فظننت أنه حلو .. فقال :

لو كنت ابراهيم بن أدهم ماعدا ..

قال : فلما علم أنهم عرفوه هرب منهم ، وترك كراه — أى أجره ..

وصورة حياة ابراهيم بن أدهم تزداد وضــوحا بالنبأ الذى يرويه عباس بن الفضل المرعشى قال : لقيت عبد العزيز بن أبى رواد .. فتذاكرنا أمر ابراهيم بن أدهم ، فقال عبد العزيز :

« رحم الله ابراهيم بن أدهم .. لقـــد رأيته بخراسان ، اذا ركب حضر بين يديه نحو من عشرين شاكريا ، ولكنه ـــ رحمــه الله ـــ طلب بحبوحة الجنة ..

ترك ابراهيم بن أدهم حياة الترف والنعيم والأهواء ، وطلب بحبوحة الجنة .. ولكنه لم يســتقر فى مكان .. وانما كان دائم التنقل ، وربما سافر من بلد الى بلد آخر ، ثم عاد من جــديد الى البلد الذى تركه .. وربما دخل بلدا فلم يهنأ بالعيش فيه ، ثم عاد اليه فنعم فيه بالحلال ، كما حصل له بالنســبة الى بلاد الشــام ..

ويصور لنا تنقلاته المستمرة ، ما رواه شقيق البلخى قال :

« لقيت ابراهيم بن أدهم فى بلاد الشام ، فقلت :

يا ابراهيم : تركت خراسان ؟ ..

فقال :

ما تهنيت بالعيش الا فى بلاد الشام ، أفر بدينى من شاهق الى شاهق ، ومن جبل الى جبل .. فمن يرانى يقول : موسوس، ومن يرانى يقول : هو حمال .. ثم قال لى :

يا شقيق ! .. لم ينبل عدنا من نبل الا بتحرى الحلال ، وألا يدخل جوفه شيء الا من حله ..

ثم قال :

يا شقيق ! .. اذا أنعم الله على الفقراء لا يسألهم يوم القيامة لا عن زكاة ، ولا عن حج ، ولا عن جهاد ، ولا عن صلة رحم .. انما يسأل هؤلاء المساكين — يعنى الأغنياء ..

وتحرى ابراهيم بن أدهم للحلال ، يذكرنا بقصة سعد رضى الله عنه ، مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما روى عن ابن عباس قال :

« تليت هذه الآية عند النبى صلى الله عليه وسلم :
(يا أيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيبا)
فقام سعد بن أبى وقاص ، فقال :

يا رسول الله ! .. ادع الله أن يجعلنى مستجاب الدعوة ، فقال : يا سعد ! .. أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة .. والذى نفس محمد بيده ان الرجل ليقذف اللقمة الحرام فى جوفه ، ما يتقبل منه أربعين يوما .. وأيما عبد نبت لحمه من السحت والربا فالنار أولى به » ..

ولقد كان ابراهيم بن أدهم من أشد الناس تحريا للحلال .. يقول أحد أصدقائه :

« وكان ابراهيم بن أدهم كبير الشأن فى باب الورع ، يحكى عنه أنه قال : « اطب مطعمك ، ولا حرج عليك أن لا تقوم الليل ، ولا تصوم النهار » ..

ومن أجل الحلال ، ومن أجل الورع سيطر ابراهيم بن أدهم على نفسه فأصبحت لا تشتهى الا ما يكون فى دائرة الحلال الميسور ، لقد قيل له : ان اللحم قد غلا ، فقال : أرخصوه .. وأنشد فى ذلك :

واذا غلا شىء على تركته

فيكون أرخص ما يكون اذا غلا

لقد غالب ابراهيم بن أدهم أهواءه حتى تغلب عليها ، مستعينا بالله ، مستكفيا اياه .. يقول ابراهيم بن بشار : سمعت ابراهيم بن أدهم يقول :

« وأما أهوائى فقد — والله — استعنت بالله عليها فأعاننى ، واستكفيته سوء مغالبتها فكفانى ، فوالله ما آسى على ما أقبل من الدنيا ولا ما أدبر منها » ..

ولكن سيطرته على نفسه لم تكن من السهولة بمكان ، وهذا طبيعى .. فانه لا يتغلب على نفسه فيسلس له قيادها ، الا من هدى الله وعصم ..

وابراهيم بن بشار يقول :

« سمعت ابراهيم بن أدهم يقول :

« أشد الجهاد جهاد الهوى ، من منع نفسه هواها فقد استراح من الدنيا وبلائها ، وكان محفوظا ومعافى من أذاها ..

أخذ ابراهيم بن أدهم يضرب فى الأرض ، حارسا للبساتين ، أو حاصدا للزرع .. وهو فى كل ذلك لا يفتر عن ذكر الله .. يقول على بن بكار :

كان الحصاد أحب الى ابراهيم من اللقاط ، وكان سليمان الخواص لا يرى باللقاط بأسا ويلقط ، وكانت أسنانهما قريبة ، وكان ابراهيم أفقه ، وكان من العرب ، من بنى عجل ، كريم الحسب ، وكان اذا عمل ارتجز ، وقال :

اتخذ الله صاحبا ودع الناس جانبا

وكان يلبس فى الشتاء فروا ليس تحته قميص ، ولم يكن يلبس خفين ولا عمامة .. وفى الصيف شقتين بأربعة دراهم ، يتزر بواحدة ويرتدى بأخرى ، يصوم فى السفر والحضر ، ولا ينام الليل .. وكان يتفكر ، فاذا فرغ من الحصاد أرسل بعض أصحابه ، فحاسب صاحب الزرع ، ويجىء بالدراهم لا يمسها بيده ، فيقول لأصحابه : اذهبوا كلوا بها شهواتكم ، فان لم يكن حصاد أجر نفسه فى حفظ البساتين والمزارع ، وكان يجلس فيطحن بيد واحدة مدى قمح .. قال ابراهيم :

يعنى قفيزين ..

ولابد لنا من وقفة مع تجربة ابراهيم بن أدهم النفسية :

لقد بدأ ابراهيم بن أدهم حياته فى ترف من العيش ، وفى نعيم من الدنيا : فقد كان والده من المياسير ، بل كان من بيت الملك ..

ونشـأ ابراهيم لذلك محاطا بكل أنواع الرعاية ، وانغمس ابراهيم فى كل ما تتيحه بيئته المترفة من ملاذ .. لقد عب منهـا ونهل ..

وفى لحظات ، لا تعد بالشهور ولا بالأيام بل ولا بالساعات. فى لحظات — تعد بالدقائق — انقلب ابراهيم — فجأة — من شاب مفتون بالدنيا ، قد تهيأله الشباب والفراغ والثراء ، فركض فى ميادين المتعة ، الى شاب يتجه بكل كيانه الى الله سـبحانه ، و يصبح ما بين طرفة عين وانتباهتها من أولياء الله .. يقول صاحب « طبقات الصوفية » عن ذلك :

« كان من أبناء الملوك والمياسير ، خرج متصيدا ، فهتف به هاتف أيقظه من غفلته ، فترك طريقته فى التزين بالدنيا ، ورجع الى طريقة أهل الزهد والورع .. كيف حدث هذا الانقلاب ؟ .. لقد حدث عنه ابراهيم بن بشار خادمه كما سـبق أن ذكرنا ..

ومسـألة تحول ابراهيم بن أدهم من حال الى حال مسـألة لها نظائرها فى التاريخ ..

فها هو ذا ـــ مثلا ـــ سـيدنا عمر ـــ رضى الله عنـه ـــ ذاهب لقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ليقضى على الاسلام ويزيله من الوجود ـــ فيما توهم ـــ فاذا بهداية الله تغمره فى لحظات ، فيتحول من جاهلية الى اسلام ..

وقد يظن بعض الناس أنه تحول مفاجىء فى الظاهر والباطن ، ولكن اذا تأملنا الظروف والملابسات ، رأينا أنه تحول مفاجىء واقعيا ، ولكنه تحول سبقته عوامل لا شعورية ، وبواعث عدة ، تتفق كلها فى توجيه الانسان وجهة الخير التى أحبها الله له ..

ان المادة والملاذ والشهوات لا تنتهى بالانسان الى الرضـا والطمأنينة والهدوء النفسى والسكينة .. كلا ..

وكثير من هؤلاء الذين ينغمسون فيها : كثيرا ما يكونون من أتعس خلق الله ، أرأيت الى هاتيك الممثـلات الجميـلات الثريات ، اللواتى ينغمسن فى الشـهوات والمـلاذ من مفرق رءوسهن الى أخمص أقدامهن ؟ ..

ألم تسمع أن هذه أو تلك قد انتحرت يائسة من أن تجـد سكينة النفس ؟ انهن الشقيات ، انهن اللواتى لم يرد الله لهن حسن الخاتمة ..

ولكن من بين المنغمسات فى الملاذ ، من أراد الله بهن حسن الخاتمة ، فانتفضن انتفاضة وضعتهن فى لحظات فى مرتبة القديسات ..

ولعل القارىء قد سمع عن : « مريم المجدلية » التى انتفضت هذه الانتفاضة ، وذهبت الى المسيح عليه السلام ، فغسلت رجليه بالدموع ، ومسحتهما بشعر رأسها ، ولم تكف عن تقبيلهما ودهنهما بالطيب .. وغفر الله خطاياها على لسان السيد المسيح عليه السلام ، الذى وازن بينها وبين « سمعان » فرجحت كفتها ..

وهل قرأت قصة « تاييس » التى كتبها « أناتول فرانس » فى أسلوب ساحر ، وفى تعبير عن الجوانب النفسية أدق ما يكون التعبير ..

انها اتجهت الى الله بكل كيانها ، فتقبلها فى رحابه ، وغفر لها ماضيها الآثم ، وماتت قديسة ..

ان الانتفاضات الدينية الروحية التى تنتشل الانسان فجأة من حياة اللهو والاثم كثيرة فى مجرى التاريخ ..

وما انتفاضة ابراهيم بن أدهم الا واحدة من عشرات أو مئات .. ان الرضا الحقيقى لا يكون ثمرة الملاذ .. والسعادة ليست نتيجة اللهو والعبث .. وان كل من منحه الله عنصر الخيرية

فى طبيعته لابد له من انتفاضة تنتشله من جو البعد عن الله الى جو القرب منه ..

هذه الانتفاضة لها مقدماتها وبواعثها ، وأسبابها وعواملهـا الكثيرة التى تكون انتباهة عابرة ، أو عدم ارتياح الى ما هـو فيه ، أو عدم اقتناع بأن حياته تمثل الحياة المثلى ، أو عدم رضا عن آلية حياته ..

ولقد كان ابراهيم بن أدهم — قبل توبته — يتجه الى الله من حين الى حين .. يتجه اليه وهو فى غمرة من ملذاته .. يتجه اليه فى رجاء ويقول :

« اللهم انقلنى من ذل معصيتك الى عز طاعتك » ..

هذه هى انتفاضة ابراهيم بن أدهم ، وهى انتفاضة كل من أحب الله لهم الخير والهداية .. أما الذين نضب معين النور من قلوبهم ، بسبب آثامهم ومعـاصيهم .. وأما الذين أطاحت بهم الخطيئة لكثرة ما اجترحوا من السـيئات ، فانهم ينتحرون فى غمرة من مقت الله ، أو يستمرون فى شرهم الى أن تنتهى بهم الحياة ..

« فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام »

« ومن يعتصم بالله فقد هدى الى صراط مستقيم »..

سياحاته :

لقد كان شيخنا — رضوان الله عليه — كثير السياحة .. لقد كان ينتقل من مكان الى مكان .. كان ينتقل من أجل طلب الرزق الحلال ، وكان ينتقل من أجل طلب العلم ، وكان ينتقل متعبدا ، وكان ينتقل ابتعادا عن الشهرة — أى ينتقل من مكان اشتهر فيه الى مكان آخر لا يعرف فيه ..

والسياحة كانت دائما من منهج الصوفية لكل هذه الأغراض التى ذكرناها .. وكلمة السياحة اذا كانت قد مسخت الآن ، وأصبحت لا تكاد تدل الا على العبث والاستهتار ، فانها فى الجو الاسلامى لها معناها الشريف الصادق ..

ان الله سبحانه وتعالى يصف بها المؤمنين الصادقين فيما وصفهم به من كريم الصفات ، فيقول :

« التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر ، والحافظون لحدود الله ، وبشر المؤمنين » ..

ويصف بها المؤمنات الصادقات اللائى يمثلن المثل الأعلى لزوجات الرسول صلى الله عليه وسلم فيقول :

(عسى ربه ان طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن ،

مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكارا) ..

وكانت كلمة السياحة تعنى أحد أمرين :

كانت تعنى السياحة فى طلب العلم : وذلك أن الأمة الاسلامية — وهى أمة واحدة — قد توزعت الاختصاصات فى فنون العلم المختلفة بين أرجائها .. فأكبر عالم متخصص فى الحديث مثلا كان بالمدينة ، وأكبر عالم فى الفقه كان فى مكة ، وأكبر عالم فى التوحيد كان فى مصر أو فى بغداد .. وهكذا ..

فكان الصوفية يسيحون طلبا للعلم فى مختلف الأقطار .. ومن الروايات المشهورة ، أن يسافر عالم من دمشق الى القاهرة فى طلب حديث واحد .. وهذه الأسفار فى طلب العلم يطلقون عليها هجرة فى سبيل الله ..

والمهاجرون طلبا للعلم ، من الصوفية ومن غيرهم لا يكاد يحصيهم العد .. وكم ألف هؤلاء المهاجرون من الكتب بجوار الكعبة ، فكانت مؤلفاتهم فتحا ، وكانت فتوحات ..

وكم ألفوا من الكتب بالمدينة المنورة ، فكانت مؤلفاتهم نورا ، وكانت أنوارا ..

وكانت كلمة السياحة — أيضا — تعنى السفر تعبدا ، وان السفر لمن أهم الوسائل التى تدعو الى التأمل والعظة والتفكر ،

والى الخلوة مع الله فى بيئة لا تعرف الانسان فلا تشغله عن عبادته ..

وكان الصوفية يكثرون من هذا النوع من السياحة ، وكانوا يقومون بها على شواطىء الأنهار ، أو فى الصحراء على مشارف العمران ، وكانوا يقصون الأقاصيص المختلفة التى رأوها أو حدثت لهم أثناء أسفارهم ، والتى يكون فيها العظة والعبرة للآخرين ..

بيد أن أسفار ابراهيم بن أدهم لم تكن من أجل هذه الأهداف التى ذكرناها فحسب ، وانما كانت أيضا من أجل الجهاد فى سبيل الله .. وسنتحدث عن هذا فيما بعد ان شاء الله .

***

لقد ترك ابراهيم بن أدهم حياة النعيم وحياة الترف من أجل العبادة ، ولم تشغله حراسة البساتين أو حصاد الزرع عن الاستغراق فى العبادة .. يقول مخلد بن الحسين :

« ما انتبهت من الليل الا أصبت ابراهيم بن أدهم يذكر الله ، فأغتم ، ثم أتعزى بهذه الآية : (ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء) » ..

بيد أن الطابع الذى كان يسود عبادته انما هو التفكر ..

يقول يوسف بن سعيد بن مسلم : قلت لعلي بن بكار : « كان ابراهيم بن أدهم كثير الصلاة ؟

قال : لا ، ولكنه صاحب تفكر يجلس ليلة يتفكر » .

.. وابراهيم في هذا يساير الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية قال تعالى :

« ان فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب .. الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك » (١) ..

ويقول :

« قل انظروا ماذا فى السماوات والأرض » (٢) .

ويقول :

« أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج ، والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب .. ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد .. والنخل

---

(١) آل عمران : ١٩٠ ـ ١٩١
(٢) يونس : ١٠١

باسقات لها طلع نضيد .. رزقا للعباد وأحيينابه بلدة ميتا كذلك الخروج » (١) .

ويقول تعالى :

« أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت ، والى السماء كيف رفعت ، والى الجبـــال كيف نصـــبت ، والى الأرض كيف سطحت » (٢) ؟ ..

ولما نزل قوله تعـــالى : « ان فى خلق الســـماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب » الآيات .. ، بكى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرآه بلال فقال : يا رسول الله تبكى وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ ..

فقال :

يا بلال ، أفلا أكون عبدا شكورا .. ؟ .. وما لى لا أبكى وقد نزل على الليلة : « ان فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب — الى قوله — سـبحانك فقنا عذاب النار » .. ثم قال : ويل لمن قرأ هـذه الآيات ولم يتفكر فيها ..

---

(١) ق : ٦ — ١١.
(٢) الغاشية : ١٧ — ٢٠

ومن الآثار فى ذلك ما روى عن الحسن البصرى قال : تفكر ساعة خير من قيام ليلة ، وعن أبى سليمان الدارانى قال : « انى لأخرج من منزلى فما يقع بصرى على شىء الا رأيت لله على فيه نعمة ، ولى فيه عبرة » ..

وقال سفيان بن عيينة :

« الفكرة نور يدخل قلبك » .

وقال بشر بن الحارث :

« لو تفكر الناس فى عظمة الله تعالى لما عصوه » ..

واذا تحدث الكاتبون عن عبادة ابراهيم بن أدهم ، فانه من الأهمية بمكان أن يتحدث الانسان عن نوع من العبادة عنده ، هو من أنفس أنواع العبادات ، وذلك هـو السـخاء ، أو اذا شئت : الصدقة .. يقول مضاء بن عيسى :

« ما فاق ابراهيم بن أدهم أصحابه بصوم ولا صلاة ، ولكن بالصدق والسخاء » ..

ويحدث أحمد بن أبى الحوارى فيقـول : قلت لمروان — وكان مضاء حدثنى قال : « ما فاق ابراهيم بن أدهم الا بالصدق والسخاء .. قال مروان : كان ابراهيم سخيا جدا » ..

ويقول الأوزاعى :

« ليس فى هؤلاء الفقراء أفضل من ابراهيم بن أدهم فانه أسخى القوم » ..

ورغم أن ابراهيم بن أدهم كان يأكل من عمل يده ، فان أجره كان فيه البركة ، وكان العسل والسمن دائما على مائدته ، وكانت مائدته مبذولة لكل وارد من أصحابه . يقول بشر بن المنذر — قاضى المصيصة :

« كنت أرى ابراهيم بن أدهم كأنه أعرابى ، لا يشبع من الخبز والماء ، يابسا ، انما هو جلد على عظم ، لا تراه مجالسا أحدا ، ولا تحدثه حتى يأتى منزله ، فاذا أتى منزله وجلس اليه اخوانه ضاحكهم وباسطهم .. وقال لى بعض أصحابه : ما كان العسل والسمن على مائدته الا شبيها بالحمص المطحون — يعنى الباقلا — يريد أنه كان كثيرا مبذولا كأنه الحمص .

ولم يكن كرمه مبذولا فى بيته فحسب ، وانما كان مبذولا بحسب الظروف .. يروى أحمد بن الفضل العكى قال : سمعت أبى يقول :

« مر ابراهيم بن أدهم بقيسارية وقد تعجل دينارا من الكرم ، فسمع صوت امرأة تصيح فقال : ما لهذه ؟ .. قالوا تلد .. قال : وأى شىء يعمل بالمرأة .. قالوا : يشترى لها طحين

وزيت ولحم وعسل ، فصرف ديناره ، واشترى زنبيلا ، وملأه طحينا ، واشترى زيتا وسمنا وعسلا ولحما ، وحمله على رقبته الى الباب ، وقال : خذوا .. قال : فنظر فاذا هم أفقر بيت فى أهل قيسارية وأعبدهم ..

ومرة أخرى ، كمثل لما كان عليه من الانفاق ، يتحدث عنها شقيق بن ابراهيم ، ويذكرها كتاب الحلية .. يقول شقيق :

« بينما نحن ذات يوم عند ابراهيم ، اذ مر به رجل من الصناع ، فقال ابراهيم : أليس هذا فلانا ؟ .

قيل : نعم .

فقال لرجل : أدركه فقل له ، قال لك ابراهيم : مالك لم تسلم ؟ ..

قال : لا ، والله .. ان امرأتى وضعت ، وليس عندى شيء ، فخرجت شبه المجنون .. فرجعت الى ابراهيم وقلت له ، فقال :

انا لله .. كيف غفلنا عن صاحبنا حتى نزل به الأمر ؟ ..

قال :

يا فلان ، ائت صاحب البستان فاستسلف منه دينارين ، وادخل السوق فاشتر له ما يصلحه بدينار ، وادفع الدينار الآخر اليه .. فدخلت السوق وأوقرت بدينار من كل شيء ، وتوجهت اليه فدقت الباب .. فقالت امرأته :

من هذا ؟ .. قلت : أنا ، أردت فلانا .. قالت ليس هو هنا.

قلت : فمرى بفتح الباب وتنحى ، قال :

ففتحت البـاب ، فأدخلت ما على البعير ، وألقيته فى صحن الدار ، وناولتها الدينار ..

فقالت : على يدى من هذا ؟ ..

قلت : قولى : على يد أخيك ابراهيم بن أدهم .. فقالت : اللهم لا تنس هذا اليوم لابراهيم ..

ويأسف ابراهيم بن أدهم على ذهاب السخاء من الأنفس ، يقول ابراهيم بن بشار :

« سمعت ابراهيم بن أدهم يقول : ذهب السـخاء والكرم والجود والمواساة من لم يواس الناس بماله وطعامه وشرابه ، فليواسـهم ببسـط الوجه والخلق الحسن .. اياكم أن تكون أموالكم سببا فى أن تتكبروا على فقرائكم ، أو سببا فى أن لا تميلوا الى ضعفائكم ، وألا تنبسطوا الى مساكينكم » قال :

وسمعت ابراهيم يقول : قال لقمان لابنه :

« ثلاثة لا يعرفون الا فى ثلاثة مواطن : لا يعرف الحليم الا عنـد الغضب ، ولا الشجاع الا فى الحرب اذا لقى الأقران ، ولا أخاك الا عند حاجتك اليه » ..

واذا سألت الآن عن الطعام الذى كان يتناوله هـذا الذى كان السمن والعسل على مائدته كالحمص ، فهاك ما يقوله أحمد ابن أبى الحوارى فى ذلك :

« قلت لسليمان بن ابى سليمان : بلغنى أنهم تذاكروا طيب الطعام عند ابراهيم بن أدهم ، فقال ابراهيم : ما أحسب أن يكون شىء أطيب من خبز سحق بزيت ، فقال سليمان : كان معه أداته ـــ يعنى الجوع ـــ .. ومعنى قول سليمان : هو أن ابراهيم بن أدهم كان يستمرىء كل طعام ، لأنه ما كان يأكل الا جائعا ، وما دام جائعا فكل طعام فى فمه لذيذ ..

عبادته عن طريق الدعاء

والدعاء مخ العبادة وذلك لأنه مظهر الافتقار والعبودية الى الله سبحانه وتعالى .

يقول الله تعالى :

« يا أيهــا النــاس أنتم الفقراء الى الله ، والله هــو الغنى الحميد » .

وفقرنا الى الله سبحانه ومعرفتنا أنه رحيم رءوف ودود ، من فوائده أن يوجهنا اليه سبحانه بالدعاء ليصرف الأذى ، وليرفع المقت ، وليشفى من المرض ، وليكشف العذاب ..

ولقد وجهنا الله صراحة وفى غير موطن من القرآن الكريم

الى أن نلجأ اليه بالدعاء ، انه تعالى يأمرنا بذلك أمرا .. يقـول تعالى :

« وقال ربكم ادعونى أستجب لكم ،ان الذين يستكبرون عن عبادتى ، سيدخلون جهنم داخرين » .

ويبين الله سبحانه فى صورة من الرحمة الكريمة أنه قريب من الداعى ، ومن كل عبد له :

« واذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداع اذا دعان ، فليستجيبوا لى ، وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون » ..

ويبين سبحانه أنه يجيب المضطر اذا دعاه ، ويكشف السوء :

« أمن يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السـوء ويجعلكم خلفاء الأرض .. ؟ .. أاله مع الله .. ؟ .. قليلا ما تذكرون » ..

والأحاديث القدسية فيما يتعلق بتوجيه الله الى الدعاء ، منها هذا الحديث الشريف الجميـل البالغ الجمـال لفظا ومعنى .. والذى رواه أبو ذر جندب بن جنادة رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم فيما يروى عن الله تبارك وتعالى أنه قال :

« يا عبادى : انى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينـكم محرما فلا تظالموا .. يا عبـادى كلكم ضـال الا من هديتـه فاستهدونى أهدكم .. يا عبادى : كلكم جائع الا من أطعمتـه فاستطعمونى أطعمكم .. يا عبادى : كلكم عار الا من كسـوته

فاستكسونى أكسكم .. يا عبادى : انكم تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب جميعا فاستغفرونى أغفر لكم .. يا عبادى : انكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ، ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى .. يا عبادى : لو أن أولكم وآخركم ، وانسكم وجنكم ، كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ، ما زاد ذلك فى ملكى شيئا ..

يا عبادى : لو أن أولكم وآخركم وانسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكى شيئا ..

يا عبادى : لو أن أولكم وآخركم وانسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد ، فسألونى ، فأعطيت كل انسان مسألته ما نقص ذلك مما عندى الا كما ينقص المخيط اذا أدخل البحر ..

يا عبادى : انما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم اياها، فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن الا نفسه » ..

وحث رسول الله صلى الله عليه وسلم على الدعاء كثيرا فقال :

« ان الله عز وجل يقول :

« أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه اذا دعانى (١) » .

(١) البخارى ومسلم واللفظ له والترمذى والنسائى وابن ماجه

وقال :

« الدعاء هو العبادة : ثم قرأ :

« وقال ربكم ادعونى أستجب لكم ، ان الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين (١) » .

وقال :

« الدعاء سلاح المؤمن ، وعماد الدين ، ونور السماوات والأرض (٢) » .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلجأ الى الله فى كل آونة بالدعاء .. ومجموعة أدعية رسول الله صلى الله عليه وسلم تمثل الأسلوب الجميل والعبودية السامية ، والتوحيد الخالص.

ولقد أبان صلى الله عليه وسلم أن قضاء الله الماضى يلطفه الدعاء ، ويرده الدعاء ، وان الدعاء والقضاء يلتقيان فيتصارعان ويتدافعان الى يوم القيامة .. يقول صلى الله عليه وسلم :

« لا يغنى حذر من قدر .. والدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل .. وان البلاء لينزل فيلقاه الدعاء ، فيعتلجان الى يوم القيامة (٣) » .

---

(١) أبو داود والترمذى واللفظ له وقال حسن صحيح والنسائى وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه والحاكم وقال صحيح الاسناد

(٢) الحاكم وأبو يعلى .

(٣) رواه البزار والطبرانى والحاكم وقال : صحيح الاسناد ..

وليس فى ذلك معارضة للقضاء والتقدير .. لأن الدعاء من القضاء ومن التقدير .. وقد جعله الله سببا لتخفيف البلاء ، وزوال النقم .

واتباعا لهدى القرآن ، وتأسيا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، واظهارا للعبودية الخالصة لله سبحانه ، والتجاء الى الله لكشف السوء صغيرا كان أو كبيرا .. التجأ الصالحون دائما الى الله بالدعاء ..

وعلى هذا النسق سار شيخ الصوفية : ابراهيم بن أدهم .

لقد كان لابراهيم بن أدهم ورد يومى ، يرويه عنه ابراهيم ابن بشار :

كان ابراهيم بن أدهم — حسبما يروى ابن بشار — يقول هذا الكلام فى كل جمعة اذا أصبح عشر مرات ، واذا أمسى يقول مثل ذلك :

« مرحبا بيوم المزيد ، والصبح الجديد ، والكاتب الشهيد .. يومنا هذا يوم عيد ، اكتب لنا فيه ما نقول :

« باسم الله الحميد المجيد ، الرفيع الودود ، الفعال فى خلقه ما يريد .. أصبحت بالله مؤمنا ، وبلقاء الله مصدقا ، وبحجته معترفا ، ومن ذنبى مستغفرا ، ولربوبية الله خاضعا ، ولسوى الله جاحدا ، والى الله تعالى فقيرا ، وعلى الله متوكلا ، والى الله منيبا .. أشهد الله ، وأشهد ملائكته ، وأنبياءه ، ورسله ، وحملة

عرشه ، ومن خلق ، ومن هو خالق ، بأن الله لا اله الا هو وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم . وأن الجنة حق ، والنار حق ، والحوض حق ، والشفاعة حق ، ومنكرا ونكيرا حق ، ولقاءك حق ، ووعدك حق ، والساعة آتية لا ريب فيها ، وان الله يبعث من فى القبور .. على ذلك أحيا ، وعليه أموت ، وعليه أبعث ان شاء الله ..

اللهم أنت ربى لا رب لى الا أنت ، خلقتنى وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت .. أعوذ بك اللهم من شر كل ذي شر ، اللهم اني ظلمت نفسى فاغفر لى ذنوبى ، انه لايغفر الذنوب الا أنت ، واهدنى لأحسن الأخلاق ، فانه لا يهدى لأحسنها الا أنت ، واصرف عنى سيئها فانه لا يصرف سيئها الا أنت .. لبيك وسعديك ، والخير كله بيديك وأنا لك .. أستغفرك وأتوب اليك .. آمنت اللهم بما أرسلت من رسول ، وآمنت اللهم بما أنزلت من كتاب .. صلى الله على محمد وعلى آله وسلم كثيرا خاتم كلامى ومفتاحه .. وعلى أنبيائه ورسله أجمعين .. آمين ، يا رب العالمين ..

اللهم أوردنا حوضه ، واسقنا بكأسه ، مشربا مريا ، سائغا هنيا ، لا نظمأ بعده أبدا ، واحشرنا فى زمرته ، غير خزايى ، ولا ناكبين ، ولا مرتابين ، ولا مفتونين ، ولا مغضوبا علينا ، ولا ضالين ..

اللهم اعصمني من فتن الدنيا ، ووفقني لما تحب من العمل وترضى ، وأصلح لي شأني كله ، وثبتني بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، ولا تضلني وان كنت ظالما .. سبحانك سبحانك .. يا علي يا عظيم ، يا باريء يا رحيم ، يا عزيز يا جبار ، سبحان من سبحت له السماوات بأكنافها ، وسبحان من سبحت له الجبال بأصواتها ، وسبحان من سبحت له البحار بأمواجها ، وسبحان من سبحت له الحيتان بلغاتها ، وسبحان من سبحت له النجوم في السماء بأبراقها ، وسبحان من سبحت له الأشجار بأصولها ونضارتها ، وسبحان من سبحت له السماوات السبع والأرضون السبع ، ومن فيهن ، ومن عليهن ، سبحانك سبحانك يا حي يا حليم ، سبحانك لا اله الا أنت وحدك » .

على أن ابراهيم بن أدهم ، ما كان يكتفي بهذا الدعاء .. وانما كانت له كلمات جميلة هي على لسانه في كل لحظة .. منها مثلا ، ما يخبر به عبد الله الملطي وغيره :

« كان عامة دعاء ابراهيم :

اللهم انقلني من ذل معصيتك الى عز طاعتك » .

وكان لابراهيم بن أدهم دعاء في الشدائد معروف :

لقد كان يتجه الى الله بكيانه كله ، قائلا :

« ياحي حين لاحي ، وياحي قبل كل شيء ، وياحي بعد

كل شيء .. يا حي ، يا قيــوم ، يا محسن ، يا مجمل ... قــد أريتنا قدرتك ، فأرنا عفوك » .

وكان له دعاء للحفظ مجرب .. لقد جربه مثــلا ابراهيم بن بشار وقال :

« انى لأقوله على ثيــابى ونفقتى ، فمــا فقــدت منهــا شيئا » ..

ولقد كان ابراهيم بن أدهم يعلمه لأصحابه ، كان يقــول لهم اذا اجتمعوا :

« ما على أحدكم اذا أصبح واذا أمسى أن يقول :

« اللهم احرسنا بعينك التى لا تنام ، واحفظنا بركنك الذى لا يرام ، وارحمنا بقدرتك علينا ، ولا نهلك وأنت الرجاء »

ويقول خلف ــ كما يروى كتاب الحلية ــ : « فأنا أسافر منذ نيف وخمسين سنة ، فأقولها : لم يأتنى لص قط ، ولم أر الا خيرا » ..

ولقد سئل ابراهيم بن أدهم عن السبب فى أن بعض الناس يدعو فلا يســتجاب له .. ويروى شــفيق البلخى فى ذلك أن ابراهيم بن أدهم مر يوما فى أسواق البصرة ، فاجتمع النــاس اليه ، فقالوا : « يا أبا اسحاق : ان الله تعالى يقول فى كتــابه:

« ادعــونى أســتجب لكم » ونحن ندعوه منذ دهر ، فلا يستجيب لنا ؟ . فقال ابراهيم :

يا أهل البصرة ، ماتت قلوبكم فى عشرة أشياء :

أولها : عرفتم الله ، ولم تؤدوا حقه ..

الثانى : قرأتم كتاب الله ، ولم تعملوا به ..

الثالث : ادعيتم حب رســول الله صلى الله عليــه وسلم ، وتركتم سنته ..

الرابع : ادعيتم عداوة الشيطان ووافقتموه ..

الخامس : قلتم نحب الجنة ولم تعملوا لها ..

السادس : قلتم نخاف النار ، ورهنتم أنفسكم بها ..

السابع : قلتم ان الموت حق ولم تستعدوا له ..

الثامن : اشــتغلتم بعيوب اخــوانكم ونبذتم عيوبكم ..

التاسع : أكلتم نعمة ربكم ، ولم تشكروها ..

العاشر : دفنتم موتاكم ، ولم تعتبروا بهم ..

وقال ابراهيم بن أدهم ، يوما ، لرجل :

« تريد أن تدعو ؟ .. كل الحلال وادع بما شئت » . .

وابراهيم بن أدهم فى هذا يتابع الحديث الشريف ــ فيمــا روى عن ابن عباس قال :

«تليت هذه الآية عند النبى صلى الله عليه وسلم : « ياأيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيبا » .. فقام سعد بن أبى وقاص ، فقال :

يا رسول الله ؟.. ادع الله أن يجعلنى مستجاب الدعوة .. فقال :

يا سعد أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة ، والذى نفس محمد بيده !.. ان الرجل ليقذف اللقمة الحرام فى جوفه، مايتقبل منه أربعين يوما ، وأيما عبد نبت لحمه من السحت فالنار أولى به » ..

وبعد :

فقد كان لابراهيم بن أدهم مناجاة :

« اللهم انى لم آت الذنوب جراءة عليك ولا استخفافا بحقك ، ولكن جرى بذلك قلمك ، ونفذ به حكمك ، والمعذرة اليك .

لقد كان ابراهيم بن أدهم متعبدا ، يغلب عليه طابع التفكير فى خلق السماوات والأرض ، وكان يأكل من عمل يده ، وكان سخيا .. وكل هذا تحدثنا عنه — بيد أننا اذا اقتصرنا على ذلك، فان الصورة التى نقدمها عن ابراهيم بن أدهم تكون ناقصة ..

ومن أجل اتمام هذه الصورة ، فاننا نعود الى أسفاره التى ذرع فيها أرض الله ذهابا وجيئة ، متفكرا ، متأملا ، متعظا واعظا ..

ان الكثير من هذه الأسفار كان متجردا للجهاد فى سبيل الله لقد جاهد ابراهيم بن أدهم فى البر ، وجاهد فى البحر .. يروى صاحب الحلية عن أحمد بن بكار قال :

« غزا معنا ابراهيم بن أدهم غزاتين ، كل واحدة أشد من الأخرى .. غزاة عباس الأنطاكى ، وغزاة محكاف .. فلم يأخذ سهما ولا نفلا (١) ، وكان لا يأكل من متاع الروم ، تجىء بالطرائف والعسل والدجاج ، فلا يأكل منه ويقول : هو حلال ولكنى أزهد فيه .. كان يأكل مما حمل معه ، وكان يصوم .. قال : وغزا على برذون (٢) ثمنه دينار .. وكان له حمار فعارض به ذلك البرذون .. وكان لو أعطيته فرسا من ذهب أو من فضة ما كان قبله ، ولا يقبل شربة من ماء .. وغزا فى البحر غزاتين لم يأخذ سهمه ، ولا يفترض .. قال على : هذا الغازى .. قال على: ومات ابراهيم فى صائفة السفر بالبطن » ..

وعن أشعث بن شعبة قال :

« غزونا غزوة ومعنا ابراهيم بن أدهم ، فأصابتنا مخمصة فى أنفسنا ، وفى دوابنا ، فسمع أهل المصيصة بذلك ، فبعثوا

(١) أى : غنيمة .
(٢) أى : دابة .

بالبغال عليها الزاد الى الدرب ، فسمعت ابراهيم يقول : أى متكلف أخبر الناس بهذا ؟.. قال أشعث :

كأنه يشتهى أن تكون على حالنا حتى ندخل ، فلما دخل مضى كما هو فلم ينزل المصيصة ، فقال لى أبو اسحاق الفرارى : اطلب ابراهيم .. فطلبته ، فاذا هو قد مر .. فقال لى : الحقه ، وأعطانى نفقة .. فلحقته بأنطاكية ، فقال لى حين رآنى : قد جئت ؟ .. قلت : نعم ، أبو اسحاق بعثنى ، فأعطيته النفقة ، فقبلها ، فلما أردت الرجوع أعطانى ازارا وقال لى : اذهب بهذا الى أبى اسحاق .. قلت :

ما منعك أن تنزل بالمصيصة ؟ .. فقال : على من أنزل ؟.. فذكر أهل المصيصة ، حتى ذكر شريكا فقال : لو قسمت خمسة دراهم فى السبيل ، جاء شريك ينافس فيها » ..

وتدل هذه القصص على الطابع النفسى والأخلاقى لابراهيم فى غزوه .. انه ما كان يغزو من أجل المغنم ، انما كان يجرد همته كلية لله تعالى ، لايبغى من وراء ذلك حطام الدنيا ، ولايبغى جزاء ولا شكورا من أحد .. انه ما كان يبغى الجزاء الا من الله سبحانه ،

قرأ ابراهيم القرآن الكريم ، وتمعن فيه .. ودرس الحديث الشريف فى استفاضة ورأى ما للجهاد من فضل ، فأحب أن يشرف على الجنة من تحت ظلال السيوف كما يقول رسول

الله صلى الله عليه وسلم « الجنة تحت ظلال السيوف » .. وأحب أن يتاجر مع الله :

« يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ، وتؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون ، يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جناب تجرى من تحتها الأنهار ومساكن طيبة فى جنات عدن ذلك الفوز العظيم ، وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب ، وبشر المؤمنين » (١) .

وأحب أن يدخل فى دائرة هؤلاء الذين اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة :

« ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله ، فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا فى التوراة والانجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله ، فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم (٢) » .

لقد قرأ ابراهيم بن أدهم فيما قرأ قوله تعالى :

« وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين (٣) »

---

(١) الصف : ١٠ ــ ١٣

(٢) التوبة ١١١

(٣) البقرة ١٩٠

وقــــوله :

« وقاتلوا فى سبيل الله واعلموا ان الله سميع عليم » (١)

وقوله :

« ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا ، بل أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقــوا بهم من خلفهم ألا خــوف عليهم ولا هم يحزنون » (٢)

وقوله :

« ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون » (٣) .

وعرف فيما عرف من الأحاديث قوله صلى الله عليه وسلم:

تضمن الله لمن خرج فى سبيله ، لايخرجه الا جهاد فى سبيلى، وايمان بى ، وتصديق برسلى ، فهو ضامن أن أدخله الجنة ، أو أرجعه الى منزله الذى خرج منه نائلا ما نال من أجــر أو غنيمة .. والذى نفس محمد بيده ، ما كلم يكلم فى سبيل الله الا جاء يوم القيامة كهيئته يوم كلم : لونه لون دم ، وريحــه

---

(١) البقرة : ٢٤٤

(٢) آل عمران : ١٦٩ ، ١٧٠

(٣) البقرة : ١٥٤

ريح مسك .. والذى نفس محمد بيده ، لولا أن أشق على المسلمين ، ما قعدت خلاف سرية تغزو فى سبيل الله أبدا ، ولكن لا أجد سعة فأحملهم ، ولا يجدون سعة ، ويشق عليهم أن يتخلفوا عنى .. والذى نفس محمد بيده ، لوددت أن أغزو فى سبيل الله فأقتل ، ثم أغزو فأقتل ، ثم أغزو فأقتل » (١)

وما رواه أبو هريرة : ــ رضى الله عنه ــ قال :

ــ مر رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بشعب فيه عيينة من ماء عذبة فأعجبته ، فقال :

لو اعتزلت الناس فأقمت فى هذا الشعب ، ولن أفعل حتى أستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

« لاتفعل ، فان مقام أحدكم فى سبيل الله تعالى أفضل من صلاته فى بيته سبعين عاما ، ألا تحبون أن يغفر الله لكم ويدخلكم الجنة ؟.. اغزوا فى سبيل الله ، .. من قاتل فى سبيل الله فواق ناقة وجبت له الجنة » (٢)

وقوله صلى الله عليه وسلم :

---

(١) رواه مالك والبخارى ومسلم واللفظ له .. والنسائى ــ والكلم : الجرح
(٢) رواه الترمذى وحسنه الحاكم وصححه ..

« ان فى الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين ، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض » (١)

وأدرك هذه الموازنة الصارخة بين الجهاد والعبادة فيما روى من الأحاديث التالية :

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قيل : يا رسول الله، ما يعدل الجهاد فى سبيل الله ؟ ..

قال : « لا تستطيعونه » ــ فأعادوا عليه مرتين أو ثلاثا ، كل ذلك يقول :

« لا تستطيعونه » .. ثم قال :

« مثل المجاهد فى سبيل الله ، كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله ، لا يفترمن صلاة ولا صيام حتى يرجع المجاهد فى سبيل الله » (٢) .

وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى العمل أفضل ؟ــ قال : « ايمان بالله ورسوله » قيل : ثم ماذا ؟ .. قال : « الجهاد فى سبيل الله » .. قيل : ثم ماذا ؟.. قال : حج مبرور » (٣)

---

(١) رواه البخارى ..

(٢) البخارى ومسلم واللفظ له ..

(٣) رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى ..

ويوضح ذلك قوله تعالى :

« ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ، ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ، ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة فى سبيل الله ، ولا يطئون موطئا يغيظ الكفار ، ولا ينالون من عدو نيلا الا كتب لهم به عمل صالح ، ان الله لا يضيع أجر المحسنين .. ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ، ولا يقطعون واديا الا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون » (١)

واذا أفضى الجهاد الى الاستشهاد ، فان مصير الشهيد السعادة الدائمة والنعيم المقيم .

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال :

« لما أصيب اخوانكم جعل الله أرواحهم فى جوف طير خضر، ترد أنهار الجنة ، تأكل من ثمارها ، وتأوى الى قناديل من ذهب، معلقة فى ظل العرش ، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم قالوا : من يبلغ اخواننا عنا أنا أحياء فى الجنة نرزق ، لئلا يزهدوا فى الجهاد ، ولا ينكلوا عن الحرب ؟.. فقال الله تعالى : أنا أبلغهم عنكم .. قال : فأنزل الله عز وجل :

---

(١) التوبة : ١٢٠ ، ١٢١

« ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا » الى آخر الآية » (١) .

وعن المقدام بن معد يكرب رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« للشهيد عند الله ست خصال : يغفر له فى أول دفعــة ، ويرى مقعده من الجنة ، ويجار من عذاب القبر ، ويأمن من الفزع الأكبر ، ويوضع على رأسه تاج الوقار ــ الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها ــ ويزوج اثنتين وسبعين من الحــور العين ، ويشفع فى سبعين من أقاربه » (٢) .

ومحال أن تكون هذه الصورة الاسلامية عن الجهاد واضحة فى ذهن مسلم ، الا ويلقى بنفسه فى معمعان الحرب مجاهدا فى سبيل الله ..

وقد ألقى ابراهيم بنفسه فى الجهاد متجردا عن كل ماسوى مرضاة الله سبحانه .. ومما رواه من الأحاديث فى ذلك :

ما رواه عن هشام بن حسان ، عن يزيد الرقاشى ، عن بعض عمات النبى صلى الله عليه وسلم قالت : قال رســول الله صلى الله عليه وسلم :

---

(١) آل عمران : ١٦٩

(٢) رواه ابن ماجه والترمذى وقال حسن صحيح غريب

« شهيد البر يغفر له كل ذنب الا الدين والأمانة ، وشهيد البحر يغفر له كل ذنب والدين والأمانة » (١) ..

وما رواه عن حماد بن أبى سليمان قال : «الطعن فى الجهاد نزغ من الشيطان »

وروى عن يونس بن عبيد قال : « ماندمت على شيء ندامتى أن لا أكون أفنيت عمرى فى الجهاد » . .

وهذه الصورة لشيخ الصوفية الذى ترك الترف والنعيم ولذة الدنيا ونعيمها ، وآثر بحبوحة الجنة .. هذه الصورة نقدمها الى هؤلاء الذين يحبون دائما أن يزيفوا الصورة عن التصوف والصوفية .. فيصفونهم بأنهم سلبيون ، اننا نحب أن نرى جهاد الذين ينتقدون التصوف ، ونحب أن نرى آثارهم فى ساحة الشرف والبطولة ، ساحة الجهاد فى سبيل الله » ..

ابراهيم بن أدهم : هل هو :

أعرض عن متاع الدنيا وطيباتها فى سبيل الله ؟ .. نعم .

متعبد ؟ .. نعم .

يأكل من عمل يده ؟ .. نعم .

---

(١) الحليه جـ ٧ ص ٥١

سخى متصدق ؟ .. نعم .

مجاهد لا يبــالى على أى جنب كان فى الله مصرعه ؟ .. نعم .

هل كملت صورة ابراهيم بن أدهم ؟ .. كلا

ما الذى ينقصها ؟..

ينقصها الحديث عن ابراهيم بن أدهم العالم . .

الفصل الثانى

المحدث

المحدث

الام بلغ ابراهيم بن أدهم من العـلم قبل توبته ؟.. كيف تثقف فى طفولته وشبابه ؟ ذلك مالا ندريه ..

ولكن الذى نعرفه : هو أن ابراهيم بن أدهم درس الحديث الشريف الى الحد الذى جعل مؤرخى الحـديث يذكرونه فى كتبهم مقـدرين له ، وذاكرين من روى عنهم ، ومن أخـذوا عنـه ..

ولقد روى عن جماعة من التابعين وتابعى التابعين ، وممن روى عنهم : أبو اسحاق : عمرو بن عبد الله السـبيعى ، الذى رأى عليا بن أبى طالب كرم الله وجهه ، وسـمع من البراء بن عازب رضى الله عنه ..

ومن روى عنهم : يحيى بن سعيد الأنصارى ، وسـعيد بن المرزبان ، ومقاتل بن حيان النبطى ، ويزيد الرقاشى ، ومالك بن دينار .. وروى عن الثورى ، وروى الثورى عنه ..

أما من روى عنه : فمنهم : خادمه ابراهيم بن بشار ، وبقية ابن الوليد ، وشقيق البلخى ، وأبو اسحاق الفرارى ..

وفيما يتصل بتقديره والثقة به ، فقد قال صاحب التقريب عنـه :

صدوق : خرج له البخارى فى الأدب ، والترمذى ..

وقال النسائى :

ثقة ، مأمون ، أحـد الزهاد ..

وقال الدارقطنى :

اذا روى عنه ثقة ، فهو صحيح الحديث

وقال ابن معين :

عابد ثقـة

وقال ابن نميرو العجلى :

ثقـــة

وذكره ابن حبان فى الثقات (١)

وما كان لابراهيم بن أدهم ـــ وهو يحب أن يتأسى برسول الله صلى الله عليه وسلم ـ الا أن يدرس الحديث ، وقد سـار

(١) انظر : تهذيب التهذيب ، والحلية ، والكواكب الدرية

فى هذا على نسق المعاصرين له من الصوفية ، الذين قرءوا قول الله تعـالى :

« لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا » ..

والدرجة التى بلغها ابراهيم بن أدهم من العلم درجة نفيسة .. انها درجة تضعه فى مرتبة المحدثين الثقاب ، بيد أنه يجب أن لا يعزب عن آذهاننا أن ابراهيم بن أدهم عابد زاهد ، يطلب العلم من أجل العمل ، ويرغب فى العلم من أجل تطبيقه .. يقول صاحب الحليه :

« لم تكن الرواية من شأنه ، فلذلك يقل حديثه »

فى الايمـان :

لقـد سار شيخ الصوفية ــ فى سلوكه وفى فكره ــ على أن الايمان تصديق وقول وعمل . انه تصديق بالجنـان ، وقول باللسان ، وعمل بالجوارح ..

ويروى شيخنا فى ذلك ، عن عبد الله بن شوذب ، عن ثابت البنانى ، عن أنس بن مالك رضى الله عنهم أجمعين ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« ان الله تعالى يعذب الموحدين بقدر نقصان ايمـانهم ، ثم يردهم الى الجنة خلودا دائما » ..

والحديث صريح فى أن الايمان ليس تصديقا فحسب ..

وما من شك فى أن أساس الايمان الذى لايقــوم الايمان بدونه ، انما هو الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليــوم الآخر ، وبالقضاء خيره وشره .. وهذا لا يمارى فيه أحد .. ثم يأتى بعد ذلك البناء .. وقد يرتفع هذا البناء سامقا فى جــو السماء ، مشرقا كضياء النجوم .. وقد لايرتفع البناء عن الأرض الا قليلا ، ويكون باهتا خافتا ..

ولقد أعلن القرآن صراحة أن الايمان ليس تصديقا فحسب، وممن أوضح هذا المبدأ الاسلامى الصادق ، الامام البخــارى ــ رضى الله عنه ــ .. انه يقول فى أول كتاب الايمان :

« باب الايمان وقول النبى صــلى الله عليه وســلم : بنى الاسلام على خمس .. وهو قول وفعل ويزيد وينقص .. قال الله تعالى : « ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم » .. ، .. « وزدناهم هدى .. ، .. « ويزيد الله الذين اهتدوا هدى » .. ، .. «والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم » .. « ويزداد الذين آمنوا ايمانا » .. وقوله : « أيكم زادته هذه ايمانا فأما الذين آمنوا فزادتهم ايمانا » . وقــوله جل ذكره : « فاخشــوهم فزادهم ايمانا » .. وقوله تعالى : « وما زادهم الا ايمانا وتسليما » .. والحب فى الله والبغض فى الله من الايمان ..

وكتب عمر بن عبد العزيز الى عدى بن عدى :

ان للايمان فرائض وشرائع، وحدودا وسننا، فمن استكملها استكمل الايمان ، ومن لم يستكملها لم يستكمل الايمان ، فان أعش فسأبينها لكم حتى تعملوا بها ، وان أمت فما أنا على صحبتكم بحريص » ..

وكتاب الايمان من صحيح البخارى ، ينحو كله نحو هذه الفكرة ، وعشرات الأحاديث فيه تؤيدها ..

ولقد سبق أن كتبنا فى هذا الموضوع ، فى كتابنا « الاسلام والايمان » فى شيء من الاستفاضة ، ومما كتبناه :

واذا كان هذا رأى البخارى — رضى الله عنه — ، فان أباالحسن على بن خلف يقول فى شرح صحيح البخارى :

« مذهب جماعة أهل السنة من سلف الأمة وخلفها ، أن الايمان قول وعمل ، ويزيد وينقص » .

ويقول عبد الرزاق : حسبما يذكر الامام النووى فى شرح مسلم :

« سمعت من أدركت من شيوخنا وأصحابنا : سفيان الثورى ، ومالك بن أنس ، وعبيد الله بن عمر ، والأوزاعى ، ومعمر بن راشد ، وابر جريج ، وسفيان بن عيينة ، يقولون :

« الايمان قول وعمل ، ويزيد وينقص » ..

وهذا قول ابن مسعود ، وحذيفة ، والنخعى ، والحسن البصرى ، وعطاء ، وطاوس ، ومجاهد ، وعبد الله بن المبارك ..

ويتابع عبد الرزاق الحديث ، فيقول :

فالمعنى الذى يستحق به العبد المدح والولاية من المؤمنين، هو اتيانه بهذه الأمور الثلاثة : التصديق بالقلب ، والاقرار باللسان ، والعمل بالجوارح . وذلك أنه لا خلاف بين الجميع أنه لو أقر وعمل على غير علم منه ومعرفة بربه ، لا يستحق اسم مؤمن .. ولو عرف وعمل وجحد بلسانه وكذب ما عرف من التوحيد ، لا يستحق اسم مؤمن .. وكذلك اذا أقر بالله تعالى، وبرسله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، ولم يعمل بالفرائض لا يسمى مؤمنا بالاطلاق ، وان كان فى كلام العرب يسمى مؤمنا بالتصديق ، فذلك غير مستحق فى كلام الله تعالى، لقوله عز وجل :

« انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا ، وعلى ربهم يتوكلون .. الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون .. أولئك هم المؤمنون حقا » ..

فأخبرنا سبحانه وتعالى أن المؤمن من كانت هذه صفته ..

وما ذكره عبد الرزاق يؤيده ابن بطال فى باب من قال :

« الايمـان هو العمـل » من شرح صحيح البخـارى ، فيقول :

فان قيل : قد قلتم ان الايمان هو التصديق ..

قيل : التصديق هو أول منازل الايمان ، ويوجب للمصدق الدخول فيه ، ولا يوجب له اسـتكمال منـازله ، ولا يسمى مؤمنا مطلقا ..

هذا مذهب جماعة أهل السنة : أن الايمان قول وعمل ..

قال أبو عبيد : وهو قول مالك والثورى والأوزاعى ومن بعدهم من أرباب العلم والسنة الذين كانوا مصابيح الهـدى وأئمة الدين ، من أهل الحجاز والعراق والشام وغيرهم ..

قال ابن بطال : وهذا المعنى أراد البخارى رحمه الله اثباته فى كتاب الايمان ، وعليه بوب أبوابه كلها فقال :

باب أمور الايمـان .

وباب الصلاة من الايمان .

وباب الزكاة من الايمـان .

وباب الجهـاد من الايمان .

وسائر أبوابه ..

وانمـا أراد الرد على المرجئة فى قولهم : ان الايمـان قول بلا عمل ، وتبيين غلطهم ، وسوء اعتقادهم ، ومخالفتهم للكتاب والسنة ومذاهب الأئمة ..

وينهج الامام الطبرى هذا النهج أيضا ، فيقول :

« الايمان : كلمة جامعة : الاقرار بالله وكتبه ورســله ، وتصديق الاقرار بالفعل » .

ولقد سار شيخنا على نهج أسلافه من أئمة الهدى .. وماكان اجتهاده فى العبـادة ، وفى الجهاد ، الا بعض أعـلام ايمـانه العميق ..

ومن مروياته فى الايمـان :

روى عن محمد بن عجلان ، عن الزهرى ، عن أبى سلمة ، عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« المؤمن يسير المؤونة »

وروى عن أبى عبد الله الخراسـانى قال : قال عمـر بن الخطاب :

« من اتقى الله لم يشف غيظه ، ومن خـاف الله لم يفعـل ما يريد ، ولولا يوم القيامة لكان غير ماترون » ..

وروى عن عمران بن مسلم القصير قال :

« ان الحكمة لتكون فى قلب المنافق تتلجلج ، فلا يصبر عليها حتى يلقيها ، فيتلقاها المؤمن فينفعه الله بها » ..

وروى عن بحر السقا البصرى قال : حدثنى بعض الفقهاء قال :

« الحياء خليل المؤمن ، والحلم وزيره ، والعلم دليله ، والعمل فقهه ، والصبر أمير جنوده ، والرفق والده ، والبر أخوه » ..

وروى عن أبى حازم المدينى قال :

« من أعظم خصلة المؤمن أن يكون أشد الناس خوفا (١) على نفسه ، وأرجاه لكل مسلم » .

وروى عن محمد بن عجلان قال :

« المؤمن يحب المؤمن حيث كان » ..

فى السيرة :

روى ابراهيم بن أدهم ، عن أيوب ، عن حميد بن هلال ، عن أبى بردة قال :

---

(١) أى خوفا على نفسه من مقت الله ، أو من سوء الخاتمة ، فهو فى تقوى دائمة لعل الله يتقبل .

« أخرجت الينا عائشــة كســاء ملبــدا ، وازارا غليظا » وقالت :

« فى هذا قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم » ..

فى الصلاة على الرسول صلى الله عليه وسلم :

وروى عن محمد بن عجــلان ، عن على بن الحسين ، عن أبيه ، عن على بن أبى طالب ، قال : قال رســول الله صلى الله عليــه وسلم :

« من صلى على يوم الجمعة مائة مرة ، جاء يوم القيــامة ومعه نور ، لو قسم ذلك النور بين الخلق كلهم لوسعهم »

قيمــة الأعمــال :

روى ابراهيم ، وابن جريج ، عن يحيى بن سعيد الأنصارى عن محمد بن ابراهيم التيمى ، عن علقمة بن وقاص ، عن عمر بن الخطاب ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

« انما الأعمال بالنيات وانمــا لكل امرىء ما نوى ، فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها ، أو امرأة ينكحها ، فهجرته الى ما هاجر اليــه » ..

يقول صاحب الحلية : هذا من صحاح الأحاديث وعيونها، رواه عن يحيى بن سعيد الجم الغفير .

الخير :

روى ابراهيم ، عن أعين قال : سمعت سـعيد بن المسيب يقـــول :

« من هم بصلاة أو صيام أو عمرة أو حج أو شيء من الخير ثم لم يفعل ، كان له ما نوى » .

وروى ابراهيم — بسنده — عن سعيد بن المسيب قال :

« من هم بصيام أو صدقة أو حج أو عمرة أو شيء من الخير فحال دونه حائل كتب الله أجره » ..

في الوضوء :

روى ابراهيم ، عن مقاتل بن حيان ، عن شهر بن حوشب ، عن جرير بن عبد الله قال :

« رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم توضأ ومسح على الخفين » ..

وروى عن مقاتل بن حيان ، عن شهر بن حوشب ، عن جرير ابن عبد الله البجلي ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم توضأ ومسح على الخفين » .. فقيل لجرير : بعد نزول المائدة ؟ .. قال :

« انما كان اسلامي بعد نزول المائدة » ..

قال ابراهيم :

« وكان هذا الحديث يعجبهم » ..

في الصلاة :

روى ابراهيم ، عن مقاتل بن حيان ، عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« الصلاة فى المسجد الحرام مائة ألف صلاة ، والصلاة فى مسجدى عشرة آلاف صلاة ، والصلاة فى مسجد الرباطات ألف صلاة » ..

وحدث ابراهيم ، عن الأوزاعى .. قال المفضل : فلقيت الأوزاعى فحدثنى عن قتادة كتب اليه يذكر عن أنس قال :

« صليت خلف النبى صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر رضى الله تعالى عنهما ، فكانوا يفتتحون القراءة بالحمد لله رب العالمين » ..

وحدث ابراهيم ، عن أبيه أدهم بن منصور العجلى ، عن سعيد بن جبير ، أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يسجد على كور العمامة » ..

وروى ابراهيم ، عن محمد بن زياد ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« أما يخشى الذى يرفع رأسه قبل الامام أن يحول الله رأسه رأس حمار ؟ » ..

في حسن الخلق :

روى ابراهيم ، عن محمد بن زياد ، عن أبى هريرة ، قال :

« جاء رجل الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال :

يا رسول الله ! .. ما تفسير حسن الخلق ؟ فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم .. ثم قال :

يا رسول الله ، ما تفسير حسن الخلق ؟ .. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« انما تفسير حسن الخلق ، ما أصاب من الدنيا يرضى ، وان لم يصبه لم يسخط » .

من هدى النبوة :

روى ابراهيم ، عن عباد بن كثير بن قيس قال :

« جاء رجل عليه بردة له ، فقعد الى رسول الله صلى الله عليه وسلم .. ثم جاء رجل عليه أطمار له ، فقعد .. فقام الغنى بثيابه ، فضمها اليه .. فقال النبى صلى الله عليه وسلم :

أكلّ هذا تقذرا من أخيك المسلم ؟ .. أكنت تحسب أن يصيبه من غناك شيء ، أو يصيبك من فقره شيء ؟ .. فقال الغنى :

معذرة الى الله والى رسوله ، من نفس أمارة بالسوء ، وشيطان

يكيدني .. أشهدك يا رسول الله أن نصف مالي له .. فقال الرجل: ما أريد ذاك ؟ .. فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لم ذاك ؟. قال : أخاف أن يفسد قلبي كما أفسده » ..

الكرم والعلم :

روى ابراهيم بن أدهم ـــ بسنده ـــ عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« لا حسد الا في اثنتين : رجل آتاه الله مالا فصرفه في سبيل الخير ، ورجل آتاه الله علما فعلمه وعمل به » ..

التواضع :

قال ابراهيم بن أدهم : سمعت محمد بن عجلان يذكر عن أبيه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« من تواضع لله رفعه الله » ..

وروى ابراهيم ، عن ابراهيم الصائغ ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« من ترك زينة الدنيا ، ووضع ثيابا حسنة تواضعا لله عز وجل وابتغاء وجهه ، كان حقا على الله أن يكسوه من عبقري الجنة في تخات الياقوت » ..

في الخير :

روى ابراهيم بن أدهم ، عن محمد بن عجلان ، عن سهل ابن معاذ بن أنس الجهني ، عن أبيه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« من كظم غيظا وهو يقدر على انفاذه ، خيره الله تعالى من الحور العين يوم القيامة ، ومن ترك ثوب جمال وهو قادر عليه ألبسه الله تعالى أو كساه رداء الايمان يوم القيامة ، ومن أنكح عبد الله ، وضع الله على رأسه تاج الملك يوم القيامة » ..

كظم الغيظ :

عن ابراهيم بن أدهم ، عن أنس رضى الله عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« من كظم غيظا وهو يقدر على انفاذه ، خيره الله تعالى من الحور العين يوم القيامة .. الحديث ..

وقال ابراهيم بن أدهم : كان قتادة يقول :

« أفضل الناس ، أعظمهم عن الناس عفوا ، وأوسعهم له صدرا » .

في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

عن ابراهيم بن أدهم ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« غشيتكم السكرتان : سكرة حب العيش ، وحب الجهل: فعند ذلك لا تأمرون بالمعروف ولا تنهون عن المنكر .. والقائمون بالكتاب وبالسنة كالسابقين الأولين من المهاجرين والانصار » ..

فى العلم والعلماء

فى العلم :

روى ابراهيم عن شعبة بن الحجاج قال : أنبأنا أبو اسحاق الهمدانى ، عن سعيد بن وهب ، عن عبد الله بن مسعود قال :

« لا يزال الناس بخير ما أتاهم العلم من علمائهم وكبرائهم وذوى أسنانهم ، فاذا أتاهم العلم عن صغارهم وسفهائهم فقد هلكوا » ..

العالم والفتنة :

قال ابراهيم : حدثنى أبو اسحاق الهمدانى ، عن عمارة الأنصارى ، عن أبى هريرة رضى لله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« ان الفتنة تجىء فتنسف العباد نسفا ، وينجو العالم منها بعلمه » ..

وروى ابراهيم قال : حدثنا مالك بن دينار ، عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« رأيت ليلة أسرى بى ، رجالا تقرض شفاههم بمقاريض من نار .. فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ .. قال :

هؤلاء خطباء أمتك ، يأمرون بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون ؟ » ..

في الدعاء :

روى ابراهيم : عن مقاتل بن حيان ، عن شهر بن حوشب ، عن أم سلمة أن النبى صلى الله عليه وسلم كان كثيرا ما يقول :

« اللهم ثبت قلبى على دينك » ..

من الآداب مع النساء :

عن ابراهيم بن أدهم ، عن الزبيدى ، عن عطاء الخراسانى يرفع الحديث قال :

« ليس للنساء سلام ، ولا عليهن سلام » ..

قال الزبيدى : أخذ على النساء ما أخذ على الحيات أن ينجحرن فى بيوتهن ..

من هم أهل الكتاب ؟ ..

روى ابراهيم بن أدهم ، عن أبيه ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال :

« نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذبيحة نصـــارى العرب » .

في الجنة :

قال ابراهيم : روى الربيع بن صـــبيح ، عن الحسن ، عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« اذا استقر أهل الجنة فى الجنة ، اشـــتاق الاخـــوان الى الاخـــوان ، فيسير سريرذا الى سريرذا ، فيلتقيـــان فيتحدثان ما كان بينهما فى دار الدنيا ، ويقول : يا أخى : تذكر يوم كذا .. كنا فى دار الدنيا فى مجلس كذا فدعونا الله ، فغفر لنا » ..

وقال ابراهيم : حدثنى أبو ثابت قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم :

« حسبى رجائى من خالقى ، وحسبى دينى من دنياى » ..

الفصل الثالث

الأخلاق

الأخلاق فى عرف شيخ الصوفية

ان الله سبحانه وتعالى ، وضع قوانين لسعادة الفرد ، ووضع نظما لسعادة المجتمع ، وبين ذلك على السنة رسله ..

ورسل الله مبشرون ومنذرون : انهم يبشرون من اتبع هدى الله بالسعادة ، ويشرحون هدى الله فى مختلف جوانبه ، وينذرون من انحرف عن هديه بالشقاء ..

وما دام الانسان مؤمنا بالله ورسوله ، فانه لا محالة موقن بصدق المبادىء التى رسمها الله لسعادة الفرد ولسعادة المجتمع، وأنها قوانين صادقة هى أصدق من القوانين الطبيعية فى عـالم الكون المادى ..

ولو اعتصم الانسان بالله ، واتبع فى نفسه ما رسمه الله له كفرد .. لسعد فى حياته الدنيا وفى الآخرة ..

ولو اعتصم المجتمع بالله ، واكتفى بالله هاديا ونصـيرا ، لسعد المجتمع وتحقق له الأمن والطمأنينة ..

ولكن بشرية الانسان تتحكم فيه ، وتسيطر عليه ، وتخرجه بذلك من جو الالهية المعصوم ، لتحبسه فى اطار بشريته ، فيرسم لنفسه بنفسه الطريق الذى يسير عليه فردا ، والطريق الذى يسير عليه مجتمعا ..

ان الانسان بغرائزه متأله .. ومن أجل ذلك انصرف ـــ دون شعور واضح منه ـــ أو مع الشعور الواضح ـــ عن التشريع الالهى الى تشريع يشرعه هو ..

ومن هنا كانت هذه المذاهب المتعددة فى الأخلاق .. وهل الأخلاق الا رسم السلوك الفردى فى الحياة ، ورسم السلوك للمجتمع فى مسيرته عبر الزمن ..

لقد بدأ سقراط يبشر بالسعادة ، تتمثل ـــ فيما رأى ـــ فى القناعة ، وأن لا يرغب الانسان الا فيما هو فى متنـــاول يده .. أى : أن يحدد كل انسان رغباته بحسب امكانيـــاته .. وبدأت أوامره للفرد : لا تشته الا ما تستطيع الحصول عليه ، لا تطمح الا فيما تستطيع تحقيقه ، لا تتطلع الا الى السهل الميسور وأخذ سقراط يتدرج مع فكرته التى قادته الى نصح الانسان بأن يقلل مطالبه ما استطاع الى ذلك سبيلا .. ويقول سقراط :

« ان الكمال لله وحده ، والكمـــال هو أن لا تحتـــاج الى شىء ، فكلما قلت المطالب والحاجات كلما كان ذلك قربا من

الكمال .. وبالتالى قربا من الله سبحانه .. وكلما كثرت الحاجات والمطالب ، كان ذلك بعدا عن الكمال ، وبالتالى بعدا عن الله سبحانه » .

وعاش سقراط يحاول تحويل فكرته النظرية الى واقع ، فكان يسير حافيا لأن الحذاء — حسبما رأى — لا حاجة له .. وكان يأكل الغليظ من الطعام ، ويلبس الغليظ من الثياب ، ويسير كما يقول على مبدا القناعة ..

ومنذ أن ظهرت فكرته الى المجتمع ، عارضه الآخرون ، وأعلنوا أن العبد الرقيق ، لو عاش كما يعيش سقراط لهرب من سيده فى جنح من الليل ..

وافلاطون نفسه — تلميذ سقراط الأمين ، وضع مذهبا يغاير مذهب أستاذه :

النعيم ، الملذات ، الترف ؟ .. من الذى يعارض ذلك ؟ .. من الذى يعارض فى طيبات الحياة الدنيا ونعيمها ؟ .. من الذى يعرض عن متاع الدنيا وما فيها من الخيرات ؟ ..

ان النعيم والملذات جزء — فيما رأى افلاطون — من السعادة ، ولابد لتتحقق السعادة ، من أن يضاف الى ذلك العلم .. فالسعادة شطرها ملاذ ، وشطرها الثانى علم — واذا ألف الانسان بين العلم والملاذ فى تنسيق منسجم كان سعيدا ..

ويأتى أرسطو فلا يعبأ بكل ذلك ، ويرى ويعلن أن السعادة حكمة وعقل ، ويتمثل فى التوسط فى كل الأمور ..

ويسخر أبيقور من كل ذلك ، ويرى أن السعادة تتمثل فى الاستمتاع ..

ويسير الزمن ، ومع سيره تتعدد المذاهب والآراء ، ينقض بعضها بعضا ، ويهدم بعضها بعضا .. فاذا ما وصلنا الى العصر الحديث ، والنهضة الأوروبية — وهى نهضة تتسم بالمادية — ظهرت مذاهب المنفعة الشخصية ، أو المنفعة العامة .. وهذه المذاهب تؤسس السلوك على ما يثمر العمل من منفعة عامة أو خاصة ، ولا تضع فى ميزانها الفضيلة أو الخير ..

وشقيت الانسانية بكل ذلك ..

.. أن هذه العصور لم تخل قط ، من صوت ينادى بالرجوع الى الرحاب الالهى .. رحاب العصمة والسعادة الحقيقية .. وينطلق هذا الصوت ، من النبى — ثم يتابعه حواريون ، وأصحابه ، وأنصاره ، والصالحون من بعدهم ..

ويتمثل هذا الصوت فى نصوص الهية ، وفى أحاديث شريفة ومهما تعددت أساليب الدعوة الى السعادة فى أعراف المؤمنين ، فان المعنى لا يختلف من عصر الى عصر ، ولا من بيئة الى بيئة . ان الجميع ينادون :

« ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولاهم يحزنون ، الذين آمنو وكانوا يتقون ، لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، لا تبديل لكلمات الله ، ذلك هو الفوز العظيم (١) » .

« من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون (٢) » ..

« ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنــة التى كنتم توعدون .. نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون .. نزلا من غفور رحيم (٣) » .

« استغفروا ربكم انه كان غفارا .. يرســل السماء عليكم مدرارا .. ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا (٤) » .

« ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب، ومن يتوكل على الله فهو حسبه (٥) » ..

« ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا (٦) » ..

---

(١) يونس : ٦٢ – ٦٤
(٢) النحل : ٩٧
(٣) فصلت : ٣٠ – ٣٢
(٤) نوح : ١٠ – ١٢
(٥) الطلاق : ٣
(٦) الطلاق : ٤

« ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز (١) » ..

« يا غلام : احفظ الله يحفظك .. احفظ الله تجده تجاهك .. اذا سألت فاسأل الله .. واذا استعنت فاستعن بالله .. واعلم ان الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك لم ينفعوك الا بشىء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعت على أن يضروك لم يضروك الا بشىء قد كتب الله عليك .. رفعت الأقلام وجفت الصحف (٢) » ..

« من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب .. وماتقرب الى عبدى بشىء أحب الى مما افترضته عليــه وما يزال عبدى يتقرب الى بالنوافل حتى أحبه ، فاذا أحببته كنت سمعه الذى يســمع به، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها .. وان سألنى لأعطينه وان استعاذنى لأعيذنه .. وما ترددت عن شىء أنا فاعله ترددى عن قبض نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته (٣) » ..

« المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه .. من كان فى حاجة أخيــه كان الله فى حاجته ومن فرج عن مســلم كربة فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة ، ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيــامة (٤) » ..

---

(١) الحج : ٤٠
(٢) رواه الترمذى
(٣) رواه البخارى
(٤) متفق عليه

« من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيـا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسر على معسر يسر الله عليـه فى الدنيا والآخرة ، ومن ستر مسلما ستره الله فى الدنيا والآخرة .. والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه (١) » ..

ان لله سبحانه وتعالى حدودا .. من خرج عنها فهو الشقى، ومن سار فى اطارها فهو السعيد ..

ولقد أخذ ابن أدهم يبشر بالأخلاق كما رسمها الله سبحانه فى محكم كتابه ، وعلى لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان من ثمرة ذلك مجموعة من النصائح والمواعظ والحكم من أنفس ما يكون ..

وهو وان لم يضعها فى نظام مذهبى على الوضع الحديث ، وهو وان لم ينسقها فى أبواب وفصول ، فان الميزة التى تتسم بها هى بقاؤها مشربة بطابع النضرة ، وبطابع الروحانية ..

ونحن نحب أن نوردها بطـابعها ، دون أن ندخل فيهـا أثر الصنعة المستحدثة ، من تنضيد أو ترتيب .. وان كنا مع ذلك قد قدمنا من آثاره فى ذلك ما يتصل على الخصوص بالهدف ..

حدث يونس بن سليمان أبو محمد البلخى قال :

---

(١) مسلم

قرأت كتاب ابراهيم بن أدهم الى عبد الملك مولاه :

أما بعد : أوصيك بتقوى الله .. انه جاء فى كتابك — فوصلك الله — تذكر ما جرى بيننا ، فمن رعى حق الله وفرحظه وسلم منه الناس .. ومن ترك حظه ولم يراقب حقه ولع به النـاس وذلك الى الله ، ولا حول لنـا ولا قوة الا بالله .. ثم ان القـوم ناس مثلكم ، يغضبون ويرضون ، فكان الذى يقومهم اليه يرجعون، وبه يقنعون ، وبه يأخذون ، وبه يعظون .. فأثنى عليهم أحسن الثناء ، فاقتدوا بآثارهم وأفعالهم حتى أنتم على ملتهم .. وتمنون منازلهم .. ثم ان الله تعالى أحسن الينا وأبقانا بعـد الجيران ، فنعوذ بالله أن يكون ابقاؤنا لشر ، فانه لايؤمن مكره ، والأعمال بالخواتيم .. وانه من خافه لم يضع ما يحب ، ولم يتكلم بمـا يشتهى ..

وينبغى لصـاحب الدين أن يرجو فى الـكلام ما يرجو فى الفعل ، وأن يخاف منه ما يخاف من الفعل ، وذلك الى الله .. فان استطعت أن لا يكون عندك أحد هو آثر من الله فراقبه فى الغضب والرضـا ، فانه يعلم السر وأخفى ، ويغفر ويعـذب ، ولا منجا منه الا اليه ..

فان استطعت أن تكف عما لا يعنيك ، وأن تنظر لنفسك ، فانه لا يسعى لك غيرك ..

ان الناس قد طلبوا الدنيا بالغضب والرضا ، فلم ينالوا منها

حاجتهم ، وانه من أراد الآخرة ، كان النـاس منـه فى راحة ، لا يخدع من ذلها ، ولا ينازعهم فى عزها .. هو من نفسـه فى شغل ، والناس منه فى راحة ..

فاتق الله وعليك بالسـداد ، فان من مضى انما قدموا على أعمالهم ، ولم يقدموا على الشرف والصيت والذكر .. فان الله تعالى أبى الا عدلا ، أعاننا الله واياكم على ما خلقنا له ، وبارك لنا ولكم فى بقية العمر فما شاء الله ..

وأما ما ذكرت من أمر القصر (١) ، فلا تشقوا على أنفسكم .. ان جاءكم أمر فى عافية فلله الحمد ، وان كانت بلية فلا تعدلوا بالسلامة .. فانه من ترك من أمر ما لا ينبغى أحق بالجزع منكم .

انا قد أيقنا أن الناس لا يذهبون بحقوق الناس ، والله معط كل ذى حق حقه ، وسعى الناس لهم وعليهم ، والجزاء غدا ..

فان استـطعتم أن لا تلقوا الله بمظالم ! .. فاما ما أظلمتم فلا تخافوا الغلبة فان الله تعـالى لا يعجزه شىء .. فمن علم أن الأمور هكذا فليكبر على نفسه ، وليقبض ما عليها ، فان هذا أشده وأضره .. حسبنا الله ونعم الوكيل . وأما من بقى من بقية الجيران فأقرهم السلام ، فقد طال العهد ..

---

(١) قصر كان له بعث اليه يستشيره فيه

وقال شريك : ســألت ابراهيم بن أدهم عما كان بين على ومعاوية فبكى .. فندمت على سؤالى اياه .. فرفع رأسه فقال:

« ان من عرف نفسه اشتغل بنفسه ، ومن عرف ربه اشتغل بربه عن غيره » ..

وكان يقول :

« اياكم والكبر .. اياكم والاعجاب بالأعمال .. انظروا الى من دونكم ، ولا تنظروا الى من فوقكم .. من ذلل نفسه رفعه مولاه ، ومن خضع له أعزه ، ومن اتقاه وقاه ، ومن أطاعه أنجاه، ومن أقبل اليه أرضاه ، ومن توكل عليه كفاه ، ومن سأله أعطاه ، ومن أقرضه قضاه ، ومن شكره جازاه ، فينبغى للعبد أن يزن نفســه قبل أن يحاسب ، ويتزين ويتهيأ للعرض على الله العلى الأكبر ..

ومن أقواله :

« اشغلوا قلوبكم بالخــوف من الله ، وأبدانكم بالدأب فى طاعة الله ، ووجوهكم بالحياء من الله ، وألسنتكم بذكر الله ، وغضوا أبصاركم عن محارم الله ، فان الله تعالى أوحى الى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم :

يا محمد ! .. كل ساعة تذكرنى فيها ، فهى لك مذخورة ، والساعة التى لا تذكرنى فيها فليس لك .. هى عليك لا لك » ..

وعن الحجاج بن مسهر ، قال : قال ابراهيم بن أدهم :

« محال أن تواليه ولا يواليك » ..

وقال ابراهيم بن بشار ، سمعت ابراهيم يقول :

«بلغنى أن عمر بن عبد العزيز قال لخالد بن صفوان : عظنى وأوجز .. فقال خالد : يا أمير المؤمنين ! .. ان أقواما غرهم ستر الله ، وفتنهم حسن الثنـــاء ، فلا يغلبن جهـــل غيرك بك علمك بنفسك ، أعاذنا الله واياك أن نكون بالستر مغرورين ، وبثنـــاء الناس مسرورين ، وعما افترض الله علينا متخلفين ومقصرين ، والى الأهواء مائلين .. قال : فبكى ، ثم قال :

« أعاذنا الله واياك من اتباع الهوى » ..

وقال ابن أدهم :

« اذا بات الملوك على اختيارهم ، فبت على اختيار الله لك، وارض به » ..

وكان يقول :

« ان للموت كأسا لا يقوى على تجرعه الا خائف وجل طائع كان يتوقعه .. فمن كان مطيعا فله الحياة والكرامة والنجاة من عذاب القبر ، ومن كان عاصيا نزل بين الحسرة والنـــدامة يوم الصاخة والطامة ..

وكان يقول :

نرقع دنيانا بتمزيق ديننا   فلا ديننا يبقى ولا ما نرقع

ويقول :

« اياكم والغرة بالله ، لا تغرنكم الحياة الدنيا ، ولا يغرنكم بالله الغرور » ..

وسئل عما كان بين على ومعاوية رضى الله عنهما ، فبكى كثيرا ، ثم رفع رأسه الى السماء فقال :

« من عرف نفسه اشتغل عن غيره » ..

وقال ابن بشار ، سمعت ابراهيم بن أدهم يقول :

« ما بالنا نشكو فقرنا الى مثلنا ، ولا نطلب كشفه من ربنا .. هل يتأتى أن يحب عبد عبدا لدنياه ، وينسى مافى خزائن مولاه » ..

قال : ونظر ابراهيم الى رجل قد أصيب بمال ومتاع ووقع الحريق فى دكانه ، فاشتد جزعه حتى خولط فى عقله .. فقال :

يا عبد الله ! .. ان المال مال الله ، متعك به اذ شاء ، وأخذه منك اذ ما شاء فاصبر لأمره ولا تجزع ، فان من تمام شكر الله على العافية ، الصبر له على البلية ، ومن قدم وجد ، ومن تأخر فقد وندم ..

ثم قال :

هكذا كثيرا : دارنا أمامنا ، وحياتنا بعد موتنا ، اما الى جنة واما الى نار وقال ابراهيم بن أدهم :

« بلغني أن الحسن البصرى رأى النبى صلى الله عليه وسلم فى منامه فقال : يا رسول الله عظنى ! ..

فقال :

« من استوى يوماه فهو مغبون ، ومن كان غده شرا من يومه فهو ملعون ، ومن لم يتعاهد النقصان من نفسه فهو فى نقصان ، ومن كان فى نقصان فالموت خير له » ..

وقال :

« خالفتم الله فيما أنذر وحذر ، وعصيتموه فيما نهى وأمر ، وكذبتموه فيماوعد وبشر ، وكفرتموه فيما أنعم وقدر .. وانما تحصدون ما تزرعون ، وتجنون ما تغرسون ، وتكافئون بما تفعلون ، وتجزون بما تعملون ، فاعلموا ان كنتم تعقلون ؛ وانتبهوا من وسن رقدتكم لعلكم تفلحون » ..

وقال :

« الله الله فى هذه الأرواح والأبدان الضعيفة .. الحذر الحذر .. الجد الجد .. كونوا على حياء من الله .. فوالله لقد

ستر وأمهل ، وجاد فأحسن .. حتى كأنه قد غفر ، كرما منـه لخلقه » ..

وقال :

« قلة الحرص والطمع تورث الصـدق والورع .. وكثرة الحرص والطمع تورث كثرة الغم والجزع » ..

وقال ابن أدهم :

« على القلب ثلاثة أغطية : الفرح ، والحزن ، والسرور » .
فاذا فرحت بالموجود فأنت حريص ، والحريص محروم ..
واذا حزنت على المفقود فأنت ساخط ، والساخط معذب ..
واذا سررت بالمدح فأنت معجب ، والعجب يحبط العمل ..
ودليل ذلك كله قوله تعالى :

« لكى لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم » ..

وقال ابراهيم :

« اتخذ الله صاحبا ، وذر الناس جانبا : قل الله ، ثم ذرهم»

وقال :

« من قال لأخيه أعطنى من مالك ، فقال : كم تريد ؟ .. فما قام بحق الاخوة ـــ ومن دعاه الى حاجة فقال : الى أين ؟ .. فما قام بحق الصحبة » ..

وقال :

« طلب الملوك شيئا ففاتهم ، وطلبناه فوجدناه » ..

وقال :

« ذهب السخاء والكرم والجود ، فمن لم يواس النـاس بذلك فليواسهم ببسط الوجه وحسن الخلق » ..

وقال : قال لقمان عليه السلام :

« لا يعرف الحليم الا عند الغضب ، ولا الشـجاع الا فى الحرب ، ولا الاخوان الا عند الحاجة » ..

وقال :

« من لؤم الرجل أن يرفع يده من الطعام قبل أصحابه » ..

وقال :

« حب لقاء الناس من حب الدنيا ، وتركهم من ترك الدنيا ، ومن أحب الشهرة لم يصدق الله فى أعماله » ..

وقال :

« ما أغفل أهل الدنيا عنا ، ما فى الدنيا أنعم عيشا منا » ..

وقال :

« كثرة النظر الى الباطل ، تذهب بمعرفة الحق من القلب »

وقال :

« كل سلطان لا يكون عادلا ، فهو واللص سـواء ، بمنزلة واحدة .. وكل عالم لا يكون ورعا فهو والذئب بمنزلة واحدة . وكل من يخدم سوى الله فهو والكلب سواء » ..

وقال :

« رآنى محمد بن عجلان ، فاستقبل القبلة ثم سجد ، فقال: « أتدرى لم سجدت ؟ .. سجدت شـكرا لله تعـالى حيث رأيتك » ..

وقال :

« اذكر ما أنت صائر اليه حق ذكره ، وتفكر فيما مضى من عمرك هل تثق به ، وترجو النجـاة من عذاب ربك ، فانك اذا كنت كذلك شغلت قلبك بالاهتمـام بطريق النجـاة عن طريق اللاهين الآمنين المطمئنين الذين اتبعوا أنفسهم هواها ، فأوقعتهم على طريق هلكاتهم .. لاجرم سوف يعلمون ، وسوف يتأسفون، وسوف يندمون » ..

(وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون) ! ..

وقال الوليد بن مسلم : حدثنا بعض اخواننا قال :

« دخلنا على ابراهيم بن أدهم فسلمنا عليه ، فرفع رأسـه

الينا فقال : « اللهم لا تمقتنا » .. وأطرق رأسه ساعة ، ثم رفع رأسه فقال :

انه اذا لم يمقتنا أحبنا .. ثم قال : تكلمنا ــ أو نطقنا ــ بالعربية ، فما نكاد نلحن .. ولحنا بالعمل فما نكاد نعرب » ..

وقال ابراهيم بن بشار : سألت ابراهيم بن أدهم عن العبادة فقال :

« رأس العبادة التفكر ، والصمت الا من ذكر الله .. ولقد بلغنى حرف ـــ يعنى عن لقمان ـــ قال :

قيل له : يا لقمان ما بلغ من حكمتك ؟ ..

قال :

لا أسأل عما قد كفيت ، ولا أتكلف مالا يعنينى .. ثم قال:

يا ابن بشار ! .. انما ينبغى للعبـد أن يصمت ، أو يتكلم بما ينتفع به . أو ينفع به من موعظة ، أو تنبيه ، أو تخويف ، أو تحذير .. واعلم أنه اذا كان الكلام مثل كان أوضح للمنطق ، وأبين فى القياس ، وأنقى للسمع ، وأوسع لشعوب الحديث..

يا ابن بشار : مثل لبصر قلبك حضور ملك الموت وأعوانه لقبض روحك فانظر كيف تكون .. ومثل له هول المطلع ومسألة منكر ونكير ، فانظر كيف تكون ، ومثل له القيامة وأهوالهـا

وأفزاعها .. والعرض والحساب والوقوف ، فانظر كيف تكون ، ثم صرخ صرخة فوقع مغشيا عليه » ..

وقال ابراهيم بن بشار :

« كتب عمر بن المنهال القرشى الى ابراهيم بن أدهم وهو بالرملة .. أن عظنى عظة أحفظها عنك .. فكتب اليه :

« أما بعــد ، فان الحزن على الدنيــا طويل ، والموت من الانسان قريب ، وللنفس منــه فى كل وقت نصيب ، وللبلى فى جسمه دبيب ، فبادر بالعمل قبل أن تنادى بالرحيل ، واجتهد فى العمل فى دار الممر قبل أن ترحل الى دار المقر » ..

وقال أبو جعفــر محمــد بن عبــد الرحمن السروجى — بسروج — :

« كتب ابراهيم بن أدهم الى بعض اخوانه ..

أما بعد ، فعليك بتقوى الله الذى لا تحــل معصيته ، ولا يرجى غيره .. واتق الله فانه من اتقى الله عز وجــل عز وقوى وشبع وروى ، ورفع عقله عن الدنيا .. فبدنه منظور بين ظهرانى أهل الدنيا ، وقلبه معاين للآخرة .. فأطفأ بصر قلبه ما أبصرت عيناه من حب الدنيا ، فقذر حرامها ، وجانب شهواتها ، وأضر بالحلال الصافى منها ، الا مالا بدله .. من كسرة يشد بها صلبه، أو ثوب يوارى عورته ، من أغلظ ما يقدر عليه وأخشنه ، ليس

له ثقة ولا رجاء الا الله .. قد رفعت ثقته ورجاؤه من كل شيء مخلوق ، ووقعت ثقته ورجاؤه على خالق الأشياء .. فجد وهزل، وأنهك بدنه لله ، حتى غارت العينان ، وبدت الأضلاع .. وأبدله الله تعالى بذلك زيادة فى عقله ، وقوة فى قلبه .. وما أخر له فى الآخرة أكثر .. فارفض يا أخى الدنيا ، فان حب الدنيــا يصم ويعمى ، ويذل الرقاب ، ولا تقل غدا وبعد غد ، فانما هلك من هلك باقامتهم على الأمانى ، حتى جاءهم الحــق بغتــة وهــم غافلون .. فنقلوا على اصرارهم الى القبــور المظلمة الضيقة .. وأسلمهم الأهلون والولد .. فانقطع الى الله بقلب منيب وعزم ليس فيه شك ، والسلام » ..

وعن خالد بن الحارث قال :

« بلغنى أن ابراهيم بن أدهم قال :

لم يصدق الله من أحب الشهرة » ..

وقال :

« لا يقل مع الحق فريد ، ولا يقوى مع الباطل عديد » ..

وحدث ابراهيم بن بشار قال : ســمعت ابراهيم بن أدهم يقول :

« من الله عليكم بالاســلام ، فأخرجكم من الشــقاء الى السعادة ، ومن الشدة الى الرخاء ، ومن الظلمات الى الضياء ..

فشبتم نعمته عليكم بالكفران ، ومررتم بالخطأ حلاوة الايمان ، ووهنتم بالذنوب عرى الايمان ، وهدمتم الطاعة بالعصيان ، وانما تمرون بمراصد الآفات ، وتمضون على جسور الهلكات ، وتبنون على قناطر الزلات .. وتحصنون بمحاض الشهوات .. فيا لله تغترون ، وعليه يجترءون ، ولأنفسكم تخدعون ولله لا تراقبون ، فانا لله وانا اليه راجعون ..

قال ابن بشار :

وسمعت ابن أدهم يقول :

« أنعم الله عليك فلم تكن فى وقت أنعمه شكورا ، لا يغررك حلمه ، واذكر مصيرك الى القبور ، واعمل ليومك يا أخى قبل حشرجة الصدور » ..

وقال ابراهيم بن أدهم : قال لقمان لابنه :

« يا بنى : ان الرجل ليتكلم حتى يقال أحمق ، وما هو بأحمق .. وان الرجل ليسكت حتى يقال له حليم وما هو بحليم ».

وقال أبى سمعت ابراهيم بن أدهم يقول :

« كثرة النظر الى الباطل تذهب بمعرفة الحق من القلب » .

ويقول ابراهيم بن بشار سمعت ابراهيم بن أدهم يقول :

« والله ما الحياة بثقة فيرجى يومها ، ولا المنية تغدر فيؤمن

غدرها ، ففيم التفريط والتقصير والاتكال والتأخير والابطاء ؟ وأمر الله جـد » .

وقال ابراهيم بن أدهم للاوزاعى : يا أبا عمرو كثيرا ما يقول مالك بن دينار :

« ان من عرف الله تعالى فى شغل شاغل ، وويل لمن ذهب عمره باطلا » ..

وروى عبد الرحمن بن الضحاك عن ابراهيم بن أدهم قال :

مكتوب فى بعض كتب الله : من أصبح حزينا على الدنيا ، فقد أصبح ساخطا على الله ، ومن أصبح يشكو مصيبة نزلت به أصبح يشكو ربه ، وأيما فقير جلس الى غنى فتضعضع له لدنياه ذهب ثلثا دينه ، ومن قرأ القرآن فاتخذ آيات الله هزوا أدخل النار .

قال ابراهيم بن أدهم :

لولا ثلاث ما باليت أن أكون يعسوبا ، ظمأ الهواجر ، وطول ليلة الشتاء ، والتهجد بكتاب الله عز وجل » .

وعن طالوت قال : سمعت ابراهيم بن أدهم يقول :

ما صدق الله عبد أحب الشهرة » .

وقال ابراهيم بن أدهم :

رأيت فى النوم كأن قائلا يقول لى :

« أو يحسن بالحر المريد أن يتذلل للعبيد وهو يجد عند مولاه ما يريد ؟ » .

وعنه رضى الله عنه قال :

« لا تجعل بينك وبين الله منعما ، وعد نعمة من غيره عليك مغرما » ..

وقال :

أثقل الأعمال فى الميزان أثقلها على الأبدان .. ومن وفى العمل وفى الأجر ، ومن لم يعمل رحل من الدنيا الى الآخرة بلا قليل ولا كثير ..

وقال ابراهيم بن بشار :

« وقف رجل صوفى على ابراهيم بن أدهم ، فقال :

يا أبا اسحاق ؟ لم حجبت القلوب عن الله ؟ ..

قال :

لأنها أحبت ما أبغض الله .. أحبت الدنيا ومالت الى دار الغرور واللهو واللعب ، وتركت العمل لدار فيها حياة الأبد ، فى نعيم لا يزول ، ولا ينفد ، خالدا مخلدا ، فى ملك سرمد لا نفاد له ولا انقطاع ..

قال : وسمعت ابراهيم بن أدهم يقول :

« اذا أردت أن تعرف الشيء بفضله ، فاقلبه بضده .. فاذا أنت قد عرفت فضله .. اقلب الأمانة الى الخيانة ، والصدق الى الكذب ، والايمان الى الكفر .. فاذا أنت قد عرفت فضل ما أتيت » ..

وقال ابراهيم بن أدهم :

« المسألة مسألتان : مسألة على ابواب الناس ، ومسألة يقول الرجل ألزم المسجد وأصلى ، وأصوم وأعبد الله ، فمن جاءنى بشيء قبلته .. فهذه شر المسألتين ، وهذا قد ألحف فى المسألة »

وكان يقـول :

« ما صدق اللهعبد أحب الشهرة بعلم أو عمل أو كرم »

وقال فى تفسير قوله تعـالى :

« تلك الدار الآخـرة نجعلها للذين لايريدون علوا فى الأرض »

من حب العلو أن تستحسن شسع نعلك على شسع نعـل أخيك » .

وصحب رضى الله عنه رجلا ، فلما أراد أن يفـارقه قال له الرجل :

« ان كنت رأيت فى عيبا فنبهنى عليه » ..

فقال له ابراهيم :

لم أر فيـك يا أخى عيبـــا ، لأنى لاحظتك بعين الوداد فاستحسنت كل ما رأيته منك ، فاسأل غيرى » .

وكان رضى الله عنه ، يقــول :

« اطلبوا العلم للعمل ، فان أكثر الناس قد غلطوا حتى صار علمهم كالجبال ، وعملهم كالذر » ..

وقال بقية ، سمعت ابراهيم بن أدهم يقول :

« عالجت العبادة فما وجدت شيئا أشد على من نزاع النفس الى الوطن » ..

وقال مضـــاء : قال ابراهيم بن أدهم :

« ما قاسـيت فيما تركت شيئا أشـــد على من مفــارقة الأوطان » .

ومن كلمـــاته :

« منذ عشرين سـنة أطلب أخا اذا غضب على لم يقـل الا الحق ، فلم أجـده » ..

ومن فوائده :

« ان الرجل الحر الكريم ، من تخرج نفسه عن الدنيا ، قبل أن يخرج منهـا » ..

وقـال :

« لو علم الملوك ما نحن فيه من النعيم ، والسرور ، ولذة العيش ، وقلة التعب ، لجالدونا عليه بالسيوف .. طلبوا الراحة والنعيم ، فأخطأوا الصراط المستقيم » .

ولما قدم سفيان الثورى رضى الله عنه الرملة ، أرسل اليه ابن ادهم ــ رحمه الله ــ أن تعال فحدثنا ، فجاءهم ، فقيل له : تبعث اليه بمثل هـذا هـكذا .. قال : أردت أن أنظر كيف تواضـعه » ..

وروى ابراهيم بسنده ، عن أبى هريرة ، رضى الله عنـه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« من تعلم علما مما يبتغى به وجه الله عز وجل ، لا يتعلمـه الا ليصيب به عرضا من الدنيا ، لم يجـد عرف (١) الجنة يوم القيامة ــ يعنى ريحها » ..

---

(١) أى ريح

وروى ــ بسنده ــ عن أنس بن مالك عن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

« ان الله تعالى يعذب الموحدين ، بقدر نقصان ايمانهم ، ثم يردهم الى الجنة ، خلودا دائما » ..

وعن ابراهيم بن بشـــار قال : ســمعت ابراهيم بن أدهم يقــول :

« الهوى يردى ، وخوف الله يشفى .. واعلم أن ما يزيل عن قلبك هواك ، اذا خفت من تعلم أنه يراك » ..

وعن بقية قال :

« كان ابراهيم بن أدهم اذا قيل له : كيف أنت ؟ .. قال : بخير ، ما لم يحمل مئونتى غيرى » . .

ومن أقواله :

« أثقل الأعمال فى الميزان ، أثقلها على الأبدان .. ومن وفى بالعمل ، وفى له بالأجر ، ومن لا عمل له ، لا أجر له » ..

وعن ابن بشـــار قال :

« أمسينا مع ابراهيم بن أدهم ذات ليلة ، وليس معنا شىء نفطر عليه ، ولا بنا حيلة ، فرآنى مغتما حزينا ، فقال :

« يا ابراهيم بن بشار ! .. ماذا أنعم الله تعالى على الفقراء والمساكين من النعيم والراحة فى الدنيا والآخرة ؟ .. لا يسألهم الله يوم القيامة عن زكاة ولا عن حج ، ولا عن صدقة ، ولا عن صلة رحم ، ولا عن مواساة ــ وانما يسأل ويحاسب عن هذا هؤلاء المساكين .. أغنياء فى الدنيا ، فقراء فى لآخرة .. أعزة فى الدنيا ، أذلة يوم القيامة ..

لا تغتم ولا تحزن ، فرزق الله مضمون سيأتيك ، نحن والله الملوك الأغنياء .. لا نبالى على أى حال أصبحنا وأمسينا اذا أطعنا الله عز وجل ــ ثم قام الى صلاته ، وقمت الى صلاتى .. فما لبثنا الا ساعة ، اذا نحن برجل قد جاء بثمانية أرغفة ، وتمر كثير .. فوضعه بين أيدينا ، وقال : كلوا رحمكم الله ، قال : فسلم وقال : كل يا مغموم .. فدخل سائل فقال : أطعمونى شيئا .. فأخذ ثلاثة أرغفة مع تمر ، فدفعه اليه ، وأعطانى ثلاثة، وأكل رغيفين ، وقال : المواساة من أخلاق المؤمنين »

وقال ابراهيم بن أدهم :

« كان عطاء السليمى اذا استيقظ من الليل ، مس جلده مخافة أن يكون قد حدث فى جسده شىء بذنوبه .. ومرض مرضا خيف عليه الموت منه ، فقيل له : أما تشتهى شيئا نجيئك به ؟

فقال : ما أبقى الله عز وجل فى جوفى موضعا للشهوات » ..

الفصل الرابع

الطريق

وأول الطــريق فى عــرف ابراهيم بن أدهم ، وفى عــرف الصوفية على وجه العموم ، انما هو التوبة .. يقول ابن أدهم :

« انك اذا أدمت النظر فى مرآة التوبة ، بان لك شين قبح المعصية » ..

والواقع أن التوبة الصادقة النصوح : هى الابتداء الطبيعى فى الطريق الى الله ـ ومن أجل ذلك حث الله ورسوله عليها فى شتى الأساليب ..

أنظر الى هذا الأسلوب الرءوف الرحيم ، حينما يقــول الله تعالى فى حديث قدسى :

« يا عبادى ؟.. انكم تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفــر الذنوب جميعا ، فاستغفرونى أغفر لكم » (١)

ولقد فتح الله أبواب رحمته على مصاريعها أمام العاصين ، فقال سبحانه :

---

(١) رواه مسلم

« ان الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفـر ما دون ذلك لمن يشـاء » (١)

وقال :

(قل يا عبـادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمـة الله ان الله يغفـر الذنوب جميعا ، انه هـو الغفـور الرحيم) (٢)

ولقد أعلن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله يفـرح بتوبة عبده المؤمن فقـال :

« لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعـيره وقد أضله فى أرض فلاة » (٣)

وقـال :

« لله أشد فرحا بتوبة عبده حين يتوب اليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة ، فانفلتت منه ، وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها ، فأتى شجرة فاضطجع فى ظلها وقد أيس من راحلته.. فبينما هو كذلك .. اذ هو بها قائمة عنده ، فأخذ بخطامها ، ثم قال من شدة الفرح :

---

(١) النساء : ٤٨

(٢) الزمر : ٥٣

(٣) متفق عليه

اللهم أنت عبدى وأنا ربك .. أخطأ من شدة الفرح » (١)

وان الملائكة لتدعو للتائبين ، فى أسلوب كله جمال ورقة ورأفة :

« الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ، ويستغفرون للذين آمنوا ، ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلما ، فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك ، وقهم عذاب الجحيم .. ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم ، ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم انك أنت العزيز الحكيم ، وقهم السيئات ، ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته ، وذلك هو الفوز العظيم » (٢) ..

والله سبحانه وتعالى يصلى على عباده ، ليخرجهم من ظلمات المعصية الى نور الطاعة :

« هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات الى النور ، وكان بالمؤمنين رحيما .. تحيتهم يوم يلقونه سلام وأعد لهم أجرا كريما » (٣) ..

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوب الى الله ويستغفره فى اليوم مائة مرة :

---

(١) رواه مسلم

(٢) غافر : ٧ — ٩

(٣) الاحزاب : ٤٣ ، ٤٤

عن ابى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقـول :

« والله انى لأستغفر الله وأتوب اليه فى اليوم أكثـر من سـبعين مرة » (١) ..

وعن الأغر بن يسار المزنى ــ رضى الله عنه ــ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« يا أيها الناس ! .. توبوا الى الله واستغفروه ، فانى أتوب فى اليـوم مائة مرة » (٢) ..

وما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوب عن ذنب، كلا ، وحاشاه صلى الله عليه وسلم وهو السراج المنير .. وهـو النور والرحمة ، وهو المعصوم ، أن يأتى الذنب ..

وما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوب عن غفلة .. كلا ، وحاشاه صلى الله عليه وسلم أن تنتابه الغفلة ، وهو مع الله فى صـلاته ونسـكه ، ومحياه وممـاته ، كما تعبر الآية الكريمة :

(قل ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ــ لا شريك له وبذلك أمرت ، وأنا أول المسلمين) ..

---

(١) البخارى
(٢) مسلم

لم كان يتوب صلى الله عليه وسلم ؟..

انه يتـــوب لأمرين :

أولا : لأن التوبة أمر بها الله تعالى ــ فهو ينفذ الأمر الالهى، وهو بذلك يطيع الله .. فتوبته عبادة ــ انه يتوب توبة عبادة .. والتوبة من أسمى القربات ، ومن أجل العبادات .. وذلك أنهــا تعبر عن الذلة لله ، والانكسار له ، والخضوع ، والتواضع .. وكل ذلك انما هو البــاب الذى يلج فيه الانســان الى ساحة الله الرحيمة ..

ان الانسان لا يلج ساحة مرضاة الله بكبر .. كلا ، والمتكبر لا مكان له فى الجنة ، ولا فى مرضاة الله ..

ان الله يقول لابليس :

(فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها) (١) ..

لا مكان فى الجنة لمتكبــر ، والمتكبر مطرود من رحمــة الله ..

والتوبة هى المظهر لعــدم التــكبر ، انها معارضة لموقف المطرودين من الجنة ..

---

(١) الاعراف : ١٣

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوب الى الله توبة عبودية وانكسـار ..

أما الأمر الثانى الذى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر التوبة من أجله ، فهو الدخـول فى حب الله سبحانه له ..

ان الله أعلن أنه يحب التوابين :

(ان الله يحب التـوابين) ..

ورسول الله صلى الله عليه وسلم يحب أن يدخل الى حب الله له من كل باب يوصـل الى ذلك .. فهـو يدخل من باب الاحسان ، لأن الله تعالى يقول :

(ان الله يحب المحسنين) ..

ويدخل من باب التقوى ، لأن الله تعالى يقول :

(ان الله يحب المتقين) ..

ويدخل من باب الصبر لأن الله يقـول :

(والله يحب الصابرين) ..

وكذلك يدخل من باب التوبة ، لأن الله يقول :

(ان الله يحب التوابين)

ويدخل من كل باب يؤدى الى حب الله ومرضاته ..

وأول الطـريق ـ اذن ـ كما يرسـمه ابن ادهم ، هـو التـوبة ..

وإذا صدقت التوبة استتبعت العمل ، وكان لها مظاهر ، وهذه المظاهر لصدق التوبة كثيرة ، منها مثلا :

ما رواه عبد الله بن دلود قال : قال ابراهيم بن أدهم :

(خرجت أريد بيت المقدس ، فلقيت سبعة نفر ، فسلمت عليهم وقلت : أفيدونى شيئا لعل الله ينفعنى به .. فقالوا لى :

انظر كل قاطع يقطعك عن الله من أمر الدنيا والآخرة فاقطعه، فقلت : زيدونى رحمكم الله .. قالوا : انظر ألا ترجو أحدا غير الله ، ولا تخاف غيره .. فقلت : زيدونى رحمكم الله .. قالوا : أنظر كل من يحبه فأحبه ، وكل من يبغضه فابغضه ..

قلت : زيدوني رحمكم الله .. قالوا : عليك بالدعاء والتضرع والبكاء فى الخلوات والتواضع والخضوع له حيث كنت ، والرحمة للمسلمين والنصح لهم ..

فقلت لهم : زيدونى رحمكم الله .. فقالوا :

« اللهم خل بيننا وبين هذا الذى شغلنا عنك .. ما كفاه هذا كله ..

فلا أدرى السماء رفعتهم ، أم الأرض ابتلعتهم ، فلم أرهم ونفعنى الله بهم » ..

ومنها ما قاله ابن أدهم لرجل فى الطواف :

اعلم أنك لاتنال درجة الصالحين حتى تجوز ست عقبات :

أولاها : تغلق باب النعمة ، وتفتح باب الشدة ــ « والنعمة هنا الترف والكسل والتراخي ، والشدة : أن يحمل نفسه على أداء التكاليف » ..

والثانية : تغلق باب العز ، وتفتح باب الذل .. « والعــز هنا يدخل فيه الكبر والخيلاء والزهو ، أما الذل فانه التواضع والانكسار » ..

والثالثة : تغلق باب الراحة ، وتفتح باب الجــد ..

والرابعة : تغلق باب النوم ، وتفتح باب السهر ..

والخامسة : تغلق باب الغنى ، وتفتح باب الفقر « يقــول تعالى : ان الانسان ليطغى ، أن رآه استغنى » .. والمعنى : أن تغلق باب الغنى عن الله ، وتفتح باب الفقر والافتقار اليه ..

والسادسة : تغلق باب الأمل ، وتفتح باب الاســـتعداد للموت » ..

ومنها ما قاله ابراهيم بن أدهم ، عن وصية الله لآدم :

« أول ما كلم الله تعالى آدم عليه السلام قال :

أوصيك بأربع ، ان لقيتني بهن أدخلتك الجنة ، ومن لقيني بهن من ولدك أدخلته الجنة ، واحدة لي ، وواحدة لك ، وواحدة بيني وبينك ، وواحدة بيني وبينك وبين الناس ..

فأما التى لى : فتعبدنى ولا تشرك بى شيئا ..

وأما التى لك : فما عملت من عمل وفيتك اياه ..

وأما التى بينى وبينك : فمنك الدعاء ومنى الاجابة ..

وأما التى بينى وبينك وبين الناس : فما كرهت لنفسك فلا تأته الى غيرك ..

وتتوالى نصائح ابراهيم بن أدهم فى مظاهر صدق التوبة، فيقـول :

« لاتطمع فى الأنس بالله ، مع الأنس بالخلق، ولا فى الحكمة مع ترك التقـوى » ..

ويقول :

« علامة نور القلب : أن يكون أكثر هم صاحبه العبادة ، وأكثر كلامه الثناء على الله ، وحكايات الصالحين » ..

وقـال :

« انما يزول عن قلبك هـواك ، اذا خفت من تعـلم أنه يراك » ..

وقـال :

« انما حجبت القلوب عن الله ، لكونها أحبت ما أبغضه ، فمالت للدنيا ، وتركت العمل لدار فيها حياة الأبد » ..

اذا صدقت التوبة استتبعت العمل كما قلنا ، أما غاية العمل: فان ابن أدهم ينبه عليها فى هذا المعنى السامى فيما يقوله لأبى زيد الجذامى :

يا أبا زيد ! .. ما ترى غاية العابدين من الله تعالى غـدا فى أنفسهم ؟ ..

قال أبو زيد : الذى أظن سكنى الجنة .. قال : لقد ظننت ظنا ، ووالله انى لأدرى أن أكبر الأمر عندهم أن لايعرض بوجهه الكريم عنهم » ..

وتنتهى التوبة الصادقة لا محالة الى التقوى :

يروى ابراهيم بن بشار عن ابراهيم بن أدهم قال : قـال الله عز وجل :

(ومن يطـع الله ورسـوله ويخشى الله ويتقه فأولئك هم الفائزون) .. فأعلمك أن بتقواه يستوجب جميل الثـواب ، وينجو المتقون من سكرات يوم الحساب ، ويؤولون الى خير باب .. ثم قال : صدق الله :

(ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) ..

الورع :

واذا صدقت التوبة أثمرت الورع .. يقول شيخنا :

(تب الى الله ينبت الورع فى قلبك) ..

ويساعد على وراثة الورع أمور : يقول ابن أدهم :

(قلة الحرص والطمع .. تورث الصدق والورع .. وكثرة الحرص والطمع ، تورث الهم والجزع) ..

أما تمام الورع ، فان ابن أدهم قد سئل عنه فيما يحكى ابراهيم بن بشار ، قال : سئل ابراهيم بن أدهم : بم يتم الورع؟ قال :

بتسوية كل الخلق من قلبك ، واشتغالك عن عيوبهم بذنبك، وعليك باللفظ الجميل من قلب ذليل لرب جليل .. فكر فى ذنبك، وتب الى ربك ، يثبت الورع فى قلبك ، وأحسم الطمع الا من ربك) ..

ومما لاشك فيه أن منزلة الورع فى الاسلام كبيرة .. انه تحرى الحلال .. وهو أن لا يأتى الانسان شيئا أو يدعه الا وهو على يقين من أن ذلك هو مرضاة الله سبحانه .. والآثار فى ذلك كثيرة :

منها ما رواه البخارى وغيره — بسنده — عن النعمان بن بشير قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« الحلال بين ، والحرام بين ، وبينهما مشبهات لا يعلمها كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لعرضه ودينه، ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام ، كراعى يرعى حول

الحمى يوشك أن يواقعه .. ألا وان لكل ملك حمى ، ألا وان حمى الله فى أرضه محارمه .. ألا وان فى الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله ، واذا فسدت فسد الجسد كله .. ألا وهى القلب » ..

وعن ابن عباس قال :

تليت هذه الآية عند رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(يا أيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيبا) .. فقام سعد بن أبى وقاص فقال : يارسول الله !.. ادع الله أن يجعلنى مستجاب الدعوة ، فقال : يا سعد ! أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة ، والذى نفس محمد بيده ، ان الرجل ليقذف اللقمة الحرام فى جوفه ما يتقبل منه أربعين يوما ، وأيما عبد نبت لحمه من السحت والربا فالنار أولى به ..

الزهـــــــد :

واذا صدق الورع أسلم الى الزهد ..

ويروى ابراهيم بن أدهم فى ذلك بعض الأحاديث الشريفة.. فيروى عن أرطاة ــ يعنى ابن المنذر ــ قال : جاء رجل الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله !.. علمنى عملا يحبنى الله تعالى عليه ، ويحبنى الناس .. قال : أما ما يحبك الله

تعالى عليه ، فالزهد فى الدنيا .. وأما ما يحبك الناس عليه فما كان فى يدك فانبذه اليهم » ..

ويروى ابراهيم بن أدهم ـ بسنده ـ عن يونس ، أن رجلا أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : « دلنى على عمل اذا أنا عملته أحبنى الله عز وجل ، وأحبنى الناس عليه ..

فقال له النبى صلى الله عليه وسلم :

« ازهد فى الدنيا يحبك الله وأما النـاس فانبذ اليهم هذا يحبـوك »

ويصنف ابن أدهم الزهد فيقـول :

« الزهد ثلاثة أصناف : فزهد فرض ، وزهـد فضـل ، وزهد سـلامة :

فالفرض : الزهد فى الحرام ، والفضل : الزهد فى الحلال، والسلامة الزهد فى الشبهات .

وقـد تتسـاءل عن غاية الزاهدين ، فيجيبك شـيخنا :

« انما زهد الزاهدون فى الدنيا ، اتقاء أن يشركوا الحمقى والجهال فى جهلهم ..

ومن مظاهر الزهد عند ابن أدهم ، أنه قيل له :

ان اللحم قد غلا ، فقال : أرخصوه .. أى لا تشتروه .
وقد كتبنا عن معنى الزهد عند الصوفية، فى مقدمة الكتاب، ورأينا أن المعنى الذى يفهمه الناس عن الزهد عند الصوفية غير دقيق ..

المحبـــــــــــة :

من طريف ما يروى عن المحبة بالنسبة لشيخنا ، ما رواه فارس النجار قـال :

« بلغنى أن ابراهيم بن أدهم رأى فى المنام كأن جبريل عليه السلام قد نزل الى الأرض ، فقال له : لم نزلت الى الأرض ؟.. قال : لأكتب المحبين .. قال : مثل من ؟.. قال : مثل مالك بن دينار ، وثابت البنانى ، وأيوب السختيانى ، وعد جماعات قال: أنا منهم ؟.. قال : لا .. فقلت : فاذا اكتبتهم فاكتب تحتهم محب للمحبين .. قال : فنزل الوحى : اكتبه أولهم » ..

ويفسر ابراهيم بن أدهم قوله تعالى :

« فمنهم ظالم لنفسه ، ومنهم مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات » ..

قال : السابق مضروب بسوط المحبة ، مقتول بسيف الشوق، مضطجع على باب الكرامة .. والمقتصد مضروب بسوط الندامة .. مقتول بسيف الحسرة ، مضطجع على باب العفو ..

والظالم لنفسه مضروب بسوط الغفلة ، مقتول بسيف الأمل ، مضطجع على باب العقــوبة » ..

ويتحدث ابراهيم بن أدهم الى الناس ، في قوة مبينا لهم ما يصرفهم عن أن يصلوا الى درجة المحبة ، وهو حديث يبين فى الوقت نفسه الطريق اليها ، فيقــول :

« ليس من أعــلام الحب أن تحب ما يبغض حبيبك ، ذم مولانا الدنيا فمدحناه وأبغضها فأحببناها ، وزهدنا فيها فآثرناها ورغبنا فى طلبها ، وعدكم خراب الدنيا فحصنتموها ، ونهيتم عن طلبها فطلبتموها ، وانذرتم الكنوز فكنزتموها .. دعتكم الى هذه الغــرارة دواعيها ، فأجبتم مسرعين مناديها ، خــدعتكم بغرورها ومنتكم فانقــدتم خاضــعين لأمنيتها ، تتمرغون فى زهواتها، وتتمتعون فى لذاتها، وتتقلبون فى شهواتها، وتتلوثون بتبعاتها .. تنبشون بمخالب الحرص عن خزائنها ، وتحفــرون بمعاول الطمع فى معادنها، وتبنون بالغفلة فى أماكنها، وتحصنون بالجهل فى مســاكنها .. تريدون أن تجــاوروا الله فى داره ، وتحطوا رحالكم بقربه ، بين أوليائه وأصفيائه ، وأهل ولايته، وأنتم غرقى فى بحار الدنيا حيارى ترتعون فى زهواتها ، وتتمتعون فى لذاتها ، وتتنافسون فى غمراتها ، فمن جميعها ما تشبعون ، ومن التنافس فيها ما تملون ، كذبتكم والله أنفسكم ، وغرتكم ومنتكم الأمانى ، وعللتكم بالتوانى ، حتى لا تعطــوا اليقين

من قلوبكم ، والصدق من نياتكم ، وتتنصلون اليــه من مساوى ذنوبكم ، وتعصوه فى بقية أعماركم ، أما سمعتم الله تعــالى يقول فى محكم كتابه :

« أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار » .

لاتنال جنته الا بطاعته ، ولا تنال ولايته الا بمحبته ، ولا تنال مرضاته الا بترك معصيته ، فان الله تعالى قد أعد المغفرة للأوابين ، وأعد الرحمة للتوابين ، وأعد الجنة للخائفين ، وأعد الحور للمطيعين ، وأعد رؤيته للمشتاقين ، قال الله تعالى :

« وانى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتــدى ».. من طريق العمى الى طريق الهدى ..

والمحب منصرف الى العبادة :

قال ابراهيم بن أدهم ذات يوم :

« لو أن العبــاد علموا حب الله عــز وجل ، لقل مطعمهم ومشربهم ، وملبسهم وحرصهم ، وذلك أن ملائكة الله أحبوا الله فاشتغلوا بعبادته عن غيره ، حتى ان منهم قائما وراكعا وساجدا، منذ خلق الله الدنيا ما التفت الى من عن يمينه وشماله ، اشتغالا بالله تعالى وبخدمته » ..

أما مواريث المحبة فيوضحها شيخنا قائلا :

« كنت مارا فى بعض المـدن ، فرأيت نفسـين من الزهاد والسياحين فى الأرض ، فقال أحدهما للآخر :

« يا أخى !.. ما ورث أهل المحبة من محبوبهم ؟.. فأجابه الآخر ، ورثوا النظر بنور الله تعالى ، والتعطف على أهل معاصى الله ، قال : فقلت له : كيف يعطف على قـوم قـد خالفوا محبوبهم ، فنظر الى ثم قال :

مقت أعمالهم ، وعطف عليهم ليردهم بالمواعظ عن أفعالهم ، وأشفق على أبدانهم من النار .. لا يكون المؤمن مؤمنا حقـا حتى يرضى للناس ما يرضى لنفسه ، ثم غابوا فلم أرهم » ..

والمحبـون زوار الرحمن ، ويصف ابراهيم بن أدهم فى أسلوب جميل ، النعيم الذى ينتظرهم فيقول :

« بؤسا لأهل النار ، لو نظروا الى زوار الرحمن قد حملوا على النجائب يزفون الى الله زفا ، وحشروا وفدا ، ونصـبت لهم المنابر ، ووضعت لهم الكراسى ، وأقبل عليهم الجليل جل جلاله بوجهه ليسرهم ، وهو يقـول :

« الى عبادى ، الى عبادى ، الى أوليائى المطيعـين ، الى أحبائى المشتاقين ، الى أصفيائى المحزونين .. ها أنذا .. عرفونى من كان منكم مشتاقا أو محبا أو متملقا (١) فليتمتع بالنظر الى وجهى الكريم ، فوعزتى وجلالى لأفرحنكم بجوارى، ولأسرنكم

---

(١) متملقا الى الله أى يفعل ما يحب الله سبحانه

بقربى ، ولايبحنكم كرامتى ، من الغرفات تشرفون ، وتتكئون على الأسرة فتتملكون .. تقيمون فى دار الكرامة أبدا لا تظعنون تأمنون فلا تحزنون ، تصحون فلاتسقمون ، تتنعمون فى رغد العيش لاتموتون ، وتعانقون الحور الحسان فلا تملون ولا تسأمون ، كلوا واشربوا هنيئا ، وتنعموا كثيرا بما أنحلتم الأبدان ، وأنهكتم الأجساد ، ولزمتم الصيام ، وسهرتم بالليل والناس نيام » ..

واذا نظرنا الآن الى الصفات التى تؤهل المؤمن لحب الله سبحانه ، فان منها : الصبر ، والله تعالى يقول :

« والله يحب الصابرين »

ومنها التقوى ، يقول تعالى :

« ان الله يحب المتقين »

ومنها الاحسان ، يقول تعالى :

« ان الله يحب المحسنين »

ومنها طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم وحسن اتباعه ، يقول تعالى :

(قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم) ...

خاتمة

ان شخصية كشخصية ابراهيم بن أدهم لا يتأتى أن تكون الا شخصية سعيدة من جانبين :

١ ــ من جانب المجتمع الذى يعيش فيه فقد سالمه ابراهيم ابن أدهم فى الجانب الذى يثير الأحقاد والخصــومات : وهو جانب الدنيا ، فسالمه المجتمع ، وعاش ابراهيم بن أدهم لا ينغصه منغص من زاوية المادة .

وسار ابراهيم بن أدهم فى الدعوة الى الله معتمدا على القدوة الحسنة أكثر من اعتماده على الزجر والتأنيب ، وكيل المواعظ المعنفة ، فاقتدى به الكثيرون واتخذوه مثلا كريما يحتذونه .

وسار ابراهيم بن أدهم فى هدايته للناس على طريق الرفق ، فكانت هدايته تتسم بالرفق والرقة ، وأخذ الأمور على ماأحب الله للواعظ بقوله لموسى وهارون عليهما السلام حينما خافا من فرعون أن يفرط عليهما أو أن يطغى :

« فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى (١) » .

---

(١) طه آية : ٤٤

ولم يكن ابراهيم بن أدهم يسير فى هدايته للناس على جهل، كلا ، وانما تعلم وتثقف ودرس سيرة رسول الله صلى الله عليـه وسلم دراسة مستفيضة وسار على نهجه وفى سنته ممتثلا قوله تعالى :

« لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا (١) » .

فلما رأى نفسه على بصيرة من أمر الدين والدعوة أخذ فى الدعوة الى الله بسلوكه وبقوله الرفيق ، وكان من هؤلاء الذين يتابعون الرسل فى الدعوة الى الله والذين يدخلون فى نطاق من يقول الله تعالى عنهم :

« الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشـون أحدا الا الله وكفى بالله حسيبا (٢) .

وهو لم يبدأ بذلك حتى كان داخلا فى أتباع رسـول الله صلى الله عليه وسلم الذين يقول القرآن عن رسول الله وعنهم :

« قل هذه سبيلى أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين (٣) » .

---

(١) الاحزاب آية : ٢١
(٢) الاحزاب آية : ٣٩
(٣) يوسف آية : ١٠٨

وكان ابراهيم بن أدهم يخالط الناس وينبسط اليهم من أجل تحبيبهم فى الهداية ، ومن أجل أن يسير بهم الى أبواب المغفرة .

يقول الفريابى :

سمعت رجلا قال للأوزاعى : أيهما أحب اليك ؟ ابراهيم بن أدهم أو سليمان الخواص ؟ قال :

« ابراهيم بن أدهم أحب الى ، لأن ابراهيم يخاطب الناس وينبسط اليهم » .

وقدره المجتمع من أجل ذلك أيضا ، فكانت صلته بالمجتمع صلة صاحب الخير الذى يبشر به أينما حل ، يبشر به بسلوكه وبعلمه .

أما الجانب الآخر الذى جعل منه سعيدا فى حياته فهو جانب صلته بالله :

لقد دخل ابراهيم بن أدهم المعركة مع الشيطان ومع نفسه وهواه مصمما على الانتصار بتوفيق الله ، ولجأ الى الله فى استماتة ، وفى ذلة وعبودية وانكسار ، وسهر الليالى متعبدا ضارعا ، وصام الأيام والشهور راجيا ، وأحب العبادة وأنس بربه ، واستقامت له العبودية ، فأعلن عن ثمرة كل ذلك قائلا فى شكر لله وحمد له :

« نحن فى نعيم لو علمه الملوك لجالدونا عليه بسيوفهم »

ولم يكن هذا النعيم قصورا ، أو جـوارى ، أو ثراء ، أو جاها دنيويا ، أو رئاسة ، كلا ، وانما السكينة تنزلت عليـه ، وهو :

« رضى الله عنهم ورضوا عنه »

وهو : « يحبهم ويحبونه »

وهو : « من عمل صـالحا من ذكر أو أنثى وهـو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ماكانو يعملون(١)»

وهو : « ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، ولكم فيها ماتشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون نزلا من غفور رحيم (٢) » .

وهو : « ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، الذين آمنوا وكانوا يتقون ، لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، لا تبديل لكلمات الله ، ذلك هو الفوز العظيم (٣) » .

ولقد قدره معاصروه ، وقدره المؤرخون .

---

(١) النحل آية : ٩٦

(٢) فصلت آية : ٣٢

(٣) يونس آية : ٦٢ ، ٦٣

يقول صاحب الحلية :

« ومنهم الحـازم الأحزم ، والعازم الألزم ، أبو اسـحاق ابراهيم بن أدهم ، أيد بالمعارف فوجد وأمد بالملاطف فعبد ، كان عن المقطوع والمرذول متباعدا ، وبالمرفوع والموصول متشاغلا

كان شرع الرسول نهجه ، واختياره عليه السلام مرجعه .

ألف الميمون الموصول ، وخالف المفتون المخذول »

ويتابعه صاحب الكواكب الدرية فيقول :

« الحازم الأحزم ، العارف الأعزم ، كان عن المقطوع المرذول ذاهلا ، وبالمرفوع الموصول متشـاغلا ، وكان شرع الرسـول منهاجه ، واختياره عليه الصلاة والسـلام مزاجه ، ألف الميمون الموصول ، وخالف المفتون المخذول » ا هـ

ومات بالجزيرة سنة اثنين وستين ومائة ، وحمل فدفن بصور ، وقبره بها مشهور .

وقال ابن عساكر :

غزا فى البحر فمات فيه فدفن فى بعض جزائر البحر فى بلاد الروم ، رضى الله تعالى عنه ورحمه رحمة واسعة .

الحمد لله أولا وآخرا

وصلى الله وسلم على سيدنا ومولانا محمد النبى الأمى وعلى آله وصحبه أجمعين .

فهرس

رقم الايداع بدار الكتب ٥٧٣٩/١٩٧١

وزارة الثقافة

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر

المركز الرئيسي ١١١٧ شارع كورنيش النيل – القاهرة – ج.ع.م.
تليفون : ٧١٠٥٥ /٧١٠٥٨ تلغرافياً : يانشرو

الادارة العامة للتوزيع : ١٧ شارع قصر النيل – القاهرة – ج.ع.م.
تليفون : ٤٥٥٨٩ /٤٧٤٣٦

مكتبات القومية للتوزيع فى ج . ع . م .

القـــاهرة

٣٦ شارع شريف	ت : ٤٠٠١٢	١٩ شارع ٢٦ يوليو	ت : ٥٥٠٣٢
٥ ميدان عرابى	ت : ٤٦٣٨٣	٢٢ شارع الجمهورية	ت : ٩١٤٢٢٣
١٣ شارع المبتديان	ت : ٢١١٨٧	الباب الأخضر بالحسين	ت : ٩١٣٤٤٧

الاسكندرية :	٤٩ شارع سعد زغلول	٢٢٩٢٥	الجيزة :	١ ميدان الجيزة ت: ٨٩٨٣١١
دمنهور :	شارع عبد السلام الشاذلى	٢٦٠٥	المنيا :	شارع ابن خصيب ت:٤٤٥٤
طنطا :	ميدان الساعة	٢٥٩٤	اسيوط :	شارع الجمهورية ت:٢٠٣٢
المحلة الكبرى :	ميدان المحطة	٤٢٧٧	اسوان :	السوق السياحى ت: ٢٩٣٠
المنصورة :	أول شارع الثورة	٣٨٦٤		

مراكز التوزيع خارج ج . ع . م

لبنان : الشركة القومية للتوزيع – بيروت – شارع سوريا بناية أبناء صمدى وصالحة
العراق : الشركة القومية للتوزيع – بغـــداد – ميدان التحرير – عمـــارة فاطمة

توكيلات وعملاء دائمين خارج ج . ع . م

الكويت : وكالة المطبوعات ٢٧ شارع فهد السالم بالكويت
الاردن : مكتبة المحتسب – عمان
ليبيــا : محمود عارف الشويهدى – طرابلس
اندونيسيا : عبد الله محمد العيدروس – جاكرتا
تونس : الشركة التونسية للتوزيع ٥ شارع قرطاج – تونس
الجزائر : ٩٢ شارع ديدوش مراد بالجزائر العاصمة
المغرب : المركز الثقافى العربى للنشر والتوزيع ٤٢ – ٤٤ الشارع الملكى – الاحباس – الدار البيضاء
هولندا : مكتبة بريل – ليدن

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر
فى خدمة القارىء العربى

الهيئة المصرية العامة للكتاب

لام العرب

٩٩

عبد الرحمن الكواكبي

تأليف : دكتور محمد عبد الرحمن برج

الهيئة
المصرية
العامة
للكتاب

أعلام العرب

عبد الرحمن الكواكبي

تأليف : دكتور محمد عبد الرحمن برج

الهيئة المصرية العامة للكتاب
دار التأليف والنشر
١٩٧٢

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

ما أظن ان التاريخ العربى الحديث سيغفل فى يوم من الأيام عن ذكر الثائر العربى العملاق عبد الرحمن الكواكبى • وما أظن أنه سيبخل أن يوسع له فى صفحاته أكبر نصيب وأوفى مساحة ، بل ما أظن أن أمتنا العربية ستنسى فضل هذا العلامة الكبير عليها •

لقد آمن بأمته وبحقها فى الحرية والاستقلال وبأنها جديرة أن تتبوأ المكانة التى اختصها الله بها دون سائر الامم فكانت خير أمة أخرجت للناس •

انطلقت صيحة الكواكبى فى وقت ران اليأس فيه على النفوس وخيم الاستسلام على القلوب ، فأخذ يبعث الهمة ويذكر بالأمجاد والمفاخر• يذكر أبناء هذه الأمة أنهم أعرق الأمم اتباعا لأصول تساوى الحقوق وتقارب المراتب فى الهيئات الاجتماعية وأنهم أفضل الأقوام لأن يكونوا مرجعا فى الدين وقدوة للمسلمين لأن الرسالة السماوية نزلت فيهم • ولذلك فانه اذا ما أريد اختيار خليفة للمسلمين يرعى شئون دينهم ويسهر على حماية شريعتهم ، ينبغى أن يكون هذا

الخليفة عربيا قرشيا كسابق العهد عندما كان الأمر بيد العرب والخلافة الاسلامية منحصرة فيهم · فلما خرجت منهم اعوج أمر هذا الدين وتدهور شأنه لأن الأمر صار الى غير أهله ·

على ان الفضل الكبير الذى تدين به الأمة العربية للكواكبى أنه نظر اليهــا نظرة الطبيب الى المريض فأخذ يفتش عن مواطن الداء يبغى استئصاله ويقر العلاج الحاسم اللازم له ويجوب أنحاء الوطن العربى يستقصى وينقب ويسأل ويبحث حتى يكون ما يقرره من علاج لهذا الانحطاط الذى ران على أمته علاجا شافيا ناجعا ·

ولقد شهدت الامة العربية عددا من دعاة الاصلاح قبل الكواكبى وبعده ، لكن الشىء الذى بز به هذا المصلح العظيم أقرانه الأخيرين أنه أحسن تشخيص الداء فأحسن ذكر الدواء · جاءت كتابته كتابة باحث علمى عملى يحلل ويذكر الاعراض ويصف الداء وسببه والعلاج الناجع له · فهو لا يرجع أسباب انحطاط الامة العربية الى جانب واحد أو الى شىء معين ، لكنه يرجعه الى أسباب عدة ومنازع شتى ثم هو يجمله فى أسباب دينية وأخرى سياسية وغيرها أخلاقية · يتصدر الاسباب الدينية موقف بعض العلماء من ديننا الحنيف السمح ، هؤلاء الذين أدخلوا على الدين ما ليس فيه وما لم يدع به نبينا صلى الله عليه وسلم ، فلم يعد بسيطا كما كان انما أصبح التشدد والتعصب سماته والخرافات والبدع مظاهره ·

كذلك يرجع الاسباب السياسية الى الاستبداد الذى فرض على أبناء هذه الامة فحرمهم حرية القول والعمل وأفقدهم الامن والأمل · أما الاسباب الاخلاقية فأفاض فيها الكواكبى وبسط وأطال وكان صريحا عنيفا فى وقوفه فى وجه أولئك اليائسين المتشككين المشككين فى مقدرة هذه الامة رغم عظم قدراتها · فهو يقول على لسان رئيس جمعية أم القرى التى تخيل عقدها فى مكة للبحث والتدارس فى

شئون المسمين · ينبغي أيها السادات أن لا يهولنا ما ينبسط في جمعيتنا من تفاقم أسباب الضعف والفتور كيلا نيأس من روح الله وأن لا نتوهم الاصابة في قول من قال ان أمتنا ميتة فلا ترجى في حياتنا ، كما لا اصابة في قول من قال اذا نزل الضعف في دولة أو أمة لا يرتفع · فهذه الرومان واليونان والامريكان والطليان واليابان وغيرها كلها أمم أمثالنا استرجعت نشأتها بعد تمام الضعف وفقد كل اللوازم الادبية للحياة السياسية ؛ ثم هو يحمل في شدة على هؤلاء الدعاة بأقوال كانت السبب في استسلام الكثيرين وعجزهم عن تغيير أحوالهم بقولهم ان المسلم مصاب وأن الله اذا أحب عبدا ابتلاه ، وان أكثر أهل الجنة البله أو قولهم حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه الى آخر هذه الأقوال ·

ويرى الكواكبي ان الامة العربية أحوج ما تكون لشبابها رجال المستقبل وصانعي مجدها في غدها ويخشى من تسلط أفكار اليأس والاستسلام التي يبثها من بيدهم أمر هؤلاء الشباب ، اني أرى ان هذا الفتور بالغ في غالب أهل الطبقة العليا من الامة ولا سيما في الشيوخ لأننا نجدهم ينتقصون أنفسهم في كل شيء ويتعاجزون عن كل عمل ويحجمون عن كل اقدام ويتوقعون الخيبة في كل أمل ·· وهؤلاء الواهنة يشق عليهم مفارقة حالات ألفوها عمرهم كما يأنف الجسم السقم فلا تلذ له العافية ، فانهم منذ نعومة أظفارهم تعلموا الادب مع الكبير يقبلون يده أو ذيله أو رجله وألفوا الاحترام فلا يدوسون الكبير ولو داس رقابهم وألفوا الثبات ثبات الأوتاد تحت المطارق وألفوا الانقياد ولو الى المهالك وأنفوا أن تكون وظيفتهم في الحياة دون النبات ذاك يتطاول وهم يتقاصرون ذاك يطلب السماء وهم يطلبون الارض كأنهم للموت مشتاقون · وهكذا طول الألفة على هذه الخصال قلب في فكرهم الحقائق وجعل عندهم المخازي مفاخر فصاروا يسمون التصاغر أدبا والتذلل لطفا والتملق فصاحة واللكنة رزانة وترك الحقوق سماحة وقبول الاهانة تواضعا ·

وبعد أن يحمل الكواكبى على هؤلاء الذين ألفوا الفتور والخور يخشى أن يبثوا سمومهم فى الناشئة فهو يقول «وليعلم ان الناشئة الذين تعقد الامة آمالها بأحـلامهم عسى يصدق منهــا شيء وتتعلق الأوطان بحبال همتهم عساهم يأتون فعلا هم أولئك الشباب ومن فى حكمهم المحمديون المهذبون الذين يقال فيهم ان شباب رأى القوم عند شبابهم الذين يفتخرون بدينهم ·· الذين يعلمون أنهم خلقوا أحرارا فيأبون الذل والأســـار الذين يودون أن يموتوا كراما ولا يحيون لئاما ·· الذين يحبون وطنهم حب من يعلم أنه خلق من تراب ·· والذين يعشقون الانسانية ويعلمون ان البشرية هى العلم والبهيمية هى الجهالة ·· الذين يعتبرون ان خير الناس أنفعهم للناس ·· الذين يعرفون ان القنوط وباء الآمال والتردد وباء الاعمال ·· الذين يفقهون أن القضاء والقدر هى السعى والعمل · الذين يوقنون ان كل ما على الارض من أثر هو من عمل أمثالهم البشر فلا يتخيلون « المقدرة ولا يتوقعون من الأقدار الا خيرا · »

كذلك رأى الكواكبى ان أحد أســـباب تخلف أمته هى أنها لا تتبع ما نسميه اليوم بالنظام الاشتراكى واذا كان الكواكبى لم يدع الى هذا المذهب صراحة فان مانادى به هو لب الاشتراكية وجوهرها· لقد نادى بأن توزيع الاراضى فيه إجحاف بالفقراء والفلاحين والعمال واشترط لحيازة المال بعض الشروط : «الشرط الأول أن يكون احراز المال بوجه مشروع حلال أى باحرازه من بذل الطبيعة أو فى مقابل عمل · والشرط الثانى أن لا يكون فى التحول تضييق على حاجيات الغير كاحتكار الضروريات أو مزاحمة الصناع والعمال الضعفاء أو التغلب على المباحات مثل امتلاك الأراضى التى جعلها خالقها مراحا لكافة مخلوقاته » ·

أما دعوته الى تعليم المرأة فقد سبق بها كل المصلحين الآخرين مثل قاسم أمين وغيره ومن قوله فى هذا المقام ، ان لانحلال أخلاقنا

سببا آخر يتعلق بالنساء وهو تركهن جاهلات على خلاف ماكان عليه أسلافنا حيث كان يوجد في نسائنا كأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها التي أخذنا عنها نصف ديننا ، وكمئات من الصحابيات والتابعيات راويات الحديث والمتفقهات فضلا عن ألوف العالمات والشاعرات اللاتي في وجودهن في الصدر الاول بدون انكار حجة دامغة ترغم أنف غيرة الذين يزعمون ان جهل النساء أحفظ لعفتهن فضلا عن أنه لا يقوم لهم برهان على ما يتوهمون حتى يصح الحكم بأن العلم يدعو للفجور ، وأن الجهل يدعو للعفة • نعم ربما كانت العالمة أقدر على الفجور من الجاهلة ولكن الجاهلة أجسر عليه من العالمة ثم ان ضرر جهل النساء وسوء تأثيره في أخلاق البنين والبنات أمر واضح غني عن البيان وانما سوء تأثيره في أخلاق الأزواج فيه بعض خفاء يستلزم البحث •• » •

هذه بعض لمحات سريعة عارضة لجوانب العظمة في دعوة الكواكبي • والامم في محبتها أشد ما تكون حاجة الى تاريخها تفتش فيه وتنقب وتبحث عن جوانب العظمة الكامنة في هذا التاريخ تتخذ منه زادا يعينها في نضالها ونبراسا يضيء لها الطريق ويحيي موات الأمل في تلك النفوس التي يسعى التخاذل الى أوصالها ويثبط بعض تلك الهمم •

ولقد عشت فترة طويلة من الوقت ادرس الكواكبي ودعوته الاصلاحية التي نادى والصيحة الثورية التي انطلق بها قلمه وذلك حين عهدت الى جامعة الجزائر من بين ما عهدت الى تدريس مادة اليقظة العربية لطلابها في ليسانس قسم التاريخ ، فلم أجد أمتنا أحوج ما تكون لشيء مثل حاجتها الى ما نادى به الكواكبي وما دعا اليه • وكأني بالكواكبي يعيش معنا أيامنا هذه ويرى أمتنا العربية على ما هي عليه فيكتب في أسباب ذلك وعلاجه ذلك ان ما كتبه الكواكبي لم يكن غثاء أذرت به الرياح أو كلمات طوتها الأيام

والسنون مثلما طوت غيرها من الكلمات والكتابات • ولكن كلمات الكواكبي وكتاباته كانت صادرة عن مبـــادىء عربية أصيلة ووعى عربى كبير واحساس بمواطن الضعف فى هــذه الامة • وما أحوج علماء ديننا وما أشد حاجة شبابنا وفتياتنا بل ما أشد حاجة كل فرد من أبناء أمتنا أن يأخذ من كلمات الكواكبي دليلا ونبراسا نستضىء به فى مرحلة حاسمة من مصيرنا ينبغى أن نجمع فيه أسباب القوة والعزة وأن ننفض عن أنفسنا كل دعوة يأس وهمسة شـــك فى مقدراتنا وقدراتنا •

أما حياته نفسها فكانت بحق نموذجا لشخصية عظيمة أبت الركون الى الظلم والضيم فثـارت فى وجه هذا الظلم صارخة غير مستسلمة له ولا راضية به • وسيلمس القـارىء الكريم حين يمر على صفحات هذا الكتاب ان صيحة الكواكبي للمناداة بالحرية وما لقيه بسببها من سجن وتشريد جاءت فى وقت أحصى على الناس كل حركاتهم وسكناتهم وأصبح الشك فى أى شخص كفيل بزجه فى غياهب السجون• لكن ذلك لم يزد الكواكبي الا ايمانا بأن الاستبداد هو عدو الحق والحرية وقاتلهما • ولما أحس ان أمته رضيت بهذا الاستبداد واستكانت له أخذ يحسها على ما صارت اليه حالها ومآلها يشعرها بحقها • فهو يقول :

ان المســـتبد يود أن تكون رعيته بقرا تحلب وكلابا تتذلل وتتملق وعلى الرعية أن تدرك ذلك فتعرف مقامها منه هل خلقت خادمة له أو هى جاءت به ليخدمها فاســـتخدمها ؛ والرعية العاقلة مستعدة أن تقف فى وجه الظالم المستبد تقول له لا أريد الشر ثم هى مســـتعدة لأن تتبع القول بالعمل فان الظالم اذا رأى المظلوم قويا لم يجرؤ على ظلمه ؛

كان الكواكبي يؤمن بأن الاحساس بالظـلم هو بداية الطريق للحرية ومن هنا ينبغى أن يوضع الكواكبي بالنسبة لأمتنا فى مصاف

كبار كتاب الثـــورة الفرنسية من أمثال فولتير وجان جاك روسو ومونتسكيو وغيرهم ٠

أما دوره في اليقظة العربية فلا يختلف المؤرخون على أنه كان أول من وضع لها أسسها وأشاد بأهميتها ٠ نادى بالقومية العربية قبل الكواكبي بعض المسيحيين العرب الذين تثقفوا بالثقافة الغربية أمثال ناصيف اليازجي وبطرس البستاني وكان بدء حركة اليقظة العربية على يد المســيحيين العرب أمرا طبيعيـا ذلك ان المبشرين البروتستانت والكاثوليك قاموا بالدعوة الى مذهبهم من العرب وكان من الطبيعي أن يكون نشاطهم واتصالهم مع المسيحيين العرب وحتى تنجح دعوتهم بدأوا في ترجمة الانجيل الى اللغة العربية واستعانوا في هذا المضمار بأعاظم أدباء العرب في ذلك العصر كي يتوصلوا الى ترجمة بليغة أدبية ذات قيمة ٠ كما أنهم بذلوا جهودا جبارة لتعلم اللغة العربية تعلم اتقان كي يستطيعوا أن يخطبوا بها بين الناس بطلاقة وبلاغة كما أنهم أسرعوا الى انشاء المدارس التى تعلم اللغة العربية حتى تنجح دعوتهم ودعايتهم بين الناس ٠

وهكذا مضت حركة اليقظة العربية في أول أمرها على يد المسيحيين العرب ٠ وكانت نتيجة اهمــال العثمانيين لتعليم اللغة العربية ومطاردتها في العصر العثماني ان اللغة العربية لم تجد سوى ملجأ واحدا هي الارساليات التبشيرية المسيحية في بلاد الشـــام بالذات ٠

ثم كانت دعوة الكواكبي لحركة بعث الامة العربية فجاءت دعوته أول دعوة في مجال اليقظة العربية على يد أحد أبنائها المسلمين ٠ ولم يكن ذلك عن تعصب من الكواكبي تعصبا دينيا ، فالمعروف ان الكواكبي نبذ التعصب ورآه آفة الخطر يتجاوز خطره كل آفة أخرى٠ **لقـد رأى ان رابطة الوطن ينبغي أن تكون فـــوق كل رابطة(١) ٠**

(١) يوسف أسعد داغر : مصادر الدراسات الادبية جـ ٢ القسم الاول سنة ٣٣٢

ففى كتابه « أم القرى » يتطرق المؤلف خلال أبحاثه عدة مرات الى قضايا الامة العربية لأنه يعتقد ان العرب هم الوسيلة الوحيدة لجمع الكلمة الدينية بل الكلمة الشرقية · وينتقـــد الكواكبى الحكومة العثمانية انتقادا مرا ويصرح بأن حقوق العرب مهضومة ويقول من أهم الضروريات أن يحصل كل قوم من أهالى تركيا على استقلال نوعى ادارى يناسب عاداتهم وطبائع بلادهم · ثم انه ينفى عن العرب التعصب الدينى والجنسى وللبرهنة على ذلك يشير الى عدم اشتراك البلاد العربية فى حوادث لبنان (١٨٦٠) ويقول (واما حوادث لبنان والشام وحلب فى القرن السابق القرن التاسع عشر) فما كانت متولدة عن تعصب دينى أو جنسى بل من غرور جماعة من الدروز بالانكليز وجماعة من المسيحيين بنابليون الثالث (١)

ونادى الكواكبى بأنه اذا كان على العالم الاسلامى أن يقف فى جبهة واحدة فلا بد أن تكون القيادة عربية وأن يكون مركزها مكة (أم القرى) لا اسطنبول (٢) ·

وبعد فما احوجنا فى وقتنا هذا أن نمثل أقوال المخلصين من أبناء أمتنا العربية وأن نسترشد بهذه الاقوال وأن نســتعين بها ونرجـع اليهــا · وما أحوجنا الى أن نتمثل دور هؤلاء المخلصين ونضالهم وكفاحهم كمثل أعلى ونموذج طيب صالح فى وقت أصبح شباب هذه الامة أحوج ما يكون للمثل والقدرة الصالحة يقتدون بها ويهتدون وماتوفيقى الا بالله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون·

جامعة الجزائر فى ١٩٧١/١/١

---

(١) ساطع الحصرى : نشوء الفكرة القومية ص ١٩٧ ط ٤ ·

(٢) محمد انيس : الدولة العثمانية والشرق العربى ص ٢٧٠

الفصل الأول

عصر الكواكبي

ينبغي لمن يؤرخ لعبد الرحمن الكواكبي أن يتناول بالدراسة العصر الذي عاش فيه الكواكبي وأن يعرض لمظاهر الانحطاط في الدولة العثمانية وحكمها للبلاد العربية · ذلك أن الكواكبي تصدى لهذا الاستبداد الذي شهدته البلاد العربية على عهد السلطان عبدالحميد الثاني (١٨٧٦ ـ ١٩٠٩) ثم ان كتابه الذي ألفه بعنوان طبائع الاستبداد ، كان موجها ضد السلطان عبد الحميد بالذات وان لم يشر الكواكبي الى ذلك في صراحة · كما أن حياة الكواكبي نفسها وهجرته الى مصر كان فرارا من وجه السلطان المستبد عبد الحميد· كذلك جاء كتابه أم القرى ، يحمل حملة شعواء على الاتراك العثمانيين وعلى تاريخهم فهو يورد على لسان أحد أمراء المسلمين مناقشة دارت بينه وبين العضو الهندي في جمعية أم القرى ما يؤكد ذلك ويدل عليه دلالة واضحة ·

يقول الأمير : أرجوك ألا تنظر للمسألة بنظر العوام بل بنظر حكيم سياسي فابعد النظر ماضيا ومستقبلا ، وقلب صفحات التاريخ بدقة تجدان ادارة الدين وادارة الملك لم يتحدا في الاسلام تماما الا في عهد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز فقط رضي الله عنهم· واتحدت نوعا في الامويين والعباسيين ثم افترقت الخلافة عن الملك· وأما سلاطين آل عثمان الفخام فاني أذكر لك نموذجا من أعمال لهم أتوها رعاية للملك وان كانت مصادمة للدين فأقول هذا السلطان

محمد الفاتح وهو أفضل آل عثمان قدم الملك على الدين فاتفق سرا مع فردیناند ملك (الاراغون) الاسبانيولى ثم مع زوجة (ايزابيلا) على تمكينهما من ازالة ملك بنى الأحمر آخر الدول العربية فى الاندلس، ورضى بالقتل العام والاكراه على التنصر بالاحراق وضياع خمسة ملايين من المسلمين باعانتهما باشغاله أساطيل أفريقيا عن نجدة المسلمين ..

وهذا السلطان سليم غدر بآل العباس واستقصاهم حتى انه قتل الأمهات لأجل الأجنة ، وبينما هو يقتل العرب فى الشرق كان الاسبانيون يحرقون بقيتهم فى الاندلس ، وهذا السلطان سليمان ضايق ايران حتى ألجأهم الى اعلان الرفض المكفر .. »

ثم يعود على لسان هذا الامير فى كتابه أم القرى يعدد ما فعله العثمانيون منها انهم سعوا فى انقراض خمسة عشر دولة وحكومة اسلامية وأغروا الروس على التتار وهولاندة على جاوة وتعاقبوا على تدويخ اليمن ، فأهلكوا الى الآن عشرات المسلمين . ثم يأتى على ما أباحه السلطان عبد الحميد من الربا والخمور وأبطال الحدود . ويمضى الكواكبى فى صفحات كاملة من كتابه أم القرى يحمل حملة كبرى على العثمانيين فيقـول : أليس الترك قد تركوا الامة أربعة قرون ولا خليفة ، وتركوا الدين تعبث به الأهواء ولا مرجع، وتركوا المسلمين صما بكما عميا ولا مرشد . أليس الترك قد تركوا الأندلس مبادلة وتركوا الهند مساهلة وتركوا الممالك الآسيوية للروسيين وتركوا قارة أفريقيا الاسلامية للطامعين وتركوا المداخلة فى الصين كأنهم الأبعدون .

« أليس الترك قد تركوا وفود المسلمين يعودون خائبين وتركوا المستنصرين بهم عرضـة للمنتقمين وتركوا ثلثى ملـكهم طعمة للمتغلبين . فهل والحالة هذه ما آن لهم أن يستيقظوا ويصبحوا من

النـادمين على ما فرطوا فى القرون الخالية فيتركون الخلافة لأهلها والدين لحماته ٠٠ » يشير الكواكبى بالطبع الى حق العرب فى الخلافة وحماية الدين ٠

ويؤكد الكواكبى انه غير متعصب للعرب وانما يراه ما لا بد أن يراه كل حر مدقق يتفحص الامر من أن الغيرة على الدين وأهله والاستعداد لتجديد عز الاسلام منحصران فى أهل البدوية من العرب حيث ان المشـيئة الالهية قد حفظتهم من تلك الأمراض الأخلاقية كفالج الحرية فى الحواضر باعتقاد أهلها أنهم خلقوا آنعـاما للامراء وكجـــذام التربية فى المـدن بوصفهم النســـاء فى مقـام روابط للاستمتاع ٠٠ » الى آخر ما جاء فى كتاباته مما سوف نتناولها فى موضعها من هذا الكتاب بمشيئة الله ٠

كان من الضرورى اذا أن نتناول بالدراسة العصر الذى عاش فيه الكواكبى وهو النصف الثانىمن القرن التاسع عشر وهى الفترة التى ولد فيها الكواكبى وعاش وترعرع ثم حمل القلم دفاعا عن حق أمته أمام صروح الظلم والطغيان التى استبدت بهـــا وطغت عليها وارسفتها بقيود ثقيلة لا سبيل الى الفكاك منها الا بأن يحس أهلها بحقهم فى الحرية والاستقلال والسيادة ٠

من المعروف ان الدولة العثمانية وصلت أوج اتسـاعها وقمة مجـدها فى عهد السـلطان سليمان القانونى فامتدت الامبراطورية العثمانية على عهـــده من الدانوب الى الخليـج العربى ومن أراضى الاستبس فى أوكرانيا الى الشلال فى جنوب مصر ٠ وحين استكملت الدولة العثمانية عناصر قوتها ونظمها بدأت تدخل فى دور التدهور٠

وجاء تدهور الدولة العثمانية من عدة عوامل داخلية أهمها ان السلاطين العثمانيين بعد سليمان القانونى كانوا سلسلة من الحكام الضعاف الذين يفتقرون الى دراية باحتياجات الامبراطورية الجديدة٠

كذلك اختل نظام الانكشارية حيث فقد هذا الجيش بالتدريج كل ماكان له من نوايا وتحول آخر الأمر الى آلة فساد وفوضى فتضاءل ارتباط الانكشارية بثكناتهم ولم تعد حرفتهم الجندية الصرفة كما كان أمرهم على عهد قوة الدولة العثمانية ، وانما أصبحت الجندية مهنة ارتزاق فلم يعد يذهب كثير منهم الى ثكناتهم الا لاستلام مرتباتهم ووقف جنود الانكشارية حجر عثرة أمام كل اصلاح حتى ان السلطان سليم الثـالث الذى حكم الدولة العثمـانية ما بين سنتى ١٧٨٩ ـ ١٨٠٧ دفع ثمن حيـاته عندما أقدم على ادخال عدد من الاصلاحات فى الدولة العثمانية . فلقد كان سليم معجبا بالثقـافة الفرنسية وأراد أن تكون تركيا شبيهة بأوروبا فى التقـدم . لكن الانكشارية وقفت للسلطان سليم بالمرصاد فخلعوه عن العرش ثم اغتالوه بغية اجتثاث جذور الاصلاح من جذوره .(١)

وظلت الانكشارية عقبة كأداء فى سبيل الاصلاح حتى نجح السلطان محمود الثانى الذى تولى عرش الدولة العثمانية فى مطلع القرن التاسع عشر (١٨٠٩ ـ ١٨٣٩) فى القضاء عليهم نهائيا سنة ١٨٢٦ . وكانت الهزائم قد توالت على الدولة العثمانية فى عهده . فكان عليه أن يعترف بالحكم الذاتي للصرب وتبع ذلك ثورة على باشا فى ألبانيا (١٨٢٠ ـ ١٨٢٥) وثورة اليونان فى المورة . ولما كان السلطان العثماني غير قادر على سحق ثـورة اليونان فقد استعان محمود الثانى بمحمد على لسـحق هذه الثورة . وحاول السلطان محمود الثانى أن يكسب العلماء الى جانبه ليؤيدوه فيما أقدم عليه من اصلاحات لكنهم كانوا كالانكشارية عقبة فى سبيل كل اصلاح.

---

(١) الحصرى : البلاد العربية والدولة العثمانية ص ٧٤

وكذلك ارجع الى Devereux: The First Ottoman Constitutional period pp. 30-31.

وكان هؤلاء العلماء سواء من منهم فى القضاء أو الامامة أو الافتاء أو مشايخ الطرق أو المعلمين يشتد نفوذهم ويقوى كلما ضعفت الدولة العثمانية وصارت الدولة تلجـأ الى وساطتهم فى كثير من الامور وتستصدر منهم الفتاوى المختلفة ومن أجل هذا سعت الى استرضائهم فى شتى المناسبات . بل صار أصحاب المطامع يسعون وراءهم لتحقيق أغراضهم الخاصة . وفى الوقت الذى كان عددهم يزداد ونفوذهم يشتد كان المستوى العلمى للكثيرين منهم ينحط وثقافتهم الدينية تضعف وصارت تنتشر بينهم ضروب من التعصب الأعمى .

ومن المعروف ان الكواكبى فى كتاباته تصدى أول ما تصدى لهؤلاء العلماء الذين وصفهم بالمدلسين الذين ضيعوا الدين وأهله . ورأى ان فئة منهم اخترعوا عبادات وقربات لم يأت بهـا الاسلام ويقول عنهم فكأن الله تعالى ترك لنا ديننا ناقصا فهم أكملوه .. ومنهم قوم يعتبرون البلادة سلاحا والخمول خيرا والخبل خشوعا والصرع وصولا والهـذيان عرفانا والجنون منتهى المراتب السبع للكمال » .

ثم كان أن اقدمت الدولة العثمانية على عهد السلطان عبدالمجيد على محاولة اتمام حركة الاصلاحات وتنظيم أمورها على نحو ما هى عليه فى الدول الاوربية الاخرى المتقـدمة . ولذلك عرفت هـذه الاصلاحات بالتنظيمات ، لكن حركة الاصلاح هذه أيضـا لم تؤت ثمرتها المرجوة فجاءت محاولة للتقليد دون أن يؤمن القائمون بأمرها ان شئون كل دولة تختلف عن الاخرى .

وأشـار الكواكبى فى كتابه أم القرى الى هذه التنظيمات فوصف حال الدولة العثمانية بأنهـا كانت قبلها خيرا منها بعدها فعطلت أصولها القديمة ولم تحسن التقليد ولا الابداع فتشتت حالها ولا سيما فى العشرين سنة الاخيرة التى ضاع فيهـا ثلثا المملكة وضرب الثلث الباقى وأشرف على الضياع لفقد الرجال .. »

واذا كانت الدولة العثمانية قد حددت سلطات الولاة الا أنها اقتبست كثيرا من النظم الاجنبية وغالت فى المركزية فانتقلت من الافراط الى التفريط وعانت البلاد العربية كثيرا من هذا الاجراء . وحاول بعض الولاة المصلحين مثـل مدحت باشا وغيره أن يجعلوا الدولة تخفف من غلوائها فى المركزية فذهبت جهودهم ادراج الرياح.

وتستند هذه التنظيمات التى أصدرتها الدولة العثمانية الى مرسومين صدر الأول سنة ١٨٣٩ وعرف باسم منشور كلخانة نسبة الى قصر كلخانة الذى صدر فيه والثانى سنة ١٨٥٦ عرف باسم منشور التنظيمات الخيرية . يقرر الاول الحقوق التى ينبغى أن يتمتع بها كل فرد فى الدولة العثمانية وهى : أمنية الروح والعرض والمال . ذلك أن أبناء الدولة العثمانية حتى ذلك الحين لم يكونوا يأمنون على أرواحهم أو أموالهم . فكثيرا ما كان الاشخاص يعدمون من غير محاكمة ولم يكن ذلك يتم بأمر السلاطين فحسب بل بأمر الولاة كذلك . وكانت الدولة العثمانية تختار للولايات ولاة ليسوا بذات كفاءة حتى أصبحت الامارة وراثية فى كثير من البيوت ، كامارة مكة وامارات العشائر الضخمة فى الحجاز والعراق .

وقد فسر الكواكبى السر فى ذلك بأن الهدف منه « أن يكون الامير منفورا ممن ولى عليهم مكروها عندهم فلا يتفق معهم ضد الدولة » .

والى جانب منشور كلخانة صدر منشور آخر عقب حرب القرم التى وقعت بين روسيا وتركيا سنة ١٨٥٦ عرف بمنشور التنظيمات. أكد هذا المنشور الاخير ما سبق أن قرره المنشور السابق ولكنه أضاف اليه بندا هاما هو معاملة جميع تبعة الدولة (الغير المسلمين من أبناء الدولة) مهما كانت أديانهم ومذاهبهم معاملة متساوية مع المسلمين من أبناء الدولة . كما صرح فى الوقت نفسه ابقاء الامتيازات

الممنوحة لرؤساء الملل غير المسلمة على أن تنظم بقوانين جديدة • كما وعد باصدار قانون جديد لاصلاح شئون الولايات • وتضمن المنشور كذلك ان جميع الوظائف فى الدولة أصبحت من حق كل رعايا السلطان بلا استثناء أو تفريق بينهم كما سمح للأجانب بالملكية فى الدولة بشروط خاصة •(١)

كان الدافع والأساس وراء اجراء هذه التنظيمات المذكورة هو ضغط الدول الاوربية ومطالبتها بالاصلاح خاصة بالنسبة للمسيحيين التابعين للدولة العثمانية • وبرغم هذا لن يكن الاصلاح عن اقتناع وايمان من جانب القائمين عليه والمنادين به برغم وجود عدد من رجال الدولة المستفيدين الذين كانوا يرون ضرورة اصلاح جهاز الدولة وتجديده على أساس اقتباس النظم الاوربية من غير مساس بالاحكام الشرعية • وعلى كل فثمة نقد شديد يوجه الى حركة التنظيمات الخيرية ذلك ان الحماس كان شديدا للأخذ بنظم الغرب وأساليبه ، لكن هذا الحماس لم يتعد الجانب الشكلى فقط دون وجود الظروف الموضوعية التى تمكن من فاعليتها • وهذا ما عبر عنه الكواكبى بقوله « ان الدولة أحسنت التقليد ولم تحسن الابداع » •

وكانت النتيجة ان أصبحت التنظيمات مجرد مبادىء مكتوبة على ورق فلم يستطع السلطان أن ينقد ما جاء بهـا بل نجح أعداء التقدم والاصلاح فى ابعاد رشيد باشا الذى كان من وراء هذه التنظيمات يؤيدها ويتحمس لها • ونجحوا فى ذلك حتى عينه السلطان سفيرا لتركيا فى باريس سنة ١٨٤١ • (٢) ولم تتحقق التسوية بين المسلمين والمسيحيين فظلت الوظائف العامة لا سيما

---

(١) Devereux: The First Ottoman Constitutional Period, p. 23.

(٢) Revereux: p. 23.

الوظائف الادارية والقضائية شبه محصورة بالمسلمين فعلا وان لم يكن قانونا . وظلت الدول الاوربية تستفيد من هذه الاوضاع في بسط حمايتها على المسيحيين وتحريكهم بين الحين والآخر فاستمرت فرنسا تدعي حمـــاية الكاثوليك في جميع أنحاء الدولة العثمانية وظلت روسيا تعتبر نفسها حامية الارثوذكس وصـــارت انجلترا تحمي البروتستانت فضلا عن اتصالها ببعض الطوائف الأخرى (١) .

وشهدت البلاد العربية تغييرات كبيرة على عهد التنظيمات فقد أخذت الدولة العثمانية تطبق فيها هذه التنظيمات بدرجات متفاوتة. فسوريا وبيروت وحلب كانت أولى الولايات التي طبقت فيها هذه التنظيمات تطبيقا شـــاملا وسريعا . أما تطبيقها في ولايتي بغداد والبصرة فكان أقل سرعة وأقل شمولا . أما ولايتي اليمن والحجاز فلم تشهد من التغييرات الا الشيء القليل . ولقد كان للقرار الخاص بتنظيم شئون البطريركيات والمجالس الملية ان زاد ترابط الجماعات المسيحية وأخذت الدول الاوربية خلال عهد التنظيمات تتنافس في توسيع نفوذها في البلاد العربية عن طريق تأسيس مدارس تنشر لغتها وثقافتها . وكانت حلب ـ وهي موطن العلامة الكواكبي ـ من تلك الولايات التي نالت حظا كبيرا من هذه المدارس الاجنبية وهذا النفوذ الغربي مما كان له تأثيره على الثقافة والنهضة العلمية فيها بوجه خاص .

وكان من الممكن أن تثمر التنظيمـــات ثمرتها المرجوة لولا هؤلاء الذين كانوا يقفـون في وجه كل حركة اصلاحية في الدولة العثـــمانية واستعان هؤلاء المعارضون بالعلماء الذين أفتى بعضهم بعدم قانونيتها على أساس أنها تعطي لغير المسلمين ما للمسلمين من حقـــوق . وحدث هذا في وقت كانت الاصلاحات مسألة تقتضيها

---

(١) ساطع الحصري : البلاد العربية والدولة العثمانية ص ٩٣

الضرورة للحيلولة دون ازدياد تدخل الدول الاوربية في أمور الدولة العثمانية بحجة المحافظة على حقوق الرعايا المسيحيين فى الدولة العثمانية ٠

ومع حلول عام ١٨٧٦ أصبح الموقف متدهورا فى الدولة العثمانية فقد فشلت حركة الاصلاحات التى أقدمت عليها الدولة العثمانية والتى أصدرت بشأنها منشورى التنظيمات التى سبق أن أشرنا اليها ٠ وأسوأ من ذلك ازدياد القروض فقد كان لموت السلطان عبد المجيد سنة ١٨٦١ وتولى السلطان عبد العزيز أمور الدولة ان ساء الموقف عن ذى قبل ٠ فقد اشتهر عن السلطان الجديد اسرافه وبذخه وتوالت الديون على الدولة العثمانية حتى ان الباب العالى اضطر فى أكتوبر سنة ١٨٧٥ الى أن يخصص ميزانية الدولة لتسديد الدين وخسرت الدولة أكثر ممتلكاتها فى البلقان ٠ ورغم تمكن القوات العثمانية من اخماد ثورة الجبل الاسود والبوسنة والهرسك والصرب وكريت فقد خسرت هذه المقاطعات ٠ كذلك اتحدت ولايتا الأفلاق والبغدان لتشكلا الدولة الرومانية ٠ ولم تكن حالة الولايات العربية بأفضل من ذلك فقد اشتد التدخل الاجنبى فى شئون تونس ومصر بعد أن ازدادت ديونهما وأخذت فرنسا ترنو الى تونس بعد بسط نفوذها على الجزائر سنة ١٨٣٠ كذلك ازداد النفوذ الفرنسي في لبنان وغيرها من الاقطار السورية ونالت الشركات الفرنسية امتيازات عديدة فى تلك البلاد ٠ (١)

ومضت الدولة العثمانية على عهد السلطان عبد العزيز فى تدهور مستمر لا تجد من يوليها العلاج الحاسم الناجع خاصة بعد أن استمرت فى عقدها للقروض حتى عجزت الدولة عن سداد

(١) عبد الكريم غرايبة : سورية فى القرن التاسع عشر ص ٣٥ ٠

الديون المستحقة عليها فى مواعيدها • وأعلن فى السادس من أكتوبر سنة ١٨٧٥ عن افلاس الدولة العثمانية •وبادرت الدول الاوربية الى التدخل حفاظا على حقوق دائنيها • فتشكل مجلس للدين العام ضم ممثلين عن بريطانيا وفرنسا والنمسا وايطاليا وألمانيا والدولة العثمانية•ويذكر المؤرخون أن السلطان عبد العزيز كان ينفق من هذه القروض على ملذاته الخاصة وأنه تورط فى الديون بشكل كبير شأنه شأن الخديو اسماعيل•وزار عبد العزيز مصر سنة ١٨٦٣ وكان أول سلطان عثمانى يزورها بعد فتحها على عهد السلطان سليم • كما زار باريس سنة ١٨٦٧ وأقام القصور الضخمة ثم كان ان اشتعلت نيران الثورة البلغارية فى أول مايو ١٨٧٦ وتعرض المسلمون فيها لمذابح أثارت طلاب المدارس الدينية فى اسطنبول الذين قاموا بمظاهرات ضد السلطان وانتهى الأمر بأن اعتبر السلطان عبد العزيز مسئولا عن الضعف المالى والعسكرى الذى عانت منه الدولة العثمانية فصدرت فتوىً من شيخ الاسلام بخلعه وانتهت حياته بانتحاره بعد ذلك (١) • وخلفه السلطان مراد الخامس بن عبد المجيد فى ٣٠ مارس ١٨٧٦ لكن سوء صحته واضطراب أعصابه ومرضه بالصرع بدت واضحة على تصرفاته حتى تقرر عدم صلاحيته للحكم فخلع وبويع أخوه عبد الحميد باسم السلطان عبد الحميد الثانى •

وهكذا كانت حالة الدولة العثمانية فى سنة ١٨٧٦ (وهو العام الذى تولى فيه السلطان عبد الحميد الحكم) سيئة للغاية والموقف فيها متدهور بشكل واضح •

وحين نتناول بالحديث عهد السلطان عبد الحميد الثانى ينبغى أن نتناول ذلك بالدراسة المسهبة ، ذلك أن الكواكبى عاش

---

(١) Devereux : p. 33.

الجزء الاكبر من عمره على عهد هذا السلطان ٠فلقد تولى عبدالحميد الحكم وقد بلغ الكواكبى من العمر ــ كما سيتضح ذلك عند تناولنا لترجمته ــ اثنين وعشرين عاما ، وظل السلطان عبد الحميد يحكم الدولة العثمانية مدة قاربت الثلث قرن ٠ وتوفى الكواكبى قبل أن يخلع هذا السلطان من العرش سنة ١٩٠٩ اثر الثورة الشهيرة التى وقعت فى ذلك الحين والتى أعقبها حكم جماعة الاتحاد والترقى للدولة العثمانية ٠ ثم ان الكواكبى تصدى لاستبداد السلطان عبد الحميد بمثل ما لم يتصد له كاتب آخر فى زمانه وتحمل بسبب ذلك هجره لوطنه الى مصر التى كانت ملجأ الأحرار والمفكرين فى ذلك الحين ٠ ونشر فيها (مصر) كتابه الذى أسماه « طبائع الاستبداد » والذى حمل فيه على الحكم المستبد ، وصدرت أوامر السلطان عبد الحميد بمنع الكتاب من الدخول الى بلاد الدولة العثمانية لما فيها من صيحات حرة ودعوة الى الثورة على الظلم والاستبداد ٠ وبرغم ذلك تسربت نسخ منه خفية الى كثير من الناس فأحدثت دويا كبيرا وأثرا ملموسا فى البلاد العربية ، ومن هنا كان للكواكبى الدور الكبير فى اليقظة العربية الحديثة على نحو ما سنتناوله فيما بعد عندما يحين موضع ذلك من هذا الكتاب ٠

جاء السلطان عبد الحميد الى الحكم بعد خلع أخيه السلطان مراد الخامس ٠ وكان الاخير قد تولى الحكم بعد خلع عمه السلطان عبد العزيز ٠ لكنه نظرا لما اتضح من مرض مراد الخامس وتأثير ذلك على تصرفاته اقدمت الجماعة المستنيرة التى تزعمت حركة الاصلاح فى الدولة العثمانية ــ على خلعه ٠ وكان يتزعم هذه الحركة مدحت باشا ٠ ولد مدحت باشا فى القسطنطينية سنة ١٨٢٢ وتولى مناصب ادارية مختلفة فى الدولة الى أن أصبح واليا على بلغاريا وله من العمر أربعون عاما ، ثم تولى ولاية بغداد عام ١٨٦٨ وأظهر نشاطا وكفاءة ووطنية وسعة أفق لم يظهرها كثيرون غيره من أبناء الدولة ٠

كان مدحت باشا شأنه شأن الشباب التركى المثقف المشبع بروح الثقافة الغربية يرى ان اصلاح الدولة العثمانية يكمن فى وجود جهاز برلمانى يستند آلى دستور مكتوب يلتزم به السلطان وكانت المشكلة ان السلاطين لم يكونوا يشعرون بضرورة الاصلاح الا عندما تدفعهم الاهوال وتحدق الأخطار بالدولة العثمانية من كل جانب • عندئذ يصدرون فرمانات الاصلاح مبتغين بها اقناع الدول الأوربية أنهم بسبيل اتخاذ العديد من وجوه الاصلاح فى شئون الدولة ، فاذا ما زال الخطر نفضوا أيديهم عن هذه الاصلاحات وساعدهم على ذلك وجود الفئات الرجعية من العلماء وغيرهم الذين كانوا يقفون لكل حركة اصلاحية بالمرصاد • وبرغم أن كثيرا من هؤلاء المستنيرين الاتراك ودعاة الاصلاح وجدوا استحالة بقائهم فى داخل أراضى الدولة العثمانية خشية القبض عليهم أو اغتيالهم ، فان عددا منهم بقى يعمل وينظم حركات المقاومة والتصدى للاستبداد • وكان على رأس هؤلاء مدحت باشا • استدعاه السلطان عبد العزيز ليتولى منصب الصدر الاعظم فى يوليو ١٨٧٢ بعد أن أحدقت الاخطار بالدولة العثمانية ، ذلك ان مدحت كان شخصية يحترمها المسئولون الأوربيون والمسيرون لدفة السياسة الأوربية فى ذلك الحين • كان مدحت يحلم بامبراطورية لا يكون فيها تمييز بين مسلم ومسيحى وانما الكل رعايا عثمانيون • وكان بفكره هذا سابق لفكر غيره من الأحرار ، كذلك كان رأيه شأن دعاة الاصلاح غيره • ان أول خطوة لاصلاح أمور الدولة العثمانية هو الحد من نفوذ السلطان (١) •

ولما وجد مدحت استحالة العمل مع السلطان عبد العزيز لم يجد بدا من الاستقالة التى قبلها السلطان على الفور • وكان معنى قبول السلطان عبد العزيز لاستقالته أنه لا يريد أن يساير الركب

---

(١) Devereux: The First Ottoman Constitutional period pp. 30-31.

التحررى فى الدولة وأنه جاء بمدحت لفترة مستهدفا من وراء ذلك اقناع الدول الاوربية بالكف عن التدخل فى شئون الدولةالعثمانية وعلى اثر استقالة مدحت قدم بعض الاحرار المؤيدين لمدحت فى سياسته مذكرة فى التاسع من مارس ١٨٧٦ الى ساسة أوربا . وألقت المذكرة اللوم على السلطان . وقالت المذكرة أنه لو أنه بدلا من أن تكون أمور الدولة رهن تصرف السلطان كانت هناك حكومة صالحة تحكم فى تركيا ، لما كانت هناك مشكلة ما خاصة بجنس أو بدين . ولو أنه بدلا من ان يحكمنا طاغية يعتبر نفسه ممثل الله فى أرضه فيحكمنا حاكم صالح معه مجلس نيابى يضم ممثلين لكل جنس ودين لبلغت تركيا دون صعوبة ما هى جديرة به بالنسبة لأرضها وشعبها (١) .

وتطورت الامور بسرعة فقد بانت الحاجة الى اصلاح جذرى وفعال شجع دعاة الاصلاح ان مراد ابن أخى السلطان عبد العزيز كان يدعو للاصلاح ويطالب بالحياة الدستورية . وحاول السلطان عبد العزيز ان يكسب الاحرار الى جانبه ، ويحقق مطالب طلبة الشريعة الاسلامية من طرد الصدر الاعظم محمود نديم باشا صاحب السمعة السيئة والمجيء بمدحت باشا محله . فعزل السلطان نديم باشا لكنه عين محله رشدى باشا بدلا من المجيىء بمدحت . عندئذ تجمعت القوى المعارضة للسلطان وأجمعوا على ضرورة خلعه . وتم ذلك فى الثلاثين من مايو سنة ١٨٧٦ وتولى عملية اعتقاله والقبض عليه سليمان حسنى باشا الذى أصبح فيما بعد مدير المدارس العسكرية . وجيىء بمراد سلطانا على الدولة العثمانية باسم مراد الخامس .

ووعد السلطان مراد الخامس ان يعلن دستورا للبلاد بمجرد أن تستتب الامور ووجه دعوة الى الأتراك الأحرار الذين فروا خارج

---

(١) Ibid, p. 32.

تركيا ان يعودوا اليها • وبرغم ان السلطان مراد بدت منه هذه الروح الاصلاحية فان الحاشية التى كانت تقف لكل حركةاصلاحية سرعان ما أحاطت بمراد وجعلته ينسى وعوده التى وعد بها • فجاء من يبلغ مدحت على لسان السلطان أنه لا يرغب فى وجود مجلس نيابى « فأمتنا لم تبلغ بعد الوقت المناسب لذلك ، ويجب أن تتولى يد قوية زمام الأمور حتى تقضى على الاضطراب الذى يسود البلاد • »

وبدلا من أن يوقع السلطان مراد على مشروع الفرمان الذى أعده مدحت والذى ينص على وجود حكومةدستورية ، أحدث السلطان تعديلا فيه فنص على احترام القوانين التى ينبغى أن ترعى مصالح كل السكان • وبادر مدحت بنشر مشروعه الذى كان قد أعده والذى ينص على الحد من سلطة السلطان واستبدال الصدر الاعظم بمنصب رئيس للوزراء وايجاد مجلس للنواب الى غير ذلك مما عليه الدول الاخرى التى تحكم حكما دستوريا • وكان من شأن ذلك ان يزيد من سخط السلطان ولم ير دعاة الاصلاح بدا من التحرك • قابل مدحت أخا السلطان مراد يعرض عليه أن يتولى الحكم حتى يشفى السلطان من مرضه الذى بدا عليه • لكن عبد الحميد رفض على أساس أن القانون العثمانى لا يسمح بالوصاية • ومن ثم تقرر عزل مراد والمجىء بعبد الحميد سلطانا على الدولة العثمانية •

وقبل أن يعلن مدحت ذلك رسميا أراد أن يتجنب ما حدث على عهد أسلافه من السلاطين السابقين حين نكثوا بوعودهم فى الاصلاح • فطلب مدحت مقابلة عبد الحميد واستوثق منه رغبته الجادة فى الاقدام على الاصلاح • اشترط مدحت على السلطان عبد الحميد ثلاثة شروط كى يجىء به الى الحكم • أولا ان يصدر دستورا دون تأخير ثانيا أنه كسلطان يتصرف فى مسائل الدولة بناء على استشارة الوزراء المسئولين ثالثا أن يعيد تعيين الرجال

الأحرار الذين عزلهم مراد مثل فايق كمال وسعد الله بك وغيرهم ووافق عبد الحميد على كل ما اشترط عليه مدحت بل ان السلطان عبد الحميد قال أكثر من ذلك اننى لا أقبل الحكم الا على أساس دستورى استشارى .

وتولى السلطان عبد الحميد الحكم وظلت الأحداث التى مرت بها البلاد من قبل والتى أدت الى خلع اثنين من السلاطين من قبله (عبد العزيز ، مراد الخامس) تؤثر فى نفسيته تأثيرا عميقا وجعلته يخاف على عرشه وحياته .وحملته على اتخاذ سلسلة طويلة ومعقدة من التدابير أفضت الى استبداد لم تشهد الدولة العثمانيـــة ومن بينها البلاد العربية له نظيرا من قبل .

ما كاد عبد الحميد يتولى عرش الدولة العثمانية حتى بدأت تصرفاته تناقض وعوده . لم يوافق على مشروع الفرمان الذى أعده مدحت فعدل فيه مثلما فعل السلطان مراد من قبل ثم بدأ يقرب ، اليه المستشارين والشخصيات التى عرفت بكرهها للاصلاح ولمدحت باشا ولدعاة الاصلاح لكن الموقف الخارجى بالنسبة للدولة العثمانية كان من شأنه أن يرغم السلطان على قبول مبادىء الاصلاح التى نادى بها مدحت ولو لفترة محدودة . وتفصيل ذلك ان الموقف فى البلقان تدهور بشـــكل ملحوظ نتيجـة لازدياد ثورات الصرب والبوسنة والهرسك وتدخلت الدول الأوربية بعد أن بدأ الجيش التركى يسحق الصربيين فعرضت على السلطان قبوله هدنة غـــير رسمية من ١٦ ـ ٢٥ سبتمبر .

وفى اليوم التالى مباشرة (٢٦ سبتمبر) اجتمع السلطـان مع العلماء والاعيان وكبار رجال الدولة وقادة الجيش ليبحث معهم ما اذا كان يقبل مقترحات الدول الاوربية أو يرفضها والتى كانت تقضى بمنح الصرب والهرسك حـكما ذاتيا وادخال العـــديد من الاصلاحات فى بلغاريا . وانتهز مدحت هذه الفرصة وأعلن للسلطان

ان اقدام الدولة العثمانية على الاعلان عن برنامج للاصلاح كفيـل بتفويت الفرصة على الدول الاوربية للتدخل ٠

وبرغم كره السلطان عبد الحميد للاصلاح الا أنه لم يكن أمامه مفر من ذلك للحيلولة دون التدخل الأجنبى فى البلاد ٠ وتألفت على الفور لجنة لوضع الدستور عهد الى مدحت برئاستها ٠ واذا كان عبد الحميد قد حرص أن يضم فى اللجنة من يثق فيهم أو من يعتقد أنهم مخلصون له ، الا أن صوت الأحرار وآراءهم كانت هى الغالبة خاصة وان مدحت باشا كان رئيس هذه اللجنة ٠ وليس معنى هذا ان مدحت لم تواجهه عقبات فى هذه اللجنة التى بدأت عملها منذ السابع من أكتوبر ١٨٧٦ حتى أتمته فى ٢٠ نوفمبر من نفس العام ، ذلك أن بعض علماء الدين الذين وافقوا على مضض ان تضم اللجنة من يمثل المسيحيين من رعايا الدولة العثمانية ، فانهم أصروا على وجهات نظر معينة تجاه موقفهم من غير المسلمين ولذلك فان مشروع الدستور مثلا لم يشر الى حق المسيحيين فى دخول الجيش ولا الأخذ بشهادتهم فى المحاكم على قدم وساق مع المسلمين ٠ كذلك لم يستطع مدحت النص فى مشروع الدستور على قرار بانشاء المدارس التى تجمع بين أبناء الدولة العثمانية بصرف النظر عن عقيدتهم الدينية ٠ وما أن انتهت اللجنة من عملها حتى وجد مدحت ان بعض حاشية السلطان عبد الحميد قد أوعزت له ان مشروع الدستور ينتقص من سلطاته وبالتالى ينتقص من هيبته أمام الرأى العام ٠ كذلك لم يؤخذ بوجهة نظر اللجنة التى أقرت استبدال وظيفة الصدر الاعظم برئيس للوزراء يكون من حقه اختيار الوزراء المسئولين أمام مجلس النواب ٠ وتعلل السلطان عبدالحميد فى رفضه لبعض توصيات اللجنة أن هنـــاك ثغرات فى مشروع الدستور المقترح لا يتمشى مع عادات وتقاليد أمتنا » ٠

وكان من المتوقع أن يؤجل السـلطان عبد الحميد اعلان

الدستور برمته لولا ان الحوادث الخارجية تطورت بسرعة • فلقد استؤنفت الحرب في البلقان بعد انتهاء الهدنة التي فرضتها الدول الاوربية • وفي ٣١ أكتوبر ١٨٧٦ قدمت روسيا انذارا للباب العالي تطلب وقف الحرب خلال ثمان وأربعين ساعة واعلان هدنة مدتها شهرين • ولما كان الباب العالي غير مستعد لمجابهة روسيا فقد أعلن قبوله لمطالبها في اليوم التالي • ولما كانت بريطانيا لا تريد أن تترك زمام المبادرة لروسيا فقد أرسل وزير خارجيتها لورد دربي منشورا للدول الأخرى وللباب العالي يطلب عقد مؤتمر لوضع حل حاسم للمسألة الشرقية • وقبلت الدول ومعها الباب العالي ذلك • واختيرت الاستانة مقرا للاجتماع • ولكن روسيا أصرت أن يجتمع مندوبو الدول أولا بدون حضور ممثل الباب العالي • وكان معنى ذلك ان الدول ستجتمع لتقرر ما تريد فرضه على الباب العالي لقبوله • ولم يكن أمام الباب العالي خيار فعليه أن يقبل ما تأمره به الدول • وكان رأي مدحت أنه بمبادرة السلطان باعلان الدستور وعزمه على الاصلاح يستطيع أن يحول بين الدول الأوربية وبين التدخل •

ومن هنا فقط ولسبب ذلك فحسب أعلن عبد الحميد موافقته على اعلان أول دستور للبلاد وأصدر فرمانا رسميا بذلك في ٢٣ ديسمبر ١٨٧٦ •

ويسمى الأتراك العثمانيون الدستور باسم القانون الاساسي كما اتفق على تسميته العهد الدستوري بعهدالمشروطية الاولى تمييزا له عن المشروطية الثانية التي قررت سنة ١٩٠٨ اعادة العمل بالدستور حين أجبر السلطان عبد الحميد على ذلك من طرف جماعة الاتحاد والترقي •

وفرح الناس في كل فج باعلان الدستور سنة ١٨٧٦ واعتقدوا أن عهدا مشرقا وضاء قد أشرق على الدولة العثمانية • وان

السلطان لم تصبح سلطته مطلقة بل مشروطة ومقيدة . وكان أهم ما تضمنه هذا الدستور (١) أنه غير من شكل الدولة فبعد أن كانت كل السلطات مركزة في يد السلطان كلمته هي القانون ليس لرعاياه من حق الاطاعة الا ما يأمر به السلطان أصبحت الدولة العثمانية بموجب هذا الدستور دولة ذات نظام دستوري برلماني وأصبح لرعايا الدولة العثمانية حق التمتع بالحريات والاشتراك في تشريع القوانين . فقد قرر الدستور وجود هيئة برلمانية تتكون من مجلس للشيوخ يسمى مجلس الاعيان ومجلس من النواب يسمى مجلس المبعوثان ، وأعطى لأعضائهما على غرار المجالس النيابية في أوربا بعض الامتيازات ، من ذلك مثلا لا يحق القبض عليهم الا بأوامر من مجلسيهما .

وكان أهم ما قرره الدستور الذي صدر سنة ١٨٧٦ ان الدولة العثمانية التي ظلت على مدى ثلاثة قرون تعترف برعاياها على أساس الجنس والدين واللغة أصبحت بموجب هذا الدستور تعترف ان الكل بدون تمييز بينهم مواطنون عثمانيون متساوون أمام القانون ولا يصح اتخاذ الدين وسيلة للتمييز بينهم .

وبرغم أن السلطان عبد الحميد أصر قبل اعلان الدستور ان تظل له كثير من السلطات فبقي من حقه أن ينفي من يشاء بحجة خطره على الامن ، واضطر مدحت للموافقة على ذلك اذ أن عبدالحميد هدد برفض الدستور برمته ما لم يوافق على ذلك . وكان من العجيب ان مدحت كان أول ضحية تعرضت للنفي بموجب هذه المادة بعد ان انقلب عبد الحميد ونكث على عقبيه وعطل الدستور

---

(١) لمن يشاء التفصيل في هذه الناحية يمكن الرجوع الى كتاب: Devereux
The First Ottoman Constitutional period, pp. 61-79.
وكذلك كتاب انطاكي عبد المسيح : نيل الاماني في الدستور العثماني .

وكان تخلص عبد الحميد من مدحت بداية للتخلص من النظـــام الدستورى بأسره ٠ فكان أن أصدر قرارا فى فبراير من العام التالى (١٨٧٧) بنفى مدحت وذلك قبل اجتماع البرلمان الذى كان لمدحت الفضل الأول فى وجوده ٠ ولم يلبث أن أصدر فرمانا فى فبراير من العام التالى (١٨٧٨) بتأجيل اجتماع مجلس النواب (المبعوثان) وكانت تركيا فى ذلك الحين قد دخلت الحرب مع روسيا وخسرت خسارة فادحة وأصبحت القوات الروسية قريبة من عاصمة الدولة نفســـها الأمر الذى أدى الى عقـد مؤتمر برلين ســـنة ١٨٧٨ بعـــد أن هـددت انجلترا بالتصـــدى للغزو الروسى للدولة العثمانية ٠ طالب بعض النواب بالتحقيق فى أسباب الهــزيمة ومحاكمة المسئولين ٠ وخشى عبد الحميد ان يكون هو أحد ضحايا نظام قبله على مضض ٠ فبادر الى تعطيل الدستور وان لم يلغـه رسميا ٠ فلقد استطاع عبد الحميد الذى كان من أدهى السلاطين أن يبدو بذلك وكأنه الحريص على الدستور لكن الظروف الخارجية هى التى تحول دون العمل به ٠ واستطاع بهذه الوسيلة أن يتخلص من النظام الدستورى مدة ثلاثين عاما متصلة تقريبا حتى أجبرته ثورة سنة ١٩٠٨ على اعادة العمل به ٠

وعادت الدولة العثمانية الى نظام استبدادى فريد فى نوعه وهو النظـام الذى تصـدى الكواكبى لمحاربته والتنديد به وأوقف قلمه وبيانه دفاعا عن الحرية التى أهدرت على عهد هذا السلطان واذا كانت الدولة العثمانية قد عادت الى نظام الحكم المطلق ،الا أن هذا النظام لم يبق على حالته السابقة بل أخذ يشتد ويقوى شيئا فشيئا حتى تحول آخر الأمر الى حكم استبدادى فظيع لم تشـهد الدولة العثمانية له مثيلا من قبل ٠ وفرض السلطان عبدالحميد نظاما كبيرا ودقيقا من التجسس والرقابة على الصحف والمطبوعات وتفنن الجواسيس فى عملهم وكثر عددهم وكانوا يعرفون باســـم

الخفية لأنهم يتجسسون على الناس خفية (١) • وكان تقارير هؤلاء الجواسيس كافية لاعتقال الكثير من الاشخاص والزج بهم فى السجون ليشهدوا فيها أشد أنواع التعذيب وكثيرا ما كان يتبع ذلك النفي خارج البلاد • واهتم السلطان عبد الحميد بالصحافة فكممها وجعل كل كلمة تقال تنشر أو تكتب تعرض على الرقيب الدائم وكذلك كان الحال بالنسبة للكتب وكل أنواع المطبوعات ، فكان يتحتم على كل مؤلف أو كاتب أن يرسل مسودات كتابه أو مقالة الى لجنة تسمى لجنة تدقيق المؤلفات ليحصل منها على رخصة خطية لما يريد طبعه • وكثيرا ما كانت أعمال هذه اللجنة ومراجعتها للكتاب أو المقال يستغرق شهورا عدة ان لم تناهز السنة الكاملة وكان المراقبون والمدققون يغالون فى البحث والتدقيق مغالاة شديدة لأنهم كانوا يحسبون حسابا لأبعد الاحتمالات وأغرب التأويلات وكثيرا ما عطلت صحف وصودرت كتب فى هذه الفترة (٢) كما فسد جهاز الدولة فلم تعد الاستقامة أو الكفاءة سبيلا الى الترقي بل أصبح التملق والنفاق هو السبيل الى الوصول الى كراسى الحكم وساءت حالة الدولة المالية فازدادت نفقات السلطان وزادت مصروفاته على شبكة الجاسوسية ، كل هذا مع زيادة عدد رجال القصر ومرافقي السلطان • وهكذا أدى الاستبداد الحميدى الى استشراء الفساد فى جميع الامور والميادين •

ومضت الدولة العثمانية فى حالة سيئة من التدهور والانحطاط ففقدت الكثير من ممتلكاتها فاحتلت فرنسا تونس (١٨٨١) وخضعت مصر للاحتلال البريطانى (١٨٨٢) وحاولت الدولة العثمانية اخضاع اليمن والقضاء على ثوراتها فعجزت كما انحسر الحكم العثمانى فى الخليج العربى عن منطقة الاحساء

---

(١) ساطع الحصرى البلاد العربية والدولة العثمانية ص ١٠٠

(٢) المرجع السابق ص ١٠١

وتنازع آل سعود وآل شمر في امارتي نجد وشمر السلطة وأخذا يديران حروبهما وشئونهما دون الالتفات الى ما كان يدعيه الترك من حق السيادة (١) ٠

ولقد أشار الكواكبي لهذه الحالة السيئة التي بلغتها الدولة العثمانية على عهد السلطان عبد الحميد في كتابه أم القرى فقال انه في العشرين سنة الأخيرة (السابقة على تأليفه كتابه) وهي السنوات التي حكم فيها عبد الحميد البلاد » « ضاع ثلثا المملكة وضرب الثلث البـاقي وأشرف على الضياع لفقـد لرجال وصرف حضرة السلطان قوة سلطنته كلها في سبيل حفظ ذاته الشريفة وفي سبيل الاصرار على سياسة الانفراد » (٢) ٠

حاول عبد الحميد أن يسـخر قوة الدين لغاياته السـياسية وأراد أن يكسب المسلمين كقوة تسانده أمام الخطر الاوربي ،ولهذا نجده كلما اشتدت الاخطار المحيقة بالدولة العثمانية لجأ عبدالحميد الى تأكيد حقوقه كخليفة للمسـلمين ٠ فقـد كان يرمي الى تدعيم سلطته الزمنية في الدولة العثمـانية بالتأكيد على حقوقه كخليفة للمسلمين ٠ ومن المعروف ان السلاطين العثمانيين أضفوا على أنفسهم لقب خلفاء المسلمين منذ تم فتح مصر على يد العثمانيين ورددوا أن الخليفـة المتوكل على الله آخر الخلفاء العباسيين في مصر تنـازل عن الخلافة للسـلطان سليم الثـاني ، وبهذه الصورة انتقلت الخـلافة الاسلامية من العباسيين الى العثمانيين وبرغم تواتر هذا القول فان الأبحاث التاريخية لا تؤيدها ولا تدعمها كتابات المؤرخين المعاصرين للفتح العثماني لمصر (٣) ٠

---

(١) جورج انطونيوس : يقظة العرب (مترجم) ص ٦٧

(٢) الكواكبي : أم القرى ص ١٤٢ طبعة المكتبة التجارية سنة ١٩٣١

(٣) ارجع لتفصيل هذه النقطة في ساطع الحصري : البلاد العربية والدولة =

ومن المعلوم أنه بقدر استفادة العثمانيين من توليهم منصب الخلافة الاسلامي في اخضاع الشعوب العربية لهم واستسلام العرب لهم ، الأمر الذى أخر كثيرا باليقظة العربية ، فان السلطان العثماني أصبح مع ضعف الدولة العثمانية وترديها في هاوية الضعف والانحطاط — في حاجة الى توكيد صفته كخليفة للمسلمين • وكان السلطان عبد الحميد هو أكثر السلاطين العثمانيين اهتماما بذلك وحرصا عليه • فقد كانت خطته ترمي الى اعادة الخلافة الى مكانتها اللائقة بها واقناع الرأى العام الاسلامي بأنها والسلطنة شيء واحد فاذا ما استعادت الخلافة اعتبارها بهذا الشكل عمد الى تسخيرها لتكون دعامة ثم قوة دافعة لتحقيق أغراضه السياسية (١) •

ومن ثم رسم عبد الحميد لنفسه سياستين داخلية وأخرى خارجية ، فقد سعى من داخل الدولة العثمانية الى تحقيق مركز السلطان في أذهان رعاياه المسلمين بضربه على الوتر الحساس وهو الدين وأصر على أن سلطته الزمنية تستند الى سلطته الدينية التى تسبغ عليه رداء قدسيا • فهـو ظل الله على الارض وأمير المؤمنين وخادم الحرمين الشريفين وحامي الدين الاسلامي •• الى غير ذلك من الالقاب التى أراد بها أن يعطى بها نفسه هالة كبيرة •

وقد حمل الكواكبي في عنف على هذه الالقاب التى أضفاها السلاطين العثمانيون على أنفسهم فهو يقول :

« وهؤلاء الفشاشون يغرون حضرة السلطان على هذه الدعاوى بما يهرفون به عليه وبما يؤلفونه هم وأعوانهم من الكتب والرسائل

= العثمانية ص ٤٣ وفيه يورد كثيرا من الاسانيد لهذه النقطة منها عدم اشارة المؤرخ ابن اياس لها لا في صغيرة ولا في كبيرة برغم سرده للفتح العثماني لمصر بالتفصيل •

(١) انطونيوس : يقظة العرب ص ٦٧

التي يعزون بعضها لأنفسهم وبعضها لغيرهم من المنافقين أو لأسماء يسمونها أو كتب يختلقونها فيجعلون تارة آل عثمان العظام يتصلون نسبا بعثمان بن عفان رضي الله عنه وأخرى يرفعون نسبهم الى أغالي قريش ويعطونهم حق الخلافة مرة بالفراغة من العباسيين وأخرى بالاستحقاق والوراثة وآونة بالعهد وأخري بالبيعة العامة وحينا بخدمة الحرمين الشريفين ووقتا بحفظ المخلفات النبوية وكأن هؤلاء الغشاشين يريدون بهذه الدسائس أن يجعلوا حضرة السلطان نظيرهم دعي نسب كاذب كدعواهم لأنفسهم بالسيادة ومتسم مقام موهوم كدعواهم الولاية والقبطانية في أنفسهم وآبائهم وأجدادهم فيحشون في تلك المؤلفات انسابا انتحلوها لأنفسهم مقرونة بنسب حضرة السلطان ويستطردون لحكايات كرامات لأجدادهم ملفقة مخترعة لا يقدمها لهم أحد من المسلمين يدسونها بين حكايات وقائع الخلفاء السلاطين .

« ومن المعلوم عند أهل الوقوف أن التلقب بالخلافة والامامة الكبرى أو امارة المؤمنين في آل عثمان العظام حدث في عهد المرحوم السلطان محمود حيث صار بعض وزرائه يخاطبونه بذلك أحيانا تفننا في الاجلال وغلوا في التعظم ، ثم توسع استعمال هذه الألقاب في عهد ابنيه وحفيديه الى أن بلغ ما بلغه اليوم بسعى أولئك الغشاشين الذين يدفعون ويقودون حضرة السلطان الحالي (يقصد الكواكبي السلطان عبد الحميد) للتنازل عن حقوق راسخة سلطانية لأجل عنوان خلافة وهمية مقيدة في وضعها بشرائط ثقيلة لا تلائم أحوال الملك ومعرضة بطبعها للقلقلة والانتزاع والخطر العظيم .. » (١)

---

(١) الكواكبي : أم القرى صفحات ٢٠٥ ، ٢٠٦ ط المكتبة التجارية سنة ١٩٣١

كان السلطان عبد الحميد يريد بما يضفيه على نفسه من مهابة دينية أن يحد مما تعرضت له الدولة العثمانية على عهده فأصبحت مطمع الطامعين ، كما كان يرمي من وراء الدور الذى اتخذه لنفسه وهو دور الخليفة الورع ان يكسب ولاء المسلمين فى داخل مملكته وخارجها خاصة ملايين المسلمين المقيمين فى مناطق تابعة لبريطانيا وفرنسا وروسيا وهو أمر لو حققه يزيد مركزه قوة فى داخل دولته وفى الميدان الدولى ٠

وأظهر عبد الحميد فى تنفيذ مرماه مرونة لا ينضب معينها وفهما دقيقا لما تتطلب هذه السياسة فحرص على أن يظهر أمام الناس بمظهر التقى الورع وأحاط نفسه برهط من الفقهاء ورجال الدين الذين كان بعضهم يتمتع بشهرة واسعة ونفوذ كبير فعمد الى تسخيرهم للدعاية له بل انه أنشأ معهدا دينيا لتخريج الدعاة (١) ٠ ومالبث أن بعث بجماعات كثيرة منهم الى أقصى أنحاء العالم الاسلامى ليبثوا الدعاية والدعوة بالولاء له كخليفة للمسلمين ٠ وأخذ هؤلاء المتملقون له يضفون عليه من ألقاب القداسة والتبجيل ما لم يوصف بها غيره فهو الخاقان الاعظم وحامى الحرمين وسلطان البريد والبحرين وظل الله فى أرضه الى غير ذلك من الالقاب ٠ وبلغ اهتمام السلطان عبد الحميد بذلك انه أراد استقلال موسم الحج للدعوة لنفسه وشرع يبذل المساعدات المالية بسخاء كبير للمدارس الدينية فى داخل المملكة وخارجها ، كما سخر الصحافة بدورها فأوجد المجلات التى أخذت على عاتقها السير بالدعوة بتوجيه منه ٠

وكانت أهم العناصر التى استهدف عبد الحميد كسبها الى جانبه هم العرب الخاضعين لحكمه ذلك أن جمهرة الترك المؤلفة أكثريتها من فلاحى الاناضول كانت بطبيعتها موالية للعرش بينما

---

(١) انطونيوس : يقظة العرب ص ٦٨

كان العرب وحب الحرية متأصل فى نفوسهم أقل خضوعا • ومما زاد فى خطورة الامر فى نظره أنهم أخذوا يظهـــرون من التصرفات ما يشير الى تفتح الوعى القومى فى نفوسهم • ولهذا بذل عبدالحميد جهودا خاصة لكسب ودهم فشكل فرقة ممتازة من الجند العـــرب ضمها الى حرمه الخاص وبذل المبالغ الطائلة فى زخرفة المساجد فى مكة والمدينة وبيت المقدس • وفى الوقت نفسه كان عبدالحميد يلجأ الى الوسائل العنيفة كلما وجد ان سياسة الارضاء لا تؤتى ثمرتها المطلوبة • فقد أوفد عددا من الرسل المختارين ليجوبوا العالم العربى فى ثياب الوعاظ بينما كانت مهمتهم الحقيقية بذر بذور الشـقاق أو تشـجيعه بين كبار أمراء العرب واذكاء نار الخلافات القبلية أو المذهبية • كما سعى الى دعوة عـــدد منهم للاقامة فى الاستانة ليكونوا تحت مراقبته ، ومن هـؤلاء الشريف الحســين شريف مكة • فقد كانت التقارير التى يتلقاها عبد الحميـــد من جواسيسه تشير الى نشاط كل أمير أو حاكم وميوله ودرجة ولائه للسلطان • وجاءت التقارير التى تلقاها عبد الحميد عن الحسن تنبىء بأنه شاب عنيد وأنه لا يصرح بما يجول فى فكره الا نادرا كما أنه (الشريف حسين) ذو نزعة استقلالية • ولذلك استدعاه السلطان عبد الحميد هو وأسرته الى الاستانة فوصلها عام ١٨٩٣ وهو لا يزال فى أوج شبابه • ورافق الشريف حسين أولاده الثلاثـة على وعبد الله وفيصل وحرم عبد الحميد عليهم مغادرة الاسـتانة وظلوا كذلك معتقلين أكثر من خمس عشرة سنة حتى كانت الثورة التى أطاحت بعبد الحميد سنة ١٩٠٩ فأعادت تعيين الشريف حسين شريفا لمكة •

ومضى عبد الحميد فى سياسته التى ترمى الى احكام القبض على العرب فاستعان ببعض ذوى النفوس الضعيفة فقربهم اليه ، ومن هؤلاء عزت باشا العابد وهو عربى من بلاد الشام استطاع أن ينال حظوة كبرى لدى السلطان عبد الحميد عن طريق الكيد والدس

وقضى في خدمته ثلاثة عشر عاما . ولم تنته حظوته الا بسقوط عبد الحميد . فلقد استطاع العابد أن يصل الى وظيفة سكرتير ثان وان يصبح من خلال هذه الوظيفة أقوى موظف في الدولة العثمانية جاها ونفوذا . وكان السلطان وهو يقرب العابد اليه يبغي أن يستغل دهاءه ومكره في ابلاغه بكل التقارير والمعلومات عن نشاط بعض العناصر العربية المتحررة والتى أخذت مع استبداد عبد الحميد تزداد يوما بعد آخر .

ويرى بعض المؤرخين ان فكرة مد خط حديد الحجاز كانت من بنات أفكار العابد باشا فقد أشار على السلطان عبد الحميد بمد السكة الحديد من دمشق الى مكة المكرمة . وكان الهدف كما يبدو أمام أعين العرب والمسلمين هو ظهور السلطان عبد الحميد بمظهر السلطان المتدين الحريص على تمكين المسلمين من أداء شعائر الحج ويستندون في ذلك الى أن السلطان عبد الحميد أسند اليه رئاسة اللجنة التى وجهت نداء الى العالم الاسلامى توضح الدوافع الدينية « الحميدة » التى أوحت لعبد الحميد بصفته خليفة المسلمين لمد الخط الحديدى . وطلبت اللجنة من المسلمين الاكتتاب لتغطية نفقاته . ولاقى النداء قبولا حسنا وفي الوقت نفسه فرضت ضريبة جديدة في جميع أنحاء المملكة . وبدأ تشييد الخط على يد مهندسين ألمان سنة ١٩٠٠ ووصل الخط الى المدينة سنة ١٩٠٨ ولم يمتد بعد ذلك بسبب خلع السلطان عبد الحميد ورفض الشريف حسين مد الخط من المدينة الى مكة المكرمة للخلاف الذى بدأ بينه وبين جماعة الاتحاد والترقى الحاكمة .

ولم يكن ما أقدم عليه السلطان عبد الحميد من مد خط حديد الحجاز عن ايمان واقتناع بقدر ما كان الغرض منه كسب ود الشعوب الاسلامية عامة والولايات العربية التابعة له بصفة خاصة .

لكن كان هناك من أحرار العرب من كشف كل الاعيب السلطان عبد الحميد وحيله ودهائه ورأى سياسته منكرا يجب التصدى له بالقول والعمل وكان على رأس هؤلاء كاتبنا الكبير عبد الرحمن الكواكبي .

الفصل الثانى

موطن الكواكبى ونشأته الأولى

ينبغى لمن يؤرخ لوطن الكواكبى أن يتناول بالدراسة سوريا بصفة عامة وحلب بصفة خاصة تحت حكم العثمانيين فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ·

من المعروف أن الحكم المصرى للشام (خلال عهد محمد على) قد أحدث تغييرات جوهرية واصلاحات جذرية مهدت السبيل كى تصبح هذه البلاد الارض الصالحة والبيئة المناسبة لبداية الحركة العربية فى عصرها الحديث · ورغم قصر العهد المصرى بالنسبة للعهد العثمانى الطويل فى بلاد الشام فقد أرسيت فيه قواعد جديدة للحكم لم تكن معروفة من قبل ، اذ أنهى ابراهيم باشا عهد الحكم السطحى ، وبدأت الدولة التدخل فى شئون التعليم والقضاء والمواصلات والاحتساب والصحة العامة · كما ازدادت الدولة دقة وحزما فى تنفيذ قراراتها وسيطرت بشكل فعال على التجارة لا سيما التجارة الخارجية وتدخلت فى تنظيم الزراعة والصناعة وتوجيهها فى خدمة أغراض الدولة · ولم يعد التجنيد وجباية الاموال أمورا شكلية يمكن التهرب منها بالمقاومة أو بشىء من الرشوة · وأحس الشعب كله أثر هذه الاصلاحات لا سيما المسيحيين منهم · فلقد ألغى ابراهيم القيود المفروضة على أزيائهم المميزة وأباح للافرنج دخول مدينة دمشق راكبين ، وسمح لهم بتأسيس قنصليات فيها ورفع أعلام تحمل شارة الصليب · كذلك اعتمد على كثير من المسيحيين أمثال بطرس كرامه وحنا

البحرى وعهد اليهم بادخال تنظيمات أفرنجيــــة وترتيب مجالس ملكية ومدنية وعسكرية ونظامات حديثة (١) ٠

وساوى ابراهيم باشا بين جميع أفراد الشعب أمام القانون لا فرق فى ذلك بين مسيحى أو مسلم أو يهودى ولم تكن هـــذه المساواة موجودة من قبل ومن أهم ما أدخله ابراهيم باشا الى جانب العمل على توطيد سلطة الحكم المركزى والقضاء على سلطة الافراد والرؤساء الاقطاعيين أنه أخذ بمبدأ الشورى فى حكم البلاد فألف فى كل مدينة يزيد عدد سكانها على عشرين ألف نســـمة مجلس يسمى (ديوان المشورة) يتراوح عدد أعضائه بين ١٢ ، ٢١ عضوا ينتخبون من بين نبهاء (أعيان) البلاد وتجارها ٠ ومما لا ريب فيه أن هدف هذه المجالس كان خدمة الحكومة المركزية وتيسير مهمتهـا ومعاونتها فى تحصيل الاموال المطلوبة (الميرى) ، لكنها كانت بلا شك مقدمة على طريق تعويد الاهالى أسلوب الحكم الشورى (٢)٠

وكان تعيين ابراهيم باشا لبعض السوريين فى هذه المناصب الكبيرة دليلا على حد اعتراف الكثير من المؤرخين والأوربيين منهم بوجه خاص على رغبته فى اسناد كبار المناصب الى ابناء البلاد وهو ما لم يكن مألوفا فى عهد الادارة التركية ٠ فكتب لويس بلان فى كتابه (تاريخ عشر سنوات) ! يقول : اذا اردنا ان نعرف ما افادته سوريا من انتقالها من الحكم التركى الى حكم المصريين فما علينا الا أن نلقى نظرة على سهول انطاكية التى اكتست بأشجار الزيتون وضواحى بيروت التى كثرت فيها الكروم والنشـاط الذى انبعث فى حلب ودمشق ٠ صحيح ان محمد على أظهر قسوة فى حكم سوريا ، ولكن فى ظل هذا الاستبداد العـــارض الذى كان ضرورة ولزاما حيث

---

(١) غرايبه عبد الكريم سورية فى القرن ١٩ ص ٥٨

(٢) الرافعى : عصر محمد على ص ٢٩٩

سادت الفوضى فى تلك البلاد ، ألغت سوريا النظام العمران . » (١) .

فأكد بعض المؤرخين والرحالة الذين زاروا سورية فى عهد الحكم المصرى أنه اذا بقيت أعمال الأمن وبقى الأمن الذى بسطه فان حالة البلاد ستتطور تطورا كبيرا . واعترف السوريون أنفسهم والادباء والمؤرخون منهم بوجه خاص بذلك . فقد كتب سليمان أبو عز الدين أحد أدباء سوريا فى كتابه «ابراهيم باشا فى سورية» يقول : لابراهيم باشا فضل خاص فى السنتين الأولى بعد الفتح فى ضبط الاحكام وشدة مراقبة الحكام واجراء العدل بين الاهلين . وكان شديد الوطأة على المستخدمين الذين يحيدون عن السبيل القويم ، فعاقب كثيرا منهم بالطرد والضرب والحبس للاعتداء على أهل البلاد أو عدم النزاهة وغير ذلك مما يخرج عن جادة الاستقامة فلو استمرت حكومة محمد على فى سوريا ناهجة هذا المنهج القويم لملكت قلوب الأهلين .

والأمر الذى لا شك فيه ان وجود الحكم المصرى فى سورية قد مهد السبيل لنهضة علمية أدبية فقد سهل الطريق لقدوم الافرنج والمبشرين الذين بدأوا فى انشاء المدارس . فلقد فتحت سياسة التسامح الدينى التى اتبعها ابراهيم باشا فى حكمه لبلاد الشام الباب أمام بعثات التبشير المسيحية الغربية وخاصة البعثات البروتستانتية الأمريكية والكاثوليكية الفرنسية . ومما لا شك فيه ان جهود هؤلاء المبشرين فى فتح المدارس فى بلاد الشام كانت أحد الأسباب الهامة التى جعلت بلاد الشام تشهد قبل غيرها من البلاد يقظة عربية كانت بداية لحركة بعث كبيرة فى العصر الحديث على نحو ما سنتناوله عند حديثنا عن دور الكواكبى فى اليقظة العربية الحديثة .

---

(١) الرافعى : عصر محمد على ص ٣٠٠ .

ولقد أشاد الكواكبى نفسه بالنهضة التى أحدثها محمد على وابنه ابراهيم وذلك فى كتابه أم القرى فهو يقول « ... حتى ان النهضة العثمانية بكل فروعها مسبوقة فى مصر ومقتبسة عنها بل كما يعلم العارفون انما تقدمت الدولة العليـــة العثمانيـة ببعض خطوات فى ميدان المدنية والعمران مدفوعة بأيدى المرحومين محمـد على وابراهيم ... » (١) .

ثم كان أن انتهى الحكم المصرى للشام بموجب معاهدة لندن يوليو ١٨٤٠ حيث أجبر محمد على على الانســـحاب من سوريا والحجـاز ونجـد واليمن وسـواحل الخليج العـربى وتقلصـت امبراطوريته الى حدود مصر والسودان .

وراود الأمل أولئك الذين ساءتهم اصـــلاحات ابراهيم فى سوريا ان الحكم العثمانى سيكون كما عهدوه من قبل رخوا سـهلا فاسدا ضعيفا غير محكم قبضته على المحكومين . لكن آمال هؤلاء خابت بعد أن أدخل العثمانيون تنظيمات تشبه التنظيمات المصرية دون أن يقضوا على القـواعد القــديمة خالقين بذلك ازدواجا فى النظم . وحافظت الدولة العثمانية على التقسيمات والنظم الادارية التى كانت قائمة من قبل فى سورية . فقد بقيت سورية مقسمة الى ولايتين رئيسيتين هما ولاية حلب ودمشق وظلت ولاية صيدا قائمة فى أول الأمر ولكن جعلت بيروت عاصمة لها (٢) .

ثم نقصر الحديث على عهد العثمانيين ذلك أنها كانت موطن الكواكبى المكان الذى نشأ فيه وعاش زهرة أيامه به .

كانت ولاية حلب تمتد امتدادا كبيرا فى المناطق التى أصبحت حاليا تابعة للجمهورية التركية . فقد كانت تتكون من ألوية ثلاثة

(١) الكواكبى : أم القرى ص ١٨٩ طبعة المكتبة التجارية سنة ١٩٣١ .

(٢) غرايبه : سورية فى القرن ١٩ ص ٥٨ وما بعدها .

لم يبق منها تابعا لسورية الا أجزاء من لواء واحد . وحرصت الدولة العثمانية ألا يستقر على حكم حلب أحد من الولاة لفترة طويلة فلقد حكمها ثلاثون واليا في مدة ثلاثين سنة وذلك منذ جلاء ابراهيم باشا بقواته عنها الى اعلان الدستور الأول على عهد السلطان عبد الحميد أي من سنة ١٨٤٠ ـ سنة ١٨٧٦ . بل بلغت مدة حكم بعضهم لحلب ستة أيام. وكان من شأن ذلك عدم الاستقرار وعدم حرص أحدهم على رفاهية الولاية أو العمل على ادخال أي نوع من الاصلاح فيها . وسكن مدينة حلب في هذا العهد حوالي مائة ألف نسمة خمسهم من المسيحيين وثمانية آلاف منهم من اليهود . كما عاش فيها عدد كبير من الافرنج ولعبت الطوائف المسيحية واليهودية دورا بارزا في حياة حلب أكثر مما لعبوه في دمشق . فقد سيطر يهودها على عمليات الصرافة وأكثر التجارة الخارجية والصناعات . وكان أكثر القناصل منهم لا سيما من عائلة مركوبولي الذين كان منهم قناصل اسبانيا ودويلات ايطاليا . وكثيرا ما استثار هؤلاء اليهود المسلمين والمسيحيين لسيطرتهم على أمور القوافل التجارية وحملوهم على الاستراحة يوم السبت وتلاعبوا بأسعار النقد .

وانقسم المسيحيون في حلب الى عدة طوائف كل واحدة برعاية أحد القناصل ، وقام القنصل الفرنسي برعاية الموارنة والروم الكاثوليك كما أقام الانجليز علاقات قوية مع الارثوذكس وتزوجوا منهم ودفنوا موتاهم في مقابرهم بل أقام عدد من الانجليز في حلب كعائلة باركر التي تزوج عدد من أفرادها من فتيات أرثوذكسيات . لكن النفوذ البريطاني لدى الانجليز أخذ يتقلص نوعا ما بعد أن برزت روسيا حامية للأرثوذكس . وأما مسلمو حلب فقد اشتهر عنهم عدم التعصب وحسن معاملتهم للغير مما جعل مدينتهم مركزا لنشاط الاجانب المسيحيين طوال العهد العثماني . وغدت مدينتهم ملجأ المضطهدين من المسيحيين حتى فاق عددهم

فيما بعد عدد سكان البلد الاصليين من المسلمين • ولكن أهـــل حلب الرحماء باخـــوانهم المسيحيين كانوا أشداء مع الســلطات العثمانية فتحدوها أكثر من مرة • ومما ينبغي ذكره ان عام ١٨٥٠ شهد ثورة عارمة قام بها أهل حلب ضد السلطات العثمانية• وكان متسلم حلب واسمه عبد الله البابنسى الانكشارى الاصل قد شغل هذه الوظيفة ابان حكم ابراهيم باشـــا وبقى فى منصبه خـــلال السنوات العشر الاولى من الفترة التى تلت انتهـــاء الحكم المصرى لبلاد الشام • وكان ينافس عبد الله فىمنصبه يوسف باشا شريف زاده (من الأشراف) • وكان عبد الله ومنافسه من الشخصـيات التى انتزمت بجمع الاموال الاميرية دون أن يدفعـــا كل ما جمعاه لخزانة الدولة وتراكمت عليهما أموال كثيرة فطالبتهما الدولة بالدفع وهدد الوالى بمصادرة أملاكهما • ورأى الخصمان أن من مصلحتهما الاتفاق واثارة فتنة تجبر الوالى على تناسى الاموال المتأخرة وتدفعه الى الاعتماد عليهما وعلى أعوانهما لاخماد الفتنة • فأشاعوا بواسطة عملائهما أن الدولة عازمة على اتخاذ عدد من الاجراءات الجديدة من بينها تجنيد الشباب • وأدى ذلك الى ثورة على الدولة وهاجم بعض عامة الناس مقر الثكنة العسكرية • وعبثا حاول الوالى اخماد الفتنة وسارت الجموع خلال الليل الى بيوت الاعيان للانتقام منهم لأنهم لم يحاولوا حماية الشعب من ضرائب الحكومة • ونتيجـة لذلك فر الأعيان ولجأوا الى الثكنة العسكرية ، ثم تلا ذلك أن قصد النـاس الحى المسيحى ليأخذوا من المســيحيين مالا يشترون به أســلحة يجبرون بواسطتها الدولة على الغاء الضريبة والجندية (١) •

ولم يكن هدف ثوار حلب الاعتداء على المسيحيين ولكن زعماء الثورة اعتقدوا أن من صالح المسيحيين دفع هــذه الاموال شأنهم

---

(١) كامل الغزى : نهر الذهب فى تاريخ حلب ج ٣ ص ٣٦٦ الفتنة المعروفة بقومة حلب •

شأن المسلمين من أهالي حلب ، ولكن فرار بطريرك الروم الكاثوليك من وجه الثوار والتجائه الى القناصل أثار الثوار ودفع ببعضهم الى الحي المسيحي يخربون . ثم كان أن تبادل الثوار الرسل مع الوالي الذي تظاهر بالاستجابة لمطالبهم وطلب ارسال رسل للمفاوضة . ولما ان جاءته الرسل حتى اعتقلهم في القلعة فأعلنت الثورة مرة ثانية وأطلق الثوار النار على القلعة فرد الجند باطلاق النار على الثوار الذين لم يستكينوا وجاءت جموع الأعراب الى حلب لتأييد الثورة . لكن نفاد الذخيرة من يد الثوار مكن الجند من السيطرة على الموقف وقبض على زعماء الثورة ونفى عدد منهم .

وهذا يدل على أن أهل حلب اشتهروا بعدم الرضوخ والاستكانة للضيم والرضا بالامر الواقع وعدم قبولهم لمساوىء الحكم العثماني ، فقد كانوا قوما أباة ثائرين لا يرضون بالاستبداد والتسلط الذي اشتهر به العثمانيون .

وكان من بين أبناء حلب الذي بز غيره في الثورة على الضيم وعدم الرضا والمجاهرة بعدائه صاحب هذه الترجمة المرحوم عبد الرحمن الكواكبي .

نسبه :

يرى المؤرخون ان الكواكبي ينتهي نسبه الى علي بن أبي طالب رضى الله عنه ويذكرون في شجرة هذا النسب علمين من اردبيل (من أشهر مدن أذربيجان) هما صفي الدين الأردبيلي وصدر الدين الاردبيلي ويقولون ان من أحفاد الشيخ صفي الدين الاردبيلي رجلا يسمى (على سياه بوش) خرج الى بلاد الروم ولما وصل الى حلب بقي فيها وتزوج من حلبية ثم رجع الى بلاده ومن ذريتــه كان آل الكواكبي .

ويذكر المؤرخون كذلك ان نسب هذه الأسرة من جهة الأم يتصل بمحمد الباقر بن علي زين العابدين بن الامام الشهيد الحسين رضي الله عنه ..

ويقول المؤرخون ان أول من انتقل من هذه الأسرة الى حلب واستقر بها هو محمد أبو يحيى الكواكبي وأنه كان حداداً يعمل المسامير (وهي ما تسمى في المعاجم وما يعرفها بعض الناس باسم الكواكب) ومن هنا عرف باسم الكواكبي واشتهر بتدينه وتقواه حتى كان الناس في حلب تقبل عليه تلتمس منه الدعاء لها بقضاء الحاجات ودفن في المسجد الذي أصبح يعرف بجامع الكواكبي وهو المسجد الذي ضم رفات آل الكواكبي من بعده .

أما أبوه فهو أحمد بهائي بن محمد بن مسعود الكواكبي اشتهر عنه غزارة علمه وسعة اطلاعه فقد تلقى تعليمه في الجامع الأموي على شيوخ العصر في حلب في ذلك الحين حتى أصبح متفقها في دينه وصار من أجل ذلك أعظم علماء حلب في العلوم الشرعية والفقهية وكان أدق علماء عصره في حلب في مسائل الفتوى وباقي العلوم الدينية .. كان لا يقصده أحد في حاجة إلا قضاها له محبا للصدقات الخفية كريم الطبع متفضلا على الاخوان والخلان ، مع أنه ربما مضى عليه الشهر وهو خال من النقود ، وقد استنيب في قضاء حلب مدة بعد الحاح الوالي عليه ، ففرح به الناس وحسم أكثر دعاواهم صلحا برضا الطرفين . »

وعاش أحمد الكواكبي والد كاتبنا عبد الرحمن عيشة كلها تقوى وعلم وحب للخير واصلاح بين الناس حتى توفي سنة ١٨٨٢ ميلادية ودفن في جامع الكواكبي وقد أنجب ولدين أكبرهما عبد الرحمن وأخوه مسعود الكواكبي الذي عمل عضوا بمجلس المبعوثين العثماني (النواب) ومحكمة التمييز بدمشق وعضوا في المجمع العلمي العربي بدمشق .

مولده ونشأته الأولى :

يؤكد كثير من المؤرخين أن الكواكبي ولد سنة ١٨٤٨ ميلادية لكن ابنه الدكتور أسعد الكواكبي في البحث الذى نشرته له مجلة الحديث بحلب سنة ١٩٥٢ ميلادية بمناسبة مرور خمسين عاما على وفاته يذكر أن والده قام بعملية تصحيح لسنه فجعل مولده سنة ١٨٤٨ حتى يصبح سنه مطابقا لما تتطلبه عملية الانتخابات في حلب. والانتخابات التى يشير اليها الدكتور أسعد الكواكبي هي عملية انتخاب مجلس المبعوثين الذى تقرر اجراء الانتخابات بشأن اختيار أعضائه بموجب القانون الأساسي (الدستور) الذى أصدره السلطان عبد الحميد الثاني في ٧ ذو الحجة سنة ١٢٩٣ هـ (١٨٧٦ م) حيث اشترط بموجب المادة ٦٨ من هذا القانون ألا تقل سن المرشح لمجلس المبعوثين عن ثلاثين سنة .

لكننا لا نجد بالرجوع الى قوائم اعضاء مجلس النواب العثماني الذى تم انتخابه على عهد السلطان عبد الحميد الثاني والذى عقد جلسته الأولى في ١٩ مارس ١٨٧٧ اسم عبد الرحمن الكواكبي (١).

كذلك لا نجد في ترجمة حياته ما يشير الى دخوله انتخابات هذا المجلس ، ولا نعرف السبب الذى من أجله أحجم الكواكبي عن خوض غمار هذه الانتخابات بعد أن قام بتصحيح سنه على حد قول ابنه أسعد الكواكبي . لعل السبب في ذلك هو شعور السيد عبد الرحمن الكواكبي ان الحياة النيابية التى قررت الدولة العثمانية العمل بها على عهد السلطان عبد الحميد الثاني لم تكن عن أقتناع وايمان من جانب المسئولين العثمانيين بقدر ما هي خطوة اتخذت لمواجهة احداث خارجية طارئة واجهت الدولة العثمانية . وآية ذلك ان مدحت باشا (أبو الدستور وصاحب فكرته) نفى من البلاد العثمانية قبل ان يجتمع مجلس المبعوثين للمرة الأولى .

---

(١) Deverepx: The first Ottoman Constitutional Period.

مصدرنا الرئيسي اذا في تحديد تاريخ ميلاد عبد الرحمن الكواكبي هو ما ذكره ابنه أسعد حين ذكر ان والده ولد بحلب سنة ١٨٤٨ ميلادية ٠

وعندما بلغ عبد الرحمن الكواكبي السادسة من عمره توفيت أمه السيدة عفيفة بنت مسعود آل النقيب وكانت من أسرة رفيعة المقام ٠ فقد شغل ابوها منصب مفتي انطاكية ٠ وعلى اثر وفاتها كفلته خالته السيدة صفية بنت مسعود النقيب حيث اقام معها في انطاكية وكانت سيدة اشتهرت بنبوغها وذكائها ، علمته اللغة التركية ومبادىء القراءة والكتابة ٠ ثم كان ان استدعاه والده ليقيم معه في حلب حيث عني بتعليمه العلوم العربية والتركية والفارسية ٠ لكنه لم يلبث أن سافر مرة ثانية الى انطاكية سنة١٢٨١هـ (١٨٦٤م) حيث تتلمذ على يد أستاذين فاضلين من أقاربه العلامة عبد الرحمن العلبي والسيد نجيب النقيب عم والدته ٠ وكانت شهرتهما قد جاوزت الآفاق ، فقد عين الخديو توفيق السيد نجيب النقيب مربيا لابنه عباس حلمي ٠

لكن اقامة عبد الرحمن الكواكبي بانطاكية هذه المرة لم تطل ذلك أنها لم تتجاوز العام ، فعاد الى حلب ليقيم مرة أخرى مع والده وليلحقه بالمدرسة الكواكبية ٠

وكانت احدى مآثر أجداد الكواكبي اقامتهم مدرسة لتعليم العلوم الشرعية سميت بالكواكبية نسبة اليهم ٠

عاد الكواكبي ليلتحق بهذه المدرسة التي كان ابوه آنذاك مديرها وأحد أساتذتها الأفاضل ٠ فقد ذكر السيد كامل الغزي ان الشيخ أحمد (والد عبد الرحمن الكواكبي) كان من أجل علماء حلب في العلوم الآليه وأدقهم نظرا في مسائل الفتوى وباقي العلوم الدينية

تلقى تعليمه على يد والده الغزى . وفى المدرسة الكواكبية كان الشيخ أحمد يلقى دروسه التى حضرها وتتلمذ عليه ابنه عبد الرحمن فأجاد اللغة العربية والعلوم الشرعية . كما تلقى الكواكبى فيها مبادىء العلوم الرياضية وغيرها من العلوم الحديثة وما أن بلغ الكواكبى الثانية والعشرين من عمره حتى بدأ يكتب فى جريدة الدولة الرسمية فى حلب وكانت تسمى فرات . وكان المؤرخ التركى أحمد جودت باشا قد أسس هذه الجريدة سنة ١٨٦٧ م حين كان واليا على حلب ، وجعلها بعنوان غدير الفرات وظلت سنتين تصدر بهذا العنوان ، ثم حذفت كلمة غدير وأصبحت (فرات) فحسب تيمنا بفيض النهر (نهر الفرات)(١) الذى عاش الحلبيون قرونا ينتظرون قدومه اليهم . (١) وكانت هذه أول صحيفة اسبوعية تصدر فى عاصمة ولاية حلب ، هدفها نشر أخبار الولاية وأوامر الحكومة واعلاناتها . وقامت مطبعتها التى كانت المطبعة الثانية بعد المطبعة المارونية بطبع مطبوعات الحكومة المختلفة . ومن المرجح ان تكون معدات المطبعة قد أرسلت من الأستانة هى وحروفها شأنها فى ذلك شأن معظم المطابع الرسمية التى انشئت فى الولايات العثمانية . (٢)

وصدر العدد الأول من هذه الجريدة فى ٢٣ من محرم ١٢٨٤هـ الموافق ٢٧ مايو سنة ١٨٦٧ بادارة جبرائيل برغود بالعربية والتركية والارمنية ثم اقتصرت منذ العدد الواحد بعد المائة على العربية والتركية فقط .

ظل الكواكبى يعمل فيها خمس سنوات ثم تركها سنة

---

(١) عبد الكريم غرايبه : سورية فى القرن ١٩ ص ٢٤٨ وكذلك سامى الدهان : الكواكبى ص ١٩

(٢) خليل صابات : تاريخ الطباعة فى الشرق العربى ص ٩٨

١٨٧٨ (١) ليحرز في جريدة سماها الشهباء بالاشتراك مع هاشم العطار (٢) .

وكانت هذه الصحيفة أول معلن اذاع بين الناس عبقرية الكواكبي وكشف لهم ما كان عليه من المنزلة الرفيعة في عالم الأدب والسياسة ولذا اغتبط الناس بهذه الصحيفة واقبلوا عليها أيما اقبال « غير أنهم لسوء الحظ لم يتمتعوا باستجلاء محاسن هذه البكر الوحيدة سوى أيام قليلة حتى فاجأها القدر بانقضاء الأجل » (٣) .

وكانت صحيفة الشهباء هذه اسبوعية شأنها شأن الفرات ، لكن (الشهباء) امتازت بأنها أخذت تبث في الناس روح العزة وتحيي منهم موات الأمل ، لكن والي حلب كامل القبرصي الذي أصبح صدرا أعظم للدولة العثمانية فيما بعد ، كان يكره حريه الصحافة فبادر الى تعطيل هذه الصحيفة بعد ان بدأت تشير الى استبداد السلطان عبد الحميد من طرف خفي ، واستجاب الكواكبي لقرار اغلاقها فعطلها بعد صدور ثلاثة أعداد منها (٤)

لكن الروح الحرة التي تجسمت في شخصية الكواكبي لايمكن أن تيأس لأن اليأس ليس من شيم النفوس الأبية الصامدة في وجه

---

(١) يقول الاستاذ كامل الغزي : نهر الذهب في تاريخ حلب ج ٣ ص ٣٩٣ انه تولى أمر الترجمة لجريدة الفرات بعد أن تركها فقيد الوطن السيد الفاضل عبد الرحمن افندي الكواكبي وظل الغزي يتولى الترجمة من التركية الى العربية في هذه الجريدة مدة ٢٠ سنة بعد ترك الكواكبي لها .

(٢) يقول الاستاذ غرايبه (سوريا في القرن ١٩) ان تاريخ صدور هذه الجريدة ١٠ – ٥ – ١٨٧٧ ويؤكده كذلك فيليب دي طرازي بينما يذكر سامي الدهان نقلا عن راغب الطباخ أن الكواكبي أنشأها سنة ١٨٧٨ م .

(٣) كامل الغزي : مجلة الحديث حلب ١٩٢٩ العدد السادس وتاريخ ما أهمله التاريخ من سيرة عبد الرحمن الكواكبي بطل الحرية وفقيد الشرق ص ٤٠٤ ومابعدها .

(٤) عبد الكريم غرايبه : سورية في القرن ١٩ ص ٢٤٨

الطغيان والاستبداد • فما كادت صحيفة الشـــهباء التي اصدرها الكواكبي تعطل ، حتى أصدر صاحب امتيازها غيرها سماها جريدة (الاعتدال) في ٢٠ يوليو ١٨٧٩ باللغتين العربية والتركية وفوض تحريرها للكواكبي (١) • وجعل الكواكبي أحد الأهداف الأساسية لهذه الصحيفة الكشف عن ســيئات المأمورين (الموظفين) وعرض حاجات البلد وتوسيع دائرة المعارف (٢) •

لكن هذه الصحيفة التي اختلفت عن غيرها من الصـحف فهي لا تكيل المديح للسلطان ولا تخلع عليه من الألقاب ما تخلعه غيرها من الصحف والتي تصدت للكشف عن سـيئات الموظفين وتعريف الناس بحقوقهم ، كانت كفيلة أن تلقى من والي حلب جميل باشـــا ما لقيته الصحيفة السابقة (الشهباء) على يد سلفه كامل القبرصي• فعطلت الصحيفة الجديدة مثلما عطلت سابقتها ، فقد كان الكواكبي أول صحافي حلبي يحرر في الصحف مقالات اجتماعية وبحوث في شتى المجالات يختلف عما يكتبه غيره في الصـــحف الأخرى التي اقتصرت ما احتوته على البيانات الرسمية أو البلاغات الحكومية •

وترك الكواكبي الكتابة في الصـحافة حينا ليتولى عددا من المناصب الادارية فقد عين من قبل في ٩ مارس ١٨٧٩ عضوا فخريا في لجنتي المعارف والمالية بالولاية • ثم عين بعد عام عضـــوا فخريا كذلك في الأشغال العامة كما تولى منصب مأمور للأجراء (رئيسا لقلم المحضرين) في ولاية حلب ثم عضـــوا فخريا كذلك في لجنـــة امتحان المحامين • وحين بلغ التاســـعة والعشرين من عمره عينته الحكومة مديرا فخريا لطبعة الولاية الرسمية في حلب في سنة ١٨٨١ ميلادية (١٣٩٧ هـ) ثم رئيسا فخريا للجنة الأشـــغال العامة ثم

---

(١) كامل الغزي : مجلة الحديث العدد السادس سنة ١٩٢٩

(٢) المصدر السابق ص ١٨٤

عضوا في محكمة التجارة بولاية حلب بناء على أمر من وزارة العدل العثمانية • وفي سنة ١٨٨٦ عاد الكواكبي ليشغل وظيفة مأمور الأجراء وهي الوظيفة التي كان يشغلها من قبل •

وعرف عن الكواكبي في كل وظائفه التي تولاها نزاهته وجديته في عمله واصراره على نصرة الحق والحرص على مصالح الجماهير ايمانا منه أن الموظف خادم للشعب وليس سيدا على الناس • كما عرف عن الكواكبي كرهه للنفاق والتصدي للاستبداد والعمل على دك صروح الظلم وكان ذلك كله مفهوما جديدا غير مألوف لدى الجمهرة الغالبة من الموظفين الذين كانوا يرون الوظيفة سبيلا الى جاه وسؤدد • وحان الوقت الذي خشي فيه والي حلب (جميل باشا) من الكواكبي وبدأ يراقب حركاته خاصة حين علم أن جميع ما تصدره صحف الاستانة وبيروت من طعن فيه مستمد من قلم الكواكبي وبايعاز منه • وحين انعدم التعاون بين الكواكبي ووالي حلب ، لم ير الكواكبي بدا من الاستقالة من وظائفه مؤثرا أن يخدم الناس عن غير طريق الوظيفة الحكومية •

ففي سنة ١٨٨٦ فتح الكواكبي مكتبا للمحاماة لكنه كان ملتقى لأصحاب الحاجات والمتظلمين والمساكين يسرون اليه بشكاواهم• فالمعروف أن الكواكبي أحب البؤساء والضعفاء حتى لقب في حلب بأبي الضعفاء • وجاء في جريدة الرائد المصرى أنه (الكواكبي) كان له في بلده مكتب للمحاماة يصرف فيه معظم نهاره لرؤية مصالح الناس ويبعث الى المحاكم من يأمنهم من أصحابه ليدافعوا عن المظلومين والمستضعفين • ومع تمسكه بالاسلامية والمطالبة بحقوقها والاستهلاك في سبيل نصرتها ، كان بعيدا عن التعصب يستأنس بمجلسه المسلم والمسيحي واليهودى على السواء ، لأنه كان يرى رابطة الوطن فوق كل رابطة • (١)

(١) مارون عبود : رواد النهضة الحديثة ص ٢٠٢

ومما لا شك فيه ان ممارسة الكواكبي لوظائف القضاء هي التي جعلت من حقه ممارسة المحاماة كما كان مثبعا في ذلك الحين فضلا عن ان دراسته القانونية الواسعة التي اكتسبها بالمطالعة والخبرة والمران قد أفادته كثيرا في عمل كمحام فأصبح ناجحا في هذا المجال . وقال السيد رشيد رضا في ذلك ان الفقيد (الكواكبي) درس قوانين الدولة درسا دقيقا وكان محيطا بها يكاد يكون حافظا لها ، وله انتقاد عليها يدل على دقة نظره في علم الحقوق والشرائع ، ولهذا عينته الحكومة في لجنة امتحان المحامين ، ولا أعلم أنه برز في فن أو علم مخصوص فاق فيه الأقران ، ولكنه تلقى ماتلقاه من كل فن بفهم وعقل بحيث إذا أراد الإشتغال عملا وتأليفا أو تعليما يتسنى له أن ينفع نفعا لا ينتظر من الذين صرفوا أعمارهم ... على أن الفقيد لا يتعلم شيئا من علوم النفس والأخلاق والسياسة وطبائع الملل والفلسفة في مدرسة ، وانما عمدته في هذه العلوم ما طالعه منها من المؤلفات والجرائد التركية والعربية » (١) وأصبح مكتب الكواكبي المحامي مقصدا للمتظلمين ومعقدا ورجاء للمتظلمين . وكان من شأن ذلك أن يقض مضجع الوالي خاصة وأن الكواكبي أخذ يدل أصحاب الحاجات وأولئك الذين لم ينصفهم الوالي أو غبن حقوقهم — كيف يستردون حقوقهم منه وكيف يتصدون له مطالبين بحقوقهم المسلوبة . ومن ذلك تلك القضية المشهورة في ذلك الحين قضية ورثة مصطفى كخيا طلب الوالي منهم رشوة قدرها خمسة آلاف ليرة عثمانية ذهبا فامتنعوا عن دفعها فحرض الوالي الفلاحين المستأجرين لأرضهم عليهم ، ولجأ الورثة الى الكواكبي يسألونه الرأي فكان ان وقف معهم يسطر لهم ظلامتهم الى الباب العالي حتى ورد الأمر باطلاق سراح من كان الوالي قد اعتقله منهم . وقويت شوكة المتظلمين من الوالي بعد هذه

---

(١) قدري قلعجي : عبد الرحمن الكواكبي سلسلة أعلام الفكر العربي ص ١٩ .

الحادثة فكثر عددهم وقصدوا الكواكبي الذى أصبح بالنسبة لهم ملجأ وملاذا •

وكثرت شكاوى الشاكين من الوالى والكواكبي يسطر لهم هذه الشكاوى بأسلوب بارع مثير حتى اضطر السلطان عبد الحميد الثانى برغم حبه للوالى أن يرسل مندوبا من طرفه للتحقيـــق فى تلك الشـــكاوى بغية استرضاء أهـل حلب وكسب مودتهم للسـلطنة العثمانية • وكان المندوب اسمه صاحب بك رئيس دائرة المحاكمات في شورى الدولة وأصبح فيما بعد شيخا للاسلام • وقد وصل الى حلب ومعه لجنة من المحققين أقاموا فى حلب مدة تزيد على الشـــهرين ينظرون في الشكاوى المقدمة من خصـــوم الوالى وكلها محررة بقلم الكواكبي • وكان السخط من جانب افراد الشعب فى حلب قد بلغ منتهاه ضد الوالى فتصادف اثناء وجود مندوب الباب العالى فى حلب ان اعتدى محام أرمنى على الوالى فى ساحة باب الفرج فى ١٦ صفر ١٣٠٤ هـ (الموافق منتصف نوفمبر ١٨٨٦ م) وذلك بأن اطلق عليه عيارا من مسدسه ولكنه أخطأه فقبض عليه وأرسل الى السجن وحكم عليه بالحبس مدة خمسة عشر عاما • وأرادها الوالى فرصة يتخلص فيهـــا من أعدائه وفى مقدمتهم بطبيعة الحال عبد الرحمن الكواكبي فقبض عليه وأودعه السجن • ويقول السيد كامل الغزى فى شرحه لهـــذه الحادثة التى شغلت أذهان الناس فى ذلك الحين « ولكن صاحب بك مندوب الباب العالى أبرق الى الاستانة يقول « أنا عازم على الشخوص الى الاستانة لأننى لا أستطيع البقـاء فى بلدة لا يعرف فيها نظام ولا قانون ، وأبرق محمد على باشا قائد الجندية (فى حلب) الى مقام الشيرية العسكرية يقول ما معناه أننى غير مسئول عما اذا حدث فى حلب ما يخل بالسلام لأننى لم يبق لى نفوذ على القوة العسكرية • » (١) •

---

(١) كامل الغزى مجلة الحديث العدد السادس ١٩٢٩ ويشرح الغزى كيف =

ولما اطلع السلطان على هاتين البرقيتين رأى ان الامر قد تفاقم فاصدر أمره بتنحية جميل باشا عن ولاية حلب وارســـله وانيا على الحجاز وأفرج عن المسجونين وعين عثمان باشا الأعرج وكان مقعدا يحمل على كرسى ليصل الى مكتبه ٠

وما كاد الوالى الجديد يصل الى حلب حتى عين الكواكبى بعد برهة من الزمن رئيسا لبلديتها وكان مجلسها البلدى على حد قول كامل الغزى فى غاية الانحطاط وســـوء الادارة ٠ فتفتقت عبقرية الكواكبى عن عديد من وجوه الاصلاح المختلفة ، ومن ذلك أنه وضع حواجز على مدينة حلب تمنع الجمال المحملة بالبضائع من الدخول الى قلب المدينة وما كان يســـببه دخولها من عدم نظافة الشـــوارع وازدحامها ٠ كذلك فكر فى انشاء مرفأ للسويدية ومد خط حديدى منها الى حلب ٠ كما قام بتجفيف المستنقعات المحيطة بها حتى يقضى على البعوض والأمراض التى يسببها٠ومن أهم ما فكر فيه الكواكبى أثنـــاء توليه رئيس بلدية حلب هو توليد الكهرباء من نهر العاص وذلك بواسطة شلال يحدثه من مياه النهر ٠

ثم تولى الكواكبى رئاسة غرفة التجارة والمصرف الزراعى فى حلب فأصلح شئونهما ووضع جداول احصائية تشهد على المامه الكبير بشئون الاقتصاد ومسائل العمران ٠

لكن الكواكبى تعرض قبل ذلك لأزمة ثانية انتهى الأمر فيها بسجنه مثلما سجن من قبل على عهد الوالى جميل باشا ٠

وذلك ان والى حلب نقل وجاء مكانه (سنة ١٣٠٧هـ) ١٨٩٠م عارف باشا « سماه أهل حلب (عارف صحيفة) لأنه أتخـذ له من

= عومل الكواكبى معاملة سيئة فى السجن فحبس حبسا منفردا ووقف على باب غرفته جنديان مسلحان ٠

أعضاء مجلس ادارة الولاية وكبار موظفيها اصحابا يخرجون معه فى بعض أيام الأسبوع فى احدى متنزهات البلدية بقصد الترويح ويأتى كل واحد منهم بصحن فيه لون من الطعام لذيذ ولما كان الوالى يكثر من هذه الوليمة . فلقبه الحلبيون بعارف صحيفة » (١)

ولما كان هذا الوالى فاسدا مرتشيا فقد تصدى له الكواكبى يتتبع سقطاته ويندد به فى صحف الاستانة وبيروت وصار الوالى ينتظر الفرصة المناسبة لينتقم فيها من الكواكبى .

وواتته هذه الفرصة حين حدث فى أحد الأيام ان كان قنصل ايطاليا بحلب وهو المسيو « أنريكو ويتو » وهو يمر فى محلة الجلوم أحد أحياء حلب حيث يسكن الكواكبى أن وقع على ظهره حجر صدمه صدمة عنيفة تألم منها وأرسل الى الوالى تقريرا بذلك يطلب منه البحث عن الضارب واجراء العقوبة القانونية وفتحت هذه الحادثة للوالى بابا يلج منه الى الصاق التهمة بالكواكبى لا سيما وقد كانت الحادثة بالقرب من مسكنه . ويمضى السيد كامل الغزى صديق الكواكبى ورفيقه يقص علينا خبر هذه الحادثة (٢) بالقول أن الوالى أوعز الى بعض شياطينه (يقصد جواسيسه وأعوانه) بأن يرفعوا اليه تقريرا ان الكواكبى منضم الى عصابة أرمينية وأنه أغرى بعض الناس فرشق على قنصل ايطاليا حجرة أصابت ظهره محاولا بذلك احداث فتنة بين الأرمن والمسلمين فى حلب وحالما قدمت هذه الاخبارية أمر الوالى رئيس الشرطة بالذهاب الى منزل السيد عبد الرحمن والدخول اليه قسرا وتفتيش مكتبه وخزانة أوراقه فتوجه رئيس الشرطة على الفور الى منزل الكواكبى وكان غائبا عنه فدخله قسرا ومعه طائفة من أتباعه وقصدوا خزانة كتبه وألقوا فيها

(١) كامل الغزى : مجلة الحديث العدد السادس سنة ١٩٢٩ تاريخ ما أهمله التاريخ من سيرة الكواكبى .

(٢) المرجع السابق ص ٤٠٤ وما بعدها .

ورقة مزورة واستحضروها معهم وهي تركية العبارة مجراة بحروف أرمنية مضطربة التركيب يفهم منها ان أحد زعماء الارمن يعد السيد عبد الرحمن بأنه عما قريب يقوم باحداث ثورة بين المسلمين وبين الارمن في حلب . وقبض الشرطي على هذه الورقة وطار بهـا الى الوالي فاستلمها منه وفي الحال أصدر أمره بالقـاء القبض على الكواكبي والزج به في السجن » .

وخرج الكواكبي من السجن ليحاكم أمام رئيس محكمة تم الاتفاق بينه وبين الوالي على أن يصـدر حكم الاعدام على الكواكبي ونفذ كل ذلك وصدر الحكم بالاعدام على أن يكون قابلا للاستئناف ثم التمييز . وتلقى الكواكبي الحكم برباطة جأش وثبـات نفس وشرع يطلب من المراجع العليا أن تكون محاكمتـه التمييزية في عدلية بيروت لعداوة شخصية بينه وبين الوالي فأجيب الى طلبـه ونقل مع أوراق الدعوة الى محكمة بيروت واعتقل في سجنها .

يقول السيد كامل الغزي انه في هـذه الأثناء أرسـل له الكواكبي يطلب منه الاتصال بقنصل ايطاليـا في حلب لكي يكتب لقنصل دولة ايطاليا في بيروت بأن الكواكبي لا دخل له في حادث الاعتداء عليه . وكتب قنصل ايطاليا في حلب بذلك فقد كان على علاقة ودية مع الغزي وكان على يقين بأن الكواكبي لا دخل له في الحادث وليست من صفاته اتيان مثل هذه الأفعال . وكان القنصل قد تحرى في ذلك الحين عن الحادث وعلم ان الحجر الذي أصـابه كانت مقذوفة بمقلاع أحد الاولاد وانتهى الامر بأن برأت محكمـة بيروت الكواكبي وعاد الى حلب ليمضي في التشهير بعارف باشـا حتى عزل عن حلب في شهر جمادى الثانية سنة ١٣١٠هـ (١) ديسمبر ١٨٩٢ .

---

(١) كامل الغزي : مجلة الحديث ١٩٢٩ العدد السادس .

وبعد عزل عارف باشا من ولاية حلب عاد عثمان باشا الاعرج الى ولايتها فعهد للكواكبي برئاسة غرفة التجارة والمصرف الزراعي في حلب ٠

لكن الكواكبي آثر الاستقالة من وظائفه وسافر الى استانبول (سنة ١٣١٢ هـ) ١٨٩٤ م بقصد السياحة فانزوى متنكرا في أحد أماكنها لا يريد أن يعرفه أحد أو يتعرف عليه أحد وكأنه أراد أن يلم بأحوال الامور بها حتى يصور الاستبداد وأهله عن تجربة والمام وبصيرة أو كما يقول الغزي كأنه لم يقصد من هذه السياحة الا أخذ الدروس في فن طبائع الاستبداد من مدرسته الكبرى قصر البلاط السلطاني المعروف باسم (يلديز) فهو أعظم معهد تلقى فيه دروس هذا الفن العظيم الذي جمع منه في كتابه طبائع الا استبداد مالم يجمعه أحد قبله ولاينسج على منواله أحد بعده ٠

لكن الكواكبي ما كاد يصل الى الاستانة حتى كانت الجواسيس المنبثة في كل مكان منها قد نقلت للسلطان عبد الحميد الثاني وحاشيته خبر وصوله اليها ٠ ويبدو أن السلطان عهد الى أبي الهدى الصيادي باستضافة الكواكبي عنده ٠ كان الصيادي من حلب بلدة الكواكبي لكن ما أبعد الفرق بين الرجلين هذا متملق منافق فقير في حسبه ونسبه استطاع أن يتقرب الى السلطان عبد الحميد حتى أصبح مستشاره الخاص وكان رقيبا على كل صوت حر وهو (الصيادي) الذي أوعز الى عبد الحميد باستضافة الافغاني عنده حتى يراقبه كما ألف فيه عبد الله النديم كتابا سماه المسامير نعته بأحط الصفات (١) كذلك انبرى الشيخ رشيد رضا الى نقده وما ادعاه الصيادي من تمجيد لحسبه ونسبه بل فضل نفسه على الشيخ عبد القادر الجيلاني والشيخ احمد الرفاعي فألف

---

(١) أحمد أمين : زعماء الاصلاح في العصر الحديث ص ٢٤٤

رشيد رضا كتابا سماه « كتاب الحكمة الشرعيـــة فى محـــاكمة القادرية والرفاعية » وبعدها أزمع رشيد رضا على ترك الشام الى مصر حتى لا يتعرض لأذى أبى الهدى الصيادى المقرب من السلطان عبد الحميد الثانى ٠

كان لأبى الهدى الصيادى اذاً نفوذ كبير فى الاستانة يتصدى للرجال الأحرار أى أنه كان أداة السلطان عبد الحميد فى هـــذه الناحية ولذلك وبرغم ان الصيادى كان يكره الكواكبى فقـد كان بين أسرتيهما عداء شديد فى حلب لتطاول آل الصيادى على ادعاء حقهم فى نقابة الأشراف فى حلب بدلا من آل الكواكبى ، برغم ذلك استضاف الصيادى الكواكبى عند وصوله للاستانة ٠ ومن ثم لم تطل اقامة الكواكبى بها فغادرها عائداً الى حلب ٠

وعندما عاد الكواكبى الى حلب أخذ١٣١٣هـ (١٨٩٥م) التزام شركة للتبغ حيث فوضته الشركة فى كل ما يعمل ٠ فأقبل الناس لثقتهم فيه على شراء تبغه لجودته ولأنه جعل ثمنه رخيصا ٠ وكان الأمل أن يربح الكواكبى أرباحا طائلة من وراء ذلك ٠ لكن السلطة القائمة فى حلب تصدت له فأوعـــزت الى بعض مثيرى الشـغب باحداث فتنة نجم عنها مشاغبات ومذابح فكسدت بضاعة الدخان وخسر الكواكبى من هذا الالتزام ٠ ثم كان أن عين الكواكبى فى سنة ١٨٩٤ م بناء على أمر من المشيخة الاسلامية الى قاضى حلب — فى وظيفة رئيس كتاب للمحكمة الشرعية فى حلب ٠ فسرعان ماظهرت وجوه الاصلاح فى هذه المحكمة فمنع اختـــلاط النساء بالرجال وجعل لكل مكانا ينتظر فيه دوره ٠ ورتب الأوقات ونظم الدفاتر والسجلات وبقى فى هذه الوظيفة سنتين ٠ لكن الحاقدين عليه وفى مقدمتهم والى حلب كانوا له بالمرصاد ، فاتفق الوالى مع القاضى على تنحيته وعين مكانه كامل الغزى صديق الكواكبى وصفيه برضـا الكواكبى نفسه ٠

وعهد الى الكواكبي بعدها برئاسة لجنة بيع الأراضي الأميرية ثم رئيسا لغرفة التجارة في حلب . وكان الكواكبي كشأنه في كل ما يسند اليه من أعمال نزيها مخلصا كفئاً يحرص على خـدمة الناس أكثر مما يحرص على خدمة الرؤساء على حساب الشعب ، معتدا برأيه معتزا بكرامته . فكان من الطبيعي أن يصطدم بأولئك الذين كانوا ينظرون للوظيفة على أنهـا تكليف لا تشريف ليست مجالا للرشوة والاستغلال وجلب المال .

ولكن نفس الكواكبي ضاقت بهذا الجو الكئيب وبهذه الحرية وقد رآها تحتضر ورأى الفساد وقد استشرى فآثر أن يغادرها الى مكان ينعم فيه بحريته ، لأن الانسان على حد قوله يتجرأ أن يقول في بلاد الحرية ما لا يتجرأ عليه في بلاد الاستبداد . بل ان بلاد الحرية تولد في الذهن من الافكار والآراء ما لا يتولد في غيرها .

لكن الكواكبي كتم خبر سفره حتى عن أقرب المقربين اليـه وعن أخلص أصدقائه فأعلن أنه يزمع التوجه الى عاصـمة الدولة العثمانية ليحاول أن يستبدل نيابة راشـيا بغيرها وكان شـيخ الاسلام قد عرض عليه نيابة قضاء راشيا فاستقلها وبقى في حلب مدة . لكن الحقيقة أنه كان يعد العدة لرحيل لا عودة فيه الى مكان يستطيع أن يرفع قلمه وصوته بالاصلاح . أعد الكواكبي العـدة للسفر الى مصر في طي من الكتمان ولم يفض به الى أحد .

ويقول كامل الغزى انه ذهب لتوديعه زاعما له أنه مسافر الى استانبول « وكنت عالما بكتابه جمعية أم القرى وقد شعرت منـه العزم على طبعه . فوقع في نفسي أنه سيعرج على مصر لطبعه ونشره اذ لا يمكنه أن يطبعه في غيرها وحـذرته من ذلك وقلت له اياك يا أخي والسفر الى مصر فانك متى دخلتها تعذر عليك الرجوع الى وطنك لأنك تعد في الحال من الطائفة المعروفة باسم جون ترك(١)،

(١) أى الطائفة المتعاونة مع الانجليز من الاتراك .

لا يتأخر وسمك بهذه السمة قيد لحظة ، لما اشتهرت به وعرفت به من شدة المعارضة وانتقاد الاحوال الحاضرة فقال (أي الكواكبي) لم أعزم الا على السفر الى استانبول للغرض الذي ذكرته لك . ثم ودعني ومضى وأنا أسأل الله أن يرعاه بعين رعايتــه وأن يجعــل التوفيق رائده والنجاح مرشده وقائده . وكانت مبارحته حلب في أوائل سنة ١٣١٦ هـ (١) (الموافق سنة ١٨٩٩ ميلادية)

(١) كامل الغزي مجلة الحديث العدد السادس سنة ١٩٢٩

برغم قصر المدة التى قضاها الكواكبى فى مصر والتى لم تتجاوز الأربع السنوات فقد جاءها سنة ١٨٩٩ وتوفى بها سنة ١٩٠٢ ميلادية ، الا أننا رأينا أن نفرد لها فصلا خاصا ذلك أنها على قصرها كانت أهم فترة فى حياة الدارس لشخصية الكواكبى . ففيها رفع القلم مجاهرا بسقوط الاستبداد الذى فرضه السلطان عبد الحميد الثانى على البلاد وهاجم العثمانيين وسياستهم فى الحكم وفيها نشر كتابه أم القرى الذى أحدث دويا هائلا ولعب دورا كبيرا فى حركة اليقظة العربية على نحوما سنذكره عند حديثنا عنه . كما جمع مقالاته المتفرقة التى كتبها عن الاستبداد فى كتابه الذى سماه طبائع الاستبداد .

كانت مصر فى الوقت الذى جاءها فيه الكواكبى ملتقى هاما لدعاة التحرر وزعماء الفكر الحر الذين ضاقت بهم بلادهم على عهد السلطان عبد الحميد الثانى . فلقد رأوا أن الاستبداد الذى فرضه هذا السلطان قد أفسد صفات النفوس وضيع أخلاقها فأصبح النفاق والتملق من سمات هذه النفوس . فلقد سد هذا السلطان على الناس أنفاس الحرية وخنق ارادتهم ليستعلى سلطانه وعظم بين هؤلاء الضعاف شأنه فزلت نفوسهم وركبها التزلف والتقرب ، واذا وصلت النفوس الى هذا الدرك الأسفل انهارت قواعد الأخلاق واختلت الموازين فخاف البرىء وأمن المسيىء وتقدم الهازل وتأخر المجد وراجت الشعوذة . وصار المرء لايأمن على عرضه وماله ودمه

لا يعرف كيف يهدر دمه ولا يدرى متى يسلب ماله ويهتك عرضه • واذا خافت النفوس صغرت واذا صغرت أصبحت تمثل الدعة والهدوء وتنفر من الطموح والسمو وفى كل ذلك معنى انهيار الأمة •

من أجل هذا كانت باريس والقاهرة الملتقيين الهامين للرجال الأحرار الذين فروا من وجه السلطان عبد الحميد والذين بدأوا العمل خارج أرض الدولة العثمانية لاسقاط صرح الظلم والاستبداد الذى فرضه هذا السلطان على دولته التى كانت البلاد العربية خاصة فى مشرقها تمثل أحد أجزائها الرئيسية •

ففى الوقت الذى تكونت فيه جمعية سرية ثورية فى القسطنطينية من طلبة المدرسة الطبية العسكرية سنة ١٨٨٩ م والتى اتخذت لنفسها هدفا هو العمل على عزل السلطان عبد الحميد والتى انتشرت من مدرسة الطب الى بقية المدارس العسكرية الأخرى فى عاصمة الدولة العثمانية ، كان نشاط الأحرار فى المهجر على أشده وخاصة فى باريس حيث فر اليها عدد من الأحرار العرب فى مقدمتهم خليل غانم وهو مسيحى عربى من بيروت كان نائبا فى مجلس المبعوثين (النواب العثمانى) سنة ١٨٧٨ م عن احدى مناطق سورية ، فلما عطل السلطان عبد الحميد البرلمان فر الى أوربا وأقام فى باريس حيث أسس جريدة تركيا الفتاة La jeune Turquie بالاتفاق مع الأمير أمين ارسلان • ولم يكتف خليل بذلك بل أخذ يكتب فى مختلف الصحف الفرنسية خاصة جريدة (الديبا) Deba كتب فيها مقالات يهاجم حكم السلطان عبد الحميد واستبداده علاوة على توليه ادارة جريدة فرانس انترناسيونال France International (١) ومن العرب الذين

---

(١) توفيق على برو : العرب والترك فى العهد الدستورى العثمانى ١٩٠٨-١٩١٤ ص ٥٠

لجأوا الى باريس كذلك أحمد رضا الذى وصل الى باريس ١٨٨٩ ويعتبر أحمد رضا من أكبر اعلام حركة المقاومة ضد السلطان عبد الحميد تلقى تعليمه فى أوربا وبعضه فى فرنسا وكان يجيد الفرنسية اجادة تامة . وكان قد شغل بعض الوقت مديرا للتعليم فى ولاية بروسة ثم غادرها الى أوربا ليعمل مع زملائه الأحرار حيث اشترك مع خليل غانم فى اصدار جريدة (مورث) . وقد افزعت هذه الصحيفة السلطان عبد الحميد فأوعز الى سفارته فى باريس سنة ١٨٩٧ م أن تقيم دعوى باسمه لدى محكمة السين على أحمد رضا وخليل غانم وكانت هذه الصحيفة قد حملت فى اعدادها من الصفات والنعوت هجاء لاذعا لهذا السلطان المستبد فوصفته بأنه المخادع ، الجلاد ، السلطان الطاغية ، الدموى ، الظالم ، المنحل ، بلية المسلمين ، الذئب الذى يتولى حراسة حظيرة الشياه والسلطان الأحمر . وبرغم ذلك فان المحكمة لم تحكم على صاحب الجريدة الا بغرامة ١٦ فرنكا وكانت غرامة مؤجلة التنفيذ ! وبررت المحكمة حكمها بان مجازر السلطان عبد الحميد فى أرمنيا وحملات الصحف الأوربية عليه كانت أحد الدوافع لحمل الصحفيين العرب عليه ومن أجل هذا فان حكمها جاء حكما مخففا (١) .

وفى الوقت الذى كانت فيه باريس تمثل مركزا هاما من مراكز تجمع الأحرار الذين فروا من وجه السلطان عبد الحميد كانت مصر ملتقى الأحرار العرب خاصة الأشقاء السوريين الذين أبوا أن يستكينوا للضيم أو أن يهادنوا الظلم والاستبداد . وكانت الحال بسورية ولبنان فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر على شيىء من الهدوء والاستقرار ولكن على جانب كبير من الضنك والضيق ، واذا عدنا القهقرى الى السنوات العشر التى سبقت

---

(٢) المصدر السابق ص ٥١

منتصف القرن التاسع عشر والى السنوات العشر التى تلته وجدنا لبنان ساحة دموية للثورة الأهلية بين الدروز والنصارى خاصة فتنة سنة ١٨٦٠ التى امتد لهيبها الى سوريا وأسفرت الفتنة عن نظام جديد بلبنان هو نظام المتصرفية فرضته الدول الغربية عليه، لكنه (لبنان) لم ينج من عنجهية المتصرفين الأتراك ولا من فساد بعض هؤلاء المتصرفين وجشعهم فى جمع المال من أى سبيل واشتهر من هؤلاء المتصرفين واصف باشا الذى قال فيه أحد الشعراء حين توفى :

قالوا قضى واصفا ووراه الثرى
فأجبتهم وأنا الخبير بذاته

رنوا الفلوس على بلاط ضريحه
وأنا الكفيل لكم برد حياته

وأمام ظلم وفساد الحكم العثمانى بدأت هجرة السوريين واللبنانيين • وكان من الطبيعى أن تكون مصر هى المهجر القريب الذى تطلعت اليه قلوب الشاميين فالجوار واللغة ووحدة العادات أهابت بالأحرار أن يفروا من ربقة الاستبداد العثمانى الى مكان آمن • ولم يكن هناك خير من فى وادى النيل المكفولة فيه حرية القلم آنذاك(١) • ولقى النازحون من الشام الى مصر فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر أهلا بأهل وأخوانا بأخوان فشاركوا اخوانهم فى مصر الحياة العامة وعاشوا أوفياء لمصر يحسون باحساسها وتخالج قلوبهم آلامها وآمالها ويعملون منها لاسقاط الحكم العثمانى المستبد •

---

(١) عادل الغضبان : الشيخ نجيب الحداد ص ٨ سلسلة نوابغ الفكر العربى •

وكانت مصر في ذلك خاضعة للاحتلال البريطاني ، والاحتلال يشجع كل حركة مناوئة للدولة العثمانية وتلقى منه ترحيبا وحاكم مصر الشاب أنذاك الخديو عباس حلمي الثاني ليس على وفاق مع السلطان فهو بدوره يقرب اليه الفارين من وجه السلطان عبد الحميد • تولى الخديو عباس حلمي الثاني الحكم بعد وفاة والده الخديو توفيق في السابع من يناير سنة ١٨٩٢ وثارت مشكلة بسبب تعيينه ذلك انه كان قد ولد سنة ١٨٧٤ ولم يكن قد بلغ الثامنة عشرة من عمره ومعنى ذلك انه لايحق لـه تولى منصب الخديوية ولكن حلت المشكلة بالحساب الهجرى • وشهدت مصر في هذه الفترة صراعا بين الانجليز يريدون أن تزداد قبضتهم على مصر وبين السلطان عبد الحميد يريد أن يثبت سلطانه على مصر كولاية تابعة له • وأخر السلطان عبد الحميد صدور الفرمان الخاص بتعيين عباس حلمي خديويا للبلاد فقد كان يريد تعديل حدود مصر من جهة سيناء فطالب بأن تتخلى مصر عن العقبة لتركيا على أساس أنها كانت تابعة من قبل لولاية الحجاز وأعارتها تركيا لمصر على عهد اسماعيل • وقبل عباس حلمي ما طلبته تركيا حتى يحل مشكلة اصدار فرمانه لكن انجلترا رفضت ذلك وأصرت على صدور فرمان تعيينه على أن يتضمن الفرمان اسناد ادارة شبه جزيرة سيناء الى الخديو طبقا لحدود مصر في فرمانها الصادر لمحمد على سنة ١٨٤٠ وقبلت تركيا أخيرا وحلت الأزمة (١) • وفي ذلك الحين فترت العلاقة بين الخديو الجديد وسلطان الدولة العثمانية ولقى الأحرار العرب الذين جاءوا الى مصر كل ترحيب منه وتأييد •

وراودت الخديو عباس أحلام وآمال عريضة كشاب يرتقى عرش مصر يحاول أن يؤكد سلطانه كخديو للبلاد فهو يريد أن

---

(١) عبد الرحمن الرافعي : مصطفى كامل ص ٣١٤

يؤكد انفصال مصر عن تركيا بل راودته فكرة أن تئول أمر خلافة المسلمين بدلا من السلطان العثماني . ومن أجل هذا أصبحت مصر مجالا لنشاط الأحرار الذين فروا من وجه السلطان عبد الحميد .

جاء الى مصر ابراهيم اليازجي (بن ناصيف اليازجي) ، وكان ابراهيم هذا هو أول صوت انبعث بالدعوة الى القومية العربية في الشام فهو صاحب القصيدة التي وصفها البعض بأنها مارسيليــة العرب (أشبه بنشيد الثورة الفرنسية)

تنبهوا واستفيقوا أيها العرب
فقد طمى الخطب حتى غاصت الركب
أقداركم فى عيون الترك نازلة
وحقكم بين أيدى الترك مغتصب
صبرا هيا أمة الترك التى ظلمت
دهرا فعما قليل ترفع الحجب
لنطلبن بحد السيف مأربنا
فلن يخيب لنا فى جنبه أرب

ولم يكن منتظر أن تطيب الاقامة لابراهيم اليازجى فى بلاد الشام بعد هذه الصيحة المدوية فبادر بالهجرة الى مصر حيث أسهم فى ميدان الصحافة بنصيب وافر وتوفى على أرضها سنة ١٩٠٦ (١) واقتفى أثر ابراهيم اليازجى شخصية ســورية أخرى هو رفيق العظم ، الذى أبى الاستكانة لظلم العثمانيين وفى وطنه الشام فانضم الى الجمعيات السرية المناوئة لهم . ثم ضاقت نفسه بالجواسيس يحيطون به من كل جانب فهاجر الى مصر سنة ١٨٩٤ . كذلك

---

(١) عيسى ميخائيل سابا : ابراهيم اليازجى سلسلة نوابغ الفكر العربى ص ٤٩ وكذلك ارجع الى كتاب : العرب والترك فى العهد الدستورى العثمـــانى ١٩٠٨ ـ ١٩١٤ لمؤلفه توفيق على برو ص ٢٧

سافر الى مصر شكيب ارسلان سنة ١٨٩٠ ليلحق باستاذه محمد عبده فقد ذكر شكيب ارسلان في سنة ١٨٩٠ أول مقدمه الى مصر « كنت بين العشرين والواحد والعشرين من العمر فمكثت سبعة أشهر في الاسكندرية ثم جئت الى مصر ، وكان أكثر اجتماعنا في ذلك الوقت باستاذنا الامام الشيخ محمد عبده وبرهطه المعدودين » . ثم ذكر شكيب هذا الرهط وعدد أسماءهم فيهم سعد زغلول والشيخ علي يوسف صاحب المؤيد وكانت صحيفته مدرسة للحق والوطنية والأدب ومنهم أحمد زكي باشا الذى أصبح شيخ العروبة في تحقيقاته (١) .

وهكذا كانت مصر ملتقى للأحرار في ذلك الحين وتموج فيها نهضة أدبية وثابة بفضل أعلام النهضة الأدبية في ذلك الحين وفي مقدمتهم بطبيعة الحال الشيخ محمد عبده الذى عاد من منفاه في بيروت سنة ١٨٨٨ وهو يحاول قدر استطاعته متابعة الاصلاح قاصرا جهوده على الميدانين الاجتماعي والثقافي تاركا الميدان السياسي . ومن المعروف أن الكواكبي اتصل بالأستاذ الامام محمد عبده وكان يجله ويصفه - على حد قول رشيد رضا - بأنه (محمد عبده أعلم من أستاذه الأفغاني . وكان رشيد رضا يخالف الكواكبي في هذا الرأى . وقال الكواكبي حين سأله الخديو عباس حلمي عن رأيه في الشيخ محمد عبده قال ان أفريقيه أخرجت كثيرا من العلماء والفلاسفة . الحكماء ثم أخرجت أخيرا حكيما فاق جميع الحكماء وهو الشيخ محمد عبده وقد روى ذلك السيد رشيد رضا وهو يؤرخ لمحمد عبده .

كذلك ظهر في مصر طبقة من الصحفيين الممتازين في ذلك الحين على رأسهم الشيخ علي يوسف صاحب جريدة المؤيد التى

---

(٢) سامي الدهان : شكيب ارسلان ص ٦٩

أفسحت صفحاتها لمقالات الكواكبى . وحفل ميدان الأدب بطائفة من فحول الشعراء منهم سامى البارودى وأحمد شوقى وحافظ ابراهيم فهؤلاء جميعا علا صوتهم بالقصائد العصماء التى خدمت شتى نواحى الاصلاح . كذلك كان هناك جيل صاعد من تلاميذ محمد عبده يشقون طريقهم فى ميادين الاصلاح ومنهم لطفى السيد والعقاد .

تلك كانت حالة مصر يوم وصل اليها عبد الرحمن الكواكبى فى منتصف نوفمبر سنة ١٨٨٩ لم يرافقه أحد من اسرته سوى ابنه الأكبر كاظم .

ولم تمض على مبارحة الكواكبى حلب بضعة عشر يوما الا وعرف الناس بوجوده فى مصر . وأخذت جريدة المؤيد تنشر له كتابه الذى أسماه طبائع الاستبداد فى مقالات متفرقة بعنوان الرحالة كاف . ويقول كامل الغزى فى ترجمته للكواكبى « وأخذت جريدة المؤيد تنشر له تفرقة كتاب طبائع الاستبداد الذى لم يطلعنا عليه مطلقا بخلاف كتاب جمعية أم القرى فقد أطلعنا عليه مرارا . ثم أنه طبع الكتابين المذكورين وقام لهما فى المابين السلطانى ضجة عظيمة وصدرت ارادة السلطان بمنع دخولهما الى الممالك العثمانية . بيد أنه رغما عن ذلك وصلا الى حلب على صورة خفية وقرأناها فى سمرنا المرة بعد المرة . وبلغنا أنه بعد دخوله الى مصر بأيام قليلة التف حوله جماعة من ادباء الأتراك يزعمون أنهم من طائفة جون ترك ، وما هم فى الحقيقة الا جواسيس يراقبون حركاته وسكناته ويكتبون بها الى المابين .

لقى الكواكبى فى مصر اخوانه الأحرار السوريين الذين فروا من قبله الى القاهرة . لقى رشيد رضا الذى جاء من بلدته القلمون من أعمال طرابلس فرارا الى مصر فوصلها قبل الكواكبى بعام

(١٨٩٨م) ليلحق باستاذه ورائده محمد عبده فقد قال له رشيد رضا انى أعاهدكم أن أكون معكم كالمريد مع أستاذه . فوضع محمد عبده له منهاج جريدة واختار له اسمها (المنار) وحذره من الخوض فى السياسة ولم يلبث أن صدر عددها الأول فى الشهر التالى لوصوله الى مصر . كذلك التقى الكواكبى بالمرحوم عبد الحميد الزهراوى وهو الذى لعب دورا هاما وكبيرا فى الحركة العربية بعد توليه رئاسة المؤتمر العربى الأول الذى عقد فى باريس سنة ١٩١٣ والذى كان من مقرراته مطالبة جماعة الاتحاد والترقى الحاكمة باعطاء العرب حقوقهم واشراكهم فى الحكم والاعتراف باللغة العربية لغة رسمية . واضطرت الحكومة العثمانية الى الاعتراف ببعض الاصلاحات حتى تهادن هذه الحركة . ثم جاءت نهاية الزهراوى على يد جمال باشا السفاح التركى فى ٦ من مارس ١٩١٦ حين بعث الى كراسى المشنقة برعيل كبير من أحرار العرب .

وأتيحت الفرصة للكواكبى أن يلتقى كذلك بالمرحوم محمد كرد على وابراهيم سليم النجار والشيخ طاهر الجزائرى الذى لعب دورا هاما فى اليقظة العربية فى دمشق . فقد كان يشغل منصب مفتش المعارف فى دمشق فى الوقت الذى كان مدحت باشا حاكما لها وكان عونه الأكبر فى تأسيس جمعية المقاصد الخيرية ثم استبدلت جمعية المقاصد الخيرية بمجلس معارف سنة ١٨٨٢ كان رئيسه العالم محمود أفندى حمزة مفتى دمشق ونائبه الشيخ طاهر الجزائرى . وكانت حلقة التدريس فى دمشق للشيخ طاهر الجزائرى من أشهر حلقات التدريس كان يحضر له دروسه صفوة المتعلمين والنابهين والمفكرين العرب وأقنع طاهر الجزائرى حكام دمشق أثناء ولاية مدحت باشا أن على الحكومة أن تنافس مدارس الارساليات الأجنبية فى تعليم اللغة العربية وأنها اذا لم تقم بذلك تلقى النشء تعليمهم فى مدارس الارساليات

هـذه وتلقوا مع تعليمهم مذاهب سياسية معينـة تحرص مدارس الارســاليات على تلقينها للنشء (١) ٠ لكن جهــود الشــيخ طاهر الجزائرى الاصـلاحية لم تحقق ثمرتها المرجوة بفضل موقف السـلطان عبد الحميد من كل جهد اصـلاحى فمـا لبث أن نقل مدحت باشـا من دمشـق ثم اتهمه بالتآمر على قتل السـلطان عبد العزيز وحكم عليه بالاعدام ثم خفف الحكم الى النفى المؤبد حيث قضى بقية أيـامه فى الطـائف (٢) ٠ وغـادر الشــيخ طاهر الجزائرى سوريا الى مصر ٠

أخذ الكواكبى يلتقى بكل هؤلاء الاخوة المناضلين رفقائه فى الكفاح فى مقهى سبلنددبار بالقاهرة ٠ كانوا يجتمعون كل مساء وبدأت معـارف الكواكبى تزداد ودائرة صـلاته تتوسع فاتصل بالمرحوم على يوسف صاحب المؤيد عن طريق السيد رشيد رضا فتمكنت بينهما روابط الصداقة والود ٠ وأخذت جريدتا المؤيد والمنار تفسح له صفحاتهما لنشر مقالاته ٠

واستقر الكواكبى فى القاهرة واتخذ مسـكنا له بشــارع الامام الحسين بالقرب من الأزهر وأخذ ينشر مقالات عن الاستبداد لا يوقعها باسـمه وانما اتخذ لنفسـه رمز الرحالة كاف ٠ ولكن الأوساط الأدبية والثقافية عرفت أنه (الكواكبى) صـاحب هذه المقالات فأقبلت عليه وعلى مقالاته ٠

ثم كان أن توثقت عرى الصداقة بين الكواكبى والخـديو عباس حلمى الثانى ٠ ويبدو أن الكواكبى تعرف بالخديو عن طريق رشيد رضا والشيخ على يوسف فالمرحوم رشيد رضا فى سرده لتاريخ حياته (٣) يقول : كان الخديو عباس يثق بى وكان يستوقفنى

---

(١) مصطفى الشهابى : محاضرات عن القومية العربية ص ٤٩ ـ ٥٢

(٢) احمد امين : زعماء الاصلاح فى العصر الحديث ٠

(٣) رشيد رضا : تاريخ الامام محمد عبده ص ٥٨٠ ٠

كثيرا مع الشيخ على يوسف عند انصراف الناس من المقابلة ويتحدث معنا في بعض الشئون الحاضرة . وأصبحت مأذونا في مقابلة الخديو في أي وقت . ولما علم بأن الشيخ محمد ابا الهدى الصيادي يسعى لمنع مجلة المنار من دخول جميع البلاد العثمانية وأنه يكاتبني ويحاول اقناعي بترك مصر والذهاب الى الأستانة ويعدني بالرتب العلمية والوظائف الرسمية كانت هذه المسألة من أهم المهمات عند سموه . أما الشيخ على يوسف فكان أخلص للخديو من مصطفى كامل وكان مواليا للشيخ محمد عبده في الوقت نفسه يخبرهم بجميع أسرار الخديو وما ينكره من أعماله .

والمعروف أن الخديو عباس حلمي الثاني كان يطمع في الخلافة الاسلامية يريد أن يتولاها بدلا من السلطان عبد الحميد وأنه في الفترة التي وصل الكواكبي فيها الى مصر كان على خلاف مع السلطان العثماني يقرب اليه الأحرار السوريين الذين ناصبوه (السلطان) العداء . نلمس هذا التقارب بين الخديو عباس الثاني والكواكبي ، ونجد ذلك فيما كتبه الكواكبي : من ذلك قوله في مقدمة كتابه طبائع الاستبداد « أنني في سنة ثماني عشر وثلاثمائة وألف هجرية هجرت دياري سرحا في الشرق فزرت مصر واتخذتها لي مركزا أرجع اليه مغتنما عهد الحرية فيها على عهد عزيزها حضرة سمي عم النبي (العباس الثاني) الناشر لواء الأمن على أكتاف ملكه .. »

ويتخذ المؤرخون من علاقة الكواكبي بالخديو عباس الثاني دليلا على أن الذي أوعز للكواكبي برحلته التي طاف فيها البلاد العربية هو الخديو نفسه ، وأن هذه الرحلة التي تمت بايعاز الخديو كانت للدعاية له بشأن الخلافة الاسلامية . لكن هذا القول غير ثابت وتعوزه الأدلة المختلفة . ويستند الذين يقولون بأن الكواكبي قام برحلة لحساب الخديو عباس حلمي الثاني أن الصلة

بينهما كانت متينة قوية ، وان الكواكبي أثنى على الخديو ثناء مستطابا . فبالاضافة الى ما ذكرناه للكواكبي في كتابه طبائع الاستبداد نجده في كتابه أم القرى يقول :

ان جمعيتنا هذه اختارت أن تجعل مركزها المؤقت في مصر ، دار العلم والحرية فلها أمل قوي في أن حضرة العزيز (عباس الثاني) يكون عضدا للقائمين باعزاز الدين ، وخاليا فخريا للجمعية ، ولا بدع فانه خير أمير شاب نشأ على الغيرة الدينية والحمية العربية خصوصا جنابه السامي من آل بيت حازوا بين سائر ملوك الاسلام وأمرائه قصب السبق في الاطلاع على أحوال الدنيا ، فاجتهدوا في الترقيات السياسية والعمرانية والعلمية والتنظيمية والمدنية ، حتى أن النهضة العثمانية بكل فروعها مسبوقة في مصر ومقتبسة عنها ، بل كما يعلم العارفون أنها تقدمت الدولة العلية العثمانية بعض خطوات في ميدان المدنية والعمران مدفوعة بأيدي المرحومين محمد علي وابراهيم وفاضل وكامل وغيرهم من الأمراء حتى والأميرات المصريات ، فما كان رشيد وعالي وفؤاد وكمال ومدحت وعوني وبقية أحرار الأتراك الا وأكثرهم آلات أوجدها ومدها بالقوة هؤلاء العظام ، ولا غرو فقد يحمل الابن أباه على الرشد وان أباه .. »
بينما نجد الأستاذ عباس العقاد في كتابه الرحالة كاف (عبد الرحمن الكواكبي) ينفي فكرة أن يكون الكواكبي قد قام برحلته للبلاد العربية لحساب الخديو عباس حلمي الثاني . ويقول انه عرف أحد الشيوخ الذين عاشروا الكواكبي وتتبعوا أحوال الزعماء الدينيين في أيامه خاصة فيما يدور حول العلاقة بين القاهرة والقسطنطينية وبين المهاجرين من بلاد الدولة العثمانية وبين حملة الأقلام والأقطاب المصريين ويقول العقاد ان هذا الشيخ قال له : « ان اناسا من أصحاب الكواكبي كانوا اذا سمعوا عنه أنه يعمل لحساب الخديو ويهيىء الجو في بلاد العرب لمبايعته بالخلافة تبسموا وقالو : والله

ما يعمل الرجل الا لحساب نفسه ، ألا ترونه حريصا على الخلافة العربية القرشية حريصا على النسبة الى قريش فى بيت من بيوت الامارة ؟ »

ويضيف العقاد قائلا ولم أعرف يومئذ موقع الصواب فى هذه المنطقة ، ولكنى قرأت كتب الكواكبى بعد ذلك عن الدعوة فرأيت أن الرجل يدعو الى غاية طويلة الأمد يعلم أنها لا تتم فى حياة فرد واحد ، ويوطن العزائم على ذلك بين قرائه وصحبه ، وهو أحرى أن يضمهم فى سرعة الانجاز وسرعة الجزاء لو كان له مأرب يتعلق به ويعلق به أمال العاملين معه غير مضطرين الى التصريح بمراده . »

ان المسلم بأخلاق الكواكبى والدارس لشخصيته واخلاصه للقضية التى أمر بها وعاش من أجلها ـ وهى حق العرب فى الحياة الحرة الكريمة مستقلين أعزاء كراما على أنفسهم أقوياء مع الحق حربا عوانا على الباطل ، حماة للدين الاسلامى الذى أنزله الله سبحانه وتعالى بين ظهرانيهم ومن أجل هذا فالخلافة الاسلامية من حقهم دون سواهم ـ لا تجعلنا نوافق الرأى القائل بأن الكواكبى كان يعمل لحساب أحد أو داعية بالخلافة لشخص مهما كان هذا الشخص عزيزا له . فمن المعروف أن الكواكبى دعا الى حق العرب وبالذات أهل الجزيرة العربية فى الخلافة الاسلامية وأن يكون الخليفة عربيا قرشيا وهى شروط لا تنطبق على الخديو عباس حلمى الثانى بالطبع .

كذلك يذكر الدارسون لحياة الكواكبى أنه ما ان عاد من رحلته الى البلاد العربية حتى وجد نفسه بدون عمل يسد به نفقته (١) ، ولو أنه كان يعمل لحساب الخديو عباس لما واجه نوعا

---

(١) سامى الدهان : الكواكبى سلسلة نوابغ الفكر العربى ص ٣٠

من الضيق فى معيشته ولأغدق عليه الكثير من الهبات والعطايا ٠

وحالت وفاة الكواكبى المفاجئة بعد رحلته الى البلاد العربية دون تدوينه لأخبار هذه الرحلة لأن المنية عاجلته بعدها بثلاثة أشهر ٠ كذلك ينبغى أن نشير الى أن الكواكبى كانت رحلته الى البلاد العربية والاسلامية على مرحلتين أو على فترتين زار فى الرحلة الأولى السودان ووصل الى سواحل افريقيه الشرقية وزار زنجبار والحبشة وعاد بعدها الى مصر ليستأنف رحلته الثانية ٠ والكواكبى ان لم يذكر تفاصيل رحته ذكر أنه زار مصر ثلاث مرات (١) : المرة الأولى كانت حين جاءها من الشام فارا من وجه السلطان عبد الحميد٠ ونشر فى جرائدها مقالاته السياسية تحت عنوان الاستبداد ٠ أما زيارته الثانية فكانت حين قطع جزءا من رحلته وعاد اليها ليستعد لجولته الثانية والأخيرة من رحلته ٠ ثم كانت الزيارة الثالثة حين انتهت رحلته وعاد الى مصر ليتوفى فيها ٠

زار الكواكبى فى رحلته الثانية الحجاز وصحراء الجزيرة العربية واليمن ومنها سار الى الهند ووصل الى ميناء كراتشى حيث عاد على ظهر سفينة حربية ايطالية بتوجيه من وكيل ايطاليا السياسى فى مسقط طافت به سواحل بلاد العرب وسواحل أفريقية الشرقية ٠ وعاد الكواكبى من هذه الرحلة بمعلومات وافرة عن حالة البلاد الزراعية والمعدنية حتى انه استحضر نماذج المعادن من تلك الأصقاع ٠

وكان الكواكبى يتمنى لو أتيحت له زيارة بلاد المغرب العربى يتمم بها اختباره للمسلمين ولكن المنية حالت دون ذلك ٠

كذلك قيل ان ايطاليا هى التى يسرت للكواكبى رحلته لأنها كانت تطمع فى نجاح المسعى بخلع الخلافة الاسلامية من تركيا وأنها

---

(١) الكواكبى : طبائع الاستبداد ص ١٠ طبعة حلب سنة ١٩٥٧ ٠

(ايطاليا) كانت تطمع فى بسط نفوذها الاستعمارى على شواطىء البحر الأحمر • ويستند أصحاب هذه الرواية على اجتماع الكواكبى أثناء رحلته بالقنصل الايطالى فى الحديدة باليمن وبتنقله على ظهر سفينة حربية ايطالية كانت به سواحل الجزيرة العربية بتوصية من وكيل (معتمد) ايطاليا السياسى فى مسقط •

لكن الملم بأخلاق الكواكبى ومبادئه التى عاش من أجلها ومات وهو يجاهد فى سبيل تحقيقها لا يؤيد الرأى القائل بأن الكواكبى يقبل أن يكون عميلا لدولة أجنبية وأنه كان يصدر فيما يقول عن ايمان خالص بحق أمته العربية ومكانتها التى ينبغى أن تتبوأها •

ويواجه المؤرخ لحياة الكواكبى قلة المعلومات أو ندرتها عن رحلته الهامة التى طاف فيها البلاد العربية وعمن قابلهم فيها وعن انطباعاته وتواريخ زيارة كل قطر والمدة التى أقامها فيه الى آخره • لكن عذرنا فى ذلك كما هو عذر كل المتصدين لحياة الكواكبى بالدراسة أنه كان بصدد كتابة وصف لرحلته والتى كان بنيته أن يفرد لها كتاب بأكمله لولا أن المنية عاجلته فتوفى مساء الخميس الرابع عشر من يونيو ١٩٠٢ الموافق الخامس من ربيع الأول سنة ١٣٢٠ هـ •

وكان الكواكبى قد اعتاد كل مساء أن يجتمع باخوانه وأصدقائه فى أحد المقاهى وفى اليوم الذى وافته المنية فيه جلس فى مقهى يلدز قرب حديقة الأزبكية وكان معه يومها الأستاذ رشيد رضا ومحمد كرد على وابراهيم سليم النجار • وشرب الكواكبى القهوة كالمعتاد وأحس بعدها بألم فى أمعائه فقام ابنه كاظم بنقله الى منزله حيث أصابته نوبة قلبية توفى على أثرها وعمره آنذاك خمسون عاما •

وقال رشيد رضا وهو يؤرخ للسيد جمال الدين الأفغانى

أنه شاع أنه مات مسموما مثلما شاع ذلك فى موت الأستاذ الامام السيد عبد الرحمن الكواكبى . وذهب البعض الى أن السلطان عبد الحميد هو الذى دبر ذلك له ، وان كان هذا القول تعوزه الأدلة الكثيرة .

وهناك رواية مختلفة بعض الشيء عن وفاته يرويها الأستاذ محمد كرد على فيقول عن الكواكبى : جاء لى ذات ليلة يسمر معى فى دارى مع الحبيب رفيق بك العظم يستشيرنى فى أمر عظيم . قال : ان الخديو عباس عرض عليه أن يصحبه الى الاستانة ويستجلب رضاه عنه ، وبذلك تنحل هذه المشادة ويطمئن خليفة الترك اليه . فصعب علي وعلى رفيك بك أبداء رأى فى موضوع جد خطير كهذا ، لأن ابن عثمان لا تأخذه هوادة فيمن خرجوا على سلطانه ، وخشينا أن تكون هناك دسيسة يذهب الرجل ضحيتها . ومما قال لنا أنه حائر فى أمره بين القبول والرفض وأنه شعر بالأمس بوجع فى ذراعه وما عرف له تعليلا . وتقوض المجلس وذهب السيد الكواكبى الى داره . فما هى الا ساعة وبعض ساعة حتى سمعت ابنه السيد كاظم فى الباب يبكى وينوح ويقول : قم ياكرد على فان صديقك أبى قد مات . »

وسواء أصدقت الرواية الأولى أو الثانية فان الكل متفق على تاريخ وفاته وهو الرابع عشر من يونيو ١٩٠٢ وما ان علم الخديو عباس بوفاته (١) حتى أمر أن يدفن على نفقته الخاصة ودفن فى

(١) يقول الغزى فى مجلة الحديث سنة ١٩٢٩ العدد ٦ أخبرنى ابن خالتى الشيخ صالح عيسى وهو رجل موصوف بالصدق والامانة ان الخديو عباس حلمى الثانى دعا الكواكبى لزيارته بالاسكندرية فلبى الكواكبى الدعوة ثم عاد الى القاهرة ليسهر معنا فى مقهى استانبول مع جماعة من أدباء مصر ولما انصرفنا جاء ابنه كاظم يقول ان أخاك والدى مات فدهشت من هذا الخبر المفاجىء وفحصه الاطباء من قبل الخديو فوجدوا أنه فارق الروح وشيعت جنازته على نفقة الخديو.

باب الوزير • ثم نقلت مقبرته فى نهاية شارع العفيفى بمنطقة باب الوزير وعليها بيتين لشاعر النيل حافظ ابراهيم :

هنـا رجل الدنيـا هنا مهبط التقى
هنا خير مظلـوم هنـا خير كاتب

قفوا واقرءوا أم الكتاب وسـلموا
عليـه فهـذا القبر قبـر الكواكبى

ونعاه كل مخلص من أبنـاء هـذه الأمة العربية وصـدرت الأهرام والمؤيد واللواء تبـكى الخسـارة الكبرى التى ألمت بالأمة العربية لوفاته وأشاد الجميع بفضله ودوره وسيظل التاريخ يذكر اسمه كعلم من أعلام هذه الأمة العربية الخالدة أدى دوره كأحسن ما يكون الأداء وذهب للقاء ربه راضيا عنه سعيدا به لأنه كان رجلا بارا بدينه وفيا لقومه وأمته مخلصـا لمبادئه نزيها أبى النفس • ولا يستطيع باحث فى اليقظة العربية الحديثة أن يتجاهل دوره أو يغمضه حقه لأن دوره وحقه أعظم من أن ينكرا أو يهملا وشأنهما •

الفصل الرابع

دور الكواكبي في اليقظة العربية

من المعروف أن حركة النهضـة العربية فى العصر الحديث بدأت فى أول أمرها فى صورة بعث للأدب العربى • ولقد شهدت بلاد الشـام منذ منتصف القرن التاسـع عشر حركة احياء اللغة العربية وآدابها وهى الحركة التى بدأت على يد المسيحيين العرب فى هذه البلاد • ذلك ان بلاد الشام كانت مركزا للارســاليات التبشيرية المسيحية التى قام بها المستشرقون الأوربيون • ومن المعروف أن فرنسا كانت أسبق الدول فى هذا المجال وأنها بدأت نشاطها فى بلاد الشام قبل الحكم المصرى لهذه البلاد بفترة طويلة من الزمان • فكانت ســوريا ولبنان موضع اهتمام البعثات الدينية الفرنسية • وأنشأ اليسوعيون الفرنسـيون فى لبنان أول مركز للثقافة الفرنســية وهى المدرسة التى أنشئوها فى عينطوره (١) سنة ١٧٣٤ ميلادية كما انشأوا مدرسة فى زغرتا وقد تعلم فيها أجيال من شباب الموارنة ومنهم من أتم دراسته فى الكلية الشرقية بروما وبمدارس فرنسا • ومن ثم كانت الموارنة أكثر الطوائف اتصالا بالحضارة الغربية وكان لهم فضل تعريف مواطنيهم بنماذج من الثقافة الغربية التى كانت سائدة فى ذلك الوقت • (٢)

---

(١) د• مصطفى الخالدى وعمر فروخ ـ التبشير والاستعمار ص ١١

(٢) من أراد التفصيل عليه الرجوع الى تاريخ سوريا ليوسف الدبس ص ٦٠٠ الجزء الرابع من المجلد الثامن •

ومما ساعد في حركة النهضة العربية نقل الطباعة التي بدأت في أوربا وفي ايطاليـا الى بلاد الشرق • وكانت مطبعة الاستانة العبرية أول مطبعة أنشئت بالشرق • وبدأت أول مطبعة تنشـأ بالشام تطبع الكتب العبرية وهي مطبعة دير قرحيا جنوب طرابلس في أوائل القرن السـابع عشر طبع فيهـا كتاب المزامير باللغتين السريانية والعبرية • ثم أنشئت أول مطبعة عربية بحلب في أوائل القرن الثامن عشر أنشأها بطريريك انطاكية وكانت أول مطبوعاتها كتاب في الطقوس الدينية (١) •

كذلك بذل المبشرون الأمريكيون وهم البروتسـتانت دورهم في حركة الاهتمام بالتعليم والاهتمام بالتراث العربي كسبيل الى تدعيم نفوذهم ومنافسة المبشرين الفرنسـين وغيرهم من الجزويت والكاثوليك • وفتح المبشرون الأمريكيون مدارس مختلفة في بلاد الشام • فسواء صح ما نقل عن الدكتور كورنيليوس فان ديك المبشر الأمريكي المشهور من أنه ركب يوما حماره متوجها الى احدى القرى ليفتح مدرستين ، فاستغرب القروى وقال هل قريتنا الصغيرة بحاجة الى مدرستين • فأجابه الدكتور قائلا : حيث يذهب الدكتور فان ديك يتبعه الجزويت • سواء صحت هذه الرواية أم لم تصح ، فانها تصور واقع الحال في شدة التنافس بحيث يفتح المرسـلون الأمريكيون مدرسة يتبعهم المرسلون اليسوعيون بفتح مدرسة أخرى في نفس المكان • ومن أهم ما فتحه في بلاد الشام الكلية السورية البروتستانتية التي كانت نواة الجامعة الأمريكية في بيروت الى جانب ما أنشأوه من مدارس في زحلة ودمشق وحلب وغيرها • لكن أهم من فتح المدارس كان التأثير الذى تركه الغرب على مجتمع هـذه

---

(١) ارجع الى تاريخ الصحافة العربية للفيكونت فيليب دى طرازى وتاريخ الطباعة في الشرق العربي لخليل صابات •

الطوائف المسيحية • لقد وجدت لديهم رغبة قوية فى أن يقتبسوا أسلوب الغرب ونظمه وتقاليده وبدا ذلك بشكل واضح لدى المسيحيين فى لبنان الذين بدأ أكثرهم فى الهجرة الى أمريكا • ثم كان أن أدى ازدياد التجارة من الشرق وأوربا وأمريكا الى خلق طبقة جديدة بين أفراد هذه الأقليات طبقة برجوازية فى المدن الكبرى من المسيحيين السوريين • الأرمن ، اليهود وهى طبقة تختلف عقلياتها وتفكيرها عن مسيحى الشرق المقيمين فى القرى • والذين كانوا مجتمعات مغلقة على نفسها • بدأ هؤلاء البرجوازيون يقتبسون أساليب الحياة الأوربية ولم يكن لهؤلاء المسيحيين ولاء بالطبع للدولة العثمانية ولا لمجتمعاتهم التى نشأوا فيها بقدر ما اتجه ولاؤهم لأوربا يقلدون أسلوب الحياة الأوربية ويتحمسون فى اخلاص لهذه الحكومات الأجنبية الذين ارتبطوا بها ارتباط حب ومنفعة •

وبدأت الثقافة الأوربية تترك بصماتها فى الشرق العربى عن طريق الرحلات والهجرة والمدارس والتجارة • وكان من شأن ذلك أن تزداد الهوة بين المسلمين وبعض المسيحيين واليهود المتعصبين للثقافة الغربية من جانب آخر • وكان اقتباس هؤلاء المسيحين واليهود للغات الغربية ولأسلوب تفكير وتقاليد وعادات الغرب ذات أهمية كبيرة بالنسبة للحكومات الغربية والشركات التجارية التابعة لها التى كانت بحاجة ماسة الى استخدام أفراد هذه الأقليات فى الوظائف الصغرى لديها وكان ذلك مدعاة أيضا لحقد وتشكك بعض زملائهم من المسلمين • (١)

واذا كانت الفتنة الكبرى التى شهدتها لبنان وسوريا سنة ١٨٦٠ بين النصارى والدروز والتى لا يمكن انكار وجود عوامل

---

(١) Hourani: Minorities in the Arab World, p. 26.

كذلك ينبغى الرجوع الى كتاب الاستاذ ساطع الحصرى : محاضرات فى نشوء الفكرة القومية ص ١٨٤ وما بعدها •

خارجيـة فى اشعالها قد جاءت نتيجـة لتعصب ممقوت من جانب البعض ، فان أنظار المستنيرين من المسـيحيين من أبنـاء الشعب العربى قد وجهت اهتمامها للقضاء على هذا التعصب ومحو آثاره . وهنا يبرز دور كل من نصيف اليازجى وبطرس البستانى . أخذ نصيف اليازجى يدعو الى بعث الأدب العربى القديم وكان يعتقد أن ذلك ينبغى أن تكون مهمة المثقفين العرب الأولى . ومما يستدعى الانتباه فى هذه الدعوة أنها كانت موجهة الى جميع العرب النصارى منهم والمسلمين وأنها كانت تناشـدهم جميعا ان يذكروا ويهتموا باحياء تراثهم المشترك .

كذلك برز البستانى (١٨١٩ ـ ١٨٨٣) كأحد الشخصيات العربية التى لعبت دورا مهمـا فى ذلك الحين . كان بطرس هو الآخر عربيا مسيحيا من لبنان تلقى حظا من التعليم أكثر مما تلقاه نصـيف اليازجى وأقام فى بيروت حيث ترجم الكتاب المقدس الى اللغة العربية . وساعده اتصاله بالمبشرين الأمريكيين والعمل معهم الى اتقان اللغة الانجليزية وعمل بالتعليم فى مدارسهم ومما يذكر له بالفضل عملان عظيمان هما اصداره معجم اللغة العربية نشره سـنة ١٨٧٠ بعنـوان محيط المحيط ثم أعـد موجزا له أسـماه قطرا المحيط . أما عمله الثانى فهو اصداره دائرة معارف عربية للمعارف أكمل منها ستة أجزاء وقام أبناؤه وأحفـاده وبعض أبناء اسرته باتمامها بعد وفاته فكان مجموع ما صدر أحد عشر جزءا . كذلك حارب البسـتانى التعصب الدينى وانشـأ هو ونصيف جريـدة أسبوعية أسمياها نفيرسوريه سنة ١٨٦٠ كان هدفها الدعوة الى الوفاق بين سكان البلاد من مختلف الطوائف على أثر وقوع مذابح سنة ١٨٦٠ . كان البستانى يؤمن ان المعرفة تؤدى الى انارة الذهن والتنور يقضى على التعصب . وبعد مرور ثلاث سنوات انشأ مدرسة أطلق عليها اسم المدرسة الوطنية غايتها تحقيق الهدف ذاته عن

طريق تربية الطلاب من مختلف الطوائف على أساس التسامح والمثل العليا الوطنية • وبعد أن نشر معجمه فى اللغة العربية انشأ سنة ١٨٧٠ مجلة سياسية وادارية اسماها (الجنان) تصدر مرة كل أسبوعين وتسعى الى تحقيق الهدف ذاته عن طريق مكافحة التعصب واتخذ لمجلته شعار حب الوطن من الايمان •

ويمكن أن نصنف اتجاه المسلمين العرب على هذا النحو : كان هناك بعض المسلمين المتعصبين الذين يكرهون الحضارة الغربية لأنها مسيحية ولأنها تهدد بالقضاء على عالمهم القديم • وكان هناك من يعترف بقيمة هذه الحضارة الغربية وتقاليدها وضرورة الاقتباس منها لكنهم يرغبون فى الاحتفاظ بحضارة الاسلام وتقاليده الرائعة فالمشكلة بالنسبة لهؤلاء كانت مشكلة ادخال روح المدنية الحديثة وايقاظ المسلمين من سباتهم العميق ليلحقوا بركب الحضارة الذى سبقتهم فيه الأمم الأخرى والذى كان ينبغى أن يكونوا (المسلمون) هم روادها وقادتها كشأنهم فى سالف الأزمان •

وهنا يبرز دور ثلاثة من رواد الفكر الاسلامى الأفغانى ، محمد عبده ، الكواكبى • فمما لا شك فيه أن وصول السيد جمال الدين الأفغانى الى مصر مارس ١٨٧١ واقامته فيها حوالى ثمان سنوات (أغسطس ١٨٧٩) كانت من خير السنين بركة على مصر والعالم الاسلامى • يقول الأستاذ أحمد أمين فى كتابه زعماء الاصلاح فى العصر الحديث : ثمانى سنين كانت من خير السنين بركة على مصر والعالم الشرقى لا بما أفاد جمال مظهرها وحسن رونقها وسعادة أهلها ولكن لأنه كان يدفن فى الأرض بذورا تتهيأ فى الخفاء للنماء ، وتستعد للظهور ثم الازدهار فما أتى بعدها من تعشق للحرية وجهاد فى سبيلها فهذا أصلها وان وجدت بجانبها عوامل أخرى ساعدت عليها وزادت فى نموها • وخشى الخديو توفيق مما يدعو له السيد الأفغانى فصدر قراره بتركه لمصر • فلما

كانت الثورة العرابية نقلته حكومة الهند من حيدر أباد الى كلكتا وألزمته الاقامة فيها مخفورا مراقبا حتى انتهت الثورة بالاحتلال الانجليزى لمصر • وغادر الأفغانى الهند الى لندن سنة ١٨٨٣ لكنه لم يطل الاقامة فيها فسافر منها الى باريس وكتب الى تلميذه وصديقه الشيخ محمد عبده ليوافيه بها من منفاه فى بيروت حيث أصدرا جريدة العروة الوثقى يبغيان نشرها فى العالم الاسلامى لتفهيم أبنائه حقوقهم وواجباتهم • لكنهما يخشيان أن يفهما من مخاطبتهما المسلمين انهما يدعوان الى اثارة الشقاق بينهم وبين أبناء الأديان الأخرى فى الأقطار الاسلامية فهما يقولان : لا يظن أحد من الناس أن جريدتنا هذه بتخصيصها المسلمين بالذكر أحيانا ومدافعتها عن حقوقهم تقصد الشقاق بينهم وبين من يجاورنهم فى أوطانهم ويتفق معهم فى مصالح بلادهم ويشاركهم فى المنافع من أجيال طويلة ، فليس هذا من شأننا ولا بما ندعو اليه ولا مما يبيحه ديننا ، ولا تسمح به شريعتنا • ثم صدر العدد الأول من هذه الجريدة فى ١٥ جمادى الأول سنة ١٣٠١ هـ (١٣ مارس ١٨٨٤م)

وقد تضمن منهاج الأفغانى ومحمد عبده فى الاصلاح • بلغ الاجحاف بالشرقيين غايته ووصل العدوان فيه نهايته ، وأدرك التغلب منهم نكايته خصوصا فى المسلمين منهم ، منهم ملوك انزلوا عن عروشهم جورا وذوو حقوق حرموا حقوقهم ظلما وأعزاء باتوا أذلاء وأجلاء أصبحوا حقراء وأغنياء امسوا فقراء ، وأصحاء أضحوا سقاما ، وأسود تحولوا أنعاما ولم تبق طبقة من الطبقات الا وقد مسها الضر من افراط الطامعين فى أطماعهم خصوصا من جراء هذه الحوادث التى بذرت بذورها فى الأراضى المصرية من نحو خمس سنوات بأيدى ذوى المطامع فيها •• ان الحالة السيئة التى أصبحت فيها الديار المصرية لم يسهل احتمالها على نفوس المسلمين عموما ، ان مصر تعتبر عندهم من الأراضى المقدسة ولها فى قلوبهم منزلة لا يحلها

سواها قطر نظرا لموقعها من الممالك الاسلامية ولأنها باب الحرمين الشريفين .. ان الخطر الذى ألم بمصر نفرت له أحشاء المسلمين وتكلمت به قلوبهم ولن تزال آلامه تستنفرهم ما دام الجروج نفارا . (١)

ثم يمضى العدد الأول من هذه الجريدة يوضح أهداف جمعية العروة الوثقى السرية السياسية التى ضمت الى عضويتها (عقلاء الأمة وحولت أنظارهم لما سيكون من عاقبة أمرهم مع ملاحظة العلل التى أدت بهم الى ماهم فيه ... وكتبوا على أنفسهم النظر فى أمر السلطة العامة الاسلامية وفروض القائم بها . وبما أن مكة المكرمة مبعث الدين ومناط اليقين وفيها موسم الحجيج فى كل عام يجتمع اليه الشرقى والعربى ويتآخى فى مواقعها الطاهرة الجليل والحقير والغنى والفقير ، كانت أفضل مدينة تتوارد اليها أفكارهم ثم تنبث الى سائر الجهات .

ومن الواضح أن الأفغانى يتشابه فى هذه الناحية مع الكواكبى فى جمعيته التى تخيل عقدها فى مكة أم القرى لتقصى مظاهر الضعف عند المسلمين ووصف الدواء بعد تشخيص الداء .

كذلك نجد الأفغانى يضع بعض المبادىء التى يراها لازمة لاصلاح احوال المسلمين شبيهة بما نادى به الكواكبى فجريدة العروة الوثقى تلخص أهم أغراضها فى نفس عددها الأول فيما يأتى :

١ - بيان الواجبات على الشرقيين التى كان التفريط فيها موجبا للسقوط والضعف وتوضيح الطرق التى يجب سلوكها لتدارك ما فات .

---

(١) رشيد رضا : تاريخ الامام محمد عبده ج ١ ص ٢٩٥

٢ ـ اشراب النفوس عقيدة الأمل فى النجاح وازالة ما حل بها من اليأس ٠

٣ ـ دعوتهم الى التمسك بالأصول التى كان عليها أباؤهم وأسلافهم وهى ما تمسكت به الدول الأجنبية العزيزة الجانب ٠

٤ ـ اندفاع عما يرمى به الشرقيون عموما والمسلمون خصوصا من التهم وابطال زعم الزاعمين ان المسلمين لاينعدمون فى المدنية ماداموا متمسكين بأصول دينهم ٠

٥ ـ أخبار الشرقيين بما يهمهم من حوادث السياسة العامة والخاصة ٠

٦ ـ تقوية الصلات بين الأمم الاسلامية وتمكين الألفة بين أفرادها وتأمين المنافع المشتركة بينها ومناصرة السياسة الخارجية التى لا تميل الى الحيف والاجحاف بحقوق الشرقيين ٠

أراد الأفغانى ان يدعو الى اصلاح المسلمين دينيا واجتماعيا وسياسيا اذ كان المثل الأعلى له حالة المسلمين فى عهد الخلفاء الراشدين من حيث العقيدة والصفات الخلقية والنظام السياسى فيرى أنهم كانوا موحدين حقا معتزين بدينهم ، لاتفرقهم المذاهب والنحل مترابطين برباط الأخوة فيهم خلق الآباء والشمم ، يبذلون أعز شيىء فى سبيل عقيدتهم وعزتهم ينشرون بينهم العلم ما استطاعوا ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وتلك كانت نفس ما تمناه الكواكبى ورغب فى تحقيقه كما يتضح ذلك من كتابه جمعية أم القرى على نحو ما سنوضحه ٠

ثم يحمل الكواكبى على عقيدة الجبر والخطأ بنفس العنف الذى حمل به الافغانى على الجبرية فى جريدة العروة الوثقى ٠ فالأفغانى يرى أن الفساد دخل على توالى الزمن من خمسة أبواب من عقيدة

الجبر والخطأ فى فهم القضاء والقدر حتى صرفت النفوس عن الجد فى الأعمال ومما ادخله الزنادقة على تعاليم الاســـلام فى القرنين الثالث والرابع الهجريين فجعلوا المسلمين شيعا وأحزابا وأضعفوا قوة الدين بما أدخلوه من تعاليم فاسدة ومما أحدثه السوفسطائيون من أفكار ، وعدهم الحقائق خيالات تبدو للنظر ومما عمله كذبـــة المحدثين من وضع أحاديث ينسبونها الى رسول الله وفيها السم القاتل لروح العمل والاباء وفيها ما يستوجب ضعفا فى الهمم وفتورا فى العزائم ٠

فاذا نظرنا الى كتاب أم القرى نجد الكواكبى يحمل على عقيدة الجبر والقدرية هو الآخر ٠ فالكواكبى يصدر عقيدة الجبر وتأثيرها على أفكار الأمة فى الاسباب الدينية التى أضعفت المســـلمين ويخصص بحثها فى أول اجتماع تعقده جمعيته فى مكة بعد اجتماعها الاول التمهيدى ٠ فيقول على لسان العضو الشامى (انى أرى منشأ هذا الفتور هو بعض القواعد الاعتقادية والأخلاقية مثل العقيدة الجبرية التى من بعد كل تعديل فيها جعلت الأمة جبرية باطنا قدرية ظاهرا) (١) ٠

كذلك نجد تشابها بين الأفغانى والكواكبى فى تأكيد كل منهم على أهمية اللغة العربية والمحافظة على اللســـان العربى ٠ فالأفغانى يقول ان عقلاء الأمة لبحث أحوال المسلمين اختاروا ان يكون لهم فى هذه الأيام جريدة بأشرف لسان عندهم وهو **اللسان العربى** ويؤيد فى مجالسه بيان الخطر مما تسعى اليه الأمم الأجنبية فى الشرق من اضعاف اللغة القومية وقتل التعليم القومى والتغيير من آداب الأمم الشرقية لتحل محلها لغتها وآدابها « مع أنه لا جامعة لقوم لا لســـان لهم ، ولا لسان لقوم لا آداب لهم ولا عز لقوم

---

(١) الكواكبى : أم القرى ص ٢٣ طبعة المكتبة التجارية سنة ١٩٣١م

لا تاريخ لهم ، ولا تاريخ لهم اذا لم يقم منهم من يحيى آثار رجال تاريخهم فيعمل عملهم وينسج على منوالهم • »

وينفي الأستاذ رشيد رضا عن الأفغانى كونه يريد جامعة اسلامية يكون المسلمون كلهم دولة واحدة ويروى عن الأفغانى ما كتبه فى مقاله بعنوان (الوحدة الاسلامية) التى نشرت فى العدد التاسع من العروة الوثقى « لا ألتمس بقولى هذا أن يكون ملك الأمر فى الجميع شخصا واحدا فان هـذا ربمـا كان عسيرا ولكنى أرجو أن يكون سلطانهم جميعهم القرآن ووجهة وحدتهم الدين ، وكل ذى ملك على ملكه يسعى بجهده لحفظ الأمر ما استطاع فان حياته بحياته وبقاءه ببقائه ••• » ويخلص الأستاذ رشيد رضا من ذلك الى القول أنه (الأفغـانى) كان يكتفى بالوحدة الدينية وعقد المحالفات بين الدول الاسلامية (كالترك والفرس والأفغان ••) ثم الاعتراف لأقواهن برياسة الحلف (١) •

ومن هنا يختلف الكواكبى عن الأفغانى ، فالكواكبى كان داعية للقومية العربية يرى أن تكون قيادة الأمة الاسلامية للعرب مثلما كان لهم هذا الأمر فى سالف الزمان بل هو يحصر الخلافة الاسلامية فى عرب الجزيرة بالذات على نحو ما جاء فى كتابه أم القرى • فالكواكبى يرى ان الدور الذى لعبه العرب فى العـالم الاسلامى بلغتهم وانتسابهم الى صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم ووجود الحرمين الشريفين فاذا كان على العالم الاسلامى أن يقف فى جبهة واحدة فلابد ان تكون القيادة عربية وان يكون مركزها أم القرى لا اسطنبول •

ونحن لانتفق مع الرأى القائل بأن الكواكبى اختلطت عنده

---

(١) رشيد رضا : تاريخ الامام محمد عبده جـ ١ ص ٣٢٥ وما بعدها •

الفكرة الاسلامية بالفكرة العربية القومية (١) فالكواكبي يميز في وضوح بين الشعوب العربية والشعوب الاسلامية غير العربية يرى للأولى الزعامة على الثانية • وهو يرى ان أحد أسباب فشل الاتراك العثمانيين أنهم لم يستعربوا وليس هناك من سبب لذلك سوى كرههم للعرب واطلاقهم اسماء ونعوت تحمل الحقد والكراهية مثل (يس عربى) أى عربى قذر و (ويلنجى عرب) أى عرب شحاذين• والعرب لا يقابلونهم فى كل ذلك سوى بكلمتين الأولى هى قول العرب فيهم : ثلاث خلقن للجور والفساد القمل والترك والجراد ، والكلمة الثانية تسميتهم بالأروام كناية عن الريبة فى اسلامهم •

وأهمية دعوة الكواكبى أنه لم يتفق مع القائلين بتقوية الرابطة مع الدولة العثمانية على أساس أنها دولة الخلافة الاسلامية فأوضح الكواكبى أن احترام الشعائر الدينية فى أكثر ملوك آل عثمان هى ظواهر محضة وليس من غرضهم ولا من شأنهم أن يقدموا الاهتمام بالدين على مصلحة الملك ، وان الدين الاسلامى قد أصبح فى حاجة ماسة الى من يرعى شئونه بتعيين خليفة آخر غير الخليفة العثمانى وينبغى ان يكون هذا الخليفة عربيا قرشيا كما كان فى صدر الاسلام • ولايريد أن ينفرد هو بهذا الرأى فيراه يصدره عن جمعية تمثل المسلمين فى كل قطر ذلك هى جمعيته التى اسماها جمعية أم القرى •

ففى الوقت الذى كان الأفغانى يرى اصلاح أحوال المسلمين على يد الدولة العثمانية كان الكواكبى يحمل حملة شعواء على الاتراك فهم لم يحترموا شعائر الدين وليس من غرضهم بل ولا من شأنهم ان يقدموا الاهتمام بالدين على مصلحة الملك • ثم نجده يسرد كثيرا من أعمالهم السيئة تجاه المسلمين ، فأقول هذا السلطان

---

(١) محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربى ص ٢٦٩

محمد الفاتح وهو أفضل آل عثمان قد قدم الملك على الدين فاتفق سرا مع فردينـــاند ملك (الاراغون) الاسبانيولى ثم مع زوجتـه ايزابيلا على تمكينهما من ازالة ملك بنى الأحمر آخر الدول العربية في الاندلس ورضى بالقتل العام والاكراه على التنصر • وهـذا السلطان سليم غدر بآل العباسى واستقصاهم حتى انه قتـل الأمهـات لأجل الأجنة وبينما كان يقتل العرب فى الشرق كان الاسبانيون يحرقون بقيتهم فى الاندلس وهذا السلطان سليمان ضايق ايران حتى ألجأهم الى اعلان الرفض المكفر •• وقد سعوا فى انقراض خمس عشرة دولة وحكومة اسـلامية منهـا أنهم أغروا وأعانوا الروس التتـار المسلمين وهولانده على الجاوة والهنـديين وتعـاقبوا على تدويخ اليمن فأهلكوا الى الآن عشرات الملايين من المسلمين يقتلون بعضهم بعضا لايحترمون فيما بينهم دينا ولا أخوة ولا مروءة ولا انسانية حتى ان العسكر العثمانى باغت المسلمين مرة فى صنعاء وهم فى صلاة العيد •• »(١)

ونجـد الأفغاني يندد بالسـياسة الأوربية تجـاه المسلمين ويصب عليها جام غضبه حتى ان حملته على السياسة الانجليزية استغرقت أكبر قسم فى العروة الوثقى فهو يرى ان حركة الاستعمار الأوربى حركة دينية نصرانية موجهة ضد الاسلام وقد قدم مؤلف كتاب حاضر العالم الاسلامى للعلامة الأمريكى لوثروب ستوردارد والذى ترجمه الى العربية الأستاذ عجاج نويهض وعلق عليه وكتب مقدمته الأستاذ شكيب أرسلان ـ ملخصا لدعوة الأفغانى وفكره على النحو التالى : العالم النصرانى على اختـلاف أممه وشعوبه عرقا وجنسية هو عدو مقاوم مناهض للشرق على العموم وللاسلام على الخصوص ـ فجميع الدول النصرانية متحدة معا على دك الممالك الاسلامية ما استطاعت الى ذلك سبيلا • الروح الصليبية لم تبرح

(١) الكواكبى : أم القرى طبعة المكتبة التجارية سنة ١٩٣١ ص ٢٠٤

كامنة فى صدور النصارى كمون النار فى الرماد روح التعصب لم تنفك حية معتلجة فى قلوبهم حتى اليوم ··· جميع هذا يوضح ان العالم الاسلامى يجب عليه ان يتحد اتحادا دفاعيا عاما مستمسك الأطراف وثيق العرى ليستطيع بذلك الذود عن كيانه ووقـــاية نفسه من القضاء المقبل · وللوصول الى هذه الغاية الكبيرة انما يجب عليه اكتفاء تقدم الغرب والوقوف على تقدمه وقدرته ·(١)

واذا كانت تلك دعوة الأفغانى وذلك هو مذهبه فان الكواكبى يركز على السياسة العثمانية التى اكتوى بها والتى رآها سببا فى هضم حقوق العرب فى المناصب والارتزاق من بيت المال هضما لا نسبة فيه حال كونهم ثلثى رعية الدولة العثمانية · كما حمل الكواكبى على الدولة العثمانية تمسكها بأصول الادارة المركزية مع بعد الأطراف عن العاصمة وعدم وقوف رؤساء الادارة العثمانية على أحوال تلك الأطراف ثم هو ينكر على سلاطين بنى عثمان تلقبهـــم بألقاب الخلافة الاسلامية ثم يضع فى ختام جمعيته التى تخيـــل عقدها فى مكة شروطا من أربعة عشر بندا لاختيار الخليفة الجديد للمسلمين بدلا من السلطان العثمانى ويضع فى أول هذه الشروط ان يكون الخليفة عربيا قرشيا ·

ومن هـــذه الناحية يبرز دور الكواكبى فى اليقظة العربية الحديثة فهو أول كاتب مسلم دعا العرب الى قطع علاقتهم بالعثمانيين واستنهض همم قومه وبلغ تحمســـه ان بلغ أســـلوبه فى بعض الأحيان منتهى الشدة والتقريع كقوله :

ياقوم ينازعنى والله شعور هل موقفى هذا فى جمع حى أحييه بالسلام أم أنا أخاطب أهل القبور فأحييهم بالرحمة · ياقوم لستم بأحياء عاملين ولا أموات مستريحين بل أنتم بين بين ·

---

(١) حاضر العالم الاسلامى تأليف لوثروب ستوردارد ــ مترجم ·

يا قوم علكم الله من المهتدين كان أجدادكم لا ينحنون الا ركوعا لله وأنتم تسجدون لتقبيل أرجل المنعمين ولو بلقمة مغموسة بدم الاخوان . وأجدادكم ينامون الآن في قبورهم مستوين أعزاء وأنتم أحياء معوجة رقابكم أذلاء .

ياقوم الهمكم الله الرشد متى تستقيم قاماتكم وترتفع من الأرض الى السماء أنظاركم وتميل الى التعالى نفوسكم فيستقل كل انسان منكم بذاته ويملك ارادته (١) .

ويخطىء من يصف الكواكبى أنه كان كاتبا اسلاميا متعصبا لدينه فهو يخاطب قومه من غير المسلمين بقوله :

يا قوم واعنى بكم الناطقين بالضاد من غير المسلمين ، أدعوكم الى تناسى الاساءات والأحقاد وما جناه الآباء والأجداد ، فقد كفى ما فعل ذلك على أيدى المثيرين ، وأجلكم من أن لا تهتدوا لوسائل الاتحاد وأنتم المتنورون السابقون فهذه أمم اوستريا وأمريكا قد هداها العلم لطرائق شتى وأصول راسخة **للاتحاد الوطنى دون الدينى** والوفاق الجنسى دون المذهبى ، والارتباط السياسى دون الادارى . فما بالنا نحن لا نفتكر فى ان نتبع احدى تلك الطرائق أو شبهها . فيقول عقلاؤنا لمثيرى الشحناء من الاعجام والأجانب: دعونا يا هؤلاء نحن ندبر شأننا ، نتفاهم بالفصحاء ونتراحم بالأخاء ، ونتواسى فى الضراء ونتساوى فى السراء . دعونا ندبر حياتنا الدنيا ونجعل الأديان تحكم فى الأخرى فقط . دعونا نجتمع على كلمات سواء ألا وهى : **فلتحيا الأمة فليحيا الوطن** فلنحيا طلقاء أعزاء . »

وواضح مما أوردناه من كلام الكواكبى أنه يدعو لوحدة قومية

---

(٢) الكواكبى : طبائع الاستبداد ص ١٣٩ وما بعدها .

عربيــة لا يكون فيهـــا الدين مجالا لتنازع أو تحاسد أو تباغض فالدين عنده لله والوطن للجميع • ثم هو يدعو قومه للتبصر فيما يبثه الغرب من عوامل التفريق بين أبناء الأمة العربية باسم الدين فيقول علينا أن نقول لهؤلاء المصطادين فى الماء العكر من الأجانب ان العرب قوم يعرفون مصلحتهم وأنهم أخوة فى السراء والضراء مجتمعون على محبة أمتهم ووطنهم •

أحب الكواكبى قومه وأمته العربية التى جعلها الله أمة وسطا للنـــاس • فوطنه كل بقعة من هـــذه الأرض العربية يتمنى له العزة ويرجو له الرقى ويطلب منه أن ينبذ من عداء أبنائه الخـــاملين الكسالى المتقاعدين عن نصرة وطنهم •

« وأنت أيها الوطن المحبوب : أنت العزيز على النفوس ، المقدس فى القلوب ، اليك نحن الأشباح ، وعليك تئن الأرواح••• أيها الوطن الباكى ضعافه : عليك تبكى العيون وفيك يحلو المنون• الى متى يعبث خلالك اللئام الطغاة ؟ يظلمون بنيك ويذلون ذويك، يطاردون أنجالك الانجاب ويمسكون على المساكين الطرق والأبواب، يخربون العمران ويقفرون الديار ؟

ويمضى الكواكبى بعد أن يوضح لبنى قومه ماهم فيه من ظلم الذين تحكموا فى رقابهم يمضى فيقول :

أيها الوطن العزيز : هل ضاقت رحابك عن أولادك ، أم ضاقت أحضانك عن أفلاذك ؟ ••• كلا انما فقدت الأباة ، فقدت الحماة ، فقدت الأحرار •

أيهـــا الوطن الملتهب فؤاده : اما رويت من ســقيا الدموع والدماء ؟ ولكن دموع بناتك الثاكلات ودماء ابنـــائك الأبرياء ، لادموع النادمين ولا دماء الظالمين • الا فاشرب هنيئا ولا تأسف على

البله الخاملين ، ولاتحزن عليهم كرائما وكراما ، لسن هن كرائما باكيات محمسات ، وليسوا هم كراما أعزة شهداء ، انما هم غفر لله لهم ، من علمت ، قل فيهم الحر الغيور ، قل فيهم من يقول أنا لا أخاف الظالمين .

أيها الوطن الحنون ، كون الله عناصر أجسامنا منك ، وجعل الأمهات حواضن ، ورزقنا الغذاء منك ، وجعل المرضعات مجهزات ، نعم ، خلقنا الله منك ، فحق لك أن تحب أجزاؤك وأن تحن على أفلاذك . كما يحق لك في شرع الطبيعة أن لا تحب الأجنبي الذي يابى طبعه حبك ، الذي يؤذيك ولا يواليك ، ويزاحم بنيك عليك ويشاركهم فيك ، وينقل الى أرضه مافي جوفك من نفيس العناصر وكنوز المعادن فيفقرك ليغني وطنه ولا لوم عليه بل بارك الله فيه ! ..

ياقوم جعلكم الله خيرة اليوم وعدة الغد ، هذا خطابي اليكم فما هو الترقي وما هو الانحطاط فان وعيتم ولو شذرات فيا بشرى والسلام عليكم ... »

وهكذا يمضي الكواكبي رائد الحركة العربية الحديثة يؤدي دوره في ايقاظ قومه حتى شبهه البعض بجان جاك روسو ومونتسكيو وفولتير وغيرهم من كتاب الثورة الفرنسية .

ولم يسبق أحد الكواكبي فيما دعا اليه هذا الكاتب الكبير كما أنه فاق كثيرين ممن جاءوا بعده ، فاذا قارناه بنجيب عزوري وهو الذي ألف سنة ١٩٠٥ كتابا أسماه ، يقظة الأمة العربية في آسيا التركية) نجد ان أثر الكواكبي في أمته كان أكبر ودوره كان أعظم . ذلك ان نجيب عزوري أقام في باريس وخاطب قومه من عاصمة أجنبية بعيدة عنهم كما أنه وضعه باللغة الفرنسية حتى

ان البعض يؤكد ان الشباب العربى لم يهتم بدعوته ٠ (١)

ومضت دعوة الكواكبى تفعل فعلها فى نفوس أبناء الأمة العربية فكانت جهودهم فى مقاومة السلطان عبد الحميد الثاني حتى سقط عن الحكم بعد ان اضطر تحت ضغط الثوار الى اعلان اعادة العمل بالدستور سنة ١٩٠٨ ٠ وفرح العرب باعلان الدستور وأقيمت الزينات والمهرجانات فى بيروت حيث لحن موسيقار عربى من أهالى بيروت وهو وديع صبرا نشيدا وطنيا رائعا كما غمرت بغداد هى الأخرى وغيرها من العواصم العربية الأفراح بهذا الدستور الذى جاهد العرب كثيرا فى سبيل اعادة العمل به ٠ فلما إستعدى السلطان عبد الحميد القوى الرجعية على الثورة هذا الدستور بادر العرب الى العمل مع أعضاء الاتحاد والترقى لعزله ٠

وحين تنكر الاتحاديون لكل جهود العرب فيما بعد ومضوا فى اتباع السياسة الطورانية التي استهدفت تتريك الوظائف واستعلاء العنصر التركى لم يرضخ العرب لهذه السياسة الحمقاء ومضوا يقاومون ذلك فكانت مطالبهم ومؤتمراتهم التى من أهمها مؤتمر باريس الذى عقد سنة ١٩١٣ والذى اشترك فيه ممثلون عن مختلف الجمعيات العربية المختلفة فى مختلف المدن العربية وعن مهاجرى العرب فى المكسيك والقيت فيه ابحاث ممتازة عن القومية العربية٠ ولم ير الاتحاديون بدا من الاسراع بالاتفاق مع العرب وعلى وجه التحديد مع ممثليهم وبعض رؤسائهم فى هذا المؤتمر ومن أهم ماتضمنه الاتفاق اعترافهم بأن يكون التعليم الابتدائى والثانوى باللغة العربية فى جميع البلاد العربية وان يكون تعيين اثنين من العرب عن كل ولاية عربية فى مجلس الأعيان ٠

---

(١) الامير مصطفى الشهابى : محاضرات عن القومية العربية ص ٥٩

الا أن الحوادث التى توالت بعد ذلك ولا سيما أعلان الحرب العالمية الأولى دفعت بالأتراك الى عدم تنفيذ كثير مما اتفقوا عليه مع ممثلى العرب وجاءت الثورة العربية بقيادة الشريف حسين بعد اتصال الجمعيات العربية فى سورية به وبعد اتصاله هو الآخر بها بايفاد ابنه فيصل اليها لتقطع كل تقارب وتفـــاهم بين العرب والأتراك • وقدم جمال باشا الى المشنقة كثيرين من الزعمـــاء العرب مثل عبد الكريم خليل ، عبد الحميد الزهراوى وكان عبد الكريم خليل أول من وقف على كرسى المشنقة فى ٦ مارس ١٩١٦ قال بصوته الجهورى •

أشهدكم أيها القوم اننا لم نأت أمرا فريا يوجب وقفتنا هذه ، وانى آسف على ما أظهرته من الاخلاص للدولة منذ نشوب الحرب ، ولكن الاتحاديين أبوا الا ان يعلنوا عداءهم لهذا العنصر الكريم الذى لايملك من أمره شيئا واذا كان جمال باشا يتهمنا باضرام الثورة لاســتقلال العرب ، فلابد من ضحايا لهــذا الاستقلال ولنكن نحن أول هذه الضحايا • »

واندلعت الثورة العربية بعد هذه المجازر التى قام بها جمال باشا فى سوريا ضد الأحرار العرب ، واذا كانت هذه الثــورة لم تحقق ما كان يرجى من وارئها أو أنها تنكبت الطريق حين وضعت يدها فى يد الانجليز كى تتخلص من الأتراك فكانت كالمستجير من الرمضاء بالنار ، فليس هذا مما يقلل من دورها ومن دور الذين بذروا بذورها ولن ينسى التاريخ ذلك الرعيل الأول من الكتاب العرب الذين استنهضوا الهمم ودعوا الى التحرر وبثوا روح الأمل فى النفوس وعلى راس هؤلاء يقف كاتبنا الكبير السيد عبد الرحمن الكواكبى •

الفصل الخامس

الكواكبي من خلال آثاره الخالدة

(دراسة لكتابه أم القرى)

يجمع المؤرخون أن الكواكبى خلد عملين عظيمين فاق بهما كثيرين غيره من الكتاب وهما كتابيه (أم القرى) و (طبائع الاستبداد) ·

ولقد جاء كتابه أم القرى صيحة مبكرة لليقظة العربية الحديثة لم يسبقه اليها أحد غيره من الكتاب العرب فى ذلك الحين · وليس أدل على الابتكار وأوضح فى اظهار شخصيته وسعة أفقه وخياله من هذا الكتاب · وقد وضع الكواكبى هذا الكتاب قبل كتابه طبائع الاستبداد · فيقول صديقه كامل الغزى أنه اطلعه على الكتاب قبل رحيله الى مصر · ويقول الاستاذ رشيد رضا فى مجلة المنار سنة ١٩٠٢ العدد الخامس ولما هاجر الى مصر كان أول أثر له فيها طبع سجل جمعية أم القرى ، وكان يقول ان لهذه الجمعية أصلا وأنه توسع فى السجل · ونقحه ست مرات آخرها عند طبعه منذ سنتين ونيف أى عقب قدومه الى مصر · وقد قال لنا مرة ان الانسان يتجرأ أن يقول ويكتب فى بلاد الحرية ما لا يتجرأ عليه فى بلاد الاستبداد ، بل ان بلاد الحرية تولد فى الذهن من الأفكار مالا يتولد فى غيرها » ·

ومعنى هذا ان الكواكبى ألف كتابه أم القرى قبل أن يغادرها الى مصر لكنه أدخل عليه كثيرا من التعديلات بعد قدومه الى مصر ونشره سنة ١٩٠٠ ثم نشره الاستاذ رشيد رضا فى مجلة المنار سنة ١٩٠٢ · اتفق رشيد رضا مع الكواكبى حين بدأ نشر كتابه

أن يحذف منه ما يراه ماسا بالدولة العثمانية . ووافق الكواكبى لكن رشيد رضا عاد فعدل عن ذلك ونشر كتاب أم القرى كاملا . فقال فى العدد الخامس من مجلة المنار سنة ١٩٠٢ « انتهى كتاب سجل جمعية أم القرى وما ألحق به . وقد كنا اتفقنا مع جامعة السيد الفراتى (تغمده الله برحمته) على نشره فى المنار بتصرف يختص بتصحيح عبارته وحذف مساوىء الدولة العلية أيدها الله تعالى منه ، ثم استحسن فضلاء القراء عدم حذف شىء منه فللمطلعين على ما نشرناه من أول سنة المنار الى الآن **أن يثقوا أنهم أطلعوا على هذا السجل كله بعبارة أصح الا جملة واحدة ذكر فيها خديو مصر بانه يرجو مساعدة الجمعية . (١)**

ما هى هذه العبارة التى لم يوافق رشيد رضا على نشرها فى كتاب أم القرى ؟ عبارة وردت على لسان رئيس جمعية أم القرى بعد انتهاء جلسات الجمعية ، ان جمعيتنا هذه اختارت أن تجعل مركزها المؤقت فى مصر دار العلم والحرية ، فلها أمل قوى فى أن حضرة العزيز (عباس الثانى) يكون عضوا للقائمين باعزاز الدين وحاميا فخريا للجمعية . ولا بدع فانه خير أمين شاب نشأ على الغيرة الدينية والحمية العربية » (٢) .

كذلك ذكر السيد رشيد رضا أنه لم تنشر جدول المخاطبة الرمزية أى الرموز التى اتفق الأعضاء أن تكون رموزا لهم يتخاطبون بها (٣) .

---

(١) يقول الاستاذ سامى الدهان فى كتابه عبد الرحمن الكواكبى ان رشيد رضا حذف من جمعية ام القرى ما هو ماس بالدولة العلية (ص ٥٥ من كتاب الدهان) وهذا غير صحيح باعتراف رشيد رضا نفسه .

(٢) ص ١٨٨ من نسخة الكتاب الذى نشرته المكتبة التجارية الكبرى سنة ١٩٣١ .

(٣) ص ١٦٥ من نفس النسخة .

لعل السبب فى احجام رشيد رضا عن نشر العبارة التى تتضمن أمل جمعية أم القرى فى تأييد الخديو لها هو أن العلاقة بين رشيد رضا والخديو عباس الثانى فترت بعد أن توثقت مثلما فترت علاقة الخديو مع الامام محمد عبده • كان رشيد رضا من أصفى أصفياء الخديو يقابله دون موعد كما سبق لنا أن أشرنا من قبل بل ربما جاء تعرف الكواكبى للخديو عباس عن طريق رشيد رضا • هاجم رشيد تخلى عباس عن سياسة الحزم مع الانجليز وخاصة حادثة استعراض الخديو للجيش المحتل فى ساحة قصره والوقوف تحت العلم البريطانى فى يوم الاحتفال بعيد ملك الانجليز تزلفا منه وتقربا للعميد البريطانى • وكانت مجلة المنار قد وقفت باخلاص الى جانب الشيخ محمد عبده المفتى تنشر فتاويه وتدافع عنه ضد أكاذيب الخديو والمحيطين به وخاصة تلك الصورة التى نشرها بعض المغرضين وزعموا انها لمحمد عبده فى حلبة رقص يخاصر فتاة أجنبية وكلبها يعبث بأطراف جبته • ولما كان من الواضح ان الصورة مزيفة حيث لفق المصور صورة واحدة جمع فيها صورا متفرقة لمحمد عبده وصورة أخرى لفتاة فجمعهما فى صورة واحدة •

انبرى رشيد رضا يدافع عن الامام محمد عبده وانبرت بعض الصحف الأخرى المؤيدة للخديو ومنها صحيفة المؤيد تدافع عن الخديو ضد تهجم رشيد رضا عليه لاستعراضه الجيش الانجليزى (١) •

وقبل أن تصل العلاقات بين رشيد رضا والخديو عباس الى حد القطيعة سبقتها فترة أخرى كانت العلاقات فيها فاترة تماما فآثر رشيد رضا أن يحذف من جمعية أم القرى ما قد يفسر

(١) عباس العقاد : محمد عبده ص ١٧٦ •

أنه يسىء للعلاقة بين الخديو والسلطان العثمانى بنشره ما يفيد تأييد الخديو لهذه الجمعية .

كذلك نجد أن النسخة التي نشرتها المكتبة التجارية بالقاهرة سنة ١٩٣١ جاءت ناقصة فى نهايتها عما أورده السيد رشيد رضا فى مجلته المنار العدد الخامس سنة ١٩٠٢ فقد جاء فى نهاية مانشره رشيد رضا عن هذه الجمعية ما يلى :

تذكرة : من السيد الفراتى (كاتب الجمعية) بأنه ربما يتأخر تشكيل جمعية تعليم الموحدين (وهى الجمعية التى انتهى الى ضرورة تشكيلها المؤتمر الاسلامى الذى تخيل الكواكبى عقده فى مكة أم القرى على نحو ما سنتناوله فيما بعد) ، فالمأمول ـ الجمعيات الاسلامية الموجودة فى الهند وقازان والقرم ومصر وغيرها ألا تأنف من تنوير أفكارها بمباحث هذا السجل فتقتبس منه ما يناسبها وتتخذ القانون والوظائف مثالا وذكرى . ثم زجاء من الكواكبى يقول فيه من كان يؤمن بالله واليوم الآخر وعنده شمم حمية ومروءة فلا يتجسس عن جمعيته أم القرى وأعضائها بقصد ايصال سوء اليها ، وليعلم ان يده وان طالت الأفلاك أكثر من الاضرار بها لأن الجمعية فى أمان الاخلاص ولا يحيق المكر السيىء الا بأهله ثم **تذييل** آخر بعنوان تهوين : ليعلم اسراء التقليد وورثة الأوهام ومعظمو العظام ومؤلهو الطغام ان تألمهم من صدقة بعض هذه المباحث لما ألفوه عمرهم هو تألم مباغث لا يلبث أن يزول متى خلوا بعقولهم وحكموا الحكمة والانصاف وتأملوا حق الايمان وناطق القرآن وحينئذ ينجلى لهم الحق ويندمون كما ندم مثلهم الأولون فيتوبون ويتوب الله عليهم والله يهدى من يشاء . ثم يتبع الكواكبى ذلك **باعلان** من أحب أن ينجد مقاصد جمعية أم القرى برأى فائق أو عمل مهم أو رغب فى تعضيدها بجاه أو مال أو أراد مراسلة الجمعية أن يراسل وكالة الجمعية بدون اسم بل بارسال كتاب بعنوان

الى مدينة ــ الى صندوق البوستة عدد ــ واذا أراد التخفى يمكنه أن يكاتبها أولا باسم له مختلق ثم يستعمل الكتابة الحبرية الموضحة فى الجدول المذيل به هذا السجل • والذين يرجى منهم تعضيد مهم كحضرات الأمراء العظام والأغنياء الكرام فلهم أن يطلبوا رسولا من قبل الجمعية ليوضح لهم ما يستوضحون • (انتهى) •

وبعد أن عرضنا لأوجه الاختلاف بين بعض الطبقات فى كتاب أم القرى نعود لنلقى عليه دراسة تبين قيمة مؤلفه وجهده وما تركه من أثر خالد لا ينكر على مر الأيام والأزمان •

وضع الكواكبى لكتابه عنوان (أم القرى) وهى مكة المكرمة التى تخيل فيها عقد جمعية من فضلاء المسلمين لبحث أسباب تدهور أحوالهم وتقرير الدواء بعد تشخيص الداء • وذكر أن مؤلف الكتاب هو السيد الفراتى وهو ماتكنى به الكواكبى • وناشد قراء كتابه الصبر حتى ينتهوا من قراءته حتى نهايته والا يتعجلوا نقده قبل أن يستوفوا مطالعته فقال أيها الواقف على هذه المذكرات •

اعلم انها سلسلة قياس لا يغنى أولها عن آخرها شيئا وأنها حلقات معان مرتبطة مترقية لا يغنى تصفحها عن تتبعها • فان كنت من أمة الهداية وفيك نشأة حياة ودين وشمة ومروءة فلا تعجل بالنقد حتى تستوفى مطالعتها وتعي الفواتح والخواتم ثم شأنك ورأيك • أما اذا كنت من أمة التقليد واسراء الأوهام بعيدا عن التبصر لا تحب أن تدرى من أنت وفى أى طريق تسير وما حق دينك ونفسك عليك والى ماذا تصير فتأثرت من كشف الحقائق ودبيب النصائح وشعرت بعار الانحطاط وثقل الواجبات فلم تطق تتبع المطالعة وتحكيم العقل والنقل فى المقدمات والنتائج فأناشدك الاهمال الذى ألفته أن تطرح هذه المذكرات الى غيرك ليرى فيها رأيه ــ السيد الفراتى •

ثم يقدم الكواكبى لكتابه بوصفه للعهد الذى كتب فيه كتابه (القرن الرابع عشر الهجرى ـ أواخر القرن التاسع عشر) عهدا عم فيه الخلل والضعف كافة المسلمين « وكان من سنة الله فى خلقه أن جعل لكل شيء سببا ، فلابد لهذا الخلل الطارىء والضعف النازل من أسباب ... دعت الجمعية بعض أفاضل العلماء والسراه والكتاب السياسيين لبحث **وسائل النهضة الاسلامية** فأخذوا ينشرون آراءهم فى ذلك فى بعض الجرائد الاسلامية الهندية والمصرية والسورية والتتارية . وقد اطلعت على كثير من مقالاتهم الغراء فى هذا الموضوع الجليل واتبعت أثرهم بنشر ما لاح فى حل هذا المشكل العظيم » .

ثم يذكر ما أتيح له من سياحة زار فيها البلاد العربية لاستطلاع الأفكار وتهيئة الاجتماع فى موسم أداء فريضة الحج . ومن الواضح أن الكواكبى كان يعلق أهمية كبيرة على موسم الحج كموسم التقاء المسلمين من كافة بقاع الأرض لأداء هذه الفريضة الغراء والتى كان أحد أسباب فرض الله سبحانه وتعالى لها لعباده المسلمين أن يشهدوا منافع لهم . ومن ثم فان أول هذه المنافع هو **بحث العلة وتشخيص المرض** النازل بالمسلمين والعمل على علاجه . وتخيل الكواكبى انه فى زيارته للبلاد الاسلامية المختلفة دعا من يلتمس فيه الاخلاص لدينه وأمته ورجاحة العقل وأنه عاد بعد دعوته لهؤلاء الى مكة فوجد ان بعض من دعاهم قد سبقه الى مكان الاجتماع . واختار لمكان الاجتماع حيا متطرفا من أحياء مكة لاترقبه العيون واستأجر هذه الدار باسم غير اسمه لتكون مضمونة من الرقابة والتجسس .

وبدا انعقاد المؤتمر الذى ضم ممثلين للبلاد الاسلامية بما فيها بعض البلاد التى لم يزرها الكواكبى مثل مراكش وتونس . وانعقد المؤتمر من منتصف شهر ذى القعدة سنة ١٣١٦ هجرية

حتى نهايته في اثنى عشر اجتماعا غير اجتماع الوداع حيث جرت في هذه الجلسات « مذكرات مهمة صار ضبطها وتسجيلها بكمال الدقة كما سيعلم من مطالعة هذا السجل المتضمن كيفية الاجتماعات مع جميع المفاوضات والمقررات غير ما آثرت الجمعية كتمه كما سيشار اليه » .

بلغ عدد المجتمعين كما تخيلهم الكواكبي ثلاثة وعشرون عضوا بما فيهم السيد الفراتي الذي عهد اليه كتابة محاضر الجلسات . وتولى رياسة الاجتماعات العضو المكي على أساس أن المؤتمر منعقد في بلده . واتخذ المجتمعون شعارهم (لا نعبد الا الله) ، وتعاهدوا على الجهاد والأمانة . ووضع الرئيس منهج البحث وهو الكتمان فهو أدعى الى افاضة كل بما في نفسه صراحة . ودعاهم أن يتركوا اندماجهم جانبا ويعتمدون على صريح الكتاب وصحيح السنة حتى لا تتفرق بهم الآراء .

وحين وضع الكواكبي كتابه حث المسلمين على عدم اليأس فهو يورد على لسان رئيس الجمعية أنه لا داعي لليأس « لأن محض انعقاد جمعيتنا هذه لمن أعظم تلك المبشرات خصوصا اذا وفقها الله تعالى بعنايته لتأسيس جمعية قانونية منتظمة ... (١) » .

ونلاحظ ان الكواكبي يهتم بنظام الجمعيات فهي عنده ، تقوم بالعظائم وتأتي بالعجائب وهذا هو سر نشأة الأمم الغربية . وهو بهذا مثلا يشير الى الجمعيات الثورية الايطالية التي لعبت دورا في الوحدة والاستقلال الايطاليين ، ومنها جمعية الكاربوناري الايطالية التي كان هدفها مقاومة الاستبداد في كل أشكاله (٢) .

---

(١) الكواكبي ـ أم القرى ص ١٥ ط سنة ١٩٣١ المكتبة التجارية .

(٢) التاريخ الاوربي الحديث لهربرت فيشر ترجمة نجيب هاشم ووديع الضبع ص ٢٣٨ .

والمعروف ان الكواكبى كان من المعجبين بزعماء الحركة الايطالية فهو يقول ومن أين لنا زعيم (ملزم) كغاريبا لدى يوفق بين أمرائنا أو يلزمهم بجمع كلمتنا ٠

يرى الكواكبى ان الغلبة للجماعة « وأن مبدأ أعظم الأعداد اثنان فذلك مبدأ الجمعيات شخصان ثم تتزايد » ٠ وهو يأمل لهذا الشرق بجمعية تكون وظيفتها الاساسية أن تنهض بالأمة من وهدة الجهالة وترقى بها فى معارج المعارف متباعدة عن كل صبغة سياسية ٠

ثم يحدد الرئيس المسائل التى ستبحثها الجمعية فى عشر مسائل رئيسية : موضع الداء ـ أعراضه ـ جراثيمه ثم وصفه ٠ يتبع ذلك وسائل استعمال الدواء ثم ما هو الاسلام الصحيح أو ما هي الاسلامية ، ثم كيف يكون التدين بالاسلامية ٠ أخيرا ٠ ما هو الشرك الخفى وكيف تقاوم البدع وسن قانون لتأسيس جمعية تعلمية تسمى بجمعية تعليم الموحدين ٠

واستمرت اجتماعات الجمعية يومية فيما عدا يومى الثلاثاء والجمعة وكانت جلساتها تدوم من الصباح حتى قرب موعد صلاة الظهر حيث ينصرف الأعضاء لتأدية فريضة الصلاة ثم يواصلون اجتماعهم فى اليوم الذى يليه ٠

وحين ينتهى الكواكبى من اجتماعات جمعيته الى اقرار ضرورة وجود جمعية تعلمية هى التى أسماها جمعية تعليم الموحدين كان أشبه ما يكون بالامام محمد عبده حين اختلف مع الأفغانى فى نظرته للاصلاح ٠ رأى محمد عبده بعد أن عمل والأفغانى معا فى اصدار جريدة العروة الوثقى أن التربية والتعليم والعمل فيها أجدى من العمل فى السياسة « عرضت عليه (على الأفغانى) حين كنا فى باريس أن نترك السياسة ونذهب الى مكان بعيد عن

مراقبة الحكومات نعلم ونربى من نختار من التلاميذ على مشربنـا فلا تمضى عشر سنين الا ويكون عندنا من التلاميذ الذين يتبعوننا فى ترك أوطانهم والسير فى الأرض لنشر الاصلاح المطلوب فينتشر أحسن الانتشار فقال انما أنت مثبط (١) ·

وواضح أن الكواكبى كان يعلق على التعليم والارشاد والتثقيف ما كان يعلقه الأستاذ الامام محمد عبده · وكان الكواكبى على اتفاق فى ذلك مع محمد عبده وكان (الكواكبى يثنى على الامام الثناء كله ، فقد كان يعتقد أن الامام محمد عبده أعلم من أستاذه الأفغانى وقد خالفه رشيد رضا فى ذلك فقال وهذا غلط منه (٢) ·

كان الكواكبى يعلق أهمية كبيرة على تشخيص الداء الذى ابتلى به المسلمون فى أيامه ، وأن ذلك كفيل بتقرير الدواء ، فان الطبيب الناجح هو الذى يتوصل الى معرفة الداء وانه حين يعقل ذلك لا يستعصى عليه علاج مريضه · من أجل هذا استغرق تحديد موضع الداء وأعراضه ثلاثة اجتماعات متصلة من اجتماعات الجمعية ·

تشخيص الداء :

بدأ الأعضاء فى اجتماعهم الثانى فى تشخيص الداء أو الفتور العام الذى نزل بالمسلمين كما وصفه رئيس الجمعية وقبل أن يدلى كل بدلوه ذكرهم الرئيس بعدم التعقب لرأى ذاتى أو الاصرار عليه أو الانتصار له على أساس أنهم باحثون لا متناظرون ثم اتفقوا على أنه اذا أعجبهم رأى المتكلم أثناء خطابه فلا بأس من التعليق عليه بلفظ مرحى وهو لفظ الاستحسان ·

---

(١) عباس العقاد : محمد عبده ص ١١٦

(٢) رشيد رضا : تاريخ محمد عبده ج ١ ص ١٠٥ ·

ثم أخذوا بعد التسليم بوجود المرض يبحثون فى أسبابه وذهبوا فى ذلك مذاهب شتى فالكواكبى يرى أن أول الأسباب هو ما أصاب المسلمين من عقيدة جبرية . ويورد ذلك على لسان العضو الشامل . فهذه العقيدة فى القضاء والقدر آلت الى الزهد فى الدنيا والقناعة باليسير والكفاف من الرزق واماتة المطالب النفسية كحب المجد والرياسة والاقدام على عظائم الأمور والترغيب فى أن يعيش المسلم كميت قبل أن يموت . والعقيدة بهذا الشكل مثبطة معطلة لا يرضاها عقل ولم يأت بها شرع . ويخشى الكواكبى أن يفسر كلامه هذا على أنه ضد الزهد الذى جاء به الاسلام فيورد على لسان العضو القدسى ترغيب للناس فى الأثرة العامة أى تحويل المسلم ثمرة سعيه للمنفعة العمومية دون خصوص نفسه . ثم يمضى العضو القدسى (ممثل مدينة بيت المقدس) ان سبب الفتور هو تحول نوع السياسة الاسلامية من ديموقراطية الى استبدادية فأفسدت العقول وأماتت الأخلاق .

وبعد أن يبدى الأعضاء اعجابهم بما ذكره القدسى بذكرهم كلمة مرحى كما اتفق على ذلك فيما بينهم ، يبادر العضو التونسى يقول ان بعض الأمم الأوربية محكومة بحكومة استبدادية ولم يمنع ذلك من تقدمها ، وانما السبب فى نظره الأمراء المترفون الأخسرون اعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا . فمنهم (الأمراء) من بلغ جهله درجة أحط من درجة الكائنات الحية الأدنى درجة من الانسان . فهذه الكائنات الحية لها نواميس وطبائع تحمى زمارها وتمتنع عن حدودها . بينما هؤلاء الأمراء ليس لهم طبائع ولا نواميس يخربون بيوتهم بأيديهم وهم لا يشعرون . وهناك بعض الأمراء من هو ضال على علم فنجدهم يشكون ويبكون مع أنهم يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم يظهرون الرغبة فى

الاصلاح ويبطئون الاصرار والعناد على ما هم عليه من فساد دينهم ودنياهم .

أما العضو الرومي فيرى ان السبب الحقيقي لما فيه المسلمون اليوم هو فقدهم الحرية بجميع أنواعها . ويضع الكواكبي ملاحظة تفيد بأن العضو الرومي هذا هو من أهل القسطنطينية الذين حـرم عليهم مجرد التلفظ بكلمة حرية وجمعية ووطن . وهو بهذا يشير الى ما فرضه السلطان عبد الحميد الثاني من استبداد فاق في قوته أي نوع من الاستبداد الآخر حتى أصبح الانسان يحاسب على الكلمة ولو لم يقصد بها شيئا فبمجرد ذكر كلمة حرية أصبحت من الكلمات الممنوع استخدامها وكذلك ذكر قتل واغتيال ملك أو أمير (١) .

ويمضي الكواكبي في القول على لسان العضو الرومي ان المسلمين حرموا من الحرية بكافة أنواعها حرية التعليم والخطابة والبحث العلمي . ومما لا شك فيه ان الحرية أعز شيء على الانسان بعد حياته وأنه بفقدانها تفقد الآمال وتبطل الأعمال وتموت النفوس وتتعطل الشرائع وتختل القوانين بينما كان هناك المسلمون الأوائل لا يخافون من الخليفة فيخاطبون أمير المؤمنين بقولهم يا عمرو ويا عثمان . « فصرنا ربما تقتل الطفل في حجر أمه وتلزمها السكوت فتسكت ولا تجسر أن ترعج سمعنا ببكائها عليه » .

---

(١) يورد الاستاذ ساطع الحصري في كتابة البلاد العربية والدولة العثمانية ص ١٠٠ حادثة طريفة تفيد انه حين قتل ملك الصرب في بلغراد منع السلطان عبد الحميد ذكر الخبر ونشرت الصحف الحادث على أنه موت طبيعي كما ارسلت وزارة الداخلية الى جميع الولايات برقيات مستعجلة لمنع دخول جميع الجرائد الاجنبية التي نشرت خبر الاغتيال وذلك حتى لا يخطر على بال احد من رعية الدولة امكان اغتيال ملك من الملوك . وعلى هذا النحو كان عبد الحميد يذهب الى التفكير الى أبعد الاحتمالات .

وبينما يرى العضو الرومي أن فقدان الحرية سبب الفتور والتقاعس عن كل صعب وميسور ، يرى العضو التبريزى أن السبب ترك المسلمين الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر « مع أن ازالة المنكر فى شرعنا تكون بالفعل فان لم يكن فبالقول فان لم يكن فبالقلب » ..

ثم يتناول الكلمة العضو الفاسى أن شريعة السلف الصالح كانت شريعة سمحاء واضحة المسالك فكان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وظيفة لكل مسلم ومسلمة .

كان الكواكبى يريد أن يعود الدين الى بساطته الأولى الغابرة والتى أوحى بها النبى صلى الله عليه وسلم على اعتبار أنه الأصلح للمجتمع الاسلامى . وكان العرب آنذاك يجاهرون بعدائهم لحكم الفرد وكرههم له ويرثون لحال الأمم التى وضعت نفسها تحت رحمة رجل واحد وكانوا يمقتون الاستبداد الذى هو أصل كل بلاء . كان الخليفة فى صدر الاسلام ينتخب ولكل مسلم حسن الخلق سديد الرأى حق الانتخاب وكان حفل تنصيب الخليفة يعرف بالبيعة وهو عمل طوعى مؤداه الاعتراف بالخليفة والولاء له . وكان الخليفة يعتبر الأول بين أنداده . فالناس يخاطبونه باسمه دون أى لقب وتفخيم ، وفى كتب الأخبار العينية سنة ٧١٣ م حدثت زيارة وفد عربى من اثنى عشر شخصا الى البلاط الامبراطورى فأحدثت تصرفاتهم دهشة لدى الامبراطور وحاشيته عندما مثل أعضاء الوفد بين يدى الامبراطور ورفضوا السجود له (١) . ذلك أن الشعور بكرامة الانسان كانت متأصلة فى نفوس العرب الى درجة أنهم لم يكونوا يتصورون انسانا يذل نفسه أمام أحد غير الله سبحانه عز وجل .

---

(١) د. نجلاء عز الدين العالم العربى ص ٤٦ ترجمة د. محمد عوض محمد وآخرين

ثم تناول الكلمة العضو الفاسى فذكر أن سبب فتور المسلمين هو اهمالهم الاهتمام بالدين ويمجد الاسـلام فى أيامه الأولى على عهد السلف الصالح حين كانت الشريعة سمحاء واضحة المسالك معروفة الواجبات والمناهى فكان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وظيفة لكل مسلم ومسلمة ؛ « ثم دخل فى ديننا أقوام ذوو بأس ونفاق أقاموا الاكتسـاب مكان الاحتسـاب • وحصروا اهتمامهم فى الجباية واسـتخدموا لذلك جنـدهم ، وادى انحصـار الأمراء الدخلاء فى الجباية والجنـدية لاهمـال الدين كلية ••• ولـم يبق للدين عندهم من أثر الا على رءوس الألسن » •• ولم يعد يتمسك الأمراء بالدين الا بقصد تفسير الآيات تفسـيرا يمكنهم من بسـط سلطانهم على الضعفاء مثل قوله تعالى :

(أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) وقوله تعالى

(وجاهدوا فى سبيل الله) ، مع اغفالهم ان الجهاد المأمور به ما يستحصل اعزاز كلمة الله •

وقد كان المسـلمون أعزاء يوم توثقت الرابطة الدينية بينهم فلما انحلت ضاعت الأخلاق ففتروا وخمدوا •

ويتمنى الكواكبى أن تقوى الرابطة الدينية بين المسـلمين كسـبيل الى تقوية الرابطـة بينهم ثم هو يرى ان فقد الرابطـة الدينية ليست سببا للفتور العام وحدها بل يؤكد على لسان العضو المدنى (الممثل للمدينة المنورة) ان الطاقة الكبرى جاءت من العلماء المدلسين •

وللكواكبى موقف معروف مشهور بين العلماء الدينيين الذين نسـوا وظيفتهم الهامة وهى انهم بحكم كونهم ورثة الأنبياء عليهم واجب الهداية الحقة الخالصة من كل الشوائب الباطلة •

يرى الكواكبى انه نظرا لما للعلماء من مكانة اجتماعية مرموقة

فقد ظهر من ينافس هؤلاء العلماء . لكنه يرى أن هؤلاء المنافسين للعلماء هم قوم مدعين العلم مدلسين على المسلمين بتأويل القرآن مالا يحتمله فادخلوا من البدع فى الدين ما ليس فيه كالعلم اللدنى وترتيب المقامات ووراثة السر والرهبنة وأصبحوا كرجال الكهنوت فى مراتبهم وتميزهم فى ألسنهم .

ومن المعروف أن الكواكبى حمل حملة شعواء على أولئك المتصوفين الذين جاءوا الى الدين بما ليس فيه .

يقول الأستاذ رشيد رضا وهو يؤرخ للأستاذ الامام محمد عبده . طالما فكر محبو الاصلاح من عقلاء المسلمين فى اصلاح شأن المنتمين الى طرق الصوفية وانقاذهم من خيالاتهم الفاسدة ، وبدعهم الفاضحة ، بل اخراجهم من جحر الضب الذى دخلوه وهم لا يشعرون فلم يهتد أحد الى ذلك سبيلا . ولما هاجرت الى مصر سنة ١٣١٥ هـ كان أول اصلاح سعيت اليه أن حاولت اقناع شيخ مشايخ الطرق الصوفية الشيخ محمد توفيق البكرى بالقيام بهذا الاصلاح ... وقلت له مرارا ان الاصلاح لا يقوم الا برجال من أهل العلم الصحيح والأخلاق والغيرة والاستقامة يناط بهم أمر هذه الطرق . ثم علمت بعد طول السعى أن ما حاولت الاستعانة بهذه السلطة الرسمية على هذا الاصلاح الروحى يكاد يكون محالا ...

ويمضى السيد رشيد رضا يقول : وقد جرت المذاكرة فى ذلك بينى وبين صديقى **السيد عبد الرحمن الكواكبى** ، وكان يرى ان اصلاح هذه الطرق أو الاصلاح من بابها محال . فقلت أرأيت اذا اقنعنا بعض اخواننا الصادقين فى حب الاصلاح العاملين بطرق الارشاد بأن يكونوا شيوخا لهذه الطرق المشهورة ـ ألا يستطيعوا أن يقفوا بعادة أهل طريقتهم عند حدود السنة ويربوا طائفة من المريدين تربية جديدة ؟ فقال (الكواكبى انبا جربنا ذلك فى حلب

فأقنعنا رجلا من أمثال هؤلاء الذين تعنيهم بنحو ما ذكرت فكان عاقبة أمره معهم أن أفسدوه ولم يصلحوه وأنس بهذه الرياسة وآثرها فخسرناه بها » (١) .

ومضى الكواكبى يحمل على أولئك الذين ادعوا التصوف فقال « ومن العادة أن يلجأ ضعيف العلم الى التصوف كما يلجأ فاقد المجد الى الكبر وكما يلجأ قليل المال الى زينة اللباس والأثاث (٢) .

ونمضى مع الكواكبى فى كتابه أم القرى وهو يحمل حملة عنيفة على هؤلاء الذين سماهم بالمدلسين الذين سحروا عقول الجهلاء فجعلوا التعبد لهوا ولعبا وذلك أهون على النفس والطبع من القيام بتكليفات الشرع كما وصف الله تعالى عبادة المشركين فقال (وما كان صلاتهم عند البيت الا مكاء وتصدية) أى صفيرا وتصفيقا وهؤلاء (المتصوفون) جعلوا عبادة الله تصفيقا وشهيقا وخلاعة ونعيقا .

ويذكر الكواكبى ان هذا الرأى الذى أبداه ممثل المدينة المنورة فى الاجتماع قد أيده الأعضاء بذكرهم كلمة (مرحى) كما اتفق على ذلك فى بدء اجتماعاتهم .

ثم يضيف العضو الرومى الى ذلك ان الداء الدفين هو دخول الدين تحت ولاية العلماء الرسميين وبعبارة أخرى تحت ولاية الجهال المتعممين .

ويمضى الكواكبى على لسان العضو الرومى فى الاجتماع الثالث لجمعيته يقول ان هؤلاء المتعممين فى البلاد العثمانية اتخذوا لأنفسهم قانونا سموه (طريق العلماء) وجعلوا فيه من الأصول

(١) رشيد رضا ـ تاريخ محمد عبده الجزء الأول ط . ص ١٢٩ .

(٢) الكواكبى ـ ام القرى ط المكتبة التجارية سنة ١٩٣١ ص ٣٥

ما أنتج منذ قرنين الى الآن ان يصير العلم منحة رسمية تعطى للجهال حتى للأميين بل للأطفال ! .

ويحمل الكواكبي على السـلطان عبد الحميد اغداقه الألقاب على أناس لا يمتون للعلم بشيء فيصدر المنشور الرسمي من قبله ليصفهم بل ليصف بعضهم وهم ما زالوا أطفالا بأنهم أعلم العلماء المحققين ثم اذا شب بعضـهم عن الطوق يخـاطب بأنه (أفضـل الفضلاء المدققين) (وأقضى قضاة المسلمين معدن الفضـل واليقين رافع أعلام الشريعة والدين وارث علوم الأنبياء والمرسلين) ويظل السلطان يغدق عليه من الألقاب حتى يوصف (أعلم العلماء المتبحرين وأفضل الفضلاء المتورعين ينبوع الفضل واليقين) الى آخـر ما في تلك التآشير من الكذب المشين ! .

ويرى الكواكبي أن هؤلاء المتعممين قابلوا انعام السلطـان عليهم بهذه الالقاب بوصفهم اياه ومخاطبتهم له (بالمولى المقدس ذى القدرة صاحب العظمة والجلال المنزه عن النظير والمثال واهب الحياة ظل الله خليفة رسول الله مهبط الهامات مصدر الكرامات سلطـان السلاطين مالك رقاب العالمين ولى نعمة الثقلين وملجأ أهل الخافقين) وكلها ألقاب شرك بالله وتؤدى الى غضبه وتدفع بقائلها الى التهلكة .

ويحمل الكواكبي على هؤلاء المدعين للعـلم والعلم منهم براء فبعضهم لا يحسنون قراءة نعوتهم المزورة ! وبعضهم يشرك بالله يلبسون كما كان يلبس كهنة الروم .

ويحمل على قضـاة القسطنطينية أنهم أهملوا حكـام الشرع وجعلوا المناصب تباع وتشترى وقصروهـا على المتملقين المنافقين وبهذا انحصرت الوظائف الدينية في الجهلاء والمنافقين ولم يقتصر الأمر على القسطنطينية وقضاتها من وجهة نظر الكواكبي بل ان كل ولاية من ولايات الدولة العثمانية (بعد صدور قانون الولايات) أصبح

يشترك في مجلس ادارتها عام أو أكثر يحكم مع واليها فيما لم ينزل به الله كالربا وكثير من المسائل التى لا تتمشى مع تعاليم الشرع ثم يقول ، وكان الأليق والأنسب بالاسلامية أن يبقى العلماء بعيدين عن ذلك » •

كان الكواكبى يريد ان يكون عالم الدين حيث كان سلفه الصالح يتقرب له الحاكم ويهابه لا يتقرب هو للحاكم ويتملقه ، فاذا ما استبد الحاكم كان أول من يتصدى له العلماء يقفون فيوجهه لأنهم حماة الدين وورثة الانبياء • ومن أجل هذا فالكواكبى لايسمى هؤلاء الذين يعينون الامير أو الحـاكم على ظلمه ويجعلونه يعادى الشورى ـ بالعلماء وانما يسميهم المتعممين أى الذين ادعوا أنهـم علماء وما هم من العلم فى شىء •

يقـول الكواكبى « ومن أهم دسائس هـؤلاء المتعممين أنهم ينفثون فى صـدور الأمراء لزوم الاستمرار على الاستقلال فى الرأى وان كان مضرا ومعاداة الشورى وان كانت سـنة ، المحـافظة على الحالة الجارية وان كانت سيئة • ويلقون عليهم بأن مشاركة الامة فى تبرير شئونها واطلاق حرية الانتقاد لها يخل بنفوذ الأمراء ويخالف السياسة الشرعية ••• » (١)

ويخلص الكواكبى من ذلك الى القول ان هؤلاء الجهلاء الذين تمتعوا بمزايا العلماء العاملين واغتصبوا أرزاقهم ـ قد ثبطوا الهمم وقلت الرغبة لديهم فى تحصيل العلم فجعلوا تحصيله وسـيلة للارتزاق وهكذا فسد العلم وقل أهله •

والكواكبى حريص على العناية بدراسة العلوم العقلية وخاصة العلوم الرياضية والطبيعية ويورد ذكر اهمال المسلمين لهذه العلوم على أنه السبب فيما عمهم من فتور وتخاذل ويود لو عنى المسلمون

---

(١) الكواكبى ـ أم القرى ص ٤٥ .

بدراسة العلوم الطبيعية والحكمية لأصبحوا بعد الاكتشافات الجديدة يؤمنون بالله عن يقين بعد أن تكشف لهم بفضل هذه العلوم كثيرا من قدرته وعظمته ولاتضح لهم ان العلماء الأوربيين لم يأتوا بجديد في مكتشفاتهم فكل ما ذكروه قد أشار اليه القرآن الكريم • ويذكر الكواكبي كثيرا من الامثلة على صدق هذا القول على لسان العضو الكردي : « أضحى المسلمون محتاجين للحكمة العقلية التي كادت تجعل الغربيين أدرى منا حتى في مباني ديننا كاستدلالهم بالمقايسة على أن نبينا عليه أفضل الصلاة والسلام أفضل العالمين عقلا وأخلاقا وكاتباتهم بالمقابلة أن ديننا أسمى الديانات حكمة ومزية • وعندي أنه لولا هذا القصور ما وقع المسلمون في هذا الفتور •

ثم يطالب الكواكبي بعدم اليأس فهو يرى ان يأس المسلمين من منافسة الامم الاخرى هو أحد أسباب التخلف فهو يطالب بالحث والسعي وعدم الاستسلام لدعاة الجزع وأنصار التخاذل • وأهمية دعوة الكواكبي أنهـــا جاءت في وقت ران اليأس فيه على النفوس واستسلم الجزع فيه على القلوب فالبلاد العربية تقع تحت براثن الاحتلال الاجنبي ، فالجزائر تحت الاحتلال الفرنسي ومعها تونس ومصر والسودان تحت الاحتلال الانجليزي والبلاد العربية الاخرى الواقعة تحت حكم السلطان عبد الحميد في تخلف واستبداد لم تشهد له مثيلا من قبل • ومن هنا تبدو أهمية دعوة الكواكبي التي جاءت تبدد دياجير الظلام وتبشر بفجر من الأمل الكبير •

وتلمس الحماس وراء كل كلمة يكتبها الكواكبي في هـــذا المجال وتحس بالقوة وتشعر بالعظمة التي ملأت جوانب هذا الرائد الكبير ، كنا علماء راشدين وكان جيراننا متأخرين عنا فعرفنا البقاء فتمادوا واجتهدوا فلحقونا ولبثنا نياما فاجتازوا وسبقونا وتركونا وراء زطال نومنا فبعد الشوط حتى صار ما بعـــد وراءنا وراء • فصغرت نفوسنا وفترت همتنا وضعف احساسنا فيئسنا من اللحاق والمجاراة وخرجنا من ميدان المنافســـة والمباراة والسنتنا تفيض

بقولنا سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص فعدنا الى كهف النوم مستسلمين للقضاء نطلب الفرج بمجرد التمنى والدعاء » (١)

وقد أحسن السيد كامل الغزى فى وصفه لأسلوب الكواكبي بقوله انه كان يختار للمعني لفظا على قدر المعنى لايضيق ولايتسع لغيره وهذه هى البراعة فى اللغة وما تؤلفه مفرداتها من المركبات الاسنادية وكان لا يعبأ بزخرفة الالفاظ ولا يكثر من الاستعارة (٢)

ومضى مع الكواكبى فى عرضه لأسباب ما وصفه بالفتور العام بين المسلمين والذى ذكر فيه الاسباب المتنوعة المختلفة على لسان أعضاء جمعيته التى تخيل عقدها فى مكة أم القرى .

فيرى ان من بين أسباب هذا الفتور الفقر الآخذ بالزمام لأن الفقر قائد كل شر ورائد كل نحس » فمنه جهلنا ومنه فساد أخلاقنا » .

ويبدع الكواكبى غاية الابداع حين يدعو الى ان الدين الاسلامى دين الاشتراكية بما قرره من حق الفقراء في أموال الأغنياء فقلبت الحكومات الاسلامية الموضوع فصارت تجبى الاموال من الفقراء والمساكين وتبذلها للأغنياء وتحابى بها المسرفين والسفهاء .

وسنرى عند دراستنا لكتابه طبائع الاستبداد كيف كانت دعوة الكواكبى الاجتماعية تتمثل فيها كل مثل الاشتراكية ومبادئها فكان بذلك أول من نادى بأن يكون الاجر على قدر العمل والى تحديد الملكية على نحو ما سنعرض له فيما بعد .

---

(١) الكواكبى ـ أم القرى ص ٥١

(٢) كامل الغزى : مجلة الحديث سنة ١٩٢٩ العدد السادس ص ٤٠٤ وما بعدها : تاريخ ما أهمله التاريخ من سيرة عبد الرحمن الكواكبى بطل الحرية وفقيد الشرق .

ويرى الكواكبي ان الزكاة التي جاء بها الاسلام فرضـــا من فروضه وركنا من أركانه الاساسية انما قصد بها اذا ما عـــاش المسلمون مسلمين حقيقة (يؤدون تلك الفريضة) أمنوا الفقـــر وعاشوا عيشة الاشتراك العمومي المنتظم الذى يتمناه أغلب الدول الأخرى التى تدعى المدنية والتقدم · فاذا كانت تلك الأمم تنادي بما يسمي الاشتراكية والقصد منها التقارب والتساوى فى الحقوق فان أداء الزكاة يكفل للمسلمين ذلك كما سبب اهمالها فقد الثمرات العظيمة من معرفة فضلها ·

ويسوق الكواكبى على لسان العضو المسلم من بلاد الانجليز فضل الزكاة وحكمة التشريع فى أمور كثيرة مثل نسيانهم بالكلية حكمة تشريع الجماعة وصلاة الجمعة والحج ·

وفى الوقت الذى أخذت الأمم الأخرى عن الاسلام أمورا كثيرة منها تخصيصها يوما فى الأسبوع للراحة من العمل ، يعقد الناس فيه اجتماعاتهم وندواتهم يتباحثون ويتناجون · وهذا نفس ما رمى اليه التشريع الاسلامى حين جعل صلاة الجمعة صلاة جماعة · ففى الوقت الذى أهمل المسلمون كثيرا من شئونهم أخذ الآخرون عنهم فضائل دينهم فتقدموا عليهم وسبقوهم فى ميادين كثيرة بسـبب ذلك ·

ثم يعود الكواكبى ليحمل على العلماء المنافقين ويرى أن أفضل الجهاد فى الله هو الحط من قدر العـلماء المنافقين والجهال وتحويل احترام الناس للعلماء العاملين حتى اذا رأى الحكام ذلك انقادوا لهم أيضا واضطروا لاحترام العلماء ·

وللكواكبى اهتمام خاص بالعلماء وبوظيفتهم فى الامة الاسلامية فهم أهل الحل والعقد الذين لا تنعقد شرعا الامامة إلا ببيعتهم وهم رؤساء الأمة ووكلاء العامة ويستعرض تاريخ الامة الاسلامية فيرى

ان ضعفها أو قوتها مرهون بضعف أو قوة أهل الحل والعقد فيها واشتراكهم فى تدبير شئون الامة . ويخلص الى أن ضـعف الامة الاسلامية فى الوقت الذى عاشه الكواكبى مرجعه ضعف العلماء وتملقهم للأمراء والحاكمين ، وهم بفعلهم ذلك مكنـوا الأمراء من الاستبداد .

وبعد أن استغرق بحث اعراض الداء النازل بالمسلمين وأسبابه وجرائمه ثلاث جلسات ، بدأ الاعضاء فى اجتماعهم الرابع ينتقلون الى بحث مسألة أخرى من المسائل التى أدرجوها فى جدول أعمالهم وهو تعريف الدين الاسلامى أو **ما هى الاسلامية ؟**

وجاء الكواكبى بدراسة لهذه المسألة على لسان العضو النجدى وكأنه يريد ان يقول ان الاسلام الصحيح هو اسلام أهل نجد ومن ثم فان العضو النجدى أقدر الناس على أن يتناول ذلك ، فأهـل مكة أدرى بشعابها كما يقول المثل .

يدعو الكواكبى الى ضرورة اتباع القرآن والسنة دون تأويل أو تحريف . والكواكبى فى هذا يريد أن يعود الدين الاسلامى الى بساطته الاولى التى كان عليها فى صدر الاسلام وهو فى هذا شبيه بابن تيميه الذى كان يدعو الى نفس ما دعا اليه الكواكبى فى هذه الناحية ، ويتفق الكواكبى مع ابن تيميه بأنه لا سبيل الى عـزة الاسلام الا بالقضاء على مظاهر الشرك المختلفة رفاق من يعتقد ان هناك غير الله قادر على قضاء حاجته ويرجو عنده الخير فهو مشرك بالله .

ومن البحوث الممتعة التى جاء بها الكواكبى فى كتابه أم القرى بحثه عن الشرك فهو يفسر كلمة الايمان ومعناها الطاعة والتسليم بدون اعتراض ويشرح كلمة العبادة بالتذلل والخضوع ثم التوحيد بمعنى العـلم بأن الشىء واحد ، وان الواحد والأحد صفتـان لله

معناهما المنفرد الذى لا نظير له أو ليس معه غيره • وكانت مهمة الرسل الاولى هي جعل الناس لا تعظم غير الله وان نبينا صلى الله عليه وسلم لبث عشر سنين يقاسي الاهوال فى دعوتـــه الناس الى التوحيد فقط وسمى أمته الموحدين •

وبعد أن يمضى الكواكبى يشرح شرحا مستفيضا معنى اياك نعبد واياك نستعين وأن معناها الاستعانة بالله مقرونة بعبادته • فاذا جاء بعض المسلمين اليوم يعبدون الله ويســتعينون بغيره من الاولياء الصالحين ، وغيرهم فهم بعيدون عن عبادة الله وأصبح هناك مسلمون يخترعون عبادات وقربات لم يأت بها الاسلام ومنهـــم جماعة اتخذوا دين الله لهوا فجعلوا العبادة غناء ورقصا • ثم هو يحمل على التصوف فيرى ان الدين الاسلامى كان نقيا حتى أواخر القرن الرابع الهجرى ثم بدأ قوم يدخلون فى الدين ما لم يكن فيه « كأن نبينا ترك لنا دينا ناقصا فهم أكملوه » •

ويلقى الكواكبى التبعة فيما دخل على الدين من الخـــرافات والزيف والبطلان والبدع ــ على العلماء وهـــو ينحى باللائمة على المتشددين من العلماء مثلما يحمل فى شدة على المتهادنين منهم فلا تفريط ولا افراط • ففى الحديث هلك المتنطعون أى المتشددون فى الدين •

وعند بدء الاجتماع الخامس للجمعية قرر رئيسها تفويض لجنة لوضع مشروع قانون لجمعية دائمة واقترح ان ينضم لعضـــوية هذه اللجنة من له خبرة من الأعضاء بقوانين الجمعيات العلمية ونظمها وعين لوظيفة سكرتير هذه اللجنة السيد الفراتى وضمت العضـــو الهندى والتركي والمصرى والعضو المسلم من بلاد الانجليز •

ثم تمضي الجمعية في مناقشاتها تاركة للجنة المتفرعة عنها أن تحدد مواعيد اجتماعاتها الخاصة . ويمضي الكواكبي يقص علينا على لسان العضو النجدي (من أهل نجد) كيف أن أصول الدين الاسلامي بل بعض فروع الشريعة الاسلامية متفق عليها لأن لهنا في القرآن والسنة أحكاما صريحة قطعية الثبوت . أما الخلافات فهي في فروع تلك الأصول وفي بعض الأحكام التي ليس لها في القرآن أو السنة نصوص صريحة .

ونجد الكواكبي يثني الثناء كله على أهل الجزيرة العربية الذين ما زالوا على مذهب السلف في الدين بعيدين عن التفنن فيه يتبعون أصول اجتهاد الامام زيد بن علي زين العابدين (الزيديين) أو أصول الامام أحمد بن حنبل ويمدح العلماء عند أهل الجزيرة فالعالم عندهم من اتصف بصفات خمس : الماما باللغة العربيــة المضرية القرشية ، قارئا لكتاب الله تعالى قراءة فهم متعمقا في معانيه متضلعا في السنة النبوية ، واسع الاطلاع وصاحب عقل سـليم فطرى لم يفسد ذهنه المنطق والجدل والفلسفة اليونانية وما اليها وهم (العلماء) لا يقلدون الا بعد الوقوف على دليل من يقلدون يأخذون من القرآن احكامه ثم ما لم يجدوه في كتاب الله أخذوه من صحيح سنة رسول الله . فاذا لم يجدوا في المسألة حديثا أخذوا باجماع علماء الصحابة .

والكواكبي فيما يقول متفق تماما مع ما جاء به ابن تيميه الذي رأى ان الشريعة الاسلامية أصلها القرآن والسنة ورأى أن ترجع أحكام الشريعة اليهما وحدهما دون غيرهما فان لم يوجد في الكتاب والسنة ففي أقوال الصحابة والتابعين . وكان يرى الاقتصاد على طبقات ثلاث بعد النبي هي طبقة الصحابة وتابعيهم ثم تابعي التابعين فقط دون غيرهم .

وإذا كان ابن تيميه قد قال بأنه لا ينبغي ان نقلد اماما في موضع سنة عرفناها وأورد قول الإمام مالك انما أنا بشر أصيب وأخطيء ، كذلك قال الكواكبي (وهو يثني على أهل الجزيرة العربية حيث يرفض العلماء ان يفتوا في مسألة مطلقا ما لم يذكروا معها دليلها من الكتاب أو السنة أو الاجماع) ـ أن الامام مالك رضي الله عنه كان يقول ما من أحد الا وهو مأخوذ من كلامه ومردود عليه الا رسول الله ٠

وأورد الكواكبي عبارة قالها ابن تيميه للامام الشافعي هـذا رأيي فان صح الحديث فاضربوا بقولي عرض الحائط ٠ كما أورد عبارات لابن حنبل وأبي حنيفة يدعوان الناس فيها الى أن يكون أساسهم القرآن والحديث ٠

ويخلص الكواكبي من ذلك مثلما خلص ابن تيمية الى أن الشريعة الاسلامية أصلها القرآن وان نبي هذه الامة قد فسر القرآن وان الذين تلقوا ذلك التفسير هم الصحابة ثم نقلوها الى التابعين٠

كان الكواكبي في بحثه ذلك يريد القول ان الدين الاسلامي ينبغي أن ينقى من كل ما علق به من شوائب ومن كل مادخله من بدع واضاليل من جانب أقوام أصبحوا أصحاب طرق دينية وصوفية أساءوا الى هذا الدين ولم يفيدوه في شيء ٠

والكواكبي حين يحمل على الطرق الصوفية لا يكره التنسك الذي كان شيمة لأكثر الصحابة والتابعين وانما هو يحمل على هؤلاء الذين اتخذوا من التصوف مهنته واستغلوا جهل العامة فأصبح لهم (لأصحاب الطرق الصوفية) مقاما كمقام النبوة بل الالوهية بما ادعوه من قوة قدسية وتصرف في ملكوت الله ٠ وأتوا بخزعبلات وتأويلات وخيالات وأوهام وألفوا الكتب الكثيرة المحشوة بالأكاذيب والقضايا والتركيبات الغير مفهومة ٠

يرى الكواكبي ان الاسلامية كانت سمحاء خالصة من شوائب الزوائد والتشديد لأن الاسلامية التي هي أحكام القرآن وما ثبت من السنة وما اجتمعت عليه الأمة في الصدر الأول ليس فيها ما يأباه عقل أو يناقضه تحقيق علمي • ثم هـــو يقول لو فهمنا الدين الاسلامي على بساطته لم نصل الى اصلاح حالنا فحسب ، بل لجذبنا اليه كثير من غير المسلمين المتنورين الاحرار فجعلناهم يتبعون هذا الدين وحفظنا كثيرا من أبناء المسلمين من هجرهم لهذا الدين الذى أسأنا اليه لتشددنا تشديدات مبتدعة •

ثم هو يورد بحثا تاريخيا على لسان العضو التبريزى (من تبريز) يوضح ان الاسلام تعرض لفتنتين كبيرتين : الأولى التنازع على الخلافة والملك فتفرق المسلمون فى الدين لتفرقهم فى السياسة وهو بهذا يشير الى الفتنة التى بدأت تواجه المسلمين بعد مقتـــل عثمان والصراع بين أنصار على ومعاوية •

أما الفتنة الثـــانية فهى ما شهده المسلمون على عهـد الخلافة العباسية حين اتسعت شقة الخلاف فى المذاهب بين المسلمين حتى استحال الرجوع الى الفروع ولا الى الاصول فاطمأنت الامة الى التقليد وصار أبناؤها يحسنون الظن فى كل ما يجدونه مدونا بين دفتى الكتاب لأنهم رأوا التسليم أهون من التبصر وصار أهل كل اقليم يتعصب لمؤلفات شيوخهم ويتخذون الخلافات مدارا لتطبيق الاحكام على الهوى • وأصبح اختلاف الامة سببا للتفرقة الدينية والتباغض بين المسلمين •

وما أسوأ التعصب وما أضره على الاسلام والمســلمين ، يرى الكواكبى ان التعصب هو آفة الآفات لهذه الامة الاسلامية فقـــد خالف المسلمون قول الله تعالى أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه •ويدعو الكواكبى علماء الهداية والمخلصين لدينهم أن يقاوموا فكرة التعصب

لمذهب دون الآخر فيكون سعيهم منتجا للتأليف وجمع الكلمة في الأمة .

ويبدأ الأعضاء منذ اجتماعهم السابع في الاستماع الى تلخيص للأسباب التى أبدوها لفتور الأمة الاسلامية يقوم بالقائها السيد الفراتى (كاتب الجمعية) .

ويرجع الكواكبى الاسباب الى أمور دينية وأخرى خلقية وثالثة سياسية . وكل سبب من هذه الاسباب منها أصول وفروع ترمز للأصول بحرف أ وللفروع بحرف الفاء من الأصول في الأسباب الدينية .

١ ــ تأثير عقيدة الجبر على أفكار الامة .

٢ ــ تأثير فتن الجدل في العقائد الدينية .

٣ ــ الاسترسال للتخالف والتفرق في الدين .

٤ ــ الذهول عن سماحة الدين وسهولة التدين به .

٥ ــ تشديد الفقهاء المتأخرين في الدين خلافا للسلف .

٦ ــ ادخال العلماء المدلسين والمغايرية على العامة كثيرا من الأوهام .

٧ ــ ادخال العلماء المدلسين على الدين مقتبسات كتابية وخرافات وبدعا مضرة .

٨ ــ ايهام الدجالين والمداجين ان في الدين أمورا سرية وأن العلم حجاب .

٩ ــ اعتقاد منافاة العلوم الحكمية والعقلية للدين .

١٠ ــ الغفلة عن حكمة الجماعة والجمعة وجمعية الحج .

ومن الفروع في هذا الباب

١١ ــ تهوين غلاة الصوفية الدين وجعلهم اياه لهوا ولعبا .

١٢ ــ افســاد الدين بتفنن المداجين بمزايدات ومتروكات وتأويلات .

١٣ ــ التعصب للمذاهب ولآراء المتأخرين وهجر النصوص ومسلك السلف .

١٤ ــ العناد على نبذ الحرية الدينية جهلا بميزتها .

١٥ ــ تطرق الشرك الخفى أو الصريح الى عقائد العامة .

وأما الأسباب السـياسية فتتضمن مسائل أساسية (أصولا) وأخرى فروعا فمن الأصول :

١ ــ السياسة المطلقة من السيطرة والمسئولية .

٢ ــ حصر الاهتمام السياسى بالجباية والجندية فقط

٣ ــ اعتبار العلم عطية يحســن بها الأمراء على الأخصــاء وتفويض خدم الدين للجهلاء .

٤ــ قلب موضوع أخذ الاموال من الاغنياء واعطائها للفقراء (يقصد الكواكبى بذلك عدم الاخذ بتشريع الزكاة فانقلبت الآية فأصبحت الاموال تؤخذ من الفقراء لتعطى للأغنياء) .

٥ ــ ابعــاد الأمراء والنبـلاء والأحـرار وتقريبهم المتملقين والأشرار .

ومن فروع هذا الباب

١ ــ فقدان قوة الرأى العام بالحجر والتفريق .

٢ ــ مراغمة الامراء السراة والهداة والتنكيل بهم .

٣ ــ فقدان العدل والتساوى فى الحقوق بين طبقــات الأمة .

٤ ــ ميل الامراء طبعا للعلماء المدلسين وجهلة المتصوفين

ثم تأتى بعد ذلك الأسباب الخلقية :

من الأصول :

١ ـ الاستغراق فى الجهل والارتياح اليه

٢ ـ انحلال الرابطة الدينية والاحتسابية

٣ ـ التباعد فى المكاشفات والمفاوضات فى الشئون العامة ·

٤ ـ فقدان التناصح وترك البغض فى الله ·

ومن الفروع :

١ ـ غلبة التخلق بالتملق تزلفا وصغارا ·

٢ ـ اهمال طلب الحقوق العامة جنبا وخوفا من التخاذل

٣ ـ فساد التعليم والوعظ والخطابة والارشاد ·

ولم نشأ ان نأتى بحصر شامل بكل ما ذكره الكواكبى من أسباب سـواء ما جاء منها فى باب الأصول أو الفروع وانمـا اكتفينا بذكر بعضها تمشيا مع ما مضينا فيه من الحديث فى هـذا الفصل وهو عرض شامل وعام لكتاب أم القرى ونحيل القـارىء الكريم للرجوع الى هذا الكتاب كى يلم بكل الاسباب التى جـاء بها الكواكبى ولخص فيها أسباب الانحطاط النازل بالأمة الاسلامية·

وبعـد أن عرض الكواكبى لهـذه الأسباب تنـاول بالذكر والتخصيص دور العثمانيين فى تدهور الأمة الاسلامية ·

انتقد الكواكبى فى شدة سياسة الدولة العثمانية وادارتها لاقاليمها ، فهو يرى أن الخلل جاء للدولة فى الستين سنة الاخيرة (السابقة على وضعه لكتابه) وذلك حين اندفعت الدولة لتنظيـم أمورها فهو يرى أن الدولة عطلت أصولها القديمة ولم تحسـن التقليد · ونراه فى موضع آخر من كتابه يحمل على التنظيمـات الخيرية (وهى المراسيم السلطانية التى صدرت على عهد السلطان عبد المجيد سنة ١٨٥٦ على زعم أنها حركة اصلاحية أقدمت عليهـا

الدولة » • فهو يرى ان الدولة العثمانية بعد صدور هذه التنظيمات اطلقت يد الولاة في الاقاليم وتعمدت ان تختار لحكم هذه الاقاليم الولاة الذين لا يحبهم المحكومون حتى لا يتفق هؤلاء الولاة مع من ولوا عليهم ضد الدولة •

وللكواكبي رأيه المعروف في العثمانيين فهو يحمل عليهم لأنهم هضموا حقوق العرب في المناصب برغم أنهم يكونون ثلثي الدولة ويرى ان العثمانيين فشلوا سياسيا واداريا بسبب الاظر ـ الكثيرة لهم وللشعوب التي يحكمونها من اصرارهم على اتباع قوانين موحدة في الادارة والعقوبات بالرغم من تباين الاجناس في الدولةواختلاف طبائعها وعاداتها • وهم يتبعون السياسة المركزية مع ما فيها من الاضرار ويضعون من القوانين ما يتعارض مع أصول الشرع الاسلامي • ومن أشد الأمور التي جعلت الكواكبي ينتقد السياسة العثمانية اتباعها لسياسة الكبت والاستبداد فهو يرى ان الضغط يولد الانفجار وينتج عنه الحقد على الادارة (١) وهو يرى أن العثمانيين يديرون الدولة ادارة مداراة واسكات للمطلعين على معايبها حذرا من أن ينفثوا ما في الصدور فتعلم العامة حقائق الامور « والعامة من اذا علموا قالوا ، واذا قالوا فعلوا وهناك الطامة الكبرى » •

وبعد أن يعرض السيد الفراتي هذه النواحي في سياسة الدولة العثمانية على أعضاء الجمعية يضيف اليها أسبابا أخرى شتى يرى ان لها دورها في تدهور أمور المسلمين على عهد العثمانيين منها عدم تطابق الأخلاق بين الرعية والرعاة وعدم الاعتناء بتعليم النساء •

---

(١) كان انتقاد الكواكبي لسياسة الاستبداد التي اتبعتها الدولة العثمانية وأفعاله دائما له لوضع كتاب طبائع الاستبداد على نحو ما سنتناول وذلك فيما بعد•

وكان الحض على تعـليم المـرأة من أهم الأمـور التى عالجها الكواكبى فى الناحية الاجتماعية وجاءت دعوته سابقة على كل من جاءوا بعده يدعون لتعليم المرأة الشرقية فى العصرالحديث : « ان لانحلال أخلاقنا سببا مهما آخر يتعلق بالنساء وهو تركهن جاهلات على خلاف ما كان عليه أسلافنا حيث كان يوجد فى نسـائنا كأم المؤمنين عائشة رضى الله عنهـا التى أخذنا عنها نصف علوم ديننا وكمئات من الصحابيات والتابعيات راويات الحديث ٠٠ ففى ذلك حجة دافعة ترغم أنف غيرة الذين يزعمون أن جهل النســاء أحفظ لعفتهن فضلا عن أنه لا يقوم لهم برهان على ما يتوهمون حتى يصح الحكم ان العـلم يدعو للفجور وان الجهل يدعو للعفة ٠ نعم ربما كانت العالمة أقدر على الفجور من الجاهلة ولكن الجاهلة أجسر عليه من العالمة ٠ ثم ضرر جهل النساء وســوء تأثيره فى أخلاق البنين والبنات أمر واضح غنى عن البيان » ٠

ويرى الكواكبى ان أحد الاسباب الرئيسية فى فشـــل العثمانيين فى مجال السياسة هو عدم تجنسهم بجنسية رعاياهم ولما كانت غالبية هذه الرعية عـــربا فانه كان الواجب على الأتراك أن يســتعربوا مثلما فعل آل محمد على وغيرهم ٠ ويورد بعضـا من الفاظ السباب التى يطلقها الاتراك على العرب الذين لايقابلون ذلك سوى بجملة جمعت فوعت » ثلاث خلقن للجور والفساد : القمل والترك والجراد ٠

ونراه حريصا قبل أن ينهى أعمال جمعيته على سرد شيئـا من سيرة العثمانيين تجاه الدين الاسلامى والامم الاسلامية ويورد ذلك فى شكل رسالة جاءت للفراتى (كاتب الجمعية) من عضوهـا الهنـدى يسرد هذا العضـو على الفراتى مناقشة دارت بينه وبين صديق له من أحد أمراء المسلمين ٠ ويروى هذا الصديق على العضو

الهندى ما فعله العثمانيون فى الاسـلام والمسلمين وكيف انهم فضلوا الملك على الدين .

« وأما سلاطين » آل عثمان الفخام فانى أذكر لك نموذجا من أعمال لهم أتوها رعاية للملك وان كانت مصادمة للدين فأقول هذا السلطان محمد الفاتح وهو أفضل آل عثمان قد قدم الملك على الدين فاتفق سرا مع (فرديناند) ملك (الاراغون) الاسبانيولى ثم مع زوجته (ايزابلا) على تمكينهما من ازالة ملك بنى الاحمر آخر الدولة العربية فى الاندلس .. وهذا السلطان سليم غدر بآل العباس واستقصاهم حتى انه قتل الأمهات لأجل الاجنة **وبينما كان هو يقتل العرب فى الشرق** كان الاسبانيون يحركون بقيتهم فى الاندلس .. وقد سعوا (العثمانيون) فى انقراض خمسة عشر دولة وحكومة اسلامية منها انهم أغروا واعانوا الروس على التتار المسلمين وهولانده على الجاوة والهولنديين وتعاقبوا على تدويخ اليمن فأهلكوا الى الآن عشرات الملايين من المسلمين .. » .

وقبل أن تنهى جمعية أم القرى اجتماعها أقرت قانونا بانشاء جمعية تعرف بجمعية تعليم الموحدين من مائة عضو منهم عشرة عاملون وعشرة مستشارون وثمانون فخريون واشترط فى الأعضاء العاملين والمستشارين عدة صفات أهمها المقدرة على التكلم والكتابة بالعربية . ومهمة الجمعية الا تتدخل فى السياسة وانما مهمتها تعليم القراءة والكتابة والترغيب فى العلوم **واصلاح أصول تعليم اللغة العربية .**

وكان الكواكبى يرى ان أحد أسباب اعراض الناس عن تعلم اللغة العربية هو سوء الكتب الموضوعة لهذا الغرض والمحشوة بأشياء صعبة على المبتدىء فى تعليم هذه اللغة . وللجمعية مهمتها فى المجال الدينى وهو نشر بحوث شهرية فى الأمور الدينية تستهدف تعليم المسلمين أصول دينهم الصحيح وبين السلف الصالح

وتهتم الجمعية بإعداد تلامذتها كي يكونوا مرشدين ومبعوثين في البلاد الاسلامية المختلفة . (١)

وبعد انتهاء جمعية أم القرى من اقرارها لانشاء جمعية تعليم الموحدين اتخذت عدة قرارات سرية ولم تدع من قراراتها سوى قرار واحد هو في نظرنا من أهم الامور التي نادى بها الكواكبي .

ينادي الكواكبي على لسان جمعيته بأن **الجزيرة العربية وأهلها هما مناط الامل في النهضة الدينية** . نفس الجزيرة العربية وهي مشرق النور الاسلامي الكعبة المعظمة التي يحج اليها المسلمون من كل فج عميق وان دين أهلها هو الدين الحنفي السلفي البعيد عن التشويش .

وبعد أن يثني الكواكبي على عرب الجزيرة لحرصهم على الدين والحرية والاستقلال يثني الثناء كله على العرب فلغتهم أغنى لغات المسلمين في المعارف مصونة بالقرآن الكريم والعرب أقدم الأمم اتباعا لأصول تساوي الحقوق وأعرفهم في أصول الشورى وأنسب الأقوام لأن يكونوا مرجعا في الدين . فلهذه الأسباب قررت جمعية أم القرى أن تعتبر العرب هم الوسيلة الوحيدة لجمع الكلمة الدينية بل الكلمة الشرقية .

وحين يخلص الكواكبي من جمعيته التي تخيل عقدها من ممثلين للأمة الاسلامية على أن العرب هم خير من ينبغي أن يئول اليهم أمر هذا الدين والحفاظ عليه يرى ان يكون الخليفة الاسلامي عربيا قرشيا كسابق عهده في صدر الاسلام فلما خرج الامر من العرب صار الأمر الى غير أهله واعوج أمر المسلمين .

وتلك كانت أعظم ما دعا اليه الكواكبي . فهو يدعو العرب الى اليقظة وان ينهضوا ليباشروا أمور الدين الاسلامي ، وكأنه

---

(١) أخذ رشيد رضا بنفس الفكرة وأسس مدرسة للدعوة والارشاد سنة ١٩١٢ في القاهرة .

يريد أن يقول لهم ان هذه هى رغبة المسلمين فى كل أنحـاء العالم فكونوا عند حسن ظنهم ولا تتركوا أمور الدين لغيركم فالاتراك قد ضيعوا الدين وأهله « أليس الترك قد تركوا الأمة أربعة قرون ولا خليفة وتركوا الدين تعبث به الاهواء ولا مرجع وتركوا المسـلمين صما بكما عميا ولا مرشد » ٠

وقال الكواكبى أنه غير متعصب للعرب انما يرى ما يراه كل حر مدقق يتفحص الامر ويصل الى العلاج ، ولا علاج الا بأن يناط بالعرب مهمة حماية الدين الاسلامى وزعامة أمر المسلمين ٠

وسيظل التاريخ يذكر ان دور الكواكبى كان عظيمـا فى نفوس ناشئة العرب قبل ثورة ١٩٠٨ وما بعدها اذ كان شـباب العرب يتهافتون على كتابيه أم القرى وطبـائع الاستبداد ويقبلون عليهما اقبال الظمآن على المـاء القراح ويتخذونهما انجيلا لنهضـة العرب الاصلاحية ٠

الفصل السادس

الكواكبي والاستبداد

من المعروف أنه ما كاد الكواكبى يترك حلب مسقط رأســه ليستقر به المقام فى مصر حتى بدأت الصحف فيها وفى مقدمتها المؤيد تنشر مقالاته التى حمل فيهـا على الاستبداد ودعاته · لقد آلى الكواكبى أن يكون حربا عوانا على المستبدين من حكام المسلمين وفى مقدمتهم بطبيعة الحال خليفة المسلمين أمثال السلطان عبد الحميـد الثانى · فلم يعرف التاريخ الحديث عهدا شهدت فيه البلاد العربية خنقا للحريات ولا استبدادا أسوء مما كان فى عهده ·

هاجم الكواكبى المستبدين وطريقتهم وفلسفتهم فى الحكم واذا كان الكواكبى قد اطلع صـديقه وصفيه كامل الغزى على مشروع كتابه الذى أســماه أم القرى وأنه (الغزى) كان يعرف أنه جدير بالنشر ، فان الكواكبى لم يطلعه على كتابه طبائع الاستبداد · يقول الغزى وبعد أن أمضى على مبارحته حلب نحو بضعة عشر يوما لم نشعر الا وصدى مقالاته فى صحف مصر ، وأخذت جريدة المؤيد تنشر له تفرقة « كتاب طبائع الاستبداد » الذى لم يطلعنا عليه مطلقا بخلاف كتاب جمعية ام القرى فقد اطلعنا عليه مرارا · ثم انه طبع الكتابين المذكورين وقام لهما فى (المابين) (١) الســلطانى ضجة عظيمة ،

---

(١) كان السلطـان عبد الحميد الثانى بعد أن سرح مجلس المبعـوثين سنة ١٨٧٨ وعطل العمل بالدستور قد جعل ديوانه فى قصر يلدز الفخم وحشد فيــه مستشاريه ومرافقيه وهذا الديوان كان يقوم صلة الوصل بينه وبين الباب العالى=

وصدرت ارادة السلطان بمنع دخولهما الى الممالك العثمانية ، بيد أنهما رغما عن ذلك كله وصلا الى حلب على صورة خفية وقرأناهما فى سمرنا المرة بعد المرة ٠

ويذكر الأستاذ ابراهيم سليم النجار فيما كتبه عن الكواكبى أنه (الكواكبى) تعرف بالأستاذ على يوسف فى مصر والسيد رشيد رضـــا صاحب مجلة المنار فتمكنت بينهما روابط الصداقة والمودة « فكنا نجتمع كل مساء فى حلقتنا المعروفة فى القاهرة » (١) ٠

كان هذا اللقاء يتم فى مقهى سبلندوبار بالقاهرة حيث كان يضم هذا الملتقى عددا من الأخوان السوريين الذين جاءوا الى مصر قبل الكواكبى وبعده وكان فرارهم الى مصر من أجـــل العمل على تخليص بلادهم من الحكم العثمانى المستبد ٠

لقد استهدف الكواكبى من كتابه ، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد ، أن تكون صيحة تفعل فعلها فى ايقاظ النفوس وبث الهمم وكان يوقن ان اليقظـة العربية لا تتم بين يوم وليـــلة وانما تحتاج الى وقت من الزمن فما على المصلحين الا أن يبذروا ليجنى من يأتى بعدهم ثمار غرسهم ٠ وهذا ما قصده الكواكبى من تلك الكلمة التى وصف بها كتابه طبائع الاستبداد « وهى كلمات حق وصيحة فى واد ، ان ذهبت اليوم مع الريح ، لقد تذهب غدا بالأوتاد » ٠

كان الكواكبى يستهدف أن تدفع كلماته الزعماء والمصـلحين للأخذ بيد الأمة للنهوض بها يعلمونها بحالتها السيئة وانه بالامكان تبديلها بخير منهـــا ، فاذا هى علمت يبتدأ فيهـــا الشعور بآلام الاستبداد ، ثم يترقى هذا الشعور بطبعه من الآحاد الى العشرات ٠٠

= (مجلس الوزراء) فسمى بالمابين اختصارا للفظة العربية ما بين السلطان والباب العـــالى ٠

(١) مجلة الحديث سنة ١٩٤٠ العدد الخامس ٠

حتى يشمل أكثر الأمة وينتهى بالتحسس ويبلغ بلســـان حالها الى منزلة قول الحكيم المعرى ٠

اذا لم تقم بالعدل فينا حكومة

فنحـــن على تغيـــيرها قدراء

أى أن الكواكبى كان يؤمن ان كلماته وان لم تفعل فعلها فى زمنه فان الأيام كفيلة لها بأن تفعل فعلهـــا وان تحقق ما رماه من ورائها ، « وهكذا ينقذف فكر الأمة فى واد ظاهر الحكمة يســير كالسيل لا يرجع حتى يبلغ منتهاه » ٠

وكان ما ارتآه الكواكبى وحدثت تطورات كثيرة بعد موته لكنها بفضله ٠ فى سنة ١٩٠٨ أجبر السلطان عبد الحميد على اعادة العمل بالدستور (١٩٠٨) فلما حاول أن ينكث بيمينه الذى أقسمه على عدم ابطال الدســتور ، انتهى الأمر بخلعه عن العرش (١٩٠٩) ٠ وكان للعرب فى كل من الحركتين دور كبير وفضــل بارز ٠ فلما انقلب الاتحـاديون على العرب ومضـــوا يتبعون سياسة التتريك تحرك الثوار العرب تارة بالمؤتمرات وأخرى بالجمعيات ٠ ثم كانت المشانق التى علقها جمال باشا (السفاح) ابان الحرب العالمية الاولى لزعماء الحـركة العربية ايذانا بانفجـار الموقف ٠ فلقد ظلت كلمات عبد الغنى العريسى وهو يصعد الى المشنقة تتردد فى آذان العرب ٠ « بلغوا جمال باشا ان الملتقى قريب وان أبناء الرجال الذين يقتلون اليوم سيقطعون فى المستقبل بسيوفهم أعناق أبنائك الأتراك ٠ ان الدول لا تبنى على غير الجمــاجم ٠ وان جماجمنــا ســتكون أساسا لاستقلال بلادنا » ٠

وزادت الهوة عمقا وبعدا بين العرب والترك ٠ وأخذ أعضــاء الجمعيات العربية ممن لم يكتشف أمرهم يتصلون بالشريف حسين

شريف مكة يتداولون معه فى الأمر ويعدون العدة لثورة مقبلة تحدد الموقف · ثم كانت الثورة العربية ابان الحرب العالمية الأولى والتى أثرت على مجرى الأحداث تأثيرا كبيرا وآذنت بانفصام عرى وحدة سياسية جمعت بين العرب والأتراك فى امبراطورية واحدة أكثر من ستة قرون ·

كانت صيحة الكواكبى اذا حين تصدى لاستبداد الأتراك بداية صرخة كبرى فى وجه الظلم والطغيان الذى شهدته البلاد العربية على عهد العثمانين ·

يبدأ الكواكبى كتابه طبائع الاستبداد بعد حمد الله والصلاة على نبيه أنه حين جاء الى مصر وجد أفكار سراة القوم فيها كما فى سائر الشرق تبحث فى أسباب انحطاط المسلمين وماهو الدواء · واذا كانت الأفكار قد ضلت فى معرفة السبب وبالتالى فى ذكر العلاج فان الكواكبى يبادر للقول ان الاستبداد السياسى هو أصل الداء ويؤكد انه لم يذكر ذلك الا بعد بحث جاوز الثلاثين عاما ودراسة وتمحيص كادت تكلفه حياته · وأنه حين جاء الى مصر نشر الأبحاث فى هذا المجال فى أشهر جرائدها ثم جمعها فى كتاب فلما عاد من رحلته الى البلاد العربية وجد الكتاب قد نفد فى برهة قليلة فلما انتهت أسفاره (١٩٠٢) وجاء الى مصر أعاد النظر فى كتابه فزاد فيه واختصر · كما يؤكد أنه لم يقصد حكومة معينة وانما قصد التنبيه الى مورد الداء الدفين فى أمته العربية عسى أن يعرف الذين قضوا نحبهم أنهم هم المتسببون لما حل بهم ، فلا يعتبون على الأغيار ولا على الأقدار وانما يعتبون على الجهل وفقد الهمم والتواكل وعسى الذين فيهم بقية رمق من الحياة يستدركون شأنهم قبل الممات ·

ويبدأ الكواكبى مقدمة كتابه بذكر أهمية بحثه هذا فليس للعرب فى ماضيهم أبحاث مستقلة فى السياسة على عكس الأمم

الأوربية . واذا استثنينا بعض ماكتبه ابن خلدون أو رفاعة الطهطاوى وخير الدين التونسى فانه يمكن القول ان جهود العرب فقيرة فى هذه الناحية . ويدعو الكواكبى الى البحث فى موضوع الاستبداد ما هو وما أسبابه ثم ما اعراضه وما هو علاجه . وتلك هى العناصر الرئيسة فى كتابه .

يعرف الكواكبى الاستبداد لغويا بأنه غرور المرء برأيه والأنفة عن قبول النصيحة . ثم هو فى اصطلاح السياسيين تصرف فرد أو جمع فى حقوق قوم بالمشيئة وبلا خوف تبعة . ثم هو يقصر وصفه للاستبداد على الحكومة المطلقة العنان فعلا أو حكما التى تتصرف فى شئون الرعية كما تشاء بلا خشية حساب ولا عقاب . وأشد مراتب الاستبداد عند الكواكبى هى حكومة الفرد المطلق الوارث للعرش القائد للجيش الحائز على سلطة دينية ويرى أن دعائم الحكم المستبد جهل الأمة وجند الحاكم وجيشه ثم يورد بعض أقوال الحكماء فى وصف الاستبداد ومن ذلك قولهم .

المستبد يتحكم فى شئون الناس بارادته لا بارادتهم ويحكمهم بهواه لا بشريعتهم ويعلم من نفسه أنه الغاصب المعتدى فيضع كعب رجله على أفواه الملايين من الناس يسدها عن النطق بالحق والتداعى لمطالبته .

المستبد عدو الحق وعدو الحرية وقاتلهما والحق أبو البشرية والحرية أمهم والعوام صبية أيتام نيام لا يعلمون شيئا والعلماء هم أخونهم الراشدون ..

المستبد يتجاوز الحد مالم ير حاجزا من حديد فلو رأى الظالم على جنب المظلوم سيفا لما أقدم على الظلم كما يقال : الاستعداد للحرب يمنع الحرب .

المستبد انسان مستعد بالطبع للشر وبالالجاء للخير فعلى الرعية أن تعرف ماهو الخير وماهو الشر فتلجىء حاكمها للخير رغم طبعه.

المستبد يود أن تكون رعيته كالغنم درا وطاعة وكالكلاب تذللا وتحلقا وعلى الرعية أن تكون كالخيل ان خدمت خدمت وان ضربت شرست وعليها ان تكون كالصقور لاتلاعب ولا يستأثر عليها بالصيد كله .. **نعم على الرعية أن تعرف مقامها هل خلقت خادمة لحاكمها تطيعه ان عدل أو جار وخلق هو ليحكمها كيف شاء بعدل أو اعتساف أم هي جاءت به ليخدمها لا ليستخدمها .**

وبعد أن يذكر الكواكبي أقبح أنواع الاستبداد في نظره وهي استبداد الجهل على العلم واستبداد النفس على العقل ، يذكر فضل الهجرة فرارا من الاستبداد . وكأنه يريد أن يقول لبني قومه ان ضاقت عليكم أرضكم باستبداد السلطان عبد الحميد وتجبره فان أرض الله واسعة (ولاشك في ان اعانة الظالم تبدأ من مجرد الاقامة في أرضه » .

(ما أليق بالأسير في أرض أن يتحول عنها الى حيث يملك حريته فان الكلب الطليق خير حياة من الأسد المربوط » .

ويتحدث الكواكبي في الفصل الثاني من كتابه عن « الاستبداد والدين » فيفضح تستر المستبد تحت راية الدين وزعمه الغيرة عليه . ويرى ان عدم فهمنا الدين فهما صحيحا أمر يجعلنا نعين المستبد على استبداده . ونمكنه من أن يتخذ لنفسه بطانة من خدمة الدين يعينونه على ظلم الناس باسم الله . ويخلص الى ان بين الاستبداد السياسي والديني مقارنة وتلازم متى وجد أحدها في أمة جر اليها الآخر أو متى زال زال رفيقه . ولذى يرى كل المدققين السياسيين أن السياسة والدين يمشيان متكاتفين ويعتبرون ان اصلاح الدين هو أسهل وأقرب طريق للاصلاح السياسي ؛ وجاء

الاسلام بعد اليهودية والنصرانية هادما للشرك واضعا لأسس الحرية السياسية وكان الحكم على عهد الخلفاء الراشدين الذين فهـموا معنى ومغزى القرآن الكريم حكما قائما على المساواة والمشـورة . ساوى الخلفاء الراشـدون بين انفسهم وبين فقراء الأمة فى نعيم الحياة وشظفها . كما اتسم حكمهم بالمشورة التى دعا اليها كتاب الله الحكيم . فالقرآن ملء بالآيات التى تميت الاستبداد فى الرأى « يا أيها الملأ افتونى فى أمرى ماكنت قاطعة أمرا حتى تشهدون » « وقال الملأ من قوم فرعون ان هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون ؟ قالوا ارجه واخاه وارسل فى المدائن حاشرين يأتوك بكل ساحر عليم : « وشاورهم فى الأمر » ويقول الكواكبى :

ولولا حلم الله لخسـف الأرض بالعرب حيث ارسـل لهم رسولا من أنفسهم اسس لهم أفضـل حكومة آسست فى الناس جعل قاعدتهـا قوله صلى الله عليه وسلم كلكم راع وكلكم مسئول عن رعية أى كل منكم سـلطان عام ومسـئول عن الأمة فجاء من المنافقين من حرف المعنى عن ظاهره وعموميته الى أن المسلم راع على عائلته ومسئول عنها فقط ... وكأن المسلمين لم يسـمعوا قول النبى عليه السلام : الناس سواسية كاسنان المشط لافضل لعربى على عجمى الا بالتقوى . ومن هذه الأقوال السـابقة يرى الكواكبى ان الدين الاسلامى هو دين العدل والمساواة والقسط والاخاء جعل اصول الحكم الشورى والاريستوقراطية أى شـورى أهل الحل والعقـد وجعل أصـول ادارة الأمة التشريع الديمـوقراطى أى الاشتراكى .

ثم جاء من المسلمين من أخذوا من ليس فى دينهم فاقتبسوا التعظيم وطاعة الكبراء وحاكوا مظاهر القديس وقلدوا رجال الكهنوت فى مراتبهم وتميزهم فى البستهم وشعورهم . وبذلك فتحوا الباب للاستبداد وهيئوا الطريق للاستعباد .

ثم ينتقل الكواكبى الى قسم أو فصل آخر من كتابه بعنوان :
الاستبداد والعلم :

يحسن الكواكبى ويجيد الاجادة كلها حين يصف المستبد وسلوكه مع أمته التى هم قيم عليها : ما أشبه المستبد فى نسبته الى رعيته بالوصى الخائن القوى يتصرف فى أموال الأيتام وأنفسهم كما يهوى ما داموا ضعافا قاصرين ، فكما أنه ليس من صالح الوصى أن يبلغ الأيتام رشدهم ، **كذلك ليس من غرض المستبد أن تتنور الرعية بالعلم .**

ثم يعرف العلم بأنه « قبسة من نور الله وقد خلق الله النور كشافا مبصرا ولادا للحرارة والقوة ، وجعل العلم مثله وضاحا للخير فضاحا للشر يولد فى النفوس حرارة وفى الرءوس شهامة . العلم نور والظلم ظلام ومن طبيعة النور تبديد الظلام » .

المستبد اذا فى رأى الكواكبى للعلم بالمرصاد يحاربه ويتصدى له ، واهم ما يخشاه المستبد علوم الحياة مثل الحكمة النظرية والفلسفة العقلية وحقوق الأمم وطبائع الاجتماع والتاريخ والسياسة ونحو ذلك من العلوم التى تعرف الانسان حقوقه . والمستبد وهو يخشى هذه العلوم يخاف من اصحابها العلماء العاملين الراشدين المرشدين لا من العلماء المنافقين .

وكأنى بالكواكبى يريد ان يقول للعلماء على عهد السلطان عبد الحميد : لقد اندس فى صفوفكم الكثير من المنافقين الذين تملقوا السلطان فأصبح لا يخشاهم ولا يخاف بأسهم ، هم يتملقونه بما يخلعونه عليه من ألقاب وهو يقابل ذلك بانعاماته عليهم (١) .

---

(١) سبق ان اشار لذلك الكواكبى فى كتابه أم القرى .

والمستبد لا ترتاح نفسه لأن يرى وجه عالم عاقل وانما يختار الغبى المتصاغر المتملق ·

وما أصدق الكواكبي حين يقول ان بين الاستبداد والعلم حربا دائمة وطرادا مستمرا ، يسعى العلماء فى تنوير العقول ويجتهد المستبد فى اطفاء نورها وكلاهما يتجاذبان العوام الى طرفهما ، فالعوام هو قوت المستبد وقوته اذا أفلتوا منه بالعلم خسر كل شيء ذلك لأنهم حين يتعلمون يفهمون حقيقة الحرية والعزة والشرف فلا سبيل الى العبودية والاستبداد ·

ويصف خوف المستبد من رعيته فيرى ان خوف المستبد من نقمة رعيته أكثر من خوفهم بأسه ، لأن خوفه ينشأ عن علمه بما يستحقه منهم وخوفهم ناشيء عن جهل ، وكلما زاد المستبد ظلما واعتسافا زاد من خوفه من رعيته وحتى من حاشيته ، فالحاشية مطلعة على ظواهر المستبد وخفاياه ولذا فهى أكثر الناس تعرضا لبطشه ·

وهناك فرق من وجهة نظر الكواكبى بين المستبد الغربى والشرقى ، فالأول يخاف العلم لأنه يهدى الشعب الى حقيقته وحريته في حين ان المستبد الشرقى يخاف حتى من أوهام العلم ذاته ، ويخلص الى القول ان العلم لا يناسب حتى صغار المستبدين والحاصل انه ما انتشر نور العلم فى أمة قط الا وتكسرت فيها قيود الأسر وساء مصير المستبدين من رؤساء سياسة أو رؤساء دين ·

ويمضى الكواكبى فى فصل جديد بعنوان **الاستبداد والمجد** يقدم لنا بحثا ممتعا كيف ان الاستبداد يغالب المجد فيفسده ويقيم مقامه التمجد ·

واذا كان المجد أمرا طبيعيا تتوق اليه النفوس فان التمجد هو التقرب من المستبد فيصير الانسان مستبدا صغيرا فى كنف المستبد الأعظم والمتمجدون اعداء للعدل أعوان للظلم يمنحهم المستبد

الرتب والنياشين ليكونوا اعوانه وعيونه ، يقصد المستبد من **ايجادهم والاكثار منهم التمكن بواسطتهم ان يغرر بالأمة على اضرار نفسها تحت اسم منفعتها** • والخلاصة ان المستبد يتخذ المتمجدين سماسرة لتغرير الأمة باسم خدمة الدين أو حب الوطن أو توسيع مملكة •

ويفضل الكواكبي الحياة الحرة فاذا ما استحالت كان الاستشهاد والموت أفضل منها ويخالف ابن خلدون في رأيه القائل بان من الخطأ اقدام البشر على الخطر اذا هدد مجدهم (١) • ومجد أسماء بنت أبي بكر لأنها جعلت ابنها يقدم على الموت غير هياب فقالت له وهي تودعه : ان كنت على الحق فاذهب وقاتل الحجاج حتى تموت •

ولما كان الناس على دين ملوكهم فان الحاكم المستبد يجعل حكومته كلها مستبدة في كل فروعها من أكبر موظف فيها الى أصغره « لأن الأسافل لا يهمهم طبعا الكرامة وحسن السمعة وانما غاية مسعاهم ان يبرهنوا لمخدومهم بأنهم على شاكلته وانصار لدولته » ، وهذه الفئة المستبدة من المستخدمين يكثر عددها ويقل حسب شدة الاستبداد وخفته ، فكلما كان المستبد حريصا على العسف احتاج لزيادة جيش المتمجدين العاملين له المحافظين عليه • **فوزير المستبد هو وزير المستبد لا وزير الأمة كما في الحكومات الدستورية ، كذلك القائد يحمل سيف المستبد ليغمده في الرقاب بامر المستبد لا بامر الأمة** ، بل هو يستفيد من ان تكون الأمة صاحبة أمر لما يعلم من نفسه ان الأمة لا تقلد القيادة لمثله •

ويحمل الكواكبي على هؤلاء الاعوان الذين يزينون الظلم للمستبد ثم يبررونه للناس وفي مقدمتهم أولئك المتعاظمين باسم

---

(١) احمد امين ـ زعماء الاصلاح في العصر الحديث ص ٢٥٩

الدين يقولون للعامة : يابؤساء هذا قضاء من السماء لامرد له فالواجب تلقيه بالصبر والرضا • وفى مقابل هذه الروح الاستسلامية التى يبثها هؤلاء المتقربون من السلطان ، تنهال عليهم العطايا الكبيرة والرواتب الباهظة اضعاف ما تسمح به الادارة العادلة •

ولا يريد الكواكبى لبنى قومه أن يقنطوا ويستبد بهم اليأس من مقاومة المستبد • فالمستبد عنده فرد عاجز لا حول له ولا قوة الا بالمتمجدين • والأمة أى أمة كانت ليس لها من يحك جلدها غير ظفرها ولا يقودها الا العقلاء بالتنوير والاهداء والثبات ، **ثم يقيض الله لها من بنيها أفرادا كبار النفوس قادة ابرارا يشترون** لها السعادة بشقائهم والحياة بموتهم حيث يكون جهادهم دينا واستشهادهم مثلا فهم خلقوا لذلك مثلما خلق الفاسق الفاجر للتهالك على الشهوات والمثالب •

الاستبداد والمال :

وفى فصل جديد بعنوان الاستبداد والمال يقول الكواكبى « الاستبداد لو كان رجلا وأراد أن يحتسب وينتسب لقال : أنا الشر وأبى الظلم وأمى الاساءة وأخى الغدر وأختى المسكنة وعمى الضر وخالى الذل وابنى الفقر وبنتى البطالة وعشيرتى الجهالة ووطنى الخراب ، أما دينى وشرفى وحياتى فالمال المال » •

وما أظن ان تعبيرا أجمل من هذا التعبير الذى وصف به الكواكبى الاستبداد يمكن ان يحل محل هذا القول وهى الكلمات التى جمعت فوعت وأوجزت فشملت •

يرى الكواكبى أنه برغم ان النظام الطبيعى فى كل الحيوانات حتى فى السمك والهوام ان النوع الواحد منها لا يأكل بعضه بعضا فاذا بالاستبداد يحيى سنة أكل البشر فجعل الناس طعمة للظالمين المستبدين المستعمرين •

وما أجمل دعوة الكواكبى الى اشتراكية رقيقه رحيمة بالفقراء فهو بعد أن ينحى باللائمة على رجال السياسة الذين لا يفكرون فى ملايين الفقراء من رعيتهم ، كذلك يرى ان التجار الشرهين والمحتكرين يعيش الواحد منهم بمثل ما يعش به العشرات أو الألوف من الصناع والزراع • ثم يقول : **لا ! لا ! لايطلب الفقير معاونة الغنى ، انما يرجوه ألا يظلمه ، ولا يلتمس منه الرحمة ، انما يلتمس العدالة ، لا يؤمل منه الانصـــاف ، انما يسأله ألا يميته فى ميدان مزاحمة الحياة •**

وبعد أن يثني الثناء كله على دعوة الا يحتمل تخصيص عشر الأموال للمساكين ثم ما جاء به الاسلام من أن المال هو قيمة الأعمال يدعو الى العدالة الاجتماعية فيقول :

والعدالة المطلقة تقتضى أن يؤخذ قسم من مال الأغنياء ويرد على الفقراء وقد حقق الاســـــلام ذلك بالزكاة ومنعه التـــواكل فى الارتزاق فليزم كل فرد من الأمة متى اشتد ساعده أو ملك قوت يومه أن يسعى لرزقه بنفسه كما قرر الاسلام **ترك الأراضى الزراعية ملكا لعامة الأمة يستنبتها ويستمتع بخيراتها العاملون فيها بأنفسهم فقط •**

وما أظن ان هناك دعوة للاشتراكية أفضل من تحقيق ذلك الذى دعا اليه الكواكبى وتمناه ، فهو يرى ان المعيشة الاشتراكية أبدع ما يتصوره العقل لكنه يتأسف ان البشر لم يبلغوا بعد من الترقى ما يكفى لتوسيعهم نظـــام التعاون والتضامن فى المعيشـــة العائلية الى ادارة الأمم الكبيرة •

ويرى الكواكبى ان احراز المال محمود اذا ما اقترن بشروط ثلاث :

أولاها : ان يكون احرازه من وجه حلال مقابل عمل أو في مقابل ضمان على ما تقوم بتفصيله الشرائع المدنيه .

الثاني : الا يكون في حيازته تضيق على الغير كاحتكار الضروريات أو مزاحمة الصناع والعمال الضعفاء أو التغلب على المباحات مثل امتلاك الأراضي التي جعلها خالقها ممرحا لكافة مخلوقاته .

وهو يثني كل الثناء على تحديد الملكية فيشير الى ما اتبعته حكومة الصين على عهده حين منعت ان يمتلك الشخص الواحد أكثر من مقدار معين من الأرض نحو خمسة أفدنة مصرية .

أما الشرط الثالث الذي يرى الكواكبي ضرورة توفره لاحراز المال الا يكون على نحو يتجاوز قدر الحاجة بكثير لأن افراط الثروة مهلكة للأخلاق الحميدة .

ويخلص من ذلك الى ان أحراز المال لا يتوفر فيه هذه الشروط في عهد الحكومات المستبدة حيث يسهل فيها تحصيل الثروة بالسرقة من بيت المال وبالتعدى على الحقوق العامة وبغصب مافي أيدى الضعفاء .

والأغنياء ـ في نظر الكواكبي ـ أعوان المستبد وأوتاده وهم ربائطه يذلهم ويستدرهم أما الفقراء فان المستبد يخافهم خوف النعجة من الذئاب .

والكواكبي يخشى أن يفسر قوله بالتزهيد في المال أنه يثبط عن كسبه انما يقصد الا يتجاوز كسبه الطرائق الطبيعية الشريفة . ويفرق بين الاستبداد في الحكومات الغربية والشرقية . وهو يرى في الاستبداد الغربي بعض جوانب الرحمة واللين بعكس الاستبداد الشرقي فانه أكثر ازعاجا من الغربي وعادة ما يخلف الاستبداد

الغربي حكومة عادلة بعكس المستبد في الشرق فانه اذا ما انتهى حكمه عادة ما يخلفه مستبد اسوء منه ٠

ويخلص الى القول آن الاستبداد أشد وطأة من الوباء أكثر هولا من الحريق أعظم تخريبا من السيل ، اذل للنفوس من السؤال داء اذا نزل بقوم سمعت ارواحهم هاتف السماء ينادى القضـــاء القضاء والأرض تناجي ربها بكشف البلاء ٠ الاستبداد عهد أشقى الناس فيه العقلاء والأغنياء وأسعدهم الجهلاء والفقراء بل أسعدهم أولئك الذين يتعجلهم الموت فيحسدهم الأحياء ٠

وينتقل الكواكبى من حديث الاستبداد والمال الى فصل آخر بعنوان :

الاستبداد والأخلاق ونظريته التى تبناها فى هذا المجال هى ان الاستبداد يفسد الأخلاق ويدفع الى الحقد ويضعف حب الوطن لأن الفرد غدا آمن فيه يود لو انتقل منه ويضعف من حبـه لأسرته لأنه لا يطمئن على دوام علاقته معها ٠

ويمضى الكواكبى يوضح ان أسوء آثار الاستبداد هى افسادها الأخلاق ٠ فالأخلاق عنده « ثمار بذرها الوراثة وتربتهـــا التربية وسقياها العلم والقائمون عليها هم رجال الحكومة » ٠

وأقل ما يؤثره الاســـتبداد فى أخلاق الناس أنه يرغم حتى الأخيار منهم الى على ألفة الرياء والنفاق فيفقدون الثقة فى أنفسهم وفى غيرهم ٠ ويرى الكواكبى ان الأبحاث كثرت فى الآونة الأخيرة فى شأن داء الشرق فمن قائل ان سببه فقد التمســـك بالدين وآخر يقول آن ســـببه الجهل وهو يرى ان الســـبب الأول والهام هو الاستبداد الذى أفسد الأخلاق ٠

وقد كانت مهمة الأنبيـــاء عليهم السلام فى إنقـاذ الأمم هى انقاذها من فساد الأخلاق بفك العقول من تعظيم غير الله والاذعان

لسواه وتبعهم فى ذلك الحكماء السـياسيون الأقدمون فحرزوا الضمائر واتبعوا طريق التربية والتهذيب • ثم يقارن بين أخلاق الشرقى والغربى ويرى فى أخلاق الشرقيين وعاءا يهم الاجتماعية كثيرا من الأمور التى تحتاج الى علاج • « قد يفضل فى الافراديات الشرقى على الغربى وفى الاجتماعيات يفضل الغربى على الشرقى مطلقا •• الغربى يعتبر نفسه مالكا لجزء مشاع من وطنه ، والشرقى يعتبر نفسه وأولاده وما فى يديه ملكا لأميره • الغربى له على أميره حقوق وليس عليه حقوق ، والشرقى عليه لأميره حقوق وليس له حقوق • الغربيون يضعون قانونا لأميرهم يسرى عليه والشرقيون يسيرون على قانون مشيئة أمرائهم • الغربيون قضاؤهم وقدرهم من الله والشرقيون قضاؤهم وقدرهم ما يصدر من بين شفتى المستعبدين •

ويرى الكواكبى أنه ما احوجنا الى ان ننبذ الكسل والهزل ونفقد العزم على الجد والعمل « افلا يكون الشرقى ابن الماضى والخيال بل ابن المستقبل والجد » •

ويتبع الكواكبى الحديث عن الأخلاق بالحديث عن الاستبداد والتربية فى قسم مستقل من كتابه •

الاستبداد عنده يؤثر على الأجسام فيسقمها وعلى الأخلاق فيفسدها ويضغط على العقول فيمنع نماءها بالعلم • من أجل هذا فان ماتبنيه التربية يهدمه الاستبداد • ونلمس من هذا البحث آراء سبق بها الكواكبى غيره كمصلح اجتماعى • هو يرى ان التربية ملكة تحصل بالتعليم والتموين والقدرة والاقتباس واهم أصولها وجود المربين واهم فروعها وجود الدين • والاستبداد مفسد للدين فى أهم قسميه أى الأخلاق •• وفى رأيه أن العبارات صارت فى الأمم المستعبدة عبارة عن عبارات مجردة وعادات لا تفيد فى تطهير النفوس شيئا ومن أجل هذا يخافها المستبد •

والحكومات العادلة تعنى بتربية النسل منذ الصغر فيعيش سعيدا ينعم بالحرية والعدالة نشيطا على العمل بياض نهاره وعلى الفكر سواد ليله فيكون ناعم البال .

واذا كانت هذه حياة الناس فى ظل الحكومات العادلة ، فان الحكومات المستبدة تبعث الحيرة وتميت الأمال وتفسد التربية ، فالناس يضطرون فى ظل الاستبداد الى استباحة الكذب والتحايل والخداع والنفاق والتذلل ونبذ الجد وترك العمل ، وكل حقوق الانسان فى عهد الحكومات المستبدة غير مأمونه أو مصانة بما فيها الدفاع عن العرض ، لا يجد الناس فى ظلها صحة ولا علما ولا غذاء فهم يألفون الشقاء والفقر ولا يستعطفون فى مطالبتهم بحقوقهم كأنهم طلاب صدقة .

ويخلص الكواكبى الى ان التربية السليمة غير مقصودة ولا مقدورة فى ظلال الاستبداد واذا فسدت التربية فسد الأفراد وفسدت الأمة والسبيل للاصلاح هو القضاء على الاستبداد أولا ثم بعد ذلك تكون العناية بالتربية .

ثم ينتقل الكواكبى فى فصل آخر للحديث عن **الاستبداد والترقى** .

فمن رأيه ان الترقى على أنواع منه الترقى بالجسم صحيا ، الترقى علما ومالا أو ترقية النفس بحثها على الخصال والمفاخر الحميدة وأرقى أنواع الترقى هو من يسعى الى ترقية الانسانية جمعاء .

والانسان من وجهة نظر الكواكبى لا يزال يسعى الى الرقى ما لم يعترضه مانع يسلب ارادته ، وهذا المانع اما القدر المحتوم أو الاستبداد المشئوم « على ان القدر قد يصدم سير الترقى لمحة ثم يطلقه فيكر راقيا . أما الاستبداد فانه يقلب السير من الترقى الى الانحطاط ، من التقدم الى التأخر ، من النماء الى الفناء، ويلازم

الأمة ملازمة الغريم الشنحيح ويفعل فيهـا دهرا طويلا أفعاله التى تبلغ بالأمة حطة العجماوات فلا يهمها غير حفظ حياتها الحيوانية فقـط ، بل قـد تبيح حياتها هذه الدنيئة أيضا للاستبداد اباحة ظاهرة أو خفية » .

وهو يرى ان مهمة الحكماء كانت رفع الضغط عن العقـــول لينطلق سبيلها فى النمو . ونلمس فى هـذا الفصل بحثا ممتازا للكواكبى عن الدين الاسلامى وكيف أنه جاء على أساس أن يكون الايمان مبنيا على العقل ، فيرفع عن العقول كل الاوهام والخيالات والخوف .

ثم يخاطب الكواكبى قومه محاولا ايقاظهم وارشادهم الى انهم خلقوا لغير ما هم عليه من الصبر على الذل والانحطاط . فيذكرهم وينـــاجيهم ويحرك قلوبهم بأقوال تنبض كلها حماسا وتشع من كلماتها نور الهـداية لأنهـا صادرة من قلب مؤمن غيور على أهله حريص عليهم يتألم لألمهم لأنهم قومه وبنو وطنه :

يا قوم ، هداكم الله ، الى متى هذا الشقاء المديد والناس فى نعيم مقيم وعز كريم ، أفلا تنظرون ؟ وما هذا التأخر وقد سبقتكم الأقوام ألوف المراحل حتى صـــار ما بعـــدكم وراء أفلا تتبعون ؟ وما هذا الانخفاض والناس فى أوج الرفعة أفلا تغارون ؟..

ياقوم ، وقاكم الله من الشر ، أنتم بعيدون عن مفاخر الابداع وشرف القدوة مبتلون بداء التقليد والتبعية فى كل فكر وعمل ، وبداء الحرص على كل عتيق كأنكم خلقتم للماضى لا للحاضر تشكون حاضركم وتسخطون عليه ، ومن لى أن تدركوا ان حاضركم نتيجة ماضيكم ، ومع ذلك أراكم تقلدون أجدادكم فى الوساوس والخرافات والامور السافلات فقط ، ولا تقلدونهم فى محامدهم ، أين الدين؟ أين التربية ؟ أين الاحساس ؟ أين الغيرة ؟ أين الجسارة ؟ أين

الثبات ؟ أين الرابطة ؟ أين المنعة ؟ أين الشــهامة ؟ أين النخوة ؟ أين الفضيلة ؟ أين المساواة ؟ هل تسمعون أم أنتم صم لاهون ؟

ويمضي الكواكبي مخـــاطبا قومه بأســـلوب أدبي بليغ كله حماسة وكل كلمة منه لا تصلح سواها لتعبيره • وأهم مااستحدثه الكواكبي أنه نبذ الاسلوب المتكلف المصطنع والسجع المطرد فخرج من مستلزمات البيان القــديم في الحرص على السجع الى سهولة التعبير وعدم التكلف في العبارة • وبعد أن يستعيذ بالله من قومه أن يكون قد مسهم فساد الرأى وضياع الحزم وفقد الثقة بالنفس وترك الارادة للغير يدعو لهم بالشفاء مما هم فيه قبل ألا ينفع انذار ولا لوم فاذا ما حل القضاء فلا يبقى غير الندب والبكاء • ثم يدعو قومه لعدم التصاغر •

« ماذا ترجون من تقبيل الأذيال والأعتـاب وخفض الصوت ونكس الرأس • أليس منشأ هـــذا الصغار كله هو ضعف ثقتكم بأنفسكم ••

يا قوم جعلكم الله من المهتدين ، كان أجدادكم لا يتمنون الا ركوعا لله ، وأنتم تســـجدون لتقبيل أرجـل المنعمين ولو بلقمة مغموسة بدم الاخوان ، وأجدادكم ينامون الآن في قبورهم مستوين أعزاء ، وأنتم احياء معوجة رقابكم أذلاء ••

يا قوم الهمكم الله الرشد ، متى تستقيم قاماتكم وترتفع من الارض الى السماء أنظاركم ، وتميل الى التعالى نفوسكم ، فيشعر أحدكم بوجوده في الوجود ، فيعرف معنى الانانية ليستقل بذاته في ذاته ، ويملك ارادته واختياره ويثق بنفسه وربه ، لايتكل على أحد من خلق الله اتكال الناقص في الخلق على الكامل فيه ، أو اتكال الغاصب على مال الغافل ، أو الكل على سعى العامل ، بل يرى أحدكم نفسه انســانا كريما يعتمد على المبــادلة والتعاوض

فيسلف ثم يستوفي ويستدين على أن يفى ، بل ينظر فى نفسه أنه هو الأمة وحده .

ويدعو الكواكبى قومه أن يثوروا على الظلم وألا يستكينوا له . ولعله يريد أن يقول لهم ان الأتراك العثمانيين لم يسوموكم سوء العذاب الا لأنكم استحببتم الحياة على الموت ، فهو يرى أن بعض ضعاف النفوس هربت من الموت الى الموت وأنهم لو اهتدوا الى السبيل لعلموا ان الهرب من الموت موت ، وطلب الموت حياة.

والعزة عند الكواكبى ألا يضن بنى قومه على الحفاظ على حريتهم بروحهم ودمهم « **ان الحرية هى شجرة الخلد وسقياها قطرات من الدم الأحمر المسفوح» .. ولو كبرت نفوسكم لتفاخرتم بتزيين صدوركم بورد الجروح لا بوسامات الظالمين .**

ويخص الكواكبى فى كتاب طبائع الاستبداد يوجه كثيرا من الكلمات الحماسية فنجده يخاطب المسلمين فيردد بعض الافكار التى تناولها فى كتاب أم القرى من حيث ان جرثومة داء المسلمين هو خروجهم عن دينهم ، دين الفطرة والحكمة ، دين النظام والنشاط. فأصبح الدين مشوشا فيه الكثير من البدع والتشديد ومصدر ذلك هم العلماء المنافقون . ويشرح معنى كلمة لا اله الا الله وهى التى ينبغى أن تدفع بقائلها الى التصدى لكل ظالم وألا يؤله الا الله رب العالمين .

وما أجمل دعوة الكواكبى الى اخوانه العرب غير المسلمين حين يدعوهم الى تناسى الاساءات والاحقاد وكانت فتنة سنة ١٨٦٠ التى شبت فى لبنان وامتد أوارها الى سوريا حيث وقع الاقتتال بين المسلمين من الدروز والمسيحيين من الموارنة وراح ضحيتها آلاف الارواح وازهقت الكثير من الأنفس . ولقد ثبت بما لا يدع مجالا للشك أن القوى الاجنبية كانت من وراء تلك الفتنة تغذيها

وتشجعها . فالكواكبي يدعو اخوانه المسيحيين أن يذكروا جيدا تلك القوى الاجنبية التي تريد أن تصطاد في الماء العكر ويقول لهم:

يا قوم وأعني بكم الناطقين بالضاد من غير المسلمين ، أدعوكم الى تناسي الاساءات والاحقاد ، وما جناه الآباء والأجداد ، فقد كفى ما فعل ذلك على أيدي المثيرين ، وأجلكم من أن لا تهتدوا لوسائل الاتحـــاد وأنتم المتنورون السابقون . فهذه أمم أوشريا وأمريكا قد هداها العـــلم لطرائق شتى وأصول راسخة **للاتحاد الوطني** دون الديني **والوفاق الجنسي دون المذهبي** والارتباط السياسي دون الاداري . فما بالنا نحن لا نفتكر في أن نتبع احدى تلك الطرائق أو شبهها . فيقول عقلاؤنا لمثيري الشحناء من الأعجام والأجانب : دعونا يا هؤلاء نحن ندبر شأننا ، نتفاهم بالفصـــحاء ، ونتراحم بالاخاء ، ونتواسى في العزاء ، ونتساوى في السراء . دعونا ندبر حياتنا الدنيا ونجعل الأديان تحكم في الاخرى فقط . دعونا نجتمع على كلمات ســواء الا وهي : فلتحي الامة فليحي الوطن ، فلنحي طلقاء أعزاء . »

وفي هذا القول ما يؤكد ما سبق أن قلناه في فصل سابق من ان الكواكبي ســـبق غـيره من الكتاب في الدعوة الى الوحدة الوطنية فقد كان أول كاتب قومي اتضـحت عنده معـــالم الفكرة القومية ولم تختلط عنده هذه الفكرة بالفكرة الاسلامية أو غيرها على نحو ما يراه بعض المؤرخين .

يحذر الكواكبي أبناء أمته العربية من الاستعمار الاوربي ، فهؤلاء المســـتعمرون لا يخرجون عن كونهم تجـار يأخذون فسائل الشرق ليغرســـوها في بلدهم وهـــم (المســـتعمرون)

ينهبون ثروات البلد المحتل ، ويســـتغلون خيراته في الوقت الذي يقتلون في أبنـــائه روح العزة والاقدام ، يثبطون فيهم الهمة ويبثون فيهم التخاذل والتواكل والضعف والاستسلام .

ثم يتناول الكواكبي قضية هامة وهي أن المستعمرين يحولون بين أبناء الشعوب المستعمرة وبين العلم ، ذلك أن العلم يحيي موات النفوس ويبعث الهمة ويقوى العزيمة ، فيقترن بطلبه طلب الحرية ، ومن ثم ناصبه المستعمرون العداء • فالشعوب الجاهلة أسلس قيادا وأكثر استسلاما ، وأضعف عزيمة ، وأقل همة ونشاطا •

كذلك يقف الاستعمار للغة القومية بالمرصاد يرى في اضعافها والقضاء عليها بداية الطريق لفرض نفوذه ولغته •

والحقيقة أن شـــواهد التاريخ كثيرة على ذلك ، وأن ما فعله المستعمر الفرنسي في الجزائر خير شاهد وأصدق دليل • فقد جاء في أحد التعليمات التي صدرت في أوائل أيام الاحتـــلال الفرنسي للجزائر ، ماكتبه مســئول فرنسي حيث قال : ان ايالة الجزائر لن تصبح فرنسية الا عند ما تصبح لغتنا هناك لغة قومية •

وفي تقرير رسمي وضع من جانب الفرنسيين سنة ١٨٤٩ مايلي:
« لا ننسى أن لغتنا هي اللغة الحاكمة ، فان قضـــاءنا المدني والجنائي والعقابي يجب أن يصدر أحكامه على العرب الذين يقفون في ساحته بهذه اللغة • وبهذه اللغة يجب أن تصدر بأعظم ما يمكن من السرعة جميع البلاغات الرســمية •• وليس لنا أن نتنازل عن حقوق لغتنا ، فان أهم الأمور التي يجب أن نعتني بها قبل كل شيء، هو السعي وراء جعل اللغة الفرنسية دارجة وعامة بين الجزائريين الذين عقدنا العزم على استمالتهم الينا ، وتمثيلهم عندنا ، وادماجهم فينا وجعلهم فرنسيين » •

ويرى الكواكبي أن الاستعمار يقف للغتنا العربية بالمرصاد •
« دخل الفرنساويون الجزائر منذ سبعين عاما ولم يســمحوا بعد لأهلها بجريدة واحدة تقرأ » •

والشرق مهد الحضارات ومهبط الأديان فلماذا استذله الغرب ؟ هذا ما يثيره الكواكبى فى بحثه بعد ذلك وفى كلماته التى وجهها لبنى قومه من الشرقيين ٠

« وأنت أيها الشرق الفخيم رعاك الله ٠ ماذا دهاك ؟ ماذا أقعدك عن مسراك ٠ أليست أرضك تلك الأرض ذات الجنان والأفنان ومنبت العلم والعرفان ٠ وسماؤك تلك السماء مصدر الأنوار ومهبط الحكمة والاديان٠ وهواؤك ذاك النسيم العدل، لا العواصف والضباب ٠ وماؤك ذاك العذب الغدق ، لا الكدر ولا الأجاج ؟ » ٠

رعاك الله يا شرق ماذا أصابك فأخل نظامك ، والدهر ذاك الدهر ما غير وضعك ولا بدل شرعه فيك ؟ ألم تزل مناطقك هى المعتدلة ، وبنوك هم الفائقون فطرة وعددا ؟ أليس نظام الله فيك على عهده الاول ، ورابطة الاديان فى بنيك محكمة قوية ، مؤسسة على عبادة الصانع الوازع ٠ أليست معرفة المنعم حقيقة راهنة أشرقت فيك شمسها ، أيدت بها عز النفس ، وأحكمت بها حب الوطن وحب الجنس ؟ »

وبعد أن يبحث الكواكبى فى أسباب تدهور الشرق وتفوق الغرب علما فنظاما فقوة ، يرجع ذلك الى أن سببه الاستبداد ٠ ويوصى الناشئين بعشر وصايا يدعوهم الى حفظها عن ظهر قلب والعمل بها وهى :

١ ــ دينى ما أظهر ولا أخفى ٠

٢ ــ أكون حيث يكون الحق ولا أبالى ٠

٣ ــ أنا حر وسأموت حرا ٠

٤ ــ أنا مستقل لا أتكل على غير نفسى وعقلى ٠

٥ ــ أنا انسان الجد والاستقبال لا انسان الماضى والحكايات ٠

٦ ــ نفسى ومنفعتى قبل كل شىء ٠

٧ ـ الحياة كلها تعب لذيذ ٠
٨ ـ الوقت غال عزيز ٠
٩ ـ الشرف في العلم فقط ٠
١٠ ـ أخاف الله لا سواه ٠

وينتقل الكواكبي بعد ذلك الى بحثه الأخير في كتابه « طبائع الاستبداد » وقد جعله بعنوان الاستبداد والتخلص منه ٠

يستعرض في هذا الفصل حياة الانسان على هـــذه الارض وأنظمة الحكم على هذه البسيطة التي لم يهتد الناس بعد الى طريقة مثالية بشأنها ثم يطرح على بساط البحث عددا من المسائل ما هي الأمة ـ ما هي الحكومة ثم ما هي الحقوق العامة وتوزيع الضرائب والاعداد للدفاع ومراقبة الحكومة ورعاية الأمن ثم ما هو القـانون وكيف نفرق بين السلطات السياسية والدينية والتعليم وفي آخر هذه الابحاث التي يبلغ عددها خمسا وعشرين يبحث في كيفية رفع الاستبداد ٠

والكواكبي في طرحه لهذه المباحث على بساط المناقشة يأتي بأسئله مبسطة تجعل القارىء يلقى الجواب الصـحيح تلقائيا ٠ فيقول مثلا :

ما هي الحكومة ؟ هل هي سلطة امتلاك فرد لجمع يتصرف في رقابهم ويتمتع بأعمالهم ويفعل فيهم بارادته ما يشاء ، أم هي وكالة تقام بارادة الأمة لأجل ادارة شئونها المشتركة العامة ؟

وفي مبحث مراقبة الحكومة : هل تكون الحكومة لا تسأل عما تفعل أم يكون للامة حق السيطرة عليها لان الشـــأن شأنها ، فلها أن تنيب عنها وكلاء لهم حق الاطـــلاع على كل شيء وتوجب المسئولية على أي كان ؟

وفيما يختص برفع الاستبداد نجده يتساءل هل ينتظر ذلك من الحكومة أم أن ذلك مهمة عقلاء الأمة وسراتها ٠

ويقصد الكواكبى من هذه الابحاث أن يذكر ذوى الألباب على حد قوله ٠ ولعله يريد أن يردد الآية الكريمة « وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين » ومن الطبيعى أن نجد الكواكبى يفصل فى المبحث الأخير وهو مبحث السعى فى رفع الاستبداد ٠ ويرى أن لذلك قواعد ثلاث :

١ ـ الأمة التى لا يشعر كلها أو أكثرها بآلام الاستبداد لا تستحق الحرية ٠

٢ ـ الاستبداد لا يقاوم بالشدة انما يقاوم باللين والتدرج ٠

٣ ـ يجب قبل مقاومة الاستبداد تهيئة ماذا يستبدل به الاستبداد ٠

ثم يتناول القاعدة الاولى فى رفع الاستبداد بالدراسة فيرى أن الامة التي يسودها الاستبداد هي أشبه ما تكون بأمة ميتة فاذا وجد فيها من تدفعه شهامته للأخذ بيدها والنهوض بها فعليه أن يبث فيها الحياة بأن يعلمها بسوء حالتها فاذا هى علمت يبتدأ فيها الشعور بآلام الاستبداد ٠ وهو يشبه فى هذه الناحية قول دعاة الحرية والذين مهدت أقوالهم لقيام الثورة الفرنسية مثل فولتير وما أثر عنه قوله ليس الاستبداد هو الذى يولد الثورة وانما الشعور بالظلم ٠

ويرى الكواكبى أن الاستبداد لا يقاوم بالشدة وليس معنى مهادنة هذا الاستبداد وانما هو يرى أن يكون ذلك باقناع أفراد الأمة بمساوئه وأضراره وهو هنا يدعو للتربية والتثقيف شأنه فى ذلك شأن الاستاذ الامام محمد عبده (١) ٠

---

(١) عباس العقاد : محمد عبده ص ٢١١

ثم يرى الكواكبي انه ينبغي أن يسبق الثورة على الاستبداد تخطيط لما ينبغي استبداله بعده حتى لا يحل محله استبداد آخر. وما أظن أن ثورة من الثورات أهملت ذلك وقدر لها أن تنجح أو تستمر انها تصبح أشبه ما يكون بوميض للهب سرعان ما ينطفىء يحرق نفسه قبل أن يحرق غيره ·

ويختم الكواكبي كتابه بأنه غير يائس من المستقبل فان يوم الله قريب الذى يقل فيه التفاوت في العلم وعندئذ تتكافأ القوات بين البشر فتنحل السلطة ويرتفع التغالب ، فيسود بين النـــاس العدل والتوادد فيعيشون بشرا لا شعوب وشركات لا دولا ·

وهكذا يرتفع الكواكبي فوق نظـــرة الباحث الضيق الذى لا يتجاوز بحثه حدود بلده أو وطنه انه يبشر بمستقبل سعيد لكل بنى الانسان لا يظلم قويهم ضعيفهم يسودهم الاخاء والمحبة ·

ولا عجب أن نجد كتابات الكواكبي وآراءه تجد لهـا صـدى لا فى البلاد العربية وحدها بل وفى غيرها من أنحاء العالم وستظل لها دورها وسيستمر لها سحرها حتى يرث الله الارض ومن عليها ·

خاتمة

وبعد فهذه دراسة لشخصية عربية فذة جاد الزمان بها على الأمة العربية وهى أحوج ما تكون اليه ينبهها من غفلتها ويوقظها من سباتها ويبث فيها روح الأمل ويزيح عنها كابوس اليأس والقنوط ويذكرها بأمجادها وهو يبنى الأمل الكبير على شباب هذه الأمة وهم طلائع الغد وأمل المستقبل . ومن أجمل عباراته يخاطب بها الشباب قوله :

« يا قوم أريد بكم شباب اليوم رجال الغد شباب الفكر رجال الجد أعيذكم من الخزى والخذلان بتفرقة الأديان ، وأعيذكم من الجهل ، جهل ان الدينونة لله وهو سبحانه ولى السرائر والضمائر ، ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة .

أناشدكم يا ناشئة الأوطان ، أن تعذروا هؤلاء الواهنة الخائرة قواهم الا فى ألسنتهم ، المعطل عملهم الا فى التثبيط ، الذين اجتمع فيهم داء الاستبداد والتواكل ، فجعلاها آلة تدار ولا تدير . وأسألكم عفوهم من العقاب والملام ، لأنهم مرضى مبتلون ، مثقلون بالقيود ، ملجمون بالحديد ، يقضون حياة خير مافيها أنهم آباؤكم . »

وواضح من هذه العبارات السابقة ان الكواكبى يخشى أن تمتد عدوى القنوط واليأس من بعض رجال زمانه الى شباب هذه

الأمة العربية التى كان يأمل الاصلاح والنجاة لهذه الامة على أيديهم. فبعد أن يذكر بعض العادات السيئة التىألفها كثير من الناسعلى عهده يرجو الشباب أن ينشأ على غير ذلك فيقول :

نحن ألفنا الأدب مع الكبير ولو داس رقابنا . ألفنا الثبات ثبات الأوتاد تحت المطارق . ألفنا الانقياد ولو الى المهالك . ألفنا أن نعتبر التصاغر أدبا ، والتذلل لطفا ، والتملق فصاحة ، والكلفة رزانة ، وترك الحقوق سماحة ، وقبول الاهانة تواضعا ، والرضا بالظلم طاعة ، ودعوى الاستحقاق غرورا ، والبحث عن العموميات فضولا ، ومد النظر الى الغد أملا طويلا ، والاقدام تهورا ، والحمية حماقة ، والشهامة شراسة ، وحرية القول وقاحة ، وحرية الفكر كفرا ، وحب الوطن جنونا .

أما أنتم حماكم الله من السوء ، فنرجو لكم أن تنشأوا على غير ذلك ، أن تنشأوا على التمسك بأصول الدين ، دون أوهام المتفننين ، فتعرفوا قدر نفوسكم فى هذه الحياة فتكرمونها ، وتعرفوا قدر أرواحكم وانها خالدة تثاب وتجزى ، وتتبعوا سنن النبيين فلا تخافون غير الصانع الوازع العظيم . ونرجو لكم أن تبنوا قصور فخاركم على معالى الهمم ومكارم الشيم ، لا على عظام نخرة ، وان تعلموا انكم خلقتم أحرارا لتموتوا كراما فاجهدوا أن تحيوا تلكما اليومين حياة رضية . يتسنى فيها لكل منكم أن يكون سلطانا مستقلا فى شئونه ، لا يحكمه غير الحق ، ومدينا وفيا لقومه لا يضن عليهم بعين أو عون ، وولدا بارا لوطنه ، لا يبخل عليه بجزء من فكره ووقته وماله ، **ومحبا للانسانية يعمل على أن خير الناس أنفعهم للناس ، يعلم ان الحياة هى العمل ووباء العمل القنوط ، والسعادة هى الأمل ، ووباء الأمل التردد** ويفقه ان القضاء والقدر هما عند الله ما يعلمه ويمضيه وهما عند الناس السعى والعمل . ويوقن ان كل أثر على ظهر الارض هو من عمل اخوانه

البشر ، وكل عمل عظيم قد ابتدأ به فرد ثم تعاوره غيره الى أن كمل ، فلا يتخيل الانسان فى نفسه عجزا ولا يتوقع الا خيرا وخير الخير للانسان أن يعيش حرا مقداما أو يموت » •

تلك بعض وصايا الكواكبى لشبابنا العربى وما أظن ان شبابنا أحوج لشيء أكثر من ذلك الذى خاطبه به هذا الكاتب العربى الكبير بل ما أظن ان المشرفين على أمور الشباب فى كل قطر عربى يوصون جيل الغد بأكثر ما نادى به الكواكبى • هو يدعوهم الى العزة والحياة الحرة الكريمة لايستكينون للقيم ولا يرضون الذل ، يطالبهم بعدم التردد وعدم الاستسلام لليأس والارتكان على ان ما فيه وطنهم هو من ارادة الله وعلينا الرضا والقبول • فان الله سبحانه وتعالى اعطانا القدرة واعطانا الفكر والارادة لنعمل وقد راينا كيف ان الكواكبى حمل كثيرا على دعاة الجبرية والقدرية وراى ان الخطر من هذه الناحية خطر كبير وعظيم ، ذلك ان دعاة اليأس والتردد والخذلان ينفثون سمومهم من هذه الناحية باسم الدين ، والدين منهم براء •

أما عن بعض صفاته الجسمية فيقول السيد كامل الغزى (١) انه (الكواكبى) كان مربوع القامة ، حنطى اللون ، مستدير الوجه ، خفيف العارضين ، أقنى الأنف ، ذا عينين زرقاوين ، معتدل المقلة لا غائرها ولا جاحظها ، معتدل فتحة الفم ، ازج الحاجبين واسع الجبين ، صغير الأطراف معتدل الجسم بين السمن والهزال أسود الشعر •

اما عن اخلاقه وسجاياه :

فقد جاء وصف الغزى لها مطابقا لأوصاف كل المعاصرين له كان منذ حداثة سنه تلمع فى محياه مخايل النجابة والشهامة وعلو

---

(١) مجلة الحديث العدد ٦ سنة ١٩٢٩

الجناب وحسن الطبع لا قيمة عنده للمال ، ولوع بالتفضل على أقرانه وخلانه لا يرضى ان يسبقه بالبذل غيره يأنف من الكذب والتدليس والغيبة والنميمة ، ويرى التلبس بهذه الخلال الذميمة دناءة وغدرا ، وجورا فى الطبع ، وكانت نفسه العزيزة عليه تأبى الخضوع لأهل المجد الباطل ولا يرى ما يطفىء نار غضبه منهم أفضل من قهرهم واذلالهم ، وأغرب عاطفة فيه انه كان لا يرى هدفا جديرا يصوب اليه سهام الطعن والتنديد غير أعاظم الرجال كالولاة والمتصرفين الذين ساءت سيرتهم وقبحت أعمالهم . وكان ذلك اعتقادا من الكواكبى ان الواجب على المصلح أن يبدأ باصلاح الرأس فاذا صلحت صلح الجسد كله بالطبع .

وكان لا يسوءه شيء مثلما يسوءه الظلم وعدم العدل فالحالم الجائر ينبغى أن يتصدى له كل مؤمن بالله لان ذلك أوجب الواجبات عليه . وكثيرا ما كان يردد البيت الشهير .

اذا لم تقم بالعدل فينا حكومة   فنحن على تغييرها قدراء

ونجد صفيه وصديقه المرحوم كامل الغزى يؤكد فى حديثه عن الكواكبى انه كان يقول بالطفرة ويعتقد بنجاحها اذا قرنت بالحزم والعزم والثبات وهو يرى التدرج فى نيل المطالب تضييعا للعمر ، وافساحا لمجال حدوث ما قد يجعل المطلوب ميئوسا منه . وقد اشتهر ذلك عن الكواكبى حتى قال أحد أصدقائه المخلصين فى ولائه : أن السيد عبد الرحمن مجموعة حماس لاعيب فيه سوى قوله بالطفرة وسوى تلك الجرأة المفرطة الأمر الذى كدر عليه موارد الحياة وأسلمه الى يد الاضطهاد . وقطع عليه خط الرجعة فى راحته . فأمضى حياته يتجرع المصائب يودع مصيبة ويستقبل أخرى وانطبق عليه قول الشاعر :

واذا كانت النفوس كبارا
تعبت فى مرادها الأجسام

وكان الكواكبي طموحا للمعـالي لا يلجأ الى الاناة والتردد بل كان يثب الى مناطقها وثبـة دون تدرج ولا تراخ في قطع المراحل الطويلة المؤدية اليها فلا يشعر الا وقد عرضت له عقبة تحول بينه وبين مقصده · ويمضي الغزي يستشهد على ذلك بانه كان لا يطرب للتغني ولا تميل نفسه الى مجالس اللهو والطرب ويروى ان الكواكبي قال له وهم في مجلس يتذاكرون السماع وتأثيره في النفوس « هل الطرب بالغناء الاوهم وضعف مزاج واضاعة وقت فيما لا يجدى ؟ »

تلك كانت بعض اخلاق وسجايا عبد الرحمن الكواكبي · اما عن سعة علمه وقدرة تحصيله في العلوم فما شك أحد من معاصريه أو ممن أرخوا له على انه بلغ في ذلك ذروة قل أن يبلغها أحد مثله ·

ألم الكواكبي باللغة التركية فأجادها وعمل مترجما في عدد من الصحف يترجم مقالاتها الى العربية على نحو ما ذكرنا ويقـول الغزي « سمعت مرات عديدة من المرحـوم زهدى أفندى قاضي حلب يقول : ان السيد عبد الرحمن قاموس باللغة التركية وكثيرا ما كان يسأل عن بعض كلمات وتراكيب تركية شذت عن فهمه مع أنه كان من أكثر علماء الأتراك · اما عن المامه باللغـة العربية وقواعدهـا وأصول الكتابة بها وحسن التعبير واختيار الكلمة المناسبة فما أظن ان هناك نقدا يمكن أن يناله في هذه الناحية · واشتهر عن الكواكبي سهولة الفاظه فقد خلت أو كادت من الغريب وكان يرسـل عبارته فليس فيها سجع ملتزم مما يقيد حرية الكاتب وأدخل الى النثر أمورا جديدة · فقد كان النثر قبـل الكواكبي لا يتنـاول الموضـوعات الاجتماعية الا فيما ندر فاذا بالكواكبي يستعمل الأسـلوب العلمي المتأدب وهو يوضح الظواهر الاجتماعية ويتناول مشكلات عصره· اما قدرته على النقد وتمحيص الحقائق واقامة البراهين والحجج على مايحاول اثباته أو نفيه فحدث عن ذلك ولا حرج ويذكر الغزي عنه روحـه المرحة فيقول : كنا نسـمر معه وعددنا يزيد على عشرة أشخاص

فيشغل كل واحد منا بموضوع يقترحه عليه ويشاكله به ، ويبين له فيه خطأه وصوابه ·

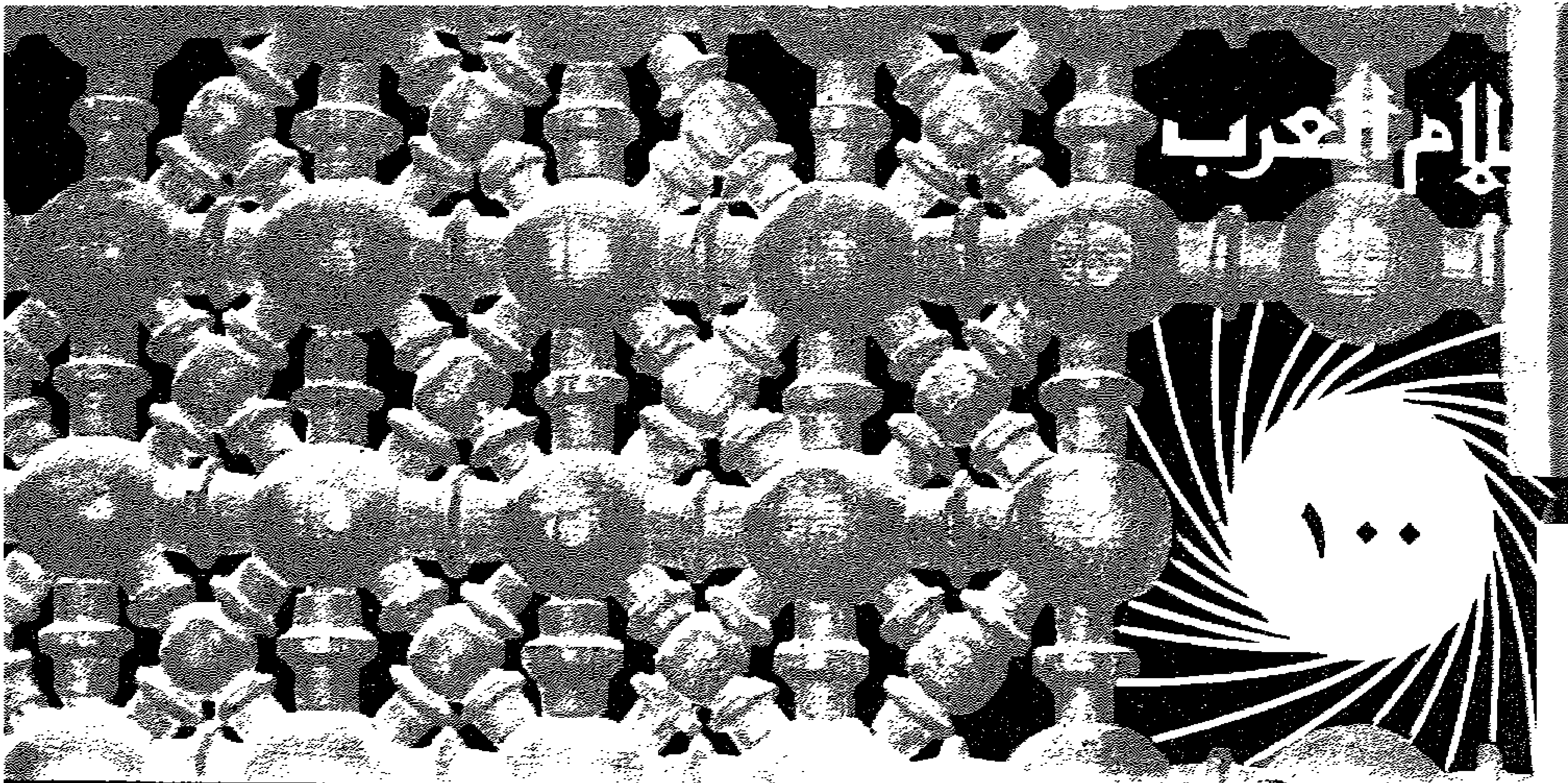
وكان بارعا بفنون السياسة عالما باحوال الدول واسع الاطلاع على حقوق الدول ونهضاتها وثوراتها · ويذكر المؤرخون لحياته انه كان متضلعا بقوانين الدولة العثمانية وأنظمتها مع المام كاف بفروع الفقه ونصيب وافر من علوم اللغة العربية فى النحو والصرف ·

ومات عبد الرحمن الكواكبى ولكن فكره لم يمت وآراءه لم تبل لأنها أبقى على الزمن من أن يطويها في سجل النسيان · وظلت الأيام تحملها فى ريح رخاء سهل لتلقنها من جيل الى جيل من ابناء هـذه الأمة تدعوهم أن يعملوا بها وأن تكون تلك الآراء دستوراً لهم وشريعة ومنهجا لأنها صادرة عن قلب مخلص مؤمن بهذه الأمة أن تحيا حياة كلها عزة وسؤدد لأن الله سبحانه وتعالى قد شرفها فجعلها أمة وسطا وجعلها شاهدة على باقى الأمم يوم يرث الله الأرض ومن عليها ·

فهـــرس

رقم الايداع بدار الكتب ١٥٨٣/١٩٧٢

الثمن ١٠ قروش
الهيئة المصرية العامة للكتاب



عبد الرحمن الناصر

بقلم
علي أدهم

الهيئة
المصرية
العامة
للكتاب

أعلام العرب

عبد الرحمن الناصر

بقلم

علي أدهم



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٧٢

مقدمة

عبد الرحمن الناصر هو ثامن أمراء الأندلس من بنى أمية ، وأول من تسمى بهـا بأمير المؤمنين وتلقب بألقـاب الخلافة ، وقد تولى امارة الأندلس والدولة تتخطفها الأخطـار ، ويكاد بناؤها يؤذن بالتصـدع والانهيار ، فاستطاع بجهاده المستمر ، ومثابرته الدائبة أن يطفىء نيران الثورات ، ويسـتنزل العصـاة من معـاقلهم ، ويقـلم أظفـار المتمردين على الطاعة ، والخارجين على القانون ، وقد أدرك ببصيرته النفـاذة، وتفكيره العميق ـ طبيعة الموقف الذى واجهه ، وعرف الوسائل المجدية فى علاجه ، ورسم الخطط الكفيلة بالنجاح فى تناوله ، وكان عبد الرحمن الناصر واسـع الافق ، لامع الذكاء ، موفور النشاط ، ناهض العزم ، لايفت فى عضده تلاحق الفتن وتكاثر الاحداث ، ولايهن للشدائد ، ولاتستلينه الظروف القاسية ، بل تشـد من عزمه ، وتستنهض همته .

ولم يكن حكم الاندلس الاسلامية بالامر الهين ، فقد كان هنـاك عوامل انسانية وعوامل طبيعية تجعل هذا الحكم شاقا قد يقصر فى القيام بأعبائه ، واحتمال تبعاته ، رجال من الطراز المألوف ، والنمط العادى ،

ويستلزم رجالا موهوبين فى العقل وبعد الهمة والكفاية، فقد كانت هناك مجموعة بشرية من أصول مختلفة ، وسلالات متنوعة ، يصعب امتزاجها وتكوين وحـدة متماسكة منها ، كان هناك عناصر ترجع الى أصـول آرية مثـل السلتيين والايبريين واللاتينيين واليونانيين وبقـايا الوندال والقوط ، وكان هنـاك من السلالة السامية القرطاجنيون والفينيقيون واليهود والعـرب والبربر آخر الغزاة والفاتحين ، وكانت طبيعة البـلاد بجبالها وتلالها وأوديتها المنحدرة الضيقة ، وأنهـارها العميقة ، وجوها الجاف الشديد الحرارة ، وتعرضها الدائم للأوبئة والمجاعات ، والقحط وقلة الامطار ، مما يغرى بالخروج على الطـاعة ، وييسر الاحتماء بالمعاقل والحصون .

وكان أمراء الأندلس من الأمويين حكاما من ذوى القدرة والكفـاية ، ولكنهم مع ذلك كانوا يتفاوتون فى سعة الذرع ، وقوة التصميم والعزم ، ولانزاع فى أن عبد الرحمن الناصر كان من أشدهم قوة ارادة وصرامة عزم ، ولم يكن موهوبا فحسب ، وانمـا كان عبقريا فذا من طـراز عبـد الرحمن الداخل مؤسس الدولة الأموية بالأندلس ، ورافع منارها ، وموطد أركانها ، وقد وجدت فيه مشكلة الحكم بالأندلس رجلا يعرفه كيف يوثق العقدة ، ويرأب الصدع ، ويذلل العقبات. ويحسم المشكلات .

وقد تولى عبد الرحمن الحكم فى ميعة الشباب ، وامتد به طلق العمر ، فانفسح أمامه مجال العمل ، وتوفرت له أسباب اتمام الخطط المرسـومة ، وانجاز

المشروعات التى اعتزم القيام بها ، وبرغم مااتصف به من دماثة الأخلاق ورهافة الحس ورقة الحاشية فانه قبض على زمام الموقف بيد حديدية ، فوقرت مهابته فى النفوس ، وتحامى حوزته الأعداء ، وهادنته الأمم النصرانية والممالك الاسبانية من وراء الدروب والثغور وأذعنت لارادته ، وخطبت وده ، وعملت على مسالمته، والتماس مشورته ، والاستعانة بوساطته ، ووصل الى سدته الملوك من أهل شبه جزيرة أسبانيا المتاخمين لبلاده ، وقبلوا يده ، وسعوا فى مرضاته ، واحتقبوا جوائزه ، وامتطوا مراكبه ، ويعد عهد الناصر الذروة العظيمة لتاريخ المسلمين بالأندلس ، والعصر الذى نضجت فيه الحضارة الاسلامية فى الغرب والشرق على السواء .

ومؤرخو الاندلس والمغرب يتبارون فى الاشادة بحكم الناصر وعهده والتنويه بمواهبه ومزاياه ، فالمؤرخ الاندلسى الكبير ابن حيان يقول «ان ملك الناصر بالأندلس كان فى غاية الضخامة ورفعة الشأن ، وهادنه الروم ، وازدلفت اليه تطلب مهادنته ومتاحفته بعظيم الذخائر ، ولم تبق أمة سمعت به من ملوك الروم والافرنجة والمجوس وسائر الأمم الا وفدت عليه راغبة وانصرفت عنه راضية ، ومن جملتهم صاحب القسطنطينية العظمى فانه هادنه ، ورغب فى موادعته.

وابن الأبار يقول عنه فى الحلة السيراء « أعظم بنى أمية فى المغرب سلطانا ، وأفخمهم فى القديم والحديث شأنا ، وأطولهم فى الخلافة ـ بل أطول ملوك الاسلام قبله ـ مدة وزمنا ... وظهر لأول

ولايته من يمن طائره ، وسعادة جده ، واتساع ملكه ، وقــوة سلطانه ، واقبــال دولته ، وخمود نار الفتنة ــ على اضطرامها بكل جهة ــ وانقياد العصاة لطاعته، ماتعجـــز عن تصـــوره الأوهـــام ، وتكل فى تحبيره الأقلام» .

ويقول عنه ابن عذارى فى المغرب «كان الناصر رحمه الله ملكا أدال اللواء ، وحسم الأدواء ، وقهر الأعادي ، وعدل فى الحاضر والبـــادى ، قـــد أسس الأسوس ، وغرس الغروس واتخذ المصـــانع والقصور وترك أعلاما باقية الى النفخ فى الصور ، ولمـــا ولى الناصر لدين الله ، اعتز ركن الدين ، واحتمى ذمـــار المسلمين ، وقام الجهـــاد على ســـاق ، وخمدت نار الفتنة والشقاق ، ودخـــل الناس فى طاعته أفواجا ، واستنفروا الى دعوته أفرادا وازواجا ، فناهيك من فضـــل أعطاهم ، وعـــدل كنفهم به وغطاهم ، وتكرمة أنالهم اياها ومبرة أبدى لهم محياها » .

وكان عبد الرحمن الناصر يصدق فيما يقول ، ويفى بما يعد ، ويعفو عنـــد المقدرة ، وهـــو مع ذلك لايضع الندى فى موضـــع السيف ، ولايمنح ثقته من لايستحقها ، ولايشمل بعطفه من هو غير جـــدير بأن يتفيأ ظل رعايته ، ولم يطغه الانتصار المتوالى ، ولم يفسده اقبال الحظ ، وقد كسب الدنيا دون أن يخسر نفسه ، فلاتقرأ فى أعماله فصلا من فصول مكيافللى فى كتاب الأمير ، فغير غريب أن يستبحر العمران فى عصره ، ويمتد رواق الحضارة ويشعر الناس بالأمن والطمأنينة والعدالة والرخاء ، وهو من أعظم رجـــال

عصره قاطبة ، واحد ابطال تاريخ الاسلام غير مدافع، وهو جـدير بأن يكون له مكان بين ابطـال كارلايل ، ويضاف الى أسباب نجاحه مساندة الظروف ومساعفة الأقدار ، وما أصدق قول المتنبى

ومانيصر الفضل المبين على العـدى
اذا لم يكن فضـــل السعيد الموفق

نشأة عبد الرحمن الناصر
وتقلده الامارة

ولد عبد الرحمن الناصر بقرطبة يوم الخميس ٢٢ رمضان سنة ٢٧٧ هجرية (٨٩١ ميلادية) ووالده الامير محمد ابن أمير الاندلس عبد الله بن محمد ، وقد قتل أبوه بعد ميلاده بثلاثة أسابيع فى ظروف يحيط بها شيء من الغموض، وكان والده بكر أولاد ابيه ، وخليفته اذا غاب عن حضرته ؛ والمرشح لمكانه ووراثة العرش بعد وفاته ، ويقول ابن الأبار انه كان من أهل العناية بالآثار ، والرواية للأخبار ، والتفنن فى الآداب ، وقد ندبه أبوه فى سنة ٢٧٧ هـ للفصل فى الخلاف الخطير الذى نجم فى اشبيلية واحتوازها بين المولدين والمستعربين من ناحية والاسر المنحدرة من أصول عربية ، وبخاصة أسرتى بنى خلدون وبنى حجاج ، ولم يستطع الامير محمد البت فى الموضوع وادانة أحد الطرفين لعدم وجود الأدلة الكافية ، وقد نجا من أزمة اشتداد هذا الخلاف باعجوبة ، وترشيح والده اياه لولاية العهد ، وايثاره له بما عنده ، عظما على أخيه المطرف ، وأبعدا مابين الاخوين كل البعد ، وقد حدث ذلك غير مرة فى تاريخ الدولة الاموية بالاندلس ، وقابل كل منهما الآخر بالهجران والصد ، ويروى ابن الأبار أن الأمير محمد وجد يوما فارسا من فرسان مطرف فاغتاله وقتله ، ثم فرق من أبيه الأمير عبد الله ،

وحذر سطوته ، ولم يأمن عقابه ، فسار الى السجن وفتح أبوابه وحل من شده ابوه وأوثقه ، وأطلق سراحهم ، وخرج بجماعة من أهل الدعارة والفساد ، ولحق بقلعة ببشتر قاعدة الثائر المغوار عمر بن حفصون ، لائذا بحماه ، ويقول ابن الأبار ان الأمير عبد الله أباه خاطبه بالأمان ، ولامه فى رفق ولين على هذا الخروج على الطاعة والولاء ، فقبل ذلك الأمير محمد ، وعاد الى أهله وذويه ، ولكن أخاه المطرف لم يكف عن افساد مابينه وبين أبيه ، وظل يطوى له العداوة والبغضاء ، ويعمل على ازالته من طريقه ، وزعم أنه لايزال على صلة بالثائر ابن حفصون ، وانه يداخله ويداهنه للقيام على أبيه . وترك هذا التحريض أثره فى نفس الأمير عبد الله، وقوى هذا التأثير حتى لم ير والده ندحة عن اعتقاله فى احدى حجرات قصره ، ريثما يختبر أمره ، ويبحث قضيته ، ولم يصله فى خلال ذلك مايؤكد الشبهة ، ويثبت التهمة ، واتفق فى أثناء ذلك أن خرج الامير عبد الله فى احدى غزواته ، فاغتنم المطرف هذه الفرصة ، واقتحم على أخيه محبسه وأجهز عليه ، ولما علم الأمير عبد الله بذلك هم بقتله ، وكان ذلك سنة ٢٧٧ هـ ولكنه لم يعدم من كسر سورته ، وهدأ وقدة غضبه ، وحدث بعد ذلك فى سنة ٢٨٢ هـ أن بعث الأمير عبدالله ابنه المطرف بالصائفة ومعه الوزير عبد الملك بن أمية ، ففتك المطرف بالوزير بمقربة من أشبيلية لعداوة كانت بينهما ، واكبر ابوه الامر ، وكان اعتداؤه على أخيه الامير محمد لايزال يحز فى نفس الأمير عبد الله . وقد دفعه ذلك الى السطو بالمطرف وقتله شر قتلة ثأر فيها منه بأخيه وبالوزير .

ووالدة عبد الرحمن مارية من سبى الفرنجة وهى مسيحية غسقونية وتسميها الرواية العربية مزنة .

ويبدو أن الامير عبد الله ، ادرك فى نهاية الأمر أن ابنه محمدا قد قتل مظلوما وأن أكثر مابلغه عنه لميكن له نصيب من الحقيقة ، ويصف لنا الفقيه أبو محمد بن حزم ـ وهوالعالم المعروف بغزارة العلم وسعة المعرفة بالسير والأخبار مع الجراة والصراحة فى ابداء الراى ـ جانبا من اخلاق الامير عبد الله بقوله « انه كان قتالا تهون عليه الدماء ، ومع كثرة اقباله على الخيرات وترك المنكرات ، فانه احتال على أخيه (الامير) المنذر على ايثاره له ، وواطأ عليه حجامه بأن سم له المبضع الذى فصد به ، وهو نازل بمعسكره على ابن حفصون ، ثم قتل ولديه معا بالسيف واحدا بعد واحد ، قتل محمدا والد الناصر لدين الله ، وقتل أخاه المطرف ، ثم قتل اخوين له معا أيضا ، قتل هشاما منهما بالسيف والقاسم بالسم الى غير ذلك» وسواء صحت رواية مشاركته فى قتل ابنه محمد أو لم تصح فان الظاهر أن مصرع الأمير محمد قد نال منه ، وترك فى نفسه ندوبا ، واستشعر الكثير من تأنيب الضمير ، فدفعه ذلك كله الى أن يضع الطفل اليتيم فى حياطته ، ويشمله بعطفه ورعايته ، ويضمه الى قصره ، ويشرف بنفسه على تربيته وتعليمه وتثقيفه ، وماكاد هذا الطفل يبلغ أشده حتى تكشفت مواهبه ، فأبدى فى مستهل عمره امتيازا وتفوقا ، وتجلت براعته فى النحو والشعر والتاريخ ، واظهر استعدادا ملحوظا فى فنون الحرب والفروسية بعد أن حفظ القرآن ودرس السنة ، فازداد اقبال جده عليه ، وايثاره له ، واخذ فى ترشيحه لمختلف المهمات ، واقعده فى بعض الايام والاعياد وشتى المناسبات مقعد نفسه لتسليم الجند عليه ، وليألفوا طاعته ، ولم يكن هناك قانون لوراثة الملك واجب الطاعة مرعى الحرمة ، وانما كان المتبع فى المعتاد حينما يخلو العرش أن يعتليه من الأبناء

الأكبر سنا أو الاكثر كفاية من أفراد الاسرة المالكة ، فلما توفى الامير عبد الله فى ليلة الخميس من مستهل ربيع الاول سنة ٣٠٠ هجرية ودفن فى قصره بقرطبة ولى عبد الرحمن فى اليوم نفسه الذى توفى فيه جده ، وقد تهيأ اجلاسه على العرش بغير منازعة ، وقيل بان جده رمى بخاتمه اليه ابانة منه لاستخلافه ، وكان أول من بايعه أعمامه أولاد الامير عبد الله ، وتلاهم اخوة جده ، وتكلم واحد منهم حينما بايعه مثنيا عليه بكل جميل . ولم يتريث أحد من أعمامه أو سائر أقاربه فى مبايعته ولعل السبب فى ذلك من ناحية ان عبد الرحمن كان مرضى السيرة ، محمود العشرة ، قد عرف كيف يكسب ود الجميع ، ويوحى الى كل من اتصل به الثقة بمواهبه ، والاعجاب بسلوكه ، ومن ناحية أخرى أن أحوال الاندلس الداخلية والخارجية حين وفاة جده كانت على غير مايرام ، وكان النهوض بأعباء الحكم محفوفا بالمكاره ، حافلا بالصعاب ، فقد تكاثرت الفتوق والثورات ، واستفحل خطر الخارجين على الطاعة ، والمنتهزين فى مختلف أنحاء الأندلس، وكان من الواضح أن مصير الامارة الاندلسية معرض للزوال ان لم يتقدم لانقاذها رجل قوى العزم ، راجح العقل ، ميمون النقيبة ، وبرغم أن عبد الرحمن لم يكن قد سبق له أن قاد جيشا مظفرا ، أو أخمد ثورة قائمة ، أو فرج أزمة سياسية مستعصية الا أن الجميع برغم ذلك بايعوه مبايعة رضى واغتباط ، واستبشروا بمقدمه ، واعتلاء همته ، ورجوا ماتحقق لهم بعد ذلك من رعايتهم والدفاع عن حرماتهم ، وصلاح الأحوال ، وتجرده لاستئصال الفتنة والتمهيد للطاعة والنظام ، وقد جلس فى محراب المجلس الكامل بقصر قرطبة وتولى أخذ البيعة له من الخاصة والعامة بدر بن أحمد

مولاه ، وموسى بن محمد بن حدير صاحب المدينة ، وفى يوم ولايته يقول أحمد بن عبد ربه صاحب العقد الفريد من قصيدة :

بدا الهلال جديدا والملك غض جديد
يانعمة الله زيدى ان كان فيك مزيد
ان كان للصوم فطر فأنت للدهر عيد

وكان بنو أمية فى الأندلس قد حرصوا على ابقاء اسم الوزير ، ولكنهم قسموا خطته أصنافا ، وأفردوا لكل صنف وزيرا ، فجعلوا لحساب المال وزيرا ، وللترسيل وزيرا ، وللنظر فى حوائج المظلومين وزيرا . وللنظر فى أحوال الثغور وزيرا ، وكان هؤلاء الوزراء ينفذون أمر السلطان كل فيما جعل له ، وأفرد للتردد بينهم وبين الامير واحد منهم ارتفع عنهم بمباشرته للأمير فى كل وقت وخصوه باسم الحاجب ، اى أن وظيفة الحاجب تعادل فى المصطلح الحديث وظيفة رئيس مجلس الوزراء ، وقد شرع عبد الرحمن يوم مبايعته فى تأليف الوزارة الجديدة ، فاختار مولاه بدرا للحجابة مع خطة الخيل الى ماكان اليه من خطة البريد ، وولى موسى ابن محمد الوزارة الى ماكان اليه من خطة المدينة ، وهى بمثابة محافظ المدينة ، واقر أحمد بن محمد بن أبى عبدة على القيادة ، وكان يعد من أقدر قادة الجيوش فى الاندلس ، واقر قاسم بن وليد الكلبى على الشرطة العليا ، وكان مع ذلك خازنا للمال ، فصرف الخزانة عنه وولاها عبد الملك بن جهور ، وولى الخزانة أيضا محمد بن عبيدة بن مبشر ومحمد ابن عبد الله بن أبى عبدة ، واختار ثلاثة وزراء لخطة العرض وهم عمر بن محمد بن غانم ، وعبد الرحمن بن عبد الله

الزجالى ، ومحمد بن سليمان بن وانسوس ، وعهد بكثيرمن المناصب العالية الى رجال سبق لهم أن مارسوا مختلف الاعمال الادارية وأظهروا فيها كفاية وقدرة ، وعرفوا بالسيرة الحسنة والسمعة الطيبة ، وعهد اليهم بالكتابة ببيعته الى الكور والاطراف ، ويصف لنا ابن عذارى هذا الشاب الذى ولى امارة الأندلس بقوله « أبيض ربعة أشهل حسن الجسم جميل بهى يخضب بالسواد» ، وقد جرى فى عروقه الدم الاسبانى والدم العربى ، وتضافرت وسامة طلعته ، وحسن سمعته ، وكريم أخلاقه ، وقوة ادراكه ، على أن تجعل منه أميرا عظيما يحبه شعبه ، ويخضع له أعداؤه ومنافسوه ، واذا كان ظهور الابطال ونوادر الرجال فى التاريخ نتيجة للحاجة الملحة ، والضرورة القاهرة ، فان الظروف الحرجة ، والأزمات الحازبة ، والاخطار المحدقة بالدولة الاموية فى الاندلس كانت تستلزم ظهور مثل هذا «المخلص» ، وكأنما أوحت الأقدار الى جده عبد الله باختياره لولاية الحكم دون أعمامه من أولاد الامير عبد الله وأعمام ابيه وسائر أفراد بنى أمية ، لينقذ الموقف المتداعى ، ويخرج الامارة الأندلسية من المأزق الذى تورطت فيه .

عهد الثورات
والعصاة المتمردين

كان عبد الرحمن الناصر ثامن الامراء الذين تولوا عرش الأندلس من البيت الاموى ، ولم تخل عهود الأمراء الذين سبقوه من ثورات واضطرابات ، وكان الحكم فى الاندلس الاسلامية يستلزم اليقظة المستمرة والجهاد الدائم لدفع غوائل الثورات والانقلابات والمحافظة على النظام والاستقرار، ولكن الفترة الممتدة من سنة ٢٣٨ هجرية الى سنة ٣٠٠ هجرية والتى شملت حكم الامير محمد بن عبد الرحمن الأوسط ، والأمير المنذر ، والأمير عبد الله ، كانت بوجه خاص من أشد الفترات اضطرابا وأحفلها بالثورات ، فقد تفاقمت فيها الخلافات بين العناصر المختلفة التى كانت تتكون منها معظم سكان الاندلس الاسلامية ، وكثر عدد الثائرين المتمردين والخارجين على الطاعة والنظام من ذوى الشخصيات القوية والشجاعة النادرة سواء من العرب أو البربر أو المستعربين أو المولدين ، وقد عزا بعض المؤرخين ذلك الى ضعف الولاة الذين تولوا الامارة فى تلك الفترة . ولكن الواقع اننا نظلم هؤلاء الولاة اذا رميناهم بالضعف والتقصير ، فانهم لم يقصروا فى الجهاد ، ولم يدخروا جهدا فى العمل على اخماد الثورات واخضاع المتمردين ، ولكن الأحداث المتلاحقة كانت من وراء قدرتهم ، وفوق مستوى

همتهم ، وبرغم ما بذلوا من جهد وما أنفقوا من وقت فى معالجة الأزمات المتلاحقة فانهم لم يستطيعوا التغلب عليها ، مما جعل عبد الرحمن يرث تركة مثقلة بالديون ، وموقفا يكاد يغرى باليأس .

وقد كان المسلمون فى الاندلس يعاملون اخوانهم النصارى خير معاملة ، وقد تركوا لهم حرية العبادة ، ولم يتدخلوا فى شيء من عقائدهم ، فكانوا يتجرون ، ويجمعون الثروات ، ويقتنون الضياع ، ويعيشون فى رغد كما يعيش أضرابهم من المسلمين ، وعملوا على الاستفادة من سماحة الحكام المسلمين ولينهم وسعة افقهم ، وبطبيعة الحال كان هناك بين المسيحيين بعض الطموحين المتحمسين الذين ساءهم خضوع الاندلس للمسلمين ، وعادت بهم الذكريات الى ما قبل دخول العرب الى أسبانيا ، والى ما كانوا يستمتعون به من حرية كاملة وسيطرة تامة ، وحدث فى أواخر حكم الامير عبد الرحمن الاوسط أن عددا قليلا من النصارى بقرطبة التهبت نفوسهم غيرة وتعصبا لدينهم ، وكان هذا التعصب الطارىء مقصورا على نصارى قرطبة ، أما جمهرة النصارى بالأندلس فلم تصبهم هذه الغيرة العنيفة ، وكان كثيرون من المسيحيين يعملون فى الجيش ، وظفر بعضهم بمناصب عالية فى الدولة ، وأقبل فريق كبير منهم على دراسة الأدب العربى ، وشغفوا به ، وأعرضوا عن الادب اللاتينى مما بعث بعض القساوسة على أن ينعى عليهم ذلك ، ويلومهم لتركهم دراسة الأناجيل وأخبار الرسل ، ولكن هذا الأخذ بالثقافة العربية الاسلامية لم يخمد فيهم مع ذلك النزعة القومية ، وكانوا يغبطون اخوانهم فى المناطق الشمالية من أسبانيا الذين يحكمهم أمراء مسيحيون من بنى جلدتهم ،

وكانـوا من الحـين الى الحـين يتعرضـون لمواقف تثـير حساسيتهم وكبرياءهم القومية ، وكان القساوسة قد كونوا أفكارا خاطئة عن الدين الاسـلامى ونبى المسـلمين وكانوا يعتمدون فى تقديرهم للاسلام وصاحب الرسالة على المراجع اللاتينية التى لاتقدم لهم معلومات سليمة خالية من الاخطاء والتحريف والزراية بالاسلام ونبى المسلمين ، كما أن ميل العرب الى الاستمتاع بالحياة والأخذ بنصيب من متعها المباحة كان يثير النقمة فى نفوس القسـاوسة النزاعين الى الزهـد والتخلى عن لذات الحياة ، وكانت الاكثرية المستنيرة من المسلمين تعرف لرجـال الدين حـرمتهم سـواء أكانوا من المسلمين أم من المسيحيين ، ولكن بعض العـامة كشأنهم فى مختلف البيئات كانوا يميلون فى بعض الاوقات الىالاستخفاف بالقساوسة ، وقد أدى ذلك فى العاصـمة الى ظهور حـركة الاستشهاد فى آخر أيام الأمير عبد الرحمن الأوسط ، وعمل على اثارة هذه الحركة فى نفوس المسيحيين فى قرطبة القس البجيوس — وهو من أسرة مسيحية قديمة فى قرطبة عرفت بشدة استمساكها بالدين المسيحى — ورجل آخر من أعيان المسيحيين يدعى الفارو ، وكان طالبو الاستشهـاد يلجـأون الى أسلوب عجيب فى التماسـه ، وهو المعـالنة بالطعن فى الديانة الاسلامية ، وتوجيه السباب المقـذع الى صـاحب الرسالة ، واستمرت هذه الحركة فى قرطبة بضع سنوات ، ولم تهدأ الا بعد أن تدخل بعض كبار رجال الدين المسيحى فى عهد الامير محمد ، وكثر شهداؤها ، ومهما يكن من أمـر هذه الحركة فانها تركت آثارها فى نفوس المسيحيين والمسلمين بوجه عام ، وكانت من أسـباب الفتن والاضطرابات التى ملأت ذلك العهد .

ومن أشهر الثائرين فى تلك الفترة ، وأشدهم خطورة، وأطولهم عهداً ، وأكثرهم اضراراً بهيبة الدولة الثائر الشهير عمر بن حفصون ، ويقول عنه المؤرخ الاندلسى ابن حيان «هو كبير الثوار بالاندلس ، ونسبه عمر بن حفصون المعروف بحفص بن عمر بن جعفر بن شتيم بن ذبيان بن فرغلوش بن اذفونش من مسالمة الذمة من كورة تاكرنا من عمل رندة . وكان الذى أسلم منهم جعفر بن شتيم .. وكان له من الولد الذكور عمر وعبد الرحمن ، فولد عمر بن جعفر حفصونا وولد حفصون عمر هذا الثائر الملعون .. وبلغ فى الشقاق والفتن منزلة لم يبلغها ثائر بالأندلس » ويقول المؤرخ دوزى انه من أسرة عريقة ترجع الى أصل قوطى ، وان جدهم جعفرا اعتنق الاسلام فى عهد الحكم الاول ، ولكن ذريته كانوا مسلمين فى الظاهر مع احتفاظهم بالولاء للمسيحية فى أعماق نفوسهم ، وقد استطاع حفص والد عمر باجتهاده وحسن تدبيره أن يجمع ثروة ضخمة ، ولذا رأى جيرانه تشريفه بجعل اسمه «حفصون» بدلا من حفص ، ولم يكن مايكدر صفو حياة الرجل سوى سوء أخلاق ابنه عمر ، فقد عجز عن أن يفرض عليه السيطرة الابوية وسبب ذلك له قلقا دائما ، وكان الشاب عمر مدلا بنفسه ، تياها كثير التعاظم ، ميالا الى المشاغبة ، وكانت تكفى اشارة عارضة أو كلمة عابرة لاثارة غضبه واستفزازه الى العدوان ، وطالما عاد الى منزل والده محمولا مثقلا بالكدمات والجروح ، ومثل هذا الخلق الجامح لابد أن يفضى الى ارتكاب جريمة القتل ، وحدث ذات يوم أن ثار خلاف بينه وبين أحد جيرانه لم يكن له مايسوغه، وأسفر عن قتله لذلك الجار ، واضطر والده انقاذا لحياته من القصاص أن يفر به الى المنطقة الجبلية القريبة من مدينة رنده عند سفح جبل ببشتر تاركا الضيعة التى كانت أسرته

مقيمة بها ، وفى تلك المنطقة الموحشة ألف الشـاب المتمرد حياة الغابات المتكاثفة ومخارم الجبال المتأبدة ، وقد اغراه ذلك بالاندماج فى زمرة اللصوص وقطاع الطرق والمغـامرين الفتاك ، ووقع فى يد حاكم المنطقة ، وعوقب بالجلد ، ولمـا حاول العودة الى منزل والده أبى الوالد ان يلوذ بحماه هذا الابن العاق السيىء السيرة النزاع الى الاجرام ، ولما ضاقت به سبل الحياة فى الاندلس أخذ طريقه الى الشاطىء وابحر فى احدى السفن الى الشاطىء الافريقى ، وبعد أن عانى حينا من الزمن حياة التشرد أفضى به التطواف الى مدينة تاهرت ، وهناك عمل صبيا عند حائك من أهل ريه وكان له به معرفة سابقة ، وفى ذات يوم بينما كان عمر مقبلا على عمله دخل الى الحانوت الذى يعمل به رجل متقدم فى السن ، وبعد أن دعاه الحائك الى الجلوس دخل الرجل فى مناقشة معه اشـترك فيهـا عمر ، فسأل الرجل المسن الحائك عن عمر ، فأجابه الحائك انه من ريه ، وجاء ليتعلم الحياكة «فسأله الرجل» متى تركت ريه ؟ فأجاب عمر «منذ اربعين يوما»

فسأله قائلا «أتعرف جبل ببشتر ؟»

فأجاب عمر «منزل ابى فى سفح هذا الجبل»

فقال الرجل «هل قامت ثورة فى تلك الناحية ؟»

فأجاب عمر «لم يحدث ذلك» .

فقال الرجل وكأنه يحدث نفسه «عما قليل ! أتعرف فى جوار ذلك الجبل عمر بن حفصون ؟»

فامتقع وجه عمر ولزم الصمت ، وكان الرجل المسن من أصل اسبانى ، وحينما سمع عن مغامرات عمر وهو فى ناحية ببشتر اعتقد أن هذا الشاب المغامر سيكون من كبار

الزعماء وأدرك الرجل من تغير وجه عمر ولزومه الصمت أنه يخاطب ابن حفصون نفسه ، فقال له «اتظن انك تطارد الفقر بابرة الحائك ؟ عد الى بلدك واحمل السيف بـدلا من ذلك فانك ستكون مصدر رعب للأمـويين وسـتتولى حكم أمـة عظيمة» .

وتركت هذه الكلمات أثرها فى نفس عمر ، وداخـله الخوف من أن اسمه قد يعرف في تاهرت ويصل الى مسامع الحاكم فيعمل على تسليمه لحكومة قرطبة التى كانت تاهرت موالية لها ، وابتدر العودة الى الاندلس ، وبدأ تكوين عصابة فى جبل ببشتر وكان ذلك فى سنة ٨٨٠ ميلادية (٢٦٧هجرية) وكان فى الجبل بقايا حصن من العهد الرومانى ، ولم يجـد عمر صعوبة في ترميم بقايا هذا الحصن ، ولم يكن هناك مكان اكثر ملاءمة واشد منه مناعة لايواء عصابة من اللصوص او الثائرين المتمردين على النظام ، فقد كان هذا الحصن قائمـا على صخرة عالية شديدة الانحدار يمتنع الوصول اليها من ناحية الشرق ومن ناحية الجنـوب ، وكان من مزايا هـذا الحصن المنيع أنه على مقربة من السهل المنبسط حتى قرطبة والذى تستطيع فيه عصـابة ابن حفصون أن تشن غارات لسرقة الماشية ، وفرض الضرائب على المزارعين فى الأنحـاء النائية المنعزلة ، ولما قوى شأنه وكثر انصاره واتباعه صـار يتجه بغاراته الى أبواب المدن ويقوم بحركات هجومية بارعة جعلت حاكم منطقة ريه يقدم على مهاجمته بمن معـه من الجند ، ولكن ابن حفصون تغلب عليه ، وعزا أمير قرطبـة ـ محمد بن عبد الرحمن الاوسط ـ ذلك الى ضعف الحاكم فعزله وعين حاكما جديدا لكورة ريه ، ولكن الحاكم الجـديد لم يستطع التغلب على ابن حفصون فهادنه ، ولكن هـذه

الهدنة لم يطل أجلها ، وعزل الحـاكم الجـديد ، وعاد ابن حفصون الى ماكان عليه من الشر وظل يقاوم مدة سنتين أو ثلاث سنوات ، وفى سنة ٢٧٠ هجرية (٨٨٣م) غزا القـائد هاشم بن عبد العزيز كورة ريه واستنزل عمر بن حفصون من قلعته ، وقدم به قرطبة ، فاحتفى به الامير محمد وأوسع له فى الاكرام ، وضمه مع رجاله الى جيشه ، ولم ير عمر ندحة عن قبول ذلك ، وحينما قاد هاشـم حملة لاخضـاع محمد بن لب زعيم بنى قسى فى الثغر الأعلى صحب معه ابن حفصون ، واظهر عمر ضروبا من الشجاعة فى الهجوم الذى شنه القائد وعاد معه الى قرطبة ، ولم يسترح ابن حفصون بعد ذلك لخدمة الأمير محمد ، وتاق الى حياة المغامرة التى الفها ، فهرب من قرطبة مع رجاله ولجأ الى جبل ببشستر سنة ٢٧١ هـ (٨٨٤ م) ووجه اهتمام الى استرداد قلعته ،وكان القائد هاشم الذى عرف أهميتها من الناحية الحـربية قد شحنها بالمقاتلة ، وزاد فى مناعة أبراجها ، ولكن ابن حفصون لم ييأس من الاستيلاء عليها ، وفاجأ حراسها بهجوم مفاجىء مكنه من استردادها ، وأخذ فى اثارة شعور الأنفة فى نفوس مواطنيه من المسلمين والمسيحيين قائلا لهم «(١) طالما عنف عليكم السلطان وانتزع أموالكم وحملكم فوق طاقتكم وأذلتكم العرب ، واستعبدتكم ؛ وانما أريد أن أقوم بثأركم وأخرجكم من عبوديتكم » وكان هذا النداء يجد صدى فى النفـوس . ويقول ابن عذارى : «كان ابن حفصون لايورد هذا على أحد الا اجابه وشكره ... وكان اتباعه شطار الناس وشرارهم، فكان يمنيهم بفتح البـلاد وغنـائم الأمـوال ، وكان مع ذلك متحببا لاصحابه متواضعا لالافه ، وكان مع شرهه وفسـقه

---

(١) الجزء الثانى من البيان المغرب لابن عذارى صفحة ١٧٢ .

شديد الغيرة ، حافظا للحرمة ، فكان ذلك مما يميل النفوس اليه ، وكانت المرأة فى أيامه تجىء بالمال والمتاع من بلد الى بلد منفردة لا يعترضها أحد من خلق الله ، وكانت عقوبته السيف ، يصدق المرأة والرجل والصبى أو من كان على من كان ، لا يطلب على ذلك شاهداً أكثر من الشكوى ، وكان يأخذ الحق من ابنه ، ويبر الرجال ، ويكرم الشجعان ، واذا قدر عليهم عفا عنهم ، وكان يسورهم باسورة ذهب اذا اختصلوا ، فكانت هذه الأشياء كلها عونا له » وامتدت غاراته الى قبرة والبيرة ، وأحواز جيان ، ومر ما يقرب من عامين قبل أن يوجه الأمير محمد جيشا بقيادة ابنه وولى عهده المنذر لمهاجمة هذا الثائر الذى أقام نفسه مدافعا عن المولدين والمستعربين والمضطهدين فى زعمه ، والذين يسىء العرب والبربر معاملتهم ، وهاجم المنذر حصن الحامة ، وكان صاحبه من أنصار ابن حفصون ، فأسرع الى نجدته ، واستمر الحصار شهرين تناقصت خلالهما المؤونة المدخرة ، واضطر المدافعون عن الحصن الى القيام بهجوم على الجيش المحاصر ، ولكنهم لم ينجحوا فى هذا الهجوم ، وأصيب ابن حفصون بجروح كثيرة وقطعت يده ولاذ بحصنه بعد أن فقد عددا من رجاله ، ولكن الحظ أسعفه ، فقد مات فى ذلك الوقت الامير محمد ، واضطر المنذر الى العودة لقرطبة وتمت له البيعة فى اليوم الثانى من وصوله .

ولما بلغ ابن حفصون نبأ وفاة الأمير محمد فى سنة ٢٧٣ هـ راسل الحصون التى بينه وبين الساحل كلها فأجابته ، وطاعت له ، وجمع أموالا كثيرة قوى بها شأنه ولكنه وجد فى الأمير المنذر الذى ارتقى العرش ندا قويا ، فقد كان المنذر أميرا ناهض العزم ، قوى الشكيمة ، شجاعا

مقداما ، ويعتقد أولياء بنى أمية انه لو مد له فى العمر لاستطاع اخماد الثورات القائمة واخضاع العصاة المتمردين فى المناطق الجنوبية ، ومهما يكن من الأمر فانه فى سنة ٢٧٤ هـ (٩٨٤ م) خرج من قرطبة بجيوشه لمقاتلة عمر بن حفصون ، وافتتح حصون برية ، ثم توجه الى قلعته فى ببشتر وحاصره بها ، وأفسد ما حواليه ، وضيق عليه ، ثم انتقل عنه الى ارشيذونه فأقام عليها محاصرا ومضيقا على أهلها ، الى أن نبذوا عيشونا ــ وهو من حلفاء ابن حفصون ــ وأسلموه ، فدخلها الأمير المنذر ، وقبض على عيشون وأصحابه ، وافتتح حصون بنى مطروح وعون وطالوت بجبل باغة وبعث بهم الى قرطبة وأمر بقتلهم مع عيشون ، وفى العام التالى من ولايته خرج فى عديد أكثر وقصد ببشتر وقاتل ابن حفصون أشد قتال واستولى على السهول والأوعار المحيطة بقلعته ، ولما رأى ابن حفصون ان الأمير المنذر قد أخذ بمخنقه ، وسد أفواه طرقه لجأ الى المخادعة ، وأظهر الميل الى الطاعة ، على أن يكون عند الأمير من خاصة جنده ، وأن يقيم بقرطبة بأهله وولده ، فأجابه الأمير المنذر الى مطلبه ، وسأل الأمير مائة بغل يحمل عليها متاعه وعياله ، فأمر الامير البغال أن تحمل اليه ، وتوضع بين يديه ، وجعل عليها عشرة من العرفاء ومائة وخمسين فارسا اتماما للاكرام والانعام ، فأرسلهم ابن حفصون الى ببشتر حيث أهله وولده ، واغتنم ابن حفصون فرصة ابتعاد جيش الامير عن ببشتر واقبال الليل وخف هاربا اليها مسرعا واستولى على البغال المرسلة اليها ، واغضب ذلك الامير المنذر فأقسم أن يقصده ولا يقبل منه أو يلقى بيده اليه ، واستجمع قوته لحصار ببشتر ، وشدد الحصار ، ولكن الموت لم يمهله ، وكان الأمير عبد الله حينذاك بقرطبة ، فأبلغه الخصيان خبر

موت اخيه فحضر الى ببشتر ، وقفل الى قرطبة بأخيه المنذر ميتا ، واستتم بهـا بيعته ، ودفن أخاه ، وكانت الجنـود المحاصرة لابن حفصـون قد ملت الحصـار فلما بلغهم موت الأمير المنذر تفرق شملهم فى أثناء العودة الى قرطبة ، فلما وصل الامير عبد الله الى العاصمة لم يكن معه سوى أربعين فارسا .

واستغل زعماء القبائل العربية التصدع فى بناء الدولة الأموية الذى أحدثتـه ثورة ابن حفصـون ونزعوا الى الاستقلال ، ورأى الأمير عبد الله أن ثورة هؤلاء الزعماء أشد خطرا على الدولة من تمرد ابن حفصـون ، وخشى الأمير عبد الله العزلة ، وقدر أن عليه أن يختار أحـد الفريقين ، فريق المولدين والمستعربين أو فريق زعماء العرب ، ورأى التقرب من زعماء المولدين والمستعربين ، وقبل أن يحكم ابن حفصون منطقة ريه ، على شريطة أن يعترف له بسـلطته عليها ، وقبل ابن حفصون هذه المساومة ، وإرسـل ابنـه وبعض رجال حاشيته الى قرطبة ليـكون ذلك دليـلا على اخلاصه فى ولائه ، وحاول الأمير عبد الله من ناحيتـه تقوية صلته بابن حفصون فأكرم وفادتهم وأثقلهم بالهدايا ، ولـكن بعد مضى أشهر لم يستطع ابن حفصون كبح جماح جنوده ومنعهم من الاغارة على القرى والمزارع حتى أبواب مدينـة استجة واشـونة ، بل اقتربت غاراتهم من أبواب قرطبـة نفسها ، وحينما تغلب رجـاله على الجيش الذى أرسـله عبد الله لرد تلك الغارات أعلن العصيان وطرد عمـال الأمير ولم تنجح سياسة الامير عبد الله فى التقرب من المستعربين والمولدين ، ووسع ذلك شقة الخلاف بينه وبين قومه العرب، ولم يكن من المنتظر أن يدينوا بالولاء لامير قد أصبح العوبة فى يد خصومهم من المسـتعربين والمولدين ، وكان العـرب

المقيمون في منطقة البيرة اكثرهم من سلالة جند دمشق ، وكانوا يؤثرون الاقامة في أرباض المدينة وضواحيها ، ويشمخون بأنوفهم على المولدين والمستعربين ، ولذلك اثاروا البغضاء في نفوسهم ، وكثر الاحتكاك بين الفريقين ، وعند ابتداء ولاية الامير عبد الله كان الصراع بين الفريقين قد اشتد ، وخرج أشراف العرب على الأمير عبد الله ، واختاروا لهم زعيما من القيسية وهو يحيى بن صقالة الذى كان من اشجع رجال عصره ، واحتل العرب موقعا حصينا في شمال شرقى غرناطة ، فقام المولدون والمستعمربون بحصارهم في ذلك الحصن ، وقتلوا عددا من المدافعين عنه ، واستولوا عليه في النهاية ، واضطر ابن صقالة الى الهرب ، ولما وجد نفسه في قلة من الاتباع ألقى السلاح ، وعقد صلحا مع المولدين والمستعربين ، واشتبك بعد ذلك في مؤامرة ، وقتله المولدون والمستعربون في ربيع سنة ٨٩٩ م (٢٧٦ هـ) وكان سوار بن حمدون القيسى من اصحاب ابن صقالة ، فرأسه العرب عليهم بعد مقتله ، واشتد به أمر العرب ، وكثر أتباعه وقام مطالبا بثأر صاحبه ، وكان شجاعا محاربا كما يقول (١) ابن الابار ، واعتز العرب بمكانه ، وقصد حصنا اجتمع فيه المولدون والمستعربون وهو حصن منت شاقر فنازلهم بالعرب حتى قهرهم ، وأخرج منه زعيمهم نابلا ، وكان نابل قد انتزع هذا الحصن من صقالة فاسترده سوار ، وافتتح بعد ذلك حصونا أخرى من حصون المولدين والمستعربين وقتل من ظفر به منهم وغنم أموالهم ، ولقيه جعد بن عبد الغافر — عامل الأمير عبد الله — فهزمه سوار وقتل من أصحابه نحوا من سبعة آلاف ، وأسر جعدا ، ومن عليه وأطلقه وأبلغه مأمنه .

(١) الجزء الاول من الحلة السيراء صفحة ١٤٨ .

وغلظ أمر سوار واستبق الى حصن غرناطة بالقرب من كورة البيرة ، واتصلت عرب النواحي الى حدود قلعة رباح وغيرها ، وصاروا معه البا على المولدين والمستعربين وعظم شأن سوار ، وعلت همته ، وأملته العرب ، وأكثر من الفخار بنفسه ، وحدثت معركة بينه وبين ابن حفصون أوقع فيها بأصحابه ، وقتل منهم عددا كبيرا ، وتعرف هذه المعركة « بوقيعة المدينة » ، وقد أشار الى هذه الوقيعة سعيد بن جودى السعدى صاحب سوار بقوله في قصيدة له :

لقد سل سوار عليكم مهندا
يجذ به الهامات جذ المفاصل

به قتل الله الذين تحزبوا
علينا وكانوا أهل افك وباطل

سما لبنى (١) الحمراء اذ حان حينهم
بجمع كمثل الطود أرعن رافل

لقيتم لنا ملمومة مستجيرة
تجيد ضراب السهم تحت العوامل

بها من بنى عدنان فتيان غارة
ومن آل قحطان كمثل الأجادل

يقودهم ليث هزبر ضبارم
محش حروب ماجد غير خامل

وكان لكل فريق من الفريقين المتصارعين شاعر ينافح عنه ويتغنى بمواقفه ويشيد بالأبطال من رجاله ، وكان شاعر

(١) كان العرب يسمون أهل منطقة رية بالحمراء لانهم من أصل اسبانى .

المولدين والمستعربين وهم من النصارى هو عبد الرحمن ابن أحمد المعروف بالعبلي وكان يقابله فى الجانب العربى محمد بن سعيد بن مخارق الاسدى ، وحينما نظم العبلى قصيدته فى هزيمة العرب التى أولها :

قد انقصفت قناتهم وذلوا
وضعضع ركن عزهم الأذل

اجابه يحيى ابن أخى يحيى بن صقالة من قصيدة طويلة يمدح فيه سوارا ويذكر وقيعة البيرة ويناقض العبلى :

لسوار على الأعداء سيف
أباد ذوى الغواية فاضمحلوا

سقاهم كأس حتف بعد حتف
بها نهل العبيد معا وعلوا

قتلت بواحد سوار ألفا
والفهم بواحدنا يقل

وأكثر قتلنا لهم حلال
بما ارتكبوه ظلما واستحلوا

فأوردنا رقابهم سيوفا
تشب النار فيها اذ تسل

ورثنا العز عن آباء صدق
وارثكم بنى العبدان ذل

وعامل سوار المولدين والمسالمة من المستعمرين معاملة شديدة قاسية فى كور جيان والبيرة وريه ، وقد دفعتهم هذه الشدة الى الانضمام الى عمر بن حفصون ، وآل الأمر الى أن

قتل سوار في احدى المعارك ، وقاتله حفص بن المرة قائد عمر ابن حفصون ، ولما قتل سوار ذلت العرب بمقتله ، وكل حدها بما نزل فيه ، على حد تعبير (١) ابن الابار ، ونصبت العرب لرياستها بعده سعيد بن سليمان بن جودى صاحبه ،وعلقت آمالها به ، فلم يسد مكانه ، ولا بلغ مداه في السياسة ، وكان شجاعا بطلا وفارسا مقداما ، وشاعرا محسنا ، وهابه ابن حفصون هيبة لم يهبها أحدا ممن مارسه ، ودعاه في بعض أيامهم الى المبارزة ، فلم يجبه ابن حفصون اليها وحاد عنه وواجهه يوما ، فألقى عليه ذراعه واجتذبه الى الأرض ، فما نجاه منه الا أصحابه الذين انقضوا على سعيد فتنقذوا عمر من يده ، وقد قتل سعيد غيلة بأيدى بعض أصحابه في سنة ٢٨٤ هـ، وقيل ان من أقوى أسباب قتله أبياتا من الشعر قالها في غمص أمراء بني مروان منها :

يا بني مروان جدوا في الهرب
نجم الثائر من وادي القصب
يا بني مروان خلوا ملكنا
انما الملك لأبناء العرب

وفي رواية ابن حيان ان صدر البيت الأول « قل لعبدالله يجدد في الهرب وأضاف اليها بيتا ثالثا :

قربوا الورد المحلى بالذهب
واسرجوه ان نجمي قد غلب

ورثاه الأسدى شاعر العرب في ذلك الأوان ، وقال فيه مقدم به معافى القبرى يرثيه :

(١) الحلة السيراء لابن الابار الجزء الاول صفحة ١٥٥ .

من ذا الذى يطعم أو يكسو
وقد حوى حلف الندى رمس

لا اخضرت الأرض ولا أوراق
العـود ولا أشرقت الشمس

بعد ابن جودى الذى لن ترى
اكرم منه الجن والأنس

دموع عينى فى سـبيل الأسى
على سـعيد أبدا حبس

وقام بأمر العرب بعده محمد بن أضـحى الهمدانى صاحب حصن الحمة ، وناصب ابن حفصون الحرب ، وظفر به ابن حفصون فى احدى الواقعات ، وصار عنده أسيرا ، ففداه العرب منه بمال جسيم ، وخضع بعد ذلك لطاعة الأمير ·

وفى خلال الصراع بين العرب والمولدين والمستعربين فى كورة البيرة وقعت أحداث خطيرة فى إشبيلية ، وكانت مدينة اشبيلية منذ عهد القوط مستقر الحضارة الرومانية ومكـان اقامة أعرق الأسر وأوسعها ثراء ، ولم يغير الفتح الاسـلامى الا القليل من نظامها الاجتماعى ، وكان أكثر سكانهـا من العرب يقيمون فى الضواحى وقليل منهم من كان يؤثرالسكنى فى داخل المدينة ، ولذلك كان أغلب سكانها من سلالة الرومان والقوط ، وقد زادت التجارة والزراعة فى ثرواتهم ، وكثير من الاشبيليين تركوا المسيحية واعتنقوا الاسلام ، وكانوا يؤثرون المسالمة والطاعة ، وينظرون الى الأمير باعتباره القيم على الأمن والنظام وحارسهما ، ولكنهم كانوا يخشـون بأس العرب المقيمين فى المناطق الزراعية حول حاضرتهم ، وكان العـرب المقيمون فى منطقة الشرف القريبة من اشبيلية أقوياء المراس

مرهوبي الجانب ، وقد كونوا حلفا مع العرب العدنانية فى منطقة اشبيلية ومع البربر البتر فى ناحية موررور ٠

وكان من بين الأسر العربية البارزة فى منطقة اشبيليه أسرتان هما بنو حجاج وبنو خلدون ، وكانت أسرة بنيحجاج من قبيلة لخم اليمنية ، وكذلك كانت أسرة بنى خـلدون من أصل يمني ، وفى أول عهد الامير عبد الله كان كريب رئيس بني خلدون ، وكان يضمر العداء لبنى أمية وكان يتطلع الى أن تسترد أسرته السيطرة التى استلبها منها الأمويون ، وحاول فى بادىء الأمر أن يدعو عرب اشبيلية الى الثورة ، ويحـــرك فى نفوسهم حب الحرية والانطلاق ، ولكنه لم يوفق فىذلك لأن معظم العرب فى تلك الناحية كانوا قرشيين أو من موالى الاسرة الأموية ، وكانوا يؤثرون الابقاء على سيطرة القـانون والمحافظة على استقرار نظام الحكم ، فلم يظهروا عطفا علىماكان يتطلع اليه كريب ، وصارحوه بأنهم لا يريدون أن يكونوا مطية لتحقيق مطامع أى زعيم ، ولما أخفق فى محاولة تحريك بواعث الثورة فى سكان اشبيلية من العرب لجأ الى الشرف ،واستطاع آثارة حماسة قبيلته ٠ ووعده رجالها بالقيام معه بالثورة متى بدأها ، وكون حلفا من بنى حجاج وزعيمى لبلة وشذونة وزعيم البربر فى قرمونة لانتزاع اشبيلية من سـيطرة بنى أمية ، وسلب المولدين والمستعربين ، وكانت الطبقة الارستقراطيـة فى اشبيلية تجهل ما يدبره كريب ، وترامت الى آذان أفرادها اشاعات غامضة عن هذه المؤامرة ولكن لم تكن عندهم معلومات وافية عنهـا ، وأراد كريب أن يبدأ حركته بالانتقام من هؤلاء الذين أحجموا عن الاسـتجابة لرغبته ، ولكى يريهم أن الأمير عبد الله لا يستطيع حمايتهم أسر الى برابر مريلة وميدلين أن مقاطعة اشبيلية تكاد تكون خالية من الجيـوش ، وانهم اذا

كانوا يريدون الحصول على الغنائم الضخمة فانها هناك في متناول أيديهم ، ولما كانوا مستعدين على الدوام لشن الغارات فانهم هاجموا طلياطة الواقعة على مسافة نصف فرسخ من اشبيلية ، وقتلوا الرجال ، وسبوا النساء والأطفال ، فجند حاكم اشبيلية كل من يستطيع حمل السلاح ، وتقدم لمهاجمة البربر ، ولما علم أنهم قد استولوا على طلياطة نصب معسكره على مرتفع يعرف بجبل الزيتون ، ولم يكن بينه وبين العدو سوى ثلاثة أميال ، واستعد الفريقان للمعركة التى ستقع فى اليوم التالى ، وكان كريب قد ضم رجاله الى جند الوالى مثل سائر الطبقة الارستقراطية فى اشبيلية ، ولكنه فى أثناء الليل أخبر البربر بأنه سيأمر رجاله بالانسحاب فى أثناء المعركة ، وبذلك يجعل انتصارهم سهلا ، ووفى بوعده ، وعند انسحابه من المعركة تبعه سائر الجيش ، وطاردت البربر الوالى الذى ظل يتراجع حتى قرية وبرة الواقعة على مسافة خمسة فراسخ من اشبيلية وهناك أقام معسكره وجمع أطرافه ، ولم يحاول البربر زحزحته ، وعادوا الى طلياطة وعسكروا بها ثلاثة أيام عاثوا فيها فسادا واتلافا فى النواحى المجاورة ثم حملوا غنائمهم وعادوا الى منازلهم .

وقد أضرت هذه الغارة الرهيبة بالكثيرين من ملاك الضياع فى اشبيلية ، وتبعتها نكبة أخرى لم يكن سببها كريب ، فان الثائر الخطير ابن مروان الجليقى الذى استولى على بطليوس حينما علم بالغنائم التى ظفر بها البربر المقيمون فى ناحية مريدة رأى أن يقوم بغارة مماثلة ، وتقدم الى مسافة عشرة أميال من اشبيلية ، وجد فى السلب والنهب وعاد محملا بالغنائم وأغضب موقف الوالى السلبى أهل اشبيلية ، وأثار حنقهم عليه ، واستجابة لشكواهم من تقاعده عزله الأمير ، وكان الوالى الذى خلفه تقى السمعة ، ولكنه عجز عن مقاومة المغيرين ،

والمحافظة على الأمن والنظام ، حتى كثرت الغارات ، وعم النهب والسلب ، وكان أشد اللصوص وقطاع الطرق وطأة تامشكا من برابرة قرمونة ، وكان يسطو على المسافرين فى الطريق بين اشبيلية وقرطبة ، ولم يستطع الوالى أن يتخذ أى اجراء لمقاومته ، وأخيرا تقدم أحد المولدين الشجعان وهو محمد بن غالب ووعد الأمير عبد الله بالقضاء على طغيان اللصوص اذا سمح له ببناء قلعة فى قرية سيتاتوريس الواقعة فى حدود اشبيلية واستجة ، وقبل الأمير هذا العرض ، وأقيمت القلعة ، وشحنها ابن غالب بعدد من المولدين وموالى بنى أمية ، وسرعان ما أدرك اللصوص أنه قد ظهر فى الميدان من يستطيع رد عدوانهم ، وتوطد الأمن واستقر النظام ، وفى ذات يوم عند شروق الشمس ذاع فى اشبيلية أنه حدث فى أثناء الليل صراع بين حرس قلعة ابن غالب وقبيلتى بنى خلدون وبنى حجاج ، وان أحد أفراد قبيلة بنى حجاج قتل فى المعركة وحملت جثته الى المدينة ، وأشيع أن بنى حجاج قد تقدموا الى الوالى يطلبون العدالة ، ولكنه رفض أن يتحمل التبعة ، وأحالهم على أمير قرطبة ليتولى بنفسه الفصل فى الموضوع ، والحكم فى هذه القضية ، وفى الوقت الذى أثارت فيه هذه الأنباء اشبيلية كان يؤم قرطبة وفدان : أحدهما وقد يمثل العرب وعلى رأسهم ممثلون لأسرتى بنى خلدون وبنى حجاج للشكوى من سلوك ابن غالب والوفد الآخر يمثل المولدين والمستعربين لبيان حقيقة ما حدث والدفاع عن موقف ابن غالب ، ورمى وفد العرب ابن غالب بأنه خائن ، وان رجاله عصابة من اللصوص والسفاحين وان الذين أشاروا على الأمير عبد الله بوضع ثقته فى ابن غالب قد غشوه ، واتهموه بأنه على اتصال خفى بالثائر الكبير ابن حفصون ، وجاء بعدهم وفد المولدين والمستعربين فذكروا للأمير ان بنى خلدون

وبنى حجاج قد دبرا مفاجأة القلعة فى أثناء الليل وأن ابن غالب كان قد احتاط للأمر ورد عن قلعته الهجوم المفاجىء ، فاذا كان أحد المهاجمين قد قتل فان وزر قتله لا يقع على ابن غالب الذى قام بما يلزمه به الدفاع المشروع عن النفس ، ونصحوا الأمير بألا يصـدق أكاذيب العرب المشاغبين ، وأن ابن غالب من أصدق الناس اخلاصا له وأشدهم ولاء للبيت الأموى ، وأنه بتطهيره المدينة والكورة من اللصوص قد أدى للدولة خـدمة جليلة ، ولم يقدم الأمير عبد الله على الفصل فى الموضوع خشية أن يغضب أحد الطرفين ، ورأى أن يوفد ابنه محمد الى اشبيلية للتحقيق فى هذه القضية ، ولما وصل الأمير محمد ــ وكان ولى عهد أبيه ــ الى اشبيلية استدعى ابن غالب وبنى حجاج لسماع أقوالهم ، وتبادل الفريقان التهم ، فلم يستطع محمد البت فى الموضوع لعدم وجود الشهود العدول ، وأدى هذا التردد من ناحية الأمير ونجله الى اثارة الخواطر فى اشبيلية واضطرام الفتنة ، وأعلن الأمير محمد أنه سيرجىء الحكم ، وسمح لابن غالب بأن يعود الى قلعته . وعد المولدون والمستعربون هذا انتصـارا لهم ، وأعلنوا أن الأمير فى جانبهم وأنه أمسك عن المصارحة برأيه واصدار حكمه تحاشيا لاثارة مشاعر العرب، وكان هـذا كذلك رأى بنى خلدون وبنى حجـاج ؛ ولذلك صمموا على الانتقام وأحداث الشغب ، واتفقوا على أن يقـوم كريب بالاستيلاء على حصن قورية ، وأن يتـولى عبد الله زعيم بنى حجاج الهجوم على قرمونة ، واستولى كريب على حصن قورية ، وغنم ما به وأستعان عبد الله بن حجاج بجنيد وهو من البربر فى امتلاك قرمونة ، وهرب واليها قاصدا أشبيلية، وأخافت جرأة العرب سكان المدينة ، فأرسل الأمير محمـد رسالة عاجلة الى والده يطلب النجـدة والرأى فى مواجهـة الموقف ، وحينما تلقى الأمير عبـد الله هـذه الرسالة شاور

وزراءه في الأمر فأشار عليه أحدهم بعد طلب الخلوة به بأن يأخذ جانب العرب ويقتل ابن غالب ، وأن ذلك سيكون كفيلا بعودة قورية وقرمونة الى سيطرته وتهدئة خواطر العرب ، ومال الأمير عبد الله الى الأخذ بهذا الرأى برغم ما فيه من التضحية برجل أعلن ولاءه للدولة وأعانها في قطع دابر اللصوص وقطاع الطرق ، واستعادة الأمن والنظام ، واستدعى قائده جعدا وأمره بالمسير مع بعض الفرق الى قرمونة ، ويعلن أنه في جانب متهمي ابن غالب ، ويقتله ، ويبذل كل جهده في اقناع العرب بالعودة الى مسالمته ، ولا يلجأ الى استعمال القوة الا بعد أن يبذل أقصى ما عنده في حملهم على الطاعة ، وسار جعد في طريقه ومع أنه لم يعلن ما كانت تستهدفه حملته الا أن المولدين والمستعربين أدركوا أن المقصود القضاء على ابن غالب واحتاط ابن غالب لنفسه ، واحتمى بالثائر ابن حفصون ، وتلقى بعد ذلك رسالة من القائد جعد يقول له فيها : ان هدف الحملة معاقبة العرب لما أظهروا من قسوة واخلالهم بالأمن ، وانه يريد الاستعانة به في تحقيق ذلك ، وخدع ابن غالب بهذه الدعوة الغادرة ، فلما اقترب جعد من قلعته انضم له ومعه كتيبة من رجاله ، وتظاهر جعد بالاستعداد لمحاصرة المدينة ، ولكنه في الوقت نفسه كتب الى ابن حجاج يخبره بأنه سيضحى بابن غالب على شريطة أن يخضع للأمير عبد الله ، وتمت الصفقة وقتل ابن غالب ، وترك ابن حجاج قرمونة ، ولما علم المولدون والمستعربون بمصرع ابن غالب أثار ذلك الغدر حنقهم ، واشتدت نقمتهم على الأمير عبد الله ، وصمموا على قتل أمية أخي جعد وكان حينذاك والى اشبيلية . ولكنهم وجدوا أنهم لا يستطيعون ذلك الا اذا تمت لهم السيطرة على المدينة ، فتقدموا الى الأمير محمد بالشكوى من جعد وغدره بابن غالب ، وذكروا له أنه يعتزم مهاجمة

المدينة ، وأنه اذا أراد أن يكسب ولاءهم ويجعلهم مدينين له بالشكر فان عليه أن يسلمهم مفاتيح المدينة حتى تنجلى الأزمة ، ولم يكن الأمير محمد على وفاق مع العرب وليس معه سوى القليل من الحرس فلم ير بدا من تسليمهم المفاتيح المطلوبة ، وأخذ جانب المولدين والمستعربين حلفاؤهم من العرب العدنانية والبربر البتر الذين وصلوا الى المدينة فى ٩ سبتمبر سنة ٨٨٩ م (٢٧٦ هجرية) وهاجمت جموع غفيرة قصر أمية ، وكان الهجوم مفاجئا الى حد أنه لم يتمكن من أن يحتذى حذاءه ، وأسرع ممتطيا جواده الى قصر الأمير وبعد أن نهب الثائرون قصر الحاكم تدفقت جموعهم على قصر الأمير وقد ارتفعت صيحاتهم ، وأحاطوا به وقد انضم الى الجمع الحاشد التجار والعمال والصناع ، وتوالت رسل الامير الى أعيان المدينة لتهدئة الخواطر وانقاذ الموقف ، وفى اللحظة التى اشتد فيها الخطر أقبل جعد ومعه عدد من الفرسان ، وشق طريقه شاهرا سيفه ، وأنقذ الأمير محمدا وأخاه بعد صراع عنيف سقط فيه الكثير من القتلى ، وعاد الأمير محمد وجعد الى قرطبة ، وجاء بعد ذهابهما ابن حفصون مطالبا برأس جعد ؛ لأنه قتل حليفه ابن غالب ، وبرغم أن جعدا قتل ابن غالب بايحاء من الأمير عبد الله الا أنه كان يعرف سطوة ابن حفصون وما يثيره من الرعب فى النفوس ، وخشى أن يضحى به استرضاء لابن حفصون ودفعا لشره ، ورأى أن الهرب هو الفرصة الوحيدة لاتقاء هذا الخطر ؛ ولذلك غادر العاصمة سرا فى جنح الليل لاجئا الى أخيه حاكم أشبيلية ، وصحبه أخواه الآخران هاشم وعبد الغافر وقليل من الأصدقاء ، وشاء سوء الحظ أن يلقاهم فى الطريق تاماشكا البربرى الذى كان يرتاد تلك الأنحاء ومعه عصابته ، وكان فى العصابة اثنان من اخوة ابن غالب ، وعرفا جعدا ،

وهاجمت العصابة جعدا وأخويه وأصدقاءه ، وقتلت جعدا وأخويه وأحد القرشيين ، وكان هذا العدوان كارثة للمولدين والمستعربين في اشبيلية فان أمية الذى عجز عن الانتقام من القتلة صب غضبه ونقمته على المولدين والمستعربين في اشبيلية ، وسلمهم الى أيدى بنى خلدون وبنى حجاج ، وحدثت مجزرة مروعة قتل فيها ألوف من المولدين والمستعربين والذين حاولوا الهرب غرقوا في نهر الوادى الكبير ، وساءت حالة الباقين على قيد الحياة منهم وتعرضوا للبؤس والفقر ، ولم يستفد الأمير عبد الله من اخماد هذه الثورة والقضاء على هذا الاضطراب ، وانما الذى أفاد منه وازداد سطوة هي القبائل العربية اليمنية ، وحاول أمية ايقاع الشقاق بين جنيد البربرى وعبد الله بن حجاج ، وكانا قد اقتسما السلطة في قرمونة ، كما حاول أن يحدث شقاقا بين كريب وحزبه ، ولكنه لم يوفق في مسعاه ، وقد أغرى جنيدا بقتل عبد الله بن حجاج ، ولكن مقتل عبد الله أضر به أكثر مما نفعه ، فقد خلف عبد الله في زعامة بنى حجاج ابنه ابراهيم ، وكان رجلا موهوبا ويخشى جانبه أكثر من أبيه ، وكان كريب زعيم بنى خلدون أدهى من أن يخدعه أمية ؛ ولذلك عجز عن النيل من اليمنية ، وقد اضطر أمية الى أن يدافع عن سيطرته على المدينة حتى خر قتيلا بعد أن قتل زوجاته وحرق كل ما يملك وعقر جياده ، وكتب اليمنيون الى الأمير عبد الله يخبرونه بمقتل أمية وأنه كان يضمر الثورة ، ولم يكن في وسع الأمير أن ينزل بهم العقوبة فقبل قولهم وأرسل لهم واليا جديدا ، ولكن هذا الوالى الجديد لم يكن له من الأمر شيء وكان العوبة في يد ابراهيم بن حجاج وكريب بن خلدون ، وظن الأمير عبد الله أنه قد يستطيع تحسين الموقف بتغيير الحاكم الجديد فأرسل واليا آخر على المدينة ومعه عمه هشام بن محمد

ولم يكن فى صحبتهما جيش ؛ ولذلك ظلت السيطرة على المدينة فى يد اليمنية ، وهكذا كان الموقف فى أشبيلية سنة ٨٩١ م (٢٧٨ هـ) وهى السنة الرابعة من حكم الأمير عبد الله ، وفى هذا التاريخ كانت معظم اسبانيا الاسـلامية قد نبذت الولاء للأمير عبد الله ، واستحوذ كل من العرب والبربر وسـلالة الأسبانيين على التركة الأموية ، وكان العرب أقلهم تصيبا ، ولم تكن لهم سيطرة الا فى اشبيلية ، أما فى غـيرها فكانوا يجدون صعوبة فى الاحتفاظ بسلطانهم ، وكثير منهم مثـل ابن عطاف صاحب منتيشة ، وابن السليم صاحب مدينة ابن السليم فى كورة شذونة وابن وضاح صاحب لورقة والانقر صاحب سرقسطة كانوا ينفذون أوامر الأمير عبد الله حينمـا يروقهم ذلك ، ولم يقطعوا صلتهم بقرطبة لأنهـم لم يكونوا واثقين من رسوخ أقدامهم فى تلك الولايات المعرضة للهجوم من شتى النواحى .

وكان البربر قد ارتدوا الى الحكم القبلى وقبول زعـامة رئيس القبيلة ، وكانوا أقوياء المراس وأقل من غيرهم ميلا الى الطاعة وسلاسة القياد ، وقد استولى الملاحى ـ وهو عمر بن مضم البنزوتى على حصن جيان وكان جنديا متدربا واستولى الأخوان خليل وسعيد على قلعتين فى كورة البيرة ، وهما من أسرة قديمة ، وكانت مقاطعة استراما دورا والنتيجة جميعهما على وجه التقريب فى يد البربر ، وكان ابن تاكيت البربرى من قبيلة مصمودة قد استولى على مريدة ، وقد طرد العرب وبربر قبيلة كتامة منها ، وكانت لا تهدأ الحرب بينـه وبين ابن مروان الجليقى صاحب بطليوس فانه لم ينس له مساعدته للأمير محمد حينما حاصر مريدة ، ولكن أقوى قبائل البربر جميعا كانت قبيلة بنى ذى النون ، وكان زعيمها موسى من الشخصيات البغيضة الماكرة ، وكان أولاده الثلاثة يشبهونه

فى قوة البنية وشدة المراس والميل الى العدوان وهم : الفتح صاحب أقليش ومطرف صاحب وبذة ويحيى وهو أشدهم ضرواة وأشدهم فتكا ، وكانوا يقودون عصابات اللصوص ولا ينفكون عن السطو والنهب والقتل ، وفى مقاطعة أكشونية فى الجنوب الغربى كان يسيطر بكر ، وقد استقل أبوه يحيى فى أواخر حكم الأمير محمد واستولى فى أول أمره على حصن شنت مارية واستطاع بذلك السيطرة على المنطقة ، وبكر نفسه كان يقيم فى مدينــة شــلب ، وله جيش منظم ومجلس استشارى وكان يحكم رعيته فى رفق ولين ، وزاد مركزه قوة بتحالفه مع ابن حفصون وابن مروان الجليقى صاحب بطليوس وغيرهما من المولدين، وكان جاره وحليفه فى الشمال عبد الملك ابن أبى الجماعة الذى اقتعد مدينة باجة ، وتحصــن بحصن مارتلة ، وأبعد من ذلك فى الناحية الشرقية فى جبال كان يسيطر عليها ابن مستنة وكان أكثر حلفاء ابن حفصون نشاط وكانت قلعته المسماة قرقبولة تعد من أشد القلاع مناعة ، وكان جميع سادة كورة جيــان حلفاء لابن حفصــون أو من أتبــاعه ، وهم خير بن شاكر صاحب حصن شوذر ، وسعيد ابن هذيل الذى امتلك حصن المنتلون وبنى قصبته وحصنها وأعلن بالخلاف ، وبنو هابل وهم أربعة اخوة خلعوا طاعة الأمير عبد الله واستولوا على بعض الحصون وأطلقوا الغارات ، منها حصن شان انتبن وابن الشالية وكان يملك عدة حصون منها قلعة ابن عمر وقلعة قزلونة وكان واسع الثراء يمنح الشعراء فى سخاء وملك ناحية جبل شمنتان وما يليها فى كورة جيان، وامتد الى حصن قســطلونة وغيره وقد بنى المبانى الفخمة واسمه لب بن عبد الله بن أمية ، وقد زوج ابنته لجعفر بن عمر بن حفصــون فاعتز جانبه ، وكان الشاعر عبيديس بن محمود كاتبــه ومتصرفا فى خدمته مكثرا من مديحــه واصفا

لمغازيه ومبانيه ، وكان يجزل عطيته ، ومن شعر عبيديس فى وصف قصره :

قصر الأمير أبى مروان منتسخ
من جنة الخلد بالسراء معمور

فيه مجالس قد شيدت على عمد
بنيانها مرمر بالتبر مطرور

ومن الثائرين فى هذه الفترة ديسم بن اسحاق الذى بسط سلطانه على مرسية ولورقة ومعظم كورة تدمير وكان له جيش وكان كريما محبوبا من رعيته .

وقد ظل ابن حفصون أقوى خصوم الأمير عبد الله ، وقد ازدادت سيطرته واتسع نفوذه وقويت سطوته فى عهد الأمير عبد الله وقد حاول الأمير مهاجمة ببشتر فى ربيع سنة ٨٨٩م (٢٧٦هـ) وفى طريقه اليها استولى على بعض الدساكرة ، وأتلف بعض الحقول ولم يكد يرجع بجيشه الى قرطبة حتى كان ابن حفصون قد استولى على استبة وأوشونة ، وسارع أهل استجة الى الاعتراف بسلطته ، وسألوه أن يحتل المدينة بجيشه ، وراع هذا النجاح السريع الأمير عبد الله فحشد ما استطاع حشده من الجيوش وعاد الى مهاجمة ابن حفصون ، ورأى ابن حفصون الاكتفاء بما فى سيطرته وقبل أن يعقد صلحا مع الأمير عبد الله مشترطا أن يظل مستوليا على ما فى حوزته من المدن والقلاع ، وقبل الأمير عبد الله هذا الشرط، ولم يعبأ ابن حفصون بالصلح المعقود بينه وبين الأمير واستولى على بيانة وصارت القلاع والحصون الواقعة جنوب نهر الوادى الكبير جميعها فى حوزته،ووثق من أن قرطبة ستسقط فى يده بعد قليل من الزمن ، ورأى أن عرب الأندلس لا يأنفون من قبول ولايته اذا حصل من خليفة بغداد على ذلك ، وأن هذه

الموافقة تعلى مكانته ،وتوطد نفوذه ، ولما استقر عزمه على ذلك كتب الى ابن الأغلب حاكم أفريقية من قبل الخليفة العباسى وبعث بهدية مع الرسالة ، ورحب ابن الأغلب بهذا التقرب ، وأرسل هدية لابن حفصون ، وشجع اتجاهه ، ووعده بأنه سيعمل على تحقيق رغبته عند الخليفة العباسى ، وفى انتظاره للوقت الذى يستطيع فيه أن يرفع العلم العباسى اقترب من قرطبة ، واتخذ له معسكرا فى استجة ، وعم الخوف أهل قرطبة واقتربت الغارات من أحواز المدينة ، وتوالت النكبات على أهلها ، وكثر التذمر من حوادث السرقة والنهب وسبى النساء والأطفال ، وظهر عجز الأمير عبد الله ، وخلت خزينة الدولة من المال الذى يكفى لدفع مرتبات الجند فاشتدت نقمتهم واضطر الأمير الى الاقتراض ، ولكن المبالغ القليلة من المال الذى اقترضه كانت تدفع لبعض العرب الذين ظلوا على ولائهم له فى الأقاليم ، وكسدت التجارة ، وساءت الحالة الاقتصادية وصارت الناس تنظر الى المستقبل نظرة تشاؤمية وغلب على نفوسهم الهم والأسى ، وكان أشدهم هما الأمير عبد الله نفسه، فالعرش الذى وصل اليه على جثة أخيه قد أصبح عرضة للسقوط ، وسياسة المواربة التى اتبعها لم تجده نفعا ، وزادت المشكلات تعقيدا ، وحاول أن يستصلح الثائر ابن حفصون ولكن ابن حفصون كان متأكدا من أنه سينتصر فى النهايةفلم يعبأ به ، ويئس الأمير عبد الله من التقرب منه واستدراجه الى الطاعة ، واستشعر الزهد فى الحياة ، ولعله قد نظم أبياته الآتية وهو يعانى هذه الحالة النفسية :

يا من يراوغه الأجل
حتام يلهيك الأمل
حتام لا تخشى الردى
وكأنه بك قد نزل

أغفلت عن طلب النجـــا
ة ولا نجـــاة لمن غفل
هيهات يشغلك الرجـــا
ء ولا يدوم لك الشغل
فكأن يومك لم يكن
وكأن نعيـــك قد نزل

ويبدو أن هذه الحالة النفسية قد ألحت عليه فرفه عن نفسه بهذه المقطوعة :

أرى الدنيا تصير الى فنـاء
وما فيها لشيء من بقـــاء
فبادر بالانابة غير وان
على شيء يصير الى فنـاء
كأنك قد حملت على سرير
وصار جديد حسنك للبلاء
فنافس فى التقى واجنح اليه
لعلك ترضين رب السماء
ونفسك فابكها أو نح عليها
فربتما رحمت على البكاء

ولكنه استنجد عزمه وبذل جهدا فى التغلب على هـــذه الحالة النفسية ، واتفق فى ذلك الوقت أن ابن حفصون أرسل اليه برأس خير بن شاكر صاحب حصن شوذر الذى سبق أن ثار عليه ، وظاهر ابن حفصون ، ورأى فى ذلك دليـــلا على أن ابن حفصون قد بدا له مسالمته والتقرب منه ، ولكن ابن حفصون سرعان ما خيب ظنه بمحـــاصرته لحصون كورة قبرة التى كانت لا تزال خاضعة للأمير عبد الله ، ولم يعد هناك بد بعد ذلك من أن يخوض معركة حياة أو موت مع هذا الثائر

العنيد؛ فأخبر وزراءه أنه قد عقد العزم على مهاجمة ابن حفصون فخوفه وزراؤه عاقبة الاقدام على ذلك ، وذكروا له أن جيشه أقل عددا من جيش ابن حفصــون ، وانه سيقاوم عددا قوى الشكيمة ، ولكنه أصر على رأيه ، وكأنه صمم على أن يموت ميتة كريمة .

ورحب ابن حفصون باقدام الأمير عبد الله على منازلته ، وسمع وهو فى استجة أن الأمير عبد الله قد أخرج السرادق الى فحص الربض بشــقندة ، فلما اشتدت أطنــابه ، ومدت حبائله بعث ابن حفصون خيلا الى شقندة لتأخذ السرادق، وتهاجم البلد ،وتحيط بأطرافه ، وبرغم أن حراس السرادق كانوا قلة فانهم أجادوا الدفاع ، وردوا الغارة ، ولما رأى ابنحفصون أن خطته لم تنجح لاذ بحصن بلى بقبرة ، وكانلهذه الوقعة الصغيرة تأثير حسن فى استعادة أهل قرطبة الثقــة بأنفسهم ، وبرغم أنجيش ابن حفصون كان أكثر عددا وأقدر على ممارسة الحرب وأحسن تدريبا فقد استطاع الأمير عبد الله أن ينتصر عليه ويفرق جمعه ويسترد الكثير من القلاع الثائرة ولاذ ابن حفصون بحصنه المنيع فى ببشتر وحاصره جيش الأمير عبد الله على غير جدوى ، لمناعة الحصن واكتفى الأمير عبد الله بمــا أحرز من انتصــــار وعاد بجيشه الى قرطبة ، ونظم ابن عبد ربه صاحب « العقد » قصيدة يذكر فيها انتصــــار الأمير عبد الله وهزيمة ابن حفصون منها قوله :

رام ابن حفصون النجاة فلم يسر
والســـيف يطلبـــه فليس بناج

ما زال يلقح كل حرب حائل
فالآن أنتجها بشر نتـــاج

ولم تقض هذه الهزيمة على ابن حفصون ، فقد عاد بعدها

الى بغيه وافساده وتحديه لسلطة الأمير عبد الله وانتصار الأمير عبد الله فى معركة بلى مكنه من اســـترداد استجة وأرشذونة وجيان والبيرة ، وذاعت أخباره فى أنحاء العالم الأندلسى والعالم العربى وبعد أن كان ابن الأغلب يرحب بوفود ابن حفصون صار يتلقاها فى فتور لأنه لم ير فائدة من تزكية الثائر الذى هزم، وييئس ابن حفصون من الحصول من خليفة بغداد على اقرار ولايته على الأندلس ، ولكن هذه الهزيمة لم تنل من قوته كل النيل ورأى من الحزم أن يسعى فى طلب الصلح ، وقبل ذلك الأمير عبد الله ولكنه اشترط أن يكون أحد أبناء ابن حفصون رهينة عنده ، وقبل ابن حفصون هذا الشرط ، ولما كان ينوى العودة الى الحرب فانه أرسل الى الأمير ابن أحد رجاله ، وكان قد تبناه على أنه من أبنائه ، وحينما عرف الأمير عبد الله ذلك فسد ما بينه وبين ابن حفصون ، واضطرمت الحرب بينهما ،واسترد ابن حفصون القلاع التى فقدها واستعاد سيطرته على أرشذونة فى سنة ٨٩٢م (٢٨٠هجرية) وبعد ذلك استرد ألبيرة وجيان ولكن السكان لم يلبثوا أن عادوا الى ولائهم لحكومة قرطبة ، ولم ير الأمير فائدة فى محاولة التغلب على ابن حفصون ، فوجه همه الى محاربة الثائرين الآخرين الأقل منه قوة ، ولم يكن يقصد القضاء عليهم فقد كان يكفيه منهم الاعتراف بسلطته ودفــع الجزية للخزينة ، وقد أفاده ذلك من الناحية المالية ، أما فى اشبيلية فقد ظل بها عمه هشام والياصوريا واقتسم السلطة فيهــا بنو حجاج وبنو خلدون ، وكان اقتسام السلطة بينهما مدة لوقوع الخلاف والتنافس ، وحاول الأمير عبد الله توسيع شقة هذا الخلاف والايقاع بين ابراهيم بن حجاج وكريب بن خلدون ، وقد أسفر هذا الخلاف عن قتل كريب وخالد ابنى خلدون ، وأصبح ابراهيم بن حجاج منفردا بالســـــلطة فى أشبيلية ، وسعى ابراهيم فى التقرب من الأمير عبد الله ، ولكن

الأمير عبد الله أرسل حاكما لأشبيلية من قبله ليحكم المدينة مع ابراهيم بن حجاج ، ولكن ابراهيم كان يريد الانفراد بالسلطة فضاق ذرعا بوجود الحاكم الذى أرسل لمشاركته فى الحكم فأخبره بعد مضى أشهر أن المدينة ليست فى حاجة اليه ، وأرسل الى الأمير يطلب اعادة ابنه اليه ، وكان رهينة عند الأمير عبد الله ، ولكنه رفض اجابة هذا الطلب ، وأراد ابراهيم أن يخيف الأمير عبد الله فرفض دفع الجزية ونبذ الطاعة ، وظاهر ابن حفصون ، وكان ابن حفصون حينذاك قد ارتد عن الاسلام واعتنق المسيحية ، وفقد بذلك أنصاره من المسلمين ، ولذلك رحب بتقرب ابراهيم بن حجاج منه ، وكان يلتمس الحلفاء من شتى الأنحاء ، فاتصل ببنى قسى وملك ليون ، وساء موقف الأمير عبد الله وشرع فى اجراء مفاوضات مع ابن حفصون وعقد معه صلحا لم تطل مدته ، وتجددت الحرب بينهما فى سنة ٩٠٢ م (٢٩٠ هجرية) وأشار بدر القائد الصقلى على الأمير عبد الله باطلاق سراح عبد الرحمن ابن ابراهيم بن حجاج وأيده فى ذلك سائر الوزراء واستجاب الأمير عبد الله لنصيحتهم ، وسر بذلك ابراهيم بن حجاج ولم يقطع صلته بابن حفصون ، ولكنه توقف عن مساعدته وامداده بالجند ، وقبل الخضوع للأمير عبد الله ولكنه ظل محتفظا بالسيطرة على اشبيلية ، وكان له بها جيش خاص وحرس من الفرسان ، وصار يرسل للأمير الجزية السنوية ، وكان ابراهيم بن حجاج جوادا ممدحا يرتاح للثناء ويغدق على الشعراء وقصده ابن عبد ربه فأفضل عليه ومدحه ابن عبد ربه بأماديح مشهورة ومن قوله فيه يصف تنقله بين اشبيلية وقرمونة قوله :

الا أن ابراهيم لجة ساحل
من الجود أرست فوقه لجة ساحل

فاشبيلية الزهراء تزهـــو بوجهه
وقرمونة الغراء ذات الفضائل
اذا ما تخلت تلك من نور وجهه
غدت هـذه للناس في زى عاطل
وان حل هذى فهو يوحش هذه
فتهـدى برسـل نحـوه ورسائل

وله فيه أشعار كثيرة ، وعظم شأن ابراهيم وتوطدت مكانته ويقول عنه ابن عـــذارى (١) « لم يلحقه فى ذلك أحد فى وقته ولا قدر على نيل مرتبته ، الى أن وافتــه منيته فجأة » وكان ذلك فى سنة ٢٨٨ هجرية (٩٠٠ ميلادية) وولى بعده ابنه عبد الرحمن اشبيلية كما ولى ابنه محمد قرمونة(٢) وكانت له بها دولة حسنة وأيام صالحة » كما يقول ابن عذارى وكان لتحسن العلاقات بين الأمير عبد الله وابراهيم بن حجاج أثر طيب فى استعادة سـيطرة الأمير عبد الله على الأندلس فقد كانت اشبيلية على الدوام مصدراً للثـــورات فى الناحية الغربية ، وحينما اعترفت بولائها للأمير عبـــد الله دانت له بالطـــاعة الجزيرة الخضراء ولبلة واستطاع بذلك أن يوجـه جهوده الى اعادة سلطته فى الجنوب ، وقد أفاد الأمير عبد الله فى ذلك من نصائح بدر قائده وحسن سياسته ، وفى سنة ٩٠٣ م (٢٩١ هـ) استرد جيشه جيان وفى سنة ٩٠٥ م (٢٩٢ هـ) انتصر جيشه على ابن حفصون فى معركة وادى بلون فى كورة جيان ، وفى السنة التالية استولى جيشه على حصن قنيـط من تاكرنا واستنزل من فيه من بنى الخليع ، وفى سنة ٩٠٧ م (٢٩٥ هـ) أرغم أرشذونة على دفع الجزية السنوية وفى سنة ٩٠٩ م (٢٩٧ هـ) أرغم ابن مستنة على

---

(١) ، (٢) ابن عذارى : الجزء الثـانى من البيان المغرب صـفحة ١٩٥ .

التنازل عن حصن لك وفي سنة ٩١٠م (٢٩٨ هجرية) استولى على بياسة ، وفى السنة التالية ثار أهل حصن أشر على فضل ابن سلمة ختن سعيد بن مستنة وقتلوه وأرسلوا رأسه الى الامير عبد الله ، وفى الشمال كان هناك تحسن واضح ، فقد حدث في ســـنة ٨٩٨ م (٢٨٥ هـ) أن وعد محمـد بن لب – من أسرة بنى قسى – بزيارة جيان لاجراء مفاوضة مع ابن حفصون ، وأخاف الاتفاق بين مولدى الشمال الاقوياء ومولدى الجنوب الخارجين على السلطان أمير قرطبة ، وحدثت حرب بين الأنقر حاكم سرقسـطة وبين محمـــد بن لب حالت دون انتقاله الى جيان ، وأرسل ابنه بدلا منه ، ولما وصل ابنـه لب الى جيـــان وانتظر حضور ابن حفصون تلقى خبر وفاة والده الذى قتل وهو يحاصر سرقسطة ، فبادر بالعودة دون أن يلقى ابن حفصون ، ولم يسمع بعد ذلك شيء عن الاتفاق بين ابن حفصون وبنى قسى ، وعمل لوب على التقرب من الأمير عبد الله فوافق الأمير على جعله حاكما لتطيلة وطرسونة ، وقد استعمل لب جيشه فى حرب متصلة أعلنها على جيرانه مثل صاحب وشقة ، وملك ليون ، وصاحب برشلونة ، وقد قتـل فى معركة بينه وبين الأخير فى سنة ٩٠٧ م (٢٩٥ هـ) وخلفه أخوه عبد الله ، ولم يخرج على طاعة الأمير عبد الله وانما حارب ملك نافار ، وبذلك لم يصبح بنو قسى مصدر خطر على سيادة بنى أمية ، وتقشعت غيوم كثيرة من سماء حكومة قرطبـــة لكنها مع ذلك لم تكن صافية جلواء ، وحينما قضى الأمير عبدالله نحبه فى سنة ٩١٢ م (٣٠٠هـ) كانت سلطة أمير قرطبـــة متقلصة فى بعض المدن الهامة وأقرب الى أن تكون اسميـــة وصورية فى سائر أنحاء الأندلس ، وكان على الشاب الذى خلفه فى الولاية وهو عبد الرحمن الناصر أن يجاهد جهـادا طويلا شـــاقا ، ويخوض معـارك طاحنة ، ويريق دماء كثيرة

لاســترداد السلطة الحقيقية لامارة قرطبة ، ويوطد أركانها ، ويقضى على الثائرين والمنافسين والمتمردين من اللصوص وقطاع الطرق ، ولذلك عاش نصف القرن ـ وهو مدة ولايته ـ وسيفه دون ملكه مسلول ، وكانت حيـاته أقرب شبها بحياة أبطال الياذة هوميروس منها بحياة الملوك والأمراء الوادعين المرفهين المنغمسين في المتع الدنيوية والملذات الحسية ٠

سياسة عبد الرحمن
فى استرداد سيطرة
الدولة الأموية بالأندلس

حينما تقلد عبد الرحمن امـــارة الدولة الأموية فى الأندلس شرع فى اتباع سياسة مبتكرة مخالفة لسياسة جده ، فقد كانت سياسة الأمير عبد الله تعتمد على المواربة والمداراة ، ويشوبها التردد والالتواء ، أما عبد الرحمن فقد اتخذ من بادىء أمره سياسة واضحة صريحة ليس فيها تردد ولا تراجع ،قوامها التفكير والاعتزام والتنفيذ • وعالن المستأثرين بالسلطة فى الولايات ، والمعتصمين فى القلاع والحصون ، والخارجين عـلى النظام وطاعة القانون ، أنه لا يقنع بدفع الجزية ، ولا يقبل نزاعا على السلطة ، ولا يصبر لخروج على القانون ، وتمرد على الطـاعة ، وعبث بالأمن والنظـام ، وأن الذين يردون اليه السلطة فى الكور والأقاليم والمدن ، ويســلمون له القلاع والحصون ، ويمسكون عن الخروج على النظام والتمرد عـلى الأوضاع القائمة سيظفرون بالعفـــو والرعاية ، أما الذين يستمرون فى عصيانهم ونبذهم للطاعة فانهم سيجدون مقاومة لا تهمـد ، ويصلون حربا مدمرة ، وقد يبدو لأول وهلة أن الكشف عن مثل هذا الاعتزام ربما كان سياسة أملتها عليه رعونة الشباب واندفاعه ، والرغبة العارمة فى تأكيد شخصيته

وفرض ارادته ، وانها ربما كانت مدعاة لاغراء خصومه وأعدائه بحشد جموعهم ، وتوحيد جبهتهم ، في مقاومته ، ولكن أمرا من ذلك لم يحدث ، الواقع أن سياسة عبد الرحمن كانت سياسة موفقة ، وثمرة فهم دقيق مستوعب لطبيعة الموقف الذى واجهه والطب لعلاج أدوائه ، وتفريج أزماته ، بل كانت السياسة التى تتطلبها روح العصر واتجاهاته ، فقد كان الزعماء الجبابرة البارزون من أمثال سعيد بن جودى وكريب بن خلدون وابراهيم ابن حجاج وأضرابهم قد طواهم الموت ، وغيبهم القبر ، ولم يقم بعدهم من يسد مسدهم ، وكان زعماء المولدين من أمثال ابن حفصون وابن مستنة وغيرهما قد علت أسنانهم ، ونالت من قوتهم ومضاء عزمهم الشيخوخة ، وفترت الحماسة للثورة ، وأعقب جيل الثورة والعصيان جيل جديد لم يعرف سطوة الوالى ولا عسفه ، ولم يجرب تحكمه واستبداده ، وانما عانى فى مرارة عهد الثورة وما سببته من الحروب التى أفنت الحرث والنسل ، وأتلفت الحالة الاقتصادية ، وروعت النفوس وحالت بينها وبين الشعور بالأمن والطمأنينة ، وكان الشعب قد مل الفوضى والاضطراب ، وضاق ذرعاً بمثيرى الشغب واللصوص وقطاع الطرق ، ولم يسفر احياء النزعة القومية عن طرد العرب المغيرين والبربر ، وانما وسع شقة الخلاف بين المسيحيين والمسلمين وكان سكان المدن بوجه خاص يتطلعون الى عهد يصفو فيه الجو وتنقشع الغيوم ، ويستطيعون فيه مباشرة أعمالهم ، دون أن يمسهم سوء ، أو ينال أسراتهم مكروه ، وكان فى سلوك الأمير عبد الرحمن ومواقفه وكلماته وملامح وجهه وسماته مايدفع الى الثقة به ، ويغرى بتصديق وعوده ، والعطف على آرائه وترجيحها .

وكان ابن حفصون كبير الثائرين والذى أتعب الأمراء السابقين قد نبذ الاسلام وعاد الى مسيحية أجداده ، وبذلك

فقدت ثورته ناحية هامة من طابعها القومي ، وفارقه كثير من المولدين ، وهم الذين اعتنقوا الاسلام من سـلالة الاسبانيين ، وانفضوا من تحت رايته والإسبانيون سواء كانوا مسلمين أو مسيحيين معروفون بشدة تمسكهم بالعقيدة التي يدينون بها ٠

ولم تمض أسابيع قليـلة على توليه الامارة حتى بعث حملته الأولى الى المنـاطق الثـائرة بقيـادة حاجبه بدر ، فاستخلصت استجة في ٣١ ديسـمبر سنة ٩١٢ م (٣٠٠هـ) ودخلها الحاجب بدر والوزير أحمد بن محمد بن حدير ، وكان أول موضع افتتح في عهده ، وضبطت المدينة وهدم سورها ، وبقي أحمد بن محمد الوزير بهـا ، ومسـكنا لأهلها ، وولى عمالتها حمدون بن بسيل ٠

في شهر شعبان سنة ٣٠٠ هـ (مارس سنة ٩١٣ م) خرج عبد الرحمن للغزو ، وكانت قد مضت سنوات لم ير الجند في أثنائها أميرا يتصدى للقيادة ، فلما برز أمامهـم الأمير عبد الرحمن كان لظهوره أثر محمود في اثارة الحماسة وجلب الثقـة ، واتجـه عبد الرحمن بالجيش الى كورة جيان في جنوب غربي الأندلس حيث كانت الثورة مشبوبة اللهيب وحيث كان نفوذ الثائر العنيد ابن حفصون سائداً ، وحيث كانت المـدن والحصـون فيما بين رندة ومالقه خاضـعة لسيطرته ، وأرسل عبد الرحمن بعض قواته لانقاذ مدينـة رية التي كان يهددها ابن حفصون ، وكان قد بلغ عبد الرحمن أنه قد طمع في الاستيلاء عليها ، فاستولت عليها وأمنتها ، وقصد عبد الرحمن الى الحصون والقواعد الثائرة فاحتل حصن المنتلون وحارب فيه سعيد بن هذيل حتى افتتحه وأنزل سعيد من الحصن وأمنه وولى الحصن من رجاله محمد بن عبد الوهاب وتقدم الى حصن شمنتان فاستأمنه عبيد الله بن أمية المعروف

بابن الشالية واسحق بن ابراهيم صاحب حصن منتيشة وعكاشة بن محصن صاحب وادى بني عبد الله وسلمة بن عرام صاحب بجيلة ، ومنذر بن حزم صاحب بختوبرة ، وأفلح بن عروس صاحب بكور ، وفحلون بن عبد الله صاحب سسانة ، وكلهم نزلوا عن معاقلهم اليه ، وأذعنوا له بالطاعة فعفا عنهم وأخلى منهم تلك المعاقل والقلاع ، وقدم أولادهم ونساءهم الى قرطبة ، واستعمل فى الحصون ثقات رجاله ، واستنزل عبد العزيز بن عبد الأعلى من حصن الشارة ، ودحون بن هشام ٠

ثم انتقل الى كورة البيرة ، فلما احتلها تداعى أهل حصون تاجلة وبسطة ومربيط والبراجلة والاسناد الى النزول والطاعة ، وأخلوا حصونهم ، فأحكم الناصر أمر ذلك الجانب كله ، وضبط المعاقل برجاله ، ثم انتقل الى حصن وادى آش فأخلى أكثرها رهبة منه ، ثم نزل على حصن فنياية بقرب وادى آش ، وكان فيه شيعة ابن حفصون ، فامتنعوا من النزول ورجوا الاعتصام بوعورة الحصن ، فأحاطت العساكر بهم ، وأضرمت أرباضهم ناراً ، فضرعوا فى قبول الانابة على أن يسلموا من كان عندهم من شيعة ابن حفصون ، فأجيبوا الى ذلك ، وقبض على أصحاب ابن حفصون وشد وثاقهم ٠

وتوغل عبد الرحمن بعد ذلك فى شعب جبل الثلج (سيارانفادا) وهو وعر يلقى السائر فيه مشقة وعناء ، فجازه مع جيشه وافتتح ما هنالك من المعاقل والحصون التى تدين بالطاعة لابن حفصون ، واتصل به أن ابن حفصون أقبل فى جماعة من أصحابه الى حاضرة البيرة طامعا فى انتهاز الفرصة فأخرج الناصر قائده عباس بن عبد العزيز نحوه ، فلما قرب من مدينة غرناطة أقبل ابن حفصون لما كان رجاه وطمع فيه ،فخرج

أهل البيرة واثقين بالمدد الذى وردهم والقائد الذى جاء للدفاع عنهم ، وقتلوا جماعة من رجال ابن حفصون وأسروا عمر بن أيوب حفيده ، وجرح أحد أولاده جراحا أثخنته ٠

وتقصى الناصر ما كان بقى من معاقل تلك الجهـــة حتى احتل حصن شبيلش ، وكان من أعظم حصون ابن حفصـون منعـة وأصعبها مراسا وأوعرها مكانا ، وكان قد لجأ اليه الذين فروا من الحصون المتقدمة ، قد حاصرهم عبـــد الرحمن حتى نادوا بالطاعة ، وضرعوا فى قبول الانابة ، وأسلموا أصـحاب ابن حفصون الذين كانوا عندهم فأمر بضرب أعناقهم ٠

ثم أم مدينة شلوبينية ، وفعل فيها مثل ما فعل فى المدن التى تقدم ذكرها ، وضبط برجاله كل حصن افتتحه ، وانحسم الداء فى كورة البيرة ، وتألفت الكلمة ، واستقامت الطاعة ٠

وصدر قافلا عن طريق حصن شنت أشتيبن وحصـــن ابنة فراطة ، وكانا قد أضرا بأهل غرناطة ، وحاضرة البيرة ، وهما فى غاية الحصانة والمنعة ، فنزلت الجيـــوش عليهمـــا وأحدقت بهما ، وحوربا أشد محاربة وأنكاها ، وبعد الاستيلاء عليهما شحنهما برجاله ، وقفل راجعا الى قرطبـة بعـــد أن استوفى اصلاح أمور كورة جيان والبيرة وماوالاهما ، وقضى فى هذه الغزوة اثنين وتسعين يوما ٠ وهكذا كانت هذه الأشـــهر الثـلاثة كافية لاعادة السـلام والهـدوء والاستقرار الى كورتى البيرة وجيان ، وتطهيرهما من اللصوص وقطاع الطرق العابثين بالأمن والمتحدين لسلطة الدولة ٠

واجتذبت اشبيلية بعد ذلك اهتمامه ، وكان عبد الرحمن ابن ابراهيم بن حجاج قد خلف أباه ابراهيم بعـد وفاته فى اشبيلية واستولى أخوه محمد على قرمونة ، ومات عبد الرحمن

فى سنة ٣٠١ هـ (٩١٣ م) فاجتمع أهل اشبيلية على تقديم ابن عمه أحمد بن مسلمة وكان من الشجعان المقاديم ، وكان محمد قد تطلع الى الاستيلاء على الحكم فى اشبيلية ، ولكنه أخفق فى ذلك فقد أظهر ميلا الى الاستبداد والتحكم وأهل قرطبة كانوا يريدون أن يكونوا أحرارا ، وفضلا على ذلك فانه كان قد اتهم بدس السم لأخيه عبد الرحمن ، وعز عليه أن تفلت من يده حيازة اشبيلية وفى الوقت نفسه لم يكن عبد الرحمن راضيا عن حكم أحمد بن مسلمة لمدينة اشبيلية ؛ لأنه لا يتفق مع أهدافه وخطته ، فأخرج اليها جيشا يقوده الوزير أحمد ابن محمد ابن حدير فحاصرها حصارا شديدا ، ووجد أحمد ابن مسلمة أنه مضطر الى التماس نصير يعاونه فى مقاومة جيش الأمير عبد الرحمن ، وتقرب من ابن حفصون لانقاذ الموقف ، وحضر ابن حفصون ولكن الحظ كان قد تخلى عنه ، فقد حاول مهاجمة جيش الأمير عبد الرحمن الذى أقام معسكره على الشاطىء الأيمن من نهر الوادى الكبير ولكنه منى بهزيمة شديدة اضطر بها الى العودة الى ببشتر تاركا الاشبيليين ليدبروا أمورهم بأنفسهم ، وأدرك ابن مسلمة ومن معه من أعيان المدينة أنه لا فائدة من الاستمرار فى المقاومة وبدأوا مفاوضات مع القائد بدر الذى جاء لانهاء الحصار ، وحصلوا منه على وعد بأن الأحوال فى المدينة ستظل كما كانت فى عهد بنى حجاج ، وفتحوا له أبواب المدينة ، وكان محمد ابن ابراهيم بن حجاج يحرص على أن يفيد من سقوط اشبيلية ويحل فيها مكان أخيه ، وساءه أنه لم يدع الى المدينة فسار الى قرمونة متذمرا ناقما ، وفى طريقه اليها استولى على قطيع من الغنم لأحد رجال قرطبة ، واعتصم بقلعته معتزما أن يتحدى سلطة الأمير ، وتناول عبد الرحمن الأمر فى هدوء ورفق ، وأرسل اليه أحد رجاله ليبين له فى لين

مقترن بالحزم أن زمن استيلاء الأعيـان والزعماء على مايملك الناس قد ولى ، وأن عليه أن يرد القطيع الى صاحبه ، فأعاد القطيع لصاحبه ، ولكنه لم يستطع أن يدرك بصورة واضحة أن الزمن قد تغـير وكان قد علم أن جيش عبـد الرحمن قد هدم أسوار مدينة اشبيلية ، فزين له وهمه أنه يستطيع أن يهاجم المدينة بغير انذار ويستولى عليها ، ولكن هذه الخطـة الرعناء لم تنجح ، ورأى عبد الرحمن أن يوفد اليه رسـولا يحذره عاقبة الاسترسال فى الخلاف ويبين له أن أفكاره غير متمشية مع روح العصر ، وأختار عبد الرحمن لهذه المهمـة قاسم بن وليد الكلبى ، وكان من أصدقاء محمد بن حجـاج المقربين ونجح قاسم فى مهمته ، ووعد محمد بالحضـور الى قرطبة ولكنه إشترط أن يترك نائبه فى قرمونة ، وقبل عبد الرحمن هذا الشرط ، وجاء محمد الى قرطبـة ، فرحب الأمير عبد الرحمن بلقائه وقدم له ولرجاله هدايا ثمينـة، ومنحه لقب وزير ودعاه الى مصاحبته فى غزوة جـديدة كان يتأهب للقيام بها ٠

وكان عبد الرحمن قد عقد العزم على غزو كورة ريـه والجزيرة ، وكان أول مقصده حصن طرش ، وحصر من كان فيه وأقام عليه خمسـة أيام ، ثم أبقى عليه من يحـاصره ، وتنقل الى حصون ريه ومعاقل ابن حفصون يتتبعها معقـلا معقلا ، وأوقع بابن حفصون والذين حشدهم فى حصن طرش وقيعة عظيمة ، وألفيت لابن حفصون مراكب فى البحر كانت تميره من العـدوة فأحرقها جميعها ، وأسرع أهل فج وسيم وقلبيرة وسائر ما فى أحواز الجزيرة الى الدخول فى الطاعة ، فقبلهم الناصر وأمنهم ، وانتقل الى كورة شذونة ، ثم الى كورة مورور حتى أوفى على مدينة قرمونة فاحتلها ، وكان حبيب بن سوادة نائب محمد بن حجاج بها قد أظهر الخلاف بعد ذهاب محمد

الى قرطبة فنازلته جيوش عبد الرحمن وحاصره عشرين يوما واضطره الى التسليم فأمنه ، وسأله أن يمهله لانتقـال أهله وثقله الى قرطبة فلم يرهقه من أمره عسرا ، وقفل الى قرطبة واستتم في غزواته اثنين وثمانين يوما ، وكان عبد الرحمن قد علم أن محمد بن حجاج هو الذى أغرى حبيب بن ســوادة بالثـورة في قرمونة فأمر بالقـائه في السجن ، وجرده من الوزارة ، ولما منح حبيبا الامان أمر باخراج محمد بن حجاج من السجن ، ولكنه لم يستمتع بحريته طويلا فقد قضى نحبه في سنة ٩١٥ (٣٠٣) وكان آخر من ظهر على مسرح التاريخ من بنى حجاج ٠

وفى أواخر سنة ٣٠٢ (٩١٥ م) أصاب الأندلس قحط شديد ، فعزت الأقوات وارتفعت الأسعار ، وشملت المحنـة القواعد والثغور وبلغت الحاجة بالناس مبلغا لا عهد لهـم بمثله ، ووقع الوباء وكثرت الموتى فى الفقراء حتى كاد يعجز عن دفنهم ، وكثرت صدقات الناصر على المساكين وصدقات الميسـورين من رجاله ، وكان الحاجب بدر أكثرهم صـدقة وأعظمهم بماله مواساة ، ولم تمكن هذه الأحوال القاسـية الناصر من القيام بالغزو ، ولكنه أخذ بالجد والحزم فىضبط أطرافه ، ودفع عادية الأشـقياء والمتمردين ؛ اذ كانوا مع استيلاء الجوع وشدة الحاجة يهاجمون من اقترب منهم ٠

ولما خفت وطأة هذه المجاعة استأنف عبد الرحمن جهاده فسـير قواته الى كورة تدمير والى مدينـة لبلة فى سـنة ٣٠٤ هـ ووطد سلطته فى تلك الأنحاء بحيث استطاع بعد ذلك أن يوجه غزواته الى الشـمال لمهاجمة الدول المسيحية وأراحه الموت فى سنة ٣٠٥ هـ (٩١٧) من أقوى أعدائـه مراسا ، وأشدهم طغيانا ، وهو عمر بن حفصون ، ويقـول

عنه الأستاذ عبد الله عنان بحق «(١) كان ابن حفصون في الوقع أخطر ثائر عرفته الأندلس منذ الفتح ، وكانت ثورته تمثل أخطر العناصر التى تدين بالولاء لحكومة قرطبة، وفي مقدمتها طائفة المولدين الذين ينتمي اليهم ، وهم سلالة القوط والنصارى الأسبان الذين أسلموا منذ الفتح وعدوا جزءا من الأمة الأندلسية» . ويقول عنه دوزى : «لم يكن من حظه أن يحرر بلاده ، أو أن يوجد أسرة ولكنه سيظل ماثلا في صورة البطل الحق الذى لم تخرج أسبانيا مثله منذ أيام فيريازاس ـ الراعي ـ الذى أقسم بأن يخلص بلاده من نير الرومان » وكان فيرايازاس هذا قد تحول من راع الى لص وقاطع طريق ، وأخيرا صار قائد جيش ظل يقاوم الرومان مقاومة عنيفة من سنة ١٤٧ الى سنة ١٣٩ قبل الميلاد ، وقد فقد ابن حفصون قبل موته الكثير من أنصاره ، وضعف شأنه وصار لا يطلب أكثر من السلامة والأمن ، وكان يخلو بنفسه بكنيسته في ببشتر وعاني كثيرا من مرض الايمفزيما أو غدد خلايا الرئتين ، ودفن حسب تقاليد أجداده ممدودا على ظهره وذراعاه في صورة صليب على صدره ، ووجهه موجه نحو الشرق ، وانتشر خبر موته في كل أنحاء أسبانيا .

ويقول ابن عذارى عن موته(٢) « وفي هذه السنة هلك عمر بن حفصون عميد الكافرين ورأس المنافقين ، وموقد شعل الفتنة وملجأ أهل الخلاف والمعصية ، فعد هلكه من أسباب الاقبال وتباشير الصبح وانقطاع علق المكروه » .

وقد ترك ابن حفصون أربعة أولاد ، تولوا مكانه رياسة القواعد الغربية ولا سيما ببشتر حيث قام ولده جعفر

(١) تراجم اسلامية شرقية وأندلسية صفحة ١٤٥ .
(٢) من البيان المغرب الجزء الثاني صفحة ٢٥٦ .

وأولاده الآخرون هم سليمان وعبد الرحمن وحفص وقـــد ورث جعفر وسليمان وحفص شجاعة أبيهم ولكنهم لم يرثوا مواهبه ، أما عبد الرحمن فلم يكن ميالا الى الحرب والتمرد وانما كان صاحب كتب وقد صار وراقا فى قرطبة بعـــد سقوط أسرته وذهاب سطوتها ونفوذها ٠

وفى سنة ٣٠٦ هـ (٩١٨ م) غزا الناصر بنفســـه مدينة بلدة من كورة رية ، وترك فريقا من رجاله فى أرضهـــا وارتحل الى حصن دوس امانتش فنازله وحـــاربه حتى افتتحه ، وعاد الى حصن بلدة وحاصرها ، وتداعى من كان بها من المسلمين الى النزوع بأنفسهم وذراريهم، وذكروا له أنهم كانوا مغلوبين على أمرهم ، فأمنهم الناصر ، وقاتل المسيحيين فى المدينة حتى ظفر بهم وقتلوا جميعا ، وملكت المدينـــة وندب فيهـا الرجال من أتباعه ، ثم انتقل الى حصـــون رية ، يتقصاها معقلا معقلا ، ويفتتح ما مر به منها ، ثم نزل على جبل ببشتر فحاصره وشـدد الحصار فسأله جعفر بن عمر بن حفصـــون قبض رهائنه استيثاقا من طاعته على أن يؤدى ما فرض عليه من الجباية،فقبل الناصر ذلك ، وقبضت رهائن جعفر وشيعته ، وعاد الناصر من جبل ببشتر الىقرطبة واكتفى بذلك فى هذه الغزوة لاعتقاده أن جعفر بن عمر بن حفصون لا يزال قويا وان مناعة حصن ببشتر تجعل محاولة الاستيلاء عليه جد شاقة ، ورأى جعفر أن ارتداد والده عن الاســـلام واعتناقه هو وأسرته المسيحية لم يكونا من حسن السياسة ، وانه بذلك خسر ولاء المسلمين الأسبانيين له وفقد عنصرا هاما من أنصاره ، وقد صار يعتمد بعد ذلك عـــلى معاضدة المسيحيين واخلاصهم له ، وحاول جعفر أن يسترد ولاء المولدين المسلمين بالعودة الى اعتناق الاسلام ، وأغضب بذلك أنصاره من مسيحيى الأسبانيين وجعلهم يأتمرون به ، وعلم

بذلك أخوه سليمان ، ولكنه تجاهل ذلك وأغضى عنه،وأسفرت المؤامرة عن اغتيال جعفر ، وخلا الجو لسليمان ليقوم مقامه في سنة ٣٠٨ هـ (٩٢٠ م) وكثرت الخلافات وافترقت الناس شيعا وأحزابا فى ببشتر ، وحدثت بها ثورة وطرد منها سليمان ، ولكنه احتال بعد ذلك للعودة اليها ، ونجح فى ذلك وانتقم من الذين عملوا على ابعاده ، ولكنه لم يعمر طويلا ، فقد قتل فى مناوشة مع جند عبد الرحمن الناصر سنة ٣١٤ هـ (٩٢٧ م) وخلفه أخوه حفص ولكن نهاية سيطرة أبناء ابن حفصون كانت قد حانت ، ففى سنة ٣١٩ هـ (٩٢٧ م) حاصر عبد الرحمن ببشتر وعزم على ألا يرفع عنها الحصار حتى تفتح أبوابها له ، وأطبق عليها من كل ناحية ، وظل حفص يجاهد مدة ستة أشهر لم يجد بعدها متحولا عن التسليم ، واحتل جيش عبد الرحمن المدينة ونقل حفص مع باقى أفراد أسرته الى قرطبة ، ولاذت أخته أرجنتيا بالدير ، وكان يمكن أن تعيش خاملة الذكر مجهولة الشأن ، ولكنها كانت شديدة التعصب ونزاعة الى الاستشهاد ، وأثارت السلطات الحكومية بتفاخرها بأنها مسيحية ، ولكنها فى نظر القانون كانت تعد مسلمة كما كان والدها حينما ولدت ، ولذلك حكم عليها بالقتل لأنها ارتدت عن الاسلام ، ولكنها واجهت الموت فى ثبات وشجاعة سنة ٣١٩ هـ (٩٣١ م) .

وبعد مضى شهرين على تسليم ببشتر حضر عبد الرحمن الى المدينة التى تحدت هجمات الأمراء طوال نصف قرن وجال فى أقطارها (سنة ٣١٦ هـ) (٩٢٨ م) وعاين من شرفها وحصانتها وعلو مرتقاها وانقطاع جبلها من جميع جهاته ما أيقن معه ألا نظير لها فى الأرض حصانة ومنعة واتساع قرارة ، فحمد الله على ما يسر له من فتحها والاستيلاء عليها ،

والتزم الصوم أيام مقامه بها ، ثم دبر بنيان قصبتها ، على أحسن ما دبره وأحكمه فى غيرها ، وفرق رجاله على هدم كل حصن كان حواليها وعلى الديارات الخارجة عنها ، ويصف لنا الحميرى فى « الروض المعطار » حصن ببشتر بقوله « حصن منيع بينه وبين قرطبة ثمانون ميلا ، وهو حصن تزل عنه الأبصار ، فكيف الأقدام ، على صخرة صماء منقطعة لها بابان يتوصل الى أعلاهما من شعب يسلكه الراجل الخفيف وطريقه عند الطلوع والهبوط على النهر ، وأعلى الصخرة سهلة مربعة ذات مياه كثيرة تقطع الحجر ، فينبعث الماء العذب وينبط الآبار بأيسر عمل وكد ، وحصن ببشتر كان قاعدة العجم ، كثير الديارات والكنائس والدواميس ، ولهذا الحصن قرى كثيرة ، وحصون خطيرة ، وما حوله كثير المياه والأشجار والثمار والكروم وشجر التين وأصناف الفواكه والزيتون (١) » ٠

وما لقيه عبد الرحمن وأسلافه من شر ابن حفصون وطول تمرده على سلطتهم بعث عبد الرحمن على أن ينبش قبره وقبر ابنه ، وشهد ذلك عامة الفقهاء الغازين معه ، واستخرجا من لحودهما ، ونقلت أعظمهما الى باب السدة بقرطبة ، ورفعت على جذوع عالية لتكون عظة للناظرين ٠

واستنزل الناصر أهل حصن شنت بيطر وحطرون وغيرهما من المعاقل ولم يبق لأتباع ابن حفصون من النصارى فى تلك الناحية حصن ولا معقل ، وعادت كورة رية على كثرة ما فيها من الحصون المانعة والمعاقل القائمة ليس فيها ثائر

---

(١) من كتاب صفة جزيرة الاندلس المنتخبة من كتاب الروض المعطار للحميرى صفحة ٣٧ ٠

ممتنع ولا عدو محذور ، ونقل الناصر من كان يرى نفسه تائقة الى الفتنة الى قرطبة ، وقدم وزيره عبد الحميد بن بسيل الى كورة شنونة لهدم حصونهـا ، وأمر باستنزال من كان فيهـا من المقاتلة ، وافتتح قائده أحمد بن اسحق القرشي مدينة لقنت من كورة تدمير ، ومدينة قليوشة ، واستنزل الثائرين من معاقل بلنسية وأخرج أحمد بن الياس القائد غازيا الى كور الغرب فافتتح مدينة ماردة ومدينة شنترين بلا حرب ، ونزلوا اليه بالأمان ، فشملهم عفو الأمير عبد الرحمن واحسانه ٠

وفي سنة ٣١٧ (٩٢٩ م) سار عبد الرحمن لغزو مدينة بطليوس ومحـاربة ابن مروان الجليقي الذى كان مسـتوليا عليها ، وبعد أن حاصرها عشرين يوما أبقى عليها قائده أحمد ابن اسحق ، وانتقل الى جهة ماردة ، فأصلح الأحـوال بهـا وولاها من رجاله محمد بن اسـحق ، وعاد الى محـاصرة بطليوس ، وشدد الحصار واستبقى أحمد بن اسحق في جيش كثيف ورجال منتقين وعدة كاملة ، وأمره بالتشدد في الحصار والاستبلاغ في مضايقة المحصورين ٠

وانتقل الى مدينة باجة ، وأحدقت بها عساكره ، وطلب من المسـتولى عليها عبد الرحمن بن سعيد بن ملك التسليم ، ودعاه الى الطاعة ، ولكنه أبى ولج في العصيان ، فنصبت عليه المجانيق وحورب أشـد محاربة ، وقتـل من رجاله عدد كثير ، وهدمت بعض أبراج المدينة ، ولم يجد عبد الرحمن ابن ملك مفرا من الاستسلام والخضـوع لأمر عبد الرحمن والنزول على حكمه ، وأخرج هو وأسرته من المدينة ونقلوا الى قرطبة ، ودخـل الناصر المدينة ، وولى عليها حاكما من قبله وأكثف له الجمع والعدة ، وأمره ببنـاء قصبة ينفرد بها ويسكنها ٠

وانتقل من باجة قاصدا مدينة اكشونبة بقرب الساحل الغربى ، وافتتح فى طريقه اليها حصن الوقاع وأصاب فيه لخلف بن بكر صاحب آكشونبة أموالا وعدة وسلاحا لغنم ذلك جند عبد الرحمن ، وتلقى رسل خلف بن بكر مظهرا للانابة ، وملتزما للطاعة ، وأظهر أهل ناحيته رغبة شديدة فى استبقائه حاكما عليهم ، والتزام دفع الجباية الكاملة ، ووصفه سكان المنطقة بالسيرة الحسنة ، فرأى أن من حسن السياسة وصواب الرأى أن يستجيب لرغبتهم ، وعهد اليه بحسن السيرة والرفق بالرعية وألا يقبل نازعا ، ولا يكتنف هاربا ، فالتزم جميع ما أمره به ، ووقف عندما حده له . وعاد الناصر من مدينة آكشونبة الى قرطبة ·

وفى سنة ٣١٨ هـ (٩٣٠ م) كان افتتاح مدينة بطليوس وكان صاحبها وهو من سلالة ابن مروان الجليقى قد احتمل الحصار مدة طويلة حتى فنى رجاله ورأى من عبد الرحمن عزما لا يعتريه فتور ، وجدا لا طاقة له به ، فاستأمن ، وقبل عبد الرحمن مصالحته ، ووسعه من سماحة عبد الرحمن ماوسع أمثاله ، ونقل ابن مروان وأصحاب الشوكة من أنصاره الى قرطبة مع أسرهم وأغدق عليهم عبد الرحمن وملك المدينة وولاها عماله ·

ولكى يستكمل عبد الرحمن ما كان فى حيازة أسلافه كان عليه أن يعمل على استرداد طليطلة وقد كانت طليطلة دائما مصدر متاعب لأمراء الأندلس ، ورأى عبد الرحمن أن يبدأ باتباع سياسة حسن التفاهم والملاينة ، فأرسل اليها فريقا من فقهاء مصره الذين يثق بهم ليدعوا أهلها الى الطاعة ، ويحاولوا ادخالهم فيما صارت اليه الجماعة ؛ اذ كانوا لا يؤدون جباية ولا يلتزمون طاعة ولا يتناهون عن العصيان ، فلم يصلح معهم

هذا الأسلوب واستمتاعهم الطويل بالحرية جعلهم يأبون أى انتقاص لها ، فلاذوا بمعاذير المخادعة ، وجاوبوا عبد الرحمن اجابة تنم على عـدم استعدادهم لقبول الطـاعة ، ولم يتوان الناصر ــ جريا على عادته ــ عن اعتزام غزو مدينتهم وأخـذ الأهبة لمحاصرتها حتى يرجع أهلها عن غيهم ، وينزلوا على أمره ، ففى سنة ٣١٨ (٩٣٠) قدم الوزير سعيد بن المنذر فى جيش كبير الى مدينة طليطلة ، وأمره عبـد الرحمن بمحاصرة المدينة حتى يلحق بجيوشه ، فخرج اليها سعيد وأغذ السير نحوها حتى نزل بساحتها وأخذ فيما حد له من محاصرتها بأبلغ عزم وأتم حزم ، وفى الشهر التالى قصد عبد الرحمن مدينة طليطلة فلما اقترب فى طريقه اليها من حصن مورة الذى اتخذه أهل طليطلة للدفاع عن مدينتهم أمر القائم بالدفاع عن الحصن بالتسليم ، وأنذره وخـوفه ، فلم يجـــد بدا من التسليم ، ونزل عن الحصن ، وأمر الناصر بضبط الحصن ، وتقدم بعد ذلك بجيوشه الى محلة جرنكش القريبة من طليطلة ، وأشرف من هـــذه المحلة على السهل المنبســط حول طليطلة ونهـرها وكرومها ، ودبر رأيه فى أمكن المواضع من محاصرتها وأقرب الجهات الى الأخذ بمخنق أهلها ، فرأى أن النزول بمحلة المقبرة على باب المدينة أبلغ فى النكاية ، وأشد فى المضايقة ،فانتقل اليها ، وأخذ فى مضايقة العصاة والنكاية بهم بما لم يخطر لهم على بال .

وأقام بهذه المحلة سبعة وثلاثين يوما يوالى فيها النكاية بهم ، ويخرب قراهم ، وينتسف زروعهم ويقطع أشجارهم ، ثم أمر بالبنيان فى جبل جرنكش لمدينة سماها بمدينة الفتح وعهد الى الوزير سعيد بن المنذر بالاشراف على بنيانها ، وأمره بنقل الأسواق اليها والتمدين لها لتكثر مرافق أهل العسكر بها ، وعهـد الى محمـد بن سـعيد المنذر بالاشراف على باب

القنطرة مع فرقة من الجند ، وأوصاه بالاستبلاغ فى محاربة القوم .

وقدم على الناصر بمحلته على طليطلة صاحب حصن قنيلش وصاحب حصن الفهمين معتصمين بطاعته ، فأمر بنقلهما الى قرطبة والتوسع عليهما ، وقفل من طليطلة الى قرطبة .

واستمر حصار طليطلة أكثر من عامين ، وظن أهلها ان استعانتهم بملك ليون قد تنقذ الموقف ، وتساعدهم فى رفع الحصار ، ولكن جيش عبد الرحمن هزم جموعه ، ورد هجومه ، وأرغمتهم المجاعة فى آخر الأمر على فتح أبواب مدينتهم وعاذوا بصفح عبد الرحمن ، وضرعوا اليه فى اغتفار ذنوبهم فحضر فى سنة ٣٢٠ هـ (٩٣٢ م) لاستنزالهم وتوطيد طاعته فى المدينة ، وتلقاه قبل نزوله بالمدينة ثعلبة بن محمد ابن عبد الوارث القائم بالدفاع عنها معترفا بخطئه ومستقيلا من زلته ، فعفا عنه الناصر، وشمله عفوه ، وأمن أهل طليطلة ورفع عنهم الحصار ، فشعروا بالأمن بعد الخوف ، والسعة بعد الضيق ، وركب عبد الرحمن الى المدينة ودخلها وجال فى أقطارها ، ورأى من حصانتها وامتناع قاعدتها وانتظام الجبال فى داخلها وامتناعها من كل الجهات بواديها ووعرها وكثرة سكانها جعله يشكر الأقدار التى هيأت له مغالبة كل هذه الصعاب ، واجتياز هذه العقبات ، وعلم أنه لولا ما أخذ به نفسه من الجد والعزم فى أمرها لما استطاع أن يستردها مع حصانتها ومناعتها وما اعتاده أهلها من موالاة الدول المسيحية المجاورة لها ، والاستعانة بهم فى الخروج على طاعة أمراء الأندلس ، ودبر فيها بناء محكما متقنا ليكون مستقرا للقواد الملازمين فيها ، وملأها رجالا وعدة وسلاحا ، وأمر بهدم

ما وجب هدمه في المدينة،وأكثر من التجوال فى أنحائها ليهذب فيها ما أراده ، وكان سرور عبد الرحمن بالاستيلاء على المدينة عظيما كسروره يوم استيلائه على حصن ببشتر ، وكان شكره لله الذى مكنه من ذلك حارا وكثيرا ٠

وهكذا استطاع عبد الرحمن أن يخضع العرب والبربر والمولدين والمستعربين ويرغمهم على الطـــاعة ، ويرد للدولة الأموية بالأندلس سلطتها التى عصفت بها عواصف الثورات، وكادت تقتلعها وتعفى عليها ، وعاد الأمن والاستقرار الى ربوع الأندلس ، وكان فى ضياع سلطة زعماء العرب وارغامهـــــم على الطاعة عزاء للمولدين والمســـتعربين فقد رأوا فيها نوعا من الانتصار لقضيتهم ، فقد كان جانب كبير من ثورتهم لمقاومة تعالى العرب عليهم وعنفهم فى بعض الأحيان بهم ، أما بعد أن استردت الدولة هيبتها ، واستعادت سيطرتها ، فقد تساوت الأقدار ، وكانت المســاواة فى المعاملة مما ساعد على استعادة الدولة وحـدتها وسهل امتزاج أجناس الرعيــة المختلفة ، وأصولها المتباينة ، ولم يكن ذلك كســـــبا قليلا للمولدين والمستعربين ، وكأنهم ظفروا بجانب كبير من الاستقلال الذى كانوا يطمعون فيه ، والحرية التى تطلعوا اليها فاستراحت نفوسهم وهدأت ثورتهم ٠

عبد الرحمن الناصر
وتحويل الامارة الأندلسية
الى خلافة

كان أمراء الأندلس الأمويون منذ عهدعبد الرحمن الداخل يكتفون بلقب الأمير وابن الخلائف ، ولم يقدم أحد منهـــم على اتخاذ لقب خليفة وأمير المؤمنين تجنبـــا لاثارة خلافات ومشكلات قد يجدون صعوبة فى معالجتها فى حين أن عندهـم من المشكلات المعقـــدة والخلافات المتعبة ما يكفى ويزيد على الحاجة ، وماذا عليهم من فقدان لقب قد يجلب المتاعب وهم مستمتعون بالسلطة الكاملة والسيطرة التـــامة ، وفضلا على ذلك فانهم كانوا يرون الخليفة العبـــاسى أولى منهم بهـــذا اللقب لأنه يضم فى حوزته الحرمين الشريفين وبلاد العرب ولكن فى سنة ٣١٦ هـ (٩٢٩) م كانت الظروف قد تغيرت ، فقد استطاع عبد الرحمن منذ ولايته أن يخمد الكثـــير من الثورات ، ويسترد سلطة الأمراء التى انتزعها منهم الثائرون المتمردون ويعيد الى أكثر أنحاء امارته الأمن والاستقرار ، وكانت الدولة العباسية قد دب فيها الضعف واستأثر موالى الخليفة العباسى فى بغداد بالسلطة حتى أصبح الخليفة ألعوبة فى أيديهم ، وبلغ عبد الرحمن أن مؤنسا المظفر قتـــل مولاه الخليفة العباسى المقتدر سنة ٣٢٠ هـ وكان قد ســـبق خلعه وازالته عن سرير ملكه سنة ٣١٧ هـ ثم أعيد وجددت له البيعة

ولكنه قتل حينما فسدت الحال بينه وبين مؤنس الذى كان قد سعى فى اعادته الى الخلافة ، وبوجه عـــام لم يكن لأكثر الخلفــاء العباسيين خلال القرن الثالث الهجرى سلطة مطلقة ولا مكانة ثابتة موطدة ، وعاصر هذه الفترة قيام الدولة الفاطمية وتلقب القائمون بأمرها بألقاب الخلافة وامارة المؤمنين ،ومعنى ذلك أن الخلافة تعددت فماذا يمنع من أن يكون هناك ثلاثــة خلفاء ما دامت الخلافة قد صارت فى خليفتين ، وامارةالأندلس أقدم عهدا ، وأرسخ قدما ، وأدق نظاما من الخلافة الفاطمية الناشئة . فأميرها ان لم يكن أحق بلقب الخليفة وأمير المؤمنين من الخليفة الفاطمى فهو على الأقل جدير بهذا اللقب لاتســاع ملكه وثبات سيطرته ، ومما زاد عبد الرحمن تعلقا بالحرص على احراز هذا اللقب التنافس الذى قام فى المغرب بينه وبين الدولة الفاطمية فان حمل لقب الخلافة له من غير شك تأثير فى نفوس قبائل البربر الذين كان عبد الرحمن يســتعين بهم فى مدافعة الخطر الفاطمى ، ولم يكن من المناسب أن تظل الأندلس تنافس الخلافة الفاطمية وهى امارة ، وادراك الناصر لمدى قوة هــذا اللقب فى التأثير الروحى على الجماعات يدل على بعــد نظره الســـياسى ، وعمق فهمه لنفسية الجماعات ، ويقول المقرى « (١) الناصر أول من تسمى بأمير المؤمنين من بنى أمية بالأندلس ؛ لأن الدولة عظمت فى أيامه ، حين اختـــل نظام ملك العباسيين بالمشرق وتغلبت عليه الأعاجم ، ولم يتســـم أحد من سلفه بالأندلس الا بالأمير » . ويقول ابن عذارى (٢) « وفى هذه السنة ٣١٦ هـ) رأى الناصر أن تكون الدعوة له فى مخاطباته والمخاطبات عنــه فى جميع ما يجرى ذكره فيــه

(١) من الجز الثانى من كتاب أزهار الرياض صفحة ٢٥٨ .

(٢) من الجزء الثانى من كتاب البيان المغرب صفحة ٢٩٧ .

بأمير المؤمنين ، ولما استحقه من هـــذا هو له بالحقيقة ولغـيره بالانتحال والاستعارة ، فهو أبر أمراء المؤمنين ، والهـــداة الفاضلين ، والأبرار المتقين من كل منتخب فى المشرق والمغرب وقائم بالحق ، وسالك لسبيل الهدى والرشد ، فعهد الى أحمد ابن بقى القـــاضى صاحب الصلاة بقرطبة بأن تكون الخطبة يـــوم الجمعة مســـتهل ذى الحجة بذلك ، ونفذت الكتب الى العمال فيه ، ونسخة الرسالة النافذة فى ذلك تقول :

بسم الله الرحمن الرحيم

« أما بعـد ــ فأنا أحق من استوفى حقه ، وأجـدر من استكمل حظه ، ولبس من كرامة الله ما ألبسه ، للذى فضلنا به ، وأظهر أثرتنا فيه ، ورفع سلطاننا اليه ، ويسر على أيدينا دركه ، وسهل بدولتنا مرامه ، وللذى أشاد فى الآفاق من ذكرنا وعلو أمرنا ، وأعلن من رجاء العـــالمين بنا ، وأعاد من انحرافهم الينا واستبشارهم بدولتنا ، والحمد لله ولى الانعام بما أنعم به ، وأهل الفضل بما تفضل علينا فيه ، وقد رأينا أن تكون الدعوة لنا بأمير المؤمنين ،وخروج الكتب عنا وورودها علينا بذلك ، اذ كل مدعو بهذا الاسم غيرنا منتحل له ،ودخيل فيه ، ومتسم بما لا يستحقه ، وعلمنا أن التمادى على ترك الواجب لنا من ذلك حق أضعناه ، واســـم ثابت أسقطناه ، فأمر الخطيب بموضعك أن يقول به ، وأجر مخاطبتك لنا عليه ان شاء الله ، والله المستعان . »

وكتب يوم الخميس لليلتين خلتا من ذى الحجة ســـنة ٣١٦ ــ وبعد صدور هذا المنشور أصبح الناصر يلقب بأمير المؤمنين الناصر لدين الله .

عبد الرحمن الناصر
والخطر الفاطمى

لم تكن ثورة العرب والبربر والمولدين والمستعربين هى الخطر الوحيد الذى هدد الدولة الأموية بالأندلس ، فقد كان هنـــاك خطر مصدره الدول المسيحية فى الشمال مثل دولة ليون ومملكة نافار وغيرهما من الدول والامارات المســـيحية التى تكونت وتزايدت قوة وتماسكا فى القرن الرابع الهجرى ، وفى أواخر القرن الثالث بدأ فى افريقية والمغرب ظهور خطر آخر ، آخذ فى التعاظم حتى شـغل بال عبد الرحمن الناصر طوال حكمه ، واستلزم بذل جهود جبارة لدفع عاديته ، وهذا الخطر هو ظهور الدولة الفاطميـــــة فى المغرب ، وهى دولة شيعية ، مهد لظهورها وعمل على تكوينها وانشائها دعاة الشيعة الاسماعيلية ، وكان الشيعيون على اختـلاف مذاهبهم وتباين أهدافهم يرون أن الامامة وهى تشمل القيادة الروحية والزعامة الدنيوية من حق أولاد على ، وقصرها فريق منهم على أولاده من السيدة فاطمة ، والامام فى رأيهم معصوم من الخطأ ، والشيعة الاسماعيلية منسوبة الى الامام اسـماعيل الابن الاكبر للامام جعفر الصادق من سلالة الحسين بن على ، وقد مات اسماعيل فى حياة أبيه ؛ ولذلك ذهب فريق آخر من الشيعة الى صرف الامامة عنه ومنحهـــا لأخيه موسى الكاظم الذى مات بعد أبيه

الصادق ، فصار بذلك وارثا لرسالة أبيه ، وصاحب الحق فى الامامة بعده ، وقد نظم اسماعيل بن جعفر الصادق دعوته الامامية قبل موته مستعينا برجل من أسرة فارسية الأصل وهو عبد الله بن ميمون القداح ، وقد عمل حفيد عبد الله بن ميمون القداح المدعو سعيد الخير على أن يستكمل تنظيم الدعوة الاسماعيلية ويرسل الدعاة الى المغرب لنشرها ، وكان على رأس هؤلاء الدعاة الداعية أبو عبد الله الشيعى ، وعاونه أخوه أبو العباس ، وتسمى سعيد الخير بعبيد الله المهدى ، وقام أبو عبد الله الشيعى بالدعوة له فى المغرب وبذل فى ذلك جهدا كبيرا ، وكان أبو عبد الله رجلا واسع الحيلة ، جم الدهاء ، طبا بأهواء النفوس ، وفى بلاد سادها الجهل ، وملأها استبداد الحكام وعسفهم مثل بلاد المغرب كانت دعوة المهدى تجد أذنا صاغية ، وصدرا رحبا ، وأدخل أبو عبد الله فى روع أتباعه من قبيلة كتامة البربرية أن الدولة العلوية الاسماعيلية ستشرق شمسها من المغرب ، ووضع للكتاميين أحاديث ونبوءات جذابة أشعلت حماستهم ، وشدت عزيمتهم واستطاع بذلك أن يقاوم دولة الأغالبة ، ولما أطمأن الى نجاح مساعيه استدعى عبيد الله المهدى من سلمية من أعمال حمص التى كان مستترا بها ، ولقى عبيد الله فى رحلته من سلمية متاعب جمة استعان على مغالبتها باجادة التنكر والرشى ، وفر بصعوبة من مطاردة زيادة الله الأغلبى حتى وصل الى سجلماسة ، وكانت فى حوزة اليسع بن مدرار ، وقد أكرم وفادة عبيد الله فى بادىء الأمر ، ولكنه حين علم بتزايد قوة عبد الله الشيعى وتغلبه على الأغالبة وازالة ملكهم اعتقل المهدى ، ولم يطلق سراح المهدى الا بعد أن قدم جيش أبى عبد الله الشيعى ، وفر اليسع من سجلماسة ، وأسترد المهدى حريته ، وتقلد زمام الأمر وبدأ ظهور الدولة الفاطمية

ويرى الأستاذان : حسن ابراهيم حسن والدكتور طه أحمد شرف أن عبيد الله المهدى من سلالة ابن ميمون القداح ، وأن الامام المستور الحسين الاسماعيلى عهد اليه فى القيام بالامامة على أن يسلمها من بعده للقائم ابنه ، فالقائم هو سليل اسماعيل بن جعفر الصادق ، وأما عبيد الله المهدى فانه من سلالة القداح، فالمهدى لا يمت الى الأئمة الاسماعيلية بصلة القرابة ، وانما نهض بالامامة بتوصية من الحسين بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق ، وأن الامام الحسين الاسماعيلى استودع سعيد الخير أو عبيد الله المهدى الامامة ليردها الى ابنه القائم ، والدولة التى أنشأها عبيد الله المهدى تعرف بالدولة الفاطمية نسبة الى فاطمة بنت رسول الله ، أو الدولة العلوية نسبة الى على بن أبى طالب ، وتسمى أحيانا الدولة العبيدية نسبة الى عبيد الله المهدى ، ويبدو أنه لا اختلاف فى أن الدولة التى أسسها عبيد الله دولة اسماعيلية، وانما الشك فى عبيد الله نفسه ، وهل هو اسماعيلى من سلالة اسماعيل بن جعفر الصادق أو أنه قداحى من سلالة ابن ميمون القداح ، والمرجح عند الباحثين أن الامام الحسين نزل عن امامته طوعا لحجته سعيد الخير بن الحسين بن عبدالله القداح ليردها الى ابنه القاسم القائم حينما بلغ أشده ، ولما خرج عبيد الله المهدى من السجن أعلن أبو عبد الله الشيعى داعيته أنه الخليفة ، وأنه المهدى ، وذهب معه الى رقادة فى آخر سنة ٢٩٧ هـ (٩٠٩م) وهناك تلقى يمين الولاء من أتباعه، وحينما صار عبيد الله خليفة أظهر شدة ، وفرض طاعة لا تعرف اللين على أتباعه الكتاميين وغيرهم من رعيته ، وساء ظنه بداعيته أبى عبد الله ، وشك فى أمره ، واتهمه بأنه يحاول القاء الشبهة على عصمة الامام المهدى ، ودس اليه من قتله ، وقتل معه أخاه وذلك فى سنة ٢٩٨ هـ (٩١١م) .

وكان احتلال الفاطميين لتونس وقلبهم دولة الاغالبة خطوة لامتداد نفوذهم شرقا وغربا ، أما في الشرق فقد أخفقت جهودهم في الاستيلاء على مصر في عهد عبيد الله المهدى ، وأما في الغرب فكانوا يعملون على أن تكون جميع البلاد فيقبضتهم بحيث لا يحـول شيء بينهم وبين المحيط الاطلسى . ولم يكن هناك بد من اخضاع القبـائل الكبيرة في المغرب مثل قبيلة زناته وغيرها من قبـائل المغرب ، وبالرغم من أن عبيد الله لم يخضع لسلطانه جميع بلاد المغرب ، الا أنه مهـد السبيل للمعز لدين الله بعـده الذى استطاع أن يوحد بلاد المغرب جميعها تحت لوائه .

وكان على الناصر أن يحزم أمره ، ويعد الأهبة لمواجهة الفاطميين قبل أن يستفحل أمرهم فيقدموا على غزو الأندلس، وكان من الطبيعى أن يذكر الفاطميون أن العرب قبلهم جعلوا الاستيلاء على المغرب معبرا الى الأندلس ، ورأى الناصر أن من أجدى السـبل في مقاومة السيطرة الفاطمية التى اجتـاحت تونس وأخذت في الامتـداد السريع الى عدوة المغرب وهددت شواطيء الأندلس بعث الفتن واشعال نار الخلاف بين قبائل البربر ، ونجـح في ذلك واستولى على سبتة وطنجة ، وبدأ انشاء أسـطول ضخم ليقـاوم سطوة الفاطميين ، وكان ثوار الاندلس يتجهون بأبصارهم الى العدوة ،ويفاوضون الفاطميين، ويأتمرون معهم على حكومة قرطبة ، وقد استولى عبد الرحمن على سبتة سنة ٣١٩ هـ (٩٣١م) وانتزعها من يد بنى عصام حلفاء الفاطميين .

وقد اتخذ عبيد الله المهدى من تاهرت بالمغرب الاوسط قاعدة لمهـاجمة المغرب الاقصى ومهـاجمة الادارسة والنفوذ الاموى ، وبدأ قائده مصالة بن حبـوس صراعه العنيف مع

قبائل صنهاجة ، واستولى على حاضرتهم ناكور فى سنة ٣٠٥ وكان استيلاء الفاطميين على هذه المدينة بدء صراع عنيف مع الأدارسة ثم مع الصنهاجيين ، وكان وراء هذا الصراع صراع آخر بين السياسة الاموية والسياسة الفاطمية ، وكان زعماء قبائل صنهاجة وولايات المغرب الذين يتعرضون لهجوم الفاطميين يستعينون بعبد الرحمن الناصر ، ويلوذون بحماه حينما يغلبون على أمرهم ، وحينما استولى القائد الفاطمى مصالة بن حبوس على ناكور وقتل رئيسها سعيد بن صالح فر أولاده الى الأندلس ، وأقاموا بمالقة لقربها من بلدهم ورجائهم العودة اليها، ورحب الناصر بقدومهم، وعهد بانزالهم والتوسع عليهم ، وبعث اليهم بضروب الكسوة وكل ما احتاجوا اليه ، وخيرهم فى القدوم الى قرطبة والمقام فى مالقة ، فاختاروا المقام بها على بره وحبائه، وكان مصالة قد استخلف على ناكور رجلا يقال له ذلول وانصرف الى تأهرت ، فافترق عن ذلول من كان معه ، وبقى فى قلة من رجاله ، فقصده صالح بن سعيد من مرسى مالقة فقتله وقتل أصحابه ، ولزم ناكور، وهادى عبد الرحمن الناصر بالخيل والجمال، ويوضح لنا هذا مدى مساعدة الناصر للصنهاجيين وأنه كان يهمه أن يكون له حلفاء من المغاربة ليكونوا حاجزا يستدفع به شر الفاطميين ، وكان الناصر يقدر أنهم أقدر على النجاح فى الاستيلاء على بلاده من أعدائه العباسيين لبعد الشقة ووعورة الطريق بين العراق والأندلس مع قرب المسافة وسهولة الطريق بين المغرب والاندلس ، ولذلك أمد الناصر صالحا بالاخبية والآلات والبنود والطبول ، وفى الوقت نفسه استغل عنصر الكراهة بين الشيعة والسنية المتأصل فى قلوب الصنهاجيين ، وكان من أسباب شدة تعلقهم بالناصر خوفهم على دولتهم وعلى مذهبهم السنى فى الوقت نفسه ، والادارسة

برغم كونهم من أصل علوى رأوا كذلك الاستعانة بالناصر خشية اكتساح الفاطميين لملكهم ٠

وقد حاول الفاطميون فيعهد عبيد الله المهدى الاستيلاء على مصر ، ولما أخفقوا فى هذه المحاولة عولوا على قصر جهودهم على بسط سلطاتهم فى المغرب ، ولذلك خرج مصالة بن حبوس قائد جيش عبيد الله المهدى من تاهرت سنة ٣٠٨هـ (٩٢٠م) واسترد مدينة ناكور من الصنهاجيين ، واتجه الى الادارسة فى فاس ، وكان عليها يحيى بن ادريس وانتصرت عليه جيوش المهدى ، وكان الجيش الفاطمى مكونا من المكناسيين وعلى رأسهم زعيمهم ابن أبى العافية ومن الكتاميين وهم الذين أعانوا الدولة الفاطمية ، ونهضوا بها ، وصار الادارسة فى فاس تحت حماية الفاطميين يدفعون لهم الجزية، ويدينون لهم بالطاعة ، وولى الفاطميون على تلك الناحية موسى ابن أبى العافية صاحب مكناسة ، وفى سنة ٣٠٩ هـ فتح الفاطميون سجلماسة وبذلك صار جزء كبير من المغرب الأقصى خاضعا لسلطانهم ، وفسد ما بين موسى بن أبى العافية وبين الفاطميين وإنتظم له الأمر فى المغربين : الأوسط والأقصى وأصبح خطرا على الفاطميين ، ولما ولى المهدى على المغرب الاوسط وتاهرت واليا آخر وهو حميد بن يصال عمل هذا الوالى على أن يشعر موسى بن أبى العافية بقوة الفاطميين ، فأرسل من قبله واليا الى فاس ، ولكن هذا الوالى قتل وحمل رأسه الى موسى ، فأرسله موسى الى الخليفة عبد الرحمن الناصر ، وكان قد بدأ يميل الى ناحيته ويناصره ، ويقول ابن خلدون عن موسى : « ثم انتفض موسى بن أبى العافية عامل فاس والمغرب وخلع طاعة الشيعة وانحرف الى الاموية من وراء البحر وبث دعوتهم فى أقطار المغرب » وكان هذا انتصارا

واضحا لسياسة عبد الرحمن ، ولم يكن ابن أبى العافية وحده هو الذى سلك مع الفاطميين هذا المسلك فان أدارسة الريف حذوا حذوه ، وولوا وجوههم شطر عبد الرحمن الناصر ليستعينوا به على منافسيهم ولا سيما مع بنى عمهم الفاطميين، وقد دعم هذا كله موقف الناصر فى المغرب .

وقد مات عبيد الله المهدى سنة ٣٢٢ هـ (٩٣٤) وخلفه القائم أبو القاسم محمد ، وقد لعبت السياسة الفاطمية دورا هاما فى عهد عبيد الله ، وحاول أن يحارب الدولة الاموية الاندلسية بسلاحها نفسه ، فاتصل بالثائر ابن حفصون قبل موته وحضه على الاستمرار فى الثورة ، وكان يتصل به من الحين الى الحين ، وحرضه على أن يمهد للدعوة الشيعية فى الاندلس ، وأرسل من قبله دعاة يجوبون نواحى الاندلس متنكرين فى زى تجار ؛ ويرى المؤرخ دوزى أن الرحالة ابن حوقل كان عينا من عيون الفاطميين وداعية من دعاتهم وقد استهل وصفه للأندلس بقوله : ان أشد ما يثير دهشة الزائر الغريب للاندلس هو كونها لا تزال خاضعة للحاكم المسيطر عليها ، وأن أهلها أذلاء خائرو العزم جبناء لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم اذا هاجمتهم جيوش منظمة » وفكرة ظهور المهدى المنتظر كانت شائعة فى الاندلس مثل شيوعها فى سائر أنحاء المغرب والشرق ، ويرى دوزى أنه لو كان أتيح للفاطميين الوصول الى الاندلس لكانوا وجدوا فيها اتباعا لهم وشيعة تؤمن بمذهبهم ، ويرى دوزى انه من المحتمل أن يكون الفاطميون قد أرسلوا الفيلسوف ابن مسرة الى الاندلس ليمهد الاذهان لقبول الايديولوجية الشيعية ، وحقيقة أنه ليس هناك ما يقطع بذلك ولكنه من المؤكد ان الفاطميين حاولوا أن يوجدوا لهم حزبا يناصرهم ويدين بتعاليمهم فى الاندلس .

ويقول(١) الذهبى ان القــائم الذى خلف المهدى كان كغيره من الخلفاء الفاطميين ينقم على السنيين ، حتى انه أمر بلعن الصحابة وأن ذلك أثار غضب المغاربة ، وبخاصة الخوارج الذى ثاروا فى المغرب على الفاطميين ، وكان أشد هذه الثورات خطرا وأكثرها بلاء تلك الثورة التى أشعل نيرانها أبو يزيد مخلد بن كيداد المعروف براكب الحمار وقد استمرت طوال عهد القائم ولم تخمد الا فى عهد ابنه المنصور الذى خلفه سنة ٣٤١ هـ وقد أخفى المنصور موت أبيه حتى لايؤثر فى حماسة جيوشه التى كانت مشغولة بثـورة أبى يزيد وقد قصر كل همه وانفق كل موارد بلاده للقضاء على هذه الثورة التى شملت كل أرجاء الدولة الفاطمية ، وكان أبو يزيد مخلد بن كيداد من قبيــلة زناتة فى مدينة توزر أكبر مدن شط الجريد فى تونس ، وقـد ولد فى توزر ونشأ بهـا وأخذ يعلم الصبية واعتنق مذهب الخوارج الاباضية ثم ســار الى تاهرت وأخذ يعلم الصبية حتى خروج أبى عبد الله الشيعى الى سجلماسة لاطلاق المهدى من سجنه ، وقوى أمر أبى يزيد وراجت دعوته فى أواخر عهـد المهدى وبخـاصة بين قبـائل الزاب والمغرب الاقصى ، وقويت شوكته فى عهد القائم الذى خلف المهدى ، وهزم قبيلة كتامة أنصار المهدى ، وانتشرت جيوشه فى كل أنحاء الدولة الفاطمية ، حتى استطاع أن يهدد مدينة المهدية نفسها مستقر الخليفة ، ولما ولى المنصور الذى خلف القائم فى سنة ٣٣٤هـ قويت جيوشه بانضمام قبيلة صنهاجة وغيرها من قبـائل البربر اليه ، واستطاع أن يهزم أبى يزيد ويقبض عليه ، وسيق أبو يزيد الى المهدية حيث مات متأثرا بجراحه

---

(١) الجزء الثالث من كتاب تاريخ الاسلام السياسى للدكتور حسن ابراهيم حسن صفحة ٢٤٩ .

سنة ٣٣٦ هـ ، وقد شغلت ثورة أبي يزيد الفاطميين سنوات طويلة وأثرت في موارد الدولة وانهكت قواها ، وكانت هناك علاقات بين أبي يزيد والخليفة الناصر وقد وصل ابنه أيوب الى قرطبة في سنة ٣٣٥ هـ رسولا من والده فاستقبله الناصر في قصر الرصافة وأكرم لقاءه ، وقد ظل أبو يزيد يراسل الناصر معترفا بامامته ومواليا له الى حين وفاته ، واغتنم عبد الرحمن الناصر فرصة اشتغال الفاطميين بمقاومة ثورة أبي يزيد ووطد مكانته في نواحي المغرب الاوسط والاقصى ، وفي عهد الخليفة الفاطمي المعز دخل جوهر قائد جيوشه الى المغرب الاقصى واستولى على مدينة فاس ووصل الى مضيق سبتة ولم يستطع الاستيلاء عليها ، وهاجم حاكم صقلية من قبل الخليفة الفاطمي باسطوله مدينة المريه ، وحرق السفن الراسية بها واستولى على جانب منها ، وقد رد عبد الرحمن على ذلك باطلاق اللعن على ملوك الشيعة بجميع منابر الاندلس وانفاذ كتبه بذلك الى العمال بسائر نواحي الاندلس . ثم أصدر أمره الى قائده غالب في سنة ٣٤٥ هـ بمهاجمة سواحل افريقية ، ولكن هذه الحملة لم تنجح النجاح الذى كان يأمله عبد الرحمن فان الاندلسيين بعد أن صادفوا بعض النجاح في أول الأمر اضطرتهم الجيوش المدافعة عن الشواطىء الى الجلاء ، وكان عبد الرحمن مشغولا حينذاك بمحاربة ملك ليون ، ولما كان يرغب في توجيه جيوشه جميعها الى افريقية ؛ لذلك كان من الطبيعي مسالمة المسيحيين في الشمال ولذلك لم يتشدد في قبول شروط الصلح التي عرضها ملك ليون ، ولما تم الصلح وجه اهتمامه كله الى افريقية وأعد حملة ضخمة لمهاجمة الفاطميين ، ولكن العلاقات لم تلبث ان ساءت بينه وبين مملكة ليون ، فوجد نفسه مضطرا الى تحويل جيوشه اليها ، ومهما يكن من الامر فان قوة اسطول عبد الرحمن

الناصر مكنته من أن ينازع الفاطميين السيطرة فى البحر الأبيض المتوسط كما ان امتلاكه لسبتة مكنه من أن تكون مقاليد موريتانيا في يده، وقد استطاع عبد الرحمن باستيلائه على سبتة وايجاد علاقات مع زعماء قبائل المغرب وحكامه وانشاء أسطول ضخم أن يجنب الاندلس خطر استيلاء الفاطميين عليها وانتزاعها من سيطرة الامويين ·

صراع عبد الرحمن الناصر
مع الدول المسيحية
في شمال اسبانيا

فى الوقت الذى شرع فيه عبد الرحمن فى رم بنـــاء الدولة ولم شعثها وما تناثر من مدنها وكورها ٠ والقضاء على الثـورات المضطرمة ، والخلافات المحتـدمة ويجتذب اهتمامه ظهور خطر الدولة الفاطميـــة الناشئة تعرضـت دولتـه لخطر آخر غير مأمون العواقب ولا سـهل المدافعة من حدودها الشمالية ، فقد كانت مملكة ليون تزداد تماسكا وقوة حتى أصبحت مرهوبة السطوة وعرة الجانب ، ونشأة هذه الدولة لا تخلو من الغرابة والعظة ، ومعظم النار من مستصغر الشرر كما يقول المثل المعروف ، ففى القرن الثامن الميلادى حينمـــا اجتاحت الجيوش الاسلامية شبه الجزيرة الاســبانية لجأ قرابة ثلاثمـــائة من المجـاهدين الاسبانيين الى غار كبير فى مقاطعـة أوستريش واعتصموا به ، وكان لهم من قلة عددهم ووعورة الجبال التى نزلوها وهوان أمرهم ما أغرى الجيوش الاسلامية بالاستهانة بأمرهم واهمال شأنهم ، وكان هذا الغار ــ واسمه غار دونجا ــ متغلغلا فى شعب ضـيق ملتو بين صفين من الصـخور الصلدة ، ويجد الصاعد اليه صـعوبة ومشقة فى الدخول اليه ، وكانت حفنة قليلة من المحاربين تستطيع فى

سهولة ويسر أن تدفع عن هذا الكهف الصعب المرتقى المنيع الناحية ، وكان زعيم هؤلاء اللاجئين يدعى بلاى ، ولم يستطع كثيرون ممن لاذوا معه بالغار ان يصبروا ويحتملوا الم الحرمان وقســـوة الحياة فى ذلك المكان المنعزل الموحش فبعضهم آثر التســـليم وبعضهم قضى نحبه جوعا ولم يبق فى الغار تحت زعامة بلاى سوى ثلاثين رجلا وعشر نساء كان طعامهم الوحيد العســـل الذى يختزنه النحل فى شقوق الصـــخور ، ورأى المسلمون أنه من العبث مطاردة هذه الطغمة القليلة من الفارين التى لا يخشى لها بأس فى هـــذه المسالك الوعرة التى تعرض سالكها للهلاك ، ويصف ابن حيان المؤرخ نشأة هذه الدولة بقوله (١) « وفى ولاية عنبسة بن سحيم الكلبى قام بجليقية علج خبيث يدعى بلاى فعاب على العلوج طول الفرار ، وأذكى قرائحهم ، حتى سمابهم الى طلب الثأر ، ودافع عن أرضه ، ومن وقته أخذ نصارى الاندلس فى مدافعة المسلمين عما بقى من أرضهم ، والحمـــاية عن حريمهم ، وكانوا لا يطمعون فى ذلك ، وقيـــل انه لم يبـــق فى أرض جليقية قرية لم تفتح الا الصخرة التى لاذ بها هذا العلج ، ومات أصحابه جوعا الى ان بقى فى ثلاثين رجلا ونحو عشر نســـوة ، وما لهم عيش الا من عسل النحل فى جبـــاب معهم فى خروق الصـــخرة ، ومازالوا ممتنعين الى ان اعيا المســـلمين أمرهم واحتقروهم ، وقالوا ثلاثون علجا ما عسى ان يجىء منهم ، فبلغ أمرهم بعد ذلك فى القوة والكثرة والاستيلاء ما لا خفاء به » ويقول مؤرخ آخر « كم تمنينا على الله لو أن المسلمين أطفئوا دفعة واحدة

---

(١) العرب فى اسبانيا لستانلى لين بول وترجمة الأستاذ على الجارم صفحة ١١١/١١٢

شرارة هـــذه الجـذوة التى قدر لها أن تلتهم دولة الاسلام بالأندلس » .

وهذا الاهمال لشأنه،والاستهانة بأمره مكنه من أن يوطد مركزه ، ويزداد عدد اتباعه حتى استطاع أن يهاجم المسلمين ويشن عليهم الغارات ، فعقد مونوسا حاكم اقليم استوريش العزم على مقاومة هـــذه الغارات وعهد الى أحد رجاله ويدعى علقمة بمهاجمتهم ودفع غاراتهم ، ولكن الحملة كانت سيئة الحظ فقد قتل علقمة ورجاله جميعهم مما شجع أهل استوريش وزادهم اقداما على شن الغارات وموالاة الهجمات ، ولما لم يكن مع مونوسا مايكفى من الجند لاخماد الثورة ومقاومة الهجوم فقد اضطر الى ترك مدينة جيجون الواقعة على خليج بسكاى حيث كان مقره الى ليون ، وهكذا استطاع سكان اوســـتريش ان يســـتردوا أرضهم ، ويظفروا باســتقلالهم ، وفى النــاحية الشرقية من مقاطعتهم كانت مقاطعة كانتابريا التى لم تخضع لسيطرة المسلمين ، وعندما تزوج الفونسو حاكمها بابنــة بلايو وارتقى عرش استوريش تضاعفت قوة المسيحيين واشتد بأسهم ، وصمموا على مدافعة غزاة بلادهم الى الجنوب ، وهيأت لهم ظروف الأحوال الفرصة المناسبة ، فقد كان معظم المسلمين فى النواحى الشمالية من البربر ، وحدث خلاف بينهم وبين العرب ، فثاروا بهم وأجلوهم من المناطق الشمالية ، ولكنهم حينما تقـدموا الى الجنـوب أصيبوا فى دورهم بهزيمة وقتل العرب منهم الكثيرين ، وحدثت مجـاعة شديدة الوطأة بدأت سنة ٧٥٠ م (١٣٣ هـ) واستمرت خمس سنوات متتاليـــة فصمم أكثر البربر على الهجرة من شبه الجزيرة والعودة الى قبائلهم فى افريقية ، واغتنم الجليقيون الفرصة وقاموا بثورة ســنة ٧٥١ م (١٣٤ هـ) واعترفوا بالفونسو ملكا عليهم ،

واستطاعوا بقيادته ان يقضوا على عدد كبير من أعدائهم وان يرغموا الباقين على الانسحاب الى استرقة ، وفي سنة ٧٥٣ / ٧٥٤ (١٣٦ / ١٣٧ هـ) دفعوا بالبربر أكثـــر فاكثر الى الجنـــوب ، وأخلوا منهم برافرة والبرتغال وبازو ، وبذلك خلا لهم شاطىء نهر دويرة حتى مصبه في المحيط الأطلسى ، وتابع المسلمون ارتدادهم الى الجنوب فاخلوا استورقة وليون ســمورة وليدسمة وسلمنقة ، وتراجعوا الى قورية وماردة ، وفى الناحية الشرقية أخلوا شلطائية وشنت منكش وشقوبية وآبلة وأوقة وآكشمة وميراندا على نهر الابرو، وبذلك أصبحت المدن الرئيسية على الحدود الاســـلامية من الغرب الى الشرق هى قلمرية على نهر مندبيجو وطلبيرة وطليطلة على نهر التاجة وتطيلة وبنبلونة ، وهـكذا مكنت الحرب الداخلية والمجاعـة الأســـبانيين من تحرير جزء كبير من بلادهم لم تكد سيطرة المسلمين عليه تتجاوز أكثر من أربعين سنة ، ولكن الفونسو لم يستفد كثيرا من هذا الفتح فقد جاب أنحـاء تلك المناطق المهجورة وقتل من وجده بها من المسلمين ولكن لم يكن يملك من المال ما يكفى لاعادة بناء القـلاع والحصون التى خربها المسلمون قبل أن يتركوها ولم يكن عنده كذلك عدد كاف من المزارعين يستطيعون ان يقوموا بالزراعة فى هـــذه المناطق الشاسعة ، ولذلك قفل الى مملكته ومعه رجاله ، ولم يكن فى وسعه سوى احتلال النواحى القريبة من حدود مملكته ، وظل باقى المناطق التى اكتســـحها مهجوراً وحاجزاً طبيعيـــا بين المسيحيين فى الشمال والمسلمين فى الجنوب ، وقد استطاع خلفاء الفونسو أن يتموا ما عجز عنه ، وفى خلال حروبهـم المســـتمرة مع العرب استطاعوا أن يعيدوا بنـاء المدن الهامة والحصون والقلاع ، وفى النصف الثانى من القرن التاسـع الميلادى الذى اشتعلت فيه الثورات فى الجنوب وكاد الزمام أن

يفلت من أيدى أمراء قرطبة تمكن المسيحيون من مد حدودهم الى نهر دويرة ، وبنوا معاقل منيعة فى سمورة وشنت منكش وشـــنت اشتيين دى جورماز وأكشـمة ، وكانت هذه المدن الأربع تكون سدا منيعا لمواجهة هجمات مسلمى الأندلس ، وكانت المنطقة الموحشة الجـدباء الشاســـعة الممتدة من نهر دويرة الى نهر الوادى الكبير لا يسيطر عليها العرب ولا مملكة ليون ، أما من الناحية الغربية فقد كانت حدود مملكة ليون التى تجاوزت نهر مونديجو قريبة من حدود أعدائهم العرب ، ولكن هذه الحدود كانت كثيرا ما تخترق ، ومكن اشتغال أمراء قرطبة باخماد الثورات الداخلية فى الأندلس أهل ليون من مد غاراتهم حتى نهر التاجة ونهر الوادى الكبير ، وكان معظم سكان هذه الناحية من قبائل البربر ، وكثرة الخلافات التى قامت بين هذه القبائل ومحاربتهم بعضهم لبعض لم تمكنهم من مقـــاومة اغارات الليونيين ، ولذلك أرغموا على دفع ضريبة للمسيحيين .

وفى سنة ٩٠١ م (٢٨٩ هـ) لاحت للمسلمين فرصة للانتقام ، فقد أعلن الأمير أحمد بن معاوية بن هشام الأموى بين البربر أنه المهدى المنتظر وكان من الطامعين فى عرش الأندلس والمقبلين على دراسة علوم الغيبيات ، ودعا البربر الى الانضمام تحت لوائه لمهاجمة سمورة ، وكانت هذه المدينة منذ تجديد بنائها فى سنة ٨٩٣ م (٢٨٠ هـ) قد اتخذها الفونسو الثالث قاعدة لشن الغارات على البربر بمعاونة المسيحيين فى طليطلة، وأوقع الرعب فى قلوب البربر ، لذلك وجـــد الأمير الأموى استجابة لدعوته من جانب البربر ، فقد كانوا على جانب من الجهل يجعلهم سريعى التصديق بالغيبيات ، وكانوا فى الوقت نفسه ظامئين الى الانتقـــام من المسيحيين الذين والوا عليهم الغـارات وأقنعهم أحمد بن معاوية أن أسوار المدن ستتداعى

وتسقط عند اقترابهم منها ، وفي أشهر قلائل جمع هذا الدعي جيشا بلغ عدده ستين ألفا من المحاربين ، وقادهم الى ناحية نهر دويرة واشتبك مع جيش الفونسو الثالث في معركة هزم فيها الليونيون وحال البربر بينهم وبين الدخول الى سمورة ، وأرغموهم على الارتداد الى بلادهم ، ولكن سيطرة أحمد بن معاوية على البربر أثارت الحسد في نفوس زعمائهم ، وخشوا أن يفقدوا نفوذهم ، ولم يحسن أحمد بن معاوية معاملتهم ، وأطغاه الانتصار ، فاستولى عليه الغرور وحب الاستعلاء ، وتسرب الى البربر الشك في رسالته ، فبدأ يفقد نفوذه وسيطرته عليهم ، ومكن ذلك زلول ابن يحيى أقوى زعمائهم من التغلب على هذا المهدى المزعوم ، فتخلى عنه أنصاره ، وأبى أن يموت مسربلا بالعار، فحث جواده في حشود الليونيين ولقى الميتة التى كان ينشدها ، وسمر رأسه على أبواب سمورة وزادت هذه المعركة الليونيين جرأة واقداما ، وشد من عزمهم معاونة أهل طليطلة لهم ووقوفهم فى صفهم ، وفى تلك الفترة كان على عرش نافار سانكو العظيم الذى استطاع أن يجعل لبلاده أهمية لم تكن لها من قبل ، وصار هذان الملكان ـ الفونسو الثالث ملك ليون وسانكو العظيم ملك نافار ـ يعتقدان أن آسبانيا المسلمة غنيمة لا يجمل بهما أن تفلت من أيديهما ، وكان لرجال الدين تأثير شديد على أهل ليون ونافار ، جعلهم يعتقدون أن أبواب الجنة مفتوحة لهم اذا حاربوا الكفار ، وكان تخلفهم الحضارى يثير فى نفوسهم الحقد والحسد لما كان ينعم به مسلمو الاندلس من حضارة مزدهرة وعيشة راضية رافهة ولو كان أتيح لهؤلاء الهمج المتعصبين التغلب على حضارة الأندلس اللامعة لكان العالم قد فقد الكثير وتخلف ركب الحضارة الانسانية ، ولذلك كان على عبد الرحمن أن يضطلع بعبء مرهق ثقيل ، وينهض بواجب

مشرف جليل ، وليس هذا الواجب الدفاع عن بلاده فحسب بل الدفاع عن الحضارة الانسانية ذاتها ، والابقاء عليها ، وكانت المشكلات التي واجهته مشكلات شديدة معقدة مستعصية فكان عليه أن يخمد الثورات في داخل بلاده وأن يرد هجوم مسيحيي الشمال الذين زادت جرأتهم وكثر عدوانهم ، وكان عبد الرحمن من أهل القوة البالغة والبأس الشديد ، فلم يتردد عند مباشرته السلطة وتسلمه مقاليد الحكم في التشمير لمواجهة هذه الأخطار ، وقد رأينا في فصل سابق كيف تجرد للقضاء على الثورات الداخلية ، وتخضيد شوكة العصاة ، وسنرى كيف واجه تحدي مسيحيي الشمال .

ففي مستهل حكمه أرغم على الدخول في معركة مع الليونيين لم يكن هو موقد نيرانها ، فقد بدأ أردونو الثاني ملك ليون الجرىء في سنة ٩١٤ م (٣٠٢هـ) مهاجمة نواحي مدينة ماردة الواقعة على نهر الوادي الكبير ، واستولى على حصن الحنش (النجى) ووضع السيف في المدافعين عنه وسبى النساء والأطفال ، واشتد هلع أهل بطليوس لمقدمه لقربها من ماردة ، فأسرعوا بجمع المال والسلع الثمينة ، وقدموها في ذلة وضراعة ليتقوا شره وعلى رأسهم أميرهم الذى كان لا يزال خارجا على سلطة عبد الرحمن الناصر ، وتقبل أردونو الهدية، وعاد حاملا الغنائم ، وعبر نهر التاجه ثم نهر دويرة ، وكان عبد الرحمن يستطيع الاغضاء عن هذا الاعتداء ؛ لأن صاحب بطليوس كان خارجا على طاعته ، ولكن ذلك لم يكن يتفق مع سياسة عبد الرحمن ، فقد أراد أن يكسب ود هؤلاء الثائرين من رعيته ويريهم أنه قادر على حمايتهم ، ودفع الأذى عنهم ، ولذلك جرد حملة بقيادة القائد المحنك أحمد بن محمد بن أبى عبدة في سنة ٣٠٤ هـ (٩١٦ م) وضم اليه عددا من الموالى

والأجناد فجال جولته فى نواحى مملكة ليون ، وغنم وسبى وعاد برجاله سالمين غانمين ، ولكن هذه الحملة لم تكن كافيه لردع أردونو ملك ليون ، فقد شكا سكان الحدود الى عبد الرحمن اعتداء الليونيين على طلبيرة الواقعة على نهر التاجه وأحوازها ، فأرسل فى السنة التالية ٣٠٥ هـ (٩١٧ م) جيشـــا يقوده أحمـــد بن محمد بن أبى عبـــدة ، وأخرج معه طبقات من المجاهدين ، وحشد اليه رجال الثغر ؛ فدخل فى حـــدود مملكة ليون ، ونازل حصن فاشتر مورش ، وجد فى محاربة المدافعين عنه ، فجمع الليونيون جمـــوعهم ، وأجلبوا عليـــه بخيلهم ورجلهم ، وكان بعض أهـــل الثغر الذين انضموا الى الجيش ممن يشك فى ولائهم ، فحينما أقبل اوردونو الثانى لنجدة المدافعين عن الحصن تداعوا الى اظهار الهزيمة ، وأحدثوا بذلك اضطرابا وفوضى فى صفوف الجيش ، ولما رأى القـائد المغوار ابن أبى عبدة طلائع الهزيمة ، ثبـــت بنفسه وأظهر الصبر وأبى التراجع والفرار وآثر الاستشهاد وأن يموت بين الضرب والطعن ميتة « تقوم مقام النصر ان فاته النصر » كما قال أبو تمام ، وانحاز الى جانبه بعض جنوده الذين أبوا أن يحتملوا خزى الفرار،وشاركوه مصيره ، ويقول ابن عذارى(١) « وانعقد سائر الجيش وصاروا يدا واحدة وخرجوا الى أرض المسلمين بدوابهم وأنقـالهم وأبنيتهم » ولـكن المؤرخ دوزى يقول (٢) ان كاتبى الحوليات المسيحيين قد ذكروا أن القضاء على جيش المسلمين كان تاما حتى ملأت جثث جنودهم التلال والغابات والسهول من نهر دويرة الى مدينة أنتيسة .

(١) الجزء الثانى من البيان المغرب صفحة ٢٥٦ .

(٢) من كتاب « اسبانيا الاسلامية Islam للمؤرخ دوزى صفحة ٤١٧ .

ولم تنل هذه الهزيمة من عزيمة عبد الرحمن ، فشرع في التأهب لازالة آثارها ، ولكن بينما كان يعد العدة لارسال حملة أخرى في السنة التالية اضطر الى تحويل اهتمامه الى افريقية لتزايد الخطر الفاطمي بها ، ولم ينس عبد الرحمن مع ذلك ما حل بقائده ابن أبي عبدة الذى بعث زهو اردونو الثانى بانتصاره عليه على أن يعلق رأسه على أسـوار مدينة شنت اشتيبن والى جانبه خنزير برى ، ولو أنه نسى ذلك لذكره بواجيه ما أقدم عليه مسيحيو الشمال بعد ذلك ، ففى سنة ٣٠٦ هـ (٩١٨ م) هاجم اردونو الثانى وحليفه سانكو ملك نافار أحواز مدينة ناجرة ومدينة تطيلة وعاثا بها نهبا وتخريبا واستولى حليفه سـانكو بعد ذلك على حصن تلبيرة وأحرق المسجد الكبير الجامع المقام فى هذا الحصن ، وقد أحفظت أخبار هذه الأحداث الناصر ، فأمر بالاحتفال فى الحشـد وجمع الرجال والتكثير من الأجنـاد والفرسان والأبطال ، وعهد الى حاجبه بدر بن أحمد بقيـادة الجيش ، ونفذت كتبه الى أهل الأطراف والثغور بالخروج اليه والدخول فى معسكره والجـد فى نكاية المعتدين على الأراضى الاسلامية ، وخرج الجيش من قرطبة ، واقتحم حدود مملكة ليون ، وهاجم جيشها المعتصم بالجبال ، ودارت معركتان فى ناحية مطونية ، أنتصر المسلمون فى كلتيهما ، وهكذا اسـتطاع عبد الرحمن أن يثأر لهزيمة جيشه السابقة ويشـعر الليونيين بقـوته ويوقع فى قلوبهم الرعب ، ولم يكتف عبد الرحمن بهذا الانتصار ، وأراد أن يمعن فى اذلالهم ، واظهار سطوته ، فقاد الجيش بنفسه فى سـنة ٩٢٠ م (٣٠٨هـ) واستولى على مدينة وخشمة ، وترك المدينة بعـد أن حرق حصنها ، وتقـدم الى شنت اشتيبن دى جورمز ، فوجد اهلها قد هجروا الحصـن وأخلوه فامر عبد الرحمن بهدم الحصن ، وتقدم منها الى قلعة القبيلة وتركها

انقاضا ، واتجه الى مدينة قلونية وهي من المدن القديمة ،وكان سكانها قد اخلوها ، فهدم بيوتها وكنائسـها ، ويبدو ان الليونيين قد أخلوا له الميدان ، وأفسحوا له الطريق ، لأنهم لم يجدوا فائدة فى المقاومة .

واستجاب عبد الرحمن لتوسلات مسلمى تطيلة فوجـه جيوشـه الى نافار متئدا فى تقدمه حتى لا يرهق جيشـه ، وطوى المسافة من قلونية الى تطيلة فى خمسة أيام ، ووضع كتيبة من الفرسان تحت قيادة محمد بن لب حاكم تطيـلة وأمره بمهاجمة حصـن قلهزة الذى بناه سـانكو لارهاب المسـلمين فى تطيلة ، فوجدوا هذا الحصن قد أخلى ، وكان سانكو قد فر هاربا مسرعا الى أرنيط من حصن قلهزة بعد أن أخلاه وكان قد اتخذه معقلا وثواه مسكنا فلما فجأته جنود عبد الرحمن أخلاه وزال عنه فغنمه المسلمون بأسره وخربوه وانتسفوا كل ما حواليه ، وحينما عبر جيش المسلمين نهر ابرو هاجم سانكو طليعة الجيش ، ولكنه هزم هزيمة ساحقة ، وتوارى هو ورجاله فى الجبال ، ولاذوا بالشعاب .

ولما وجد سانكو نفسه عاجزا عن الوقوف وحـده فى مواجهة جيش عبد الرحمن وتكررت هزائمه سـأل أردونو مناصرته ، وطمع الملكان فى اعتراض مقدمة الجيش أو انتهاز الفرصة فى الساقة حسبما تسمح ظروف المعركة ، وفى الوقت نفسه فان المسيحيين الذين اعتصموا بالجبال المنيعة تعرضوا لصـفوف الجيش وهى تخترق شـعب الجبال والأودية ، وجعلوا يتصـايحون ويولولون ليضـعفوا من قلوب جنـد عبد الرحمن ، وأنزلوا بعض الخسـائر بالجيش ، ووجد عبد الرحمن أن جيشه فى موضع غير ملائم ومعرضا للخطر ، وكان عليه أن يقاوم رجالا خفاف الحركة فيهم صلابة الجبليين

وشدة صبرهم على المقاومة ، وكانت هزيمتهم لجيش شارلمان وهو يعبر ممرات رونسسفال فى جبال البرانس لا تزال ماثلة فى ذاكرتهم ، وطمعوا فى أن تلوح لهم فرصة لينزلوا بجيش عبد الرحمن كارثة مثل الكارثة التى أنزلوها بجيش شارلمان ، وأدرك عبد الرحمن الخطر الذى يتهدد جيشه ، فلما بلغ وادى القصب (وادى جانكيراس) توقف الجيش ، وأقام الخيام ، وتورط اللائذون بالجبال فى خطأ فادح ، فبدلا من أن يظلوا معتصمين بالجبل هبطوا الى السهل ، وأقدموا على الاشتباك فى معركة مع جيش عبد الرحمن ، وأصيبوا بهزيمة مروعة ، وفروا مولين ، وجند عبد الرحمن فى آثارهم يقتلون من أدركوا منهم حتى غربت الشمس وحال الظلام دون تتبعهم ، وأسر الكثير من قادتهم ولجأ عند الهزيمة أكثر من ألف من مقاتلة الأسبانيين الى حصن مويش ، ورجوا التمنع به ، فأمر عبد الرحمن بمحاصرة الحصن من جميع جهاته وحاربهم فى داخله حتى تغلب عليهم واستخرجهم جميعهم ، وقدموا اليه ، وأمر فضربت رقابهم جميعهم بين يديه ، وأصيب فى الحصن والمحلة التى كانت بقربه من الأمتعة الحلية المتقنة والآنية مالا يحصى كثرة .

واكتسح الجيش الظافر نواحى نافار هادما لما صادفه من قلاع وحصون دون أن يلقى أى لون من ألوان المقاومة ، وغنم غنائم كثيرة ، وانتقل الناصر الى حصن كان اتخذه سانكو على أهل بقيره ، فألقاه خاليا قد فر عنه أهله فأمر بهدمه ، واجتمع عند رجال الجيش من الحصون التى استولوا عليها الكثير من الأطعمة والخيرات ما عجزوا عن حمله ، ولم يجدوا له ثمنا يباع به ، وأصدر عبد الرحمن أمره برجوع الجيش ، فلما انتهى الى مدينة أنتيسة ودع الجنود الموكلين

بالحدود وكساهم ووصلهم ، وأذن لهم في الرجوع الى مواضعهم ، ودخل قرطبة بعد غيبة استغرقت ثلاثة أشهر ٠

ودار في خاطر عبد الرحمن بعد هذه الغزوة أن مسيحيى الشمال قد وهن عزمهم ، وضعفت قواهم ، وأن الفجائع التى منوا بها قد تكبح نزواتهم الجامحة ، وتحد من ميلهم الى العدوان على ثغور الأندلس الاسلامية ، ولكن القدر أراد لعبد الرحمن أن يحارب قوما شديدى التوثب ، لا تفل عزيمتهم الهزائم المتوالية ، بل تزيدهم عناداً واصراراً ، وكان عليه على الدوام أن يأخذ حذره ، ويحكم حراسته ، ولا يغفل عن المراقبة ، ومواصلة الأهبة واستعداد للحرب والنزال ، وفى سنة ٣٠٩ هـ (٩٢١ م) قام أردونو بغارة أخرى وتقول الرواية النصرانية ــ وربما كانت لا تخلو من المبالغة ــ أن ملك ليون تغلغل فى أراضى الأندلس الاسلامية حتى كان على مسيرة يوم من قرطبة ،وبعد سنتين استولى أردونو على تاجرة واستولى حليفه سانكو ملك نافار على حصن بقيرة ، وكان لسقوط هذا الحصن وقع أليم فى نفوس مسلمى أسبانيا فقد أذيع أن جميع المدافعين قتلوا ، وكان من بينهم أفراد من الأسر الاسلامية العريقة البارزة ، ولو كان عبد الرحمن تقاعد عن الانتقام لأرغمه على ذلك الرأى العام ، ولكن عبد الرحمن لم يكن فى حاجة الى من يحفزه للقيام بواجبه فى الدفاع عن رعيته ومعاقبة من يعتدى على اتباعه ، ولم ينتظر الوقت الذى كانت فى العادة المتبعة تبدأ فيه الصوائف ، وفصل من قرطبة فى سنة ٣١٢ هـ (٩٢٤ م) وكما يقول ابن عذارى (١) « بأنفذ عزم وأوكد حزم وأقوى نية فى الانتقام لله عز وجل ولدينه من الأرجاس الكفرة الأنجاس » ، ولما اجتاز حدود نافار كان

(١) الجزء الثانى من البيان المغرب لابن عذارى صفحة ٢٧٨ ٠

اسمه قد أثار الرعب فى قلوب النافاريين فأخلوا القــلاع وفروا هاربين ، ومر بقلقرة وكان سانكو قد أخلاها فأمر بهدم حصنها وإحراق جميع ما فيه ، وانتقل منه الى موضع يعـرف ببيطرة ألتة وكانت حوله حصون مانعة قد أخلاها حراسها ، وخلفوا امتعتهم واطعمتهم اذ عوجلوا عن نقلها معهم ، ولجأ فريق منهم الى ثلاثة غيران فى شفير جرف على النهر ، فتسور عليهم جنود عبد الرحمن ، وقتلوهم وسـبوا الذرارى وغنموا الأمتعة ، وهدمت الحصون التى كانت فى تلك الجهة ، ولم تبق منها صخرة قائمة ، وانتقل عبد الرحمن من هذه المحلة الى حصن فالجش ، وكان من الحصــون المنيعة ، فانتهب المسـلمون جميع ما به ، وارتحـل عبد الرحمن منه الى حصـن قرقسـتال على وادى أرغـون ، وكان رجال الجيش ينهبـون ويحرقون كل ما يجدونه فى طريقهم ، وعزم عبد الرحمن على التوغل فى نافار قاصداً بنبلونة ، وحاول سانكو عبثا أن يوقف تقدمه ، ولكنه كان فى كل مرة يرتد خائبـا وينكص على عقبيه ، ووصل عبد الرحمن الى العاصمة دون أن يعتاقه عائق، ووجد المدينة قد خلت من سكانها فخرب الكثير من منازلها ، وهدم كنيسة كان قد بناها سانكو وانفق على بنائها ، وكان قد هدم قبلها الكنيسة الكاتدرائية ، وحاول سانكو أن ينقذ الكنيســة القائمة على التل المجاور للمدينة ، ولكنه عجز عن ذلك ، وجاءه مدد من قشتالة فحاول مرتين مهاجمـة الجيش الاسلامى فى تقدمه ولكنه باء بالفشل ، وشعر بقصر حيلته وذله ومهانته ، ويذكرنى موقفه من عبد الرحمن بقول المتنبى لسيف الدولة الحمدانى : —

ومن لم تعلمـه لك الذل نفســه

من النــاس طرا علمته المناصــل

وظل سانكو طويلا عاجزا عن القيـــام بأى عمل خائرا مستضعفا .

ولم يكن هناك ما يخشاه عبد الرحمن من ناحية ليون ، فقد كان أردونو الثانى الشـجاع قد مضى به الموت قبل غزو بمبلونة ، وأخوه فرويلا الذى خلفه لم يحكم سوى سنة واحدة وكان كل ما أسهم به فى الحرب هو ارسال بعض الامدادات لملك نافار ، وحينما مات حدث صرآع على العرش بين سانكو والفونسو ابنى أردونو الثانى ، وســاعد سانكو ملك نافار الفونسو ـ الذى أصبح الفونسو الرابع ـ وكان قد تزوج إبنة سانكو النافارى فنجح فى ارتقاء عرش ليون ، ولكن هـذا النجـــاح لم يثن عزيمة ســانكو ، فجمع جيشا وتـوج فى شنت ياقب دى كومبوستلا ، وبعد أن استولى على ليون انتزع العرش من أخيه ، ولـكن بعـــد سنتين ـ فى سنة ٣١٦ هـ (٩٢٨م) ـ استولى الفونسو على ليون بمساعدة النافاريين . ولكن سانكو تمكن من استرداد جليقية ، ولم يعبأ عبد الرحمن بالحرب الداخلية التى نشبت بين المسـيحيين فى الشمال ، واغتنم الفرصة لاخماد الثورات فى داخل بلاده ، واستأثرت باهتمامه مشكلات افريقية والمغرب الأوسط والمغرب الأقصى ، واستراح من مجاهدة الدولتين المسيحيتين فى الشـمال حينا من الزمن ، وقد انتهت الحرب الداخلية الأولى فى ليون سنة ٣١٧ هـ (٩٢٩) بوفاة ســانكو ، وقامت حرب أخرى سـنة ٣١٩ هـ (٩٣١م) ففى تلك الســنة ماتت زوجة الفـونسو الرابع ، فاشتد حزنه عليها ، واعتزل الملك ، وأخلى العرش لأخيه رامبرو ـ وهو ثانى من تســموا بهذا الاسم من ملوك ليون ـ وأوى الى الدير فى سهجون ولكنه لم يبلث أن مل حياة الدير الرتيبة ، وهجر صومعته ، وأعلن نفسه ملكا فى شنت

منكش ، ولم يرض هذا المسلك القساوسة وسائر رجال الدين المسيحى ، وانذروه بأنه سيصلى النــار الحامية ان لم يعد الى الدير ، فخضـــع واستجاب لهم ، ولكنه كان كثير التردد لا يستقر على حال ، فسرعان ما خالجه الندم ، وخلع مسوح الراهب ، واغتنم فرصـــة غياب راميرو الثـــانى ــ وكان قد ذهـب الى نواحى طليطلة التى كانت تحـــاصرها جيـــوش عبد الرحمن ليساعد أهلها فى رفـع الحصار عن مدينتهم ــ وبادر بالاستيلاء على ليون ، ولماعلم بذلك راميرو الثانى أسرع بالعودة ، وقام فى دوره بحصار ليون ، واستولى عليها ولكى يمنع أخاه من العودة الى المطالبة بالعرش سمل عينيه ، وفعل مثــل ذلك بأولاد عمه فرويلا الثـــلاثة ، وسرعان ما شعر عبد الرحمن بالتغيير الذى حدث فى مملكة ليون ، فقد انقضى الزمن الذى هدأ فيه باله من ناحية تلك الممـلـكة ، فقد كان راميرو الثانى الذى ولى الحـــكم فى ليون محرابا شجاعا ، ويضمر كراهة صـــماء وعداء شديداً للمسلمين ، وكان أول ما وجه اليه اهتمامه مساعدة طليطلة تلك المدينة المتمردة على سلطة الأندلس الاســـلامية والتى طالما تحدث جيوش الأمراء وتأبت على الطـــاعة والخضـــوع ، ولذلك خف الى نجدتها والمساعدة فى رفع الحصار عنها ، وفى طريقه اليهـــا استولى على مدينة مدريد ، ولكنه لم ينجح فى انقـــاذ طليطلة ، فقد تقدم قسم من الجيش المحاصر لملاقاته وأرغمه على الارتداد ، وترك المدينة لمصيرها ، وخارت عزيمة سكان المدينة واستولى عليهم اليأس فنزلوا على أمر عبد الرحمن وفتحوا أبواب المدينة كما سبق أن ذكت وفى السنة التالية ٣٢٢هـ (٩٣٣م) حالفه الحظ ، فقـــد علم من فرنان جوانزاليس قومس فتشتالة أن المسلمين يهددون وخشمة ، فتقدم لمحاربتهم وهزمهم ، وانتقم منه عبد الرحمن فى السنة التـــالية (٣٢٣هـ ــ ٩٣٤م) وكان

يريد أن يجعل سهول وخشمة التى وقعت فيها هزيمة الجيش الاسلامى تشهد انتصار هذا الجيش وتكون مسرحا له ولذلك حاول عبد الرحمن عبثـــا أن يستدرج راميرو الثانى ويغريه بالنزول من معقله ، ولكن ملك ليون وجد أن الحزم يقتضيه أن يرفض الاشتباك فى معركة ، فترك عبد الرحمن جزءا من جيشه أمام وخشمة ، وتابع تقدمه الى الشـــمال واستولى على مدينة برعش عاصمة قشتالة وأعمل فيهـــا الهدم والتدمير ، وهدم ودمر حصونا أخرى كثيرة ، ولكن طرأ على الموقف بعد ذلك تحول ينذر بالخطر ، فقد كانت تقيم فى أرغون منـــذ الفتح الاســلامى أسرة بنى هاشم ، وقــد ادت هــذه الأسرة خدمات جليـلة للأمير الأموى محمد بن عبد الرحمن الأوسط حينما كان بنو قسى أصحاب السيطرة فى ناحية أغون ، وقد استمر حكم هذا الاقليم وراثيا فى أسرة بنى هاشم أكثر من أربعين ســـنة ، وكانت الأسرة الوحيــدة التى ظلت محتفظه بمكانتها فى عهد عبد الرحمن الناصر فى منطقة الثغر الأعلى ، ولكن محمد بن هاشم لم يكن منطويا على الولاء للناصر، وربما كان سبب ذلك نقمته على الناصر لقضائه على نفـــوذ زعماء العرب ، أو ربما كان الباعث له الطمــوح والرغبة فى الطمع فى العرش لنفسه ولأبنائه من بعده ، ولذلك عمل على التقرب من راميرو ملك ليون ، ووعده بالاعتراف بسيادته فى مقــابل مساعدته له ضــد الخليفة الناصر ، وأعار راميرو تقربه منه أذنا صاغية ، وفى سنة ٣٢٣ هـ (٩٣٤م) كشف القناع عن نياته برفضه الانضمام الى الجيش الاسلامى ، وبعد ذلك بثلاث سنوات اعترف بسيادة راميرو ، ورفض بعض قواده متابعته فى طريق الخيانة ، وقطعوا علاقتهم به ؛ فقاد راميرو جيشه الى المقـــاطعة ، وهدم الحصون التى كان أصــحابها يدينون بالولاء للخليفة ، وأسلمهم الى محمد ، وعقـــد راميرو ومحمد

محالفة مع مملكة نافار ، وكان ملكها حينذاك الشاب جارسيا الذى كان يحكمها فى ظل وصاية والدته الملكة طوطة أرملة ملك نافار السابق سانكو الكبير ، وبذلك كانت أسبانيا الشمالية جميعها متحالفة ضد عبد الرحمن ، فالخطر الذى قد كان سبق الى وهمه أنه قد تبدد وخفت وطأته، عاد قويا يحسب له حساب ويستوجب اليقظة لمقاومته ، وتلقاه عبد الرحمن برحابة صدره المعهودة وثباته الذى لم يخذله ، ففى سنة ٣٢٧هـ (٩٣٨م) خرج عبد الرحمن الناصر من قرطبة على رأس جيشه ، واتجه الى ناحية قلعة أيوب وكانت تحت سيطرة مطرف أحد أقارب ابن هاشم وكان يعاون المدافعين عن القلعة عدد من المسيحيين أرسلهم راميرو من البة ، وقد سقط مطرف قتيلا فى أول مناوشة وقعت بين الجيش المغير والمدافعين عن القلعة ، وخلفه فى القيادة أخوه الحكم ، ولكن بعد أن طورد الحاكم من المدينة الى القلعة سعى فى طلب الصلح وسأل عبد الرحمن الناصر الأمان له ولجيشه من المسلمين ، وقبل الناصر التسليم وأمر بقتل مقاتلى البة الذين لم تشملهم شروط المصالحة .

وأتبع عبد الرحمن هذا الانتصار الأول بالاستيلاء على ثلاثين حصنا ، وحول جيشه على التوالى الى نافار وسرقسطة، وعهد فى الاشراف على حصار سرقسطة الى أحد أمراء البيت الأموى ، وهو أحمد بن اسحق ، قائد الفرسان ، وكان عبد الرحمن قد أقامه أخيرا حاكما على منطقة الثغر الأعلى ، ولكن هذا القائد سرعان ما أثار غضب عبد الرحمن وأفقده ثقته فيه ، وقد عاش بنو اسحق فى أشبيلية فى فقر وخمول ذكر ولم يخل سلوكهم من الشوائب ، وبرغم ذلك فان عبد الرحمن لم ينس لهم قرابتهم البعيدة بأسرته ولم يترفع

عن شـــمولهم برعايتـه والاغداق عليهم ، ولكنهم لم يكونوا قانعين بحالتهم ، وكان طموحهم لا يقف عند حد ، وكان أحمد رأس أسرته فى ذلك الوقت فطمع فى أن يجعله عبد الرحمن وليا لعهده ووارثا لعرشه ، ومـع أنه أظهر تراخيا وتقصيرا شديدا فى الاشراف على حصار سرقسطة ، ضايق عبد الرحمن وأحنقه فانه أرسل فى الوقت نفسه الى عبد الرحمن يعرض عليه طلب ولاية العهـد ووراثة العرش ، ورأى عبد الرحمن فى هذه الرسالة نوعا من الاجتراء الوقح أحفظه وبعثه على أن يرد عليه برسالة شديدة اللهجة عيره فيها بماضى أبيه وماضيه وذكر له أياديه عليه ، وأخذه بيده وتنكره له ، وتطاوله عليه بالمطلب الذى عرضه ، وذكر له أنه باكرامه له ومحاولة رفع مستواه وضع الصنيعة فى غير مكانها • وأسبغ الرعاية على من لا يستحقها ، وختم الرســالة بلعن من أشــار عليه بتقديمه واصطناعه والاحسان اليه •

وبعد أن عزل أحمد بن اسحق مذموما مدحورا بدأ يأتمر بعبد الرحمن ، واشـــترك معه أخوه أمين فى نســج خيوط المؤامرة ، وكشف الخليفة تآمرهما ، وأمر بنفيهما ، فاستولى أمية على شنترين ورفع علم الثورة، واتصل بملك ليون وزودة بنصائح ثمينة ومعلومات قيمة ، ودله على بعض نواحي الضعف فى أجزاء الامبراطورية الاسلامية ، وفى ذات يوم بينما كان فى خارج المدينة قام أهلها برد السلطة فيها الى الخليفة ، فلاذ أمية بحمى راميرو ، وظل أخوه أحمد مقبلا على نسج خيوط التآمر بهمة لا يعتريها فتـــور ، ووضع خطة لضم أسبانيا للفاطميين الذين كان يراسلهم ، ووقف الناصر على هذه الخطة وأمر بالقبض عليه وحكم عليه بوصفه شيعيا وأعدم •

وانتصر عبد الرحمن فى الشمال ، وسلم للناصر محمد

ابن هاشم بعد أن حوصر في سرقسطة ، ولما كان محمد هذا معروف المكانة في المنطقة التي حكم بها ويمكن الاعتماد عليه فقد رأى عبد الرحمن من الكياسة وحسن السياسة أن يعفو عنه ويقره في وظيفته ، وبعد أن تقيت الملكة طوطة الهزائم المتوالية عملت على استرضاء عبد الرحمن والتياذ بعطفه وتسامحه واعترفت بسيادته على نافار ، وأصبح عبد الرحمن صاحب السلطة في أسبانيا جميعها باستثناء مملكة ليون وجزء من قطلونيا .

وهكذا استطاع عبد الرحمن أن يقضي على التحالف الخطر، ووجه اهتمامه الى تحطيم قوة خصمه الشديد الشكيمة الكثير العناد راميرو الثاني ملك ليون ، وكان هو في الواقع محور النضال الحقيقي ، ففي صيف سنة ٩٣٩م (٣٢٧ هـ) تأهب عبد الرحمن للقيام بأعظم غزواته ضد مملكة ليون وحشد جيشا ضخما بلغ تعداد رجاله زهاء مائة ألف وعهد بقيادته الى نجدة الصقلبي ، وكان عبد الرحمن قد قرب الكثيرين من الصقالبة وبوأهم مراكز سامية ومناصب كبيرة في القصر وفي الجيش مما أثار حنق زعماء العرب ، وتقدم عبد الرحمن بجيشه دون أن يحسب حسابا للعوامل الخفية التي كانت تعمل على صدع وحدة هذا الجيش الضخم، وتفت في عضده ، وتأهب راميرو الثاني بكل ما وسعه من قوة للقاء عبد الرحمن ، وكانت الملكة طوطة قد نكثت العهد ، وتجاهلت مصالحتها لعبد الرحمن ، وحالفت ملك ليون ، وعاد التحالف بين نافار وليون الذي ظن عبد الرحمن أنه قد قضى عليه وتخلص من شره ، واقتحم عبد الرحمن بجيشه حدود مملكة ليون وزحف على مدينة سمورة ، ويتحدث المسعودي عن هذه

الغزوة قائلا «(١) غزا عبد الرحمن صاحب الأندلس فى هذا الوقت سنة سبع وعشرين وثلاثمائة فى أزيد من مائة ألف فارس من الناس ، فنزل على دار مملكة الجلالقة ، وهى مدينة يقال لها سمورة ، عليها سبعة أسوار من عجيب البنيان قد أحكمتها الملوك السابقة ، وبين الأسوار فصلان وخنادق ومياه واسعة ، فافتتح منها سورين، ثم ان أهلها ثاروا على المسلمين فقتلوا منهم — ممن أدرك الاحصاء وممن عرف — أربعين ألفا وقيل خمسين ألفا ، وكانت للجلالقة والوشكند على المسلمين» .

وقيل (٢) ان الذى منع راميرو من طلب من نجا من المسلمين أمية بن اسحق ، وخوفه الكمين ، ورغبه فيما كان فى عسكر المسلمين من الأموال والعدد والخزائن ، ولولا ذلك لأتى على جميع المسلمين ، ثم ان أمية استأمن بعد ذلك الى عبد الرحمن وتخلص من راميرو ، وقبله عبد الرحمن أحسن قبول » .

ويرى المؤرخ دوزى أن اختيار نجده قائدا عاما لهذه الحملة جعل غضب القواد العرب يبلغ أقصى شدته وتعاهدوا فى غضبهم على أن يجعلوا الخليفة يكفر عن هذه المعاملة التى تنم على احتقاره للأشراف القدامى بهزيمة شنعاء تلحق جيشه .

ويروى دوزى أن الجيش قصد شنت منقش ، وتصدى له جيش راميرو الثانى وجيش حليفته الملكة طوطة ، ونشبت بين الفريقين معركة فى ٥ أغسطس سنة ٩٣٩م فأبدى رؤساء العشائر العربية فتورا فى القتال وتراجعوا أمام النصارى ولكنهم لم يتوقعوا نتائج ما حدث ، فقد طاردهم الليونيون ،

---

(١) الجزء الأول من مروج الذهب للمسعودى صفحة ١٦٢ .

(٢) الجزء الأول من نفح الطيب للمقرى صفحة ٣٣٢ .

وحينما وصل المسلمون الى بلدة الخنـدق الواقعة فى جنوب شلمنقة لم المسـلمون شـعثهم واستجمعوا قواهم وواجهوا العدو ، ولكنهم هزموا هزيمة ساحقة ، ونجا الخليفة بصعوبة من سيوف المسيحيين ، وبعد الخندق تحول الارتداد والتقهقر الى فساد وخلل واضطراب وأمعن النصارى فى الجيش الاسلامى قتلا وأسرا ، وقتل نجدة الصقلبى قائد الجيش ، وأسر محمد ابن هشام حاكم سرقسطة ، وكان يحارب الى جنب عبد الرحمن فى هذه الغزوة ، وحمل مصفدا الى ليون ۰ وأثخن عبدالرحمن نفسه جراحا ، فولى شطر قرطبة فى نفر من الفرسان ، ولم يحاول راميرو أن يكمل استغلال نصره بمطـاردة المسلمين ، أخذا بتحـذير أمية بن سـحق من ناحية وطعما فيما خلفه الجيش المنهزم من الأسلاب والغنـائم الضـخمة من ناحية أخرى ، ولولا ذلك لفنى الجيش الاسلامى جميعه ، وقد كانت هـذه الهـزيمة آشد صدمة نقيها عبد الرحمن الناصر طوال حياته ، وخاب أمله فيها خيبة لم يعهدها من قبل ، وقد سمى هذه الغزوة حينما كان يستعد للقيام بها «غزاة القدرة» لأنه عول على أن يجعلها قاضية على راميرو الثانى ملك ليون ، وفى رواية أن من أسباب الهزيمة أن معظم جيش المسلمين كان من المتطوعة والقـوات غـير النظامية ، وحدوث خلاف بين قادة الجيش من الأندلسيين والصقالبة ، وكانت هذه الغزوة آخـر غزوة غزاها عبدالرحمن بنفسه، ويرى المؤرخ ليفى بروفنسال أن تعليل دوزى لأسباب هزيمة عبد الرحمن فى هذه الغزوة بأن مردها الى تأثير الصقالبة فى بلاطه لا يخـلو من الحقيقة ولكنه لا يفسر أسـباب هذه الهزيمة تفسيرا كاملا ، وأكثر اللوم فى رأيه يرجع الى عبد الرحمن نفسـه ، فقد بالغ فى تقـدير قوته ، وانكار قوة خصمه ، وخال هذه الحملة التى سماها «غزاة القدرة» أنها ستكون حاسمة ، وأنه سيلقن بها

مسـيحيى الشـمال درسا لا ينسونه بعدها ، ويرهب سائر جيرانه من المسيحيين الاسبانيين ، وكان قد تزوج أخت نجدة الذى عهد اليه بقيادة الجيش وأسمهـا «أم قريش» وكان قد شاهدها تغتسل عند جدول من الجداول فأحبها وفتنه جمالها ، ويقول بروفنسال ان جيش عبد الرحمن فى هذه الغزوة برغم ضخامته وكثرة عدده لم يكن حسن التنظيم ، وان الظروف كانت شديدة قاسية على جيش عبد الرحمن لشدة ثبات جيش العدو وضراوته ، ويقول ان راميرو لحظ عند أسوار شنت منقش أن الجند النظاميين الذين يكونون الجزء الرئيسى فى جيش عبد الرحمن كانوا لا يحـاربون الا بحماسـة نسبية ، فهاجمه واضطره الى التقهقر ، وقاده بذلك نحو خندق كان قد حفره للدفاع على مسافة من المدينة ليشـتمل على الأعداء أذا لاذوا بأذيال الفـرار ونجحت حيلته ، فقد عاق هـذا الخندق تراجع الفرسان ، فقتل منهم الألوف ، وذعر عبد الرحمن من هذه العقبة غير المنتظرة ، ولاذ بالفـــرار تاركا فى المعسـكر مصحفا لا تقدر قيمته كان يصحبه دائما فى غزواته ، ودرعا من الذهب ، وقد أعيد اليه بعد ذلك وكانت هـذه المعركة صدمة شديدة لكبرياء عبد الرحمن وثقته بنفسه ·

ويقول ليفى بروفنسال ان الخليفة فى ذلك اليوم كان بعيدا عن تسويغ حمله بحق لقب «الناصر» وقد عاد الى قرطبة بعد أن تناثر جيشه وتقدمته طليعة لتعلن أنه سليم معافى ، وتنقل أمره برفع برقع القوائم على شاطىء نهر الوادى الكبير، وعند وصوله أمر باعدام ثلاثمائة من رجال جيشه متهما اياهم بالجبن والتخاذل ، وأمر مناديا بأن ينادى قائلا : « هذا جزاء الذين خانوا الاسـلام ، وغشوا أهله وبذروا بذور الفرقة والشغب فى صفوف المحاربين فى المعركة المقدسة ·

وسجن راميرو الثانى محمد بن هاشم حاكم سرقسطة، ولم ينس له أنه انضم الى جيش عبد الرحمن حينما تقدم فى الثغر الاعلى لاخذ عاصمته ، ونقله فى المطبق الى ليون ، وقد ظل فى السجن سنتين قبل أن يحصل على حريته ، واقسم عبد الرحمن بأنه لا بد له من أن ينتقم لهزيمته ولـــكن على شريطة ألا يعرض نفسه لاخطار الحرب ، ومنذ هذه الهزيمة كان يعهـد بقيـــادة الجيش لأحد قواده ، وقد كان لانتصار راميرو فى هـــذه المعركة وقـــع عظيم فى أوروبا وفى العالم الاسلامى اكسبه شهرة بعيدة المدى جاوزت حدود أسبانيا ، ولحسن حظ عبد الرحمن لم تمـكن ظروف الحرب الداخلية التى حدثت بين المسيحيين راميرو الثـانى من أن يجتنى كل الثمرات التى كان ينتظر أن ينالها من وراء هذا الانتصار ، ولذلك لم تحدث هزيمة جيش عبد الرحمن أثرا بعيد المدى فى قوة الأندلس الاسلامية ومناعتها ، ولم يدخر عبد الرحمن منذ عـودته الى قرطبة جهـــداً فى اعادة تنظيم جيشه واصلاحه وتطهيره من العوامل الخطيرة التى أدت الى وقوع هذه الكارثة، وتخلص أمية بن اســـحاق من راميرو واستأمن عبد الرحمن فقبله عبد الرحمن أحسن قبـــول ، وكان عبد الرحمن يؤثر دائما أن يستميل خصـــومه الأقوياء الذين يرجى نفعهم ، ويستفاد من كفاياتهم ، ولا يرى بأسا فى العفو عنهم والاغضاء عن سابق هفواتهم ، ولم يغفل عبد الرحمن عن السعى لافتداء محمد بن هشام الذى ناصره ووقف الى جانبه ، وقبل راميرو افتداءه بعد أن لبث فى سجن ليون زهاء ثلاث سنين .

وكانت ولاية قشتالة ترمى الى الانفصـــال عن مملكة ليون ، وحتى فى عهد اردونو الثانى والد راميرو ثارت مطالبة بالاستقلال ، وأعلن الملك أنه من أجل تسوية الخلاف بطريقة

ودية سيعقد مجلسا استشاريا في تليارة الواقعة على شاطىء نهر كارون الذى يفصـــل لون عن قشتالة ودعا اليه قوامس قشـــتالة الأربعة ، وحينما قدموا أمر باعتقـــالهم والاطاحة برءوسهم ، ولم يجادل الليونيون فى آن الفصل فى الموضوع بهذه الطريقة كان لا يخلو من مخالفة للأصول المرعية والأشياء المألوفة ، ولكنهم مع ذلك أعجبـــوا بحزامة ملكهم ، وبراعته السياسية ، ولكن القشتاليين نظروا الى الأمر بطبيعة الحال من زاوية أخرى ، وحينما حرموا من قادتهم ظـــلوا حينا من الزمن حائرين خائرى العزيمة يترقبون الساعة التى يقوم فيها على رأسهم رجل مقدامة يستطيع أن ينتقم لهم من الليونيين الخونة الغـــادرين ، وأخيرا حانت تلك الساعة التى كانوا ينتظرونها بفـارغ الصـبر وقد وجدت قشـتالة الرجل الذى يستطيع أن تكل اليه قيادتهـا وينهض بالثار لكرامتها وكان هذا الرجل الكونت فرنان جونزاليس ، الذى أصبح فيما بعد أحد أبطال العصر الوسيط المحبوبين يشيد ببطولته الشعراء فى قصـائدهم ويترنم بهـــا المغنـــون فى أغانيهم وما زال القشتاليون يذكرون اســـمه مقرونا بالتبجيل والاكبار حتى اليوم ، وفى الوقت الذى كان فيه عبد الرحمن يهاجم عاصمة بلاده ويهدم بيعها وصوامعهـا وقلاعها لم يكن من المنتظر أن يعمل الكونت العظيم ــ كما كان يسميه القشتاليون ــ على خلع نير الليونيين ، ولكنه بعد هزيمة عبد الرحمن فى معركة الخندق قدر أن العرب سيظلون حينا من الزمن غير مرهوبى الجانب ، وأن الفرصة للخلاص من سيطرة ليون قد لاحت ، فلم يتردد فى اعـــلان الحرب على الملك راميرو الثانى ، آما عبد الرحمن فقـــد وجد متسعا من الوقـــت لتنظيم جيشه واستكمال أهبته وفى نوفمبر ســـنة ٩٤٠م (٣٢٩هـ) أرسل

جيشا تحت قيادة أحمد بن يعلى حاكم بطليوس فهاجم حدود مملكة ليون ٠

ويقـــول ابن عذارى : « أنه(١) قتـــل وسبى وأسر ، وأرسل مع كتابه الى قرطبة مائتى علج أسراء ، وكان هذا أول فتح لابن يعلى أذل به الطاغية ردمير (راميرو الثانى) » ٠

وحالف الحـظ الملك راميرو الثـــانى فى الحرب التى نشبت بينه وبين القومس فرنان جونزليس ففاجأ عدوه وغلبه على أمره وأسره وسجنه فى ليون وأقام على حكم قشتالة اسور فرناند قومس منتشون واستبدل به بعد ذلك ابنه سانكو ، ولم يقنع راميرو بهذا الانتصار وأتبعه بمصادرة الأرض التى كانت فى حوزة فرنان جونزاليس ، ولم يستول عليها جميعها وانما منـــح بعضها لفرســـان قشتالة البارزين ذوى المكانة المرموقة ولرجال الدين لكى يكتسب مودتهم ويحظى بمناصرتهم له ، ولكنه أخفق فى تحقيق هـــذه الغـــاية ، فبرغم استفادة القشتاليين من هذا الـكرم الســـياسى ظلوا شديدى التعلق ببطلهم الأسير ، وصنعوا له تمثالا كانوا يقدمون له الطـاعة والولاء ، ولم يستطيعوا أن يصبروا كثيرا على بقائه فى الأسر كما تدل الأنشودة القديمة التى تعد من روائع أناشيدهم وتعبر عن اعتزامهم على صدع قيوده واطلاق سراحه ، ومنها « لقـــد أقسم الجميع على أنهم لا يعودون الى قشـــتالة دون أن يكون معهم سيدهم الكونت ، وقد أقاموا له تمثالا فى عربة حربية وعقدوا الخناصر على ألا يرجعوا الا اذا رجع معهم ، وبعد أن قدموا الولاء وضعوا علم الكونت الى جانب تمثاله ، وقبلوا جميعا سواء الشبان والشيوخ يد التمثال ، وقد خلت برغش

- (١) الجزء الثانى من البيان المغرب صفحة ٣١٥ ٠

وأحوازها من سكانها ولم يبق بها سوى النساء والأطفال » وفى أنشودة أخرى «لقد حملوا بعيدا كونت قشـــتالة العظيم الى ليون ، ثم قيدوا رجليه الى يديه قيدا مؤلما ، وطار بهم الفرح، وأولوا الولائم لاقتناصــه ، حقا أن سجن الملك راميرو يضـــم أشجع بطل فى آسبانيا » .

وخشى الملك رامـيرو عاقبة غضـــب القشتاليين لحبس زعيمهم المحبوب فلم يجـد بدا من الاستجابة لرغبتهم فأطلق سراحه ، ولكن بشروط قاسية مذلة ، فقد أرغمه على أن يقسم يمين الولاء والطاعة له ، وأن يتنازل عن كل ما يملك وأن يعد بتزويج ابنته لأردونو أكبر أولاد راميرو ، وكان هذا هو الثمن لنيل الكونت حريته ، ومن الطبيعى أن يمتنع بعد ذلك عن مناصرة الملك الذى أمعن فى اذلاله كمـا لم يرض القشتاليين عدم رد السلطة الى هذا الرجل الذى كانوا يعدونه سيدهم غير مدافع ، وفقد راميرو بذلك معـاونة أشجع رعاياه ، ومن ثم عجزه فى مدافعة الغارة التى قام بهـــا المسلمون سنة ٩٤٤م (٣٣٢هـ) على جليقية(١) بقيادة القائد أحمد بن محمد بن الياس، وقد استطاع هذا القائد أن يغنم ويحرق جملة من حصونهم هنالك وقفل راجعا ، واستطاع الناصر فى سنة ٣٣٥هـ (٩٤٦م) أن يعيد بناء مدينة سالم بالثغر الأوسط الشرقى وهى مواجهة لقشتالة ، وعهد فى ذلك الى قائده غالب النـــاصرى ، وأنفذ العهد الى قواد الثغر بالاجتماع لبنيانها ، فسارعوا الى أمره ، وبنيت أحسن بناء ، ونزل بهـا المسلمون ، وأصبحت قاعدة هامة لمهـاجمة قشـــتالة ، ويقول ابن عذارى انه «فى سنة ٣٣٦ هـ (٩٤٦م) ورد على الناصر كتاب من قند مولى الناصر القائد يومئذ بطليطلة يذكر فيه غارته على أهل جليقية، وكان

(١) الجزء الثانى من البيان المغرب لابن عذارى صفحة ٣١٦ .

أقصى مايستطيعه رامبرو الثاني المنتصر في موقعة شنت منقش والخندق أن يقف من غارات قواد عبد الرحمن موقف المدافع، ولم ينشط الى القيام بغارة على الحدود الاسلامية الا في سنة ٩٥٠م (٣٣٩هـ) وأحرز انتصـــارا قرب مدينة طلبيرة ، وفي السنة نفسها قام القـــائد أحمد بن يعلى بغارة على جليقية ، وافتتح ثلاثة حصون ، وفي يناير سنة ٩٥١م انتهـت حياة رامبرو الثاني ، وحينما اختفى هذا الخصم اللدود من الميدان كان نفوذ عبد الرحمن قــد بلغ الذروة ، وازداد اطمئنانا من ناحية مملكة ليون لوقوع الحرب بين ابني رامبرو ٠

وكان رامبرو الثاني قد تزوج مرتين ، فولدت له زوجته الأولى ، وكانت جليقية ، ابنــه آردونو ، وكان له من زوجته الثانية ــ اوراكا أخت غرسية ملك نافارــ ابن آخر هوسانكو، ولما كان أردونو هو الابن البــكر لذلك كان من الطبيعي أن يطالب بوراثة عرش أبيه ، ولكن سانكو نازعه في ذلك اعتمادا على مساعدة النافاريين له ، وقد حاول كذلك الاستعانة بتأييد فرنان جونزاليس والقشتاليين له ولم يكن من الصـعب على فرنان اختيار الجانب الذي يناصره ، وحقيقة ان فرنان كان حما اردونو ولكنه لم ينس أنه أرغم على قبـول أردونو زوجا لابنته ، وكانت هناك روابط عائلية تربطه بسانكو فقد كان سانكو ابن أخت زوجته وكان يســتطيع الاعتماد على تأييد الملكة طوطة النافارية حماة فرنان وفضلا على ذلك فان سانكو وعد فرنان وعدا خلابا لم يترك له سبيلا للتردد ، فقد وعده بأن يرد اليه أملاكه المصادرة ويقيمه حاكما على قشتالة، فدعا فرنان أعوانه الى حمل السلاح ، وصـــحب سانكو والجيش النافاري في الهـجوم على ليون لانتزاع عرشـــها من قبضة أردونو الثالث ، وفي أثناء هذا الصراع على وراثة العرش كان

قواد عبد الرحمن يوالون الغارات الظافرة على الحدود ، وفى سنة (١) ٣٤٤ هـ (٩٥٥ م) وردت قواد الثغور على الناصر وفيهم غالب ومطرف ومحمد بن يعلى وهذيل بن هاشم التجيبى وغيرهم وذكروا له أنهم اقتحموا حدود قشتالة ، وقصدوا حصنا من حصونها وتغلبوا على أرباضه وحينما وافتهم جموع النصرانية دارت معركة قتل فيها من الاسبانيين مقدار عشرة آلاف ووردت الى قرطبة الرءوس المحتزة فى هذه الهزيمة نحو خمسة آلاف رأس ، فأمر الناصر برفعها حول سور قرطبة ، وكان معظم هؤلاء القتلى من القشتاليين ، وقد أحرز فرنان انتصارا فى مناوشة عند مدينة شنت أشتيبن كما استطاع أردونو الثالث — بعد أن طرد أخاه وأرغم الجليقيين الذين نادوا به على الطاعة — أن يرد على غارات جيوش عبد الرحمن بمهاجمة لشبونة ونهبها ، ولكن هذه الهجمات كانت هينة الشأن بجانب الغارات التى قامت بها الجيوش الأندلسية على المسيحيين ، وخشى اردونو الثالث قيام ثورات أخرى فى مملكته ولذلك سعى فى طلب الصلح من عبد الرحمن، وأرسل رسله الى قرطبة فى سنة ٩٥٥م (٣٤٤هـ) وقبل الناصر هذه المبادرة ، وأرسل محمد بن حسين ومعه اليهودى شبروط لاجراء المفاوضة مع أردونو الثالث ، ولم تستمر المفاوضات طويلا فقد كان أدونو مستعدا لقبول شروط عبد الرحمن — وكان أكثرها بطبيعة الحال الموافقة على تسليم بعض الحصون وهدم حصون أخرى — وتم الاتفاق على أسس المعاهدة ، وعاد الرسولان الى قرطبة ليقر عبد الرحمن الاتفاق ، وبرغم أن المعاهدة كانت مشرفة ونافعة الا أن عبد الرحمن كان يطمع فى شروط أحسن عائدة وأبقى أثرا ، ولكنه كان قد تقدمت به

(٢) الجزء الثانى من البيان المغرب لابن عذارى صفحة ٣٢١

(١) البيان المغرب لابن عذارى الجزء الثانى صفحة ٣٢٨ .

السن وناهز السبعين ، ولذلك استشار ابنه وولى عهده بعده الأمير الحكم ، وكان الحكم بطبيعته ميالا إلى المسالمة فقبل المعاهدة ورضيها وأشار على الخليفة الناصر باقرارها ، فأقرها الناصر وبعد ذلك بقليــــل عقد الناصر اتفاقا مع فرنان جونزاليس ولم يبــــق بعد ذلك فى أسبانيا خصوم للمسلمين ســـــوى النافرين ، وكان مما دعا الناصر الى قبــــول التســـاهل مع أردونو الثـــالث أنه كان يريد أن يوجه جيوشه الى مقـــاومه الفاطميين الذين كانت قوتهم في تزايد مستمر وكان يخشى تطلعهم الى الاستيلاء على الأندلس ، وبعد اقرار المعــاهدة مع أردونو الثالث أعد حملة ضخمة لمهاجمة الفاطميين ، وفى أثناء انهماكه فى استيفاء الاستعداد لتوجيه هذه الحملة بلغه خبر وفاة أردونو الثالث فى سنة ٩٥٧م (٣٤٦هـ) وقد قبل أردونو الصلح واستجاب لمطالب عبد الرحمن ، وكان فى طليعة تلك المطالب تسليم بعض القلاع وهدم قلاع أخرى ، ولكن سانكو الذى نازع أخاه على العرش والذى خلفه عليه دون أن يلقى معـــارضة أبى أن يجيب هـــذين المطلبين ؛ ولذلك اضطر عبد الرحمن أن يحتجز القوات التى كان قد أعدها للارسال الى أفريقية ويوجههـــا الى مملـــكة ليون وأرســـل الأوامر التى تتضمن ذلك الى قائده الشجاع أحمد بن يعلى حاكم طليطلة ، فتولى هذا القائد المظفر قيادة الجيش وانتصر انتصارا رائعا على ملك ليون ، وكان لهذا الانتصـــــار وقع حسن فى نفسه لأنه لم يكن يريد هذه الحرب ولكن سلوك سانكو ملك ليون هو الذى أرغمه على خوضها .

وأراد الملك سانكو أن يكسر شوكة الأشراف فى مملكته ويقضى على نفوذهم فأضمروا له العداء ، وامتزج هـــذا العداء بالاحتقار والاستخفاف به ، ومن سوء حظه أنه فقد الصفات

التي قربته في باديء أمره من قلوب رعاياه ، فقـد ازدادت بدانته وأفرطت حتى أصبح عاجزا عن امتطاء صهوة جواده ، وصار لا يقوى على المشي الا اذا كان مستندا على أحد اتباعه ، ولذلك كثر الاستهزاء به ، وبدأت تخـالج نفـوس رعاياه الرغبة في خلعه والخلاص منه ، وزادهم رغبة في ذلك تحريض الكونت فرنان ، ودبرت مؤامرة في الجيش لخلعه ، وفي أحد أيام الربيع سنة ٩٥٨م (٣٤٧هـ) طرد من مملكته ، وبينما كان يسير في طريقه الى بنبلونة مبتعدا محزونا ولاجئا الى حمى خاله غرسية عقد فرنان جونزاليس وغيره من الأعيان اجتماعا لاختيار ملك يولونه عليهم ، ووقع اختيارهم على أردونو ـ وهو رابع من تسموا بهذا الاسـم ـ ابن ألفونسو الرابع ـ وهو ابن عم سانكو ـ ولم يكن له الصفات ما يؤهله لارتقاء العرش سوى انتسابه الى بيت الأسرة المالكة ، وكان أحـدب أشوه وضيع النفس دنيء الطبع مطبوعا على الخبث ولذا عرف بعد ذلك بلقبه « أردونو الخبيث » ، ولم يكن هنـاك أحد من أفراد الأسرة المالـكة قد بلغ سن الرشـد على قيد الحيـاة ، ولذلك كان اختياره ضرورة لا محيد عنهـا ، وزوجه كونت قشتالة ابنته أوراكا أرملة أردونو الثـالث وفي أثناء اجراء عملية الانتخـاب كان سانكو في بمبلونة يروى ما أصـابه ويبسط شكواه ، فعطفت عليه جدته الملـكة طوطة ، وكانت لا تزال تحكم نافار باسم ابنها برغم أنه قد بلغ منذ سنوات طويلة السن التي تؤهله لتولى الحـكم ، وأخذت على عاتقها أن تناصره وتعيده الى ملـكه مهـما يكلفها ذلك من الجهد والمشـقة ، ولم يكن القيـام بهذا العمل من هين الأمور ، فان سانكو لم يكن له أصدقاء يمـكن أن يخفوا الى مناصرته في ليون ، ولم يكن لمملكة نافار من القوة ما يكفي لفرض ارادتها على مملكة ليون ، ولذلك كان لزاما على طوطة أن تبحث عن

حليف قوى يستطيع أن يساعدها فى الهجوم على ليون وقشتالة معا ، ولكى يحتفظ سانكو بعرشه اذا رد أليه وأعيد الى جلوسه عليه فانه كان من اللازم أن تزول سمنته ، ويسترد رشاقته ، حتى لا يكون أضحوكة لرعيته ، ولم تكن هذه البدانة المفرطة فى طبيعة بنيته ، وانما كانت علة طارئة يمكن الطبيب الماهر أن يتولى علاجها ويبرئه من عقابيلها ، وفى قرطبة وحدها مستقر العلم ومنزل الاستنارة يوجد مثل هذا النطاسى البارع ، وفى قرطبة كذلك تستطيع الملكة طوطة أن تجد الحليف القوى الذى تستطيع أن تعتمد عليه وهى واثقة بانتصار قضيتها وتحقيق غايتها . وموجز القول أنها صممت على أن تلتمس عند عبد الرحمن الدواء الذى يشفى علة حفيدها والجيش الذى يعيده الى عرشه ، وكان من الصعب على كبريائها أن تنزل الى طلب المساعدة من هذا الملك الذى ظلت الحرب قائمة بينه وبينها أكثر من ثلاثين عاما ، والذى لم يمر عام دون أن يهاجم أوديتها ، ويقتحم حدودها ، ويحرق قراها ويهدم قلاعها ، ولكن شدة تعلق الملكة طوطة بحفيدها ، وحرصها على أن تعيد أليه عرشه ، وترد اليه ملكه ، وغضبها للمعاملة السيئة التى عومل بها ، كل هذه العوامل تجمعت لتقاوم نفورها من موالاة عبدالرحمن والالتجاء الى حماه ولذلك بادرت بارسال وفد من قبلها الى قرطبة مزودا برسالة منها.

وحينما علم عبد الرحمن بموضوع الرسالة وافق على ارسال طبيب من قبله ليتولى علاج سانكو ، ووعد بارسال المساعدة الحربية للملك المخلوع بعد قبول الشروط التى سيتولى عرضها أحد وزرائه على الملكة طوطة فى بنبلونة ، وبعد أن غادر الوفد النافارى قرطبة استدعى عبد الرحمن الناصر طبيب بلاطه اليهودى حسداى بن شبروط ، وزوده

بالتعليمات اللازمة ، وأمره بالسفر الى بلاط نافار ، وكان حسداى مستأهلا للقيام بمثل هذه السفارة فقد كان يتقن الحديث بلغة مسيحيي الشمال ، وكان يجمع بين المهارة فى الطب والبراعة في السياسة ، وكانت شهرته برجاحة العقل، وغزارة العلم ، وتعدد المواهب من المسائل الشائعة التى كثيرا ما تداولتها الألسنة ، وكان قبل ذلك بقليل قد قال عنه أحد السفراء الذين وفدوا من أقاصى ألمانيا على قرطبة أنه لم ير له مثيلا فى اللباقة السياسية والحنكة الدبلوماسية ، وعند وصول هذا اليهودى الى بنبلونة سرعان ما اكتسب ثقة سانكو بدأ علاجه مؤكدا له الشفاء السريع ، ثم ذكر له أن الخليفة عبد الرحمن فى مقابل هذه الخدمة التى سيقوم بها فى سبيل ابرائه من البدانة يريد أن تسلم اليه عشرة حصون ، فوعد سانكو بتسليم الحصون المطلوبة لعبد الرحمن متى رد اليه عرشه واستعاد ملكه ، ولم يكن هذا كل ما فى الأمر ، فقد كان الخليفة قد أوصى حسداى بأن يعمل على اغراء الملكة طوطة على زيارة قرطبة ومعها حفيدها سانكو ، وكان الخليفة يرمى بذلك الى اشباع كبريائه من ناحية ، ومن ناحية آخرى يخلب الباب رعيته ويوطد ثقتهم به واعلاءهم لشأنه واعجابهم بمواقفه بأن يعرض على أنظارهم مشهد الملكة المسيحية والملكين سانكو وغرسية وهم يقدمون له الولاء ويلتمسون مساعدته ، ولم يكن من السهل حمل الملكة طوطة على قبول ذلك ، فقد كان فى ارتحالها الى قرطبة اذلال لكبريائها أكثر وأشد على نفسها من الاذلال الذى تجرعته حينما وجدت نفسها مضطرة الى التقرب من عبد الرحمن وطلب مهادنته ونشدان مساعدته ، ولذلك كان هذا هو الجزء الشائك الدقيق العويص فى سفارته والذى يحتاج الى كل ما أوتى من حسن التأتى وسعة الحيلة ولطافة المدخل وبراعة العرض ، وقد استطاع هذا اليهودى

البارع القدير أن يبرر كل الصفات التى اتصف بها ويثبت ويؤكد ما اشتهر عنه من أنه أقدر ساسة العصر وأبرع سفرائه ، فقد تمكن بلين كلماته وعذوبتها ونضج حكمته وعمق دهائه وسعة حيلته من أن يجعل الملكة تدرك أن استعادة عرش حفيدها رهن بقبولها لهذه الرحلة المطلوبة الى قرطبة ٠

وحضرت الى قرطبة الملكة طوطة ومعها ابنها جارسيا وسانكو السيىء الحظ وكان يمشى مستندا على حسداى لأنه لم يكن قد استعاد صحته واستكمل علاجه بعد وصحبها عدد كبير من أعيان الدولة ورجال البلاط والقساوسة ، واحتفل الخليفة عبد الرحمن بقدومهم احتفالا فخما رائعا ترك فى نفوسهم أثرا عميقا وأظهر لهم عظمة ملك عبد الرحمن وروعته وضخامة ثروته وسمو حضارته ، وشعر عبد الرحمن بأنه قد أشبع طموحه وأرضى عزته وكبرياءه واعتداده بنفسه حينما رأى ابن خصمه العنيد راميرو الثانى الذى أنتصر فى معركة شنت منقش ومعركة الخندق والملكة طوطة الجريئة التى قادت جيوشها الى النصر فى معارك لها تاريخ يقدمان له دلائل الطاعة والولاء ولكنه أخفى مشاعره وتلقى ضيوفه بكياسته المعهودة وكرم أخلاقه المعروف ، وجدد سانكو وعده بتقديم الحصون العشرة الذى سبق أن اتفق عليه مع حسداى ، واستقر الرأى على أن يهاجم جيش مملكة ليون فى الوقت الذى يغزو فيه جيش نافار قشتالة ويستدرج قوات فرنان جونزاليس بعيدا عن مملكة ليون ٠

وتقدم بعد ذلك جيش عبد الرحمن لمهاجمة مملكة ليون وصحبه سانكو ، وكان قد أفاد من علاج حسداى فخف وزنه وزالت بدانته وأصبح نشيطا خفيف الحركة كما كان قبل أن يبتلى بالبدانة ، وكانت سمورة أول مدينة أستولى عليها الجيش ، ولم يأت ابريل سنة ٩٥٩ م (٣٤٨ هـ) حتى كان

سانكو قد استرد سلطته على جزء كبير من مملكته ، وكانت العاصمة لاتزال خاضعة لأردونو الرابع ولكن في خريف سنة ٩٦٠ م (٣٤٩ هـ) فر من العاصمة أردونو الرابع ولجأ الى استريش ، وسلمت العاصمة لسانكو ، ولما استرد سانكو مملكته أوفد رسولا الى الخليفة يبلغه شكره له لمساعدته له في استراد ملكه ويعلن للدول المجاورة عودته الى السيادة على مملكة ليون ، وفي الرسائل التي تضمنت هذا الاعلان اشار اشارات قاطعة الى عدم ولاء قومس قشتالة ، وهاجم النافاريون قشتالة طبقا للخطة الموضوعة وفي السنة نفسها ـ سنة ٩٦٠ م (٣٤٩ هـ) وحاربوا القومس وتمكنوا من أسره ، وتخلص الليونيون من اردونو الذى كان مكروها ومحتقرا وفرضه عليهم فرنان ، وبعد قليل طرده أهل آستوريش وخضعوا لحكم سانكو واضطر أردونو الى اللياذ ببرجس ولم يزل الناصر على موالاته واعانته لملك ليون ٠

وفود الأمم فى بلاط عبد الرحمن الناصر

يقـول الأسـتاذ المؤرخ ج . ب . ترند مؤلف كتاب « حضارة أسبانيا » فى الفصل القيم الذى كتبه فى « تاريخ العالم » الذى نشره بالانجليزية السير جون أ . هامرتن (١) ومع أن عصر أمـراء قرطبة وخلفائها يعـد أزهى عصـــور أسبانيا الاسلامية فأنه لم يبق من عمائر هذا العصر آلا المسجد الجامع اذ أن عبد الرحن الأول أقام سنة ٧٥٦ م لبنى أمية ملكا بأسبانيا ، ولم يتوان عن العمل للوصول بمملكته الى ذرى العظمة والمجد .

وعلى الرغم من أن التاريخ السياسى لزمنه وزمن خلفائه حافل بالحروب الداخلية والثورات فلاشك أن التاريخ قـد أسرف فى تقدير أهميتها ، فلم يكن تاريخ أسبانيا فيما يقال سوى قصة الجريمة والعقاب المعروفة ، وترتب على ذلك أن ممتلكات الأمويين لم تتحـد فعــلا الا زمن أول خلفــائهم عبد الرحمن الثالث (الناصر) ٩١٢ م ـ ٩٦١ م اذ جعل من أسبانيا الاســلامية دولة لم تلبث أن ارتفعت فى سرعة فى مدراج العظمة والهيبة ، وكانت وقتـــذاك الدولة المتحضرة

---

(١) العدد ٦٠ من تاريخ العالم صفحة ٧٤٦/٧٤٧ .

الوحيدة في كل أوروبا ، اذ أن اسبانيا الاسلامية كانت الدولة الوحيدة التى لم يجر عليها ما جرى بسائر أوروبا فى القرن العاشر من مظاهر الانحطاط والهمجية ، فقرطبة وأشبيلية وسائر مدن اسبانيا الاسلامية والبرتغال كانت المصابيح الوحيدة فى تلك الدياجير الشاملة ٠

على أن ما اشتهرت به الحاضرة قرطبة من جمال وما تمتع به أهلها من رخاء يعتبر من أعاجيب الدنيا ، فالرحالة القادمون من الشمال كانت تستبد بهم الرهبة والدهشة كلما استمعوا الى حديث مدينة تشتمل على مائة وثلاثة عشر ألفا من المنازل وثلاثة آلاف مسجد ٠ وتسعين مكتبة وتسعمائة من الحمامات العامة ، ومن هؤلاء الرحالة السفير الألمانى الذى مثل الامبراطور أوتو الأول لدى الخليفة الأموى بقرطبة ، أما سفير الخليفة بمدينة فرانكفورت فكان مسيحيا وهو أسقف غرناطة ، واذ عرف هذا السفير الألمانى شدة ميل الخليفة للاستحمام أحضر معه عند عودته من مهمة قام بها فى بيت المقدس حوض استحمام مذهب مزخرف من الداخل بالنقوش وجلب أيضا حوضا أصغر حجما مصنوعا من الرخام امتاز بما نقش بداخله من صور لأشخاص وجعل الخليفة هذا الحوض بمدينة الزهراء التى كان ينتقل اليها صيفا والتى تقع أطلالها على مسافة ثلاثة أميال من شمال غربى قرطبة الحالية ، وبلغ من رواء قصره وجماله أن ما أورده المؤرخون المسلمون من وصف له قد جعله كأنه قصر من قصور ألف ليلة وليلة »٠

ولم يكن الرحالة الألمانى السفير الذى مثل الامبراطور أوتو أول سفير ولا آخر سفير حضر الى قرطبة ، وقد كانت العلاقات بين الدولة العباسية فى المشرق والدولة الأموية فى الأندلس تدعو ـ على الأقل من الناحية السياسية ـ الى وجود

علاقات بين العباسيين والدولة الألمانية من ناحية وبين البيزانطيين والدولة الأموية الأندلسية من ناحية أخرى فى سبيل حفظ التوازن ، فقد كانت الدولة البيزانطية والدولة الألمانية والدولة العباسية والدولة الأموية الأندلسية أقوى الدول فى العصر الوسيط ، ورأى العباسيون أن مصحلتهم السياسية تقتضى اقامة علاقات ودية مع الدولة الألمانية من أجل مناوأة الدولة الأموية الأندلسية ، وفرضت الاتجاهات السياسية على حكومة قرطبة أن تنشىء من ناحيتها علاقات مع الدولة البيزنطية لتتقى هجوم العباسيين على الأندلس ، وقد حاول الخليفة العباسى المنصور الاستيلاء على الأندلس حينما استطاع عبد الرحمن الداخل أن ينشىء بها امارة أموية مستقلة تعمل على مناوآة الدولة العباسية فى المشرق ، وتمكن عبد الرحمن الداخل بيقظته المستمرة وجهاده الدائب من القضاء على هذه المحاولة ، بل جعل المنصور لا يفكر فى العودة لهذه المحاولة ، وآثر المنصور أن يكون له علاقات حسنة ببيبن القصير ابن شارل مارتل الذى انتصر على العرب فى موقعة بلاط الشهداء ٧٣٢ م (١١٤ هـ) ووالد الامبراطور شارل الأول (شارلمان) (١) وقد عقد ببين القصير صلات مع خليفة بغداد وأرسل فى سنة ٧٦٥ م (١٤٨ هـ) رسلا لبثوا ثلاث سنين حتى رجعوا الى فرنسا ومعهم رسل الخليفة ثم عادوا الى بغداد ومعهم الهدايا الى الخليفة ويقال ان المنصور حرض ببين على قتال عبد الرحمن الأموى فى الأندلس ، وكان خلفاء الشرق يحاسنون ملوك الفرنجة ويتبادلون واياهم الهدايا والألطاف وملوك قرطبة يراسلون قياصرة القسطنطينية الذين كانوا فى حرب مع مسلمى الشام وفارس ومصر ، وقد أفاد

---

(١) الاسلام والحضارة العربية للأستاذ كرد على جزء ٢ صفحة ٤٢٣ .

شارلمان من هذه السياسة فأنشأ علاقات مع هارون الرشـيد وتبودلت الهدايا بينه وبين الرشيد ، وهذه الصداقة والعلاقات الطيبـة بين شارلمان والرشيد وبين والد شارلمان والعباسيين مما شجعت شارلمان فى سنة ٧٧٧ م (١٦١ هـ) على الاستجابه للاشترك فى المؤامرة التى دبرها ثلاثة من خصوم عبد الرحمن الداخل وهم عبد الرحمن بن حبيب الفهرى المعروف بالصقلبى وسليمان بن يقظان الأعرابى الكلبى حاكم برشلونة وأبو الأسود ابن يوسـف الذى انتـزع منه الداخـل إمارة الأندلس ودخل شارلمان أسـبانيا بجيوشـه الجرارة وحاصر سرقسطة وبينما كان يتأهب لاستكمال هذا الحصار ترامت إليه الأنباء بأن الزعيم السكسونى وينكند انتـهز فرصة غيـاب جيش شارلمان فى أسبانيا وعاد الى سكسونيا وأزكى حمية السكان فعادوا الى الثورة ، واكتسحوا البلاد ، ووضعوا السيف والنار وتوغلوا حتى حدود الراين ، فلم يجد شارلمان ازاء تلك الاخبار المقلقة سـوى أن يقوض خيامه لساعته ويبتدر العودة من شواطىء الابره الى شواطىء الراين ، ومر جيشه من ممرات رونسسفال ، وعلمت بذلك قبـائل البشكنش وكانت تكره قبائل الفرانك كراهة شـديدة فاختبأوا فى الاحراج والمنعطفات المشرفة على آخر الوادى فى أقصى نواحيه واغتنموا فرصة اقبال المساء وتفرقوا تحت ستار الظلام فى كل ناحية من نواحى الوادى الجبلية وانقضـوا على مؤخرة الجيش . وفتكوا بها فتكا ذريعا ، وكان فيمن قتل رولاند البطل المعروف والشاعر الذائع الصيت وصديق شـارلمان الحميم ، فبكاه شارلـمان أمر بكاء ورثاه أحر رثاء وقد كان وجـود الدولة الاموية بالأندلس شوكة فى جنب الخلفاء العباسيين ، وكانت فكرة غزو بلاد الأندلس وضمها الى ملك العباسيين تشـغل بال الخلفـاء العباسيين الأوائل الذين جاءوا بعـد أبى جعفر

المنصـــور كما استأثرت باهتمامه ، والسـيوطى يقول عن الخليفة المعتصم (١) « كان المعتصم قد عزم على المسـير الى أقصى المغرب ليملك البلاد التى لم تدخل فى ملك بنى العباس لاستيلاء الأموى عليها ، فروى الصولى عن أحمد بن الخطيب قال : «قال لى المعتصم ان بنى أمية ملكوا وما لأحد منا ملك ، وملكنا نحن ولهم بالأندلس هذا الأموى فقدر ما يحتاج اليه لمحاربته ، وشرع فى ذلك ، فاشتدت عليه علته ومات » .

وبدأت العلاقات الودية بين الدولة البيزنطية والدولة الأموية بالأندلس فى عهد الامبراطور البيزنطى (٢) تيوفيل (٨٢٩ ـ ٨٤٢ م) فقد اشتد العداء بينه وبين الخليفة المعتصم ابن هارون الرشيد ، فقد قام الامبراطور بتخريب حصـن زبطرة الاسلامى ، ورد المعتصم على ذلك بهجومه على عمورية (٢٢٣ هـ ٨٣٨ م) ورأى الامبراطـور البيزنطى محـالفة الأمويين بالأندلس انتقاما من العباسيين ، ولذلك أرسل سفيره كرتيوس ومعه هدايا نفيسة ورسالة الى عبد الرحمن الأوسط يطلب صـداقته ويناشده عقد معاهدة صـداقة ويحرض على انتزاع الشام من العباسيين التى كانت مقرا للخلافة الأموية فى المشرق ويرجوه أيضا انتزاع جزيرة كريت من الأندلسيين وردها للبيزانطيين وكان ذلك سـنة ٢٢٥ هـ (٣٨٩ م) فكافأه الأمير عبد الرحمن عن الهدية وبعث اليه يحيى الغزال ـ كما يقول المقرى فى النفح ـ فأحكم بينهما الصلة واعتذر عبد الرحمن عن عدم إستطاعته اجلاء الأندلسـيين من جزيرة كريت لأنهم صاروا غير تابعين له ولا سيطرة له عليهم .

وقد مهدت هذه العلاقات لتوثيق الصلات بين الأمويين والبيزانطيين فى عهد عبد الرحمن الناصر، فقد عمل الامبراطور

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطى صفحة ٣٢٣/٣٢٤ .

(٢) العرب والحضارة للدكتور على حسنى الخربوطلى صفحة ٢٨٥ .

قسطنطين بورفير وجنيتس (٩١٢ ـ ٩٥٩ م) على توطيد تلك العلاقة وتجديد هذه الصلة ففى سنة ٣٣٦ هـ (٩٤٧م) وفدت على الناصر رسله وهديته ، واحتفل الناصر بقدومهم فى يوم مشهود ويقول(١) ابن خلدون فى وصف ذلك اليوم «ركبت فى ذلك اليوم العساكر بالسلاح فى أكمل شكة ، وزين القصر الخلافى بأنواع الزينــة وأصناف الســـتور ، وحمل السرير الخـــلافى بمقاعد الأبناء والاخوة والأعمام والقرابة ، ورتب الوزراء والخدمة فى مواقفهم ، ودخل الرسل فهالهم ما رأوه ، وقربوا حتى أدوا رسالتهم ، وأمر يومئذ الأعلام أن يخطبوا فى ذلك الحفل ، ويعظموا من الاسلام والخلافة ، ويشكروا نعمة الله على ظهور دينه واعزازه ، وذلة عدوه ، فاستعدوا لذلك ، ثم بهرهم هـــول المجلس فوجموا وشرعوا فى القول فارتج عليهم . وكان فيهم أبو على القالى وافد العراق وكان فى جملة الحكم ولى العهد وندبه لذلك استثثارا فعجز، فلما وجموا كلهم قام منذر بن سعيد البلوطى من غير استعداد ولاروية ولاتقدم له أحد بشىء من ذلك فخطب واستحضر وجلى فى ذلك القصد وأنشد شعرا طويلا ارتجله فى ذلك الغرض ففاز بفخر ذلك المجلس وعجب الناس من شأنه أكثر من كل ما وقع » .

ويقول المقرى فى النفح(٢) متحدثا عن استقبال الناصر لوفد امبراطور القسطنطينية « تأهب الناصر لورودهم ، وأمر أن يتلقوا أعظم تلق وأفخمه ، وأحسن قبول وأكرمه ، وأخرج الى لقائهم ببجاية يحيى بن محمد بن الليث وغيره لخـــدمة أسباب الطريق ، فلما صاروا بأقرب المحلات من قرطبة خرج الى لقائهم القواد فى العدد والعـدة والتعبية ، فتلقوهم قائدا

(١) صفحة ٣٤١ من الجزء الأول من كتـاب نفح الطيب (تحقيق الأستاذ محمد محيى الدين عبد الحميد) .

(٢) صفحة ٣٤٣ من الجزء الأول من كتاب نفح الطيب .

بعد قائد ، وكمل اختصـــاصهم بعد ذلك بأن أخرج اليهم الفتيين الكبيرين من الخصيين ياسرا وتماما ابلاغا فى الاحتفال بهم ، فلقياهم بعد القواد ، فاستبان لهم بخروج الفتيين اليهم بسط الناصر واكرامه ، لأن الفتيان حينئذ هم عظماء الدولة ، لأنهم أصـــحاب الخلوة مع الناصر وحرمه ، وبيدهم القصر السلطانى ، وأنزلوا بمنية ولى العهد الحكم المنســـوبة الى نصـير بعدوة قرطبة فى الربض ، ومنعوا من لقـاء الخاصة والعامة جملة ، ومن ملابسة الناس طرا ، ورتب لحجابتهم رجال تخيروا من الموالى ووجوه الحشم ، فصيروا على باب قصر هذه المنية ستة عشر رجلا لأربع دول ، لكل دولة أربعة منهم ، ورحل الناصر لدين الله من قصر الزهراء الى قصر قرطبة لدخول وفود الروم عليه ، فقعد لهم يوم السبت لاحدى عشرة ليلة خلت من ربيع الأول من السنة المذكورة فى بهو المجلس الزاهر قعوداً حسناً نبيلا ، وقعد عن يمينه ولى العهد من بنيه الحكم ثم عبد الله ثم عبد العزيز ثم الأصبغ ثم مروان ، وقعد عن يساره المنذر ثم عبد الجبار ثم سليمان ، وتخلف عبد الملك لأنه كان عليلا لم يطق الحضور ، وحضر الوزراء والموالى على مراتبهم يمينا وشمالا ، ووقف الحجاب من أهل الخدمة من أبناء الوزراء والموالى والوكلاء وغيرهم ، وقد بسط صـحن الدار أجمع بعتاق البسط وكرائم الدرانك ، وظللت أبواب الدار وحناياها بظلل الديباج ورفيع الستور ، فوصل رسل ملك الروم حائرين مما رأوه من بهجة الملك وفخامة السـلطان ، ودفعوا كتاب ملكهم صاحب القسطنطينية العظمى قسطنطين ابن ليون ، وهو فى رق مصبوغ لونا سماويا مكتوب بالذهب بالخـط الاغريقى ، وداخل الـكتاب مدرجة مصبوغة أيضـا مكتوبة بفضـة بخط اغريقى أيضـــا فيها وصف هديته التى أرسل بها وعددها ، وعلى الكتاب طابع ذهب وزنه أربعة مثاقيل

على الوجه الواحد منه صورة المسيح ، وعلى الآخر صورة قسطنطين الملك وصورة ولده ، وكان الكتاب بداخل درج فضة منقوش ، عليه غطاء ذهب فيه صورة قسطنطين الملك معمولة من الزجاج الملون البديع ، وكان الدرج داخل جعبة ملبسة بالديباج ، وكان فى ترجمة عنوان الكتاب فى سطر منه قسطنطين ورومانين المؤمنان بالمسيح الملكان العظيمان ملكا الروم، وفى سطر آخر الى العظيم الاستحقاق ، للفخر الشريف النسب عبد الرحمن الخليفة الحاكم على العرب بالأندلس ، أطال الله بقاءه ! » .

وأحب الناصر أن يقوم الخطباء والشعراء بين يديه ليشيدوا بجلالة مقعده ، وعظيم سلطانه ، وما تهيأ من توطيد الخلافة فى دولته . وكان قد تقدم الى ابنه الامير الحكم ولى عهده باعداد من يقوم بذلك من الخطباء ، ويقدمه أمام نشيد الشعراء ، وفى رواية ان الحكم أمر الفقيه محمد بن عبد العزيز الكشكيناني (وهو من قرية كشكينان احدى قرى قنبانية) بالتأهب لذلك واعداد الخطبة المناسبة ، وكان هذا الفقيه يدعى من القدرة على تأليف الكلام ماليس فى وسع غيره ، فلما قام يحاول التكلم بما رأى ويصف الموقف هاله المشهد ، وبهره هول المقام ، وأبهة الخلافة ، فلم يهتد الى لفظة ، بل غشى عليه وسقط على الارض ، وفى رواية أخرى أن الحكم كان قد أوصى أبا على البغدادى اسماعيل بن القاسم القالى صاحب كتاب الأمالى والنوادر وهو حينئذ ضيف الخليفة الوافد عليه من العراق ، وكان يعد فى عصره من كبار علماء اللغة وأمراء البيان ، وكان مقربا من الأمير الحكم ، فلما ارتج على الكشكيناني وأصابه البهر قيل للقالى « قم فارقع هذا الوهى» فقام القالى ، وحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على نبيه ، ثم

انقطع به القول » وتوقف ساكتا مفكرا في كلام يدخل به الى ذكر ما أريد منه ، وسـواء كان القائل هو المأمور بالكلام أولا والمعد لذلك أو كان الكشكيناني فان كليهما عجز عن الكلام، ولم تحتمل أعصابه روعة الموقف ، وهنا تقدم منذر بن سعيد وكان قد دعي في زمرة الفقهاء ، وأنقذ الموقف ، ويصف لنا الفتح بن خاقان في المطمح موقف منذر بن سعيد قائلا (١) :
« لما رأى ذلك منذر بن سعيد قام بذاته ، بدرجة من مرقاته، فوصل افتتاح أبي علي لأول خطبته بكلام عجيب ، ونادى من الاحسان في ذلك المقام كل مجيب ، يسحه سحا كأنمـا كان يحفظ قبل ذلك بمـدة ، وبدأ من المـكان الذى انتهى اليه أبو علي البغدادي ، فقال :

« أما بعد فان لكل حادثة مقاما ، ولكل مقـام مقال ، وليس بعد الحق الا الضلال ، وأني قد قمت في مقام كريم ، بين يدى ملك عظيم ، فاصغوا الى بأسـماعكم ، وأمنوا على بأفئدتكم ، معاشر الملأ ، ان من الحق أن يقال للمحق صدقت، وللمبطل كذبت ، وان الجليل تعالى في سـمائه ، وتقدس بصفاته وأسمائه ، أمر كليمه موسى صلى الله على نبينا وعليه وعلى جميع أنبيائه ، أن يذكر قومه بنعم الله جل وعز عندهم، وفيه وفي رسول الله صلى الله عليه وسلم أسـوة حسنة ، واني أذكركم بنعم الله تعالى عليكم وتلافيه لكم بخلافة أمير المؤمنين التي لمت شعثكم ، وأمنت سربكم ، ورفعت قوتكم ، بعد أن كنتم قليلا فكثركم ، ومستضعفين فقواكم ، ومستذلين فنصركم ، ولاه الله رعايتكم ، وأسند اليه امامتـكم ، أيام ضربت الفتنة سرادقها على الآفاق ، وأحاطت بكم شعل النفاق، حتى صرتم في مثل حدقة البعير، من ضيق الحال ونكد العيش

---

(١) مطمح الأنفس صفحة ٤٣ .

والتغيير ، فاستبدلتم بخلافته من الشدة بالرخاء ، وانتقلتم بيمن سياسته الى تمهيد كنف العاقبة بعد استيطان البلاء ، أنشدكم الله يا معشر الملأ ألم تكن الدماء مسفوكة فحقنها ، والسبل مخوفة فأمنها ، والأموال منتهبة فأحرزها وحصنها؛، ألم تكن البـلاد خرابا فعمرها ، وثغـور المسلمين مهتضمة فحماها ونصرها ؟ فاذكروا آلاء الله عليكم بخـلافته ، وتلافيه جمع كلمتـكم بعـد افتراقها بامامته ، حتى أذهب الله عنكم غيظكم ، وشفى صدوركم ، وصرتم يدا على عدوكم ، بطوية خالصة وبصيرة ثابتة وافرة ، بعـد ان كان بأسكم بينكم ، فأنشـدكم الله ألم تكن خلافته قفل الفتنة بعـد انطلاقها من عقالها ؟ ألم يتلاف صلاح الأمور بنفسه بعد إضطراب أحوالها، ولم يكل ذلك الى القواد والأجناد حتى باشره بالقوة والمهجة والاولاد ، واعتزل النسوان ، وهجر الأوطان ، ورفض الدعة وهى محبـوبة ، وترك الركون الى الراحة وهى مطـلوبة ، بطوية صـحيحة ، وعزيمة صريحة ، وبصـيرة نافذة ثاقبة ، وريح هابة غالبـة ، ونصرة من الله واقعة واجبة ، وسلطان قاهر ، وجد ظاهر ، وسيف منصور ، تحت عدل مشهور ، متحملا للنصب ، مشتغلا لما ناله في جانب الله من التعب ، حتى لانت الاحوال بعد شدتها ، وانكسرت شوكة الفتنة عند حدتها ، ولم يبق لهـا غارب الا جبه ، ولا نجم لأهلهـا قرن الا جـده ، فأصـبحتم بنعمة الله اخوانا ، وبلم أمير المؤمنين لشعثكم على أعدائه أعوانا ، حتى تواترت لديكم الفتوحات ، وفتح الله عليكم بخلافته أبواب الخيرات والبركات ، وصارت وفود الروم وافدة عليه وعليكم ، وآمال الأقصـين والأدنين مسـتخدمة اليه واليـكم ، يأتون من كل فج عميق ، وبلد سحيق ، لأخذ حبل بينه وبينكم جملة وتفصيلا ليقضى الله أمرا كان مفعولا ، ولن يخلف الله وعده ، ولهذا الأمر مابعده،

وتلك أسباب ظاهرة بادية ، تدل على أمور باطنة خافية ، دليلها قائم ، وجفنها غير نائم ، وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم – الآية ، وليس في تصديق ما وعد الله ارتياب ، ولكل نبأ مستقر ، ولكل أجل كتاب ، فاحمدوا الله أيها الناس على آلائه ، واسألوه المزيد من نعمائه ، فقد أصبحتم بخلافة أمير المؤمنين أيده الله بالعصمة والسداد ، وألهمه خالص التوفيق الى سبل الرشاد ، أحسن الناس حالا ، وأنعمهم بالا ، وأعزهم قرارا ، وأمنعهم دارا ، وأكثفهم جمعا ، وأجملهم صنعا ، لا تهاجمون ولا تذادون ، وأنتم بحمد الله على أعدائكم ظاهرون ، فاستعينوا على صلاح أحوالكم بالمناصحة لأمامكم ، والتزام الطاعة لخليفتكم وابن عم نبيكم ، صلى الله عليه وسلم ، فان من نزع يدا من الطاعة ، وسعى في تفريق الجماعة ، ومرق من الدين ، فقد خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين ، وقد علمتم أن في التعلق بعصمتها ، والتمسك بعروتها ، حفظ الاموال ، وحقن الدماء ، وصلاح الخاصة والدهماء ، وأن بقوام الطاعة تقام الحدود ، وتوفى العهود ، وبها وصلت الأرحام ، ووضحت الأحكام ، وبها سد الله الخلل ، وأمن السبل ، ووطأ الأكناف ، ورفع الاختلاف ، وبها طاب لكم القرار ، واطمأنت بكم الدار ، فاعتصموا بما أمركم الله بالاعتصام به ، فانه تبارك وتعالى يقول « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) – الآية ، وقد علمتم ما أحاط بكم في جزيرتكم هذه من ضروب المشركين ، وصنوف الملحدين ، الساعين في شق عصاكم ، وتفريق ملتكم ، الآخذين في مخاذلة دينكم ، وهتك حريمكم ، وتوهين دعوة نبيكم ، صلوات الله وسلامه عليه وعلى جميع النبيين

والمرسلين ، أقول هذا وأختم بالحمد لله رب العالمين مستغفرا الله الغفور الرحيم فهو خير الغافرين » ٠

وقد أعجب الذين حضروا هذا الحفل الرائع بحسن مقام منذر بن سعيد ، وثبات جنانه ، وبلاغة لسانه ، وكان الخليفة الناصر نفسه أشدهم تعجبا منه ، فأقبل على ولى عهده ابنه الحكم يسائله عنه ولم يكن يثبت معرفته ، وقد سمع باسمه ، فقال له الحكم : هو منذر بن سعيد البلوطى ، فقال الناصر « والله لقد أحسن ما شاءه ، فلئن كان حبر خطبته هذه وأعدها مخافة أن يدور ما دار فيتلافى الوهى فانه لبديع من قدرته واحتياطه ، ولئن كان أتى بها على البديهة لوقته ، انه لأعجب وأغرب « ولئن أبقانى الله تعالى لأرفعن من ذكره ، فضع يدك عليه يا حكم واستخلصه وذكرنى بشأنه فما للصنيعة عنه مذهب » ، وكان ذلك سبب اتصاله بالناصر ، واستعماله له ٠

وقد نظم منذر بن سعيد فى هذه الواقعة أبياتا من الشعر يقول فيها : ـ

مقالى كحد السيف وسط المحافل
فرقت به ما بين حق وباطل

بقلب ذكى ترتمى جمراته
كبارق رعد عند رعش الأنامل

فما دحضت رجلى ولا زل مقولى
ولا طاش عقلى يوم تلك الزلازل

وقد حدقت حولى عيون اخالها
كمثل سهام أثبتت فى المقاتل

لخير امام كان أو هو كائن
لمقتبل أو في العصور الأوائل
ترى الناس أفواجا يؤمون بابه
وكلهم ما بين راج وآمل
وفود ملوك الروم وسط فنائه
مخافة بأس أو رجاء لنائل
فعش سالما أقصى حياة مؤملا
فانت غياث كل حاف وناعل
ستملكها ما بين شرق ومغرب
الى درب قسطنطين أو أرض بابل

وينقل المقرى في النفح عن ابن سعيد صاحب «المغرب» انه لما فرغ منذر بن سعيد من خطبته أنشد :ـ

هذا المقام الذى ما عابه فند
لكن قائله أزرى به البلد
لو كنت فيهم غريبا كنت مطرفا
لكننى منهم فاغتالنى النكد
لولا الخلافة أبقى الله حرمتها
ما كنت أرضى بأرض ما بها أحد

ويقول المقرى « كأنه عرض بأبى على القالى وتقديمهم اياه فى هذا المقام » .

ولما انصرف رسل الامبراطور بعث الناصر معهم سفيره هشام بن هذيل بهدية حافلة ليؤكد المودة ، ويوثق عرى التحالف بين المملكتين ، فرجع بعد سنتين وقد أدى سفارته خير أداء ويعلق الأستاذ عبد الله عنان على هذه السفارة

بقوله(١) « أكبر الظن أنها لم تكن الا تجديدا لعلائق الدولة البيزنطية مع دولة الاســلام بالاندلس ، وتوطيدا للصداقة القديمة التى رأى بلاط قسطنطينية أن يعقدها مع بلاط قرطبة منذ عهد عبد الرحمن بن الحكم لتكون شبه تحالف مثالى ضد الدولة العباسية خصيمتهما المشتركة ، وربما كانت ترمى فى الوقت نفسه الى تنظيم الخطط المشـتركة لمقـاومة الدولة الفـاطمية الفتية التى بدأت تزعج حكومة قرطبة بتوغلها فى المغرب الأقصى » .

ويرى ليفى بروفنســال ان هناك أســبابا عدة دعت عبد الرحمن الى تجديد العلاقات مع القسطنطينية ، وكان قد مضى على انقطاعها زمن ، وفى طليعة هذه الأسباب مكانة القسطنطينية وشهرتها فى القرن العاشر الميلادى ، فقـد ظلت القسطنطينية ملكة العـالم المتحضر ، ووارثة العـلم والفلسفة والفن اليونانى ، وكانت مكانتها وجلالها وبهاؤها يكسف أغنى بلاد الاسلام ، وكان الكثير من الآيات الفنيـة بها شاهدة على عبقريتها فى البناء والفن والرسم والزخرفة، ودولة معنية بالفن والثقافة مثل الدولة الأموية الأندلسية كانت لا تجد محيصا عن محاولة الاستفادة باحتكاكها بالعالم البيزانطى وبخـاصة اذا كان هذا الاحتكاك يفيد كذلك من الناحية السياسية ، وكانت قرطبة تحـذو حـذو بغداد فى بناء المســاجد والقصـور واتخاذ الأثاث والأمتعة الفاخرة والملابس والوان الزينـة ، ويسـتخلص من حـديث ليفى بروفنسال فى هذا الصدد أن عبد الرحمن أراد أن يقلل من تأثير العراق فى الحضارة الأندلسية وحياة الأندلسيين ،

---

(١) تراجم اسلامية شرقية واندلسية للاستاذ عبد الله عنان صفحة ١٦٧ .

وكان هــذا الاتجاه من بواعث ترحيبه باقامة علاقات مع القسطنطينية ، وقد ظهر أثر ذلك فى تشييد مدينة الزهراء، وقد استحضر عبد الرحمن عمالا يونانيين وخبراء بفن البناء من بيزانطة لتدريب البنائين الأندلسيين ، وأفاد من ذلك فى تنسيق قصور الزهراء ومبانيها .

وقد استمر تبادل السفراء بين قرطبة وبيزانطة من الحين الى الحين فى أثناء حكم الحكم الثانى وبقى الى أوائل القرن الحادى عشر الميلادى .

وكانت هناك مراسلات بين أوتو العظيم (٩٣٦ ـ ٩٧٣م) ابن الأمبراطور هنرى الأول ملك الألمان وبين عبد الرحمن النــاصر ، وقد كتب أوتو يشكو الى عبد الرحمن غارات القراصنة الأندلسيين فى شـواطىء البحر المتوسـط وفى الطرق جنوب فرنســا وفى شمال ايطاليا وفى سويسرة نفســها ، وانه يحمل حـكومة قرطبة تبعة هذه الغـارات الضــارة والاعتداءات المتكررة ، وقد رد النـاصر على هذه الرسالة برسالة شديدة اللهجة كان لها تأثير سىء فى البلاط الامبراطورى ، ويبدو أن العلاقات بين أوتو والناصر تحسنت بعد ذلك ، واقتنع امبراطور آلمانيا بأن حكومة قرطبة ليست لها علاقات بالمستعمرات العربية فى بروفنس وغيرها ، وأنها لا تتحمل تبعة أعمــال هؤلاء المغيرين على حدود الامبراطورية الألمـانية ولا وقف أعمـــال القراصنة لأنهم خارجون على طاعتهــا ، ويروى لنا دوزى بمناسبة هــذه المراســلات والسفارات بين أوتو وعبد الرحمن الحديث الذى دار بين عبد الرحمن الناصر ورسل أوتو ، وكان عبد الرحمن حينذاك قـد قضى على سـيطرة الأسر الارستقراطية ، وجرد زعماءها من النفوذ ، فقد قال لهؤلاء السفر « انى أسلم بأن ملككم

ملك حكيم وقدير ، ولكن سمة واحدة من سمات سياسته في توجيه شئون الدولة لا أستسيغها ، فهو بدلا من أن يضع مقاليد الحكم كلها في يده فانه يسمح لاتباعه بمشاركته فيها ، بل يسمح لهم بامتلاك مقاطعاته ظانا انه بذلك يوثق علاقتهم به ، وهذا خطأ خطير ، فان هذا التنازل للأشراف يغذى كبرياءهم ونزوعهم الى الثورة » وتكشف لنا هذه المصارحة ميل عبد الرحمن الى الاستئثار بالسلطة وجمعها في يده ، وقد يكون للرجل الذى عانى الأمرين من تمرد زعماء القبائل وثورات الأشراف فى كل ناحية من نواحى دولته ان ينزع الى تركيز السلطة في يده حسما للثورات ، ومنعا لحدوث الاضطرابات ، ولاضطراره الى الاعتماد فى توطيد سلطته واقرار نفوذه على صنائعه من الصقالبة الذين كان يظلهم برعايته ويبوئهم أرفع مناصب الدولة ، ويجعلهم موضع ثقته ، وحملة أمانته ، غير مبال بشعور زعماء العرب والبربر ، وكانت هذه السياسة من أسباب هزيمة الخندق .

وقد وفدت على قرطبة رسل ملك الصقالبة وهو يومئذ هوتو ، والملك كلدة من ملوك الفرنجة بقاصية المشرق ، وجاءت الى قرطبة رسل البابا يوحنا الثانى عشر تطلب السلم والمودة بين الاسلام والنصرانية ، فآجابهم الناصر الى ما طلبوا ، وتدل هذه السفارة على الاعتراف للناصر بسمو المكانة وترامى النفوذ فى العالم الاسلامى .

وهكذا كان بلاط عبد الرحمن يأتى اليه السفراء من مختلف أوروبا ومن الولايات الافريقية والمغرب الأقصى ، وتعمل على التقرب منه ، وعقد صلات المودة بينه وبين الملوك والأمراء والقادة والزعماء .

قرطبة والزهراء

كانت قرطبة عاصمة الأندلس ، ومقر خلافة عبد الرحمن النـــاصر ، وقد بلغت فى عهده أوج العظمة والازدهار ، ويتبارى مؤرخو الأندلس والمغرب فى الاشادة بقرطبة ووصف قصـــورها ومتنزهاتهـا ، وروعة مناظرها وطيب هوائهـا فالحجارى يقـــول فى المسهب(١) « كانت قرطبة فى الدولة المروانية قبة الاسلام ، ومجتمع أعلام الأنام ، بها استقر سرير الخلافة المروانية وفيهـا تمحضت خلاصـــة القبائل المعدية واليمانية ، واليها كانت الرحلة فى الرواية اذ كانت مركز الكرماء ، ومعدن العلماء ، وهى من الأندلس بمنزلة الرأس من الجســـد ، ونهرها من أحســـن الانهار ، مكتنف بديبـــاج المروج مطرز بالأزهار ، تصدح فى جنبـــاته الأطيار وتنعر النواعير ، ويبسم النوار ، وقرطاها الزاهرة والزهراء ، حاضرتا الملك وأفقاه النعماء والسراء ، وان كان قـــد أخنى عليها الزمان ، وغير بهجة أوجهها الحسان ، فتلك عادته وسل الخورنق والسدير وغمدان ، وقد أعذر بانذاره ، اذ لم يزل ينادى بصروفه لا أمان لا أمان ، وقد قال الشاعر : —

ومازلت أســـمع أن الملـــو
ك تبنى على قـــدر أخطـــارها

ويروى أن الخليفة الموحدى يوسف بن عبد المؤمن قال لأبى عمران موسى بن سعيد العنسى : —

(١) الجزء الأول من نفح الطيب صفحة ١٤٦/١٤٧ .

ما عندك في قرطبة ؟

فقال له العنسى : ـ « ما كان لى أن أتكلم حتى أسمع مذهب أمير المؤمنين فيها » .

فقال يوسف : « ان ملوك بنى أمية حين اتخذوها حاضرة ملكهم لعلى بصيرة ، الديار المنفسحة الكبيرة والشوارع المتسعة ، والمبانى الضخمة المشيدة ، والنهر الجارى ، والهواء المعتدل ، والخارج النضر ، والمحرث العظيم ، والشعراء الكافية ، والتوسط بين شرق الأندلس وغربها » .

فقال العنسى « ما أبقى لى أمير المؤمنين لأقول »
وفيها يقول بعض علماء الأندلس : ـ

بأربع فاقت الأمصار قرطبة
منهن قنطرة الوادى وجامعها

هاتان ثنتان والزهراء ثالثة
والعلم أعظم شىء وهو رابعها

ويقول المؤرخ الأندلسى الرازى فى قرطبة : «قرطبة(١) أم المدائن ، وسرة الأندلس ، وقرارة الملك فى القديم والحديث والجاهلية والاسلام ، ونهرها أعظم أنهار الأندلس ، وبها القنطرة التى هى احدى غرائب الأرض فى الصنعة والاحكام، والجامع الذى ليس فى بلاد الأندلس والاسلام أكبر منه » .

ويعود الحجارى الى وصفها قائلا : « حضرة قرطبة منذ افتتحت الجزيرة هى كانت الغاية ومركز الراية ، وأم

(١) الجزء الثانى من نفح الطيب صفحة ٩ .

القرى ، وقرارة أولى الفضـــل والتقى ووطن أولى العـــلم والنهى ، وقلب الاقليم ، وينبـوع متفجر العـلوم ، وقبـة الاسلام ، وحضرة الامام ، ودار صوب العقول ، وبستان ثمر الخواطر ، وبحر درر القرائح ، ومن أفقها طلعت نجوم الأرض وأعلام العصر ، وفرسان النظم والنثر ، وبها أنشئت التأليفات الرائعة ، وصنفت التصنيفات الفائقة ، والسبب فى تبريز القوم حديثـا وقديما على من سـواهم أن أفقهم القرطبى لم يشتمل قط الا على البحث والطلب لأنواع العلم والأدب » .

ويقول المقرى فى النفح(١) «وفى بعض التواريخ القديمة كان بقرطبة فى الزمن السالف ثلاثة آلاف مسجد وثمانمائة وسبعة وسبعون مسجدا ، وتسعمائة حمام ، وأحد عشر حماما ومائة ألف دار ، وثلاثة عشر ألف دار للرعية خصـوصا ، وربما تصف العدد أو أكثر لأرباب الدولة وخاصتها ، هكذا نقله فى المغرب » .

وقد اشتهر(٢) فى قرطبة مسجدها الجامع ، وكان الذى ابتدأ بناءه عبد الرحمن الداخل ، ولم يكمل فى زمانه ، وكمله ابنه هشام ، ثم توالى الخلفاء من بنى أمية على الزيادة فيه حتى صار يضرب به المثل ، ولم يزل كل خليفة يزيد فيه على من قبله الى أن كمل على يد نحو الثمانية من الخلفـاء ، وكان هذا الثامن عبد الرحمن الناصر ، ومن حديث الفقيه الكاتب أبى محمد ابراهيم بن صاحب الصلاة الولبنى فى وصف هـذا الجامع « شـخصت الى حضرة قرطبـة منشرح الصدر ، لحضور ليلة القدر والجامع ــ قدس الله تعالى

(١) نفح الطيب الجزء الثانى صفحة ٧٩ .
(٢) نفح الطيب الجزء الثانى صفحة ٩٠ .

بقعته ومكانه ــ قدكسي ببردة الازدهاء ، وجلى في معرض البهاء ، كأن شرفاته فلول في سنان ، أو أشره في أسنان ، وكأنما ضربت على سمائه كلل ، أو خلعت على أرجائه حلل . وكأنما الشمس خلفت فيه ضياءها ، ونسجت على أقطاره أفياءها ، فنرى نهاراً قد أحدق به ليل ، كما أحدق بربوة سيل ، ليل دامس ونهار شامس ، وللذبال تألق كنضنضة الحيات أو اشـــارة السبابات في التحيات ، قد أترعت من السليط كئوســـها ووصلت بمحاجين الحـــديد رءوسها ، ونيطت بسلاسل كالجذوع القائمة ، أو كالثعابين العائمة ، عصبت بها تفاح من الصفر كاللقاح الصفر ، بولغ في صقلها وجلائها ، حتى بهرت بحسنها ولألائها ، كأنها جليت باللهب، واشربت ماء الذهب ، ان ســمتها طولا رأيت منها ســبائك عسجد أو قلائد زبرجد ، وان أتيتها عرضا رأيت منها أفلاكا ولكنها غير دائرة ، ونجوما ولكنها ليست بسائرة . . . والناس أخياف في دواعيهم ، وأوزاع في أغراضهم ومراميهم ، بين ركع وسجد ، وايقاظ وهجد ، ومزدحم على الرقاب يتخطاها ، ومقتحـم على الظهـور يتمطاهاه كأنهم برد خـلال قطر ، أو حروف في عرض سطر ، حتى اذا قرعت أسماعهم روعة التسليم ، تبادروا بالتكليم ، وتجاذبوا بالأثواب ، وتساقوا بالأكواب ، كأنهم حضـور طال عليهم غياب ، أو ســفر أتيح لهم اياب ، وصفيك مع اخوان صدق ، تنسكب العلوم بينهم انسكاب الودق ، ــ فاكرم بها مساع تشوق الى جنة الخلد ويهون في السـعي اليهـا انفاق الطوارف والتلد ، تعظيما لشعائر الله ، وتنبيها لكل ساه ولاه » .

وقد أمر الناصر في سنة ٣٤٠ هـ بهدم الصومعة الأولى (المئذنة) وأقام صومعة بديعة بدلا منها ، فحفر في أساسها

حتى بلغ الماء مدة من ثلاثة وأربعين يوما ، ولما كملت ركب الناصر اليها من مدينة الزهراء ، وصعد فى الصومعة من أحد درجيها ، ونزل من الثانى ، ثم خرج وصلى ركعتين فى المقصورة وانصرف ، وكانت الصومعة الأولى ذات مطلع واحد فصير لها مطلعين فصل بينهما البناء فلا يلتقى الراقون فيها الا بأعلاها .

ويقول الدكتور حسين مؤنس (١) « مسجد قرطبة الجامع هو ــ دون شك ــ أضخم عمل معمارى قام به العرب فى الشرق أو الغرب على السواء ، فان مساحة الصحن المسقوف ٤٨٦٨ مترا مربعا ، أى مايزيد على الفدان ، فاذا اضفنا الى ذلك الفناء غير المسقوف ــ وهو بقية صحن الجامع يحيط به سوره ــ كانت مساحته ١٢١٨٩ مترا مربعا ، أى نحو ثلاثة افدنة ، وعدد السوارى ، أى الأعمدة ، الباقية الى اليوم يزيد على ١٢٠٠ سارية ، ومحراب هذا المسجد أروع محاريب الجوامع الأثرية الباقية الى اليوم ، والحلول الهندسية التى وفق اليها المعمارى الأول الذى وضع تصميم هذا الجامع ، والابتكارات المعمارية والزخرفية التى وصل اليها هو ومن جاءوا بعده تقرر دون أدنى شك أن العرب كانوا أعظم مهندسى الدنيا حتى مطلع العصر الحديث.. وأنصع دليل على عبقرية هذا الابتكار أنه لم يتكرر، فمن المعروف أن المعماريين ينقل بعضهم عن بعض ، اذا ابتكر واحد منهم شيئا فى الشرق نقله الآخرون عنه فى سلسلة طويلة حتى يصل الى أقصى الغرب ، الا أن هذا الابتكار فريد فى نوعه على طول التاريخ، فريد وحيد كالجامع نفسه .. والهدف الذى قصد اليه

(١) رحلة الاندلس صفحة ٧٢/٧٣ .

هذا المعماري المبدع بهذا الابتكار يدعو الى الاعجاب .. انه هدف جمالي صرف .. ولم يجرؤ مهندس جامع آخر على تطبيق هذا الابتكار لأن أعمال العباقرة لا تتكرر ولا تقلد .

وبعد أن أمضى عبد الرحمن الناصر أكثر من ربع قرن في اخماد الثورات ، وهدأ الزلازل والاضطرابات وجمع الشمل المبدد ، وساد الأمن ، وعم الرخاء ، كان يستطيع أن ينشيء جامعا جديدا ولكنه آثر استكمال الجامع الذى أنشأه جده العظيم عبد الرحمن الداخل ، ويعلل ذلك الدكتور حسين مؤنس قائلا « (١) كان عبد الرحمن الناصر قديرا على أن ينشيء جامعا جديدا رائعا ينسب اليه ، ولكن سلائل بنى مروان فيالأندلس كان فيهم حرص على التقاليد، واستمساك بمناهج أجيالهم الأولى ، كأنهم كانوا يجرون في سياستهم على الحديث النبوى الشريف الذى يقول « لا يصلح هذا الأمر الا بما صلح به أوله وكانوا يعرفون أيضا أن وحدة الدولة والوطن لاتقوم الا على أساس من وحدة التاريخ ، ومهما بلغ من رواء ملك عبد الرحمن فهو بناء على ما أسس جده عبد الرحمن الداخل ، وما دام هذا قد أنشأ ذلك المسجد، وجعله محراب جماعة الاسلام في الاندلس ، فليظل كذلك لا تخلع عنه هذه الصفة ، ولا ينقل عنه هذا الشرف الى غيره وليوسع هذا المسجد وليضف عليه من جمال الفن وجلال الخلافة ما شاء ابداع الفن ونمو الحضارة وما قدر جاه الخليفة » وفي تقديرى ان الدكتور حسين مؤنس قد أجاد التعليل وأصاب شاكلة الصواب ، وكان يحيط بجامع قرطبة سور يتراوح ارتفاعه بين مترين وثلاثة أمتار ، وكان يمتد في

---

(١) رحلة الاندلس صفحة ٩٢ .

شكل مستطيل من الشمال الى الجنوب وقد توجته شرفات عالية ، وكان المصلون يدخلون الجامع من واحد وعشرين بابا تزان جميعها بالنحاس الأصفر المخرم ، وكانت النوافذ والكوى الموصدة التى تشبه المحاريب القائمة الى جنباتها وبغلات الحائط ــ الدعامات الخارجية ــ التى تشبه الأبراج تزين واجهة الجامع ، وخصص عدد قليل من الأبواب للنساء فهن يلجأن الى مقاصير رفعت لهن .

ولم تله مهام الحرب ومشكلات السياسة الناصر عن القيام بأعمال الانشاء والتعمير ، وقد اغتنم فرصة الاستقرار النسبى فى سنة ٣٢٥ هجرية وشرع فى بناء مدينة الزهراء أعظم قواعد الأندلس الملكية ، ويقول ابن خلدون فى تاريخه يذكر بناء الزهراء « (١) لما استفحل ملك الناصر صرف نظره الى تشييد القصور والمبانى ، وكان جده الأمير محمد وأبوه عبد الرحمن الأوسط وجده الحكم قد احتفلوا فى ذلك ، وبنوا قصورهم على أكمل الاتقان والضخامة ، وكان فيها المجلس الزاهر والبهو والكامل والمنيف ، فبنى هو الى جانب الزاهر قصره العظيم ، وسماه « دار الروضة » وجلب الماء الى قصورهم من الجبل ، واستدعى عرفاء المهندسين والبنائين من كل قطر ، فوفدوا عليه حتى من بغداد والقسطنطينية ، ثم أخذ فى بناء المتنزهات ، فاتخذ منية الناعورة خارج القصور وساق لها الماء من أعلى الجبل على أبعد مسافة ، ثم اختط مدينة الزهراء واتخذها لنزله وكرسيا لملكه ، وأنشأ فيها من المبانى والقصور والبساتين ما عفى على مبانيهم الأولى ، واتخذ فيها محلات للوحش

---

(١) الجزء الثانى من نفح الطيب صفحة ١١٢ .

فسيحة الفناء متباعدة السياج ، ومسارح للطيور مظللة بالشباك ، واتخذ فيها دورا لصناعة الآلات من آلات السلاح للحرب والحلى والزينة وغير ذلك من المهن ، وأمر بعمل الظلة على صحن الجامع بقرطبة وقاية للناس من حر الشمس »

ويعزو المؤرخون أسباب انشاء مدينة الزهراء الى قصة تشبه الأساطير التي كثيرا ماتروى عن بناء المدن والمنشآت العظيمة ، فهم يذكرون أن جارية من جوارى الناصر ماتت عن أموال كثيرة أوصت بها لافتداء أسرى المسلمين ببلاد الافرنج ، ولكن الناصر لم يجد أسيرا ليفتدى ، فطلبت منه جاريته الزهراء وكانت أثيرة عنده أن يبتنى بالمال مدينة تحمل اسمها ، فاستجاب لرغبتها ، والأقرب الى المعقول والأشبه بأخلاق الناصر أن الرغبة فى انشاء مدينة ، يتخذها حاضرة لخلافته ورمزا لعهده كما فعل أبو جعفر المنصور في انشاء بغداد وكما فعل عبيد الله المهدى فى انشاء المهدية ـ أقول ان مثل هذه الرغبة كانت تختلج بنفسه جريا على طريقة أسلافه من الخلفاء الأمويين سواء في الشرق في سوريا أو الغرب بالأندلس ، ويبدو أن الناصر كان له شغف خاص بالعمارة والبناء ، وما زالت المباني الضخمة والمنشآت الفخمة حتى عصرنا الحاضر مظهرا من مظاهر المجد المؤثل والمكانة المرموقة ، وقد نسبت الى الناصر أبيات من الشعر تعبر عن هذه النزعة وتنم على هذا الاحساس ، وهى :

همم الملوك اذا أرادوا ذكرها
من بعدهم فبألسن البنيان
أو ما ترى الهرمين قد بقيا وكم
ملك محاه حوادث الأزمان

ان البنـــاء اذا تعــــاظم شـــأنه
أضـحى يدل على عظيم الشـــان

وفضــلا على ذلك فقد كانت الحـاجة ماسة الى انشاء مثل هذه المدينة ، فقد وجد الناصر أن قصر الامارة فى قرطبة لم يعد يتسع لما تقتضيه المحافظة على جلال الخـلافة من فخامة المظهر التى تلائم مكانتها الشماء فى النفوس ، وكثر وفود الملوك والأمراء والسفراء على بلاطه ، وذاع شأنه فى انحاء المشرق والمغرب ، وكانت هذه الوفود القادمة تقـابل بالحفاوة والتكريم ، وتنظم لها المواكب التى تخترق شوارع قرطبة فتضيق حركة المرور كما يحدث فى العواصم الكبرى عندما يكثر مرور أمثال هذه المواكب ، ويشغل الناس عن الفراغ لأعمالهم ، لذلك اتجه تفكير الناصر الى انشاء قصر ملكى تتسع رحابه للوفود القادمة كما فكر فيما بعد لويس الرابع عشر فى انشاء قصر فرساى خارج باريس ، وكان سكان قرطبة فى عهد الناصر قد ناهزوا نصف المليون فابتناء مثـل هذه المدينة يقلل من اشتداد ضغط تكاثر الســكان ، ويوجد مجالات أوسع لمختلف الأعمال .

ويقول ابن عذارى فى البيان المغرب (١) « ابتدىء بنيانها من أول سنة ٣٢٥ هـ وكان يصرف فيها كل يوم من الصخر المنجور ستة آلاف صخرة سوى التبليط فى الأسوس وجلب اليها الرخام من قرطاجنة افريقية ومن تونس ، وكان الأمناء الذين جلبوه عبد الله بن يونس وحسن القرطبى وعلى ابن جعفر الاسكندرانى ، وكان الناصر يصلهم على كل رخامة بثلاثة دنانير .. وعلى كل سارية بثمانية دنانير سـجلماسية ،

---

(١) الجزء الثانى من البيان المغرب صفحة ٢٤٥ .

وكان فيها من السواري أربعة آلاف سارية وثلاثمائة سارية وثلاث عشرة سارية ، والمجلوبة منها من افريقية ألف سارية وثلاث عشرة سارية ، وسائر ذلك من رخام الأندلس ، وأما الحوض الغريب المنقوش المذهب بالتماثيل فلا قيمة له ، جلبه ربيع الأسقف من القسطنطينية من مكان الى مكان حتى وصل في البحر ، ووضعه الناصر في بيت المنام ، في المجلس الشرقي المعروف بالمؤنس ، وكان عليه اثنا عشر تمثالا من الذهب الأحمر مرصعا بالدر النفيس الغالي مما صنعه بدار الصنعة بقصر قرطبة ، وكان المتولي لهذا البنيان المذكور ابنه الحكم ، لم يتكل الناصر فيه على أمين غيره ، وكان يخبز في أيامه كل يوم برسم حيتان البحيرات ثماني مائة خبزة ، وهذا من أعظم الأشياء ، الى ما فوق ذلك وكان الناصر قد قسم الجباية على ثلاثة أثلاث ، ثلث للجند ، وثلث للبناء ، وثلث مدخر ، وكانت جباية الأندلس يومئذ من الكور والقرى خمسة آلاف وأربعمائة ألف وثمانين ألف دينار ، ومن المستخلص والأسواق سبعمائة ألف دينار وخمسة وستين ألف دينار » .

وابتنى الناصر في المدينة الجديدة جامعا كان يعمل فيه حين شرع في بنائه من حذاق الفعلة كل يوم ألف نسمة — كما يروى ابن الفرضي(١) وغيره — منها ثلاثمائة بناء ومائتا نجار وخمسمائة من الأجراء وسائر الصنائع ، فاستتم بنيانه واتقانه في مدة من ثمانية وأربعين يوما ، وجاء في غاية الاتقان ، من خمسة أبهاء عجيبة الصنعة ، وطوله من القبلة الى الجوف — حاشا المقصورة — ثلاثون ذراعا ، وعرض البهو

(١) الجزء الثاني من نفح الطيب صفحة ١٠٠ .

الأوسط من أبهائه من الشرق الى الغرب ثلاث عشرة ذراعا ، وعرض كل بهو من الأربعة المكتنفة له اثنا عشر ذراعا ، وطول صحنه المكشوف من القبلة الى الجوف ثلاث وأربعون ذراعا، وعرضه من الشرق الى الغرب احـــدى وأربعـون ذراعا ، وجميعه مفروش بالرخام الخمرى ، وفى وسطه فوارة يجرى فيها الماء ، فطول هذا المسجد أجمع من القبلة الى الجوف ـ سوى المحراب ـ سبع وتسعون ذراعا ، وعرضه من الشرق الى الغرب تسع وخمسون ذراعا ، وطول صومعته فى الهواء أربعون ذراعا وعرضها عشر أذرع فى مثلها .

وأمر الناصر باتخاذ منبر بديع لهذا المسجد ، فصـــنع فى نهاية من الحسن ، ووضع فى مكان منه ، وحظرت حوله مقصورة عجيبة الصنعة ، وكان وضع هذا المنبر فى مكانه من هذا المسجد عند اكماله يوم الخميس لســــبع بقين من شعبان سنة ٣٢٩ .

ويقول ابن الفرضى(١) «أنه فى صدر هذه السنة ـ ٣٢٩ هـ ـ أكمل الناصر بنيان القناة الغريبة الصنعة التى أجراها وأجرى فيها الماء العذب من جبل قرطبة الى قصر الناعورة غربى قرطبة ، فى المناهر المهندسة ، وعلى الحنايا المعقودة ، يجرى ماؤها بتدبير عجيب وصنعة محكمة الى بركة عظيمة، عليها أسد عظيم الصورة ، بديع الصنعة ، شديد الروعة ، لم يشاهد أبهى منه فيما صور الملوك فى غابر الدهر ، مطـلى بذهب ابريز ، وعيناه جوهرتان لهما وبيص شديد ، يجوز هذا الماء الى عجز الأسد فيمجه فى تلك البركة من فيه ، فيبهر الناظر بحسنه وروعة منظره ، وثجاجة صبه ، فتسقى من مجاجه جنان هـذا القصر على سـعتها ، ويسـتفيض على

(١) الجزء الثانى من نفح الطيب صفحة ١٠٠ .

هذه القناة وبركتها والتمثال الذى يصب فيها من أعظم آثار الملوك فى غابر الدهر لبعد مسافتها ، واختلاف مسالكها ، وفخامة بنيانها ، وسمو أبراجها التى يترقى الماء منها ويتصوب من اعاليها ، وكانت مدة العمل فيها من يوم ابتدئت من الجبل الى ان وصلت ـ أعنى القناة ـ الى هذه البركة أربعة عشر شهرا ، وكان انطلاق الماء فى هذه البركة الانطلاق الذى اتصل واستمر يوم الخميس غرة جمادى الآخرة من السنة ، وكانت للناصر فى هذا اليوم بقصر الناعورة دعوة حسنة أفضل فيها على عامة أهل مملكته ، ووصل المهندسين والقوام بالعمل بصلات حسنة جليلة جزيلة(١) »

وقد استمر العمل فى مدينة الزهراء من سنة ٣٢٥ الى آخر دولة الناصر وابنه الحكم وذلك نحو من أربعين سنة ؛ ولما بنى الناصر قصر الزهراء أجمع الناس على أنه لم يبن مثله فى الاسلام البتة ، وما دخل اليه قط أحد من سائر البلاد النائية والنحل المختلفة من ملك وارد ورسول وافد وتاجر وعالم الا وكلهم قطع أنه لم ير له شبها ، بل لم يسمع به ، بل لم يتوهم كون مثله ، حتى انه كان أعجب ما يؤمله القاطع الى الأندلس فى تلك العصور النظر اليه ، والتحدث عنه ، وقيل (٢) انه لو لم يكن فيه الا السطح الممرد المشرف على الروضة المباهى بمجلس الذهب والقبة وعجيب ما تضمنه من اتقان الصنعة ، وفخامة الهمة ، وحسن المستشرف ، وبراعة الملبس والحلة ، مابين مرمرمسنون ، وذهب مصون ، وعمد كأنما أفرغت فى القوالب ، ونقوش كالرياض ، وبرك

---

(١) الجزء الثانى من نفح الطيب صفحة ١٠٠/١٠١ .

(٢) الجزء الثانى من نفح الطيب صفحة ١٠٢ .

عظيمة محكمة الصنعة ، وحياض وتماثيل عجيبة الأشخاص لا تهتدى الأوهام الى سبيل استقصاء التعبير عنها ، فسبحان الذى أقدر هذا المخلوق الضعيف على ابداعها واختراعها من أجزاء الأرض المنحلة كيما يرى الغافلون عنه من عباده مثالا لما اعده لأهل السعادة فى دار المقامة التى لايتسلط عليها الفناء، ولا تحتاج الى الرم » .

وفى بناية الزهراء بدأ الناصر باقامة قصر عظيم للاستقبال لتقام فيه الحفلات حين حضور السفراء والرسل والملوك الى بلاطه ، وقد أقامه على سفح جبل العروس بحيث يشرف على السهل الفسيح المنبسط أمامه (١) ، وكان بالقصر قاعة كبيرة بابها الرئيسى من ناحية الوادى ، وعن يمينها ويسارها عقود تشبه عقود الجامع الا أنها منفردة الأقواس ، وفى الصدر ثلاثة عقود كبرى ، الأوسط منها أوسع من الباقين ، وتحت هذا العقد الأوسط كان يوضع عرش الناصر وعن يمينه ويساره مقاعد الأمراء والوزراء ، وتمتد المقاعد الى الباب ليجلس عليها كبار رجال الدولة ، وخلف العقود الجانبية ممران كان يصطف فيهما جند الحرس ، فيمر الضيوف بين صفوف الجند من بعيد ثم يدخلون القاعة ليحيوا الخليفة وهم بالباب ، ويتقدمون فيحيون مرة أخرى ، حتى اذا كانوا أمام الخليفة قرأوا عليه تحية ثالثة ، ثم يأمر بجلوسهم حيث يشاء ، وينظرون الى الوالى والجند والحرس مصطفين فيه صفوفا ، مشاة وفرسانا ، ثيابهم بيضاء وعلى مناكبهم أقبية بيض تتدلى خلف ظهورهم ، تزين رءوسهم العمائم ، وفى أيديهم السيوف ، وبقية القصر قاعات للخليفة

---

(١) رحلة الاندلس ، صفحة ١١٣/١١٤ .

والأمراء ورجال الدولة ، وأنشئت الى جوار هذا القصر قصور أخرى للأمراء والوزراء والموظفين .. وعلى درجة بعد هذه على السفح أقيمت مساكن الجند والحرس ، وأعد ميدان عظيم للعرض العسكرى ، يشهده الخليفة من قصره ، ومخازن للسلاح والعتاد ودور الخيل .. وكانت المدينة تقوم على ثلاث درجات ، أعلاها قصر الخليفة وقصور الأمراء، والدرجة الثانية كانت حدائق يقوم فيها جامع الزهراء ، والثالثة للقواد والجند وأهل البلد » .

ويقول الشريف الادريسى فى حديثه عن الزهراء(١) « وهى فى ذاتها مدينة عظيمة مدرجة البنية ، مدينة فوق مدينة ، سطح الثلث الأعلى يوازى الجزء الأوسط ، وسطح الثلث الأعلى يوازى الثلث الأسفل ، ولكل ثلث منها سور ، فكان الجزء الأعلى منها قصورا يقصر الوصف على صفاتها، والجزء الأوسط لبساتين وروضات ، والجزء الثالث الديار والجامع » .

ويروى المؤرخون أن جارية الناصر الزهراء التى سميت المدينة باسمها حينما نزلت بها بعد اتمام بنائها وقعدت فى مجلسها ونظرت الى بياض المدينة وحسنها فى حجر الجبل الأسود الذى اقيمت عليه قالت له « سيدى ! ألا ترى الى حسن هذه الجارية الحسناء فى حجر ذلك الزنجى ؟

فهم الناصر بالعمل على ارضاء خطيبته الأثيرة وأصدر أمرا بازالة الجبل ، ولكن بعض جلسائه قدر صعوبة الاقدام على مثل هذا العمل التى تقرب من الاستحالة ، وكان يعرف

---

(١) الجزء الثالث من تاريخ الاسلام السياسى صفحة ٦٠٠/٦٠١ .

سعة صدر الخليفة النـــاصر ودماثة خلقه فلم يبخل عليه بالنصيحة وصارحه قائلا :

« اعيذ أمير المؤمنين أن يخطر له مابشين العقل سماعه، لو اجتمع الخلق ما زالوه حفرا ولا قطعا ، ولا يزيله الا من خلقه » .

وأدرك الناصر صدق هذه النصيحة ورجحان هـذا الراى فكبح جماح عاطفته ، وعدل عن رأيه ، وهداه تفكيره السليم الى أن يأمر بقطع شجر الجبل وأن تغرس فيه أشجار التين واللوز ، ولم يكن أحسن منها منظرا ولا سيما حينما تتفتح الأشجار وتزدهر الأزهار .

ولم تنس عظمة الزهراء ومسجدها عبد الرحمن الناصر جامع قرطبة الـكبير الذى اشـترك فى رفع بنيانه ، وتوطيد جدرانه ، واعلاء شأن اجداده فكان يؤدى فيه صلاة الجمعة والأعياد ويروى (١) أن الناصر أراد الفصد ، فقعد فى البهو الكبير المشرف بأعلى مدينة الزهراء ، واستدعى الطبيب لذلك وأخذ الطبيب المبضع ، وجس عضد الناصر ، فبينما هو كذلك اذ أطل زرزور ، فصعد على اناء ذهب بالمجلس وأنشد :

أيها الفاصـــد رفقا　　بأمـــير المؤمنينـا
انمـا تفصـــد عرقا　　فيه محيا العـالمينا

وجعل يكرر ذلك المرة بعـــد المرة ، فاستظرف أمير المؤمنين الناصر ذلك غاية الاستظراف ، وسر به غاية السرور وسأل عمن اهتدى الى ذلك ، وعلم الزرزور ، فذكر له أن السيدة الكبرى مرجانة ، أم ولده ولى عهده الحكم المستنصر

---

(١) الجزء الثانى من « ازهار الرياض » صفحة ٢٦٥ .

بالله ، صنعت ذلك ، وأعدته لذلك الأمر ، فوهب لها ماينيف على ثلاثين ألف دينار .

وقال بعض المؤرخين(١) ان عدد الفتيان بالزهراء ثلاثة عشر ألف فتى ، وسبعمائة وخمسين فتى ، ودخالتهم من اللحم كل يوم حاشا أنواع الطير والحوت ثلاثة عشر ألف رطل وعدة النساء بقصر الزهراء الصغار والكبار وخدم الخدمة ستة آلاف وثلاثمائة امرأة وأربع عشرة ، وفى رواية أخرى أن عدد الفتيان الصقالبة ثلاثة آلاف وسبعمائة وخمسون وعدد النساء بقصر الزهراء مثل ما ذكر أولا .

وكلف الخليفة الناصر بعمارة الأرض ، واقامة المعالم وتخليد الآثار الدالة على قوة الملك ، وعزة السلطان ، واستفراغه وسعه فى تنميقها واتقان قصورها وزخرفة مصانعها عرضه لنقد من ناحية القاضى منذر بن سعيد البلوطى ، وكان المعروف عن منذر شدة الصلابة فى احكامه ، والمهابة فى أقضيته ، وحرصه على القيام بالحق فى جميع ما يجرى على يده ، لا يهاب فى ذلك الامير الأعظم فمن دونه ، وكان الناصر قد انهمك فى الاهتمام بمبانيه ومنشآته حتى استغرق ذلك الاهتمام معظم أوقاته فتعطل عن شهود الجمعة بالمسجد الجامع الذى اتخذه ثلاث جمع متوالية ، فأراد منذر بن سعيد أن يغض منه بما يتناوله من الموعظة فأدخل فى خطبته فصلا مبتدئا بقوله تعالى :

(أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ؛ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ، وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ؛

---

(١) الجزء الثانى من « ازهار الرياض » صفحة ٢٦٨ .

فاتَّقُوا اللهَ وَأطِيعُونِ ، واتَّقُوا الَّذِى أمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ، أمدكم بأنعامٍ وَبَنِينَ ؛ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ؛ إنِّى أخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) ولاتقولوا (سَواءٌ ؛ عَلَينا أوَعَظْتَ أمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ) (قُلْ مَتَاعُ الدُّنيا قَلِيلٌ ؛ والآخِرَةُ خَيْرٌ لمن اتَّقَى) وهى دار القرار ؛ ومكان الجزاء

ووصل ذلك بكلام جذل ، وقول فصل ، ومضى فى ذم تشييد البنيان والاستغراق فى زخرفته ، والاسراف فى الانفاق عليه ، فجرى طلقا ، وانتزع فيه قوله تعالى (أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير) الآية وأتى بما يشاكل المعنى من التخويف بالموت ، والتحذير من فجأته، والدعاء الى الزهد فى هذه الدار الفانية ، والحض على اعتزالها ، والرفض لها ، والندب الى الأعراض عنها ، والاقصار عن طلب اللذات ، ونهى النفس عن اتباع هواها، فأسهب فى ذلك كله ، وأضاف اليه من آى القرآن ما يطابقه وجلب من الأحاديث والأثر ما يشاكله ، حتى أذكر من حضره من الناس .. وخضعوا ورقوا .. واعترفوا وبكوا ، وضجوا ودعوا ، وأعلنوا التضرع الى الله والتوبة ، والابتهال والمغفرة ، وأخذ الخليفة عبد الرحمن من ذلك بأوفر حظ ، وقد علم أنه المقصود ، فبكى وندم على ما سلف له من فرطه ، واستعاذ بالله من سخطه ، الا أنه وجد على منذر بن سعيد لغلظ ما

قرعه به ، فشكا ذلك الى ولده الحكم بعد انصرافه وقال له « والله لقد تعمدني منذر بخطبته ، وما عنى بهـا غيري ، فأسرف على ، وافرط في تقريعي ، ولم يحسن السياسة في وعظي، فزعزع قلبي، وكاد بعصاه يقرعني» ، واستشاط غيظا عليه ، فأقسم الا يصلى خلفه صلاة الجمعة خاصة فجعل يلتزم صلاتها وراء أحمد بن مطرف صاحب الصلاة بقرطبة ، ويجانب الصلاة بالزهراء .

فقال له الحكم « وما الذي يمنعك من عزل المنذر من الصلاة بك والاستبدال منه اذا كرهته ؟ » .

لم يسترح الناصر لهذا الرد، وزجر الحكم وانتهره قائلا أن « مثل منذر بن سعيد في خيره وفضله وعلمه لا أم لك ـ يعزل لارضاء نفس ناكبة عن الرشد، سالكة غير القصد؟ هذا ما لا يكون ، واني لأستحيي من الله ألا أجعل بيني وبينه في صلاة الجمعة شفيعا مثل منذر في ورعه وصدقه ، ولكنه قد أحرجني فأقسمت ، ولوددت اني أجد سبيلا الى كفارة يميني بملكي ، بل يصلي بالناس حياته وحياتنا ان شاء الله تعالى » .

ولم تكن هذه هي المرة الوحيدة التي اجترأ فيها منذر ابن سعيد على التصدي للناصر في ترامي نفوذه وضخامة سلطانه بالوعظ الصادع ليكف من اسرافه في الاقبال على انشاء القصور ، والمبالغة في زخرفتها وتجميلها .

فقد روى (١) القاضي النباهي أنه كان قد اتخذ لسطح القبيبة التي كانت مائلة على الصرح الممرد المشهور شأنه

---

(١) الجزء الثاني من ازهار الرياض صفحة ٢٨٠/٢٨١ .

بقصر الزهراء قراميد مغشاة ذهبا وفضة ، أنفق عليها مالا جسيما ، وقرمد سقفها به ، وجعــل سقفها صفراء فاقعة الى بيضاء ناصعة ، فتستلب الأبصار بأشعة أنوارها ، وجلس فيها اثر تمامها يوما لأهل مملكته ، فقال لقرابته ومن حضر من الوزراء وأهل الخدمة ، مفتخرا عليهم بما صنعه من ذلك « هل رأيتم أو سمعتم ملكا كان قبلى فعل مثل هذا أو قدر عليه ؟ » .

فقالوا « لا والله يا أمير المؤمنين ، وانك لأوحد فى شأنك كله ، وما سبقك الى مبتدعاتك هــذه ملك رأينــاه ، ولا انتهى الينا خبره » .

فأبهجه قولهم وسره،

فبينما هو كذلك اذ دخل عليه القاضى منذر بن سعيد واجما ناكس الرأس ، فلما أخذ مجلســه ، قال له كالذى قاله لوزرائه وقرابته من ذكر السقف المذهب ، واقتداره عــلى ابداعه ، فأقبلت دموع القاضى تنحدر على لحيته .

وقال له « والله يا أمير المؤمنين ما ظننت أن الشيطان لعنه الله يبلغ منك هذا المبلغ ، ولا أن تمكنه من قيادك هذا التمكين ، مــع ما آتاك الله من فضله ونعمته ، وفضلك به على العالمين حتى ينزلك منازل الكافرين » .

فانفعل عبد الرحمن لقوله وقال له « انظر ما تقــول ، وكيف أنزلتنى منزلتهم ؟ »

فقال له منذر « نعم أليس الله تعالى يقول « ولولا ان يكون النــاس أمة واحــدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون »

فوجم الخليفة ، واطرق مليا ، ودموعه تتساقط ، خشوعا لله سبحانه ، ثم أقبل على منذر وقال له « جزاك الله يا قاضي عنا وعن نفسك خيرا ، وعن الدين والمسلمين أجمل جزائه ، وكثر في الناس أمثالك ، فالذى قلت هو الحق » .

وقام عن مجلسه ذاك وهو يستغفر الله تعالى ، ويأمر بنقض سقف القبيبة ، وأعاد قرمدها ترابا على صفة غيرها .

وحضر منذر مع الناصر يوما فى الزهراء ، فقام الرئيس أبو عثمان بن ادريس فانشد الناصر قصيدة منها :

سيشهد ما أبقيت أنك لم تكن
مضيعا وقد مكنت للدين والدنيا

فيا لجامع المعمور للعلم والتقى
وبالزهرة الزهراء للملك والعليا

فاهتز الناصر وابتهج ، وأطرق منذر بن سعيد ساعة، ثم قام منشدا :

يا بانى الزهراء مستغرقا
أوقاته فيها أما تمهل

لله ما أحسنها رونقا
لو لم تكن زهرتها تذبل

فقال الناصر « اذا هب عليها نسيم التذكار والحنين ، وسقتها مدامع الخشوع ، يا ابا الحكم لا تذبل ان شاء الله تعالى » .

فقال منذر « اللهم اشهد انى قد بثثت ما عنــدى ولم آل نصحا »

ويعلق المقرى على ذلك فى النفح بقوله (١) « ولقد صدق القاضى منذر رحمه الله تعالى فيما قال ، فانها ذبلت بعــد ذلك فى الفتنة ، وقلب ما كان فيها من منحة محنة »

ويروى أن بعض الأولياء فى عصر المنصور بن أبى عامر مر بالزاهرة التى بناها المنصور كما بنى الناصر الزهراء ، ونظر الى مصانعها السامية الفائقة ، ومبانيها العالية الرائقة فقال « يا دار فيك من كل دار ، فجعل الله منك فى كل دار» فلم تكن بعد دعوة ذلك الرجل الصالح الا أيام يسيرة حتى نهبت ذخائرها ، وعــم الخراب ســائرها ، فلم تبق دار فى الأندلس الا ودخلها من فيئها حصة كثيرة أو قليلة ، وتحقق دعاء ذلك الرجل ، وحكى أن بعض ما نهب منها بيع ببغــداد وغيرها من البلاد المشرقية ، وواضح من ذلك أن شــدة ولع الناصر باشادة المبانى الفخمة، والاكثار من التأنق فىزخرفتها وتجميلها ، والانفاق عليها ، كان لا ينظر اليه رجال الدين نظرة ارتياح وقبول ، وقد عبر منذر بن سعيد بصراحته المعهــودة عن وجهة نظرهم ، وقد تتعارض فى بعض الأمور وجهة نظر أصحاب الأمزجة الفنية ووجهة نظر المطبوعين على التشــدد فى الدين ، وفى رأى كل منهم جانب من الحق وحظ من الصــدق .

وقد أشار الى الزهراء الوزير الشاعر ابن زيدون (٢) بقوله فى قصيدة طويلة :

---

(١) الجزء الثانى من نفح الطيب صفحة ١١١ .

(٢) الجزء الثانى من نفح الطيب صفحة ١٥٥/١٥٦ .

ألا هـل الى الزهـراء أوبة نازح
تقضي تنائيهـا مدامعـه نزحـا

مقاصير ملك أشرفت جنباتهـا
فخلنا العشايا الجون اثناءها صبحا

يمثل قرطيها لى الوهم جهرة
فقبتها فالكواكب الرحب فالسطحا

محل ارتيـاح يذكر الخـلد طيبه
اذا عز أن يصدى الفتى فيه أو يضحى

هناك الجمام الزرق تندى حفافها
ظلال عهـدت الدهر فيها فتى سمحا

تعوضت من شـدو القيان خلالها
صدى فلوات قد أطار الكرى صبحا

ويروى المقـرى(١) عن محيى الدين بن عـربى فى المسامرات انه قال « قرأت على مدينة الزهراء بعد خرابها وصيرورتها مأوى الطير والوحش ، وبناؤها عجيب فى بلاد الأندلس ، وهى قريبة من قرطبة ، أبياتا تذكر العقل وتنبه الغافل ، وهى :

ديار بأكنـاف المـلاعب تلمـع
فيصمت أحيانا وحينـا يرجـع

(١) الجزء الثانى من نفح الطيب صفحة ٦٤ .

ينـوح عليها الطـير من كل جـانب

وما ان بها من سـاكن وهى بلقـع

فخاطبت منهـا طائـراً متغـردا

له شـجن فى القلب وهـو مروع

فقلت : على ماذا تنـوح وتشـتكى ؟

فقـال : على دهر مضى ليس يرجـع

عبد الرحمن الناصر
بين وزرائه وقضاته وقواده

كانت الوزارة في مدة بني أمية مشتركة في جماعة يعينهم صاحب الدولة للاعانة والمشاورة ، ويخصهم بالمجالسة ويختار منهم شخصا لمكان النائب المعروف بالوزير فيسميه الحاجب ، وكانت هذه المراتب لضبطها عندهم كالمتوارثة في البيوت المعلومة لذلك، وكانت الكتابة على ضربين اعلاهما كاتب الرسائل ، وله مكانه عند أهل الأندلس ، وأشرف أسمائه الكاتب .

ويقول المقرى ان أهل الاندلس كانوا كثيرى النقد لصاحب هذه السمة ، لايكادون يغفلون عن عثراته فان كان ناقصا عن درجات الكمال لم ينفعه جاهه ولا مكانه من سلطانه من تسلط الالسن في المحافل ، والطعن عليه ، وعلى صاحبه ، والكاتب الآخر كاتب الزمام وكان أغلبهم بالأندلس وبر العدوة من النصارى واليهود .

وصاحب الأشغال الخراجية في الاندلس أعظم من الوزير وأكثر أتباعا ، وأجدى منفعة ، وكانت خطة القضاء بالأندلس أعظم الخطط عند الخاصة والعامة لتعلقها بأمور الدين ، وكون السلطة لو توجه عليه حكم حضر بين يدى القاضي ، وكان تقدير الأمراء الأمويين للقضاة من سمات الحكم الأموى المشرفة بالأندلس .

وكانت هناك خطة الشرطة ، ويعرف صاحبها بالأندلس في ألسن العامة بصاحب المدينة وصاحب الليل ، واذا كان عظيم القدر عند السلطان كان له القتل لمن وجب عليه دون استئذان السلطان ، ولكن ذلك كان قليلا ، ولا يكون الا في حضرة السلطان الاعظم وهو الذى يحد على الزنى وشرب الخمر وكثير من الأمور الشرعية راجع اليه ، وقد صارت تلك عادة تقرر عليها رضا القاضى ، وكانت خطة القاضى أوقر وأتقى عندهم من ذلك .

وخطة الاحتساب كانت عندهم موضوعة فى أهل العلم والفطن وكأن صاحبها قاض والعادة فيه أن يمشى بنفسه راكبا فى الاسواق وأعوانه معه وميزانه الذى يزن به الخبز فى يد أحد أعوانه لأن الخبز عندهم كان معلوم الوزن ومعروف الثمن وكذلك اللحم كانت توضع عليه ورقة بسعره فلا يجسر الجزار أن يبيع بأكثر أو دون ما حد له المحتسب فى الورقة والذى يخالف ذلك تحل به العقوبة الشديدة الرادعة .

وقد اشتهر وبرز فى عهد الناصر طائفة من الوزراء والقضاة والقواد ، وكان فى طليعة هؤلاء الوزراء موسى بن محمد بن حدير وقد استحجبه الناصر واستوزر عبد الملك بن جهور وأحمد بن عبد الملك بن شهيد وقد أهدى له ابن شهيد هديته المشهورة المتعددة الاصناف ، وقد عنى بالتحدث عنها ابن حيان المؤرخ الاندلسى وابن خلدون وغيرهما من المؤرخين والواقع أن هذه الهدية تدل على ضخامة الدولة الأموية كما قال ابن خلدون وكان تقديم هذه الهدية للناصر فى سنة ٣٢٧ هـ وقد اشتهر ذكرها ، واتفق على أنه لم يهاد أحد من ملوك الاندلس بمثلها ، وقد أعجبت الناصر وأهل مملكته جميعا ، وأقروا أن نفسا لم تسمح باخراج مثلها ضربة عن

يدها ، وقد أرفق ابن شهيد رسالة يعترف فيها للناصر بالنعمة والشكر عليها ، وصادفت هذه الرسالة استحسان الناس فكتبوها ، وزاد الناصر وزيره هذا حظوة واختصاصا ، وأسمى منزلته على سائر الوزراء ، وأضعف له مرتب الوزارة وبلغه ثمانين ألف دينار أندلسية ، وسماه ذا الوزارتين ويقول المقرى (١) "انه أول من تسمى بذلك فى الأندلس امتثالا لاسم صاعد بن مخلد وزير بنى العباس ببغداد ، وأمر بتصدير فراشه فى البيت وتقديم اسمه فى دفتر الارتزاق أول التسمية فعظم مقداره فى الدولة .

وتختلف الروايات فيما اشتملت عليه هذه الهدية العظيمة ، وفى رواية ابن خلدون انها حوت خمسمائة ألف مثقال من الذهب العين وأربعمائة رطل من التبر ، ومصارفة خمسة وأربعين ألف دينار ، ومن سبائك الفضة مائتى بدرة واثنى عشر رطلا من العود الهندى يختم عليه كالشمع ومائة وثمانين رطلا من العود المتخير ومائة رطل من العود شبه المنتقى ومائة أوقية من المسك الزكى المفضل فى جنسه وخمسمائة أوقية من العنبر الاشهب الباقى على خلقته من غير صناعة ، ومنها قطعة عجين ململمة الشكل وزن مائة أوقية ، ومن اللباس ثلاثين شقة من الحرير المختم المرقوم بالذهب كلباس الخلفاء المختلف الألوان والصنائع ، وعشرة أفرية من غالى جلود الفنك الخراسانية ، وستة من السرادقات العراقية وثمانية وأربعين من الملاحف البغدادية لرتبة الخيل ، وأربعة آلاف رطل من الحرير المغزول ، وألف رطل من لون الحرير المنتقى للاستغزال ، ومائة قطعة مصليات من وجوه الفرش المختلفة ، وخمسة عشر من نخاخ الخز المقطوع شطرها ، ومن

(١) الجزء الاول من نفح الطيب صفحة ٣٦٣ .

السلاح والعدة ثمانمائة من التجافيف المزينة لأيام البروز والمواكب، وألف ترس سلطانية ومائة ألف سهم من النبال البارعة الصنعة ، وخمسة عشر فرسا من الخيل العراب المتخيرة لركاب السلطان فائقة النعوت، ومائة فرس من الخيل التي تصلح للركوب في التصرف والغزوات ، وعشرين من بغال الركاب مسرجة ملجمة لمراكب الخلافة مجالس سروجها خز جعفري عراقي ، ومن الرقيق أربعين وصيفا وعشرين جارية من متخير الرقيق بكسوتهم وجميع آلاتهم ، ومن أصناف هذه الهدية قرية تغل آلافا من أمداد الزرع ومن الصخر للبنيان ما أنفق عليه في عام واحد ثمانون ألف دينار وعشرون ألف عود من الخشب من أجمل الخشب وأصيله وأقومه قيمتها خمسون ألف دينار .

ويضيف ابن الفرضي أشياء أخرى على ما ذكره ابن خلدون . ويقول المقرى (١) : « ان ابن الفرضي أعرف لأنه استند الى كتاب المهدى ، وصاحب البيت أدرى .

وفي آخر كتاب ابن شهيد « لما علمت تطلع مولاى - أيده الله تعالى - الى قرية كذا بالقنبانية وترداده لذكرها لم أهنأ بعيش حتى أعملت الحيلة في ابتياعها بأجوازها واكتتبت الوثيقة فيها باسمه وضمها الى ضياعه وكذلك صنعت في قرية شيرة في منطقة جيان عندما اتصل بي من وصفه لها وتطلعه اليها ، فما زلت أتصدى لمسرته بها حتى ابتعتها الآن بأجوازها وجميع منازلها وربوعها .. ولما علمت نافذ عزمه في البنيان وكلفه به ، وفكرت في اعداد الاماكن التي تتطلع نفسه الكريمة الى تخليد آثاره في بنيانها - مد الله تعالى في عمره وأوفى به على أقصى أمله - علمت ان اسمه

---

(١) الجزء الاول من نفح الطيب صفحة ٣٣٥ .

وقوامه الصخر والاستكثار منه ، فأثارت لى همتى ونصيحتى حكمة حيلة أحكمها سعدك وجدك اللذان يبعثان ما لا يتوهم عليه حيلة أقيم لك فيها بعام واحد عدد ما كان يقوم على يدى عبـدك ابن عاصم فى عشرين عاما ، وينتهى تحصيل النفقة فيه الى نحو الثمانين ألفا أعجل شأنه فى عام ، سوى التوقير العظيم الذى يبديه العيان ان شاء الله تعالى ، وكذلك ما ثاب الى فى أمر الخشب لهذه المنيـــة المكرمة ، فان ابن خليــــل عبدك المجتهد الدؤوب انتهى فى تحصيل عدد ما تحتاج اليــه ثلاثمائة ألف عـود ونيف على عشرين ألف عـود ، على أنه لا يدخل منه فى السنة الا نحو الألفى عود ، ففتح له سعدك رأيا أقيم له بتمامه جميع هذا الخشب العام على كماله بورود الجليبة لوقتها ، وقيمته على الرخص ما بين الخمسين ألفـــا الى الستين ألفا » .

وأحمد بن عبد الملك بن شهيد مقدم هذه الهدية العظيمة قديم الصلة بالأمويين ، ويقول (١) الرازى المؤرخ الاندلسى ان جد أسرته مولى معاوية بن مروان بن الحكم ، وشهيد بن عيسى هو الداخل الى الاندلس فى أيام عبد الرحمن الداخل ،وتصرف بنوه للخلفاء فى الخطط السنية من الامارة والحجابة والوزارة والكتابة الى انقراض الدولة الأموية بالأندلس .

وتصرف أحمد هذا للناصر فىولاية الكور والوزارة وقود الصوائف ، وغزا البشكنس وكان من أهل الأدب البارعين ، وهو الجـد الأدنى للشاعر الأندلسى أحمد بن شهيد صاحب رسالة التوابع والزوابع .

---

(١) الجزء الاول من الحلة السيراء صفحة ٢٣٨ .

ويحدثنا الفتح بن خاقان فى المطمح قائلا (١) « أحمد ابن عبد الملك بن عمر بن شهيد مفخر الامامة ، وزهر تلك الكمامة ، وصاحب الناصر عبد الرحمن ، وحامل الوزارتين على سموهما فى ذلك الزمان ، استقل بالوزارة على ثقلها ، وتصرف فيها كيف شاء على حد نظرها والتفات مقلها ، فظهر على أولئك الوزراء ، واشتهر مع كثرة النظراء ، وكانت امارة عبد الرحمن أسعد امارة ، بعد عنها كل نفس بالسوء أمارة فلم يطرقها صرف ، ولم يرمقها بطرف ، ففرع الناس فيها هضاب الأماني ورباها ، ورتعت ظباؤها ، فى ظلال ظباها ، وهو أسد على براثنه رابض، وبطل أبدا على قائم سيفه قابض، يروع الروم طيفه ، ويجوس خلال تلك الديار خوفه ، ويروى من نجيعهم كل آونة سيفه ، وابن شهيد ينتج الآراء ويلقحها ، وينقد تلك الأنحاء وينقحها ، والدولة مشتملة بغنائه ، متجملة بسنائه ، وكرمه منتشر على الآمال ويكثر الأولياء بذلك الاجمال وكان له أدب تزخر لججه ، وتبهر حججه ، وشعر رقيق لا ينقد ويكاد من اللطافة يعقد ، فمن ذلك قوله :

ترى البدر منها طالعا فكأنما
يجول وشاحاها على لؤلؤ رطب
بعيدة مهوى القرط مخطفة الحشى
ومفعمة الخلخال مفعمة القلب
من اللائى لم يرحلن فوق رواحل
ولا سرن يوما فى ركاب ولا ركب
ولا أبرزتهن المدام لنشوة
فتشدو كما يشدو القيان على الشرب

---

(١) المطمح صفحة ٩/١٠ والجزء الأول من النفح صفحة ٣٥٦/٣٥٧ .

وكان بينه وبين الوزير عبد الملك بن جهور ـ متولى الأمر معه ومشاركه فى التدبير اذا حضر مجتمعه ـ منافسة ، لم تنفصل لهما بها مداخلة ولا ملابسة ، وكلاهما يتربص بصاحبه دائرة السوء ، ويغص به غصص الأفق بالنوء ، فاجتاز يوما على ربضه ، ومال الى زيارته ولم تكن من غرضه ، فلما استأمر عليه ، تأخر خروج ، الاذن اليه ، فثنى عنانه حنقا من حجابه وضجرا من حجابه ، وكتب اليه معرضا ، وكان يلقب بالحمار :

أتيناك لا عن حاجة عرضت لنا
اليك ولا قلب اليك مشوق
ولكننا زرنا بفضل حلومنا
فكيف تلاقى برنا بعقوق

فراجعه ابن جهور يغض منه بقوله :

حجبناك لما زرتنا غير تائق
بقلب عدو فى ثياب صديق
وما كان بيطار الشآم بموضع
يباشر فيه برنا بخليق

وكان يشاع أن جد أحمد بن شهيد وضاحا كان يعمل بيطارا فى الشام قبل أن يخدم معاوية بن مروان بن الحكم ويدخل فى ولائه .

ومن وزراء الناصر عبد الوهاب بن محمد بن عبد الوهاب ابن عبد الرءوف وهو من بيت من بيوت الأندلس الكبيرة وكان قومه من الظاهرين بين الشاميين من موالى الأمويين، وقد تصرف عبد الوهاب للناصر فى الولايات والأمانات ثم استوزره وكان بصيرا بالعربية ، طالع كتاب سيبويه ونظر فيه ، وكان لا يزال يورد على أصحابه من الوزراء مسائل من عويص النحو

حتى برموا منه ، واستعفوه من ذلك ، وله فى تهنئة الناصر بابنه الحكم قوله :

ليهنى الناس فى ملكه
ان ابنه التاسع من بعده

يقوم فى الملك مقاماته
ويحتذى فيها على قصده

أوتى حكما فات فيه الورى
فكاد أن ينطق فى مهده

حمل أعباء العلى فاكتفى
عفوا ولم يبلغ الى جهده

ومنهم موسى بن محمد بن سعيد بن موسى ، وكان جده موسى من موالى عبد الرحمن الداخل ، وكان موسى الوزير مع رئاسته وجلالته ونباهة سلفه واستعمالهم فى الكور وسنيات الخطط من أهل العلم والأدب والشعر ، وأول ما تصرف فيه للأمير عبد الله خطة القطع . ثم ولى خطة المدينة ، وعزل عنها وأعيد اليها ، ولما أفضت الخلافة الى الناصر أقره على المدينة واستوزره يوم استخلافه ثم استحجبه عند وفاة بدر فى سنة ٣٠٩ هـ فاضطلع وكفى .

وكان الوزير عبد الملك بن جهور يقول : « ما رأيت مثل موسى ، لم يجمعه أمير المؤمنين مع أحد الا كان المستحوذ على المجلس فى الجد والهزل .

وتوفى للنصف من صفر سنة ٣٢٠ ولم يستحجب الناصر بعده أحدا ، وكان بحجبه عند قعوده لسلام الأجناد .. ولوفود الأطراف ، ورسل الأمم وأصحاب الخيل والمدينة

والشرطة العليا والوسطى على مراتبهم مع سائر الخدمة ، ومن شعره يمدح عبد الرحمن الناصر ويذكر هيبته :

اذا ما فرجت خلل الستور
ولاح وقد تمكن فى السرير

ترى الأملاك مائلة لديه
بأعنـــاق الى الغبراء صـور

كأنهم لغيبته قـد أوفـوا
من الموت آلزغاف على شفير

ومن وزراء الناصر الذين كان يعتمد عليهم فى مختلف الخطط بدر بن أحمد الصقلى ، وكان بدر وصيفا للأمير عبد الله جد عبد الرحمن ، فاعتقه وصرفه فى الخطط الشريفة ، وعندما تولى عبد الرحمن الامارة رقى بدرا الى الحجابة وأجرى رزقـا لولديه — أى مرتبا — عبد الرحمن وعبد الله — وبعد ذلك بقليل ولى عبد الرحمن بن بدر خطة الخيل وفى السنة نفسهــا — سنة ٣٠٠ — استخلف عبد الرحمن بن بدر مع موسى بن محمد بن حدير صاحب المدينة على القصر عندما خـرج فى حملته الى ناحية جيان ٠٠ وفى سنة ٣٠٢ عزل عبد الرحمن عن خطة الخيل ، ثم انتقل فى الوظائف بعد ذلك وكانت آخر وظيفة تولاها حكومة اشبيلية ، ويقول ابن عذارى عن علاقـة الناصر ببدر « وكان اصـطفى مولاه بدرا ، وجعله شمسـا لملكه وبدرا ، وقلده خطة الحجاب ، وجعل له النفى والايجاب، فشد ملكه بقوة ساعده (١) » ٠

ومن أشهر قواده وأقدرهم أحمـد بن يعلى الذى اقتحم جليقية فى سنة ٣٣٩ هـ وكان قائدا للأسطول الذى أرسله

(١) الجزء الثانى من البيان المغرب صفحة ٣٣٤ ٠

عبد الرحمن سنة ٣٤٧ هـ لمحاربة الشيعى معد بن اسماعيل صاحب افريقية ، وكان أحمد بن يعلى صاحب الشرطة فاختاره الناصر لقيادة الأسطول ، وقد ولاه الناصر طليطلة فى سنة ٣٤٣ هـ ، وحين ولاه الناصر طليطلة ولى ابنه عبيد الله ما كان بيد أبيه من الاشراف على ناحية بطليوس وأعمالها ، ورفع رزقه الى أرزاق الوزراء مع مقامه على خطته فى الشرطة العليا وسمى قائد الأعنة وأغنى عبيد الله فى قتال الروم غناء أبيه ، وكان أديبا شاعرا ، وهو القائل (١) فى أوليائه الأمويين :

ترى الأرض فينا لا يقر قرارها
اذا لم يسسها من أمية سائس

ذوو الهضبات الشم والأبحر التى
تفيض ملاء والملوك الأشاوس

هم ذهبوا بالمكرمات ولم يزل
لهم جبل العز القديم القدامس

وهم نزلوا من خندف حيث تلتقى
رءوس قصى فى الذرى والمغاطس

وهم غمسوا فى جفنة الطيب قبل أن
يرى أحد من قومهم وهو غامس

وهم أوقدوا حرب الفجار حفيظة
فقامت بها أعياصهم والعنابس

بها ليل ما ان يستضيف اليهم
بما شيدوا الا الخصال النفائس

(١) الجزء الأول من الحلة السيراء صفحة ٢٥٦/٢٥٧ .

اذا سوجلوا لم يحتملهم مساجل
وان قويسوا لم يستطعهم مقايس

تطيف بهم ساحات مكة في العلا
وتكنفهم منها الهضاب الأمالس

ومن قواده أحمد بن محمد بن أبي عبدة الوزير القائد ، وهو صاحب غزوة الصائفة في سنة ٣٠٥ هـ وقد أجلب فيها مسيحيو الشمال بخيلهم ورجلهم على الجيش الاسلامي فتداعى بعض الذين كان في قلوبهم مرض من أهل الثغور الى الهزيمة، وجروها على الجيش فانهزم كثير منهم ، وأبى القائد الهمام أن يترك ميدان القتال وثبت وأظهر الصبر ودافع مدافعة الأبطال حتى استشهد ٠

ومن قواده في البر والبحر أحمد بن محمد بن الياس وكان أحد القائدين اللذين جازا مرسى الجزيرة الخضراء واحتلا العدوة ، وحاصرا ابن أبي العيش في سنة ٣١٩ هـ وفي سنة ٣٢٩ هـ ، كان من القواد الذين شاركوا في محاربة راميرو ٠

ومن وزراء الناصر البارزين جهور بن أبي عبدة وأحمد ابن فطيس والكاتب عبد الرحمن الزجالي، وكان ينظر في تنفيذ كل ما يخرجه الناصر من العهود والتوقيعات وينفذ به الأمر ، وتولى محمد بن حدير النظر في مطالب الناس وحوائجهم وتنجيز التوقيعات لهم ويقول ابن عذارى : انه بذلك «(١) اعتدل ميزان الخدمة وسهلت مطالب الرعية » ٠

ومنهم غالب الناصري وهو الذى قاد في سنة ٣٤٦ هـ

(١) الجزء الثاني من ابن عذارى صفحة ٣٢٩ ٠

الحملة الى فحص السرادق ففتح الحصون وقتل المقاتلة ، وكان غالب يعد من أقدر قواد الأندلس وقد برز لذلك فى عهـــد الحكم المستنصر ، واختلف في عهد هشام الثاني حفيد الناصر مع الحاجب المنصـــور وقضى نحبه في المعركة التى دارت بينه وبين المنصور ٠

ومن ولاة اشبيلية اسماعيل بن بدر وكان مولى نعمة لبنى أمية ، وعاش الى دولة الحكم المستنصر وكان أثيرا عند عبد الرحمن ، وله فيه أبيات من الشعر يقول فيها (١) :

لو كان يعبـــد دون الله من أحـــــد
ما كان غيرك فى الدنيـــا بمعبود

قد فات قدرك وصف الواصفين
فما ذكراك الا بتحميد وتمجيد

لما ذكرتك يوما قلت من جذل
يا نعمة الله فى أيامه زيدى

وكانت وظيفة القضاء عند الأندلسيين أكبر الوظائف ، وأسماها لصلتها بالدين ومحافظتها على أحكامه ؛ ولذلك كان للقضاء سلطة كبيرة ، وكان القاضى يستطيع احضار الخليفة أو الأمير ليناقشه ويقاضيه ويستمع لحجته ، وقد ذكرت فى الفصل السابق تصدى القاضي منذر بن سعيد للناصر بالانكار واللوم الشديد لاسرافه فى الاشتغال بالبناء وفرط عنايته به فقـــد خشي منذر أن يصرفه ذلك عن الاهتـــمام بمشـــكلات السياسة والنظر فى ما يعود على الشعب بالخير ، ومن مشهور

---

(١) الجزء الأول من الحلة السيراء صفحة ٢٥٤ ٠

ما جرى لمنذر بن سعيد مع الناصر قصته فى أيتام (١) أخى نجدة ، وقد رواها أهل العلم والرواية ، ومضمونها أن الخليفة الناصر احتاج الى شراء دار بقرطبة لحظية من نسائه لها منزلة عالية فى نفسه فوقع استحسانه لدار كانت لأولاد زكريا أخى نجدة ، وكانت بقرب النشارين فى الربض الشرقى لقرطبة منفصلة عن دوره ، فأرسل الناصر من قومها له ، وأرسل ناسا من قبله أمرهم بمداخلة وصى الأيتام فى بيعها ، فذكر لهم الوصى أنه لا يجوز البيع الا بأمر القاضى وبعد مشورته ، فأرسل الخليفة الى القاضى منذر بن سعيد فى بيع هذه الدار فقال منذر لرسول الخليفة « البيع على الأيتام لا يصح الا لوجوه منها الحاجة ، ومنها الوهى الشديد ومنها الغبطة (أى المنفعة الظاهرة) ، فأما الحاجة فلا حاجة لهؤلاء الأيتام الى البيع ، وأما الوهى فليس فيها ، وأما الغبطة فهذا مكانها ، فان أعطاهم أمير المؤمنين فيها ما تستبين به الغبطة أمرت وصيهم بالبيع ، والا فلا » .

ونقل جوابه الى الخليفة الناصر ، فأظهر الزهد فى شراء الدار طمعا فى أن يعمل على توخى رغبته فيها ، وخاف منذر أن تنبعث عزيمة عند الناصر وتشتد به رغبة يلحق الأيتام ثورتها ، فأمر وصى الأيتام بنقض الدار وبيع أنقاضها ، ففعل الوصى ذلك ، وباع الأنقاض ، فكانت لها قيمة أكثر مما قومت به للسلطان .

واتصل الخبر بالناصر فعز عليه خراب الدار وهدمها ، وأمر بتوقيف الوصى على ما أحدثه بها ، فأحال الوصى على القاضى أنه أمره بذلك .

---

(١) الجزء الثانى من النفح صفحة ٢٢٣/٢٢٤ .

فأرسل الناصر الى القاضى منذر وقال له « أأنت أمرت بنقض دار أخى نجدة ؟

فقال منذر « نعم » .

فقال الناصر « وما الذى دعاك الى هذا ؟ » .

فقال منذر « أخذت فيها بقوله تعالى « أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا » ومقوموك لم يقوموها الا بكذا وبذلك تعلق وهمك ، وقد نض فى أنقاضها أكثر من ذلك ، وبقيت القاعة والحمام فضلا ونظر الله تعالى للأيتام » .

وكان عبد الرحمن يقدر نزاهة منذر ويعرف أنه لا يخاف فى الله لومة لائم ، فكبح جماح نفسه ، وصبر على هذه المخالفة لرغبته وقال « نحن أولى من انقاد الى الحق ، فجزاك الله تعالى عنا وعن أمانتك خيرا » .

وقد روى المقرى (١) أن الناصر لما أعذر لأولاد ابنه أبى مروان عبيد الله اتخذ لذلك صنيعا عظيما بقصر الزهراء لم يتخلف عنه أحد من أهل مملكته ، وأمر أن ينذر لشهوده الفقهاء المشاورون ومن بينهم من العلماء والعدول ووجوه الناس ، فتخلف من بينهم المشاور أبو ابراهيم ، وافتقد مكانه لارتفاع منزلته ، ولحظ ذلك عبد الرحمن فسأل عنه لأنه كان من أكابر علماء المالكية الذين عليهم المدار ، وكان المذهب المالكى هو المذهب السائد فى الأندلس ، ووجد الناصر بسبب ذلك على أبى ابراهيم ، وأمر ابنه وولى عهده الحكم بالكتابة

(١) الجزء الأول من نفح الطيب صفحة ٣٥٢/٣٥٣ .

اليه والتفنيد له ، فكتب اليه الحكم « رقعة يقول فيها «بسم الله الرحمن الرحيم ، حفظك الله وتولاك وسددك ورعاك لما امتحن أمير المؤمنين مولاى وسيدى ـ أبقاه الله ـ الأولياء الذين يستعد بهم ، وجدك متقدما فى الولاية ، متأخرا عن الصلة ، على أنه قد أنذرك ـ أبقاه الله ـ خصوصا للمشاركة فى السرور الذى كان عنده ، لا أعدمه الله توالى المسرة ، ثم أنذرت من قبل ابلاغا فى التكرمة ، فكان منك على ذلك كله من التخلف ما ضاقت عليك فيه المعذرة ، واستبلغ أمير المؤمنين فى انكاره ومعاتبتك عليه فأعيت على عنك الحجة ، فعرفنى ـ أكرمك الله ـ ما العذر الذى أوجب توقفك عن اجابة دعوته ، ومشاهدة السرور الذى سر به ورغب المشاركة فيه ، لتعرفه أبقاه الله بذلك ، فتسكن نفسه العزيزة اليه ان شاء الله تعالى » .

فأجابه أبو ابراهيم « سلام على الأمير سيدى ورحمة الله ، قرأت أبقى الله الأمير سيدى هذا الكتاب وفهمته ، ولم يكن توقفى لنفسى ، انما كان لأمير المؤمنين سيدنا أبقى الله سلطانه لعلمى بمذهبه ، وسكونى الى تقواه ، واقتفائه لأثر سلفه الطيب رضوان الله عليهم ، فانهم يستبقون من هذه الطبقة ببقية لا يمتهنونها بما يشينها ، ولا بما يغض منها ، ويطرق الى تنقيصها ، يستعدون بها لدينهم ويتزينون بها عند رعاياهم ومن يفد عليهم من قصادهم ، فلهذا تخلفت ، ولعلمى بمذهبه توقفت أن شاء الله تعالى » .

فلما أقرأ الحكم أباه الناصر جواب أبى ابراهيم اسحاق أعجبه ، واستحسن اعتذاره وزال ما بنفسه منه .

ويمكن أن نتبين من خلال ذلك أن الناصر كان يختار

وزراءه وقضاته وقواده ومستشاريه من العلماء ومن الرجال ذوى الكفايات والخلق المتين ولا يفسد ما بينه وبينهم اذا صارحوه بآرائهم التى قد تختلف عن وجهة نظره ، ولا تطابق رأيه ، وكان هذا مما أعانه على تجديد بناء دولته ، وتوطيد مكانته ٠

الثقافة الأندلسية
فى عهد عبد الرحمن الناصر

كان عهد الناصر وابنه الحكم العصر الذهبى فى تاريخ الأندلس ، فقد ازدهرت فيه الحضارة الأندلسية وبلغت الذروة ويرجع ذلك الى المجهود الضخم الذى يكاد يكون فوق طاقة البشر الذى بذله عبد الرحمن الناصر فى توطيد سلطته ، وقد سار ابنه الحكم الذى أحكم الناصر تنشئته وأحسن تربيته على مثال أبيه مقتفيا آثاره مستكملا لخططه ٠

وقد ولى الناصر الحكم فى ظروف حرجة قاسية توزعت فيها السيطرة بين زعماء القبائل العربية والبربرية وزعماء المولدين حتى أصبح الكثير من الأقاليم مستقلا عن امارة قرطبة أو كالمستقل عنها واشتعلت الثورات فى كل ناحية حتى كادت تعصف بالحكم الأموى فى الأندلس أو بالحكم الاسلامى جميعه ، وبرغم أن الناصر كان فى باكورة الشباب فانه استطاع بحزمه وعزمه وثبات جنانه ورجاحة تفكيره أن ينقذ الأندلس من مخالب الفوضى ويرد عليها الأمن الضائع والاستقرار المفقود ، وساعده الحظ بموت العتاة من الثائرين أمثال ابن حفصون الذى استقل بناحية ببشتر وابن

حجاج الذى استقل باشبيلية وابن جودى الذى استقل بغرناطة

وقد استطاع الناصر أن يعيد الى الأندلس وحدتها وينتصر على عوامل التفرقة العنصرية التى كانت ما تنفك تعمل على صدع هذه الوحدة والقضاء عليها وبذلك استطاع أن يمهد السبيل لوجود « الأمة الأندلسية » ، كما استطاع فى الخارج أن يدفع خطر مملكتى ليون ونافار عن الحدود الشمالية ويقاوم الخطر الفاطمى الذى هدد الأندلس من الجنوب .

وفي ظل الأمن والطمأنينة أقبل الناس على مباشرة أعمالهم في جد ونشاط فتحسنت الأحوال الاقتصادية ، وعم الرخاء ، وساعد ذلك كله على فراغ المؤلفين للبحث والتأليف ، وقد عرف الناصر بتشجيعه للعلماء والباحثين فى كل ناحية من نواحى العلم وجانب من جوانب الثقافة ، ولم يبلغ أحد من الخلفاء مبلغ ابنه الحكم المستنصر فى سعة الاطلاع ، والاقبال على العلم ، وفرط العناية باقتناء الكتب ، وكان يدفع فى شرائها أغلى الأثمان كما فعل مع أبى الفرج الأصفهانى حينما وجه اليه ألف دينار ليرسل اليه نسخة من كتاب الأغانى ، وقد حضر أبو على القالى سنة ٣٤٠ هـ (٩٤١ م) الى الأندلس ورحب الخليفة عبد الرحمن بقدومه واحتفى به ، وحينما وفد على الأندلس (١) أمر الحكم بن الناصر — وكان يتصرف عن أمر أبيه الناصر كالوزير — عاملهم ابن رماحس أن يجىء مع أبى على الى قرطبة ويتلقاه فى وفد من وجوه رعيته ينتخبهم من بياض أهل الكورة تكرمة لأبى على ، ففعل وسار معه نحو قرطبة فى موكب

(١) الجزء الرابع من نفح الطيب صفحة ٧٠/٧١ .

نبيل ، فكانوا يتذاكرون الأدب فى طريقهم ويتناشدون الأشعار ، الى أن تحاوروا يوما وهم سائرون حول أدب عبد الملك ابن مروان ومساءلته جلساءه عن أفضل المناديل، وانشاده بيت عبدة بن الطبيب :

ثمت قمنا الى جرد مسومة

أعرافهن لأيدينا مناديل

وكان الذاكر للحكاية الشيخ أبا على ، فأنشد الكلمة فى البيت « أعرافها لايدينا مناديل فأنكرها ابن رفاعة الالبيرى ، وكان من أهل الأدب والمعرفة ، وفى خلقه حدة ، فاستعاد أبا على البيت متثبتا مرتين فى كلتيهما أنشده « أعرافها » فلوى ابن رفاعة عنانه منصرفا وقال « مع هذا يوفد على أمير المؤمنين ، ويتجشم الرحلة لتعظيمه ، وهو لا يقيم وزن بيت شعر مشهور بين الناس لا تغلط الصبيان فيه ؟ والله لاتبعته خطوة » ، فدعاه ابن رماحس وأشار عليه بألا ينصرف ، فلم تجد فيه حيلة ، ولم يحد عن رأيه ، فكتب ابن رماحس الى الحكم يعرفه بما حدث ، ويصف له ما جرى ، ويشكو اليه ابن رفاعة ، فأجابه الحكم على ظهر كتابه « الحمد لله الذى جعل فى بادية من بوادينا من يخطىء وافد أهل العراق الينا ، وابن رفاعة أولى بالرضا عنه من السخط عليه فدعه لشأنه ، وأقدم بالرجل غير منتقص من تكرمته ، فسوف يعليه الاختبار ان شاء الله أو يحطه » .

وكان هذا مسلك الأندلسيين مع العلماء الوافدين عليهم من المشرق ، فانهم كانوا يحاولون أن يكشفوا حقيقة علم هؤلاء الوافدين ، ويختبروا مدى معرفتهم ليزنوا أقدارهم ، ويتبينوا استحقاقهم للأخذ عنهم والثقة بعلمهم ، وقد

استطاع القالى أن يثبت لهم بعد ذلك غزارة علمه باللغة وسعة معرفته وأملى على طلبته كتابه المشهور المسمى « بالأمالى » وتوثقت العلاقة بينه وبين الحكم بن الناصر حتى ندبه للخطابة فى حضرة سفراء القسطنطينية الى قرطبة وأصابه الحصر والعى فلم يستطع المضى فى الخطبة يوم الاحتفال ، وقد مدحه شاعر الأندلس الرمادى بقصيدة مطلعها :

من حاكم بينى وبين عواذلى
الشجو شجوى والعويل عويلى

وفيها يقول فى مدحه :

قسه الى الأعراب تعلم أنه
أولى من الأعراب بالتفضيل
حازت قبائلهم لغات فرقت
فيهم وحاز لغات كل قبيل

فالشرق خال بعده وكأنما
نزل الخراب بربعه المأهول
وكأنه شمس بدت فى أفقنا
وتغيبت عن شرقهم بأفول
يا سيدى هذا ثناء لم أقل
زورا ولا عرضت بالتنويل
من كان يأمل نائلا فأنا امرؤ
لم أرج غير القرب فى تأميلى

وكان والد (١) القالى مولى لعبد الملك بن مروان وكان هذا من أسباب الميل اليه واستدعائه الى قرطبة ، وقد

(١) الجزء الرابع من النفح صفحة ٧٠/٧٥ .

عرف القالى بين الاندلسيين بسعة الاطلاع فى العلم والرواية فسمع الناس منه ، وقرأوا عليه كتب اللغة والأخبار والأمالى ، وله غير كتاب الأمالى كتاب « الممدود والمقصور » وغير ذلك من الكتب القيمة ، وقد ظل فى قرطبة يبث علمه الى وفاته فى سنة ٣٥٦ وقد حضر(١) الى قرطبة فى سنة ٣٣٠ واستوطنها وألف أكثر كتبه بها وأخذ عنه فى الأندلس أبو بكر الزبيدى الأندلسى صاحب « مختصر العين » وكان الزبيدى(٢) اماما فى الأدب ولكنه عرف فضل القالى فمال اليه، واحتفى به ، واستفاد منه ، وأقر له ، وأصله من اشبيلية ، وسكن قرطبة فنال بها جاها عظيما ورياسة ، واستأدبه المستنصر بالله لابنه هشام ثم قدمه الى خطة الشرطة وقد قرأ عليه بعض كتب اللغة وبعض ما ألفه وتوفى الزبيدى سنة ٣٧٩ هـ .

ومن الأندلسيين الذين عرفوا بالدراسات اللغوية أبو بكر بن القوطية الذى ألف كتاب « تصاريف الأفعال » وكتاب المقصور والممدود، وكان ابن القوطية من المؤرخين، وله فى التاريخ كتاب « تاريخ افتتاح الأندلس » وهو يتناول تاريخ الأندلس منذ الفتح حتى نهاية امارة الأمير عبد الله ويرجح البحاثة الأسبانى الأستاذ (٣) « ريبيرا » أن هذا الكتاب مجموعة أخبار رواها ابن القوطية وسجلها بعض تلاميذه ، وهو حفيد لسارة القوطية حفيدة غيطشة ملك القوط قبل لذريق وكانت سارة هذه قد لجأت الى الخليفة الأموى سليمان بن عبد الملك فى دمشق لتشكو اليه ظلامة

---

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان الجزء الأول صفحة ٢٠٤ .

(٢) تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضى صفحة ٨٩/٩٠ .

(٣) الأدب الأندلسى للدكتور أحمد هيكل صفحة ٢٠٨ .

أصابتها ، فكرمها وزوجها من أحد مواليه ، وكان من سلالة هذا المولى الأموى هذا العالم اللغوى المؤرخ .

ومن المؤرخين الأندلسيين الذين ظهروا فى هذه الفترة (١) أحمد بن موسى الرازى وكان يلقب بالتاريخى لكثرة اشتغاله بالتاريخ ، وله فى أخبار ملوك الأندلس وخدمتهم وركبانهم وغزواتهم كتاب كبير ، وألف فى صفة قرطبة وخططها ومنازل العظماء بها وله كتاب فى أنساب مشاهير أهل الأندلس .

واشتهر بكتابة التراجم فى هذه الفترة (٢) أبو عبد الملك ابن عبد البر القرطبى مؤلف كتاب « فقهاء قرطبة » وهو من موالى بنى أمية ، ويقول عنه ابن الفرضى : أنه كان بصيراً بالحديث فقيها نبيلا ، وقد توفى سنة ٣٣٨ سجينا وكان قد اتهم بالاشتراك فى المؤامرة التى دبرها عبد الله بن الخليفة الناصر .

ومنهم (٣) أبو عثمان بن عبد البر الكشكنيانى وقد صنف كتابا عن « الفقهاء والقضاة بقرطبة والأندلس » وقد توفى سنة ٣٦٣ هـ ومنهم (٤) محمد بن الحارث الخشنى ، وأصله من القيروان ، ووفد على الأندلس ، وسمع عن علماء قرطبة ، وهو صاحب كتاب « تاريخ قضاة قرطبة » وقد ترجم فيه لجمهرة من أهل القضاء والعلم فى الأندلس حتى عصره ، وفى الكتاب معلومات قيمة عن الحياة الاجتماعية فى

---

(١) جذوة المقتبس صفحة ١٠٤ .

(٢) تاريخ علماء الأندلس صفحة ٣٨ .

(٣) تاريخ علماء الأندلس صفحة ٤٩ .

(٤) تاريخ علماء الأندلس القسم الثانى صفحة ١١٢ .

تلك البلاد منذ الفتح الى عهد الحكم المستنصر ، وله كتاب آخر عن «أخبار الفقهاء والمحدثين» وتعتبر كتبه من المراجع الدقيقة ؛ لأنه كان يعرف الكثير من شئون القصر ويطلع على العديد من السجلات، وكانت له صلات بالحكام والقواد والقضاة والأدباء ، وتوفى سنة ٣٦١ هـ .

وبرع فى الفقه عديدون وكان أكثرهم من أعلام المذهب المالكي الذى ساد فى الأندلس منهم (١) عبد الله بن محمد بن أبى دليم بن عبد الله ويقول عنه ابن الفرضى: انه كان نبيلا فى الحديث ضابطا لما روى بصيرا بالاعراب ، وقد ولاه المستنصر قضاء البيرة وبجانة وأحكام الشرطة وكانت له منه مكانة وتوفى سنة ٣٥١ .

وهناك فقهاء آخرون نبغوا فى فقه غير الفقه المالكى ومما ساعد على ذلك الحرية الفكرية التى أتيحت للعلماء فى عهد الناصر وابنه الحكم المستنصر ، منهم عثمان بن سعيد الكنانى وكان جامعا للكتب ومعتنيا بالعلم مناظرا على مذهب الامام الشافعى ، وألف كتابا فى شعراء الأندلس وتوفى سنة ٣٢٠ ومنهم أسلم بن عبد العزيز بن هاشم وقد ولى قضاء الجماعة بقرطبة مرتين وتوفى سنة ٣١٩ .

وكانت قد ظهرت البوادر الأولى للتفكير الفلسفى على يد ابن مسرة (٢٧٠ — ٣١٩) (٨٨٣ / ٩٣١) الذى أذاع بين مسلمى أسبانيا مبادىء الفيلسوف اليونانى أنباذوقليس وقد اتهم بالالحاد ففر من البلاد مدعيا أنه يريد الحج وظل خارج اسبانيا حتى تولى عبد الرحمن الناصر الذى اشتهر بالتسامح وتأييد العلماء فعاد اليها وأثر فى

---

(١) تاريخ علماء الأندلس صفحة ٢٣٢ .

تفكير جماعة من الأندلسيين منهم طريف الروطي ورشيد بن محمد .

وكذلك أقبل نفر من الأندلسيين فى عهـد الناصر على دراسة الرياضيات والفلك والطب ، وقد نبغ فيه أعلام من الأندلسيين ، وكانت دراسة الطب موضع عناية النـاس فى الأندلس قبل عهد الناصر ولكنها تقدمت فى عصره .

وكان لشيوع الحرية الفكرية وتشجيع العلماء واكبارهم على اختلاف مذاهبهم تأثير كبير فى هذه النهضـة الثقـافية التى اتسم بها عهد الناصر وخليفته الحـكم المستنصر .

وقد كان من الطبيعى أن يظهر التقدم الحضارى والتوثب الفكرى والنضج العلمى فى الحياة الأدبية بالأندلس ، لأن الأدب يتأثر بمؤثمرات البيئة ويتسم بسماتها ، وكان للاندلسيين ولع بالشـعر ، وشـدة تعلق به ، فالأمراء والخلفاء والقضـاة والوزراء والنحاة واللغويون جميعهم كانوا ينظمون الشعر ، وتجود به قرائحهم فى المراسلات الخاصة وفى حوار الأحاديث اليومية المألوفة وفى مواقف الجد والبطولة وكذلك فى ساعات اللهو والأخذ بنصيب من المتع الدنيوية ، وللأندلسيين أشعار كثيرة فى وصف الرياض ، والاشـادة بجمـال الطبيعـة ، ومجالس الشراب ، ومن كبار ممثلى الدراسـات الأدبيـة والشـعر فى الأندلس فى عصر الخليفة النـاصر ابن عبد ربه (٢٤٦ ـ ٣٢٨ هـ) وابن هانىء الأندلسى (٣٢٦ ـ ٣٦٣) والرمادى (توفى سنة ٤٠٣) وقد عاش ابن عبد ربه قبـل عهد الناصر فقد ولد فى قرطبة سنة ٢٤٦ هـ ونشأ بها ميالا الى العلم والأدب وبرع فى دراسة العلوم العربيـة ، وأجاد الشـعر والكتابة ، وكان واسع الاطلاع غزير المادة سمح القريحة ، وظهرت بوادر شهرته فى عهد الأمير محمد ، وعاصر

ابنيه : الأمير المنذر والأمير عبد الله وامتد به الأجل الى عهد الناصر حتى صار من ألمع شعراء القسم الأول من حياة الناصر وأبرز أدبائه ، وقد نال جاها عريضا عند الأمراء السابقين لعهد الناصر ومدحهم فى قصائده ، وفى عهد الناصر نضج أدبه ، وتوالت مدائحه فى الناصر الى أن نظم فيه أرجوزته المشهورة التى تناولت جميع مغازيه حتى سنة ٣٢٢ هـ ووصف فيها تاريخ كل غزوة ، وهى أشبه ما تكون بالتاريخ المنظوم ، وهو يقول فى مطلعها :

سبحان من لم تحوه أقطار
ولم تكن تدركه الأبصار
ومن عنت لوجهه الوجوه
فما له ند ولا شبيه
سبحانه من خالق قدير
وعالم بخلقه بصير
وأول ليس له ابتداء
وآخر ليس له انتهاء
أوسعنا احسانه وفضله
وعز أن يكون شىء مثله
وجل ان تدركه العيون
أو يحوياه الوهم والظنون

وبعد استيفاء هذه المقدمة يتطرق الى مدح الناصر ووصف مغازيه قائلا :

اقول فى أيام خير الناس
ومن تحلى بالندى والباس

ومن أباد الكفر والنفاقا
وشرد الفتنة والشقاقا

ونحن فى حنادس كالليل
وفتنة مثل غثاء السيل

حتى تولى عابد الرحمن
ذاك الأغر من بنى مروان

مؤيد حكم فى عداته
سيفا يسيل الموت من ظباته

وصبح الملك مع الهلال
فأصبحا ندين فى الجمال

واحتمل التقوى على جبينه
والدين والدنيا على يمينه

قد أشرقت بنوره البلاد
وانقطع التشغيب والفساد

هذا على حين طغى النفاق
واستفحل النكاث والمراق

وضاقت الأرض على سكانها
وأذكت الحرب لظى نيرانها

ونحن فى عشواء مدلهمة
وظلمة ما مثلها من ظلمة

تأخذنا الصيحة كل يوم
فما تلذ مقلة بنوم

وقد نصلى العيد بالنواظر
مخافة من العدو الثائر

حتى أتانا الغوث من ضياء
طبق بين الأرض والسماء
خليفة الله الذى اصطفاه
على جميع الخلق واجتباه

وبعد أن ينوه بمآثر عبد الرحمن ويشيد بكرمه وبطولته وجمعه شمل الأمة وتجديده الملك الذى أخلق ، وتثبيته قواعده ، ينتقل الى وصف غزواته غزوة غزوة مما يجعل لهذه الأرجوزة أهمية خاصة من الناحية التاريخية ، وهى على سلاسة نظمها ودلالته على تمكنه اللغوى وقدرته على النظم ينقصها روعة الشعر ، وقوة الخيال ، وطلاوة الفن ، وفى مستهل حديثه عن عبد الرحمن الناصر فى كتابه المشهور المسمى بالعقد الفريد يقول « ثم ولى الملك القمر الأزهر ، الأسد الغضنفر ، الميمون النقيبة ، المحمود الطريقة سيد الخلفاء ، وأنجب النجباء ، عبد الرحمن بن محمد أمير المؤمنين .. وتولى الملك والأرض جمرة تحتدم ، ونارا تضطرم شقاقا ونفاقا ، فأخمد نيرانها وسكن زلازلها ، وافتتحها عودا كما افتتحها بدءا سميه عبد الرحمن بن معاوية ، رحمه الله ، وقد قلت وقيل فى غزواته كلها أشعار ، قد جالت فى الأمصار ، وشردت فى البلدان ، حتى أتهمت وأنجدت وأعرقت ، ولولا أن الناس مكتفون بما فى أيديهم منها لأعدنا ذكرها أو ذكر بعضها ، ولكننا سنذكر ما سبق الينا من مناقبه التى لم يتقدم اليها متقدم ، ولا أخت لها ولا نظير ، فمن ذلك أول غزوة غزاها ، وهى الغزوة المعروفة بغزوة المنتلون ، افتتح بها سبعين حصنا ، كل حصن منها قد نكلت عنه الطوائف وأعيا على الخلائف وفيها أقول :

قدأوضح الله للاســـلام منهاجـا
والناس قد دخلوا فى الدين أفواجا

وقـــد تزينت الدنيـا لساكنها
كأنما ألبست وشيا وديباجا

يا ابن الخلائف ان المزن لو علمت
نداك ما كان منهـا الماء ثجاجـــا

والحرب لو علمت بأسا تصول به
ما هيجت من حمياك الذى اهتاجا

مات النفاق وأعطى الكفر ذمته
وذلت الخيـل الجاما واسراجا

وأصبح النصر معقودا بألويـة
تطوى المراحل تهجيرا وادلاجـا

أدخلت فى قبة الاسلام مارقة
أخرجتهم من ديار الشرك اخراجا

بجحفل تشرق الأرض الفضاء به
كالبحر يقذف بالأمواج أمواجا

تروق فيه بروق الموت لامعـة
وتســمعون به للرعد أهزاجـا

غادرت فى عقـوتى جيـان ملحمة
أبكيت منها بأرض الشرك أعلاجـا

تملا بك الأرض عدلا مثل ماملئت
جورا وتصبح للمعروف منهاجـــا

يا بدر ظلمتها ويا شمس صبحتها
يا ليث حومتهـــا ان هائج ماجا

ان الخلافة لن ترضى ولا رضيت
حتى عقدت لها فى رأســك التاجا

ويشير الى كلف عبد الرحمن باقامة المبانى والمنشــآت قائلا: «ومن مناقبه أن الملوك لم تزل تبنى على أقدارها، ويقضى عليها بآثارها ، وانه بنى فى المدة القليلة ما لم تبن الخلفاء فى المدة الطويلة ، نعم لم يبق فى القصر الذى فيه مصانع أجداده ومعالم أوليته بنية الا وله فيها أثر محــدث ، اما تزيين أو تجديد ، ومن مناقبه أنه أول من سمى أمير المؤمنين من خلفاء بنى أمية بالأندلس ، ومن مناقبه التى لا أخت لها ولا نظير ، ما أعجز فيه من بعده ، وفات فيه من قبله ، الجود الذى لم يعرف لأحد من أجواد الجاهلية والاسلام الا له ، وقد ذكرت ذلك فى شعرى الذى أقول فيه :

يا ابن الخلائف والعــلا للمعتلى
والجود يعرف فضله للمفضــل

نوهت بالخلفــاء بل أهملتهم
حتى كأن نبيلهم لم ينبــل

أذكرت بل أنسيت ما ذكر الألى
من فعلهم فكأنه لم يفعــل

وأتيت آخرهم وشأوك فائت
للآخرين ومــدرك للأول

الآن سميت الخلافة باسمهــا
كالبــدر يقرن بالسماك الأعزل

تأبى فعالك أن تقــر لآخــر
منهم وجــودك أن يكون لأول

ولابن عبد ربه أشعار كثيرة سماها « الممحصات » وذلك أنه نقض كل قطعة قالها في الصبا والغزل بقطعة في المواعظ والزهد محصها بها كالتوبة منها والندم عليها ، مثال ذلك أنه نظم في صباه الأبيات الآتية وكان بعض من يألفه أزمع على الرحيل في غداة ذكرها ، فأتت السماء في تلك الغداة بمطر حال بينه وبين الرحيل ، فكتب اليه ابن عبد ربه :

هلا ادكرت لبين أنت مبتكر
هيهات يأبى عليك الله والقدر
ما زلت أبكي حذار البين ملتهفا
حتى رثى لي فيك الريح والمطر
يا بردة من حيا مزن على كبد
نيرانها بقليل الشوق تستعر
آليت أن لا أرى شمسا ولا قمرا
حتى أراك فأنت الشمس والقمر

وقد محص هذه القطعة بالأبيات الآتية :

يا عاجزا ليس يعفو حين يقتدر
ولا يقضى له من عيشه وطر
عاين بقلبك ان العين غافلة
عن الحقيقة واعلم أنها سقر
سوداء تزفر من غيظ اذا سعرت
للظالمين فلا تبقى ولا تذر
ان الذين اشتروا دنيا بآخرة
وشقوة بنعيم ساء ما تجروا
يا من تلهى وشيب الرأس يندبه
ماذا الذي بعد شيب الرأس تنتظر

لو لم يكن لك غــير الموت موعظة
لكان فيك عن اللذات مزدجــر
أنت المقــول له ما فات مبتــدئا
هــلا ادكرت لبين أنت مبتــكر

ولابن عبد ربه فى النثر كتابه الشهير المعروف « بالعقد الفريد» جرى فيه على طريقة المشارقة فى فن التأليف الأدبى، وقد جمع فيه الكثير من الرسائل والخطب والقصائد والقصص والأخبار التاريخية ، وتعرض فيه للبــلاغة والنقد والعروض والموسيقى وقد قسم كتابه الى خمسة وعشرين بابا وسمى كل باب باسم حبة من حبات العقد الحقيقى ، وجعل تلك الأبواب فى ترتيبها كحبات العقد المنظوم فى ترتيبه ، والكتاب فى مجموعة مزيج من الأدب والتاريخ والأخبار والطرائف والنوادر والشعر والنثر والحكم والأمثال وأكثر مواد الكتاب تتصــل بالمشرق وتاريخه ، ليس فيه سوى القليل من أخبار الأندلس مما بعث الصاحب بن عباد على أن يقول حينمـــا اطلع على الكتاب « هذه بضاعتنا ردت الينا » ويبدو أن ابن عبد ربه أراد أن ينقل الى مواطنيه فى الأندلس من انتاج الثقافة الأدبية الشرقية ما يغنيهم عن الرجوع الى كثير من الكتب والمراجع ٠

ومن الشــــعراء المشارقة الذين أثروا فى الأدب الأندلسى أبو الطيب المتنبى وقد عاش أبو الطيب خلال عهد النــاصر (ولد سنة ٣٠٣ وتوفى قتيلا سنة ٣٥٤) وقد لقيه بمصر الأديب الأندلسى (١) زكريـــا بن بكر بن أحمد الغســـانى المعروف بابن الأشج ، وأخذ عنه ديوان شعره رواية واذاعه بها ، وتأثير المتنبى ظاهر فى الكثيرين من شعراء الأندلس

---

(١) تاريخ علماء الأندلس صفحة ١٥٢ ٠

المعاصرين والذين جاءوا بعد عهده مثل الرمادى وابن هانيء الأندلسى وابن دارج القسطلى وأبى بكر بن عمار وغيرهم من شعراء الأندلس البارزين .

وقد عاصر المتنبى وعبد الرحمن الناصر الشاعر الأندلسى الشهير بابن هانيء (٣٢٦/٣٦٣) وهو أبو الحسن محمد بن هانيء وكان أبوه هانيء يستوطن أولا احدى قرى شمال افريقية ثم هاجر الى الأندلس حيث ولد له ابنه محمد بمدينة أشبيلية ، وكان والده أديبا شاعرا فنشأ ابنه بين اشبيلية وقرطبة والبيرة نشأة أدبية شعرية ودرس أدب العرب ولغتهم وأشعارهم ونبغ فى الشعر واتصل بصاحب اشبيلية وحظى عنده ، ويقول عنه ابن دحية فى المطرب (١) « كان قبيح الغلو شهير الاستهتار ، ويعلل لنا الفتح بن خاقان سبب خروجه من الأندلس بقوله : زهت به الأندلس وتاهت وحاسنت ببدائعه الأشمس وزاهت فحسد المغرب فيه المشرق، غير أنه ثبت به أكنافها وشمخت عليه أنافها ، وبرئت منه ، وزوى الخير فيها عنه لأنه سلك مسلك المعرى وتجرد من الدين وعرى وأبدى الغلو وتعدى الحق المجلو ، فمجته الأنفس وأزعجته الأندلس » وساءت المقالة فى حق صاحب اشبيلية بسببه ، واتهم بمذهبه ، وبرغم أن الأندلس فى عهد الناصر كانت تتمتع بقسط وافر من الحرية الفكرية الا أن أهل الأندلس بطبيعتهم كانوا أميل الى التشدد فى القضايا التى تمس الدين ، وأشار الوالى على ابن هانيء بالغيبة عن

---

(١) المطرب صفحة ١٩٢ .

(٢) المطمح صفحة ٨٤ .

البلدة ريثما ينسى أمره فبرحها وعمره ٢٧ سـنة الى بلاد المغرب والدولة الفاطمية تهم بالاتجاه الى فتح مصر ، ويبدو أن السبب الحقيقى لخروجه من الأندلس هو اتصاله بالدعوة الفاطمية وقد كان أكثر مدحه لجعفر ويحيى ولدى الملقب بابن الأندلسية ، وكان جعفر واليا على الزاب وكان أخوه مساعدا له وكانا فى تلك الآونة موالين للفاطميين ثم اتصـل بجوهر الصقلى ونمى خبره الى المعز فأعجب به وطلب أن يتوجه اليه وكانت له فيه أشعار قوبلت بالاستحسان والتقدير وانتهت حياته نهاية غامضة قبل أن يصل الى مصر ٠

ومن الشعراء الأندلسيين الذين عاصروا عهد الخلافة الأموية فى الأندلس وتأثروا فى نشـأتهم بالاستقرار والأمن والرخاء الذى أوجده الناصر الرمادى وهـو يوسف بن هـارون الكندى ، وكان كثيرون من شيوخ الأدب فى وقته يقولون «فتح الشعر بكندة وختم بكندة » يعنـون امرأ القيس والمتنبى ويوسـف بن هارون وكانا متعاصرين وقد مدح الرمادى الحكم المستنصر وولى عهده هشاما والرؤساء وعاش الى أيام الفتنة وكان فى زمنه يعد شاعر أهل الأندلس المشهور وهكذا مكن الاستقرار الذى أحدثه عبد الرحمن النـاصر بالأندلس والأمن الذى نشره فى ربوعها الحياة الثقافية من التقـدم والازدهار فوجدت مواهب العـلماء وملكات الفنـانين والأدباء مجالا للعمل والتقدم والنماء ٠

عبد الرحمن الناصر
فى حياته الخاصة

كان الناصر فى حياته الخاصة دمث الأخلاق راجح الحلم، وكان على علاء جانبه واستيلاء هيبته يرتاح للشعر ويتبسط الى أهله ، ويراجع من خاطبه به من خاصته ، روى صاحب « كتاب الحدائق » عن أبى بكر اسماعيل بن بدر ــ وكان مولى نعمة لبنى أمية ــ وهو من أهل قرطبة وغلبت عليه صناعة الشعر ، انه خاطب الناصر فى غزاة كان آلى ألا يأنس فيها بمنادمة أحد حتى يفتتح معقلا ، فافتتح معقلا بعد آخر ،وتمادى على عزمه فى العزوف عن المنادمة ٠

فكتب اليه اسماعيل بن بدر(١) :

لقد خلت حميا الراح عندى
وطابت بعد فتحك معقلين

وآذن كل هم بانفراج
وأن يقضى غريم كل دين

فلم يحرك هذا الشعر الناصر ولم يثنه عن عزمه ، فعاوده

---

(١) الجزء الأول من الحلة السيراء صفحة ١٩٩/٢٠٠ ٠

اسماعيل بن بدر بقوله :

يا ملكا رأيه ضياء
في كل خطب الم داج
من لي بيوم به فراغ
ليس أخو حربه بناج
بكل بيضاء من رآها
يحسبها شعلة السراج
لا تنس مولاك في وغاه
واذكره في حومة الهياج

فذكر أن الناصر جاوبه بقوله :

كيف وأنى لمن يناجي
من لوعة الهم ما أناجي
يطمع أن يستريح وقتا
أو يقتل الراح بالمزاج
لو حمل الصخر بعض شجوى
عاد الى رقة الزجاج
كنت لما قد علمت ألهو
اذ أنا مما شكوت ناج
فصرت للبين في علاج
طم وأربى على العلاج
الورد مما يهيج حزني
ويبعث السوسن اهتياجي
أرى ليالي بعد حسن
أقبح من أوجه سماج

لا ترج ممـــا أردت شيئـــا
أو يؤذن الهـم بانفراج

وقد ولى بعده الخلافة ابنه الحكم وهو ابن سبع وأربعين سنة وقيل ابن ثمان وأربعين سنة وقد استغرقت خلافة أبيه الطويلة عمره حتى كان يقول له فيما يحكى عنه :

« لقد طولنا عليك يا أبا العاصى ! »

وكان الحكم حسن السيرة فاضلا عادلا مشغوفا بالعلوم حريصا على اقتناء الكتب القيمة يبعث بها الى الأقطار والبلدان ويبذل فى أعلاقها ودفاترها أنفس الأثمان ، وحملت اليـــه الكتب من كل جهة ، قال عنه المؤرخ الأندلسى ابن حيان (١) « كان من أهل العلم والدين ، راغبا فى جميع العلوم الشرعية من الفقه والحديث وفنون العلم ، باحثا عن الأنساب حريصـا على تأليف قبائل العرب والحاق من درس نسبه أو جهـله بقبيلته التى هو منها ، مستجلبا للعلماء ورواة الحديث من جميع الآفاق ، يشاهد مجالس العلماء ويسمع منهـم ويروى عنهم » .

وكان الحـكم هو بكر أولاد الناصر ، ولذلك رشـحه للخلافة ، وكان له أخ ، هو عبد الله مثله يميل الى العلم والعلماء وكان من نجباء أولاد النـــاصر ، وله تواليف تدل على علمه وفهمه ــ كما يقول ابن الأبار فى الحلة السـيراء ــ وتشـهد بشرف ذاته وكمال أدواته ، منها كتاب « العليل والقتيـــل فى أخبار ولد العباس » انتهى به الى خلافة الراضى بن المقتدر، ومنها « المسكتة فى فضائل بقى بن مخلد » وقال عنه ابن حزم

---

(١) الجزء الثانى من الحلة السيراء صفحة ٢٠١ .

« كان فقيها شافعيا ، شاعرا أخباريا متنسكا ومن شعره ·

أما فؤادي فكاتم ألمه
لو لم يبح ناظرى بما كتمه
ما أوضح السقم فى ملاحظ من
يهوى وان كان كاتما سقمه
ظللت أبكى وظل يعذلنى
من لم يقاس الهوى ولا علمه
اليك عن عاشق بكى أسفا
حبيبه فى الهوى وان ظلمه
ظلت جيوش الأسى تقاتله
مذ نذرت أعين الملاح دمه

وكان ولدا الناصر هذان يتباريان فى طلب العلم وجمعه ويتبادران الى اصطناع أهله والاختصاص برجاله ، وادناء منازلهم والاحسان اليهم ، وكان العالم الأديب الأندلسى الفقيه أحمد بن محمد بن عبد البر وهو من الفقهاء الذين عاشوا فى عهد الناصر ــ من أصحاب عبد الله المختصين به حتى لايكاد يفارقه ، فسعى الى الخليفة الناصر بابنه عبد الله ، ورفع عليه أنه يريد خلعه ، ويدعو الى القيام معه ، وانجماعات منطبقات الناس دخلوا فى ذلك معه : وأمنهم على أن يثوروا به فى يوم عيد قد اقترب اليه ·

ولما علم الناصر بذلك أرسل فى الليل من قبض على ولده عبد الله وحبسه ، وألفى عنده فى تلك الليلة الفقيه أحمد بن محمد بن عبد البر وفقيها آخر ــ وهو أحمد بن عبد الله بن العطار كانا بائتين عنده فأخذا وحملا الى الزهراء حاضرة الناصر بأسفل قرطبة فأمر بسجنهما ، وعرف الوزراء

بخبره ولده عبد الله ، وكشف لهم عظيم ما أراد أن يحدثه عليه وعلى المسلمين فيه وتبرأ منه ، وأعلمهم بمسارعته الى القبض عليه ، ووجد أن يسلمه هذين الفقيهين النطفين البائتين عنده ، وقال لهم « ما أعجب الا من مكان ابن العطار عنده ! ما الذى أدخله فى هذا مع غباوته وقلة شره ؟ وأما ابن عبد البر فأنا أعلم أنه الذى زين لهذا العاق ذلك ليكون قاضى الجماعة ، ويأبى الله ذلك » .

فهنأه الوزراء بالسلامة ، ودعوا الله له ، وعزم الناصر على أن يعاقب ابن عبد البر يوم العيد - عيد الأضحى - الذى كان التدبير عليه فيه ، فأصبح ابن عبد البر يوم العيد نفسه ميتا فى السجن ، وأسلم الى أهله فدفن بمقبرة الربض سنة ٣٣٨ ، وتأنى الناصر بابنه عبد الله مديدة الى أن قتله فى آخر سنة ٣٣٨ ، وكان عبد الله هذا يلقب بالزاهد ، وقد أبى الناصر أن يترفق بابنه فكانت خاتمته مثل خاتمة أبى الناصر نفسه ، وكانت الجرائم التى ترتكب ضد أمن الدولة لايتهاون فى أمر المقدم عليها ، وكان على الدوام جزاؤه الاعدام مهما تكن قرابته من ولى الأمر ، وقليل من الأمراء الأمويين من لم تشب ذكراهم ذكرى قتلهم لأحد أبنائهم ، ولم تكن هذه هى المؤامرة الوحيدة التىدبرت لاغتيال الناصر،فان ابن عذارى(١) يحدثنا أنه فى سنة ٣٠٩ هـ أمر الناصر بقتل العاصى بن الامام عبد الله ومحمد بن عبد الجبار بن الامام محمد اذ شهد كل واحد منهما على صاحبه بمطالبته للخلافة ونقض البيعة وكثرا فى ذلك كما(٢) يحدثنا أنه فى سنة ٣٠٧هـ أمر بقتل موسى بن زياد الذى ولى الوزارة فى أيام الامام عبد الله وكثرت مطالبه للناس،وكان يجاهر بكراهية الناصر،ويرفع عليه الى جده

(١) البيان المغرب جزء ٢ صفحة ٢٧٢ .
(٢) البيان المغرب جزء ٢ صفحة ٢٦٢ .

ويغرى الامام عبد الله برجاله فحبسه الناصر ولم يزل محبوسا الى أن أمر بقتله .

وكان الناصر يلين ويعفو في الأمور التي لا تمس أمن الدولة ، ويحدثنا (١) ابن عذارى أن السيدة ابنة الامام عبد الله التي توفيت سنة ٣١٩ هـ كانت نافرت الناصر في أيام حداثته وقبل افضاء الخلافة اليه وطالبته وأدته عند أبيها عبد الله الامير ، فلما ولى الناصر لم تشك في معاقبته لها ومجازاته لسوء معاملتها ، فكان الأمر على خلاف ظنها ، وقرب الناصر مكانها ، ورفع منزلتها ، واختصها في جملة من اختص من أهله وبنات أعمامه حتى صارت أقربهن محلا منه .

ومن أفضاله مع بعض عماله ما رواه المؤرخ الأندلسي حيان ابن خلف وهو أن محمدا بن سعيد المعروف بابن السليم كان قد احتجن أموالا كثيرة خلال تصرفه في كبار الولايات في المدة الطويلة التي عمل بها ، وعلم بذلك الناصر ، فعرض له مرارا في أن يسهمه فيه عن طيب نفس منه ، وهو ملكه ولو شاء لأخذه منه ، ولكن أبى له ذلك كرم طبعه ، فقال في مجلسه يوما « ما بال رجال من خاصتنا توسعوا في دنيانا ، فطفقوا يحتجنون الأموال وهم يرون غليظ مئونتنا في الانفاق على شئوننا التي بقدرتنا عليها صلاح أحوالهم، ورفاهية عيشهم، ويعلمون أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قاسم عماله قسطا من الموازين في أرباحهم في عمالاتهم ، فصيرها في بيت المال وهم من هم وهو من هو ، والأسوة في فعله » .

فسكت ابن السليم عنه ، وخالطه في تعريضه كأنه يعني غيره فازداد الناصر حنقا عليه وغيظا ، فقال له يوما

---

(١) البيان المغرب جزء ٢ صفحة ٣٠٩ .

في بعض مجالسه الخاصة معه وقد أخذ الشراب منه ، وشق تفاحة بسكين في يده « وددت أن أشق هكذا رأس من أعرف له مالا كثيرا غله دوننا ، ولم يسهم لبيت المال منه » .

فطار عقل ابن السليم ، ولم يختلجه الشك في أنه المعنى به ، فقام بين يديه وقال « بلى ، والله ان عندى مالا كثيرا ، وهو دون ظنك فيه ، حطته بالتقتير ، وأعددته للدهر العثور، ولست والله أعطيك منه درهما فما فوقه ورأيك في جميل، الا أن تستحل ، وأعوذ بالله ان تمد يدك اليه بغير جناية مني عليك، فان الأنفس محضرة الشح » .

ولم يكن عند الناصر بينة يدين بها الرجل ، أو حجة يستطيع أن يؤيد بها شبهة غامضة أو اتهام خفي ، فخجل وأطرق وتلا قوله تعالى « ان يسألكموها فيحفكم تبخلوا ويخرج أضغانكم » .

ثم أقبل على ابن السليم يؤنسه ويسكن جأشه الى أن اعتدل مجلسه فجعل يمعن في الشرب طلبا للسكر للذى خامره من الذعر .

فقال له الناصر « خفض عليك يا محمد فلا سبيل اليك » .

وعمل على ازالة ما علق بنفسه وقال له « ليتني أخرج كفافا من شأني معك الليلة تأنيسا باخافة والطافا بجفوة »

ثم أمر له بكسوة .

وأحدثت هذه المعاملة الكريمة والتلطف في المواساة أثرهما في نفس ابن السليم ، فلم تمض أيام حتى أرسل الى الناصر بمائة ألف ، فقبلها الناصر وشكر فضله ،وعوضه بكبير الولاية ، وصحبته منه النعمة العريضة الى حين وفاته .

ويرى لنا (١) ابن عذارى أن الخليفة الناصر جلس يوما مع بعض خاصته وفيهم الوزير ابن جهور ووزيره أبو القاسم لب ، وأراد الناصر أن يمازحهم فقال « يا لب ، اهج الوزير عبد الملك بن جهور » .

فامتنع لب خشية أن يفسد ما بينه وبين الوزير .

فقال الناصر لابن جهور « اهجه أنت اذ أبى هو هجوك » .

فقال ابن جهور « يا أمير المؤمنين أتوقى عرضي منه وأصون نفسي » .

فقال الناصر « فأنا أهجوه » وأنشد :

لب أبو القاسم ذو لحية
طويلة في طولها ميل

والتفت الى ابن جهور قائلا « لا بد لك من تذييل هذا البيت ، ودع الاعتذار »

فقال ابن جهور :

وعرضها ميلان ان كسرت
والعقل مأفون ومدخول

لو انه احتاج الى غسلها
لم يكفه في غسلها النيل

فضحك الناصر ، وقال للشاعر المهجو « انه قد سبب لك القول فقل »

---

(١) البيان المغرب الجزء الثاني صفحة ٢٣٩ .

فقال لب :

قال أمين الله في خلقه
لي لحية ازرى بها الطول

وابن جهير قال قول الذى
ماكله القرطيل والفول

لولا حيائى من امام الهدى
نخست بالمنخس شو

ولما بلغ الى قوله « شو » سكت ، فقال له الناصر « قولوا » .

فقال له لب « انت هجوته يا مولاى » .

والاضحاك عنها يأتى من استعمال (١) لفظتين رومانيتين وهما « شو » و « قولو » واللفظة الاولى تدل على ضمير الملك واللفظة الثانية معناها الردف .

وقد أدت الصلة اللغوية بين العنصرين : العربى والاسبانى في فترة الخلافة الى تسرب مثل هذه الألفاظ الأجنبية الى لغة الشعر .

وكان الناصر مع حسن خلقه ، ومأثور حلمه ، ربما ألمت به في المنادمة وسوسة تكدر ما عرف عنه وما يعتاد منه ، ولما كثرت أقلع عن المنادمة والتزم الزهد ، ومن قبيح ما يروى عنه قصته مع الجارية التى كان يؤثرها ، وكانت عنده بمنزلة حبابة من يزيد فأسرف فى الشراب ذات ليلة وأكثر من تقبيلها ، فأكثرت التضجر والتبرم وقبضت وجهها

---

(١) الأدب الأندلسى للدكتور احمد هيكل صفحة ٢٣٦/٢٣٨ .

وساءه ذلك وأغضبه ولم يستطع كبح جماح نفسه وهو تحت سلطان الشراب ، فأمر ألا يزال وجهها يلثم بألسنة الشمع وهى تستغيث فلا يرحمها حتى هلكت ·

وتركت هذه الحادثة فى نفسه ألما شديدا وندما فأمسك عن الشراب والمنادمة وقد استعان عبد الرحمن الناصر ببعض أقاربه من بنى أمية الذين كان يطمئن اليهم ويثق بولائهم فاختار بعضهم للوزارة وعهد الى بعضهم بقيادة الصوائف ومن هؤلاء عمه أبان ابن الأمير عبد الله فقد قاد الصائفة فى سنة ٣٠٢ هـ وتردد بجيشه فى كوة رية ،ونازل حصونها وحطم زروعها وقطع ثمارها ، وهكذا كان عبد الرحمن يحاول الاستفادة من أصحاب المواهب والكفايات سواء كانوا يمتون اليه بصلة القرابة أو بصلة الولاء أو بحكم العلاقة القديمة بين أسراتهم والأسرة الأموية ومشاركتهم لها فى توطيد مكانتها واعلاء شأنها ، ومن هذا القبيل تقديمه لأفراد من بنى شهيد وبنى حدير وغيرهما من الأسرات التى ارتبط ماضيها بماضى الأسرة الأموية فى الأندلس ·

وفاة
عبد الرحمن الناصر

فى شهر صفر سنة ٣٤٩ هـ كان ابتداء علة الناصر ، وكان سببها برد شديد أصابه ، فأرجف به ، وخيف عليه وأكبت الأطباء على معالجته حتى خفت وطأة المرض قليلا فتحامل على نفسه وتجشم القعود لخاصته فى الأيام العشرة الاولى من جمادى الاولى ، ووصل اليه أكابر الصقالبة مثل مظفر وغيره وأستبشر الناس بما بدا عليه من تحسن حالته وسألوا الله كمال عافيته ، ولبث بعد ذلك أشهرا تشتد به العلة حينا ، وتخف وطأتها حينا ، حتى ضعفت مقاومته ووافاه القدر المحتوم فى شهر رمضان سنة ٣٥٠ هـ (أكتوبر ٩٦١ م) ٠

ووجد بخطه تاريخ قال فيه « أيام السرور التى صفت لى دون تكدير يوم كذا من شهر كذا من سنة كذا ، فعدت تلك الأيام فوجد فيها أربعة عشر يوما ، ويعلق ابن عذارى على ذلك بقوله (١) فاعجب أيها الغافل لهذه الدنيا ، وعدم صفائها ، وبخلها بكمال الأحوال لأوليائها ، ان الخليفة الناصر ملك خمسين سنة وسبعة أشهر وثلاثة أيام ، ولم يصف له من الدنيا الا أربعة عشر يوما ، فسبحان ذى العزة العالية ، والمملكة الباقية ، تبارك اسمه ، وتعالى جده » ٠

(١) الجزء الثانى من ابن عذارى صفحة ٣٤٦ ٠

وهكذا كانت خاتمة الناصر « خلف السعود والمضروب به المثل فى الارتقاء فى الدنيا والصعود » كما (١) يقول المقرى

ومما ينسب اليه من الشعر قوله :

مـــا كل شيء فقـــدت الا
عوضنى الله منـــه شـــيا

انى اذا ما منعت خـــيرى
تباعد الخير من يديـــا

من كان لى نعمة عليـــه
فانهـــا نعمـــة عليـــا

وقد رثاه جعفر بن عثمان المصحفى فقال :

الا ان آيامـــا هفت بامامهـــا
لجائـرة مشـــتطة فى احتكامهـــا

فلم يؤلم الدنيا عظام خطوبها
وأحداثها الا قلوب عظامهـــا

تأمل ! فهل من طالع غير آفل
بهن وهل من قاعد لقيامهـــا

وعاين فهل من عائش برضاعها
من النـــاس الا ميت بفطامها

كأن نفوس الناس كانت بنفسه
فلما توارى أيقنت بحمامها

(١) الجزء الاول من نفح الطيب صفحة ٣٥٦ .

فطار بها بأس الأسى وتقاصرت
يد الصبر عنأعوالها واحتدامها

وقد مات الناصر أعظم ما كان سلطانا ، وأعز ما كان في الدول الاسلامية المعاصرة له مكانا ، بعد أن أتم رسالته ، ووطد لملك بنى أمية فى الأندلس اسمى مكانة ٠

عبد الرحمن الناصر
فى الميزان

وفق الناصر فى استنقاذ الحضارة الأندلسية الاسلامية الزاهرة مما كان يتهددها من الأخطار الداخلية الماحقة ، والأخطار الخارجية الساحقة ، وذلك بفضل سياسته الحازمة ، ومثابرته الدائبة ، وجمعه بين اللين والشدة ، والرحمة والقسوة ، ولبسه لكل حالة ما يلائمها ، وحسن فهمه وتأتيه فى علاج المشكلات التى واجهته ، وقد تدخل بمهارة بارعة فى الخصومات بين الليونيين والقشتاليين والنافاريين واجتهد فى اضعافهم ، ودفع آذاهم عن سلطانه ، ومكن سيطرته عليهم ، وناجز الفاطميين الذين سادوا المغرب وصقلية ، واستطاع أن يضع حدا لمطامع الشيعيين الذين كانوا يتطلعون الى انشاء دولة اسلامية عالمية شاملة واخضاع الناس جميعا للمهدى الظاهر أو المستتر ·

وكان من أسس القوة التىاعتمد عليها الناصر فى توطيد سلطانه وتثبيت مكانته تلافيه ناحية الضعف التى كانت تؤثر فى كيان جيوش الدولة الاموية بالاندلس وهى تكوين تلكالجيوش من قبائل متنافسة تحضر رجالها باعلامها وألويتها ويدينون بالولاء أول ما يدينون لزعماء قبائلهم وسادة بيوتاتهم ، فأنشأ طائفة جديدة من الجند ممتازة مخلصة لشخصه وفية لعهده ،

تدين له بالولاء ، واضاف الى عداد الجيوش جماعات من الموالى الجدد كونها من عناصر مختلفة الأصول ، وهم المسمون بالصقالبة . وكان معظمهم يجلب من أوروبا الوسطى ومن شمال اسبانيا ومن نواحى البلقان وكانوا يربون منذ نعومة اظفارهم فى قصر الخلافة ، وتبذل العناية فى تأهيلهم وتعليمهم وتمهد لهم السبل لاعتلاء المناصب السامية حتى أصبحوا يكونون صفوة رجال الدولة وقادة الجيش ورجال البلاط الخليفى، وكان عددهم يتزايد وثروتهم تعظم ونفوذهم يترامى ويتسع ، حتى كونوا فى المجتمع الاندلسى طبقة بارزة ممتازة .

واضفى الناصر على الاندلس النظام ، وذلل لها سبل الرخاء ، وهيأ لها الاحترام والتقدير بين دول العالم المتحضر في عصره وزاد فى موارد الثروة بتشجيعه الزراعة والتجارة والصناعة والفنون والعلوم والآداب .

وقد حكم الناصر خمسين سنة ويعد من حيث مدة الحكم من اطول امراء المسلمين عهدا ، وقد عرف كيف يفيد من ذلك الحكم الطويل فقد انفق نصفه تقريبا فى اقرار الامن والقضاء على الخارجين ورد مطامع الطامعين ، وعرف بعد ذلك كيف يجنى ثمرة الجهد المبذول ، والعناء الذى احتمله فطابت أيامه الى حد كبير خلال النصف الثانى من حكمه وترامت شهرته فى أنحاء العالم ، وكان الناصر حاكما مطبوعا يعرف كيف يسوس الناس والأمر أمره ، وكيف يستجلب مودتهم ، ويفوز باخلاصهم ، ومناصحتهم ، ولم تفسده السلطة المطلقة ، ولم تصدق فيه تلك الكلمة المشهورة المأثورة عن السياسى العالم المؤرخ البريطانى اللورد أكتون وهى قوله « ان السلطة مفسدة والسلطة المطلقة تفسد افسادا

مطلقا ، ولقد استمتع الناصر فى الجزء الأكبر من حكمه بالسلطة المطلقة فلم تفسده ، وكانت هناته وسقطاته جد قليلة ، فالسلطة المطلقة لم تعصف بعقله ، ولم تخرجه عن الجادة .

ويعد الناصر من الناحية الادارية من أقدر خلفاء الاسلام ، وأعظم الحكام وقد فرضت عليه التجارب القاسية التى مر بها والمشكلات التى تناولها الميل الى جمع مقاليد السلطة جميعها فى يده ، على خلاف ما سار عليه الأمراء الاندلسيون قبله ، فقد امتازت حكومات الاندلس قبل عهده بحرية واسعة يمنحها الامراء لكبار رجال الدولة ولاهل النواحى البعيدة عن العاصمة مما كان يجعل تلك الامارات تشعر دائما بالعزة والاستغلال مع الاكتفاء بأداء الضريبة ، والمشاركة فى امداد الجيش ، وقد رأى الناصر ان هذا الاستغلال من دواعى وقوع الفتن ، وحدوث الثورات والخروج على الطاعة ، وتفكيك وحدة الأمة ، وانه مدعاة لظهور العصبيات القبلية والنعرات الجنسية والعقيدية ، وصمم على أن يقلم أظافر المنتسبين الى البيوتات الكبيرة ، والأسر الارستقراطية ، وتمشيا مع سياسة القضاء على العصبيات استكثر من الصقالبة ، وعنى بتعليمهم وتدريبهم وصقلهم ، وعهد اليهم بالمناصب السامية والقيادات العليا مما أثار عليه حفيظة زعماء العرب والبربر ، وظهرت أثار هذه النقمة فى واقعة الخندق التى لقى فيها الناصر أول هزيمة ساحقة ، ولكن هذه النتيجة لم ترجعه عن عزمه ولم تحمله على تغيير سياسته التى وضع أصولها منذ ولى الحكم ، وقد كان جده الامير عبد الله قد (١) بنى الساباط بين القصر والجامع

---

(١) الجزء الثانى من ابن عذارى صفحة ٢٣٩ .

بمدينة قرطبة رغبة في شهود الجمعة والمحافظة على الصلوات، وكان يقعد فى الساباط قبل صلاة الجمعة وبعدها فيرى الناس ويشرف على أخبارهم وحركاتهم ويسر بجماعاتهم ويسمع قول المتظلم ولا يخفى عليه شيء من أمور الناس وكان يقعد أيضا على بعض أبواب قصره فى أيام معلومة فترفع اليه فيه الظلامات وتصل اليه الكتب على باب حديد قد صنع مشرئبا لذلك ، فلا يتعذر على ضعيف ايصال بطاقته بيده ولا انهاء مظلمة على لسانه ، ولكن الناصر لم يكن راضيا عن هذه السياسة ، وكان يرى انها مضيعة للوقت والجهد وان من الخير أن يفرغ الأمير لكبريات المشكلات ، ويعهد الى رجاله بالنظر فى أمثال هذه الامور ، وهم تحت رقابته من أحسن منهم أبقاه ، ومن أساء عزله أو استبدل به غيره ، ونقله الى عمل آخر .

ولم تحل مهام الحرب ومطالب السياسة دون قيام الناصر بأعمال الانشاء العظيمة ، وفى مقدمتها انشاء مدينة الزهراء أعظم قواعد الاندلس الملوكية وقد بلغت قرطبة فى عصره أوج العظمة والازدهار ، وأصبحت تفوق منافستها فى الشرق بغداد فى البهاء والفخامة .

وقد عنى الناصر باصلاح الاسطول وتجديده واستطاع بذلك السيطرة على مياه اسبانيا الجنوبية الشرقية وان ينازع الفاطميين السيادة فىالشق الغربى منالبحر المتوسط.

وتوطدت فى عهده الاحوال الاقتصادية وامتلأت خزائن الدولة بالاموال وازدهرت الزراعة والتجارة والصناعة وبلغت الجبانة أرقاما مدهشة قدرت بخمسة آلاف ألف وأربعمائة ألف وثمانين ألف دينار ومن السوق والمستخلص سبعمائة ألف وخمسة وستين الف دينار ، هذا عدا أخماس الغنائم

التى لا تحصى ، وقيل انه خلف عند وفاته فى بيوت الاموال ما تبلغ قيمته خمسة آلاف الف دينار (خمسة آلاف مليون) دينار ، وكان يقسم الجباية من أجل النفقة الى ثلاثة أثلاث : ثلث لنفقة الجيش وثلث للبناء والمنشآت العامة وثلث يدخر للطوارىء .

ويقول المؤرخ الكبير راينهارت دوزى(١) : «عبد الرحمن الثالث هو بلا نزاع أعظم أمراء الأمويين الذين حكموا اسبانيا، وقد قاربت منجزاته حد الاعجاز ، فقد وجد البلاد فريسة للفوضى والحرب الداخلية وقد مزقتها الخلافات الحزبية وتقسمتها مئات من صغار زعماء الأجناس المختلفة ومعرضة لغزوات المسيحيين من الشمال ، وعلى شفا أن يستولى عليها الليونيون أو الفاطميون من أفريقية ، وبرغم العقبات الكثيرة استطاع أن ينقذ الأندلس من نفسها ومن السلطة الأجنبية ، ورفعها الى منزلة أسمى وأقوى مما بلغته من قبل ، وكسب لها السلام والرخاء فى الداخل ، والمكانة والاحترام فى الخارج ، وقد وجد الخزينة العامة فى حالة من الفراغ محزنة وتركها غاصة بالمال ، وكان يكفى ثلث الدخل القومى البالغ ٦٫٢٤٥٫٠٠٠ من القطع الذهبية للمصروفات العادية ، وكان يحتفظ بثلث الدخل وينفق الباقى للمنشآت العامة ، وقد قدر أنه فى سنة ٩٥١ م (٣٤٠ هـ) كان فى الخزينة الملكية ما يبلغ عشرين مليونا من القطع الذهبية ، ويؤكد لنا رحالة خبير بالشؤون المالية ان عبد الرحمن والحمدانى (٢) الذى كان يحكم حينذاك بالعراق كانا أغنى أمراء المسلمين فى ذلك

---

(١) اسبانية الاسلامية لدوزى صفحة ٤٤٥/٤٤٦ .

(٢) الحمدانى الذى كان يحكم حينذاك فى العراق هو سيف الدولة والرحالة الذى يشير اليه دوزى هو ابن حوقل .

العهد ، وكانت حالة البلاد متجاوبة مع رخاء الخزينة العامة ، وقد ازدهرت الزراعة والصناعة والتجارة وفنون العلوم ، وقد سر عيني الرحالة رؤية الحقـــول التى أجيد زرعها من كل جانب والتى كانت ترويها المياه على أحدث الطرق العلمية حتى ان الثرى الذى كان يبدو قحلا عقيما صار خصبا ممرعا ، وقد أدهشـــه النظام الكامل المسيطر حتى فى الأماكن التى يتعذر الوصول اليها ، وذلك بفضل رقابة العسس الساهر ، وأثار تعجبه رخص أثمان السلع واللوازم المنزلية (فأشهى الفواكه كانت غاية فيرخص الثمن) والاناقة فى الملابس الغالية وبوجه خاص الارتفاع العام لمستوى المعيشة الذى مكن كل انسان بدون استثناء على وجه التقريب من أن يمتطى صهوة بغـــل بدلا من ان يسعى على قدميه ، وكانت قرطبة والمرية وغيرهما من المدن ، حافلة بمختلف الصناعات ، وقد بلغ تقدم التجارة الى حـــد ان المشرف العام على الجمارك يذكر فى تقريره ان رسوم الوارد والصادر كانت تكون الجزء الأكبر من الدخـــل القومى وكانت قرطبة بسكانها البالغ عددهم نصـــف المليون وبمساجدها ثلاثة الآلاف وقصورها الفخمة ومنازلها البالغ عددها مائة وثلاثين ألف منزل وأرباضها الثمانية والعشرين لا يفوقها فى اتساع الرقعة والفخامة سوى بغداد وهى المدينة التى كان الأندلســـيون يحرصون على الموازنة بينهـــا وبين مدينتهم ، وقد وصلت شهرة قرطبة الى ألمانيا حتى أن الراهبة السكسونية هروسوفيتا التى اشـــتهرت بنظمها فى أواخر القرن العـــاشر أشادت فى قصائدها اللاتينية بمحاسن قرطبة ووصفتها بأنها « جوهرة الدنيا » ، وكانت المدينة المناظرة لها التى بناها عبد الرحمن لا تقل عنها بهاء وروعة ، ولم يترك النـــاصر شيئا يزيد فى بهائها ، وقد صارت قوة عبد الرحمن لا تقاوم ، فالأسطول الذى أنشأه مكنه من أن ينافس الفاطميين

في سيادتهم على البحر المتـوسط ، وامتلاكه لمدينة سـبتة جعل مفتاح موريتانيا في يده ، ومكنه جيشه الحسن النظام — والذى ربما كان احسن جيوش العالم نظاما في تلك الفترة — من أن يكون له الغلبة والتفوق على المسيحيين في الشمال ، وأعظم الملوك كبـرياء سـعوا الى محالفتـه ، وامبراطور القسطنطينية وحكام ألمانيا وفرنسا وايطاليا ارسلوا السفراء الى بلاطه .

وهذه الانجازات عظيمة من غير شك ، ولكن الذى يثير دهشة دارس ذلك العهد الزاهر ويبعث على الاعجاب ليس هو البناء بقدر ما يثيره ويبعثه مشيد البناء نفسه — تثيرهما قوة ذلك العقل المسـتوعب الذى لم يفلت منه شيء والذى كانت سيطرته على التفصيلات لا تقل اثارة للاعجاب عن سيطرته على أسمى التصورات ، وهذا الرجل الأحوذى الحكيم الذى وحد الأمة وقوى موارد ثروتها والذى بما عقد من مخالفات وأجرى من اتفاقات ومعـاهدات أوجد توازنا للقوى ، والذى اتسع تسامحه فكان يدعو الى الاستشارة رجالا يدينون بديانة غير ديانته مثل هذا الرجل أجدر بأن يكون مثالا للحاكم في العصر الحديث أكثر مما هو خليفة في العصر الوسيط » .

ويقول المؤرخ ليفي بروفنسال « عشية اختفى الناصر كان يمكن تقدير العمل العظيم الذى اضطلع به في اتسـاع مداه خـلال الأيام منذ ابتـداء حكمه ، فقد كون من مملكة قرطبة التي كانت لا تنقطع عنها الحـروب الداخلية وتنافس القبائل وتصادم الجنسيات المختلفة بعضها مع بعض في أثناء حكم أسلافه كون منها دولة تنعم بالسلام والثراء والرخاء ولم يتوان في محاربة المسيحيين ، وحافظ بقوة السلاح على أمن حدوده ، ودفع الخطر الفاطمي بصـلابة واقتدار ، ومن ذلك

الحين صارت قرطبة عاصمة اسلامية تنافس القيروان ومدن الشرق العظيمة ، وفاقت العواصم الأخرى الغربية الأوربية ، وحصلت على شـــهرة فى عالم البحر الأبيض لها مكانة كبيرة حتى صارت لا تقـــارن الا بالقسطنطينية ، ولا نزاع فى أن امتداد حكمه الذى تجاوز المألوف كان له فضل فى الوصـــول الى هذه النتائج ، فقد مكنه من أن يتابع خلال عشرات السنين سياسة مو-ـة مطردة قائمة على الارادة الحسنة وعلى الايمان بالسلطة المطلقة ، ولكنها خالية من الاخطاء التى يقع فيهـــا أمراء أقل منه فى المواهب ودونه شعورا بالواجب » ٠

وفى الحكومة التى يتوقف فيها كل شىء على ارادة رجل واحد قد جمع مقاليد السلطة كلها فى يده وصار يفصل فى كل كبيرة وصغيرة وفى بلاط قد امتلأ برجال الحاشية من كبار رجال القصر والصقـــالبة والخصيان والجوارى كان من الممـــكن أن يكثر حوك الدســـائس ، وتنظيم المؤامرات ، واستغلال النفـــوذ ، واساءة استعمال الســـلطة ، ولكن قوة شخصية عبد الرحمن ، وصلابة ارادته ، ومضاء عزيمته ، وشدة يقظته ، حالت دون ذلك وقد انعقد اجماع المؤرخين ورواة الأخبـــار العارفين على أن الناصر كان من أعظم ملوك الاسلام جلالة قدر ، وسمو شأن ، وضـــخامة ملك ، وانه خليق بان يوضع الى جانب أسمى من عرفت الدنيا من الخلفاء والملوك والســـلاطين والاباطرة والقياصرة ، وانه من هـــؤلاء النفر الذين لا يجود الزمان بأمثالهم الا فى الفلتات النادرة والمواقف الحاسمة ٠

مراجع الكتاب

المراجع القديمة :

١ ـ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقرى طبعة المكتبة التجارية وتحقيق الأستاذ محمد محيى الدين عبد الحميد .

٢ ـ ازهار الرياض فى أخبار عياض للمقرى طبعة لجنة النشر والتأليف .

٣ ـ البيان المغرب فى أخبار المغرب لابن عذارى المراكشى طبعة مكتبة صادر ببيروت .

٤ ـ المعجب فى تلخيص أخبار المغرب للمراكشى طبعة مطبعة الاستقامة بالقاهرة .

٥ ـ الحلة السيراء لابن الابار تحقيق الدكتور حسين مؤنس

٦ ـ جذوة المقتبس للحميدى طبعة الدار المصرية للتأليف والترجمة .

٧ ـ تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضى طبعة الدار المصرية للتأليف والترجمة .

٨ ـ الصلة لابن بشكوال طبعة الدار المصرية للتأليف والترجمة .

٩ ـ الجزء الرابع من تاريخ ابن خلدون ٠

١٠ ـ مطمح الانفس للفتح بن خاقان (مطبعة دار السعادة بمصر) ٠

١١ ـ المطرب فى أشـــعار أهـل المغرب لابن دحية المطبعة الأميرية بالقاهرة ٠

١٢ ـ صفة جزيرة الأندلس للحميرى مطبعـة لجنة التأليف والنشر ٠

١٣ ـ المقتبس من أنبـاء أهـل الأندلس لابن خيان وتحقيق الدكتور محمود على مكى طبع لجنة احيـــاء التراث الاسلامى ٠

١٤ ـ مروج الذهب ... المسعودى ٠

المراجع الحديثة : ـ

١ ـ تراجم اســلامية شرقية وأندلســية ـ للأســتاذ عبد الله عنان ٠

٢ ـ تاريخ العرب فى أسبانيا للأستاذ عبد الله عنان ٠

٣ ـ الآثار الأندلسية الباقية فى اســبانيا والبرتغال ـ للأستاذ عبد الله عنان ٠

٤ ـ رحلة الأندلس ـ للدكتور حسين مؤنس ٠

٥ ـ تاريخ الاسلام الســياسى ـ للدكتور حسن ابراهيم حسن ٠

٦ ـ المجمل فى تاريخ الأندلس ـ للأستاذ عبدالحميد العبادى

٧ ـ العرب فى أسبانيا لستانلى لين بول ـ ترجمة الأستاذ على الجارم .

٨ ـ تاريخ الأندلس السياسى والعمرانى والاجتماعى ـ للدكتور على محمد حمودة .

٩ ـ ظهر الاسلام ـ الجزء الثالث ـ للدكتور أحمد أمين .

١٠ ـ الأدب الأندلسى من الفتح الى سقوط الخلافة ـ للدكتور أحمد هيكل .

١١ ـ فى الأدب الأندلسى ـ للدكتور جودت الركابى .

١٢ ـ العرب والحضارة ـ للدكتور على حسنى الخربوطلى .

١٣ ـ قرطبة فى التاريخ الاسلامى ـ للدكتور جودة هلال والأستاذ محمد محمود صبح

١٤ ـ عبيد الله المهدى ـ للأستاذ حسن ابراهيم حسن والأستاذ طه أحمد شرف .

١٥ ـ دراسات فى تاريخ الأدب العربى ـ لاغناطيوس كراتشوكوفسكى .

مراجع أجنبية

(1) Epanish Islam, by Reinhart Dozy.

(2) L'Espagne Musulmane, par E. Levi-Provençal.

(3) The Civilization of Spain, by J.B. Irend.

فهرس

رقم الايداع بدار الكتب ٣١٦٠/١٩٧٢



مطابع الهيئة المصرية العـ

الثمن ١٠ قروش

